

السيد هانى

شاهد على حرب أفغانستان

السيد هانى

شاهد على حرب أفغانستان

شــــــاهد
على حـرب أفغانسـتان

الطبعة العربية الأولى
يوليو ٢٠٠٣

الطبعة الإنجليزية الأولى
تحت الطبع

فاكس : ٢٧٤٩٢٦٣ (٠٠٢٠٢)
ت :٣٥٥٧١٨٣ـ٠١٢(٠٠٢)
E-Mail:
elsayedhany@hotmail.com

* * *

غلاف الكتاب.. تصميم:

د. السـيد الديـب

الإهداء

- إلى والدى العزيز..

الحاج يوسف السيد يوسف

من أعيان البلاشون شرقية..

- وإلى والدتى العزيزة..

أهدى لكما هذا الكتاب.. لعله يعوضكما

بعض القلق الذى شعرتما به أثناء سفرى فى هذه الرحلة..

السيد هاني

محتويات الكتاب

صفحة

- مقدمة ٧
- الفصل الأول: الحدث ٩
- الفصل الثاني: المتهم ١٧
- الفصل الثالث : الطلب الأمريكي والفتوى الأفغانية ٣١
- الفصل الرابع: قصة طالبان ٤٣
- الفصل الخامس: البوابة ٥٩
- الفصل السادس: حوار بعد الصلاة ٦٥
- الفصل السابع: رحلة إلى القبائل ٧٥
- الفصل الثامن: أيام في بيشاور ٩٣
- الفصل التاسع: الحرب.. وردود الفعل ١٠٥
- الفصل العاشر: أزمة مشرف ١١٧
- الفصل الحادي عشر: سيناريوهات متقاطعة ١٣٧
- الفصل الثاني عشر: معركة ٢٠ أكتوبر ١٥٣
- الفصل الثالث عشر: إعدام عبدالحق ١٦٩
- الفصل الرابع عشر: البرنامج النووي.. والأزمة ١٧٩
- الفصل الخامس عشر: السؤال الصعب ١٩٣
- الفصل السادس عشر: المعارضة تزأر ٢١١
- الفصل السابع عشر: حوارات الأزمة ٢٢٧
- الفصل الثامن عشر: حرق المربعات ٢٤٩
- الفصل التاسع عشر: تأشيرة دخول ٢٥٧
- الفصل العشرون: أرض النار والدم ٢٦٣
- الفصل الحادي والعشرون: كابول.. ٨ نوفمبر ٢٠٠١ .... ٢٧٣
- الفصل الثاني والعشرون: سلاح التجويع ٢٩١
- الفصل الثالث والعشرون: فنجان قهوة مع حفيظ الله ٢٩٩
- الفصل الرابع والعشرون: سقوط مزار الشريف ٣٠٩

صفحة

- الفصل الخامس والعشرون: موعد مع الوزير ٣١٧
- الفصل السادس والعشرون: رأيت الموت ٣٣٩
- الفصل السابع والعشرون: سقوط كابول ٣٥٧
- الفصل الثامن والعشرون: تقسيم الكعكة ٣٧٣
- الفصل التاسع والعشرون: قندوز أهم فصول الحرب ٣٨٣
- الفصل الثلاثون: معركة قندهار ٣٩٩
- الفصل الحادى والثلاثون: معركة تورا بورا ٤١١
- الفصل الثانى والثلاثون: الصدمة ٤٢٣
- الفصل الثالث والثلاثون: عبد السلام ضعيف وقصة الإتصالات السرية مع الأمريكيين ٤٢٧
- الفصل الرابع والثلاثون: صعود قرضاى ٤٦٣
- الفصل الخامس والثلاثون: تغطية الإعلام الأمريكى للحرب على أفغانستان ٤٧٧

مقدمة..

هذا الكتاب يروى تجربتى الصحفية كمراسل لجريدة «الجمهورية» أثناء تغطيتى أحداث الحرب التى شنتها الولايات المتحدة الأمريكية على أفغانستان..

وهى تجربة طولها ٦٨ يوما عشتها لحظة بلحظة فى قلب الأحداث.. من بيشاور إلى إسلام آباد وروالبندى فى باكستان.. ومن جلال آباد إلى كابول فى أفغانستان.. ومخيمات وتجمعات سكانية لا إسم لها فى مناطق القبائل التى تنتشر على طول الحدود بين البلدين..

زرت «شبقدر» و«ياكاغوندا» و«متماغولخير».. وبلادا ومناطق لم أسمع عنها من قبل ولاتوجد على أى خريطة فى العالم.. لأنها مازالت مجهولة.

التقيت بإناس يفضلون الموت على الحياة.. أكلت معهم.. واطلقت لحيتى مثلهم.. وارتديت الجلباب والطاقية.. وحملت مثلهم السلاح وأطلقت عشر رصاصات فى الجبل من بندقية كلاشينكوف..

سرت معهم فى المظاهرات وهتفت بأعلى صوتى: «أسامة بن لادن زندباد زندباد.. أمريكا مورداباد مورداباد».. ثم عرفت بعد ذلك أن زندباد معناها: يعيش.. ومورداباد معناها: يموت..

واجهت الموت عدة مرات.. لكننا افترقنا.. بسبب لحظة زمن.. وأحيانا بسبب سنتيمترات قليلة.. أو شهامة رجل أفغانى اسمه: محمد نعيم صافى.. تدخل لإنقاذى بعد إنزالى من السيارة على حدود كابول لإطلاق الرصاص علىّ..!

كان أكثر مايؤلمنى رؤية القنابل والصواريخ الأمريكية وهى تسقط من السماء على منازل الفقراء الأفغان فتهدمها وتقتلهم.. لم أستطع يوما منع القنابل والصواريخ من السقوط.. لكننى فى أحد الأيام ساهمت فى استخراج جثتى عجوزين من تحت الأنقاض فى كابول.. وكانت هذه المساهمة الضئيلة هى أقصى ما استطعت أن أقدمه للشعب الأفغانى..

هناك فى أفغانستان.. عشت الخطر.. وشهدت على الأحداث.. وهذه هى شهادتى أقدمها لكم فى هذا الكتاب..

السيد هانى

الفصل الأول

• الحدث..

«إننا نواجه مرحلة جديدة وخطيــرة من مــــراحل التاريخ الأمريكى..!»

دونالد رامسفيلد

وزير الدفاع الأمريكى.

□ *يمكن القول أن حادث ١١ سبتمبر فتح صفحة جديدة فى تاريخ النظام العالمى.. الذى تتزعمه الولايات المتحدة الأمريكية منذ بداية التسعينيات فى القرن الماضى..*

صفحة.. اكتشف فيها العالم وجود قوة أخرى قادرة على ضرب الولايات المتحدة.. داخل أرضها وتدمير أقوى رموزها.

هذه القوة غامضة.. ومجهولة.. ولايستطيع أحد الإمساك بها.

قوة متخفية.. تظهر فى أى وقت.. وأى مكان..!

قوة أصابت أقوى دولة فى العالم بالرعب.. وحرمت سكانها العيش فى أمان.. أو التنقل بحرية..!

زرعت فى قلوبهم الخوف من ركوب الطائرات.. وارتياد الأبنية المرتفعة التى يتفاخرون بها.

بل حرمتهم حتى من فتح مراسلاتهم..

وأغلقت برلمانهم..

وجعلت رئيسهم يفر من مقر إقامته.. ونائبه يختفى عدة أيام فى مكان غير معلوم..!

قوة ليس لها وطن.. ولاعلم.. ولا مكان على الخريطة السياسية..

قوة استطاعت أن تلحق بالولايات المتحدة خسائر بشرية واقتصادية ما كان يمكن لأقوى جيوش العالم لو خاض حربا ضدها.. أن يلحق بها مثل هذه الخسائر..!

أكثر من ٦ آلاف قتيل سقطوا فى دقائق معدودة.. وسقطت معهم هيبة العسكرية الأمريكية التى ضربت فى معقلها.. فانهار.. واشتعل.. وتصاعدت منه سحب الدخان..!

منظر الضحايا تحت حطام مركز التجارة العالمى والبنتاجون أثار الشفقة فى قلوب الناس.. حتى قلب الرئيس صدام حسين.. فأعلن عن استعداده -لأسباب إنسانية- لتقديم المساعدة إلى الولايات المتحدة الأمريكية فى عمليات الانقاذ وانتشال الضحايا من تحت الأنقاض[1]..!

الخسائر الاقتصادية لهجوم ١١ سبتمبر على الولايات المتحدة امتدت لتشمل مناطق أخرى من العالم.. وقدرت بـ ٣٥٠ مليار دولار حسب تقرير صدر عن إدارة

الشئون الاقتصادية والاجتماعية بالأمم المتحدة يوم ١١ أكتوبر ٢٠٠١.. أى بعد شهر واحد من الهجوم [٢].

الرقم يساوى ٧ أضعاف تكلفة حرب الخليج الثانية..!

نصيب مدينة نيويورك وحدها منه ٦٠ مليار دولار [٣].. منها ٨ مليارات القيمة المالية لمبنى مركز التجارة العالمى.

خسائر شركات التأمين الأمريكية وصلت إلى ٢٥ مليار دولار..

شركات الطيران الأمريكية أصبحت تخسر يوميا ما بين ٢٥٠ إلى ٣٠٠ مليون دولار.. حتى أوشكت على الافلاس.. فقدمت لها الحكومة دعما قدره ١٥ مليار دولار لمساعدتها على الاستمرار فى العمل.. رغم ذلك اضطرت هذه الشركات إلى تسريح ٦٨ ألف موظف كانوا يعملون بها.. من بينهم ٣٠ ألف موظف من شركة بوينج لصناعة الطائرات وحدها [٤].

هناك أيضا ١٠٨ آلاف شخص فقدوا وظائفهم التى كانوا يشغلونها داخل مركز التجارة العالمى نفسه.. فأصبحوا الآن بلا عمل بعد انهيار المبنى.

أسواق المال العالمية أغلقت أبوابها.. وشهدت سوق نيويورك أكبر نسبة هبوط فى أسعار الأسهم منذ الكساد الكبير الذى حدث فى الفترة بين عامى ١٩٢٩ و١٩٣١.

أما سوق لندن فقد بلغت خسائرها ١١٠ مليارات دولار [٥].. وفى اليابان تدخل البنك المركزى ثلاث مرات للحد من الارتفاع الكبير للين أمام الدولار الأمريكى.. خشية أن يؤدى ذلك إلى انخفاض الصادرات اليابانية..!

* * *

الخسائر السياسية للحادث كانت أضخم..

فقد زلزل عرش الزعامة الأمريكية للعالم.. وأسقط «ورقة التوت» التى كانت «تستر» المخابرات المركزية الأمريكية.. حيث فوجئت مثل كل الناس بوقوع الحادث.. وهى التى صدعت العالم من قبل بكثرة الكلام عن إمكاناتها المذهلة التى تجعلها تسمع «دبة النملة» فى أى مكان على ظهر الأرض.. وتعرف ماركات الملابس الداخلية للرئيس صدام حسين..!

بل أظهر الحادث أيضا عجز مكتب التحقيقات الفيدرالية الأمريكى الذى لم يستطع الإمساك بأية خيوط يمكن أن تساعد على معرفة الجهة الحقيقية المسئولة عن الحادث..!

وجعل وزير الدفاع الأمريكى «دونالد رامسفيلد» يقول: «لقد أصبحنا فى حاجة إلى إحداث تغيير فى قواتنا المسلحة يمكننا من حماية وطننا».

هكذا اعترف وزير دفاع أقوى دولة فى العالم أن هجمات ١١ سبتمبر أثبتت أن الجيش الأمريكى.. أقوى جيوش العالم.. غير قادر على حماية الوطن الأمريكى..!

اعترافـات رامسـفيلد جاءت فى مقـال له نشـر بصحيفة «دى فيليت» الألمانية يـوم ٦ نوفمبر ٢٠٠١.. أنقل منه هذه الفقرات:

«وقعت الولايات المتحدة الأمريكية فى الحادى عشر من شهر سبتمبر ضحية لهجوم وحشى.. لم يكن للمهاجمين قوات مسلحة ولا استراتيجية عسكرية تقليدية.. بل كانـوا أعـداء متخفين ينصب اهتمامهـم على إصابة مواطنينا فى مقـار عملهم أو أماكن سكناهم، ولديهم القدرة على النجاح فى ذلك.

إن الاعتداء الذى حدث لايعتبر أول هجوم مركز.. ومفاجئ.. يحدث فى حرب من نوع جديدة فحسب.. بل جاء أيضا مثل النفير الذى يوقظ الجنود.. وكان أيضا بمثابة إنذار لنا.

إننا نواجه مرحلة جديدة وخطيرة من مراحل التاريخ الأمريكى.. إن حقبة قابلية السقوط بين يدى الأعداء قد حلت محل حقبة ثباتنا التاريخى أمام العدو.. فأصبح من الممكن لأعداء جدد أن يهاجموا مدننا وشعبنا على نحو جديد ومفاجئ.. ودائما مايكون هناك مزيد من الأعداء الذين توصلوا إلى أسلحة بعيدة المدى، وذات قدرات تدميرية تمكنهم من نقل رحى الحرب إلى قلب أمريكا..

إننا نقف -بعد هذه الهجمات- أمام تحديين مهمين: الأول -كسب الحرب التى فرضت علينا وذلك عن طريق القضاء على الشبكات الارهابية التى تهدد شعبنا.. والثانى -استعدادنا للحرب القادمة، وهى حرب لاتختلف اختلافا كبيرا فقط عن حروب القرن الأخير.. بل ستختلف أيضا عن الحرب الفعلية التى تشن ضد الإرهاب.

لقد كان لهجوم الحادى عشر من سبتمبر وقع المفاجأة بالنسبة لنا.. وبكل تأكيد سوف نتعرض خلال العقود القادمة مرارا وتكرارا لمفاجآت.. لقد كان تخطيطنا فى العام الماضى معطلا إلى حد بعيد بسبب ضعف التوقعات -وهى صياغة وضعها أحد مؤرخى بيرل هاربور- أى بسبب هاجس روتينى ينبئ بحدوث أخطار تكون معروفة بالفعل أكثر من كونها متوقعة.

لقد أدركنا بكل ألم أن الأخطار المتوقعة للقرن الجديد ستكون مختلفة تماما عن الأخطار المعروفة فى القرن الماضى.

إن هجوما مثل الذى وقع فى الحادى عشر من سبتمبر لم يكن يخطر على أذهان غالبية الأمريكيين حتى ثمانية أسابيع مضت.. على أن تهديدات أخرى ليست محل تفكير أحد أيضا.. سوف تتحدانا فى العقود القادمة [١] »

* * *

أسباب الهجوم على الولايات المتحدة يوم ١١ سبتمبر كانت واضحة للجميع.. بما فى ذلك الإدارة الأمريكية نفسها.

فهذا الهجوم كان إحدى ثمرات «السياسة العرجاء» التى تتبعها واشنطن فى

نيويورك

ماساشوستس

بوسطن

المنطقة المكبرة

سان فرانسيسكو

لوس انجلوس

(B) (1308 جرينتش) طائرة أمريكية تحمل 64 راكبا من واشنطن الى لوس أنجلوس تصطدم بالبرج الجنوبي من مركز التجارة العالمي

رود أيلاند كونكتيكات

نيويورك

بحيرة ارية

بنسلفانيا

(A) (1250 جرينتش) طائرة تحمل 92 راكبا ترتطم بالبرج الشمالي لمركز التجارة العالمي.

نيوجرسي

أوهايو

بطرسبورج

(D) (1400 جرينتش) طائرة من نيويورك الى سان فرانسسكو تتحطم جنوب شرق بطرسبورج. ويعتقد ان الهدف كان كامب ديفيد. الطائرة تحمل 45 راكبا.

فيلادلفيا

(C) (1330) جرينتش طائرة تحمل 65 راكبا ترتطم بالبنتاجون في واشنطن

ديلاوير

واشنطن

فيرجينيا الغربية

75 ميلا

ميرلاند

فرجينيا

الجمهورية

رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير سمير رجب

٢٤ صفحة ٧٥ قرشا

هجوم بالطائرات.. على أمريكا

ضرب مبنى وزارة الدفاع «البنتاجون»

يوم الجحيم في امريكا

رئيس مجلس الإدارة سمير رجب

رئيس التحرير محمد فودة

الطبعة الثانية

4 طائرات مدنية مخطوفة تهاجم البنتاجون وكامب ديفيد وتدمر برجي مركز التجارة العالمي

اعداد القتلى تتجاوز 10 آلاف والفوضى تعم ... أجهزة الدولة مشلولة

بعد الهجوم الكاسح على واشنطن ونيويورك وبنسلفانيا وكامب ديفيد

أمريكا.. تبكى دماً..!!

١٠ آلاف قتيل..

هجـــرة جماعيـــ

١٠ آلاف قتيـــل و ٥٠ ألف مفقود.. ومئـات الآلاف من المصابين

٤٠٠ مليار دولار.. خسائر مبـ

إخلاء الأمم المتحدة

الانفجارات متتالية ولم يكن أحد يتصورها

١١ مليارات دولار خسائر في بورصة لندن بعد تراجع مؤشرها ٧٪

هبوط في البورصات الأوروبية والآسيوية.. وول ستريت تخسر ١٢٠٠ نقطة

القوات الأمريكية في أعلى حالة تأهب

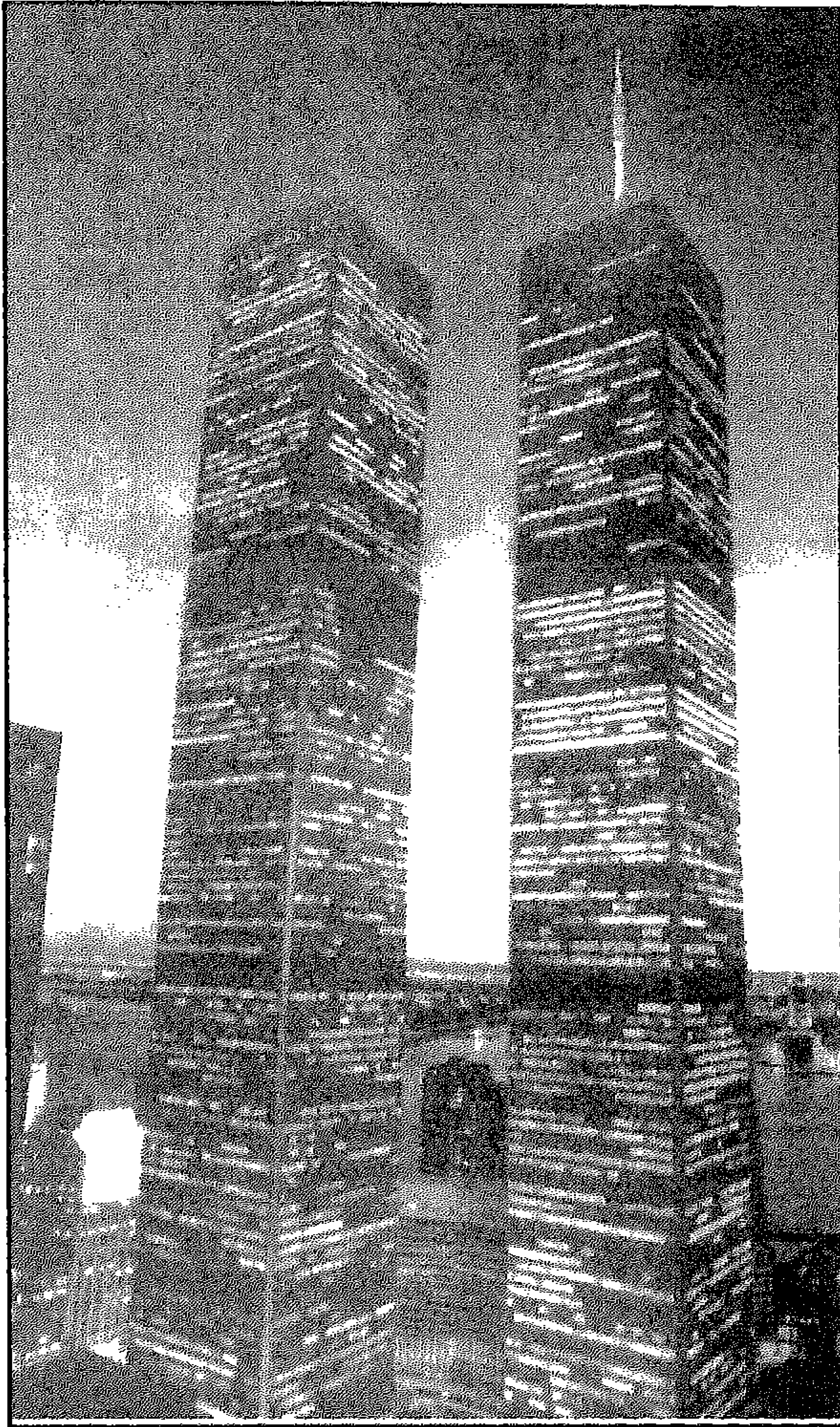
350 مليار دولار كلفة خسائر العالم

بعـــد أحـــداث ١١ ســـبتمبر الأســـود:

٧٥ مليار دولار.. لإنقاذ الاقتصاد الأمريكي!!

مناطق كثيرة من العالم.. خاصة منطقة الشرق الأوسط.. والتى تقوم على الانحياز الكامل لإسرائيل.. والكيل بمكيالين فى تنفيذ قرارات الشرعية الدولية.. والتصرف بأسلوب «غطرسة القوة» مع الكثير من الشعوب العربية والإسلامية.. خاصة الشعبين الفلسطينى والعراقى.

الهجوم جاء أيضا بعد أيام قليلة من انتهاء أعمال مؤتمر «دربان» فى جنوب افريقيا.. والذى استخدمت فيه الولايات المتحدة كل الوسائل الممكنة.. بدءا من انسحاب وفدها من المؤتمر.. وانتهاء بممارسة ضغوط هائلة على كثير من دول العالم -وصلت إلى درجة التهديد- بما فى ذلك دول الاتحاد الأوروبى.. من أجل عدم اصدار قرار من المؤتمر يصف الحركة الصهيونية بالعنصرية..!



برجى مركز التجارة العالمى قبل تدميرهما

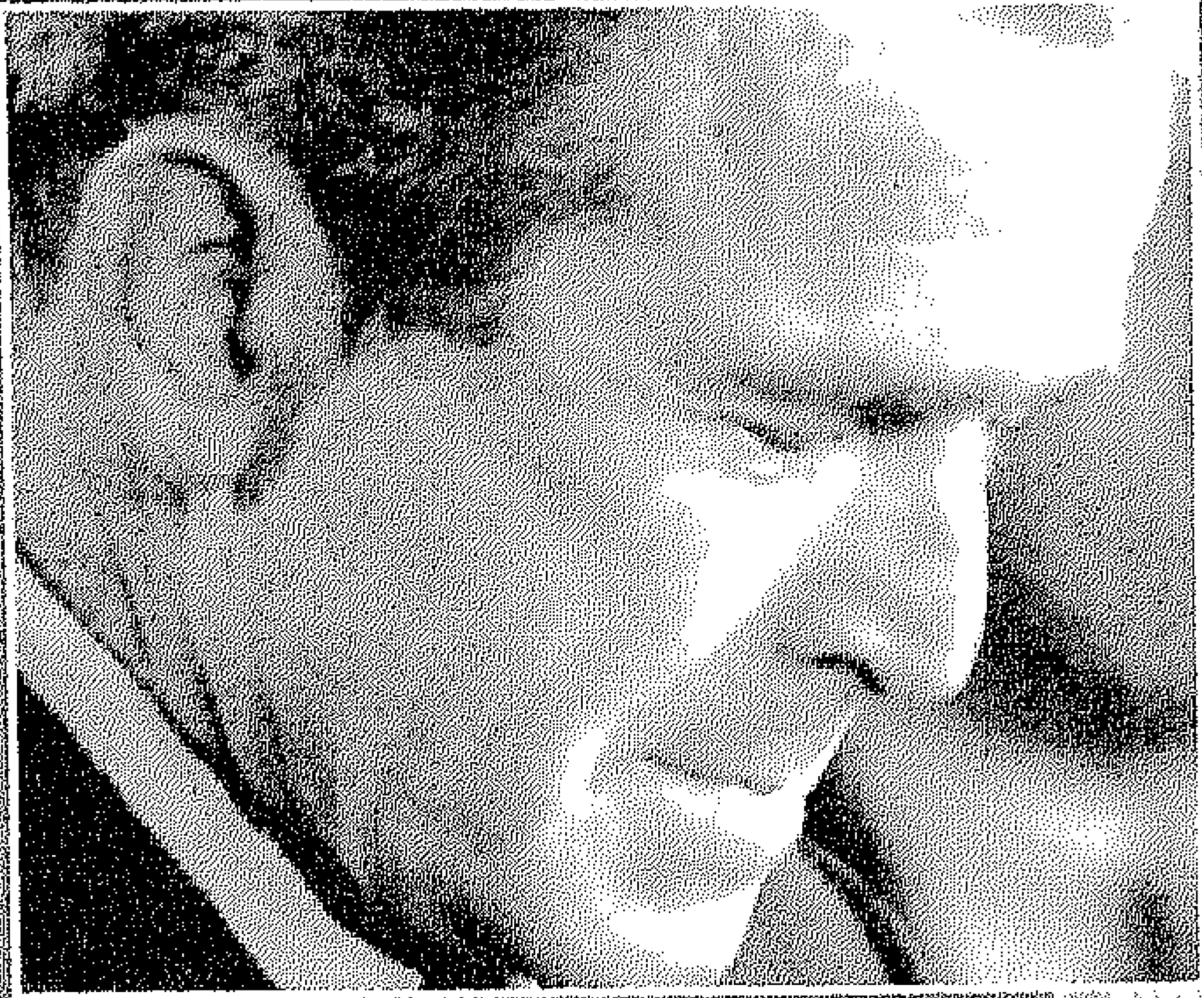
إلا أن الولايات المتحدة لم تشغل نفسها بالتفكير فى الأسباب التى أدت إلى هجوم ١١ سبتمبر، أو الحاجة لمعالجتها لتلافى تكراره مرة أخرى.. وانما بدأت فورا تخطط للانتقام..!!

- الانتقام ممن..؟!

كان هذا هو السؤال الصعب الذى واجه الإدارة الأمريكية فى البداية.. لكنها لم تتوقف أمامه طويلا.. ولم تضيع وقتها فى البحث عن أدلة تقود إلى الجهة الحقيقية المسئولة عن الحادث.. لأنها كانت فى حاجة سريعة إلى «كبش فداء».. تذبحه.. لتفتدى به «كرامتها» التى جرحت تحت أنقاض مركز التجارة العالمى.. و«هيبتها» التى غطاها غبار حطام البنتاجون.

فقررت بسرعة أن يكون «كبش الفداء».. هو:

أسامة بن لادن..!



هكذا اصبح البنتاجون .. رمز القوة العسكرية الامريكيه ..!!

.. وهكذا اصبح مركز التجارة العالمى ..
رمز القوة الإقتصادية الامريكية ..!!

الفصل الثانى

• المتهم..

«عندما تجلس معه.. فإنك
لاتريد مغادرة المكان،
وتتمنى أن تستمر فى
الحديث معه.. لأنه هادئ
للغاية.. وطليق للغاية..»

عبدالله أنس

أحد الأفغان العرب

□ *يعتقد الكثيرون أن الولايات المتحدة الأمريكية هى التى صنعت أسامة بن لادن فى عقد الثمانينيات من القرن الماضى.. ليقود حربا بالوكالة عنها ضد الوجود السوفييتى فى أفغانستان.*

لكنه ينفى ذلك تماما.. ويقول: «إن الأمر لم يزد عن كون مصالحهما تقاطعت - أى تلاقت- فى العمل من أجل إخراج القوات السوفيتية من أفغانستان»[٧].. وهو ما تحقق بالفعل عام ١٩٨٩..

ثم تبدلت بعد ذلك الأوضاع.. وتعارضت المصالح.. فأصبح حليفا الأمس ألد الأعداء..!

وحاولت الولايات المتحدة إخراج بن لادن من أفغانستان كما أخرجت الاتحاد السوفييتى من قبل.. لكنها لم تستطع.. بينما هو استطاع أن يلحق بها أضرارا وخسائر لم تشهد لها مثيلا طوال تاريخها.. فتحول بذلك بن لادن الى «أسطورة» شغلت العالم كله..!

«أسطورة».. ظلت الحديث الأهم لدى معظم وسائل الإعلام العالمية فترة طويلة من الوقت!

والخبر الذى يتصدر نشرات الأخبار فى جميع قنوات تليفزيون العالم..

ومن أجل إلقاء القبض عليه.. تحركت الجيوش والأساطيل.. ونشأت تحالفات عسكرية بين أقوى دول العالم.. وخاضت الولايات المتحدة حربا قدرت تكاليفها بـ ١٠٠ مليار دولار[٨].. أى ضعف تكلفة إنشاء درع الصواريخ الأمريكى..!

كل ذلك من أجل الإمساك به.. حيا أو ميتا..!

فمن يكون هذا الرجل..؟!

* * *

المعلومات المتوفرة عن أسامة بن لادن مخلوطة بمزيج هائل من الشائعات.. والروايات غير المؤكدة.

وهناك كم كبير من الكتابات المتناقضة نشرتها عنه الصحف..

أما الرجل نفسه فهو قليل الكلام جدا.. ليس له مؤلفات تشرح فلسفته ومنهجه.. ولاشيء على الاطلاق سوى مجموعة البيانات التى أصدرها.. والقليل جدا من الأحاديث التليفزيونية..

حتى تاريخ مولده مختلف عليه.. فبعض وسائل الاعلام ذكرت أنه فى عام ١٩٥٤.. وبعضها ذكرت أنه فى عام ١٩٥٥ والبعض الآخر ذكرت أنه فى عام ١٩٥٧..!

أما المعلومات المتفق عليها عنه.. فتقول أنه ولد ونشأ وتربى فى المملكة العربية السعودية.. لأب اسمه «محمد عوض بن لادن».. كان مقاولا مشهورا وثريا.. تزوج العديد من النساء وأنجب منهن ٥٧ ابنا وابنة.. كان ترتيب أسامة بينهم الثالث والاربعين، وبين الذكور الحادى والعشرين.. وكانت أمه سورية.. أما أصول والده فتعود إلى منطقة حضرموت فى اليمن.. حيث هاجر منها إلى مدينة جدة عام ١٩٣٠ وبدأ حياته فيها «حمالا» فى الميناء.. ثم أصبح بعد سنوات قليلة فقط أكبر مقاول فى المملكة العربية السعودية.. السبب كما يقول البعض أن هذا الرجل كان يتمتع بالأمانة الشديدة التى جعلت الجميع يثقون فيه ويقبلون عليه..

كما كانت لديه ملكات اجتماعية متميزة مكنته من القيام بدور اجتماعى بارز والتوسط فى حل الخلافات بين القبائل.. مما جعل الأسرة المالكة فى السعودية تقربه من مجالسها.. بل وتعتمد عليه فى المهام الكبيرة.. ويقال أنه كان واحدا من فريق الحكماء الذين أقنعوا الملك سعود بالتنحى عن الحكم بهدوء لشقيقه الملك فيصل.. وأنه ضمن صرف مرتبات الموظفين فى المملكة بعد مغادرة الملك سعود لمدة ستة أشهر..

وقد قامت شركة محمد بن لادن بالتوسعة الأولى للحرمين.. كما أعادت بناء المسجد الأقصى بعد الحريق الذى تعرض له عام ١٩٦٩..

لذلك يفتخر آل لادن دائما فى أحاديثهم بأنهم تشرفوا ببناء المساجد الثلاثة.. خاصة انهم ايضا الذين قاموا بالتوسعة الثانية للحرمين فى الثمانينات بعد وفاة والدهم فى حادث سقوط طائرة أوائل السبعينيات.. كان يقودها طيار أمريكى!

والذين عرفوا محمد بن لادن قالوا إنه كان رجلا عصاميا.. شديد التواضع.. يعتز بماضيه البسيط وأيام الكفاح الأولى.. إلى درجة أنه احتفظ بـ «القفة» التى كان يستخدمها عندما كان حمالا فى الميناء، وعلقها فى مجلس منزله للافتخار..

نفس هذه الصفات انتقلت إلى ابنه أسامة.. فالمدرس البريطانى «فايفيلد شايلر» الذى علمه اللغة الانجليزية فى مدرسة «الثغر» بمدينة جدة خلال عامى ١٩٦٨ - ١٩٦٩، قال عنه فى حديث لصحيفة «صن» البريطانية[٩]. «كان تلميذا هادئا وخجولا.. يتصرف بشكل طيب، ويؤدى كل عمله فى الوقت المناسب».. «لقد كان لطيفا أكثر من أى شخص آخر فى فصله».. «كان بارزا لأنه كان أطول وأكثر أناقة ووسامة من معظم

الصبية الآخرين.. كان بارزا أيضا لأنه كان مهذبا ومؤدبا بشكل ملحوظ، وكان لديه قدر كبير من الثقة بالنفس.

قال المدرس البريطاني أيضا أنه لايتذكر أن تلميذه السابق أسامة بن لادن كان متدينا بشكل غير عادي.. «كان يوجد في كل فصل طلاب هم دائما أول من يسارعون إلى الصلاة.. ولكنه لم يكن أحدهم».. وأضاف المدرس: «كان أيضا يتميز بكونه كيسا ومهذبا بشكل متفرد، وكان يمتلك قدرا كبيرا من الثقة الداخلية.. وكان أنيقا ودقيقا للغاية، وكان ضميره حيا بشكل كبير.. لقد كنا ندرس أساسيات قواعد اللغة وفقرات الفهم وتمرينات الكتابة، ولكن أكثر شئ كان متميزا فيه هو دراسة شكسبير.. لم تكن هناك أية مشكلات نظامية معه.. وكان يؤدى جميع واجباته في الوقت المطلوب». «لم يكن عنيفا على الإطلاق، بل كان قليل الكلام إلى حد ما.. كان العديد من الطلبة يريدون أن يظهروا مدى براعتهم عندما أطرح عليهم سؤالا.. لكنه عندما كان يعرف الاجابة، لم يكن يستعرض ذلك.. بل كان يظهره فقط إذا ما سألته».

* * *

هذه هي الفترة الأولى في حياة أسامة بن لادن كما وصفها مدرسه البريطاني.

أما الفترة الثانية.. فيمكن القول أنها بدأت بعد وفاة والده.. حيث وجد هذا الفتى السعودى نفسه يرث ثروة طائلة وهو مازال في مقتبل العمر.. قالت مجلة «دير شبيجل» الألمانية[10] : «إن هذه الثروة ٨٠ مليون دولار.. وقالت صحف أخرى أنها ٢٤٠ مليون دولار.. لكن أيا كان الرقم، فقد استمرت الثروة تستثمر في مشاريع المقاولات، بينما كان الفتى يواصل مراحل دراسته.. حتى تخرج في جامعة الملك عبدالعزيز في جدة.. وكان مجال دراسته العلوم الإدارية..

عن هذه الفترة في حياة أسامة بن لادن.. نشرت الصحف روايات لاحصر لها..

– فمجلة «ميد ايست ميرور» قالت إنه كان يستمتع في هذه الفترة برحلات إلى مدينة بيروت.. وأنه كان يحب تناول الخمور.. واشتبك أكثر من مرة في مشاجرات بسبب راقصات الملاهي الليلية..!

– وقالت المجلة إنه استمتع برحلات أخرى من هذا النوع إلى كل من منتجعات سويسرا، ولندن، ومانيلا..!

– وقالت عدة صحف غربية أنه انتهج فكرة الأصولي المتشدد بعد عدة تجارب عاطفية منحرفة..!

لكن أنصاره يدحضون هذه الروايات.. ويقولون إنه تزوج في سن السابعة عشرة من عمره زواجه الأول وعاش حياته كلها مستقيما.. وأنه تأثر في الجامعة بعدد من الشخصيات الدينية التي تركت آثارها على شخصيته.. كما تأثر أيضا بعشرات الحجاج الذين كانوا ينزلون ضيوفا على أسرته كل عام.

* * *



لقطة نادرة لاسامة بن لادن تعود إلى صيف عام ١٩٧١ ..
فى الصورة اسامة « داخل دائرة » بين ٢١ من اخوته الصبيان والبنات ، يقضون اجازة الصيف فى قرية فالون السويدية التى تقع على مسافة ٢٥٠ كم من العاصمة ستوكهولم

وسواء أكان بن لادن قد عاش فترة شبابه الأولى منحرفا أم مستقيما.. فإن كل الآراء تجمع على أن عام ١٩٧٩ كان نقطة التحول الأساسية فى حياته.

ففى هذا العام زحف السوفييت إلى أفغانستان لحماية الحكومة الموالية لهم.. وبدأت المخابرات الأمريكية لعبتها بإذكاء روح المقاومة ضد السوفييت لدى الأفغان والمسلمين.. وتصوير الأمر على أنه جهاد ضد الكفر.. وأن الجهاد فريضة على كل مسلم أن يؤديها للدفاع عن أرض أفغانستان المسلمة ضد هجوم الشيوعيين الكفرة الملحدين.

وقد شاركت بعض الأنظمة العربية ذلك الوقت فى ترويج هذا المفهوم «الأمريكى».. فانتشر بسرعة فى الدول العربية والإسلامية.. وبدأت قوافل المتطوعين من هذه الدول تسافر إلى أفغانستان للجهاد.. وكان أسامة بن لادن أحد هؤلاء المسافرين.

عن ذلك تقول مجلة «دير شبيجل» الألمانية[11]: «قدمت واشنطن دعما للمقاومة الأفغانية يقدر بثلاثة مليارات دولار.. ودعت المسلمين فى جميع أنحاء العالم.. إلى الانضمام للمجاهدين المسلمين.. فتجمع ٣٥ ألف متطوع من ٤٠ دولة فى المعسكرات الواقعة على الحدود بين باكستان وأفغانستان ليتدربوا على استخدام الأسلحة.. فأصبحوا بذلك هم أول قوات مسلمة متعددة الجنسيات فى التاريخ.. وأول «جهاد» يدعم بملايين الدولارات»!

هكذا.. انتقل أسامة بن لادن من حياة الترف والثراء إلى حياة الجبال ومعسكرات التدريب على حمل السلاح.

لكن بعض تقارير الصحافة الغربية تقول إنه لم يحمل السلاح بنفسه، ولم يشترك فى معارك عسكرية.. وان دوره كان يقتصر على رفع معنويات الجنود المنهكين بتقديم الهدايا لهم وتوزيع الحلوى على الجرحى، وإلقاء الخطب النارية ضد الشيوعيين الكفار.. والإشراف على حفر الانفاق الاستراتيجية وبناء مستودعات الأسلحة.

إلا أن أتباع الرجل اكدوا أنه مقاتل جسور.. واستشهدوا على ذلك بقيادته لمجموعة من ٥٠ رجلا تصدت للقوات السوفيتية فى معركة دارت عام ١٩٨٦ بمنطقة اسمها «جاجى» تقع بالقرب من الحدود الباكستانية.. وقد تعرضت هذه المجموعة لقصف شديد وهجمات برية من القوات السوفيتية وقوات الحكومة الأفغانية الموالية لها.. مما دفع المقاتلين الأفغان الى الانسحاب.. بينما استمر بن لادن ومعه ٣٥ من المجاهدين العرب يقاتلون القوات السوفيتية لمدة أسبوعين.

والثابت هو أن الدور الأساسى لابن لادن فى أفغانستان سواء أثناء المعارك ضد السوفييت أو بعدها.. تركز فى التعبئة والتمويل.. وليس فى حمل السلاح.

وقد ساعده على القيام بهذا الدور بكفاءة دراسته العلوم الإدارية فى الجامعة من ناحية ومن ناحية أخرى ثروته التى ورثها عن والده وظل يستثمرها فى الأعمال التجارية حتى بلغت ١,٣ مليار دولار[12].

ولكى يستطيع تعبئة أكبر قدر ممكن من المتطوعين للجهاد ضد السوفييت.. نقل مقر إقامته فى عام ١٩٨٤ من أفغانستان إلى مدينة «بيشاور» الباكستانية الواقعة قرب الحدود الأفغانية.. والتى كانت فى ذلك الوقت مركز نشاط واسع لرجال أجهزة المخابرات الامريكية والباكستانية والفرنسية، الذين كانوا يتنافسون فى العمل على الاستفادة من القضية الافغانية لصالح بلادهم..

فى هذه المدينة.. تمكن بن لادن بسرعة من اكتساب شعبية واسعة بسبب الأموال التى كان يغدقها بكرم على كل من حوله.. وبدأ فى إنشاء «مكتب الخدمات» لجلب وتجنيد المتطوعين للجهاد فى أفغانستان تحت ستار استقدام العمالة للالتحاق بشركات بن لادن.. وقد شاركه فى انشاء هذا المكتب عبدالله عزام -وهو أردنى من أصل فلسطينى.. قالت عنه بعض الصحف الغربية إنه كان واحدا من أكثر المتعاونين مع جهاز المخابرات المركزية الأمريكية.. كما عمل معهما أيضا عبدالله أنس- وهو الاسم الحركى للمواطن الجزائرى «بوعجيمة بونوار» الذى أصبح فيما بعد واحدا من كبار مساعدى القائد الطاجيكى السابق أحمد شاه مسعود.. ثم غادر أفغانستان عائدا إلى الجزائر، وهو الآن يتزعم فيها حزبا سياسيا إسلاميا.. ويصف عبدالله أنس «بن لادن» بقوله: «لقد كان واحدا من أولئك الذين جاءوا للجهاد فى أفغانستان، لكنه بخلاف الآخرين كان يمتلك الكثير من المال.. لم يكن من النوع السياسى البارع، بل هو ناشط لديه أفكار خيالية عظيمة.. وعندما تجلس معه فإنك لاتريد مغادرة المكان، وتتمنى أن تستمر فى الحديث معه لأنه هادئ للغاية وطليق للغاية.. أيضا هو كريم جدا.. يمكنه أن يتنازل لك عن ملابسه ويعطيك كل ماله.. كما أنه شديد التواضع.. لايتناول طعاما كثيرا، ولاينام كثيرا.. وقد رأيته ينام فى دار الضيافة ببيشاور فوق «مخدة» على الأرض[١٣].

* * *


عبدالله عزام

وهناك روايتان لانشاء «مكتب الخدمات»:

- الرواية الأولى لعبدالله أنس.. يقول فيها إن عبدالله عزام هو الذى أنشأ المكتب فى خريف ١٩٨٤، وجمع له التبرعات من دول خارجية شملت الولايات المتحدة الأمريكية.. حيث قام بزيارات الى هذه الدول وألقى فيها خطبا نارية تدعو إلى دعم القضية الأفغانية.. ثم اعجب بن لادن بالفكرة، فالتقطها وأصبح شريكا لعزام فى المكتب ووفر له الدعم المالى وأدار الشئون العسكرية.

– أما الرواية الثانية.. فقد وردت فى تقرير صدر عن وزارة الدفاع الأمريكية فى ٢٠ أغسطس ١٩٩٨ ونشر على شبكة المعلومات العالمية تحت عنوان: «سعودى يدافع عن تدمير الولايات المتحدة.. تقول هذه الرواية[١٤]: إن بن لادن غادر السعودية عام ١٩٧٩ ليحارب السوفييت فى أفغانستان .. وهناك اكتشف بنفسه حاجة البلاد الى العتاد والرجال.. فشرع فى التفكير فى كيفية التعبئة وتجنيد الأشخاص والكفاءات والخبرات، مستفيدا بالطبع من نوعية دراسته للعلوم الإدارية.. والتقى فى بيشاور مع الزعيم الاخوانى الشهير عبدالله عزام.. واتفق الرجلان على انشاء «مكتب الخدمات» لجلب المتطوعين للجهاد تحت مظلة استقدام العمالة للالتحاق بشركات بن لادن.. وتم افتتاح اكثر من ٥٠ فرعا للمكتب فى بلدان عديدة بالعالم، من بينها عدة أفرع داخل الولايات المتحدة نفسها.

قام مكتب الخدمات بنشر اعلانات مدفوعة الأجر فى مختلف صحف العالم يطلب فيها عمالة متنوعة من المؤهلين وغير المؤهلين.. وكان الاقبال الشديد من الشباب على الالتحاق بالعمل خارج الوطن فرصة ذهبية للمكتب لالتقاط وفرز وتصنيف أفضل العناصر المطلوبة للعمل الجهادى.

لقد كانت المواصفات المطلوبة فى الراغبين لشغل الوظائف المعلن عنها أقرب إلى المواصفات العسكرية.. فالعمر المطلوب من ١٨ إلى ٢٤ عاما.. ويفضل من أنهوا الخدمة العسكرية فى بلادهم حتى تكون لديهم خبرة بالأعمال القتالية.. كما كانت اللياقة البدنية شرطا أساسيا..

وبالطبع لم يكن هؤلاء الشباب المتلهفين على الحصول على فرصة عمل بالخارج يعلمون ما يتم إعداده لهم فى محطات الوصول الأولى بباكستان..حيث كان يجرى فرزهم وتصنيفهم على أساس مدى التزامهم الدينى ورغبتهم فى الجهاد وموقفهم من الدول الغربية المعادية للإسلام.. ثم بعد ذلك نقلهم على دفعات إلى أفغانستان..

ويقول تقرير وزارة الدفاع الأمريكية إن عدد الذين استقدمهم أسامة بن لادن عن طريق مكتب الخدمات إلى أفغانستان يزيد على عشرة آلاف من العرب.. نصفهم تقريبا من السعودية، وثلاثة آلاف من الجزائر، وألفان من مصر.. بالإضافة إلى بضعة مئات من اليمن والسودان وسوريا.. وكذلك من عدد آخر من الدول الإسلامية.. وكل هؤلاء تلقوا تدريبات عسكرية مكثفة وخبرة قتالية كبيرة.. و كان من بينهم الأطباء الذين يقومون بعلاج الجرحى والمهندسون الذين يتولون إقامة المنشآت والتحصينات..

* * *

وسواء كانت هذه الرواية صحيحة أو تلك ،فقد كان من الأمور الأساسية المتفق عليها بين أسامة بن لادن وعبدالله عزام هو عدم انحياز هؤلاء المتطوعين إلى صف أى من الفصائل الأفغانية المقاتلة فى خصامها وخلافاتها.. لأن الهدف هو الجهاد

ومساعدة كل الشعب الأفغانى على التحرر من الاحتلال السوفييتى.

لكن الرجلين اختلفا حول مايجب عمله بعد تحقيق هذا الهدف.. فبينما كان عبدالله عزام يرى أنه يجب تركيز الجهود من أجل إنشاء دولة إسلامية قوية فى أفغانستان وهى عملية قد تستغرق عقودا كان بن لادن يرى أن الحرب الأفغانية يمكن خوض حروب مثلها فى العديد من دول العالم..! ويصف عبدالله أنس الخلافات بين الرجلين بأنها كانت سرية للغاية، ولا يمكن أن يعلم بها أكثر من شخصين أو ثلاثة فقط ..

إلا أن الخلافات بينهما استمرت.. وساعد على استمرارها ظهور حالة من الاحباط لدى الشباب المتطوعين الذين كانوا لايؤيدون عزام فى إصراره على أن «مكتب الخدمات» يعمل من أجل القضية الأفغانية فقط.. كانوا يريدون الاستفادة من المكتب فى قضايا بلدانهم الأصلية.. لذلك قال بعض الناس لابن لادن: «عليك أن تفعل شيئا للاستفادة من هؤلاء الشباب بعد أفغانستان فى حروب أخرى».. فأسس فى عام ١٩٨٦ معسكر تدريب خاص به ضم مجموعة خليجية مكونة من ٥٠ شخصا عاشوا فى خيام أقيمت على مقربة من مواقع المقاتلين الأفغان شرق أفغانستان.. وأطلق على هذا المعسكر اسم «المأسدة» أى - عرين الأسد - ..

وفى العام التالى أعلن بن لادن رؤيته الخاصة للجهاد الإسلامى.. حيث قال لأصدقائه: لقد آن الأوان لكى نبدأ جهادا عالميا، أو حربا مقدسة ضد الحكومات العلمانية فى دول الشرق الأوسط الإسلامية وضد القوى الغربية التى تدعم هذه الحكومات».. وقرر بن لادن استخدام معسكره فى أفغانستان لاستقطاب المتطوعين من أنحاء العالم، والذين طالما سعوا لتحقيق أهدافهم فى بلدانهم، ولتهيئتهم ليصبحوا شبكة عالمية.

عن هذه الفترة يقول عبدالله أنس: «.. ومع حلول أواخر الثمانينيات.. كانت بيشاور قد أصبحت منطقة جذب للشباب المسلمين الذين اشتركوا مع بن لادن فى وجهات نظره».. ويتذكر أنس قائلا: «كان بإمكان عشرة أشخاص أن يقيموا دار ضيافة ويبدأوا فى إصدار الفتاوى.. كنا سنقوم بثورات فى عدد من الدول، ولم يكن لهؤلاء أية علاقة بالجهاد الحقيقى فى أفغانستان..»

هكذا.. بدأ يظهر للوجود ما عرف فيما بعد باسم «تنظيم القاعدة»..

أما «مكتب الخدمات» فقد انتهى دوره بحلول فبراير من عام ١٩٨٩ عندما بدأ انسحاب القوات السوفييتية من أفغانستان.. كما انتهى أيضا دور عبدالله عزام، حيث لقى مصرعه فى نفس العام مع اثنين من أبنائه عندما انفجرت سيارتهم وهم فى طريقهم لأداء صلاة الجمعة بأحد مساجد بيشاور..!

* * *

بانتهاء الحرب الافغانية.. كان أسامة بن لادن قد تحول إلى إنسان آخر تماما.. شعر بأنه أنجز مهمته فى أفغانستان فاتجه لتنفيذ مهمة أخرى تشمل العالم بأسره.. وقرر أن يبدأها من وطنه: المملكة السعودية.. فعاد إليها وبدأ فى توجيه انتقادات حادة علنية إلى البلاط الملكى الذى سبق أن أمده بمئات الملايين من الدولارات لدعم الجهاد فى أفغانستان[١٥].

كان الأمير ترك الفيصل رئيس جهاز المخابرات السعودية صديقا حميما لابن لادن.. فأقنعه بالكف عن توجيه هذه الانتقادات.. وهدأت الأمور فترة من الوقت انشغل خلالها بن لادن بزيادة ثروته.. فأسس ٦٠ شركة جديدة فى أنحاء مختلفة من العالم.. وبدأ يعتنى بأطفاله العشرة الذين رزق بهم من ثلاث زوجات مختلفات كلهن ينتمين إلى عائلات ذات أهمية سياسية كبيرة فى السعودية..

لكنه فى نفس الوقت لم يفقد اتصاله بالأفغان.. وكان يلتقى بصفة منتظمة مع رئيس المخابرات الباكستانية فى ذلك الوقت «الجنرال حميد غول» الذى كان على إلمام تام بالوضع داخل أفغانستان، والتطورات المحتملة، وكذلك الحركات الأصولية فى العالم الإسلامى.. وقام بن لادن بانشاء «منظمة خيرية» لرعاية الأفغان العرب الذين أصيبوا بالعجز أثناء المعارك مع السوفييت.. كما قام بنقل حوالى أربعة آلاف من المجاهدين معه من أجل العقيدة والمنتظرين للقيام بمهام جديدة للعمل بشركاته فى السعودية وباكستان والسودان.

* * *

ثم جاء عام ١٩٩٠ الذى كان بمثابة نقطة تحول أخرى فى حياة أسامة بن لادن.. ففى هذا العام وقع الغزو العراقى للكويت.. واستدعت السعودية القوات الأمريكية للتواجد على أراضيها فأثار ذلك انزعاج بن لادن.. وعندما انتهت الحرب واتضح أن الأمريكيين باقون كقوة حماية مستمرة، وأيضا يقومون بحراسة الأماكن المقدسة فى مكة والمدينة.. عندئذ دعا بن لادن علنا إلى مقاومة الحكام السعوديين، واستعان ببعض الفقهاء المتشددين أمثال الشيخ صفر حولى والشيخ سليمان عودة للعمل على إخراج الأمريكيين «الكفار» من الأراضى المقدسة عن طريق الفتاوى الدينية.

لكن الأمريكيين لم يخرجوا.. فكان لابد أن يخرج بن لادن.. وهذا ما حدث بالضبط فى عام ١٩٩٢ عندما قامت الأسرة المالكة فى السعودية بنفيه إلى خارج البلاد.. فاستقر به المقام فى السودان.. فى ضيافة صديقه الحميم الشيخ حسن الترابى الذى كان الحاكم الفعلى للسودان فى ذلك الوقت.. ولأنه مثل بن لادن يكره أمريكا ويريد ايقافها عند حدها.. فلم يعترض على استمرار بن لادن فى جلب المزيد من «الأفغان العرب» إلى السودان وتدريبهم فى معسكرات سرية من أجل القيام بمهام جديدة..!

وحتى تبرئ السعودية نفسها مما يجرى.. قامت بتجريد أسامة بن لادن من الجنسية السعودية عام ١٩٩٤.. ويقال أن جهاز مخابراتها أرسل إلى السودان «كتيبة إعدام» بعلم الولايات المتحدة لاغتيال بن لادن.. لكن هذه الكتيبة منيت بالفشل الذريع.. فى الوقت الذى كان يتباهى فيه بن لادن لأن رجاله لقنوا الأمريكيين فى الصومال درسا قاسيا وقتلوا العديد من جنودهم.. وسحلوا جثة لأحدهم عبر شوارع «مقديشيو» فيما يشبه موكبا للنصر..!

لذلك كان لابد للولايات المتحدة أن تفعل شيئا تسكت به أسامة بن لادن.. لكنها لم تجد ما يمكن أن تفعله سوى ممارسة الضغط السياسى على حكومة السودان لكى تطرد ضيفها.. وهذا الإجراء يعد مثالا واضحا للطريقة الغبية التى تفكر بها الحكومة الامريكية أحيانا.. لأن بن لادن ترك السودان التى كان يمكن مراقبة أنشطته فيها إلى حد ما.. وذهب إلى أفغانستان حيث أصبحت مراقبته فى حكم المستحيل..!! وحيث المكان الأنسب له لكى يعيد بناء تنظيمه العسكرى من جديد.. مستفيدا من صلاته القوية مع الأفغان وخبرته بجغرافيا المنطقة التى عاش فيها من قبل عدة سنوات..!

* * *

هكذا عاد أسامة بن لادن إلى أفغانستان فى أحد أيام شهر مايو عام ١٩٩٦.. ترافقه ٤ زوجات و١٣ من الأبناء وحاشية قوامها عشرات من الأفغان العرب.. على متن طائرة «جيت» مستأجرة هبطت بهم فى مطار مدينة جلال آباد..

كانت حركة طالبان فى ذلك الوقت مازالت فى بداية مشوارها فى الحكم.. وفى حاجة إلى الدعم لكى تتمكن من القضاء على الفصائل المتصارعة معها .. كما كانت فى حاجة إلى إعادة إعمار الدولة وإصلاح البنية الأساسية.. وكان زعيم الحركة الملا محمد عمر قد اتخذ من مدينة «قندهار» -موطنه الأصلى- مقرا للحكم.. فانتقل بن لادن إلى هناك.. ونشأت بين الرجلين صداقة قوية بسبب اتفاق الرؤى بينهما والانسجام التام بين توجهاتهما.. ساعد على توطيد هذه الصداقة تقديم بن لادن الدعم المالى لحركة طالبان ومشاركته لقادتها حياة التقشف والتصوف التى يعيشونها على الرغم من امتلاكه مئات الملايين من الدولارات.

وقيل إنه قدم إحدى بناته لتكون زوجة للملا محمد عمر الذى كان يلقب بأمير المؤمنين.. وبنى منزلا فخما للعائلة الكبيرة.. كما خصص عدة ملايين من الدولارات لإعادة رصف شوارع المدينة وبناء مستشفى بها.

ثم بدأ بن لادن فى إعادة بناء قوته العسكرية.. فجمع جنود طالبان والأفغان العرب معا.. وأنشأ «اللواء السرى ٥٥» واعتمد فى تسليحه على الأسلحة الأمريكية

المتبقية لدى الأفغان منذ أيام الجهاد ضد السوفييت مثل صواريخ «ستينجر» والمدافع والقاذفات وغيرها بالاضافة إلى الدبابات والعربات المصفحة التى كانت باكستان قد قدمتها الى حركة طالبان.. وذكرت بعض التقارير الغربية أنه حاول شراء العناصر المركبة لقنبلة نووية.. كما حاول أيضا عن طريق وسطاء شراء «غواصة» أمريكية حديثة.. لكن هذه المحاولات لم تتم.

بالطبع لم يكن هناك فصل بين قوات بن لادن وقوات طالبان.. وكانت كلها تعتبر جيشا واحدا..

إلا أن نقطة الخلاف الوحيدة بين الرجل والحركة كانت تتعلق بدور هذه القوات..

فحركة طالبان كانت ترى أن هذه القوات وجدت لتدافع عن الإمارة الإسلامية التى أسستها فى أفغانستان والتى تتبع نهجا إسلاميا متشددا.. لكن الحركة لم يكن لديها نية على الاطلاق فى «طلبنة» الدول الأخرى..!

أما بن لادن فكانت لديه خطة جهادية تشمل العالم بأسره.. بدأ الإعداد لها منذ عام ١٩٨٦، وأسس قوته العسكرية التى عرفت فيما بعد باسم «تنظيم القاعدة» وجعل لها فروعا فى عدد كبير من دول العالم.

وحتى لايظهر هذا الخلاف إلى العلن.. اختار بن لادن أن يعلن من خارج أفغانستان.. من مدينة بيشاور الباكستانية فى ٢٣ فبراير عام ١٩٩٨ عن تأسيس جبهته الجهادية التى أسماها «الجبهة الإسلامية الدولية للجهاد ضد اليهود والصليبيين».. وذلك حتى لايتسبب فى «إحراج» حركة طالبان التى كانت تسعى فى ذلك الوقت لاقامة جسور مع المجتمع الدولى من أجل الاعتراف بها كحكومة شرعية فى أفغانستان..

وكان نص الإعلان عن تأسيس الجبهة يتضمن: «إن من واجب كل مسلم قتل الأمريكيين وحلفائهم.. عسكريين كانوا أو مدنيين حيثما أمكن ذلك.. ويسرى هذا حتى يحرر المسجد الأقصى والمسجد الحرام من قبضتهم الحديدية.. وحتى تخرج الجيوش الأمريكية من كل الدول الإسلامية ليكونوا غير قادرين على تهديد أى مسلم».. أما قتل المدنيين الأمريكيين فقد برره بن لادن بأن دفعهم للضرائب يجعلهم مشتركين فى الذنب مع الحكومة.. وقال إنه حتى إذا لقى مسلمون حتفهم من إحدى الهجمات، فإن الأمر يستحق تلك التضحية.. وأنه شخصيا على استعداد لأن يضحى بابنه فى سبيل إتمام مثل هذه الهجمات..!

* * *

فى أغسطس من نفس العام الذى أعلن فيه بن لادن عن تأسيس جبهته الجهادية.. تم نسف سفارتى الولايات المتحدة الأمريكية فى نيروبى ودار السلام، وبلغ عدد

القتلى ٢٦٣ شخصا من بينهم ١٢ أمريكيا فقط.. فكان بن لادن بالطبع هو المتهم الرئيسى.. بل والوحيد.. لأنه سبق أن أعلن بصريح العبارة عن نيته شن هجمات ضد الأمريكيين.. لذلك لم تضع الولايات المتحدة وقتا فى البحث عن الجهة المسئولة عن الحادث، وقامت بتوجيه ٨٠ صاروخا إلى مواقع بن لادن فى أفغانستان والسودان.

لكن الصواريخ لم تصب أهدافها بدقة.. فالتى وجهت إلى افغانستان سقط بعضها فى المنطقة الحدودية مع باكستان وأدى إلى مصرع عدد من الباكستانيين مما أغضب إسلام آباد.. والقليل فقط أصاب معسكرات بن لادن، لكنه وقتذاك كان فى منطقة تبعد مايزيد على مائة كيلو متر من منطقة القصف.. أما الصواريخ التى وجهت إلى السودان فقد دمرت مصنعا للأدوية.. وأحرجت الولايات المتحدة أمام العالم.. فاضطرت بعد ذلك إلى دفع تعويضات للسودان.

هذه النتائج المتواضعة للرد الأمريكى على قصف سفارتيها فى نيروبى ودار السلام.. جعل الولايات المتحدة تشعر بأنها تقف مغلوبة على أمرها فى معركتها ضد أسامة بن لادن وتنظيم القاعدة الذى يتزعمه..

ثم وقع بعد ذلك الهجوم على المدمرة الأمريكية «كول» فى أكتوبر عام ٢٠٠٠ عندما كانت تتزود بالوقود فى ميناء عدن اليمنى.. وراح ضحية هذا الهجوم ١٧ جنديا من قوات البحرية الأمريكية.. بينما لم تستطع الولايات المتحدة أن تصل إلى أى دليل يثبت مسئولية بن لادن عن هذا الهجوم.. ووقفت عاجزة عن الرد..!

لذلك.. عندما قام مجهولون باختطاف أربع طائرات مدنية أمريكية يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١، واستخدموها فى نسف مركز التجارة العالمى بنيويورك ومبنى البنتاجون فى واشنطن فيما يعد أكبر كارثة بشرية واقتصادية تشهدها الولايات المتحدة فى تاريخها.. لم يجهد الأمريكيون أنفسهم فى البحث عن المسئول عن ارتكاب هذا الحادث.. وطالبوا حركة طالبان بتسليم أسامة بن لادن إليهم.. دون مناقشة.. ودون شروط..!!

* * *

الفصل الثالث

• الطلب الأمريكى..
والفتوى الأفغانية..

«إن بن لادن لن يسلم دون تقديم أدلة ملموسة حول تورطه فى الإرهاب.. حتى لو دمرت افغانستان بالكامل..»!..

العلماء الأفغان

□ لم تكن طالبان تستطيع تسليم أسامة بن لادن إلى الولايات المتحدة..!
لأنها والرجل كانا قد أصبحا كيانا واحدا لا يمكن الفصل بينهما..

كانت أمواله بمثابة «الدماء» التى تسرى فى عروق الحركة..
وكانت قواته بمثابة «العضلات» التى تشد جسدها..
فكان تسليمه يعنى تخلي الجسد عن «الدماء والعضلات»..
أى إنتحار الحركة..!
رغم ذلك.. فإن طالبان لم تقل «لا»..
بل دعى زعيمها الملا محمد عمر الولايات المتحدة إلى «الصبر»..
فردت الولايات المتحدة على ذلك بأنها سوف تصبر ثلاثة أيام.. !
فى هذه الأيام الثلاثة حدث تحركان مهمان..

- الأول: إرسال باكستان وفداً برئاسة الجنرال محمود أحمد رئيس جهاز المخابرات الباكستانية إلى قندهار لإقناع قادة طالبان بضرورة تسليم أسامة بن لادن إلى الولايات المتحدة الأمريكية تجنبا لضربة انتقامية.. فلم تقل طالبان «لا» للوفد الباكستانى، وإنما وضعت أربعة شروط لتسليم بن لادن [١٦].. هى:

- تقديم الأدلة التى تثبت مسئوليته عن هجمات ١١ سبتمبر.
- محاكمته فى دولة إسلامية محايدة.
- رفع العقوبات الدولية المفروضة على الحركة.
- وقف المساعدات الخارجية، خاصة العسكرية التى تمنح للمعارضة الأفغانية فى شمال البلاد..

إلا أن رد طالبان على الوفد الباكستانى تم التعتيم عليه إعلاميا.. واختصرته وسائل الإعلام الغربية فى أن طالبان رفضت تسليم بن لادن.. بل وأضافت إليه: إنها أعلنت الجهاد ضد أمريكا..!

عندئذ.. سارعت طالبان بنفى ذلك بشدة على ألسنة المسئولين بها.. وقالت أنها لم تعلن الجهاد بعد، لكنها سوف تعلنه عند بدء العدوان الأمريكى على أفغانستان[١٧]..

كما شرح قادة الحركة لوسائل الإعلام أهمية تقديم الأدلة التى تثبت مسئولية بن لادن حتى يمكن تسليمه.. قال وكيل أحمد متوكل وزير خارجية طالبان: «سنقوم بتسليم بن لادن إذا حصلنا على أدلة راسخة ومقنعة على تورطه.. لكن الولايات المتحدة لم تقدم مثل هذه الأدلة حتى الآن[١٨]..»

– وقال الملا قدرة الله جمال وزير الإعلام والثقافة فى طالبان لمراسل وكالة رويترز «لم نقف إلى جوار المسئول عن هجمات ١١ سبتمبر سواء أكان بن لادن أم غيره[١٩]..» وأضاف: «يعطوننا الدليل على أنه هو الذى فعلها، لأنه بغير هذا الدليل.. كيف لنا أن نسلمه»..!

– بل ذهب الملا عبد السلام ضعيف سفير طالبان فى إسلام آباد إلى القول: «إن حركة طالبان مستعدة للتعاون مع الولايات المتحدة فى التحقيقات لمعرفة المسئول عن الهجمات» [٢٠]..

– وقال عبد الحى مطمئن المتحدث باسم طالبان لرويترز: «مرة أخرى نود القول أن الحادث الراهن فى أمريكا مأساة إنسانية.. ونحن نشعر بالحزن له.. نحن ندينه بشدة ونعارض الإرهاب».. وأكد على أن بن لادن ليس ضالعا فى هجمات ١١ سبتمر.. قال: «كما هى العادة طوال السنتين الماضيتين ليست لابن لادن صلات خارجية.. فالحظر الذى فرضناه عليه مازال ساريا.. ليست لديه إمكانية للوصول إلى فاكس أو تليفون أو أى وسيلة إتصال أخرى».. وناشد «مطمئن» الولايات المتحدة التحلى بالصبر فى تحقيقاتها وعدم القفز إلى استنتاجات.. أضاف: «فى أمريكا ملابسات مثل هذا الحادث.. لا يتعين أن تنسب بعيون مغلقة وبتفكير غير منطقى إلى أى شخص ولا أن يوجه الإتهام إلى أمة بريئة» [٢١]..

* * *

كانت طالبان تحاول بكل الوسائل دفع الاتهام عن نفسها.. وفى نفس الوقت عدم الرضوخ للتهديدات الأمريكية وتسليم بن لادن- الذى ينزل ضيفا عليها- دون الحصول على أدلة تدينه.. لا سيما أن بن لادن هو الذى وقف إلى جوار حركة طالبان وقدم إليها ملايين الدولارات.. فى وقت رفضت فيه الولايات المتحدة الاعتراف بها وحملت المجتمع الدولى على فرض عقوبات عليها..! لذلك كان الموقف ينطوى على شق أخلاقى كبير.. ولعل هذا ما دفع العلماء الأفغان أن يؤكدوا لوكالة فرانس برس: «أن بن لادن لن يسلم دون تقديم أدلة ملموسة حول تورطه فى الإرهاب حتى لو دمرت أفغانسان بالكامل»[٢٢]..!

لكن محاولات طالبان دفع الاتهام عن نفسها فشلت.. كما فشلت أيضا محاولاتها فتح حوار مع واشنطن..

كل هذا كان فى وقت تنقل فيه مانشيتات الصحف وشاشات التليفزيون كل يوم أنباء وصور حاملات الطائرات والأساطيل الأمريكية وهى تتحرك صوب أفغانستان.. وشيراك وبلير يناقشان مع بوش خطة الانتقام وبوش يوقع قرار الحرب..

والكونجرس يعتمد خطة طوارئ تكلفتها ٤٠ مليار ودلار.. ودول العالم تتسابق فى إعلان تأييدها للولايات المتحدة فى الحرب التى تنوى القيام بها ضد أفغانستان.. بما فى ذلك دولة إسلامية كبيرة.. بل إن دولة مثل الفلبين دعت الولايات المتحدة إلى توسيع رقعة الحرب حتى تشمل أراضيها هى نفسها.. من أجل قصف جماعة أبو سياف..!

هذا المناخ الدولى جعل قادة طالبان يشعرون بأن الدائرة تضيق حولهم.. والغيوم تتكاثف فوقهم.. والهجوم الأمريكى واقع على بلادهم لا محالة..!

– لذلك قام الملا محمد عمر بالتحرك الثانى قبل أن تنتهى مدة الثلاثة أيام التى حددتها الولايات المتحدة.. هذا التحرك هو دعوة أكثر من ألف من علماء الدين.. يطلق عليهم مجلس شورى العلماء قدموا من ٣٢ ولاية فى البلاد للاجتماع فى العاصمة كابول من أجل «النظر فى وضع أسامة بن لادن وتقديم النصح لحكومة طالبان بشأن المواقف التى ينبغى اتخاذها فى مواجهة التهديدات الأمريكية بمهاجمة أفغانستان».. هذا بالضبط ما قاله الملا أمير خان متقى وزير التعليم فى حكومة طالبان، والمسئول عن مجلس شورى علماء الدين.. أضاف فى تصريحاته لوكالة الأنباء الإسلامية الأفغانية [٢٣] : «إن هذه الشورى ستقدم النصيحة والفتاوى بشأن كافة نواحى الوضع»و «إن العلماء فقط هم الذين وجهت لهم الدعوة للمشاركة فى اجتماع كابول، إلا أن اجتماعات استشارية مماثلة ستعقد فى الأقاليم يشارك فيها قادة ووجها إلقبائل».. و«إنه إذا ما دعت الضرورة فستتم الدعوة لاجتماع أكبر للوصول إلى قرار يحظى بإجماع بشأن الوضع الذى تواجهه الأمة الأفغانية حاليا..»

وقد استمرت اجتماعات مجلس شورى العلماء فى كابول يومين.. وشارك فيها الملا عمر الذى افتتح الإجتماعات بكلمة قال فيها: «نريد من الولايات المتحدة ان تجمع معلومات كاملة عن الجناة».. «إن طالبان وبن لادن نفيا أى صلة لهما بالهجمات التى تعرضت لها الولايات المتحدة، والمشكلة أن واشنطن لا تريد أن تصدق ذلك».. «إن حركة طالبان تريد تسليم أية أدلة ضد بن لادن إلى المحكمة الأفغانية العليا أو إلى رجال دين من ثلاث دول إسلامية».. «إن النداءات الدولية المطالبة بتسليم بن لادن ما هى إلا ذريعة لتدمير طالبان.. إن أعداء هذا البلد يرون النظام الإسلامى شوكة فى أعينهم ويفتشون عن أعذار مختلفة للقضاء عليه.. وأسامة بن لادن أحد تلك الأعذار»[٢٤]..!

أما النصيحة التى وجهها العلماء الأفغان إلى حكومة طالبان.. فهى العمل على إقناع أسامة بن لادن بمغادرة أفغانستان طواعية عندما يكون ذلك ممكنا..!

وأعربوا عن حزنهم للضحايا الأمريكيين الذين لقوا مصرعهم فى هجمات ١١ سبتمبر على نيويورك وواشنطن.. وطالبوا بإجراء تحقيق مستقل من جانب كل من الأمم المتحدة ومنظمة المؤتمر الإسلامى فى أسباب هذه الهجمات..

كما ناشدوا الولايات المتحدة عدم توجيه ضربات انتقامية لأفغانستان.. وأنه فى حالة حدوث ذلك يصبح الجهاد واجبا حتميا على كل العالم الإسلامى.. قالوا: «إذا تعرض بلد مسلم للغزو، ولم يكن بمقدور هذا البلد الدفاع عن نفسه، فإن الجهاد يصبح واجبا حتميا على كل العالم الإسلامى».. كما انتقد العلماء الأفغان وصف الرئيس بوش للرد الأمريكى بأنه سيكون «حملة صليبية».. واعتبروا أن هذا الوصف فيه «إهانة لمشاعر المسلمين»..

بالطبع كان من الممكن لمثل هذه الفتوى أن تفتح باب الحوار بين واشنطن وقندهار.. خاصة فى ظل ما صدر بعدها من تصريحات عن وزراء.. ومسئولين كبار فى حركة طالبان..

فأحد هؤلاء المسئولين صرح بأن «إقناع بن لادن بمغادرة أفغانستان يحتاج لوقت»..

ووزير التعليم الملا أمير خان متقى المتحدث باسم الحركة صرح بـ «أن الملا محمد عمر زعيم طالبان سيأخذ بفتوى مجلس العلماء بشأن بن لادن، ولكن مغادرة البلاد ستأخذ بعض الوقت.. لأنه لن يغادر أفغانستان مستخدما «تاكسى» يستوقفه من أحد الطرق، بل إنه ولا شك سيختار الوقت الملائم والطريقة المناسبة» [٢٥]..

إلا أن الولايات المتحدة اعتبرت أن ما جاء فى فتوى العلماء لا يرضى المطالب الأمريكية..

وبعد أن كانت تطالب بتسليم أسامة بن لادن فقط.. رفعت سقف مطالبها إلى المطالب الأربعة التالية:

١- تسليم كل قادة تنظيم القاعدة المختبئين داخل الأراضى الأفغانية إلى السلطات الأمريكية المختصة..

٢- الإفراج عن جميع الرعايا الأجانب بمن فيهم المواطنون الأمريكيون الذين تم سجنهم ظلما.. وحماية الصحفيين الأجانب والدبلوماسيين وعمال الإغاثة فى أفغانسان.

٣- إغلاق جميع معسكرات تدريب «الإرهابيين» على الفور وبصورة دائمة فى أفغانستان.. وتسليم جميع «الإرهابيين» وكل شخص يساهم فى تقديم الدعم لها إلى السلطات المختصة..

٤- منح الولايات المتحدة الحرية الكاملة فى الوصول إلى معسكرات تدريب «الإرهابيين» حتى تتأكد من إغلاقها وأنها لم تعد تعمل..

هذه المطالب الأربعة.. جاءت على لسان الرئيس الأمريكى بوش شخصيا فى خطابه أمام الكونجرس يوم ٢١ سبتمبر ٢٠٠١.. الذى قال فيه أيضا: «إن هذه المطالب ليست قابلة للتفاوض أو النقاش.. ينبغى على طالبان أن تتصرف على الفور وأن تستجيب لكل هذ الشروط، وإلا واجهت نفس مصير الإرهابيين..!»

ثم بدأت الولايات المتحدة بعد ذلك إجراء اتصالاتها مع الدول الكبرى للاطمئنان على عدم وجود معارضة لحملتها العسكرية التى قررت القيام بها ضد أفغانستان، والتى أطلقت عليها اسم: «النسر النبيل»..

* * *

فى البداية.. اختلفت ردود فعل هذه الدول إزاء الموقف الأمريكى..

فمصر حذرت من قتل الأبرياء.. وقال الرئيس حسنى مبارك فى حديث أدلى به لمحطة تليفزيون «إن. بى. سى»: «إن إعلان الحرب لا يعنى سوى الدوران فى حلقة مفرغة من الحرب دون انتهاء.. إن عددهم حتى لو كان ٥٠ أو ١٠٠ شخص.. لا يمكن أن نعاقب بشأنهم شعبا كاملا بريئا بأكلمه.. وإن فعلتم ذلك فستجلبون على أنفسكم موجة عارمة من الانتقادات»..

وفى حديث آخر لصحيفة «الفيجارو» الفرنسية- نشر فى ٢٢ سبتمبر ٢٠٠١- قال الرئيس مبارك إن شن هجوم على أفغانستان، أو على دول أخرى مما يطلق عليها الدول المارقة قد يعنى قتل الكثير من الأبرياء، وهو أمر لا يختلف بالمرة عما فعله الإرهابيون على الأراضى الأمريكية حين قتلوا أبرياء..

فى نفس الحديث نصح الرئيس مبارك الأمريكيين بألا يلعبوا نفس لعبة أعدائهم قائلا: «إنهم يترقبون إجراءاتكم القمعية حين ينطلق من بين الدماء والحطام جيل جديد منهم يطالب بالثأر من أمريكا»..

وفى حديث ثالث لمحطة تليفزيون «بى.بى.سى».. قال الرئيس مبارك: «إن ما يمكننى قوله للرئيس الأمريكى جورج بوش هو ألا تتسرع فى الانتقام.. انتظر حتى يظهر دليل دامغ على أولئك الذين ارتكبوا هذه الجريمة، وبعد ذلك يمكن إتخاذ إجراء»، نفس هذه المعانى أكدها الرئيس فى أحاديث أخرى أدلى بها إلى محطة تليفزيون «سى.إن.إن» وصحيفة «واشنطن تايمز» الأمريكية ووكالة «يونايتدبرس» للأنباء.. وغيرها من وسائل الإعلام العالمية..

وقد اتخذت مصر هذا الموقف .. الذى يمكن وصفه بأنه تاريخى .. فى وقت كانت فيه الولايات المتحدة أحوج ما تكون إلى مشاركة.. ولو رمزية من القوات المصرية معها فى حملتها العسكرية على أفغانستان.. لكى تدفع عن نفسها الإتهام بأن حربها ضد الإسلام وليست ضد الإرهاب.. بدعوى أن مصر الدولة الكبرى عربيا وإسلاميا قد شاركت معها فى هذه الحرب..

إلا أن مصر رفضت ذلك تماما.. وقال الرئيس مبارك فى حديثه لصحيفة «الفيجاور» ردا على سؤال عن الشروط التى تحددها مصر للموافقة على الاشتراك فى الحملة العسكرية الأمريكية: «إن جامعة الدول العربية تبيح لأعضائها المشاركة فى أعمال دفاعية فقط.. ولا يحق لى أن أبعث بقوات إلى خارج منطقتنا الإقليمية

إلا دفاعا عن بلادى، أو لمساعدة بلدان تكون مرتبطة فى السابق باتفاقيات دفاعية مع الجامعة العربية»..

بل إن الرئيس مبارك فى حديثه لمحطة تليفزيون «إن. بى.سى» الأمريكية رفض توجيه الاتهام إلى أسامة بن لادن دون ثبوت دليل ضده.. كان سؤال المذيع يقول: «لكن أجهزة المخابرات وسلطات التحقيق فى الولايات المتحدة لا تزال تكرر اسما بعينه.. وهو اسم تعرفونه جيدا.. وهو اسم بن لادن الذى يتخذ من أفغانستان مأوى له..!» وكانت إجابة الرئيس مبارك: «إن كل هذا محض افتراضات.. ولا أريد أن أتهم بن لادن.. ماذا ستفعلون لو ثبت أن تلك الحوادث قد دبرها أمريكيون.. إذن لننتظر ونرى.. ولكن لا تلقوا باتهامات جزافا على العرب أو المسلمين.. لأن ذلك يثير حفيظة الناس فى الولايات المتحدة الأمريكية ويثير مواطنيها من أصل عربى»..

* * *

عدد آخر من زعماء العالم دعا الولايات المتحدة أيضا للتريث حتى تظهر نتيجة التحقيقات التى تجريها حول الحادث.. من أبرزهم الرئيس الروسى فلاديمير بوتين الذى طالب الرئيس الأمريكى جورج بوش بتوخى الحذر وعدم الرد بأسلوب قطاع الطرق.. والمستشار الألمانى جيرهارد شرويدر الذى قال: «إن على حلف الأطلنطى ان يحدد أولا ما إذا كانت هجمات ١١ سبتمبر على نيويورك وواشنطن موجهة من خارج الولايات المتحدة أم لا، قبل اتخاذ قرار حول شكل المشاركة العسكرية الألمانية الممكنة فى التحالف الدولى ضد الإرهاب[٢٦]»..

أيضا الرئيس التركى أحمد نجدت سيزار.. رفض الربط بين الإرهاب والإسلام.. والرئيس التركى السابق سليمان ديميريل حذر الإدارة الأمريكية من خطورة تقسيم العالم إلى مسلمين ومسيحيين، وقال : «إذا اعتمدت الولايات المتحدة على مبدأ أنا الأقوى وبالتالى أفعل ما أشاء، فسوف تتحول إلى موقع المذنب بدلا من صاحب الحق»[٢٧]..

كذلك حمزة هاز نائب رئيس إندونيسيا.. حذر الولايات المتحدة من مغبة اتخاذ الإسلام كبش فداء..

* * *

والواقع أن ما أشار له المستشار الألمانى شرويدر من احتمال تورط أمريكيين فى هجمات ١١ سبتمبر لم يأت من فراغ.. ليس فقط بسبب التقنية العالية المطلوب توفيرها لدى المختطفين للقيام بهذه المهمة.. لكن أيضا لأنه من شبه المستحيل تنفيذها بهذا المستوى من الدقة الذى تمت به دون مساعدة من أطقم أرضية تعمل فى أبراج المراقبة.. وهذا ما أكده كثيرون من خبراء الطيران.. وما أكده أيضا واحد بحجم د. هنرى كسينجر وزير الخارجية الأمريكى الأسبق الذى قال إن هذه الهجمات تحتاج إلى تنظيم عال، وأموال ضخمة، وقدرات فنية كبيرة.. وأطقم أرضية تتعاون مع الخاطفين..

هذا الاحتمال تناولته وسائل إعلام كثيرة، بما فيها صحف غربية.. مثل صحيفة «لوموند» الفرنسية التى دعت فى عددها الصادر يوم ١٥ سبتمبر ٢٠٠١ إلى عدم استبعاد احتمال أن يكون هناك عمل منظم من داخل الولايات المتحدة نفسها وراء هجمات ١١ سبتمبر.. وذكّرت الصحيفة فى هذا الصدد بالذهول الذى أصاب الجميع لدى نشر نتائج التحقيق فى حادث الهجوم على مبنى تابع لمكتب التحقيقات الفيدرالى بمدينة «أوكلاهوما» الأمريكية فى ١٩ أبريل عام ١٩٩٥ والذى أسفر عن مصرع ١٦٨ شخصا.. وتبين أن منفذ الهجوم هو أحد الجنود الأمريكيين فى حرب الخليج.. تيموثى ماكفاى..!!

قالت الصحيفة أيضا إن الدهشة عمت الولايات المتحدة الأمريكية عندما اكتشفت أن هناك شبابا أمريكيين ينتمون إلى حركات متطرفة ويكنون مشاعر الكراهية للشعب الأمريكى، وأنهم ثائرون وغاضبون وعلى إستعداد لإهدار دماء مواطنيهم فى مقابل التنفيس عن مشاعر الكبت والغضب التى تعتريهم..

كما أوضحت «لوموند» أن تيموثى ماكفاى الذى تم إعدامه فى ١١ يونيو ٢٠٠١ اقترب من الجماعات اليمينية المتطرفة الموجودة فى الولايات المتحدة واشترك معها فى رفضها للسلطة الفيدرالية.. وأن هذا الرفض قد زاد بعد اقتحام الـ «إف.بى.آى» لمقر طائفة المنشقين فى «أوكو» بولاية تكساس عام ١٩٩٢ مما أسفر عن مصرع ٨٠ شخصا من أعضائها.. وذكّرت الصحيفة بالقلق الذى ساد الإدارة الأمريكية بعد أن كشفت التحقيقات عن وجود جماعة تطلق على نفسها «جماعة الكراهية» تضم أعدادا كبيرة من الشباب، مما دفع الجنرال «لارى جوردون» المكلف بإدارة لجنة التحقيقات إلى القيام بجولة تفقدية فى عدد من القواعد العسكرية الأمريكية فى أوروبا وآسيا لمعرفة المناخ السائد بين الجنود، وما إذا كان هناك أشخاص موالون أو متعاطفون مع هذه الجماعة بين الجنود الأمريكيين!

هناك شكوك قوية أيضا حول تورط الموساد الإسرائيلى فى هجمات ١١ سبتمبر.. منها إلقاء المباحث الفيدرالية الأمريكية القبض على خمسة إسرائيليين أثناء قيامهم بتصوير انهيار مركز التجارة العالمى فى نيويورك وهم يتعانقون ويرقصون فرحا.. فى وقت كان كل من فى الموقع يشعرون بالذعر والحزن الشديد، مما استفز أحد الأمريكيين فقام بإبلاغ مكتب التحقيقات الفيدرالى عنهم.. وبعد القبض عليهم تبين أنهم يعملون فى شركة مملوكة لإسرائيل بضاحية نيوجيرسى القريبة من نيويورك..

الغريب أن هذ الخبر الذى نشرته صحيفة «هاآرتس» الإسرائيلية نفسها- يوم ١٧ سبتمبر ٢٠٠١- كنوع من الاحتجاج على القبض عليهم.. رفضت محطة تليفزيون «سى.إن.إن» إذاعته!

لكن الأهم من ذلك.. هو عدم وجود إسرائيلى واحد من بين الضحايا أو المفقودين فى مركز التجارة العالمى، رغم أن أكثر من ٤ آلاف إسرائيلى يعملون به..!

هذه الحقيقة اكتشفت عند إعداد بيان بعدد المفقودين والضحايا فى الحادث.. وحاول الإسرائيليون نفيها فى البداية بإدعاء أن مصدر هذه «المعلومة» هم جماعة حزب الله فى الجنوب اللبنانى.. لكن أبسط رد على ذلك هو البيان الصادر عن مدينة نيويورك نفسها بعد أسبوع واحد على وقوع الحادث والذى تتضمن أعداد الضحايا والمفقودين من أبناء الدول الأجنبية:

الدولــــــة	عدد الضحايا	عدد المفقودين
أستراليا	٨	٦٩
ببنجلاديش	–	٥٠
البرازيل	–	٣٠
بريطانيا	–	٣٠٠
كندا	٣	٧٥٤٠
الصين	٢	٥١
كولومبيا	–	١٩٩
الأكوادور	–	٣٤
مصر	١	٣
السلفادور	١	٧٢
فنلندا	–	٥٠
ألمانيا	٤	١٠٠
هندوراس	١	–
أندونيسيا	١	١٥١٢
أيرلندا	٣	١٠٠
إيطاليا	٥	–
اليابان	٢	٢٢
لبنان	–	٣
المكسيك	١٦	١٥٠
هولندا	٣	–
الفلبين	٧	٤٢٨
روسيا	–	١٠٠
جنوب أفريقيا	١	٢٤
كوريا الجنوبية	٢	١٦
سويسرا	٨	٢٨٠
تايلاند	–	٣

ويدعم أيضا من احتمالات تورط أمريكيين أو إسرائيليين فى هجمات ١١ سبتمبر على نيويورك وواشنطن.. أن أسامة بن لادن نفسه.. الذى اعتاد التباهى والتفاخر بالعمليات التى ينفذها رجاله.. قد نفى نفيا قاطعا مسئوليته عن هذه الهجمات.. وبعث ببيان إلى وكالة الأنباء الإسلامية الأفغانية يقول فيه[٢٨]:

«إن الولايات المتحدة توجه إلىّ أصابع الاتهام.. لكننى أعلن قطعا أننى لم أقم بذلك»..

«إن أولئك الذين قاموا بذلك إنما قاموا به لخدمة مصالحهم الخاصة»..

«إننى أعيش فى أفغانستان وأنا من أتباع أمير المؤمنين الملا محمد عمر الذى لا يسمح لى بالمشاركة فى مثل هذه الأنشطة»..

«ليس لدى إمكانيات لتنظيم مثل هذه الهجمات بسبب القيود التى يفرضها أمير المؤمنين على إتصالاتى بالخارج»..

إذن.. فالمؤشرات قوية على أن هجمات ١١ سبتمبر تم تدبيرها بواسطة منظمات أمريكية أو إسرائيلية..

كما أنه لا يوجد ثمة دليل يدين أسامة بن لادن.. لكى تطالب الولايات المتحدة بتسليمه إليها..

رغم ذلك.. فإن طالبان قد ذهبت إلى أبعد مدى لتجنب قيام الولايات المتحدة بالهجوم العسكرى على أفغانستان.. بأن أعلنت عن استعدادها لمحاكمة بن لادن بعد تقديم الأدلة التى تدينه..

لكن بدلا من أن تتجاوب معها واشنطن.. أو مع زعماء الدول الإسلامية الذين ناشدوها التريث قبل الشروع فى شن حرب على شعب برئ بأكمله..!

وبدلا من أن تهتم بالبحث عن أدلة قوية تقودها إلى الجهة الحقيقية المسئولة عن الهجمات..

كانت واشنطن مشغولة فى ذلك الوقت بجمع استطلاعات الرأى التى أظهرت المساندة الشعبية الكبيرة للرئيس بوش وخططه لشن هجوم عسكرى على- ما تسميه- بؤر الإرهاب فى العالم.. وتؤيد الحل العسكرى حتى لو كان سيؤدى إلى قتل الآلاف من المدنيين الأبرياء..

كان الرئيس الأمريكى سعيدا للغاية بارتفاع شعبيته بشكل ملحوظ، وتأييد ٨٩٪ من الأمريكيين لطريقة معالجته للأزمة.

هكذا.. يمكن القول أن العمل العسكرى الذى قامت به الولايات المتحدة فى أفغانستان.. والذى أدى إلى تدمير الدولة.. وقتل الآلاف من الأبرياء.. وتشريد الملايين من الأسر.. تم إتخاذ قراره بناء على استطلاعات رأى الشارع الأمريكى وليس بناءً

على أدلة ملموسة أو مقنعة ضد أحد..!!

وهذا يكشف لنا مدى «الفوضى» التى صار إليها الوضع العالمى فى الوقت الراهن..والذى أصبحت القاعدة فيه كما قال الرئيس التركى السابق سليمان ديميريل «أنا الأقوى، فأنا أفعل ما أشاء»..!!

* * *

أما موقف الدول الكبرى الأخرى: روسيا.. الصين.. فرنسا.. بريطانيا.. فقد سارت فى ركب الولايات المتحدة واستطلاعات الرأى الأمريكية.. ولم يكن موقفها أبدا على مستوى المسئولية الدولية التى تقع عليهم كأعضاء دائمين فى مجلس الأمن.. والتى تحتم عليهم العمل من أجل تحقيق العدالة الدولية.. وحماية السلام والأمن الدوليين.. بل أصبحت هذه الدول تأخذ مواقفها إنطلاقا من مصالحها الذاتية الضيقة.. حتى لو كان تحقيق هذه المصالح سيتم على حساب حياة الشعوب الفقيرة.. وتكسير عظام الضعفاء فى هذا العالم..!

لقد مات ما كان يعرف فى الماضى باسم «الضمير العالمى»..!

وحلت «المساومات» محل «المبادئ الدولية»..!

وأصبح الفيتو «كارتا رخيصا» يقايض بأثمان زهيدة..!

* * *

الفصل الرابع

• قصة طالبان..

«إن طالبان حركة معتدلة..
ولا نعتبرها حركة
أصولية»

الرئيس الأمريكى السابق
بيل كلينتون
١٩٩٤

□ *انتهت مدة الثلاثة أيام التى صبرتها الولايات المتحدة الأمريكية على طالبان حتى تقرر ما إذا كانت ستسلم أسامة بن لادن أو تلقى مصير الإرهابيين..*

لم تسلم طالبان بن لادن.. فأعلنت الولايات المتحدة الحرب عليها، ورفعت شعار معنا أم ضدنا.. فاختارت دول العالم أن تكون معها وليست ضدها..!

الشعار الأمريكى كان فى حد ذاته معناه إغلاق باب المناقشة حول مسألة تقديم أدلة ضد بن لادن، وموضوعات أخرى من نوع: العدل.. والتريث.. وانتظار نتائج التحقيقات.. وعدم القفز إلى استنتاجات.. الخ.. قالت واشنطن إن هذا وقت الأفعال لا الأقوال.. وبدأت تعد العدة لذبح كبش الفداء.. أو «الأضحية».. التى قررت أن تفتدى بها كرامتها وهيبتها التى ترنحت أمام العالم ..

* * *

تاريخ هذه «الأضحية» التى تحمل اسم «طالبان» يستحق القراءة.. لاسيما أن الأمريكيين أنفسهم قد ساهموا بدرجة ما فى ظهورها على الساحة الأفغانية .. بل فرحوا بقدومها.. ورحب بها علنا الرئيس الأمريكى كلينتون شخصيا..!

بداية القصة تعود إلى عام ١٩٨٩ عندما قرر السوفييت الانسحاب من أفغانستان.. ففى هذا العام اتخذ الأمريكيون أيضا نفس القرار.. بعد أن رأوا أن مهمتهم هناك - وهى إخراج السوفييت - قد أنجزت..!

الانسحاب السوفيتى.. ثم الانسحاب الأمريكى، أو بمعنى أصح انسحاب رجال المخابرات الأمريكية.. أسقط «المظلة» التى كانت تظلل أعمال القتل فى أفغانستان

بدعوى أنها جهاد فى سبيل الله ..

فتحول أغلب المجاهدين إلى قتلة وسفاحين.. وأخذوا يفتكون ببعضهم البعض فى الصراع على مناطق النفوذ وحقول الأفيون..!

تاريخ هذه الفترة ملىء بالدماء والمجازر.. وسحل الخصوم فى الشوارع وتعليق جثثهم فى الميادين..!

ملىء أيضا بالفساد.. والشذوذ.. واغتصاب النساء والأطفال.. وأعمال البلطجة وقطع الطرق وفرض الإتاوات..!

فى ذلك الوقت لم يتقدم أحد لإصلاح الوضع فى أفغانستان.

وقف الكل يتفرج..!

- فالسوفييت شامتون.

- والأمريكيون اعتبروا أن مهمتهم هناك انتهت، وبدأوا يتجهون إلى منطقة أخرى من العالم.. اسمها: «الخليج العربى».

- حتى الدول العربية الإسلامية التى دعمت من قبل الجهاد الأفغانى.. أصبحت مشغولة بمواجهة من يسمون بـ «الأفغان العرب» الذين استفادوا من خبرتهم القتالية فى أفغانستان، وعادوا إلى بلادهم لشن حروب جهادية ضد حكامها بدعوى أنهم موالون للغرب المسيحى.

هكذا تركت أفغانستان..!

الوضع الأفغانى الفاسد أفرز تلقائيا وضعا مضادا له.

الوضع المضاد جاء من فصول المدارس الدينية المنتشرة فى مناطق البشتون الممتدة بين أفغانستان وباكستان.. والتى تسيطر على معظمها ثقافة مذهب «الديوباندية» - نسبة إلى بلدة هندية تقع شمال نيودلهى بـ١٤٤ كم اسمها ديوباند.

هذا المذهب يصنف ضمن المذاهب الجامدة فى التفسير التى وقفت عندما جاء فى كتب السلف منذ عدة قرون.. يعارض التجديد لأن كل جديد بدعة.. ويرفض ضم العلوم العصرية إلى العلوم الدينية فى مناهج الدراسة.. ويهتم بالقضايا الجزئية التى تتصل بالشكليات كتحريم قص اللحى وعمل المرأة - إلا فى الضرورة - والتصوير وسماع الموسيقى.. الخ.

وبسبب الأفكار التى يعتنقها أتباع هذا المذهب.. فقد كانوا بمثابة «حقل خصب» نشط فيه رجال المخابرات الأمريكية طوال فترة الثمانينيات.. حيث دفعوهم لخوض حرب بالإنابة عن الولايات المتحدة ضد القوات السوفيتية لإخراجها من أفغانستان.. بدعوى أن الشيوعيين ملحدون.. وقتالهم هو جهاد فى سبيل الله.. والجهاد أقصر الطرق إلى الجنة.

وحتى تتسع مساحة هذا «الحقل».. قام الأمريكيون بتقديم الأموال إلى أصحاب مذهب «الديوباندية» للتوسع فى إنشاء مدارسهم الدينية.. خاصة فى المناطق التى ينتشر فيها اللاجئون الأفغان على الحدود الباكستانية الأفغانية.. حيث اللاجئين يكونون أكثر استجابة لفكرة الجهاد.. وبفضل الأموال الأمريكية أصبحت هذه المدارس تقدم لطلابها التعليم والطعام والمسكن بالمجان.. فضلا عن التدريب العسكرى لإعداد الفتية للجهاد من أجل «تحرير بلاد المسلمين من احتلال السوفييت الكفرة».

المأكل، والمشرب، والملبس، والمسكن، والسلاح المجانى.. كانت عناصر جذب قوية لجميع أبناء قبائل البشتون التى تسكن هذه المناطق.. فالتحقت بمدارس «الديوباندية» وحفظت عن ظهر قلب كل ما جاء فى كتب السلف منذ عدة قرون.

بعد ١٥ عاما.. خرّجت هذه المدارس الملا محمد عمر ورفاقه..!

* * *

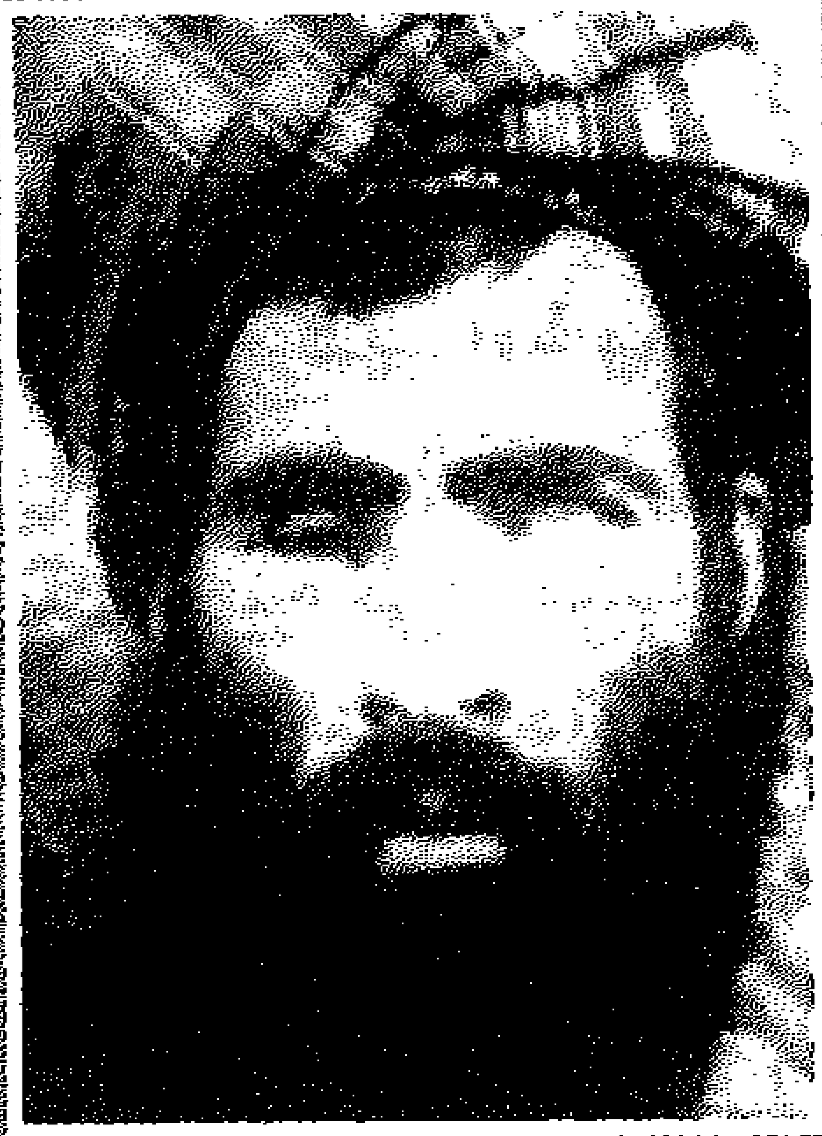
بداية حركة طالبان تعود إلى النصف الأول من عام ١٩٩٤.. ويرويها الملا محمد عمر بنفسه.. يقول:

«كنت أدرس فى مدرسة - ببلدة سنج سار فى إقليم قندهار - مع حوالى ٢٠ من زملائى الطلاب، فسيطر الفساد على وجه الأرض، واستشرى القتل والنهب والسلب، وكان الأمر بيد الفسقة والفجرة، ولم يكن أحد يتصور أنه من الممكن تغيير هذا الوضع وإصلاح الحال، ولو فكرت أنا أيضا وقلت فى نفسى (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) لكفتنى هذه الآية ولتركت الأمر لأنه لم يكن فى وسعى شىء، لكننى توكلت على الله التوكل المحض، ومن يتوكل على الله هذا النوع من التوكل فلن يخيب أمله أبدا.

لعل الناس يتساءلون متى بدأت هذه الحركة، ومن كان وراءها، ومن يمولها، ومن يوجهها ويديرها؟.. وأقول: بداية الحركة أننى طويت الكتب فى المدرسة فى «سنج سار» وأخذت معى شخصا آخر وذهبنا مشيا على الأقدام إلى منطقة «زنجاوات» واستعرت من هناك دراجة نارية من شخص اسمه «سرور» ثم ذهبنا إلى «طلوقان».. هذه هى بداية الحركة، وأخرجوا كل تصور غير هذا من أذهانكم.

فبدأنا نزور الطلاب فى المدارس وحلقات الدرس فى صباح ذلك اليوم.. وذهبنا إلى حلقة درس يدرس فيها حوالى ١٤ شخصا فجمعتهم فى دائرة حولى وقلت لهم: إن دين الله يداس به تحت الأقدام، والناس يجاهرون بالفسق، وأهل الدين يخفون دينهم.. وقد استولى الفسقة على المنطقة كلها.. يسلبون أموال الناس ويتعرضون لأعراضهم على الطرق العامة.. يقتلون الإنسان ثم يسندونه إلى حجر على قارعة





ثلاث صور نادرة للملا محمد عمر

الطريق، وتمر به السيارات ويرى الناس الميت ملقى على قارعة الطريق، ولا يجرؤ أحد أن يواريه التراب.

قلت لهم: لا يمكن الاستمرار فى الدراسة فى هذه الظروف.. ولن تحل هذه المشاكل بالشعارات المجردة.. نريد أن نقوم نحن الطلبة ضد هذا الفساد، إن أردتم العمل لدين الله حقيقة فلنترك الدراسة.. وأصارحكم القول إنه ما وعدنا أحد أن يساعدنا بروبية واحدة حتى تظنوا أننا سنوفر لكم الطعام.. سنطلب الطعام والمساعدة من الشعب.

قلت: إن هذا ليس عمل يوم ولا أسبوع ولا شهر ولا سنة، بل سيأخذ وقتا طويلا.. هل تستطيعون القيام بذلك أم لا؟.. وكنت أشجعهم وأقول لهم إن هذا الفاسق الجالس فى مركزه مثل القدر الأسود لشدة الحر (وكانت تلك الأيام فى فصل الصيف شديد الحر) يحارب دين الله علانية، ونحن ندعى أننا من أهل دين الله ولا نستطيع أن نقوم بعمل شىء لنصرة شرعه..

قلت لهم: إننا إن فتحنا منطقة فسندافع عنها.. ثم لا تعترضوا لعدم وجود دراسة أو لعدم توفر المال والسلاح.. فهل تستطيعون القيام بهذا العمل أم لا؟.. فلم يوافق أحد من هؤلاء الـ١٤ على القيام بهذا العمل.. وقالوا يمكن أن نقوم ببعض الأعمال أيام الجمعة.. فسألتهم: من سيقوم بها فى الأيام الأخرى؟.. أشهد الله على أن الحقيقة هى هذه، وإننى سأشهد بذلك أمام الله عز وجل يوم الحشر.

هذه الحركة نتيجة للتوكل المحض، لأننى لو قست على هذه الحلقة باقى المدارس والحلقات لعدت إلى مدرستى.. لكننى وفيت بالعهد الذى كنت قد قطعته على نفسى لله تعالى فعاملنى بما ترون .. فذهبت إلى حلقة درس أخرى وكان فيها حوالى

٧ طلاب، فعرضت الأمر عليهم كما عرضت على طلاب حلقة الدرس الأولى.. فاستعد الجميع للعمل.

هؤلاء كلهم أمة واحدة، لم تكن بينهم فروق الشباب والشيخوخة، أو الطفولة والشباب، أو الذكورة والأنوثة، لكن هذا العمل كان مبنيا على حكمة من الله فأوقعنى منذ بدايته فى الامتحان.. فتجولنا على هذه الدراجة إلى صلاة العصر على المدارس وحلقات الدرس حتى استعد ٥٣ شخصا من أهل التوكل، فعدت إلى مدرستى وقلت لهم تأتون غدا فى الصباح.

البداية.. إن العمل بدأ قبل أن تمضى على الفكرة ٢٤ ساعة، وكان أحد أصدقائى يصلى بالناس.. فلما صلى بهم الفجر.. قال أحد المأمومين: إننى رأيت الليلة فى المنام أن الملائكة دخلت إلى «سنج سار» وكانت أيديهم ناعمة فطلبت منهم أن يمسحونى بأيديهم (للتبرك).

وطلبنا فى صباح الغد الساعة العاشرة سيارتين من «الحاج بشر» - أحد تجار المنطقة - فأعطانا سيارتين، سيارة صغيرة، وسيارة شحن كبيرة.. فنقلنا هؤلاء الطلاب إلى منطقة «كشك نخود» وانضم إلينا آخرون.. ولما كثر العدد استعرنا الأسلحة من الناس، فكانت هذه هى بداية الحركة حتى استمرت.. انتهى النص(٢٩).

هذا ما قاله الملا محمد عمر زعيم حركة طالبان ومؤسسها، بنفسه عن كيفية نشأة الحركة.. فى تسجيل بثته إذاعة «صوت الشريعة» فى قندهار الناطقة باسم حركة طالبان.

ويمكن أن نفهم مما قاله الأسباب التى جعلت الحركة تتسم بطابع التشدد فى أحكامها طوال فترة وجودها فى السلطة بأفغانستان.

فهى نشأت كرد فعل مضاد.. أو ثورة.. على كل أوضاع الفساد التى انتشرت داخل المجتمع الأفغانى فى ذلك الوقت.. وبالتالى فقد جاءت بالنقيض..!

هذا «النقيض» كان متوفرا لديها مما تعلمته من كتب السلف فى المدارس الدينية التى خرجت من فصولها الحركة.. حيث أغلق الطلبة كتب الدرس وحملوا السلاح وخرجوا من الفصول لتغيير الواقع حولهم.

نجاح حركتهم يعود إلى أن الأسباب على مختلف الأصعدة قد اجتمعت لصالحهم.

- فعلى الصعيد الذاتى.. كان هؤلاء الطلبة - أو «طالبان» فى اللغتين البشتونية والفارسية - مدفوعين بدافع عقائدى.. ومتوكلين.. ليس لهم مصالح فى الدنيا تقيد حركتهم أو أغراض خاصة تحد انطلاقتهم.. مما جعلهم يمضون نحو تحقيق أهدافهم بثبات وعزيمة قوية.

- على الصعيد الداخلى.. كان المجتمع الأفغانى مهيئا لاستقبالهم بسبب ما عاناه طوال

خمس سنوات بعد خروج السوفييت من انتشار الفساد وسطوة المجرمين وقطاع الطرق.. فرحب بهم وأمدهم بالسلاح والعتاد وتعاون معهم فى القضاء على الفصائل المتناحرة.

وهناك واقعة يعتبرها البعض السبب المباشر لانطلاق طالبان وترسيخ وجودهم على الساحة الأفغانية.. هذه الواقعة تعود إلى شهر يوليو عام ١٩٩٤ عندما قام القائد الأفغانى منصور خان - الذى كان واحدا من المجاهدين أثناء الحرب مع السوفييت - بأسر ثلاث نساء أفغانيات فى قندهار واغتصابهن.. فلما علم بذلك أعضاء طالبان - وكانت حركتهم مازالت فى أيامها الأولى - انطلقوا فى المدينة يبحثون عن منصور خان.. حتى عثروا عليه فقتلوه وطافوا بجثته فى شوارع قندهار، ثم علقوها فى أحد الميادين.. لتكون عبرة ورسالة يبعثون بها إلى الغير[٣٠].

هكذا قدمت طالبان نفسها إلى الشعب الأفغانى.. واستمرت فى اتباع هذا النهج المتشدد مع الخارجين عن تعاليم الإسلام كما درسوها فى المدارس.

- على الصعيد الخارجى.. كانت صراعات الفصائل الأفغانية وحقول الأفيون المنتشرة بطول البلاد وعرضها، مصدر قلق كبير لكل الدول المجاورة.. خاصة باكستان التى ترتبط مع أفغانستان بعلاقات وثيقة فى كافة المجالات، وبينهما حدود مفتوحة طولها أكثر من ٢٥٠٠كم.. الأمر الذى جعل أفغانستان من أهم ركائز الأمن القومى لباكستان.. والعمق الاستراتيجى لها فى الصراع مع الهند.. أو بمعنى آخر: الفناء الخلفى للبيت الباكستانى..!

هذه الأهمية.. جعلت إسلام آباد تشعر بالقلق أيضا لسيطرة الفصائل الشمالية منذ عام ١٩٩٢ على الحكم فى أفغانستان.. بسبب ما يربط هذه الفصائل من علاقات وثيقة مع عدوتها اللدود: الهند.. فضلا عن عدم الاستقرار.. والفوضى.. والصراعات الداخلية التى أدت إلى تدفق مئات الآلاف من اللاجئين الأفغان إلى باكستان.

لذلك.. ما أن ظهرت حركة طالبان على الساحة وبدأت تمارس نشاطها فى منطقة قندهار والمناطق المحيطة بها.. حتى تحركت باكستان بسرعة لدعم هذه الحركة، التى ينتمى أعضاؤها للبشتون الموالين للباكستانيين.. حيث يعيش نحو ٢٠ مليونا من أبناء هذه العرقية فى باكستان، ونحو ١٧ مليونا فى أفغانستان يشكلون ٦٥٪ من تعداد سكانها.

* * *

التحرك الباكستانى بدأ بزيارة قام بها الجنرال نصير الله بابر وزير داخلية باكستان فى أكتوبر عام ١٩٩٤ إلى المناطق الجنوبية والغربية فى أفغانستان.. حيث

التقى بزعماء القبائل والقادة الميدانيين فيها للتعرف على موقفهم من الحركة ومدى استعدادهم للوقوف بجانبها.

في اليوم الثالث من الشهر التالي وقع حادث كان بمثابة شهادة ميلاد رسمية للعلاقات بين باكستان وطالبان، إلى درجة أن البعض يذهب في الاعتقاد إلى أنه كان مدبرا بالاتفاق بين الجانبين..! فقد كانت هناك قافلة باكستانية تتكون من ٣٠ شاحنة محملة بالمواد الغذائية والسلع التجارية في طريقها إلى المناطق التي سبق أن زارها وزير الداخلية الباكستاني - وقيل أن بعض هذه الشاحنات كانت في طريقها إلى جمهورية تركمانستان في آسيا الوسطى - وبمجرد عبور القافلة الحدود إلى داخل أفغانستان تعرضت لعملية سطو مسلح على يد عصابة من قطاع الطرق عند مدينة «سبين بولدك» التي يمر بها الطريق من باكستان إلى قندهار والمناطق الجنوبية في أفغانستان.. فتحركت مجموعة من أعضاء طالبان وقامت بتخليص القافلة لتواصل طريقها في أمان، وألقت القبض على زعيم العصابة وأعدمته مع بعض رفاقه.

أخبار هذه العملية نشرت بالصحف الباكستانية.. فكانت أفضل تقديم لطالبان إلى الرأي العام الباكستاني الذي رحب بها.

بعد ذلك بدأت الحكومة الباكستانية تقدم كل أنواع الدعم إلى حركة طالبان.. العسكري والمادي.. حتى استطاعت الحركة السيطرة على معظم الأقاليم الأفغانية واحد تلو الآخر.

وفي ٢٧ سبتمبر عام ١٩٩٦ تمكنت الحركة من الاستيلاء على العاصمة كابول وطرد الرئيس برهان الدين رباني منها.. ثم واصلت تقدمها حتى أصبح ٩٠٪ من أراضي الدولة يقع تحت سيطرتها.. بينما تراجعت أمامها الفصائل الشمالية التي تنتمي إلى عرقيات الطاجيك والأوزبك والهزارا لتبقى داخل مساحة لا تزيد على ١٠٪ فقط من مساحة الدولة..

في ٢٥ مايو عام ١٩٩٧.. كانت باكستان أول دولة في العالم تعترف بحكومة طالبان كحكومة شرعية لأفغانستان.. فأقامت معها علاقات دبلوماسية، وقدمت لها مساعدة مالية قدرها ٣٠ مليون دولار، بالاضافة إلى ٦٠٠ ألف طن من القمح وأسلحة وذخائر.. كما بذلت جهودا على الصعيد الخارجي لاقناع دول العالم بالاعتراف بها.. فاعترفت بها كل من المملكة العربية السعودية والامارات العربية المتحدة وقدمتا لها بعض المساعدات.

غير أن جهود باكستان لم تكلل بالنجاح لدى معظم دول العالم.. وبقى المجتمع الدولي لا يعترف بحكومة طالبان، ويعتبر حكومة رباني هي الحكومة الشرعية لأفغانستان.. صاحبة الحق في تمثيلها بالأمم المتحدة ولدى عواصم العالم..!

* * *

السبب.. هو أن مجيء طالبان واتباعها نظاما إسلاميا متشددا فى الحكم، أثار القلق لدى جيران أفغانستان الآخرين.

- فالصين مثلا.. بدأت تخشى من أن تعترف بطالبان.. فتقوم الأخيرة بفتح قناة اتصال مع المسلمين الصينيين الذين يعيشون فى إقليم سينكيانج ويطالبون بالانفصال لإقامة دولة إسلامية فى الصين.. فتمدهم طالبان بأفكارها وتحثهم على الجهاد ضد النظام الشيوعى الصينى.

- جمهوريات آسيا الوسطى.. طاجيكستان وأوزبكستان وتركمانستان.. بدأت تبحث عن مساعدة روسيا لها فى مواجهة طالبان، خشية أن تثير الأخيرة الأطماع التاريخية لأفغانستان فى هذه الجمهوريات.. كالمطالبة بأراضٍ فى أوزبكستان تضم قبر الإمام البخارى.. كما أن روسيا نفسها كانت تخشى أن تصدر طالبان الإسلام السياسى إلى هذه الجمهوريات مما يحد من نفوذ روسيا السياسى فى آسيا الوسطى.

- إيران أيضا بدأت تشعر بالقلق على وضع الشيعة الأفغان الذين يمثلون نحو ١٥٪ من السكان.. لأن طالبان يتبعون المذهب السنى الحنفى ويطبقون أحكامه على الجميع.

- الهند: اتخذت منذ البداية موقفا مناوئا لطالبان.. لأن الأخيرة جاءت إلى الحكم بمساعدة باكستان وأطاحت بنظام ربانى الحليف للهند.. فضلا عن أن طالبان تربطها علاقات وثيقة جدا بالمجاهدين فى كشمير.

- الاتحاد الأوربى.. لم يستقبل النظام الإسلامى المتشدد الذى جاءت به طالبان بارتياح.. فأدان الحركة فى بيان أصدره عام ١٩٩٦ بدعوى شعوره بالقلق على أوضاع حقوق الإنسان فى أفغانستان.

- أما موقف الولايات المتحدة الأمريكية.. فقد كان فى البداية مختلفا عن مواقف هذه الدول.. لأن الولايات المتحدة فى ذلك الوقت كانت ترى أن وجود طالبان فى السلطة بأفغانستان يمكن أن يحقق لها عدة أهداف:

● فهى يمكن أن تكون مصدر ازعاج دائم لروسيا إذا ما احتاجت الولايات المتحدة أن تزعج روسيا.

● ومصدر قلق للصين عن طريق تصدير أفكارها إلى الأقلية المسلمة هناك، إذا ما أرادت واشنطن أن تقلق بكين.

● وشوكة فى جنب النظام الإيرانى، مما يسعد واشنطن.

● وبوابة أمريكية تفتح على جمهوريات آسيا الوسطى.. حيث تشترك أفغانستان فى الحدود مع ثلاث منها هى: طاجيكستان وأوزبكستان وتركمانستان.. مما يعنى

نشر النفوذ الأمريكي فى هذه المنطقة الغنية بالنفط والثروات الطبيعية.. وحماية المصالح الاقتصادية لشركات البترول الأمريكية فيها.. ومنها على سبيل المثال أن هذه الشركات كانت تعتزم إنشاء خطين لنقل الغاز من تركمانستان إلى ساحل باكستان يمران عبر أفغانستان.. وليس عبر روسيا إلى الموانئ التركية، حتى لا تستخدم روسيا بعد ذلك هذين الخطين كورقة ضغط على الولايات المتحدة..!

لذلك.. رحب الرئيس الأمريكي بيل كلينتون بظهور طالبان.. وقال: «إن طالبان حركة معتدلة ولا نعتبرها حركة أصولية».

وبعد سقوط كابول فى أيدى طالبان.. دعا الناطق باسم وزارة الخارجية الأمريكية قادة الحركة إلى التحرك السريع لإعادة الأمن إلى البلاد وتشكيل حكومة ممثلة لجميع الأطراف، والانطلاق بعملية المصالحة الوطنية.. وقال: إن الولايات المتحدة لا ترى شيئا قابلا للاعتراض على الخطوات التى اتخذتها طالبان، والتى تتمثل فى فرضها نظاما إسلاميا فى المناطق الخاضعة لسيطرتها[٣١].

وقد استجابت طالبان لنداءات واشنطن التى رأت أنها تتفق مع أهدافها.. فقامت فعلا بجمع الأسلحة من جميع الأفراد والفصائل الأفغانية.. وأعادت الأمن والاستقرار والطمأنينة إلى الشعب الأفغانى.. كما بدأت فى عمل إصلاحات كثيرة.. وكل ذلك طبعا جنبا إلى جنب تعاليمها الصارمة بإلزام الرجال إطلاق اللحى، والنساء ارتداء الملابس الواسعة وتغطية الوجه والرأس.. وإقامة الحدود الشرعية على المخالفين كقطع يد السارق.. الخ.. وقد واصلت واشنطن تأييدها للحركة.. وقامت مساعدة وزير الخارجية الأمريكى لشئون آسيا بالدفاع عن توجهاتها فأكدت على «أن الحركة ليست لديها طموحات إسلامية أممية»[٣٢]..

* * *

إلا أن الدنيا لا تدوم على حال واحدة..!

فحركة طالبان التى كانت بالأمس معتدلة فى نظر الرئيس كلينتون.. أصبحت بعد وصول بن لادن إلى أفغانستان وتقديمه الدعم لها: «حركة غير معتدلة»!... وبدأت واشنطن تراقب علاقة طالبان بابن لادن وتطالبها بتسليمه..

لكن طالبان رفضت تسليم ضيفها.. الذى اشترك معهم من قبل فى الجهاد ضد الروس.

فطلبت واشنطن السماح لها بإرسال محققين من مكتب التحقيقات الفيدرالى الأمريكى إلى أفغانستان لاستجواب أسامة بن لادن وعدد من الأفغان العرب عن عدد من العمليات التى استهدفت المصالح الأمريكية واتهموا فيها.. فردت عليها طالبان

بأنها على استعداد لتقديم المساعدة فى التحقيقات.. لكنها لا تقبل أبدا التحقيق مع مقيمين فى أفغانستان تحت حماية الملا محمد عمر زعيم الحركة..!

هكذا تأزمت العلاقة بين الولايات المتحدة وطالبان.. فصرفت الولايات المتحدة النظر تماما عن الاعتراف بها، بعد أن كانت وعدت بذلك عام ١٩٩٦..

ثم واصل منحنى العلاقة بين الجانبين الهبوط إلى أسفل بشكل سريع.. خاصة بعد نسف سفارتى الولايات المتحدة فى نيروبى ودار السلام فى أغسطس عام ١٩٩٨، ثم الهجوم على المدمرة الأمريكية «كول» فى ميناء عدن فى أكتوبر عام ٢٠٠٠، وكان المتهم الرئيسى هو أسامة بن لادن.

بعد ذلك بدأت الولايات المتحدة مرحلة جديدة فى التعامل مع طالبان تهدف إلى تضييق الخناق حولها لإجبارها على تسليم بن لادن أو القضاء عليها.. فصدر فى ١٩ يناير عام ٢٠٠١ قرار مجلس الأمن رقم ١٣٣٣ الذى يقضى بفرض عدة عقوبات على طالبان.. من بينها حظر امدادها بالأسلحة، ومصادرة حساباتها بالخارج، وعدم السماح لأعضائها بالسفر إلى خارج أفغانستان.

ووصفت الأمم المتحدةأفغانستان تحت سيطرة طالبان بأنها تعد «مركزا للإرهاب الدولى».. وطالبت بتسليم بن لادن.. فجاء رد طالبان غاضبا وهو أنها لن تسلم بن لادن أبدا..!

كان أكثر ما أثار غضب طالبان أن حظر الأسلحة الذى قرره مجلس الأمن فرض عليها ولم يفرض على قوات التحالف الشمالى التى ظلت تتلقى الأسلحة والمساعدات العسكرية من روسيا وإيران والهند وجمهوريات آسيا الوسطى.. فى وقت اندلعت فيه معارك شرسة بين الجانبين حول إقليم «هزاراجات» الذى يقع وسط أفغانستان وتسكنه مجموعة الهازارا العرقية التى تتكون من مسلمين شيعة.. وقد تمكنت قوات التحالف الشمالى فى هذه المعارك من الاستيلاء على مدينة «باميان» فى ١٣ فبراير عام ٢٠٠١، إلا أن طالبان استعادتها مرة أخرى بعد أيام قليلة.

* * *

وفى ٢٦ من الشهر نفسه.. وفى محاولة لإثارة خوف الهزارا.. وإرسال إشارة واضحة لتحدى المجتمع الدولى الذى رفض الاعتراف بطالبان وفرض عليها عزلة دولية.. أمر الملا محمد عمر قواته بتدمير تمثالى «بوذا» العملاقين اللذين يوجدان بوادى «باميان» ويصل عمرهما إلى ١٨٠٠ عام..!

بعد نقل الديناميت والدبابات إلى«باميان» التى تقع غرب كابول على مسافة ٢٢٥كم.. ثارت الدنيا تستنكر هذا الإجراء.. وأرسلت بعض الدول مثل مصر،

وباكستان، واليابان، وسريلانكا وفودا إلى طالبان ترجوها عدم تدمير التمثالين.. وخرجت مظاهرات البوذيين فى الهند والصين.. وشنت المؤسسات الثقافية ووسائل الإعلام حملة ضد طالبان.. وصرخ محبو الفن.

كل ذلك لم يثن طالبان عن موقفها..!

صمّت آذانها.. وتجاهلت كل هذه النداءات بدعوى أن هذه التماثيل ما هى إلا أصنام والعياذ بالله ولابد من تدميرها..!

بل قابلت استنكار العالم لموقفها.. باستنكارها لموقف العالم الذى أبدى كل هذا الاهتمام والانزعاج من أجل إنقاذ بضعة تماثيل مصنوعة من الحجر لا تضر ولا تنفع بينما لا يهتم بإنقاذ الشعب الأفغانى الجائع.. وفوق ذلك يفرض عليه الحصار..!

وفى يوم ١٠ مارس عام ٢٠٠١، قام جنود طالبان بتدمير التمثالين العملاقين لبوذا فى «باميان» بعبوات ناسفة من الديناميت ونيران الدبابات..!

كما تم أيضا تدمير تمثال آخر لبوذا فى وضع الانحناء فى مدينة «غازنى» التى تقع جنوب كابول على مسافة ١٤٩كم.. وتدمير ٤٠ تمثالا أخرى بمتحف كابول.

هذه الخطوة وضعت طالبان فى مواجهة المجتمع الدولى.. فوجدت باكستان- التى تساندها وتدعمها بالأسلحة والمؤن - نفسها فى موقف صعب.. لكنها تعهدت بتنفيذ قرار مجلس الأمن والمشاركة فى فرض العقوبات على طالبان..

إلا أن وزارة الخارجية الأمريكية نشرت فى تقريرها السنوى حول الإرهاب العالمى الذى صدر فى ٣٠ إبريل ٢٠٠١ أن باكستان مازالت تواصل إمداد طالبان «بالوقود والنقود والمساعدات الفنية والاستشارات العسكرية».. وعلى نفس النغمة جاء تقرير منظمة حقوق الإنسان العالمية فاتهم باكستان بأنها تخرق عقوبات الأمم المتحدة باستمرارها فى إرسال الأسلحة والإمدادات إلى طالبان..

فرأى مجلس الأمن الدولى أن الأمر جد خطير ويستحق إصدار قرار.. فأصدر القرار رقم ١٣٦٣ فى ٣١ يوليو ٢٠٠١ بتشكيل فريق من المراقبين الدوليين للمرابطة على الحدود الباكستانية الأفغانية لمراقبة التزام باكستان بتنفيذ العقوبات التى فرضتها الأمم المتحدة على طالبان.. فردت طالبان والأحزاب الإسلامية التى تدعمها فى باكستان على ذلك قائلين: «إنهم سيقتلون أى مراقب تابع للأمم المتحدة سيتواجد على الحدود بين باكستان وأفغانستان»[٣٣]..!

* * *

فى هذه الأثناء.. كانت طالبان تواصل التصعيد من جانبها أيضا بالاستمرار فى اتخاذ عدد من الإجراءات المتشددة فى ظل حالة اليأس والإحباط والعزلة التى أصبحت تعيشها.. وفقدانها أى أمل لانضمامها إلى الأسرة الدولية أو اعتراف المجتمع الدولى بها.

من هذه الإجراءات مثلا:

فى ١٩ مايو ٢٠٠١ أجبرت سلطات طالبان أطباء أوربيين كانوا يعملون فى مستشفى إيطالى بكابول على الهرب بعد اتهامهم بإقامة علاقات نسائية غير مشروعة.

– فى ٢٢ مايو ٢٠٠١ أمرت طالبان جميع الهندوس الذين يعيشون فى أفغانستان – حوالى ١٧٠٠ شخص من طائفتى الهندوس والسيخ – بارتداء زى أصفر مميز لهم حتى يتم التعرف عليهم بسهولة.. فاعتبر العالم ذلك نوعا من التمييز العنصرى.. مما جعلها تتراجع عن ذلك بعد بضعة أسابيع وتطلب من الهندوس الاكتفاء بحمل بطاقات الهوية[٣٤].

– فى ٣١ مايو ٢٠٠١.. حظرت طالبان قيادة السيارات على الأجنبيات العاملات فى منظمات المعونة الدولية.

– فى ١٣ يوليو ٢٠٠١ حظرت طالبان استخدام الانترنت داخل أفغانستان، بعد أن اكتشفت أنه يمكن عن طريقه رؤية صور فاضحة للنساء والرجال.. فضلا عن المواد الإعلامية المخالفة لتعاليم الإسلام.. وهو السبب الذى من أجله حَرّمت على الناس من قبل مشاهدة التليفزيون..!

– فى ٢٠ يوليو ٢٠٠١ أصدرت قرارا بمنع استيراد ٣٠ سلعة.. من بينها اللعب وشرائط الكاسيت وأحمر الشفاه.

– فى ٥ أغسطس ٢٠٠١ اعتقلت طالبان ٨ أجانب و١٦ أفغانيا ينتمون لمنظمة «شلتر ناو انترناشيونال» بتهمة التبشير للديانة المسيحية.. وهى جريمة يعاقب عليها بالإعدام.. وبدأت محاكمتهم فى ٤ سبتمبر وفقا لمبادئ الشريعة الإسلامية فى المحكمة العليا بكابول.

* * *

بعد أسبوع واحد من هذه المحاكمة وقع الهجوم بالطائرات المدنية على مركز التجارة العالمى فى نيويورك ومبنى البنتاجون فى واشنطن..

والواقع أن الولايات المتحدة الأمريكية لم تكن بحاجة لحدوث هذا الهجوم لكى تبدأ حملتها العسكرية ضد طالبان وأسامة بن لادن.. لأنها كانت بالفعل تخطط للقيام بهذه الحملة منذ شهر يوليو ٢٠٠١.. أى قبل شهرين من الهجوم عليها..

هذه الحقيقة يؤكدها «نياز زيتاك» وزير خارجية باكستان الأسبق الذى صرح للصحفيين يوم ١٩ سبتمبر ٢٠٠١ بأن مسئولين كبارا فى الإدارة الأمريكية أبلغوه فى منتصف شهر يوليو ٢٠٠١ بأن الولايات المتحدة تعتزم اتخاذ إجراءات عسكرية ضد أفغانستان بحلول منتصف شهر أكتوبر ٢٠٠١ - وهو نفس التاريخ تقريبا الذى بدأت فيه الحملة العسكرية على أفغانستان.. حيث إن القصف بدأ مساء ٧ أكتوبر..!

يضيف وزير خارجية باكستان الأسبق: أن المسئولين الأمريكيين أبلغوه بالخطة أثناء انعقاد مؤتمر لدول الاتصال الخاصة بأفغانستان فى برلين برعاية الأمم المتحدة، وقالوا له إنه إذا لم يتم تسليم بن لادن على الفور.. فإن الولايات المتحدة ستقوم بعمل عسكرى لاعتقاله أو قتله هو والملا محمد عمر بهدف إسقاط حكومة طالبان وتنصيب حكومة انتقالية من الأفغان المعتدلين من الممكن أن يتزعمها ظاهر شاه ملك أفغانستان السابق.

وتوقع الوزير الأسبق أن تتم عملية ضرب أفغانستان قبيل سقوط الثلوج.. وشكك فى إمكانية أن تتراجع الولايات المتحدة عن خططها.. حتى إذا تم تسليم بن لادن..!!

هذه التصريحات نقلتها وكالات الأنباء عن وزير خارجية باكستان الأسبق نياز زيتاك، ونشرتها جريدة «الجمهورية» يوم ٢٠ سبتمبر ٢٠٠١ على الصفحة الخامسة.. أى قبل الحملة العسكرية الأمريكية بـ١٧ يوما.. رغم ذلك فهى تكشف لنا بدقة.. وبالتواريخ.. السيناريو الذى تم تنفيذه بعد ذلك فى أفغانستان.. والذى كان معدا قبل هجمات ١١ سبتمبر..!

دليل آخر نقدمه من الصفحة الرابعة بجريدة الأهرام عدد ٥ يوليو ٢٠٠١.. أي قبل وقوع هجمات ١١ سبتمبر بأكثر من شهرين.. يقول نصه:

«كشفت مصادر مطلعة أمس فى إسلام آباد عن أن باكستان رفضت طلبا أمريكيا لشن (عملية كوماندوز) تقوم بها عناصر من القوات الخاصة انطلاقا من الأراضى الباكستانية ضد قواعد أسامة بن لادن فى أفغانستان.. ونقلت صحيفة «الفرانتير بوست» الباكستانية عن هذه المصادر قولها إن الحكومة الباكستانية وصفت الطلب الأمريكى بأنه «غير منطقى وغير عملى».. وأكدت المصادر التى أطلعت على فحوى المباحثات التى أجريت أخيرا فى واشنطن بين عبدالستار وزير الخارجية الباكستانى وكبار المسئولين فى الإدارة الأمريكية أن الجانب الباكستان أوضح مجددا خلال هذه المباحثات أن مسألة أسامة بن لادن (هى مسألة تخص الولايات المتحدة وأفغانستان ولا شأن لباكستان بها)».. - انتهى النص - وكالات الأنباء.

* * *

إذن.. كل ما فى الأمر أن هجمات ١١ سبتمبر كانت سبباً تتكىء عليه الولايات المتحدة الأمريكية لتنفيذ «سيناريو» وضعته مسبقا بالتفاصيل والتواريخ لتغيير الوضع فى أفغانستان..!!

وهو سيناريو يعكس حالة الوضع الدولى فى هذه الفترة من التاريخ.. التى اتسمت فها مواقف الدول الكبرى بالعنصرية وازدواجية المعايير..!

لقد أتيحت لى فرصة أن أكون أحد الشهود القلائل من الصحفيين على مستوى العالم.. الذين عاشوا مراحل تنفيذ السيناريو الأمريكى فى أفغانستان منذ بدايته حيث وصلت إلى المنطقة قبل بدء العمليات العسكرية بعدة أيام.. ومكثت بها حتى انتهاء الفصل الأخير من السينايو الأمريكى بتسليم السلطة فى أفغانستان إلى حكومة جديدة.. صنعت فى بون بأيدٍ أمريكية.. كانت محطتى الأولى فى هذه الرحلة..

مدينة بيشاور ..

الفصل الخامس

• البوابة..

« هناك..
وجدت البنادق والرشاشات
متوفرة أكثر من الطعام..!»

□ بيشاور..

مدينة باكستانية مترامية الأطراف.. لا أحد يعلم مساحتها بالضبط.. لأن أبنيتها تتداخل مع أبنية القرى والنجوع المحيطة بها.

لكن هويتها واضحة تماما.. تظهر لك من خلال لحى الرجال ونقاب النساء.. والبنادق والرشاشات والسيوف المتوفرة لدى الناس.. ربما أكثر من الطعام..!

موقعها: شمال غرب باكستان على مسافة تقدر بـ٤٠ كيلو مترا من الحدود الأفغانية..

هذا الموقع.. ساهم بقدر كبير فى تشكيل هوية المدينة وجعلها أكثر مدن العالم تأثرا بالأحداث الأفغانية.

فإليها يفر اللاجئون الأفغان عند اشتداد المعارك فى بلادهم.

وعلى أرضها.. أقيمت المعكسرات لتدريب المجاهدين على أعمال القتال..

وخلال أوقات كثيرة.. كانت هى نقطة الاتصال الوحيدة بين الأفغان والعالم.. والبوابة التى يقصدها الصحفيون والدبلوماسيون وموظفو وكالات الإغاثة الدولية الذين يريدون دخول أفغانستان.. فتردد اسم المدينة كثيرا فى وسائل الإعلام واكتسبت شهرة عالمية كبيرة.

هذه المدينة التى يقطنها حوالى خمسة ملايين نسمة منهم أكثر من مليونى أفغانى.. كانت تعيش حالة من الترقب.. والحذر..والاستنفار.. والغضب..!

ترقب مرور الطائرات الأمريكية فى سمائها لقصف أفغانستان التى تبعد عنها ثانية واحدة فقط بسرعة «إف ١٦»..!

والحذر من الصحفيين الأجانب الذين توافدوا إليها بكثرة فى الأيام الأخيرة.. فقد كان أغلب الظن عند الناس أن معظم هؤلاء الصحفيين عملاء لأمريكا وبريطانيا جاءوا لجمع معلومات استخبارية عن الأفغان..!

والاستنفار.. لرد الفعل بعد وقوع العمل العسكرى الأمريكى المنتظر..

والغضب.. من استهداف أمريكا لمجموعة من الأفغان، قبل ثبوت أى دليل إدانة ضدهم فى حادث الاعتداء على مركز التجارة والبنتاجون يوم ١١ سبتمبر..

لم يحدث فى تاريخ المدينة من قبل أن عاشت حالة كالتى كانت تعيشها فى تلك الأيام..

ولم يكن أحد يدرى.. كيف ستكون حالتها فى المستقبل بعد أن تفعل أمريكا ما تريد على أرض أفغانستان؟.. هل ستكون نقطة انطلاق الجهاد ضد أمريكا؟.. أم سيكون لها دور آخر..

* * *

دخلت المدينة الساعة السابعة والنصف مساء يوم ٢٧ سبتمبر ٢٠٠١ فى سيارة «سرفيس».. قطعت الطريق من إسلام آباد إلى بيشاور فى ثلاث ساعات..

كان يقودها رجل ملتح.. متجهم الوجه طول الوقت.. يرتدى جلبابا أصفر وطاقية.. يقود السيارة بسرعة ١٢٠ كيلو مترا فى الساعة.. وكنت أجلس بجواره أرتدى قميصا وبنطلونا.. بينما كان كل الركاب الآخرين مطلقى اللحى ويرتدون الجلاليب.

شعرت أنهم ينظرون نحوى بنوع من التوجس وعدم الارتياح.. وفهمت أن ذلك بسبب ملابسى الغربية .. حاولت أن أكسب ثقتهم فقلت بصوت مسموع: «لا إله إلا الله محمد رسول الله».. فرددوها خلفى.. لكن السائق ظل ينظر لى بعدم ارتياح..!

فى الطريق توقفنا لأداء صلاة المغرب جماعة عندما حان وقت الآذان، وكنا على أطراف مدينة «نوشيرا».. بعد الصلاة سألنى أحد الركاب: من أنت؟.. فقدمت نفسى وسبقت اسمى بلقب «الحاج».. ثم شرحت لهم مهمتى.. وعندما عرفوا أننى من مصر اطمأنوا لى.. وفتح السائق فمه لأول مرة وقال: «أنت من مصر.. سبحان الله..»..!

انتهزت الفرصة وفتحت حوارا مع الركاب لعلى أجد بينهم من يساعدنى على أداء مهمتى أو يرشدنى إلى فندق أقضى به ليلتى.. بدأت الكلام بالدعاء إلى الله أن ينصر الإسلام والمسلمين ويهلك الكفرة والمشركين.. قالوا: آمين..

ثم تواصل الحوار بيننا، فسألتهم: هل يمكن لأحد منهم أن يساعدنى فى دخول أفغانستان عن طريق أحد الممرات الجبلية.. حيث إن الحدود مع باكستان أصبحت مغلقة والسفارة الأفغانية فى إسلام آباد توقفت عن منح التأشيرات.. فنصحنى من يجلس خلفى – وكان رجلا فى العقد السادس من عمره.. يتحدث الإنجليزية مخلوطة باللهجة المحلية فى منطقته.. وكلما قال عبارة يدفع بقبضته فى جنبى من وراء

المقعد الذى أجلس عليه ويسألنى: هل فهمت..؟ فأرد عليه بسرعة: نعم فهمت..!

لكن الحقيقة أننى لم أفهمه إلا بصعوبة شديدة، وبعد مساعدة راكب آخر فى السيارة كان يتحدث الانجليزية بطريقة أفضل.

تقول نصيحة من كان يجلس خلفى: أن أحاول الوصول إلى أحد علماء طالبان ممن يحتمل وجودهم الآن فى بيشاور.. فكلمة واحدة منه أقوى من أى تأشيرة وستفتح أمامى الأبواب كلها..!

غير أن أحد الركاب علّق على هذا الاقتراح بقوله: «من الصعب جدا معرفة مكان العلماء الآن.. لا تخاطر بحياتك وانتظر حتى تحصل على تأشيرة للدخول من القنصلية الأفغانية فى بيشاور..».

* * *

كان أول شىء فكرت فيه عندما وصلت إلى بيشاور هو البحث عن مكان للمبيت فيه.. كانت محطة سيارات «السرفيس» التى نزلت بها مظلمة.. لا تنيرها إلا أضواء مصابيح الغاز التى وضعها بائعو الفاكهة على عرباتهم الخشبية الصغيرة التى يجرونها بأنفسهم.. خطوت خطوات قليلة نحو الشارع للسؤال عن فندق.. فحملنى سائق تاكسى إلى فندق اسمه: «شيراز إن» وهناك نصحنى موظف الفندق بالتوجه فى الصباح إلى القنصلية الأفغانية لقيد اسمى بها حتى تتاح الفرصة لى بعد ذلك لدخول أفغانستان إذا قررت حكومة طالبان دعوة بعض الصحفيين.. سألته عن مكتب الصحافة الباكستانى بالمدينة.. قال: لقد تم إغلاقه منذ عدة أيام بعد أن ضاقت الحكومة الباكستانية ذرعا بالصحفيين الأجانب فى بيشاور..! كما أغلقت أيضا معسكرات اللاجئين الأفغان على الحدود ووضعت قوات من الجيش حولها لمنع الصحفيين من الدخول إليها.. والسبب هو أن هؤلاء اللاجئين يعيشون الآن ظروفا بالغة الصعوبة من كل النواحى.. يأس.. وفقر.. وتشرد.. وإحساس بالخطر.. مما دفعهم إلى اختطاف بعض الصحفيين، ثم الإفراج عنهم بعد فترة من الوقت.

* * *

فى الفندق.. التقيت بصحفى تركى اسمه «صفر توران».. عاش فى مصر عشر سنوات وتخرج فى كلية أصول الدين جامعة الأزهر وهو الآن يعمل مراسلا لإحدى محطات التليفزيون.. نصحنى بإطلاق لحيتى وارتداء الجلباب والطاقية حتى تسهل مهمتى.. ورغم الظروف الخطرة التى كنا نواجهها فى بيشاور وجدته يسألنى عن النادى الذى كسب الدورى ذلك العام فى مصر.. الأهلى أم الزمالك؟ فأجبته باقتضاب:

الزمالك.. قال: يبقى أنت أهلاوى عشان زعلان..!

فى الصباح توجهت إلى القنصلية الأفغانية.. بنادق ورشاشات وذخيرة يحملها الواقفون عند البوابة.. ألقيت السلام وأبرزت هويتى وطلبت الدخول.. فقال أحدهم لى: اليوم نصلى «الجمعة».. إن شاء الله.. تعالى غدا.. ووجدت على باب القنصلية مجموعة من الصحفيين الأجانب قيل لهم نفس الكلام.. فذهبت لأداء الصلاة بمسجد اسمه «مدنى».

* * *

بعد الانتهاء من صلاة الجمعة.. خرجت من المسجد مظاهرة كبيرة شارك فيها عدة آلاف من الناس.. كانوا يحملون اللافتات المؤيدة لجماعة طالبان والملا محمد عمر ويهتفون ضد الولايات المتحدة وإسرائيل.. وقد سارت المظاهرة فى عدة شوارع حتى وصلت إلى سوق وسط المدينة ويطلق عليه «صدر بازار».. هناك انضم إلى المظاهرة مظاهرات جاءت من مساجد أخرى ثم تجمع المتظاهرون فى وسط المدينة يرددون الهتافات.. ووقف بعض الشيوخ الذين شاركوا فى المظاهرات يلقون الخطب الحماسية التى تدعو إلى الجهاد وتهدد بالثأر والانتقام من كل من يعتدى على المسلمين..

استمرت هذه المظاهرات أكثر من ثلاث ساعات.. ونظمتها «لجنة الدفاع عن أفغانستان وباكستان».. وهى لجنة تضم ممثلين لـ٣٢ من المنظمات الإسلامية والأحزاب السياسية فى باكستان.. ولم تحدث أية اشتباكات بين المتظاهرين والشرطة.. ولم تحدث أية إصابات أو أعمال عنف.

التقيت ببعض المشاركين فى المظاهرة للتعرف على آرائهم.. كى أضمها إلى رسالتى الصحفية التى أعددتها للجريدة:

● أمير خسرو.. شاب باكستانى عمره ٢٤ سنة.. موظف ومتزوج.. قال لى: أعددت نفسى للجهاد ضد أمريكا وبريطانيا وإسرائيل وكل من يشترك فى الهجوم على بلاد المسلمين.. سأذهب للجهاد بمجرد هجوم أمريكا على أفغانستان.. ثم أضاف قائلا بلغة البشتون: «بامهاديها».. ومعناها: الله معنا..

● صفة الله مجددى.. شاب باكستانى يعيش فى بيشاور أيضا.. عمره ٣٣ سنة.. متزوج ولديه طفلان: عمر الفاروق ٧ سنوات، وحفصة ٥ سنوات.. قال: أنا مستعد للذهاب إلى الجهاد فى أى مكان بالعالم للثأر من أمريكا إذا ضربت أفغانستان.. قلت له: لكن عندك زوجة وأولاد.. وأفغانستان ليست بلدك.. فكيف تترك أسرتك للدفاع عن

بلد آخر؟.. قال: لأننى مسلم والأفغان مسلمون.. إذن فنحن أخوة ويجب علينا أن نكون كالبنيان المرصوص.. وكالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى.. كما أمرنا بذلك سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام..

● «جوهر على»..باكستانى عمره ٣٠ سنة.. قال لى: عندى سلاح آلى والحمد لله.. فإذا تقاعست عن الجهاد الآن ضد أعداء الإسلام.. فلا عذر لى أمام الله يوم القيامة.. وسيحشرنى مع المنافقين الذين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله للجهاد.

● «سالم محمد».. أفغانى عمره ٢٣ سنة يعيش فى بيشاور.. ويعمل سائق سيارة نقل قال: إذا ضربت أمريكا بلادنا يصبح الجهاد فرضا علينا أن نؤديه.. مثل فروض الصلاة والصوم والزكاة.. ومن لا يشترك معنا فى الجهاد فهو ليس منا.

● «رشيد أحمد عمر».. أفغانى عمره ٤٠ سنة يعيش فى بيشاور ويعمل فى أحد المتاجر: لقد حاربت السوفييت وسنحارب الأمريكان ونقتل منهم إن شاء الله أكثر مما قتل منهم الفيتناميون.. لأن الله معنا.



متظاهرون يهددون بالثأر والإنتقام من كل من يعتدى على المسلمين

الفصل السادس

• حوار بعد الصلاة..

«الملائكة ستحارب معنا..
وسنلقن الأمريكيين درساً
أقسى من الذى لقناه
للروس والبريطانيين..!!»

الملا نجيب الله

□ من باب الحذر.. قلت لأبدأ محاولة دخول افغانستان من «الباب الرسمي».. أى عن طريق الحصول على تأشيرة دخول رسمية..
ارتديت الجلباب والطاقية ونقلت الساعة إلى يدى اليمنى وتوجهت إلى القنصلية الأفغانية فى «بيشاور»..

القنصلية فى إجازة يومى السبت والأحد.. لكن الظروف فى ذلك الوقت كانت تجعل موظفيها يحضرون كل يوم إلى مكاتبهم.. ألقيت السلام على حراس القنصلية وقدمت نفسى بطريقة جعلتهم يتعاونون معى ويستدعون مسئولا من الداخل لمقابلتى.. أخبرنى هذا المسئول أن القنصلية تلقت خطاباً يوم السبت ٢٢ سبتمبر من وزير الخارجية - فى حكومة طالبان - وكيل أحمد متوكل بالتوقف عن منح التأشيرات للصحفيين الأجانب، بما فى ذلك الصحفيون الباكستانيون بسبب الظروف الحالية.. وحذرنى من أن دخول أفغانستان فى الوقت الراهن سوف يعرضنى للاعتقال..

طلبت مقابلة الملا نجيب الله قنصل أفغانستان فى بيشاور.. قال المسئول : انه لا يقابل الصحفيين الآن.. لكننا سننقل له رغبتك..

ثم دخل المسئول القنصلية.. وبقيت أنا في الشارع اتبادل حواراً بطيئاً ومتعثراً مع الحراس.. فهم يتحدثون لغة البشتون - ولا يعرفون أى لغة غيرها.. كنت أحيانا أسمع منهم بعض الكلمات التى تحمل نفس المعنى فى اللغة العربية.. فنلتقى عندها.. ثم نكمل الحديث بالإشارة أو بالرسم علي الأرض.. لم يفهموا أننى من مصر إلا بعد أن رسمت لهم الأهرامات.. عندئذ فرحوا جدا لأنهم فهموا شيئا.. وقالوا : ماشاء الله.

* * *

بعد محاولات مضنية بذلتها أمام باب القنصلية.. وحوارا يائسا مع المسئولين بها من خلال نافذة صغيرة تتوسط الباب الحديدى الضخم للقنصلية.. ذكرت فيه كل الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة التى تحض المسلم على التعاون مع أخيه المسلم.. وإن الله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه.. حتى هممت بالانصراف يأساً وأدرت ظهرى للقنصلية أبحث عن وسيلة مواصلات للعودة بها.. وجدت من ينادينى من الداخل ويفتح لى باب القنصلية وهو يقول : تفضل.. لقد وافق الملا نجيب الله على مقابلتك إن شاء الله بعد صلاة الظهر..

* * *

أديت صلاة الظهر داخل القنصلية مع بعض العاملين بها.. وحرصت على أن تكون الصلاة مناسبة لجعلهم يطمئنون إلى ويتعاونون معى.. فختمتها بالدعاء على الرئيس بوش..

بعد دقائق.. جاء سكرتير القنصل يدعونى لمقابلته.. كان يتعامل معى بالإشارة وأنا أطيعه فى كل ما يطلبه منى..

على باب مكتب القنصل أشار إلى حذائى.. فخلعته بسرعة ثم بادرت بفتح حقيبتى ليقوم بتفتيشها، لكنه احتجزها بكاملها.. رجوته أن أصطحب معى الكاميرا وجهاز التسجيل إلى الداخل لاستخدامهما أثناء الحوار.. لكنه قطع رجائى بإشارة من يده.. فلم ألح عليه حتى لا يشكون فى أمرى ويلغوا المقابلة..!

دخلت إلى المكتب حافى القدمين.. أحمل فى يدى قلما ومجموعة أوراق.. فوجدت رجلاً وقوراً هادئاً يرتدى لباسا أبيض وعمامة بيضاء.. لاحظت أنه حافيا مثلى والسجادة فى أرض المكتب كأنها مصلى كبير .. أقبل الرجل على قبل أن أصل إلى مكانه.. يعانقنى بحرارة ويضمنى إليه مرحباً كائننا أشقاء نلتقى بعد فراق طويل.. كانت لحيته بيضاء طويلة، وكنت أشعر بالحرج لأن لحيتى مازالت قصيرة ومن السهل عليه أن يدرك بسهولة أنى أطلقتها منذ أيام قليلة فقط لمجرد تسهيل مهمتى عندهم..!

امتد الحوار بيننا ساعتين كاملتين.. وكان أول حوار شامل يدلى به مسئول من حكومة طالبان لصحفى منذ اندلاع الأزمة مع الولايات المتحدة الأمريكية..

فى بداية الحوار كنت أكتب وكان يملى على.. ثم رجوته أن يسمح بإدخال جهاز التسجيل حتى نستخدمه فيسير الحوار بيننا طبيعيا ومتدفقا.. فسمح بذلك.. لكنه لم يسمح أبدا بالتقاط صورة له أثناء الحوار.. قال لى: إن أمير المؤمنين الملا محمد عمر قال : «إنما الرجال بأفعالهم وليس بصورهم».. وإنه لا يجوز للإنسان أن تلتقط

له صورة إلا للضرورة فقط.. كإستعمالها فى جواز السفر مثلا.. ثم قدم لى صورة صغيرة له بحجم صورة جواز السفر.. بعد رجاء شديد منى..

وهذا هو نص الحوار:

● بدأت بسؤال عام لاستكشاف طبيعة الرجل قبل الخوض معه. قلت له : ما هو تقييمك للموقف الآن ورأيك فى هذه الأزمة؟

ـ قال : رأينا أن هذا ظلم للمسلمين.. لأن الأمريكيين ليس لديهم دليل واحد يثبت مسئوليتنا عن الحادث الذى وقع عندهم.. ولكنهم يتخذون منه فرصة لضرب المسلمين.. لقد بادروا بالإعلان إنهم سيضربون أفغانستان ودولا إسلامية أخرى معها قبل أن تنتهى التحقيقات التى يجرونها.. والقصد من ذلك بالطبع ليس القضاء على شخص واحد سواء كان هذا الشخص هو الشيخ أسامة بن لادن أو أمير المؤمنين الملا محمد عمر.. لكن القصد هو القضاء على إمارة الإسلام فى أفغانستان.. لأنها تطبق شريعة الإسلام كما أنزلها الله سبحانه وتعالى..

● قلت له : لكن الرئيس الأمريكى بوش قام بعد الحادث بزيارة المركز الإسلامى فى واشنطن.. وأعلن ان المعركة التى سيخونها ستكون ضد الأرهاب وليست ضد الإسلام..؟

ـ قال : والرئيس الأمريكى بوش هو نفسه الذى أعلن بعد الحادث مباشرة أنها ستكون «حربا صليبية»..!

● قلت : الإدارة الأمريكية صححت الموقف وقالت إنها كانت ذلة لسان من الرئيس..

ـ قال : لم تكن ذلة لسان.. ولكنها كانت مصداقاً لقوله تعالى فى القرآن الكريم : «ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم» صدق الله العظيم..

● قلت له : ألم يكن من الأفضل لكم تجنب تصعيد الأزمة بتسليم الشيخ أسامة بن لادن.. وكان يمكن التفاوض حول مكان محاكمته.. كأن تجرى المحاكمة فى بلد محايد مثلاً؟

ـ قال : طلبنا من الولايات المتحدة الأمريكية أن تقدم لنا دليلاً على مسئولية الشيخ أسامة عن الحادث فلم تقدم شيئا.. فكيف نسلمه.. ولمن؟.. أما إذا قدموا الدليل فنحن مستعدون لمحاكمته أمام المحكمة الإسلامية فى أفغانستان التى تحكم بما أنزل الله.. وليس أمام أى محكمة أخرى ولا فى أى بلد آخر.

● قلت له : ما رأيك فى موقف الحكومة الباكستانية التى أعلنت استعدادها لتقديم التسهيلات إلى الولايات المتحدة فى أى عمل عسكرى تقوم به ضد أفغانستان؟

ـ قال : نحن نعرف أن الحكومة الباكستانية اضطرت لاتخاذ هذا الموقف لإعتبارات سياسية معينة.. لكننا مطمئنون لأن الشعب الباكستانى يقف معنا.. ونحن لم ننس مساعدة الحكومة الباكستانية لنا منذ أكثر من ٢٠ سنة..

● قلت له : بلادكم الآن معرضة للقصف فى أى وقت.. وإغلاق الحدود مع باكستان منع الأفغان من اللجوء إليها.. لماذا وافقتم على إغلاق الحدود؟

ـ قال : لأن الظروف الاقتصادية فى باكستان لا تحتمل استضافة أعدادا أخرى من اللاجئين..

● قلت له : لكن بقاءهم فى أفغانستان سيعرضهم للقصف..؟

ـ قال : أمريكا لن تستطيع قصف كل أراضى أفغانستان.. وبوسع هؤلاء الناس البقاء عند الحدود مع باكستان.. وهى طويلة جدا - حوالى ٢٥٠٠ كم - ويمكن إرسال المساعدات الإنسانية إليهم..


الملا نجيب الله

● قلت له : هناك إحتمال أن تستخدم أمريكا السلاح النووى ضدكم.. وبالتالى سيصل خطره إلى من فى الحدود..؟!

ـ قال : الجواب على هذه المسألة بسيط جداً.. فالروس سبق أن إستخدموا ضدنا أسلحة الدمار الشامل الكيماوية والبيولوجية التى كانت تقضى على كل أنواع الحياة فى الجبل.. الضفادع والسلاحف والنباتات.. لكننا إنتصرنا عليهم بفضل الله.. لقد شاركت فى الجهاد ضد الروس منذ أول يوم بدأت فيه المعركة.. كانت الطائرات الروسية تلقى علينا أطنان القنابل بالليل والنهار.. لكنها لم تقتلنا وانتصرنا عليهم.. بل ولقناهم درسا قاسيا لم ينسوه أبدا..

ونحن الآن نرجو من الله سبحانه وتعالى إذا اعتدى الأمريكان علينا أن يثبت أقدامنا وينصرنا عليهم كما نصرنا من قبل على الروس من قبل..

لقد توكلنا على الله وأعددنا أنفسنا للجهاد.. وعزمنا على أن نلقن الأمريكيين وكل من يعتدى علينا درسا أقسى من الذى لقناه للروس من قبل.. سنجعل إن شاء الله أرض أفغانستان مقبرة لكل من يعتدى عليها..

● قلت له : ألا تخافون من أمريكا..؟

ـ قال : المسلم لا يخاف.. لأن كل شئ يصيب الإنسان فى حياته مكتوب فى اللوح المحفوظ قبل ولادته.. قال الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم : «قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .. صدق الله العظيم..

إن هناك لقبين فخر للمسلم في الدنيا والآخرة.. هما : مجاهد وشهيد.. ولقد جاهدنا الروس وسنجاهد الأمريكيين.. ومن يستشهد منا فى قتلهم فإن شهادته ستكون فخرا له فى الدنيا والآخرة.. يقول الله تعالى : «إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة».. ما أريد أن أقوله لك : أننا نؤمن بالله.. وقد جعل الله الدفاع عن الإسلام وعن أنفسنا وأهلنا وأموالنا وأرضنا فرضا علينا..

● قلت له : إنكم ستواجهون فى هذه الحرب أقوى جيوش العالم.. الجيش الأمريكى ومعه قوات من حلف الأطلنطى..؟

ـ قال : حتى أمس بلغ عدد الأفغان الذين قيدوا أسماءهم للشهادة في الجهاد ضد الأمريكيين أكثر من ٣٠٠ ألفا.. وفى كل بيت يقول كل أخ إذا استشهد أخى فسوف أحمل سلاحه وأقاتل الأمريكيين فى سبيل الله.. هؤلاء الـ ٣٠٠ ألف متطوع لديهم خبرة سابقة في محاربة الروس والنصر عليهم.. وهم من أبناء الشعب الأفغانى وليسوا من جماعة طالبان..

فإذا أضفنا إليهم جنود طالبان وهم نصف مليون مقاتل مستعدون للجهاد يصبح جيشنا ٨٠٠ ألف..

لدينا أيضا إحتياطى آخر.. هم تلاميذ المدارس الدينية فى أفغانستان الذين تتراوح أعمارهم بين ١٥ و٢٥ عاما وهم سعداء بالجهاد.. وعددهم فى مدينة واحدة هى قندهار حوالى ٧٠ ألفا.. فما بالك بأعداد تلاميذ المدارس الإسلامية في المدن الأفغانية الأخرى مثل : حيرات، ومزار الشريف، وجلال آباد.. وغيرها..

وما بالك بالمتطوعين للجهاد معنا من الأقطار الإسلامية الأخرى..

● قلت له : يا مولانا أعرف أن لديكم كثرة العدد.. وقوة الإيمان بالله والوطن.. وحب الشهادة.. لكن أسلحتكم ليست متقدمة كأسلحة الأمريكيين.. فكيف ستواجهونهم؟

ـ قال : التاريخ موجود فى القرآن الكريم.. سجله لنا الله سبحانه وتعالى وليس بقلم مؤرخين من البشر.. يقول التاريخ الإسلامى إن جنود الرسول صلى الله عليه وسلم في معركة بدر كانوا ٣١٥ جنديا فقط.. وليس معهم إلا ٣ سيوف.. بينما كان عدد المشركين أكثر من ألف مسلحين بالسيوف والرماح والسهام لأنهم خرجوا بنية الحرب.. فعندما التقى الفريقان، أنزل الله سبحانه وتعالى من السماء ملائكة تحارب

المشـركين مع جنود رسـول الله وقد نزلت الملائكة على مرتين.. فى المرة الأولى ثلاثة آلاف.. وفى المرة الثانية خمسة آلاف.. فانتصر المسلمون على المشركين..

● قلت له : هل معنى ذلك أنكم تعتقدون أن الملائكة ستنزل من السماء لتحارب الأمريكيين معكم..؟

– قال : نعم .. لأن نزول الملائكة فى موقعة بدر.. لم يكن فقط بسبب وجود رسول الله صلى الله عليـه وسلم فى المعـركـة.. ولكنه كـان من أجل نصرة المسلمين على المشركين.. فالملائكة ينزلون فى كل معركة تنشب بسبب الدفاع عن الإسلام ويحاربون فى صفوف المجاهدين..

ولقد رأيت بعينى أثناء المعركة مع الروس.. حيث كـان كل واحد من المجـاهدين يقاتل عشرة من الروس فيهزمـهم.. وأحيانا كان رجل واحد من المجاهدين يهزم ٥٠ من المقاتلين الروس.. وذلك طبعا بسبب نزول الملائكة من السماء تحارب فى صفوف المجاهدين..

الآن.. نرجـو من الله سبحـانـه وتعـالى إذا اعـتـدى علينا الأمـريكيـون.. أن ينزل مـلائكة من السـمـاء تحـاربهم مـعنـا حتى ننتصر عليـهم كما انتصرنا من قبل على الروس..

● قلت له : لننتقل إلى نقطة أخرى هى علاقتكم بالعالم الخارجى.. فأنتم منذ ٥ سنوات تسيطرون على نحو ٩٠٪ من أراضى أفغانستان وتمسكون بمقاليد السلطة.. لكن معظم دول العالم ظلت ترفض الاعتراف بكم وتعترف بشرعية نظام برهان الدين ربانى.. فما تعليقك؟

– قال : عدم الاعتراف بنا يرجع إلى أصحـابه ولن يغير سياستنا.. وأعود مرة أخـرى لأقول لك إن التاريخ موجـود.. فـعندمـا بعث الرسـول صلى اللـه عليـه وسلم بالرسـالة.. لم يعتـرف به معظم أهل مكة.. حتى عـمه أبو طالب لم يعتـرف به.. لكن بنصـر الله انتشـر الإسلام بعد ذلك فى أرجاء الدنيـا.. واعترف العـالم كله برسالة سيدنا محمد..

● قلت له : البـعض يرى أن عدم الإعتـراف بشرعـية حكومـتكم يرجع إلى تشدد أحكامكم.. فأنتم تأمرون الناس بإطلاق اللحى.. وتحـرمـون مشـاهدة التليـفزيون.. وأغلقتم مدارس البنات.. أليس كل ذلك صحيحاً..؟

– قال : وسائل الإعلام الغربية أطلقت علينا شائعات كثيرة بهدف تشويه صورتنا كإمارة إسلامية تطبق فى الحكم شريعة الله.. لكن دعنى أوضح لك :

أولا : بالنسبة للحى.. هى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.. والملائكة عندما نزلوا من السماء فى معركة بدر.. نزلوا باللحى.. وبالتالى هى حكم شرعى وعلى أمير المؤمنين الملا محمد عمر أن يلزم الناس به..

ثانيا : بالنسبة لتحريم التليفزيون.. فأنت تعلم أن الظروف الاقتصادية عندنا صعبة جدا.. فهل نترك الناس ينصرفون عن العمل لمشاهدة الفسق فى التليفزيون.. فلا يجد أولادهم ما يأكلون..!

ثالثا : بالنسبة لتعليم البنات نحن نسمح بتعليم البنات الصغار فى المدارس.. لكن الظروف الحالية لا تسمح بفتح المدارس الآن..

● قلت له : هل تسمحون للمرأة بالعمل؟

ـ قال : العمل الذى يجيزه كتاب الله.. وليس العمل الذى يختلط فيه النساء بالرجال..

● قلت له : كيف ترى مستقبل أفغانستان بعد الحرب مع أمريكا؟.. البعض يقول أن أمريكا تخطط لإعادة الملك السابق ظاهر شاه إلى حكم أفغانستان.. والبعض الآخر يعتقد أنها تخطط لإعادة برهان الدين ربانى.. فماذا تتوقع..؟

ـ قال : أعوذ بالله أن أتحدث عن الغيب.. لأن الغيب لا يعلمه إلا الله..

لكن بالمنطق.. لا ظاهر شاه ولا ربانى يصلحان لقيادة أفغانستان.. لأن أفغانستان التى أستشهد منها نحو مليونين في الجهاد ضد الروس من أجل إعلاء كلمة الله.. لن تسمح أبدا أن يأتى إلى الحكم فيها إلا من يطبق شريعة الله..

فإذا كان كل من ظاهر شاه وربانى يشرب الخمر ويخالط النساء.. فكيف يسمح له بالوصول إلى الحكم..!

وإذا كانت بنات ربانى يتلقين تعليمهن فى أمريكا.. فكيف بعد ذلك يصلح لقيادة أفغانستان..!!

لقد شغل ربانى من قبل منصب رئيس الجمهورية فى أفغانستان مدة ٤ سنوات.. لكنه لم يستطع الاستمرار في الحكم بسبب انتشار الفساد والرشوة والسرقة والقتل والزنا وكل الكبائر فى عهده.. ففقد الشعب الثقة فيه ولم يحترمه.. ورحب بمجيئ طالبان إلى الحكم..

● قلت له : سيناريو آخر.. وهو إثارة الفتنة بين القوميات الأفغانية المختلفة – البشتون والطاجيك والأوزبك – حتى تفتك ببعضها.. بدلا من أن تتورط أمريكا فى حرب مماثلة لحرب فيتنام.. فما رأيك؟

ـ قال : يا أخى الكريم.. تاريخ أفغانستان يقول إن جميع قوميات وفئات الشعب الأفغانى تتحد مع بعضها دائما ضد المعتدى حتى يخرج من بلادهم مهزوماً.. لقد هزمنا من قبل البريطانيين والروس.. وإن شاء الله سنهزم الأمريكيين إذا اعتدوا على بلادنا.. لقد جاء إلينا الأسابيع الماضية متطوعون للجهاد ضد أمريكا من الطاجيك والأوزبك.. حتى من الهند جاءوا إلينا..

● قلت له : هل تعتقد أن جماعة طالبان ستظل تحكم أفغانستان بعد الهجوم الأمريكى المتوقع ضدكم..؟

ـ قال : إن شاء الله.. لأن الله معنا وسينصرنا على الأمريكيين..

* * *



المؤلف امام القنصلية الافغانية ببيشاور فى انتظار السماح له بالدخول

الفصل السابع

• رحلة إلى القبائل ..

« وضع عشر رصاصات
في خزينة البندقية..
وقال لي: اطلق النار..!»

□ *فى اليوم التالى نشرت جريدة «الجمهورية» حوارى مع الملا نجيب الله.. وكان ذلك بمثابة «جواز مرور» فتح أمامى الأبواب والنوافذ على مصراعيها مع جماعة طالبان..*

كنت أجلس مع الرجل فى مكتبه، وهو يستدعى الحوار المنشور فى «الجمهورية» عن طريق شبكة الإنترنت.. وملامح وجهه تعكس مدى سعادته بوصول آرائه إلى القراء فى مصر والعالم العربي.. ربت بيده على كتفي وقال: «بارك الله فيك»..

- فقلت له: «سأجاهد معكم إن شاء الله بقلمى.. إنه سلاح»..

مد يده ووضعها فى يدي كأنه يأخذ على عهداً.. وقال «الله معنا»..

كانت عيناه مركزتين فى عينى، ونظرته تشع بفيض هائل من السكينة واطمئنان المؤمن فنفذت إلى أعماقى واستقرت بها.. لم أنسها حتى الآن..

- قلت له: «لكن يامولانا.. السلاح لايعمل بدون ذخيرة.. وسلاحى يحتاج منكم إلى الذخيرة»..

- سألنى: «كيف..؟»

- قلت له: «بالمعلومات والرسائل التى تريدون إرسالها إلى الرأى العام العالمى.. إن جريدتى «الجمهورية» واسعة الانتشار فى كل أنحاء العالم العربى.. وتنشر كل يوم جميع صفحاتها على شبكة الانترنت فتصل إلى كل مكان فى العالم.. وتنقل عنها وكالات الأنباء والإذاعات وشبكات التليفزيون.. ولو ساعدتنى فى ترتيب لقاء للحوار مع الشيخ أسامة بن لادن أو أمير المؤمنين الملا محمد عمر.. فإن هذا الحوار سيصل إلى كل أنحاء العالم.. سيقرأه الرئيس بوش وكل مواطن فى الولايات المتحدة.. ولاشك أنكم تريدون أن تنقلوا إليهم بعض الرسائل.. فها هو سلاحى أمامكم.. ضعوا فيه الذخيرة وسوف أطلقها فوراً»..

كان الملا نجيب الله ينصت باهتمام.. وكنت أراقب ملامح وجهه وأحاول جاهداً أن انتزع منه كل مايمكن أن يقدمه لى من مساعدة للوصول إلى أسامة بن لادن أو الملا محمد عمر.. لكنه حسم الأمر سريعاً بقوله:

- مكانهما الآن مجهول.. انتظر حتى تنتهى الأزمة وساصطحبك بنفسى إلى الملا محمد عمر..

– قلت: وهل سيوافق على إجراء حوار معى..
– قال: ولم لا.. إنه رجل طيب جداً وسوف يرحب بك..
– قلت له: يامولانا.. إن أهمية الحوار هى في الوقت الحالى.. وقت اشتداد الأزمة وليس بعد انتهائها.. وأنتم تتعرضون كل يوم لوابل من قذائف المدفعية الثقيلة التى تطلقها عليكم وسائل الإعلام الغربية.. ألا تريدون الرد على هذه القذائف..؟
– قال: سأرتب لك لقاء مع الملا عبدالكبير نائب رئيس الوزراء.. إنه يقيم قريباً من هنا فى مدينة «جلال آباد».. لكن لابد أولاً من الحصول على «الإجازة» من وزير الخارجية وكيل أحمد متوكل بإعطائك تأشيرة دخول أفغانستان.. انتظر عدة أيام وسوف أرتب لك هذا الأمر..

* * *

انتظرت عدة أيام أمضيت بعضها فى منطقة القبائل..
شريط حدودى طويل بين باكستان وأفغانستان يصل عرضه فى بعض المناطق إلى ٤٠ كم تسكنه مجموعة من قبائل البشتون التى أضطر معظمها للهجرة إليه من أفغانستان أثناء فترات الصراع والحروب التي شهدتها على مدى العقدين الماضيين.
– الوصول إلى هذه المنطقة.. كان نوعاً من المغامرة غير مأمونة العواقب فى ذلك الوقت.. لأن الناس هناك تعيش أقسى ظروف الحياة من فقر وبؤس.. وطبيعة جبلية قاسية.. وإحساس شديد بالتعاسة لتركهم بيوتهم وحقولهم فى بلادهم واضطرارهم للجوء إلى هذه المنطقة والعيش فيها.. إما داخل خيام، أو كهوف، أو بيوت بدائية.. اضف إلى ذلك المناخ السياسى العام الذى يشعرون فيه بأن العالم كله قد تكتل ضدهم مع الولايات المتحدة الأمريكية.. حتى باكستان حليفتهم القديمة فضلت هي الأخرى الانضمام إلى التحالف الدولى الذى أنشأته الولايات المتحدة لشن الحرب على بلادهم.
كانوا يعيشون حالة انتظار سماع أنباء هذه الحرب..!
كل هذه الظروف الحياتية والنفسية انعكست على تصرفاتهم.. فاتسمت بالعنف والفظاظة والشك فى كل من هو غريب.. لأنه من وجهة نظرهم غالباً ما يكون جاسوساً جاء لجمع المعلومات ونقلها إلى أجهزة المخابرات الغربية.. لذلك فهم دائماً يصادرون مالديه من أدوات.. كالهاتف المحمول والكاميرا وجهاز التسجيل، بالإضافة إلى مايحمله من نقود وأوراق.. إلخ.. وأحياناً يأسرونه ويطلبون فدية.. فتتدخل الحكومات.. وتبدأ الوساطات.. وهكذا..
حكايات وقصص كثيرة من هذا النوع.. كنت أسمعها كل ليلة فى البهو الرئيسى للفندق، وأنا جالس أحتسى الشاى مع زملائى من الصحفيين الأجانب.. أتراك وألمان وأنجليز.. كل واحد كان يحكى تجربته عندما حاول الوصول الى منطقة القبائل..

كيف ذهب.. ومن قابل .. وماذا جرى..

وعرفت أن حكومة باكستان أرادت أن تعفى نفسها من مسئولية حماية الصحفيين المغامرين الذين يحاولون الذهاب إلى هذه المنطقة.. فأغلقت الطرق المؤدية لها.. وأقامت بوابات أمنية ووضعت لافتات ضخمة لتحذير الأجانب من الذهاب إليها دون الحصول على تصريح رسمى من الجهات المسئولة..

وكان منح التصاريح قاصراً بالطبع على موظفى وكالات الإغاثة الدولية وغيرهم من الرسميين المسافرين إلى أفغانستان في مهام رسمية..

أما الصحفيون فممنوعون..!

* * *

هذا الموقف الباكستانى الذى يعكس بوضوح ضعف السيادة الباكستانية على منطقة القبائل له جذور تاريخية تعود إلى ماقبل نشأة دولة باكستان نفسها عام ١٩٤٧..!

ففى عام ١٨٩٣.. قامت بريطانيا برسم خط حدود بين إمبراطورية الهند فى ذلك الوقت وأفغانستان هو خط «ديوراند» الذى قسم قبائل البشتون بصورة تعسفية بين الدولتين فأصبحوا يعيشون على جانبى الخط منقسمين.. لكن ظل انتماؤهم العرقى للقبيلة أقوى من انتمائهم للدولة التى يعيشون داخل حدودها.. بل تولد لديهم – بسبب تقسيمهم – حلم إقامة دولة واحدة تجمعهم تحت اسم: «دولة بشتونستان الحرة المستقلة».. وهو حلم مازال قائماً لدى البعض حتى الآن، ومازال هناك من يردد مقولة عبدالجعفر خان على فراش الموت عام ١٩٨٩: «أنا من البشتون منذ ٥ آلاف سنة، ومسلم منذ ١٤٠٠ سنة، وباكستاني منذ ٤٢ سنة»..! وعبدالجعفر خان هو أحد الرموز الكبيرة التى تعبر عن هوية البشتون المستقلة، لدرجة أن أتباعه يطلقون عليه لقب: «غاندي إقليم الحدود الشمالية الغربية».

أفغانستان أيضاً ظلت لا تعترف بحدودها الجغرافية مع باكستان كحدود نهائية.. وتنتظر وعداً قديماً بإعادة مناطق البشتون إلي أراضيها التى تعتبر أنها أقتطعت منها.. وكانت علي أمل أن يتحقق ذلك بعد مرور قرن كامل علي التقسيم.. أى فى عام ١٩٩٣.. لكن الوعد القديم لم يتحقق لسببين.. الأول: رفض باكستان التنازل عن هذه الأراضى.. والثانى: انشغال الأفغان أنفسهم بالحروب والصراعات الداخلية بينهم..

حتى بعد وصول طالبان إلي السلطة فى عام ١٩٩٦ واستقرار الأوضاع بدرجة ما.. لم تثر طالبان هذه القضية مع باكستان بسبب احتياجها الشديد لها.. حيث كانت باكستان بالنسبة لطالبان هى مصدر الدعم الرئيسى مالياً وعسكرياً، فضلاً عن قيامها بالترويج لها على الساحة الدولية لحث دول العالم على الاعتراف بها كحكومة شرعية لأفغانستان..

هكذا استمر الوضع في منطقة القبائل غير مستقر..

السكان يشعرون بأن باكستان ليس لها حق السيادة عليهم.. ويحلمون بإقامة دولة مستقلة.. وفى نفس الوقت هم فى حاجة شديدة إلى ماتقدمه لهم باكستان من معونات في شكل أغذية وخيام وأغطية.. إلخ.

وقد أطلق على هذه المنطقة اسم «القبائل».. نظراً لأن السلطة فيها «للقبيلة» وليست للدولة التى يعيشون داخل حدودها.. ومن ثم فإن سلوكيات الناس تخضع لعرف القبيلة وليس لقوانين الدولة.. إنه أشبه بنوع من «الحكم الذاتى» استخلصوه لأنفسهم وفرضوه على باكستان..!

* * *

أخبار مايجرى فى منطقة القبائل كانت كل ليلة من الموضوعات التى نتحدث فيها أثناء لقاءاتنا بعد العشاء فى الصالة الرئيسية بفندق «شيراز إن».. وكان مدير الفندق شاباً ملتحياً فى مثل سنى اسمه «شاهد إقبال».. متحمساً لتلبية كل ما أطلبه منه.. فطلبت منه مساعدتى فى التسلل إلى منطقة القبائل بأى شكل ومهما كان الثمن..!

كانت الخطة التى وضعناها معاً تبدأ بالبحث عن شخص من سكان المنطقة نفسها يصطحبنى معه إلى الداخل نظير مبلغ معين.. على أن يكون ممن يتحدثون العربية أو الإنجليزية لكي يتولى ترجمة الحوار بينى وبين سكان المنطقة..

بعد يومين استطعنا أن نعثر على هذا الشخص.. رجل فى العقد السادس من عمره يشبه خفراء القرية.. حضر إلى الفندق فى الساعة السابعة صباحاً لنبدأ الرحلة إلى منطقة «ترخم» التى تقع على الحدود مع أفغانستان عن طريق «حياة آباد» .. هكذا اقترح الرجل ونحن نتناول شاى الصباح.. كانت شخصيته تبعث علي الاطمئنان إليه.. لكننى رغم ذلك رغبت فى ترك اسمه وبياناته الشخصية لدى مدير الفندق- من باب الحذر- حتى يمكن اقتفاء أثرى إذا ما تعرضت للاختطاف.. فسألت الرجل عن اسمه.. قال لي: عبدالله.. سألته عن بقية اسمه.. قال لى: خير الأسماء عبدالله.. قل لي يا عبدالله..

لم أشأ أن أجعله يشعر بما يدور فى نفسى.. فقلت له أنا صحفى من مصر جئت إلى هنا لتغطية الأحداث.. وأنت ماذا تعمل؟..

قال لى: أنا مجاهد.. اشتركت فى الجهاد ضد السوفييت..!

سلمت أمرى لله.. وركبت مع الرجل سيارة أجرة عتيقة يبدو عليها انها من موديلات الخمسينيات.. أو من مخلفات الحروب فى أفغانستان.. تقدم بأدب شديد وفتح لى باب السيارة الأمامى فركبت.. ثم دفع الباب ليغلقه.. لكن الباب لم يغلق.. نزل سائق السيارة ودفع الباب بعنف عدة مرات.. لكن الباب لم يغلق..! فأخرج من جيبه حبلاً وربط الباب فى قائم السيارة.. وانطلقنا..

كانت معى حقيبة صغيرة بها كاميرا وجهاز تسجيل وقلم وأوراق.. ومبلغ ألف دولار قصدت أن يكون معى حتى إذا تعرضت لأى خطر.. يمكن أن أفتدى به نفسى..!

بدأت أسأل عبدالله عن أحوال الناس فى منطقة القبائل.. فاكتشفت أن عدد الكلمات التى يعرفها فى اللغة العربية قليل جداً.. لايزيد على عشرين كلمة تعلمها خلال فترة عمله ثلاث سنوات سائقاً فى ليبيا.. وأخذ يجيب على أسئلتى بالعربية والبشتونية فتعثر الحوار بيننا.. وكان السائق يحب الكلام فتدخل فى الحوار.. قلت للسائق إننى لا أفهم ما يقوله لأننى لا أعرف اللغة البشتونية.. لكنه أيضا لم يفهم ماذا أقصد فاستمر فى الكلام..!

ولأن الحوار بيننا كان متعثراً.. ونسبة فهم كل منا للآخر محدودة جداً.. فقد فوجئت بالسيارة تصل بنا إلى النقطة التي خططت طوال الأيام الماضية للهروب بعيداً عنها وأستأجرت عبدالله ليساعدنى فى ذلك.. إنها البوابة الأمنية التى تتصدرها لافتة ضخمة تحمل تحذيراً من الحكومة الباكستانية لكل أجنبى يحاول عبور هذه البوابة..!

استوقفنا الضابط الباكستانى وطلب منى إبراز تحقيق الشخصية وتصريح العبور.. فقدمت له جواز السفر.. وبعد مناقشات طويلة بيننا.. أطلعنى خلالها على قرار وزير الداخلية بعدم السماح للأجانب بعبور هذه البوابة إلا بتصريح من السلطات الباكستانية.. عدت إلى الفندق وودعت عبدالله والسائق..!

* * *

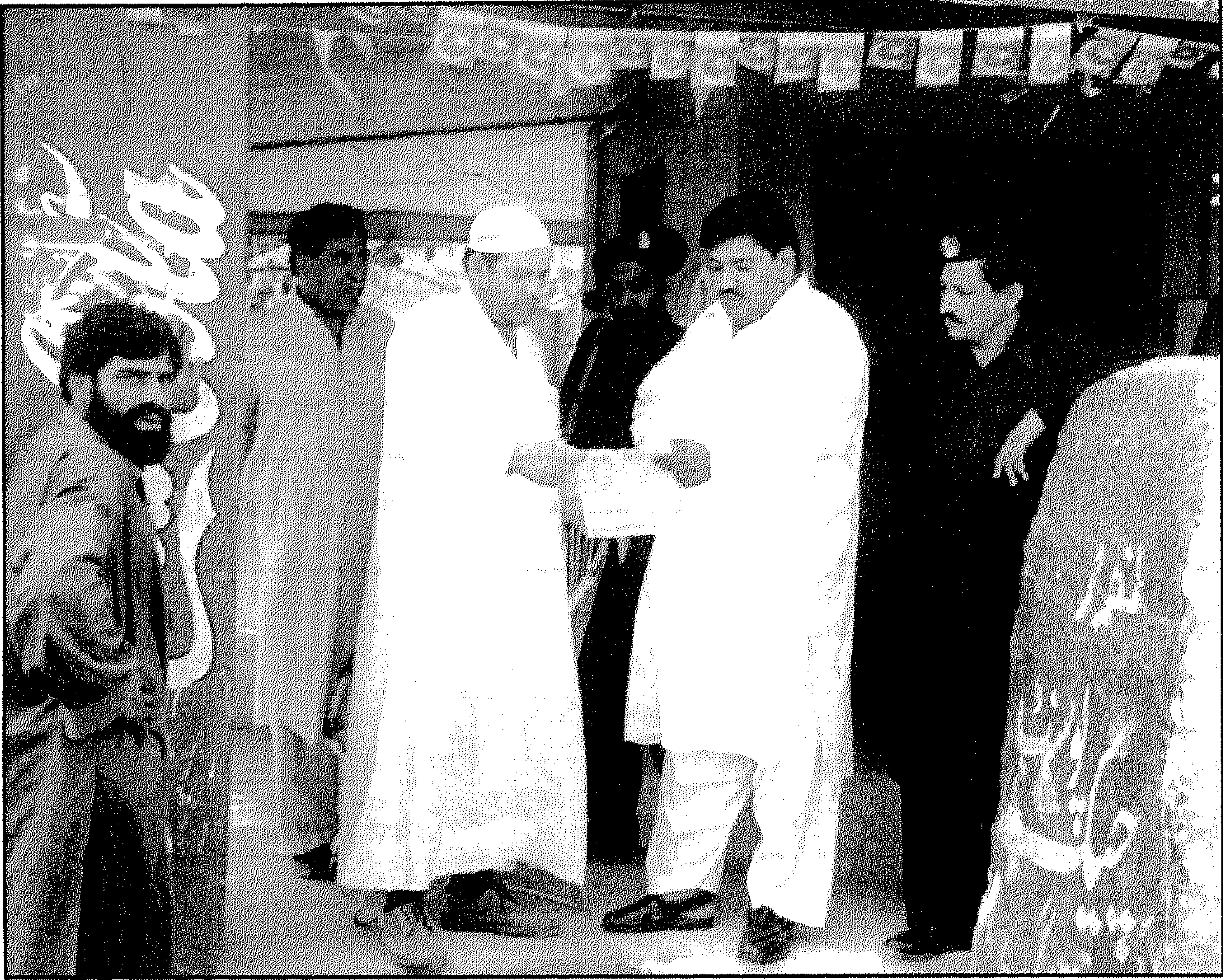
أوشكت أن أفقد الأمل فى الوصول إلى منطقة القبائل.. حتى جمعتنى الصدفة بعد ذلك برجل فى نهاية العقد الرابع من عمره داخل مكتب جوازات السفر فى بيشاور أثناء تمديد فترة إقامتي بباكستان..

وجدت الرجل قادماً نحوى يقصدنى وعلى وجهه إبتسامة عريضة كأنه يعرفنى.. ثم سألنى: هل أنت عربي؟.. قلت له: نعم.. فتواصل الحوار بيننا ثم تعارفنا.. ووجدت فيه الشخص الذى أبحث عنه، كأن الأقدار قد أرسلته لى.. فقررت ألا أتركه وأن أذهب معه أينما ذهب.

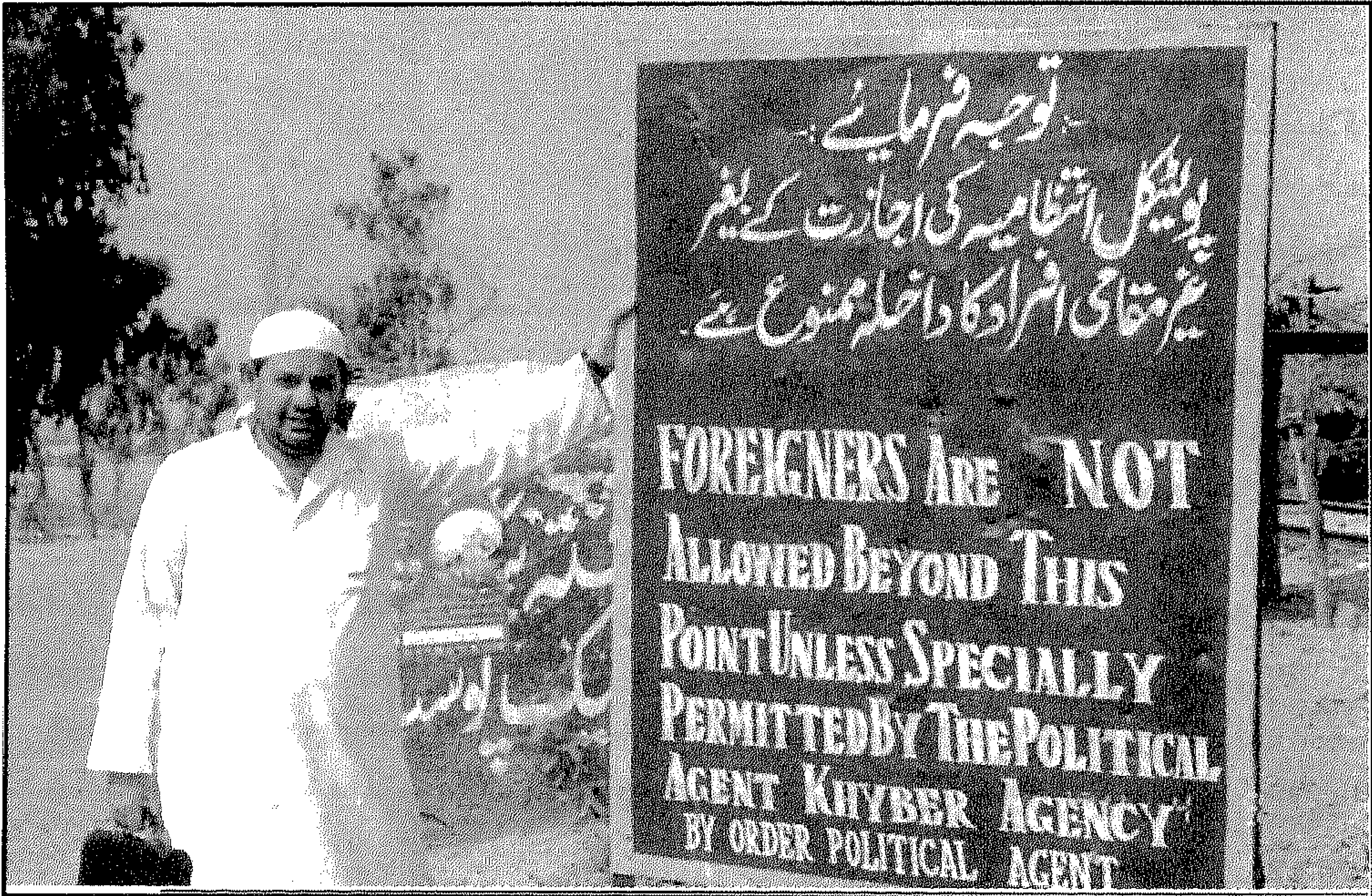
هو أحد سكان منطقة القبائل.. اسمه: «نياز ولى خان» عمل عشر سنوات فى فندق بمدينة الدوحة فتعلم اللغة العربية..

– قال لى بود وكرم بالغين: أنت هنا فى بيشاور ضيفى، وإذا أحتجت أى مساعدة أطلبها منى.

– قلت له: المساعدة المطلوبة هي الوصول إلى منطقة القبائل.. إننى أريد زيارة المخيمات والقرى والناس فى هذه المنطقة للتعرف على مواقفهم من طالبان وبن لادن والحرب التى تستعد أمريكا لشنها على بلادهم.. لكننى للأسف عندما حاولت الذهاب إلى «ترخم» منعتنى الشرطة الباكستانية..



الضابط الباكستاني يطلعني على قرار وزير الداخلية



لافتة كبيرة تحذر الاجانب من دخول منطقة القبائل

- قال: سنسلك إن شاء الله طريقاً آخر إلى القبائل.. سنتجه إلى «شبقدر»..
متى تريد أن تذهب؟.. قلت له: الآن..

كان برفقة «نياز» قريب له اسمه «جول محمد».. اصطحبني الرجلان إلى سيارتهما التى كانت تقف خارج مكتب الجوازات.. وأصرا علي أن أجلس فى المقعد الأمامى لأنى ضيفهما.. ثم انطلقت بنا السيارة إلى «شبقدر» فوصلنا إليها بعد حوالى نصف ساعة..

مدينة صغيرة بائسة.. ليس فيها من طابع الحياة المدنية سوى التيار الكهربائى فقط.. الناس فى الشوارع فقراء وبسطاء.. تشعر أنهم يخوضون معركة يومية من أجل الحصول على لقمة العيش.. رغم ذلك فهم مشغولون بتداعيات أحداث ١١ سبتمبر التى فرضت عليهم.. وأصبح لهم موقف منها عبروا عنه بأكثر من طريقة.. أحياناً بالرسوم على الجدران وأحياناً باللافتات فى الشوارع..


الشارع الرئيسى فى مدينة شبقدر

أو صور أسامة بن لادن على واجهات المحال التجارية.. الكل يرفض تسليم بن لادن ومستعد للجهاد ضد أمريكا..

توقفنا لأداء الصلاة بأحد مساجد المدينة.. ثم غادرناها إلى منطقة القبائل.. بعد قليل وصلنا إلى ممر مائى عبرناه فوق جسر اسمه «سبحان خور».. قال «نياز»: إن هذا الجسر هو الحد الفاصل بين المناطق التى تقع تحت سلطة الحكومة الباكستانية، والمناطق التى تقع تحت سلطة زعماء القبائل أنفسهم.. سألته: هل معنى ذلك أننا خرجنا من حدود دولة باكستان.. قال: لا نحن مازلنا فى دولة باكستان.. لكن سلطة الدولة في هذه المناطق ضعيفة.. والكلمة الأولى هي لزعماء القبائل.. ونحن الآن ضيوف عند القبائل..

كانت أول قرية وصلنا إليها فى المنطقة اسمها: «بيرقلا».. وجدت معظم المساكن فيها ليست بيوتاً بالمعنى المفهوم.. ولكنها أقرب إلى أن تكون عششاً ودكاكين..

باستثناء بيوت قليلة فقط مكونة من طابق واحد بنيت بالزلط والطين.. لفت نظرى مدخل أحد هذه البيوت صنعه صاحبه من ثلاثة صواريخ أحاطهم بالأسمنت..! ورأيت على باب إحدى العشش عدة صواريخ «آر. بى.جى» موضوعة فى «جردل».. فسألت «نياز» عنها.. قال إنها معروضة للبيع..!

قلت له: هل يمكن أن التقط لها صورة.. قال: لاداعى لذلك لأننى لا أعرف أحداً من سكان هذه القرية.. دعنا نذهب إلى قرية أخرى قريبة من هنا اسمها: «ياكاغوندا».. فلي صديق هناك يتاجر فى الأسلحة وعنده محل كبير به بنادق ومدافع وصواريخ.. صور منها ماشئت..!

* * *

عند مدخل «ياكاغوندا» أشار «نياز» إلى مبنى كبير خال به آثار حريق.. قال لى إن هذا المبنى له قصة تلخص لك العلاقة بين الحكومة الباكستانية وسكان هذه المنطقة.. فذات يوم منذ حوالى عامين قررت المحكمة إنشاء هذا المبنى ليكون مقراً لنقطة شرطة.. لكن زعماء القبائل رفضوا ذلك، وأعتبروا أن وجود قوات للشرطة بالمنطقة يعنى انتقاصاً من سيادتهم عليها.. إلا أن الحكومة أصرت على موقفها وأرسلت ضابطاً وبضعة جنود.. فهجم عليهم الأهالى وطردوهم وأحرقوا المبنى..!!


جول محمد

نياز ولى خان

قدمنى «نياز» إلى صديقه تاجر الأسلحة فى «ياكاغوندا».. رجل فى الأربعينيات من عمره اسمه «محمد الرحمن».. أقبل علينا نحن الثلاثة معانقاً ومرحباً.. وعندما قال له «نياز» إننى من مصر عانقنى الرجل مرة أخرى وقال لى إن له صديقاً فى مصر اسمه «محمد» اشترك معه في الجهاد ضد الروس لكنه لا يتذكر بقية الاسم.. قلت له اعتبرنى من الآن صديقك الثاني فى مصر وعندما تحل بها فى أى وقت فأنت ضيفى..

تلقى الرجل دعوتى بامتنان شديد.. ثم قدم لنا الشاى الأخضر والحلوى الأفغانية وجلسنا جميعاً على الأرض داخل المحل وسط الأسلحة.. نتبادل عبارات الترحيب والإطراء والمجاملة..

ويبدو أن الرجل حتى تلك اللحظة لم يكن قد فهم الهدف من زيارتى له.. فقد فوجئت به ونحن نشرب الشاى يسألنى عن نوع قطعة السلاح التى أريد شراءها وقبل أن أجيب أخذ يشير بيده إلى البنادق والمدافع على الأرفف وهو يقول:

المحل محلك.. مد يدك واختر بنفسك ماتشاء.. وجرب السلاح الذي يعجبك قبل أن تشتريه.. فقلت له إننى لم أحضر لشراء سلاح.. ولكننى صحفى من مصر حضرت إلى المنطقة لتغطية الأحداث التى تدور فيها ولقاء الناس والتعرف علي آرائهم بشأن الأزمة بين طالبان وأمريكا وموضوع تسليم أسامة بن لادن.. وأريد أن أسمع رأيه..

- رد بسرعة: أنا ضد أمريكا.. ولا أوافق على تسليم أسامة بن لادن..

- قلت له: وكيف ستواجهون أمريكا صاحبة أقوى جيش فى العالم إذا أعلنت عليكم الحرب؟

- قال بثقة كبيرة: نحن مجاهدون ومستعدون للحرب.. لدينا السلاح والذخيرة والإيمان بالله..

- قلت له: المشكلة يا أخ محمد أن البنادق الكلاشينكوف والمدافع الرشاشة وصواريخ الآر. بى.جى الموجودة لديك فى المحل تصلح لحرب العصابات.. لكنها لاتصلح لإسقاط طائرات الشبح والاف ١٦ وصواريخ كروز الأمريكية فكيف ستحاربون أمريكا؟



محمد الرحمن يجلس فى «دكانه» بين البنادق والرشاشات

- قال: بنفس الطريقة التى حاربنا بها الروس.. لقد كان لديهم أيضا الطائرات نفاثة والصواريخ والأسلحة المتقدمة.. ورغم ذلك انتصرنا عليهم وأجبرناهم على إنسحاب.

- قلت له: عندما حاربتم الروس.. كانت أمريكا تساعدكم.. وكذلك باكستان ومعظم دول الإسلامية والعربية.. لكن لا أحد يساعدكم الآن.. كل العالم يقف فى صف مريكا ضدكم..

- قال: الله معنا.. يؤيدنا وينصرنا عليهم.. ثم قرأ الآية الكريمة: «وما النصر إلا ن عند الله».



المؤلف حاملا الكلاشينكوف

شعرت بأن محمد الرحمن ليس له ى مثل هذا النوع من المناقشات.. وأن جاباته على أسئلتى مختصرة جداً ن رأسه ليس فيها إلا أنواع الأسلحة الذخائر وضرب النار.. وفى الوقت ذى كنت أركز اهتمامى فيه على طرح أسئلة عليه وإرساء منطق للمناقشة ينا.. كان اهتمامه مركزاً على إعادة لىء أكواب الشاى للضيوف كلما رغت.. فقلت له: لا أريد المزيد من شاى.. قال: من تقاليد القبائل أن عاد ملء كوب الشاى كلما فرغ طوال ترة الزيارة وأن يأكل الضيف من طعام عند المضيف له.. قال ذلك وهو قدم لى المزيد من الحلوى الأفغانية.. أكلت منها وشربت عدة أكواب من شاى الأخضر احتراماً لتقاليد قبائل.. ثم أدرت موضوع الحديث ى مايحب محمد التحدث فيه.. وهو واع الأسلحة.. فأشرت إلى إحدى بنادق وسألته: مانوع هذه بندقية؟.. فنهض بسرعة وأحضرها ى قائلاً: بندقية كلاشينكوف روسى.. ألته: ماسعرها قال: جربها أولاً.. قلت له: لم استعمل أية بندقية منذ أكثر من ٢٠ عاماً.. ل.. تعال معى إلى معسكر التدريب وسأدربك على ضرب النار.. إنه قريب من هنا..



في الطريق إلى معسكر التدريب

خرجنا من المحل واتجهنا إلى ساحة واسعة مساحتها عدة أفدنة تقع فى بطن الجبل.. قام محمد بوضع عشر رصاصات فى خزينة البندقية وقال لى: اطلق النار.. تذكرت وضع إطلاق النار الذى دربني عليه الصول «بخيت» عندما كنت جنديا بالقوات المسلحة.. فاتخذت هذا الوضع وثبت كعب البندقية فى كتفي ثم ضغطت على الزناد وواصلت إطلاق النار حتى فرغت الخزينة.. عانقنى محمد وهو يقول: ماشاء الله.. من الآن أنت ستجاهد معنا..!

عرفت بعد ذلك أن سعر البندقية التى أطلقت منها النار ٦ آلاف روبية باكستانية.. أى أقل قليلاً من ١٠٠ دولار أمريكى.. وعنده بنادق أخرى ومدافع وقاذفات صواريخ يتراوح سعرها بين ٣ آلاف و٢٠ ألف روبية.. وفتح لى صناديق ذخيرة طول الرصاصة فيها يزيد على ١٠ سنتيمترات.. قلت له: من أين يأتيك كل هذا؟.. قال: من كل مكان.. من الصين وروسيا وأمريكا.. سألته: كيف تصل إليك؟.. قال: من أفغانستان.. الحدود قريبة جداً من هنا.. إذا صعدت هذا الجبل ستجد أفغانستان فى الجانب الآخر..



قالوا لى : من الان ستجاهد معنا .. !

كان محمد الرحمن نموذجاً لهذا النوع من الناس الذى يجمع بين جنبيه طيبة القلب الشديدة والجسارة على القتل.. وهو واحد من هؤلاء الذين التقيت بهم.. وعاشوا فى ذاكرتى..

* * *

بعد «ياكاغوندا» اتجهنا إلى قرية أخرى فى منطقة القبائل اسمها: «متماغو لخير»..

نفس البيئة الاجتماعية.. والوجوه.. والمشاعر.. وطريقة التفكير وآراء الناس.. أمريكا هى العدو.. وأسامة بن لادن هو البطل.. الكل يرفض تسليمه ومستعدون للجهاد ضد أمريكا..

سألت عن أحد المتعلمين فى القرية فجاء شاب اسمه «ممتاز محمد».. يدرس المنطق والفقه والحديث والتفسير بمدرسة القرية.. سألته عما إذا كانت مناهج التدريس تشمل أيضاً العلوم العصرية كالفيزياء والكيمياء.. قال: لسنا فى حاجة إلى هذه العلوم..

كان يتحدث العربية الفصحى.. فأجريت معه هذا الحوار:

- ما رأيك فى الأزمة الحالية بين طالبان وأمريكا..؟

- غير جائز أن تطلب أمريكا من طالبان تسليم الشيخ أسامة بن لادن، لأنها لاتملك دليلاً ضده..

- وماذا ستفعلون لو شنت أمريكا الحرب على بلادكم..؟

- قال تعالى: «كتب عليكم القتال وهو كره لكم».. سنقاتل أمريكا..

- هل أنت مقتنع بسياسة طالبان لكى تقف معها فى القتال ضد أمريكا.. لقد فرضت على الناس إطلاق اللحى.. وحرمت مشاهدة التليفزيون وسماع الموسيقى.. وفرضت إجراءات متشددة على حياة الناس.

- هذه الاشياء بالنسبة لنا ليست تشدداً.. لأنها شريعة الله وتتفق مع عاداتنا وتقاليدنا.. ثم ما الذي يزعج أمريكا عندما أطلق لحيتى..؟!.. نطلق اللحى أو نقصها هذا شأن خاص بنا ولايجوز لأمريكا أن تتخذ منه ذريعة للهجوم على بلادنا..! تدخل فى الحوار شخص آخر اسمه: «محب الله نور محمد».. قال: نحن هنا نعيش أصعب الظروف الإنسانية.. وليس لطالبان ولا باكستان ولا أسامة بن لادن سلطان علينا.. لكننا لانوافق علي تسليم بن لادن لأمريكا..

فى شوارع القرية التقيت بأشخاص آخرين:

- جميل محمد.. سألته: هل أنت باكستاني؟.. قال: لا.. أنا قبائلى وباكره أمريكا..

- دفتر ستان.. قال لى: أمريكا ستشن حرباً على الدول الإسلامية الواحدة بعد الأخرى بدعوي محاربة الإرهاب.. بدأت بأفغانستان.. وغداً العراق ثم إيران واليمن والصومال وهكذا.. لكنها لن تنتصر..!

* * *

قرية أخرى علي مسافة بعيدة جداً إلى الجنوب اسمها «إيساخيل».. التقيت بأحد أبنائها اسمه «بشير أحمد جول».. صديق حميم لـ «نياز» و«جول محمد» ومن نفس قبيلتهما: «مهمند إجينسى».

بالأحضان الحارة استقبلنا الرجل فى محل يملكه لبيع الأدوات المنزلية.. كلها أدوات بدائية تناسب احتياجات سكان القرية.. من لمبات ومواقد تعمل بالكيروسين إلى أطباق صاج وأباريق شاى ومقشات.. إلخ..

جلسنا جميعاً على فراش من الحصير وسط المحل ثم قدمنى «نياز» لصديقه.. وحكى له عن مهمتى الصحفية التى حضرت لأجلها من مصر.. فقال الرجل لى مستنكراً: وهل أمريكا تستحق منك كل هذا التعب..؟!

- قلت له: إنها الآن القوة العظمى الوحيدة فى العالم..

- قال بغضب: استغفر الله.. استغفر الله.. إن القوة العظمى الوحيدة هو الله سبحانه وتعالى.. أما أمريكا فلا تساوى جناح بعوضه..!

قلت له: كيف؟

- قال: لأن الدنيا كلها منذ خلقت وحتى قيام الساعة لاتساوى عند الله جناح بعوضة!

- قلت له: إننى اتحدث بمعايير البشر والمخلوقات.. وليس بمعايير الخالق سبحانه وتعالى..

- قال: أمريكا بقوتها وأسلحتها وجيشها لاتساوى شيئاً.. إنها أقل من نصف هذا.. وأشار الى ظفر إصبعه.!

قلت له: كيف تقول ذلك عن أمريكا وهى صاحبة أقوى جيش فى العالم..؟

هنا فقد الرجل صبره.. وقال لـ «نياز» الذى كان يقوم بترجمة الحوار بيننا:

قل لضيفك ألا يذكر اسم أمريكا أمامى.. لقد صبرت على كلامه لأنه ضيف.. أما إذا كان سيظل يقول لى أمريكا وكندا.. فأنا لا أحب سماع ذلك.. ثم وجدت الرجل يشيح بيده غاضباً وهو يقول بالعربية: «أمريكا أمريكا.. أمريكا ما فى شىء.. لاعندها قوة ولا عندها شىء»!

ولأننى فى النهاية غريب.. فى أرض مجهولة.. وليس باستطاعة أحد إقتفاء أثرى.. فقد ابتسمت وغيرت موضوع الحديث إلى التجارة والزبائن والربح الحلال.. إلخ، ثم لاحظت أن الرجل يستعين بأحد أبنائه في أعمال البيع.. فقلت له: ماشاء الله.. كم عدد أبنائك؟ ففوجئت به يرد: بعدد أهل الكهف..!!

اختصرت الكلام مع الرجل وقلت لـ: «نياز» هيا بنا نعود.. فطلب من الرجل أن يأذن لنا بالانصراف.. لكن الحوار بينهما استمر بعض الوقت، ثم وجدت «نياز» يقول لى: هو يقول لك سننتصر على أمريكا إن شاء الله.. لأن معنا خالق الأسباب.. خالق كل شىء.. فجيش أمريكا ليس أقوى من جيش فرعون.. ولا من جيش نمرود – في زمن سيدنا ابراهيم – وسوف يلقى بوش بإذن الله مصير نمرود.. حيث أرسل الله له بعوضة دخلت إحدى أذنيه وظلت تؤلمه.. فلم يكن يخفف الألم عنه إلا كلما ضرب علي رأسه بالحذاء..!

ومعني هذا المثل الذى ضربه الله لنا فى القرآن الكريم أن قوة أقوى جيوش العالم أضعف من قوة البعوضة.. وأن القوة الحقيقية هى قوة الإيمان بالله..

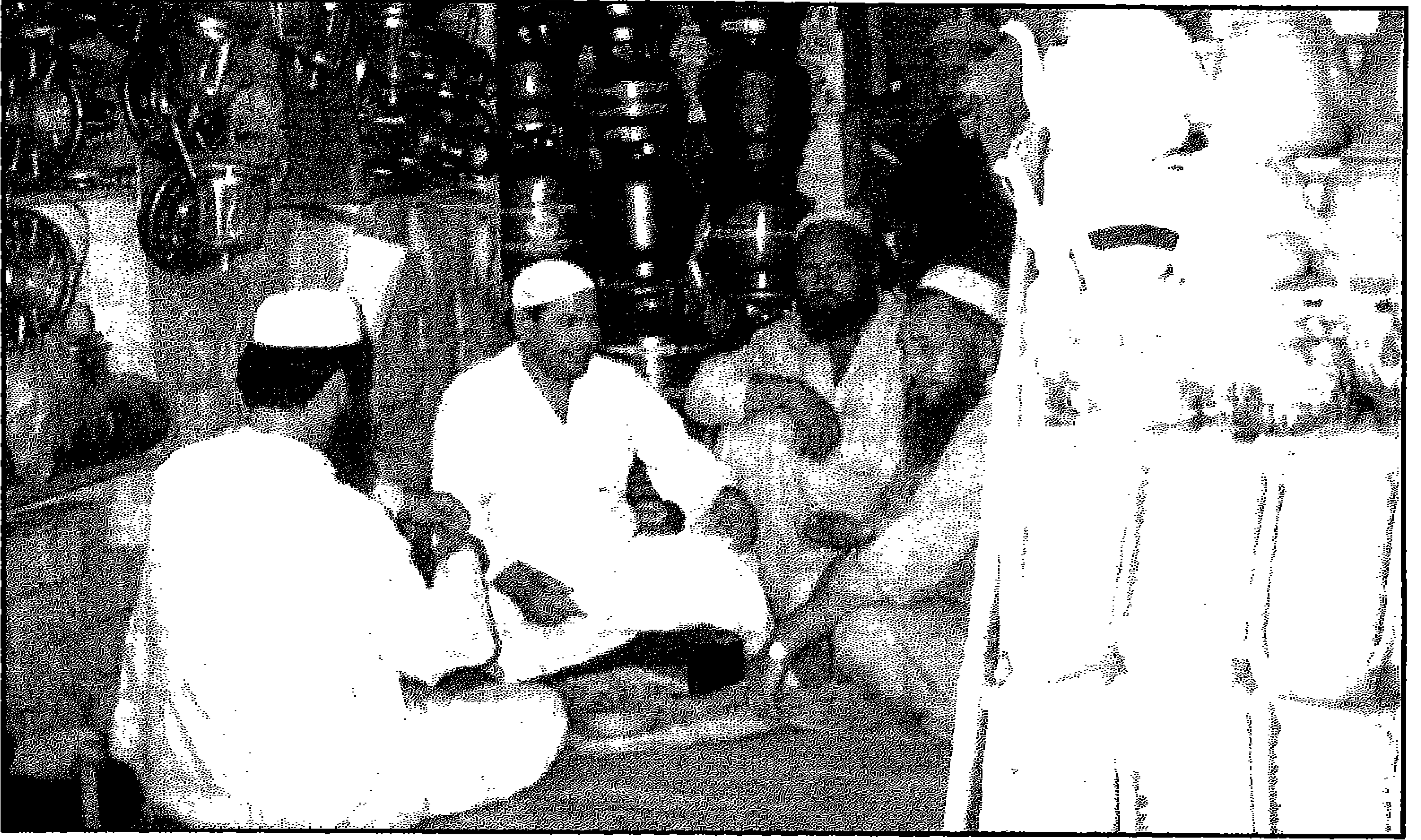
لم أشأ أن أذكر اسم أمريكا أو كندا على لساني وتركت الرجل يواصل كلامه..

قال: لو أن فى العالم كله ٣١٥ مقاتلا مسلما فقط على حق فسوف يهزمون أمريكا..!

- قلت له: لماذا؟

- قال: لأن الرسول صلى الله عليه وسلم هزم المشركين فى معركة بدر بـ٣١٥ مقاتلاً فقط!

- قلت له: وهل أنت مستعد لترك محلك وتجارتك وأولادك والذهاب للجهاد؟



فى دكان بشير احمد جول وقد غادر المكان لحظة التصوير

- قال: نعم.. سأضحى بكل شىء من أجل إزهاق روح أمريكا.. ألم تقرأ القرآن.. ثم نهض من مكانه وأحضر مصحفاً فتحه وقرأ هذه الآية: بسم الله الرحمن الرحيم «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون» «صدق الله العظيم» ثم واصل كلامه: أمريكا منكر ولابد أن نقضى عليها..!

كان موقف الرجل واضحاً لايحتاج للاسترسال معه فى المناقشة أكثر من ذلك.. لكنه رغم هذا التشدد كان كريما جداً فى ضيافته لنا.. وقد شجعنى هذا الكرم على أن أفتح حقيبتى وأخرج منها الكاميرا لالتقاط صورة له.. فإذا به ينهض ويبتعد عنا وهو يقول: هذا لايجوز فى الدين.. قال صلى الله عليه وسلم: «لعن الله المصورين».. فقلت له إننى لم أسمع بهذا الحديث من قبل..

قال: هذا حديث .. ورد جميع الجالسين: نعم.. هذا حديث شريف .. فسكتُ..

ثم أخذ الرجل يشرح لى كأنه يفقهنى فى الدين.. قال: انظر إلى جدران محلي لاتجد عليها صورة واحدة.. لأن أى مكان به صور لاتدخله ملائكة الرحمة.. ثم أخرج من جيبه نقوداً باكستانية عليها صورة الزعيم محمد على جناح مؤسس باكستان.. وقال: نحن مضطرون لاستعمال هذه النقود.. وندعو الله أن يغفر لنا..

طلبت من «نيان» أن يستأذن الرجل لنا في الانصراف.. ثم غادرنا القرية عائدين إلى «شبقدر»..

* * *

كانت لحظة وداع مؤثرة عندما صافحت «نياز» و«جول محمد» في موقف سيارات الأجرة بمدينة «شبقدر»..

كنت أشعر نحوهما بامتنان بالغ لما بذلاه معي من جهد طوال اليوم دون مقابل.. ومئات الكيلو مترات التي قطعتها سيارتهما دون أن يبدو على أي منهما ضيق أو ضجر.. لقد كانا في منتهى الكرم والشهامة.. وعندما كان بعض الأشخاص في القرى يحاولون إثارة الشك حولي أو التصرف معي بعجرفة.. وقد حدث هذا عدة مرات.. كانا يتدخلان لحمايتي.. وقد رفض «نياز» بشدة السماح لأحد الأشخاص بتفتيش حقيبتي..

تصافحنا بحرارة.. وتقدم الاثنان من سائق سيارة الأجرة يوصيانه بي.. ثم أخرجا نقوداً ليدفعا للسائق أجرة عودتي إلى بيشاور فرفضت بشدة وشكرتهما فظلا واقفين حتى تحركت السيارة.. وتبادلنا التحية الأخيرة..!

كانت سيارة «ميكروباص» مكتظة بالركاب.. وكان السائق يقودها بسرعة جنونية على طريق ضيق مزدوج الاتجاه، ويضع على رأسه عمامة كبيرة كبسها بقوة حتى كادت تغطي عينيه.. فخطر ببالي أن أطلب منه إزاحة العمامة إلى أعلى قليلاً حتى يرى الطريق بوضوح لاسيما أن الوقت ليل.. وكدنا بالفعل نصطدم بالسيارات المقابلة لنا عدة مرات.. لكن كيف أقول له ذلك وأنا لا أعرف اللغة البشتونية التي يتحدث بها؟.. فقلت ما أريده بالإنجليزية لعل أحداً بالسيارة يفهمني ويترجم له.. ففهمني رجل كان يجلس خلفي وترجم ما قلته للسائق.. وكانت هذه بداية تعارف بيني وبين الجالس خلفي..

عندما استدرت لكي أشكره.. لفت نظري أن لحيته طويلة جداً وشكل عمامته مختلف.. سألني عن جنسيتي وعن عملي فأجبته باقتضاب شديد.. حيث كنت متعباً وليس لدي طاقة للدخول في حوارات أو مناقشات مع أي أحد..

لكن الرجل تبعني في الشارع بعد أن وصلنا إلى بيشاور واستأنف الحوار معي..

إسمه «رشيد».. كان يعمل مهندس إلكترونيات في البرنامج النووي الباكستاني.. لكنه أقيل من عمله فافتتح محلاً لتجارة الأجهزة الكهربائية..

من مظهره .. وملبسه.. وطريقته في التحدث.. أدركت بسهولة أنه أقيل من عمله بسبب ميوله الدينية.. وكان ذلك كافياً لشد انتباهي إليه بقوة ومواصلة الحوار معه.. قال إن الجبهة الباكستانية الآن منقسمة، فالشعب يقف مع طالبان والحكومة تقف مع أمريكا.. لكن الله مع الشعب يؤيده وينصره..

قال أيضا إنه يمكن أن يساعدني في لقاء الزعماء الدينيين في بيشاور، لكنه يود أولاً التأكد من شخصيتي..

كنا نسير في شوارع مظلمة غير ممهدة نتحسس فيها مواقع أقدامنا فاتجهنا إلى مسجد قريب جلسنا فيه وأطلعته على وثائق إثبات الشخصية.. تفحصها بعناية شديدة ثم قال معتذراً أنه اضطر لطلب الإطلاع عليها لأن بيشاور كلها

أصبحت الآن مليئة برجال المخابرات من مختلف الجنسيات.. أمريكية وبريطانية وباكستانية وعملاء ومرشدين.. وأسهل طريقة تسهل لهم جمع المعلومات هى الإدعاء بانهم صحفيون..!

ثم سالني: هل انت عضو فى جماعة «الإخوان المسلمين» بمصر؟.. قلت له: لا.. فلم يتلق إجابتى بارتياح.. وقال إنه عضو فى جمعية علماء الإسلام وأن عدد أعضاء هذه الجمعية يبلغ عدة ملايين شخص منتشرين فى باكستان والهند وبنجلاديش.. وكان يتمني أن أكون عضواً بجماعة الإخوان المسلمين فى مصر حتى نتعاون معاً..

قلت له: إننى مستعد للتعاون معكم.. والمسألة ليست عضوية فى جماعة أو تنظيم.. وإنما المهم هو صدق النية.. وأنا صادق النية.

قال: إذن هيا بنا نذهب إلى المنزل..

ركبنا معاً «ريكشا».. عبارة عن موتوسيكل تم تحويله إلى سيارة تسير على ثلاث عجلات وتستخدم كتاكسى.. وهى ظاهرة منتشرة فى دول جنوب وشرق آسيا - .. تعطلت بنا في الطريق فأكملنا المسافة سيراً على الأقدام، وعندما اقتربنا من منزله طلب منى ألا أذكر عنوانه أو اسم المنطقة التى يعيش فيها لأى أحد .. لأن المخابرات الأمريكية والباكستانية تتبعه منذ أقيل من عمله..

فى غرفة الاستقبال بمنزله انطلق يتحدث عما وصفه باستراتيجية بعيدة المدى وضعتها الولايات المتحدة الأمريكية من أجل إضعاف الدول الإسلامية عن طريق دفعها لمحاربة بعضها البعض.. ثم تقوم الولايات المتحدة ببيع الأسلحة لهم.. فيقتل بها المسلمون بعضهم.. وفى نفس الوقت تحصل الولايات المتحدة على أموالهم كثمن لهذه الأسلحة..!

قال إن الولايات المتحدة نجحت فى تطبيق هذه الإستراتيجية حتي الآن فى عدة مناطق من العالم الإسلامى.. وساق مثالاً على ذلك بالحرب بين العراق وايران اللتين كانتا من أقوى الدول الإسلامية اقتصاديا وعسكرياً.. ودمرتا قدراتهما الاقتصادية والعسكرية فى حرب ضروس لامعنى لها استمرت بينهما ثماني سنوات وقتل فيها أكثر من مليونى مسلم..

* * *

كانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل بقليل.. عندما انتهى رشيد من عرض وجهة نظره بشأن الاستراتيجية الأمريكية لإضعاف الدول الإسلامية.. فسألته عن الشخصيات الدينية التى يمكن أن يساعدنى في الالتقاء بها.. فأعطانى أسماء وعناوين وأرقام تليفونات عدد من هذه الشخصيات.. وعدد من المساجد والجماعات الدينية فى بيشاور.. واتفقنا على استمرار الاتصال بيننا..

ثم غادرت منزله عائداً إلى غرفتي بالفندق.. بعد يوم طويل.. طويل جداً..

عاد شريط أحداثه من جديد يمر بخاطرى.. وأنا آخذ حمامى الدافىء كعادتى اليومية قبل النوم..

الفصل الثامن

• أيام فى بيشاور..

« هتفت معهم بأعلى صوتى:
أسامة بن لادن.. زندباد زندباد
أمريكا.. موردباد موردباد ..!»

□ *في وسط مدينة بيشاور.. توجد منطقة اسمها «نمك مندى».. هى قلب المدينة.. ومركز الأحداث.. ونقطة انطلاق المظاهرات.*

ففى هذه المنطقة يوجد مسجد «مدنى».. أشهر مساجد بيشاور على الإطلاق.. وله منزلة خاصة عند سكان المدينة والمناطق التى حولها.. حيث لا يعتبرونه مجرد مسجد فقط، بل جامعة إسلامية يطلقون عليها اسم «الجامعة المدنية» نسبة إلى اسم المسجد.. ففيها يتم إلقاء الدروس الدينية تحت أعمدة المسجد على غرار ما كان يحدث فى صحن الجامع الأزهر فى أوائل القرن الماضى.. ثم تمنح شهادة اسمها «شهادة العالمية فى العلوم الإسلامية والعربية» لكل من يواظب على حضور الدروس الدينية لمدة عام.. فى الفترة من شهر شوال إلى شهر رجب..

والدروس الدينية فى هذا المسجد عبارة عن خطب حماسية يلقيها أساتذة ومشايخ وشخصيات دينية من المنطقة.. تدور كلها حول أهمية الجهاد فى الإسلام ومنزلة المجاهدين يوم القيامة.. وغالباً ما ينتهى الدرس بخروج مظاهرة تهتف بحياة جماعة طالبان والموت لأمريكا..!

وبالطبع إنتشرت حول المسجد المحال التجارية التى تبيع الصور الدينية واللافتات المكتوبة.. وكل ما يلزم المتظاهرين من أدوات وأعلام، بما فى ذلك الأعلام الأمريكية والبريطانية ومجسمات الشخصيات التى يتم حرقها والتنكيل بها أثناء المظاهرة..

ونظراً لهذه المكانة الدينية والسياسية الكبيرة التى يتمتع بها مسجد «مدنى» فى بيشاور.. أصبحت تتجه إليه أى مظاهرة تخرج من أى مسجد آخر فى المدينة.. حيث يخرج من فى داخل المسجد ويلتقون مع إخوانهم المتظاهرين فى الخارج.. فيتسع نطاق المظاهرة وينضم إليها بعض الناس من الشارع..

كان ذلك هو الحال بمنطقة «نمك مندى» فى بيشاور.. المظاهرات كل يوم.. وعقب أى صلاة.. لكن المظاهرة الرئيسية التى تستحق لقب «أم المظاهرات» كانت تلك التى تخرج كل أسبوع من مسجد «مدنى» عقب صلاة الجمعة.. حيث يصل عدد المشاركين فيها إلى عشرات الآلاف وتستمر حوالى ٤ ساعات.. ورأيت بعينى الناس فى بيشاور يتركون مصالحهم.. والتجار يغلقون محلاتهم.. وسائقى سيارات الأجرة يتركون سياراتهم وينضمون إلى المظاهرة..!

وذات يوم.. فى الأسبوع الأول من أكتوبر ٢٠٠١ ذهبت فى الصباح إلى مسجد «مدنى» لحضور درس دينى بصحبة شاب باكستانى فى الثلاثينيات من عمره اسمه «شهيد الحق».. متزوج وله طفل عمره ثلاث سنوات إسمه «شهاب».. عندما تعرفت عليه ودعانى إلى منزله قبلها بأيام قليلة.. قدم لى طفله بسعادة وفخر كبيرين وهو يقول لى : أسميته شهاب لكى يكون ناراً تحرق أعداء الإسلام..

فى الطريق إلى المسجد.. قال لى شهيد الحق : «أن أعظم عمل يعمله الإنسان في الدنيا هو الجهاد ضد أمريكا».. قلت له أمريكا بالذات..؟.. قال : نعم ..لأنها الشيطان الأكبر.. فهى تبنى كازينوهات القمار، وتبيح للناس شرب الخمور، والزنا.. وكل هذا من صفات الشيطان.. ثم هى الآن تخطط للاعتداء على أفغانستان ومحاربة جماعة طالبان لأنهم يطبقون شريعة الله.. قلت له : لقد أوضحت أمريكا موقفها فى هذا الموضوع على لسان الرئيس بوش نفسه حيث قام بزيارة المركز الإسلامى فى واشنطن وأكد على الحرب التى تخوضها أمريكا ليست ضد الإسلام ولكنها ضد الإرهاب..!

قال شهيد الحق : وبماذا تسمى الهجوم على شعب فقير مسلم يعيش فى جبال أفغانستان.. دون دليل تملكه أمريكا يثبت مسئولية هذا الشعب أو حكومة طالبان أو أسامة بن لادن عن الأحداث التى وقعت بها يوم ١١ سبتمبر الماضى.. أليس هذا هو الإرهاب بعينه..!

قلت له : لقد أرسلت أمريكا الأيام الماضية مئات الأطنان من الدقيق والمعونات الغذائية إلى اللاجئين الأفغان.. أى أنها لا تستهدف الشعب الأفغانى..

ـ قال : إنها لا تستهدف القضاء على الشعب كأفراد، ولكنها تستهدف القضاء على الحكم الإسلامى وتعتبر الدول التي تطبق الحكم الاسلامي مثل أفغانستان وايران هى أشد أعدائها.. لذلك فإنه فكر كثيرا فى هذه المشكلة وانتهى من وضع خطة للقضاء على أمريكا.. لكنه لن يفصح عنها لأى أحد حتى لا تعلم بها المخابرات الأمريكية فتعطل تنفيذها..!

على باب مسجد «مدنى» وجدت مجموعة من الشباب الملتحين واقفين .. وظيفتهم هي منع المصورين والصحفيين الأجانب من دخول المسجد..

كان بين هؤلاء الصحفيين مراسل لشبكة «بى.بى. وورلد» كنت قد تعرفت عليه قبل ذلك فى إسلام آباد.. وعندما حاولت التوسط له فى الدخول.. قالوا لى إنه «غير متطهر»..! .. ثم وجدت «شهيد الحق» يحذرنى من التعامل مع الصحفيين الغربيين أو الإفراط معهم فى التحدث لأن ٩٠٪ منهم تابعون لأجهزة المخابرات الأمريكية والبريطانية..

كنت أرتدى الجلباب والطاقية.. وقد طالت لحيتى بعض الشئ.. فتصرفت باطمئنان وفتحت حقيبتى لإخراج الكاميرا منها والتقاط بعض الصور لباب



باب مسجد «مدنى» وامامه الشباب الملتحون يمنعون الصحفيين والمصورين الاجانب من الدخول

المسجد.. وأمامه الصحفيون الأجانب ممنوعون من الدخول.. فإذا بالشباب الملتحين يهجمون على لأخذ الكاميرا.. وهم يصيحون «لعن الله المصورين.. لعن الله المصورين..» فاستغثت بشهيد الحق ودخلنا المسجد..

كان أول شئ لفت نظرى.. هو هذا العدد الكبير من الشباب صغير السن الذين جاءوا لسماع الدرس الدينى فى الثامنة صباحا.. أعمارهم تتراوح بين ١٥ عاما و٢٥ عاما.. عددهم يربو على ثلاثة آلاف شاب وفتى يمثلون القسم الأكبر من الحاضرين.. يجلسون وكلهم تأثر بما يسمعون حتى تكاد تشعر وكأن حياة كل منهم أصبحت لا تساوى عنده شيئا.. فلا مدارس.. ولا تعليم.. ولا وظائف.. ولا مهنة ولا هدف لهم الان فى هذه الدنيا سوى الجهاد ضد أمريكا..!

كان الشيخ المتحدث يتكلم باللغة البشتونية و«شهيد الحق» يترجم لى.. والخطبة كلها تدور حول ضعف أمريكا أمام قدرة الله سبحانه وتعالى وقوة ملائكته.. فأمريكا لا تملك شيئا ولا تستطيع أن تقتل أحدا.. لأن الله «له ملك السموات والأرض يحيى ويميت وهو على كل شئ قدير»..

وأقمار التجسس الأمريكية عمياء.. لأنها لا تعلم المكان الذى يوجد فيه أسامة بن لادن الآن.. بينما الله يعلمه.. وبسم الله الرحمن الرحيم : «يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهومعكم أينما كنتم» صدق الله العظيم..

ثم وقف شيخ آخر للتحدث اسمه الدكتور شير على شاه.. حاصل على الدكتوراه فى الحديث الشريف من الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.. واستاذ بجامعة الحقانية الباكستانية.. وأحد القيادات البارزة فى جمعية علماء الإسلام..

هذا الرجل أبكى كثيرا من الحاضرين، وما كاد ينهى حديثه حتى أقبلوا عليه يقبلون يديه وكتفيه كأنهم يلتمسون منه البركات.. بدأ الرجل بالحديث عما ينال المسلمين الآن من ظلم وأذى بسبب أمريكا.. سواء فى فلسطين أو العراق أو أفغانستان.. وذكر بيتا من الشعر يقول :

لمثل هذا يذوب القلب عن كمد

إن كان فى القلب إسلام وإيمان..!

ثم دعا المسلمين فى كل مكان بالعالم إلى الاشتراك فى الجهاد سواء بالمال أو النفس لنصرة أخوانهم المظلومين فى هذه الدول.. وذكر بيتا آخر من الشعر يقول:

ولست أبال إذا مت مسلماً

على أى جنب كان فى الله مصرعى..!

و أكد على أن الله سبحانه وتعالى سوف ينصر جيش طالبان على جيوش أمريكا.. لأن طالبان مظلومة.. وقال الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث الشريف: «ثلاث لا ترد دعوتهم.. «وأول هؤلاء الثلاثة دعوة المظلوم.. حيث يقول الله تعالى : بعزتى وجلالى لأنصرنك ولو بعد حين.. ثم طالب دكتور «شير» الحاضرين بالدعاء على أمريكا..

كما أشاد بزعيم طالبان الملا محمد عمر.. ووصفه بانه ولى الله فى الأرض.. وأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال فى الحديث الشريف «من عادى لى ولياً آذنته بالحرب».. لذلك يجب على المسلمين محاربة أمريكا وسوف ينتصرون عليها لأن الله سبحانه وتعالى قال فى القرآن الكريم «ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين»..

ثم تحدث بعد ذلك خطباء كثيرون أكدوا على نفس المعانى السابقة، وظل الدرس الدينى ممتداً حتى أوشك أن يحل آذان الظهر.. فوجدت من يحضر مجموعة من العمائم.. فهمت أنه سيتم توزيعها.. فطلبت لنفسى عمامة.. لكن الرجل الذى كان يمسك بها أبعدنى، ثم بدأ ينادى على شباب صغير السن لا تزيد أعمارهم على ٢٠ عاماً، فيتقدم كل منهم إلى شيخ كبير عرفت أنه إمام المسجد، كان يقوم بوضع العمامة على رأس الفتى ويسلمه شهادة.. كتب فيها باللغة العربية أن الجامعة المدنية الشهيرة بدار القراء المركزية ببيشاور تقدم الشهادة العلمية فى العلوم الإسلامية والعربية للطالب.. وتشهد أنه حضر الدروس الدينية بالجامعة فى الفترة من شهر شوال إلى شهر رجب ونجح بتقدير جيدا جدا.. وأن رئيس الجامعة يوصى الطالب بتقوى الله والجهاد فى سبيله.

بعد توزيع العمائم وشهادات التخرج.. انفض الاجتماع وبدأ الحاضرون فى الانصراف.. فأسرعت إلى الدكتور شير على شاه أحاول إجراء مقابلة صحفية معه.. لكن جموع الناس كانت تحيط بالرجل وتتدافع حوله بشدة لنيل فرصة الوصول إلى يده وتقبيلها، وهو يحاول أن يشق لنفسه طريقا بينهم للخارج.. كنت أمسك بحذائى وحقيبتى فى يد، وجهاز التسجيل فى اليد الأخرى.. فسقطت فردة حذاء من يدى.. فثبت مكانى وانحنيت لاخذها قبل أن تضيع فصدمنى الناس وهم ينظرون إلىّ شذراً كأننى عثرة فى الطريق تعطلهم عن اللحاق بالشيخ الجليل.. صمدت حتى استطعت الإمساك بفردة حذائى وربطتها بالفردة الأخرى.. ثم قصدت رأسا إلى سيارة الشيخ ووقفت ببابها.. عندما وصل قدمت له نفسى فرحب بى ودعانى إلى ركوب السيارة بجواره، حيث جرى بيننا هذا الحوار :

- سألته فى البداية عن رأيه في موقف الحكومة الباكستانية المؤيد للولايات المتحدة..

- قال : نحن مع طالبان مائة فى المائة لأنها طبقت الشريعة الإسلامية الغراء فى أفغانستان فأقامت الحدود وحكمت بين الناس بما أنزل الله.. وهى ليست إرهابية، بل أمريكا هى الإرهابى رقم واحد فى العالم.. لأنها تريق دماء المسلمين فى فلسطين وفى كشمير وفى الشيشان وفى البوسنة والهرسك وفى جميع أرجاء المعمورة.. إنها تريد سحق الإسلام وإزالته من جميع بقاع الأرض..!

- قلت له : لكن يا مولانا أمريكا أعدت تحالفا دوليا من أوربا والصين وروسيا و..

- قاطعنى بقوله: ولو من جميع الكفرة على بسيطة الأرض.. ثم أضاف : أن الطلاب - يقصد طالبان - يعتمدون على الله.. والملا محمد عمر أمير المؤمنين يقول : إنى عملت بقوله تعالى : «إذا عزمت فتوكل على الله».. والله تعالى يقول : «ومن يتوكل على الله فهو حسبه».. فاعتمادنا على الله وحده مسبب الأسباب لا على الأسباب.. وجميع القوى الذرية والقنابل وجيوش الكفرة ستفنى وتمحى أمام كلمة : «لا إله إلا الله»..

قلت له : لقد سمعت أن أمريكا تخطط لإثارة الفتنة بين الأفغان أنفسهم وتدفع بعضهم لحرب طالبان..

- قاطعنى أيضاً قبل أن أكمل سؤالى.. وقال : أمريكا تحارب على اسم الصليبيين ضد الإسلام.. هذه حرب صليبية.. وهذا ليس كلامنا بل كلام الرئيس بوش نفسه.. لذلك فإن على جميع الأفغان والمسلمين أن يتحدوا ضد أمريكا..

شعرت بأن الرجل لا يضيف كثيرا إلى ما قاله فى خطبته بالمسجد.. فشكرته ونزلت من السيارة..

* * *

بعد ذلك.. حرصت على الذهاب كل يوم إلى مسجد «مدنى» لأداء فروض الصلاة

ومتابعة المناقشات التى تدور بالمسجد.. فأصبح وجهى مألوفاً لدى القائمين على إدارته.. وذات يوم دعانى أحدهم إلى لقاء «الحاج عبد الجليل صاحب» رئيس مجلس إدارة المجلس لأنه يريد أن يبدى رأيه في الأزمة.. قال لى الرجل إن أمريكا ليست قوة عظمى ولكنها قوة ظلم وطغيان وسوف يقضى الله عليها إن عاجلا أو آجلا.. كنا نتحدث فى غرفة ملحقة بساحة المسجد، ويوجد حول الحاج عبد الجليل مجموعة من «المشايخ».. فطلبت منهم مساعدتى فى ترتيب مقابلة صحفية مع مولانا فضل الرحمن رئيس جمعية علماء الإسلام فى باكستان.. وقلت لهم إننى مستعد للذهاب إلى أى مكان يوجد به.. ففوجئت بالشيخ ضياء الرحمن العلوى مدرس التربية الدينية بمركز ولد القراء ببيشاور يقول إن مولانا فضل الرحمن سيأتى إلى المسجد غدا إن شاء الله لقيادة مظاهرة كبيرة تنظمها جمعية علماء الإسلام للتنديد بأمريكا.. ويمكن أن ألتقى به بعد المظاهرة.

فى اليوم التالى ذهبت فى الموعد المحدد إلى المسجد.. كانت الساعة التاسعة صباحا.. فوجدت الشوارع المحيطة به مزدحمة بالناس.. بحر هائج من البشر يرفعون اللافتات والأعلام والصور ويرددون الهتافات.. وبينما كنت أحاول الوصول إلى باب المسجد، رأيت سيارة نقل تتحرك من أمامه يقف على ظهرها مولانا فضل الرحمن وحوله مجموعة من المشايخ ومكبرات الصوت.. ثم مضت السيارة ببطء تقود المظاهرة ونحن خلفها نهتف بأعلى صوت : «اسامة بن لادن زندباد زندباد.. أمريكا موردباد موردباد».. عرفت بعد ذلك أن «زندباد» معناها يعيش و«موردباد» معناها يموت.. حتى وصلنا إلى شارع «خيبر بازار» فتوقفت السيارة النقل بعرض الشارع فأغلقته وافترش المتظاهرون الأرض.. ثم بدأ مولانا فضل الرحمن إلقاء خطبته بقراء سورة الفيل..

استمر الرجل فى إلقاء خطبته والناس تهتف أكثر من ثلاث ساعات.. لم استطع خلالها الوصول إلى السيارة ولا إلى أى شيخ من مشايخ مسجد «مدنى» الذين أعرفهم.. كان عدد المتظاهرين يزيد على ٣٠ ألفاً.. قوات الشرطة تحيط بهم، وعدسات وسائل الإعلام تصورهم.. وحالة الغضب والسخط على أمريكا هى سيدة الموقف.. ثم تحركت السيارة بالمشايخ ومولانا فضل الرحمن.. فسار الناس خلفها.. ثم أسرعت فعلم الناس أن المظاهرة قد أنتهت وتفرقوا..

فى اليوم التالى علمت أنه تم تحديد إقامة مولانا فضل الرحمن بمنزله فى قرية «دير إسماعيل خان» التى تقع شمال باكستان..!


مولانا فضل الرحمن

* * *



اثناء الحوار مع جول نصيب خان

بعد ذلك التقيت بالشيخ «جول نصيب خان» السكرتير العام لجمعية علماء الإسلام لإقليم «سرحد».. وهو أحد الأقاليمج الأربعة التى تتكون منها باكستان - الأقاليم الثلاثة الأخرى هى : البنجاب، السند، بولشيستان - .. رجل يعطيك انطباعاً بأنه «قائد عسكرى» أكثر من كونه «زعيما دينيا».. كان «عثمان» نجل الحاج عبد الجليل صاحب «قد دعانا معا لتناول الغذاء فى إحدى الغرف الملحقة بمسجد «مدنى».. هاجم الرجل الولايات المتحدة الأمريكية بشدة، والرئيس بيرفيز مشرف وكل الأحزاب السياسية فى باكستان التى أيدت قراره بالتعاون مع أمريكا.. قال إن مشرف مجرد حاكم عسكرى وليس قائدا شعبيا لباكستان.. قال أيضا إن جمعية علماء الإسلام هى الجهة الوحيدة التى تتجاوب مع رغبات الشعب الباكستانى وتعمل من أجل مصلحته.. لذلك فإن الناس يقبلون عليها ويشتركون فى كل المظاهرات واللقاءات الجماهيرية التى تنظمها..

- سألته: ما الذى يمكن أن تقدموه للشعب الأفغانى عندما يتعرض للضربات الأمريكية..؟

- قال : سنجاهد معهم..

- قلت له : ما هى خطتكم للجهاد؟

- قال : لدينا خطة سرية ستنصرنا على أمريكا بإذن الله كما انتصرنا من قبل على الروس..!

زرت مساجد أخرى كثيرة فى بيشاور.. والتقيت بمئات الناس.. توقفت أحيانا أمام أسمائهم التى تعكس عمق الإيمان فى قلوبهم.. مثل : «ذبيح الله».. و«المتوكل على الله».. و«حسبان الله»..

وتوقفت أحياناً أخرى أمام «العبارات» التى يختارونها للتعبير عن آرائهم.. فلم أنس ما قاله لى أحد المشايخ فى مركز الدعوة والتبليغ بمسجد شفيع - فى شارع سحيشيشما - أنهم أقسموا على الدفاع بأرواحهم عن أسامة بن لادن وحماية كل شعرة فى جسده..!

* * *

طوال هذه الأيام كنت على اتصال دائم بالملا نجيب الله قنصل أفغانستان فى بيشاور.. انتظر موافقة وزير خارجية طالبان على منحى تأشيرة دخول أفغانستان للقاء المسئولين بها.. حتى أخبرنى ذات يوم أنه تلقى الموافقة فذهبت إليه بالقنصلية وبدأت فى إجراءات الحصول على التأشيرة..

وبينما كنت أجلس معه فى مكتبه.. إذا به يتلقى إتصالا هاتفيا من الملا وكيل أحمد متوكل وزير خارجية طالبان يطلب فهي تأجيل رحلتى.. لأن الولايات المتحدة الأمريكية ستبدأ خلال ساعات قليلة هجومها على أفغانستان..!!

- سألت الملا نجيب الله.. وكيف عرفتم ذلك؟ .. هل هى مجرد توقعات أم أنباء مؤكدة..؟!

- قال : إنها أنباء مؤكدة حصل عليها جهاز مخابراتنا من مصادر موثوق بها..!

ثم أضاف: بالطبع لن يمكنك فى ظل هذه الظروف دخول أفغانستان.. لأن الدولة أصبحت فى حالة حرب.. كما أن المسئولين أنفسهم سينتقلون إلى أماكن سرية..

بعد أقل من نصف ساعة تلقى الملا نجيب الله اتصالاً هاتفياً آخر من كابول.. أبلغه المتحدث بأن طائرتين من طائرات الاستطلاع الأمريكية حلقتا فوق المدينة.. وأن الدفاعات الأرضية لطالبان أطلقت عليهم صاروخا فاجبرتاها على الفرار..!

نظرت فى ساعتى وجدتها الرابعة بعد الظهر.. وكان اليوم هو السبت الموافق ٦ أكتوبر عام ٢٠٠١.. فغادرت القنصلية بسرعة إلى الفندق وبعثت بالخبر إلى جريدة الجمهورية .. فجعلته «مانشيت» الصفحة الأولى.. فكنا بذلك أول جريدة فى العالم تنشر موعد بدء الحرب الأمريكية على أفغانستان قبل وقوعها..

وفى اليوم التالى مباشرة بدأت الحرب..



المؤلف وسط المظاهرة التى كان يقودها مولانا فضل الرحمن



مولانا فضل الرحمن- وسط الدائرة - يخطب فى المتظاهرين



كنا نهتف : أسامة بن لادن.. زندباد زندباد



جلسوا على الارض يستمعون الخطبة



امريكا .. مورد باد مورد باد

الفصل التاسع

• الحرب.. وردود الفعل

- «المعـــركـــة أوسع من أفغانستان»!

الرئيس الأمريكي
جورج دبليو بوش

- «إن هذه الأحداث قد قسمت العالم بأسره إلى فسطاطين»

أسامة بن لادن

☐ *بدأت الحرب ليلا..*
فى الوقت الذى كان فيه الأفغان يستعدون للنوم..!
كانت الساعة التاسعة مساء بتوقيت أفغانستان.
الرابعة والنصف بعد الظهر بتوقيت جرينتش..
الثانية عشرة والنصف ظهراً بتوقيت واشنطن..

عندما أطلقت السفن الحربية والغواصات الأمريكية والبريطانية المتمركزة فى المحيط الهندى والبحر العربى ٥٠ صاروخ توما هوك على أكبر خمس مدن أفغانية: كابول، وقندهار، وجلال آباد، وهيرات، ومزار الشريف.

كان الهدف من إطلاق الصواريخ هو تدمير المطارات والمضادات الأرضية لطالبان قبل بدء إشتراك الطائرات المحملة بأطقم بشرية فى الهجوم..

بعد دقائق فقط من إطلاق الصواريخ أغارت على أفغانستان ٤٠ طائرة أمريكية - ١٥ قاذقة من طراز «بى - ١» و«بى - ٢» و«بى - ٥٣» و٢٥ مقاتلة من طراز «إف - ١٤»و«إف - ١٨» و«إيه - ١٨».

كانت هذه هي «الهجمة» الأولى فى الحرب.. وقد تمت فيها عملية استعراض ضخم للقوة.

فالقاذفات من طرازى «بى - ١» و«بى - ٥٣» انطلقت من قاعدة «دييجوجارسيا» فى المحيط الهادى.. والقاذفات من طراز «بى - ٢» ذات أجنحة الوطواط انطلقت من قاعدة «وايتمان» بولاية «ميسورى» الأمريكية.. وقطعت رحلة استغرقت عدة ساعات دون توقف.. تم خلالها تزويدها بالوقود فى الجو حتى وصلت إلى أفغانستان.. فقذفت بحمولتها من صواريخ «كروز» والقنابل الموجهة بالأقمار الصناعية.

المقاتلات كانت تقلع وتهبط على ظهر حاملة الطائرات الأمريكية «إنتربرايز» فى المحيط الهندى أمام عدسات تليفزيون «سى. إن. إن» كأنها تقوم بعملية استعراض جوى.

الرئيس بوش ألقى بياناً قال فيه: «الآن.. تدفع طالبان الثمن» ـ «اليوم ركزنا على أفغانستان، ولكن المعركة أوسع من أفغانستان.. وأمام كل دولة من الدول أن تختار خياراً واضحاً: إما الإرهاب وإما الوقوف معنا ضد الإرهاب.. وكل الذين يؤون

الإرهاب ويقدمون الدعم للإرهابيين والقتلة عليهم أن ينتظروا مصيراً مشابهاً»! ..
هذه «العملية الإستعراضية» .. هي بالضبط ما كانت تريد أن تفعله الولايات المتحدة الأمريكية لإنقاذ هيبتها التى «تعفرت بالتراب» تحت أنقاض البنتاجون! ..
لم يكن يكفيها تسليم أسامة بن لادن.. لذلك أغلقت كل أبواب الحوار مع طالبان.
الدليل على ذلك أنها عندما وجدت العلماء الأفغان قد اتخذوا خطوة فى اتجاه الاستجابة لمطلبها بأن دعوا إلى مغادرة بن لادن أفغانستان طواعية.. قامت فى اليوم التالى مباشرة على لسان الرئيس بوش برفع سقف مطالبها إلي أربعة مطالب مستحيلة ـ كما أسلفنا فى الفصل الثالث.. لكى تقضى على أى أمل نحو احتواء الأزمة سلمياً.

كانت تريد حرباً تستعرض فيها أحدث ما أنتجته مصانعها من أسلحة وقنابل وصواريخ.. وقاذفات قادرة على الطيران بأجنحة الوطواط من الولايات المتحدة إلى قلب آسيا الوسطى وحدود الصين بلا توقف! ..
كانت تريد أن يرى العالم كيف استطاعت توظيف الفضاء فى عملياتها العسكرية.. باستخدام الأقمار الصناعية فى توجيه قنابل زنة ٧ أطنان إلى أهدافها.. فتصيبها بدقة بالغة.. حتى لو كانت هذه الأهدف بيوت فقراء ومساكين.. أو مستشفيات.. أو مستودعات أغذية للصليب الأحمر..!
كانت تريد بهذه الحرب توجيه رسالة واضحة إلى هؤلاء الذين بدأوا يثرثرون فى الحديث عن عالم جديد متعدد الأقطاب.. مفادها أن العالم ليس به سوى قطب واحد فقط اسمه: الولايات المتحدة الأمريكية..!
كانت تريد أيضاً أن يرى الشعب الأمريكى على شاشات التليفزيون صور الدمار وجثث القتلى فى أفغانستان.. فيطمئن.. ويشعر أن حكومته قد انتقمت له.. حتى لو كان هذا الانتقام قد نفذ فى أبرياء وجوعى لاذنب لهم..!
هذه هى أمريكا..!

* * *

نبأ الهجوم الأمريكى على أفغانستان أثار ردود فعل واسعة ومتباينة على مستوى العالم.. تراوحت بين التأييد الكامل.. والتحفظ.. والتنديد..
● التأييد الكامل جاء من معسكر الدول الغربية، ووصل إلى درجة إعلان بعض هذه الدول عن استعدادها للمشاركة بقوات فى الهجوم.. مثل فرنسا، وكندا، واستراليا.
● نوع آخر من التأييد يمكن وصفه بـ «التأييد الحذر» صدر من عدة دول مثل الصين ومصر..
فالصين أصدرت بياناً صاغته بعبارات حذرة أدانت بها الإرهاب فى جميع صوره وأشكاله.. وفى نفس الوقت دعت إلى أن تكون الضربات الأمريكية فى أفغانستان

محددة وموجهة ضد أهداف واضحة لكى تتفادى وقوع إصابات بين المدنيين والأبرياء..[٣٥]

مصر أعلنت على لسان وزير الخارجية أحمد ماهر تضامنها مع الولايات المتحدة وإدانتها الكاملة للإرهاب.. لكنه شدد على «ضرورة العمل بحذر وعلى أسس سليمة لمواجهة تحديات الإرهاب على المستوى العالمى، وضرورة أن يكون أى رد فعل على العمليات الإرهابية قائماً على الشرعية الدولية ويتجنب المدنيين والأبرياء.. حتى لايتسبب فى المزيد من المعاناة للشعب الأفغانى»[٣٦]

الدكتور أسامة الباز المستشار السياسى لرئيس الجمهورية قال أيضا: «إن مصر تتفهم حق الولايات المتحدة فى الرد، فى إطار احترام كل القوانين الدولية، إذا كان لديها أدلة دامغة على أن أسامة بن لادن أو مجموعة القاعدة قد تورطا فى هذه الأعمال الإرهابية وأن الحكومة الأفغانية تساعدهما على القيام بها أو تخبئهما».. أضاف: «نأمل ألا تؤدى عمليات القصف إلى تفاقم المآسى الإنسانية التى يعيشها الشعب الأفغانى الذى يتألم».. وشدد د. الباز على أنهم «مدنيون أبرياء»[٣٧]

● التحفظ جاء من فنزويلا وكوبا..

فالرئيس الفنزويلى «هوجو شافيز» قال فى تصريحات أدلى بها فى باريس عقب بدء الضربات الأمريكية لأفغانستان: «يتعين أن تكون فى إطار القانون الدولى، ومحترمة لمبادىء حقوق الإنسان وسيادة الدول»[٣٨] وأعرب شافيز عن إمتعاضه الشديد حيال القائمة بأسماء المنظمات التى اعتبرتها الولايات المتحدة الأمريكية منظمات ارهابية واعلنت انها اهداف فى الحرب التى تقودها ضد الإرهاب.. وتساءل: من الذى أعد تلك القائمة ومن الذى لديه السلطة أو الصلاحية لإدراج مثل تلك المنظمات على هذه القائمة؟

ثم نوّه رئيس فنزويلا قائلاً: «لقد كنت أنا شخصياً على تلك القائمة حتى قبل يوم واحد من انتخابى رئيساً لفنزويلا، كذلك يوجد الآن على القائمة أشقاؤنا فى كوبا.. ومن هنا نقول للعالم أجمع أن فنزويلا تشعر بقلق عميق حيال تلك الحرب الجديدة وما يمكن أن تجرنا إليه»[٣٩]

الموقف الكوبى عبرت عنه صحيفة «جرانما» الرسمية الناطقة بلسان الحزب الشيوعى الكوبى.. قالت الصحيفة إن الهجمات الأمريكية البريطانية ضد أفغانستان سوف تؤدى إلى تعزيز الإرهاب الدولى وتزيد من صعوبة سحقه وضربه.. مشيرة إلى أن العمليات القتالية سيعانى منها المدنيون وليس الإرهابيون.. ودعت الصحيفة فى مقالها الافتتاحى إلى ضرورة إنهاء العمليات القتالية الدائرة فى أفغانستان.. كما لفتت الإنتباه إلى استمرار الاتصالات بين الحكومة الأمريكية والجماعات الإرهابية المناهضة لكوبا والتى تمارس نشاطها من داخل الولايات المتحدة منذ قيام الثورة الكوبية عام ١٩٥٩.. الرئيس الكوبى فيدل كاسترو أشار أيضا فى خطاب ألقاه بمناسبة مرور ٢٥ عاماً على حادث تفجير طائرة ركاب مدنية كوبية فى عام ١٩٧٦ إلى

أن أحد العقول المدبرة لهذا الحادث هو مواطن كوبى مازال يعيش فى المنفى بولاية فلوريدا الأمريكية ولم يحدث فى يوم من الأيام أن تم تقديمه للمحاكمة.[٤٠]

● التنديد بالهجوم الأمريكى على أفغانستان جاء من العراق وإيران واندونيسيا وفيتنام.

العراق وصف الهجوم بـ«العدوان الأمريكى - البريطانى - الصهيونى على شعب أفغانستان المسلم دون مبرر أو مسوغ قانونى أو أخلاقى».. وقال المجلس الوطنى العراقى فى بيان أصدره صبيحة بدء الهجوم: «إن استخدام القوة العسكرية ضد أفغانستان، والتى قد تلحقها دول وشعوب أخرى بحجة القضاء على الإرهاب في العالم هو فى حقيقته تنفيذ لمصالح أمريكية وغربية معروفة فى المنطقة وبذرائع المحافظة على الأمن والسلم العالمى».

وأضاف البيان: «إن التاريخ يشهد بأن الذى يهدد الأمن والسلام العالمى منذ أكثر من خمسة عقود هى الولايات المتحدة الأمريكية وحليفها الاستراتيجى الكيان الصهيونى اللذان اعتمدا الإرهاب وسيلة لتحقيق مصالحهما المشتركة»[٤١]

إيران اتهمت - على لسان آية الله على خامنئى - الولايات المتحدة بالكذب لإصرارها على تبرير هجماتها على أفغانستان بأنها حملة لمكافحة الإرهاب.. وعقد وزير خارجيتها د. كمال خرازى مؤتمراً صحفياً يوم ٨ اكتوبر ٢٠٠١ وصف فيه الضربات الأمريكية واسعة النطاق التى وجهت لأفغانستان دون مراعاة للرأى العام العالمى، لاسيما رأى الدول الإسلامية، بأنها غير مقبولة.. وكرر خرازى رفض بلاده فتح مجالها الجوى أمام الأمريكيين، ولو حتى للقيام بمهام إنسانية.. فى الوقت نفسه أعلنت إيران أنها أقامت ٢٠٠ مركز طبى فى المنطقة المجاورة للحدود مع أفغانستان لاستقبال الجرحى الأفغان وتقديم المساعدات الطبية لهم.

إندونيسيا جاء رد فعلها عنيفاً على المستويين الشعبى والرسمى.. فعلى المستوى الشعبى شهدت الشوارع الإندونيسية حالة من الغليان والغضب عقب بدء الهجوم الأمريكى - البريطانى على أفغانستان.. وهددت جماعة تطلق على نفسها اسم «جبهة المحاربين من أجل الإسلام» بضرب المصالح والرعايا الأمريكيين إذا لم تقطع اندونيسيا علاقاتها الدبلوماسية مع الولايات المتحدة.. وطالب زعيم الجماعة بطرد الدبلوماسيين وجميع الرعايا الأمريكيين من إندونيسيا باعتبارهم إرهابيين.. كما دعت جبهة اخرى اسمها «المدافعين عن الإسلام» لإرسال مجاهدين إلى أفغانستان.. وحددت الجبهة مهلة ٧٢ ساعة للحكومة لقطع العلاقات مع الولايات المتحدة وحلفائها، وإلا فإن اتباعها سيتعقبون الأجانب ويقومون بمهاجمة السفارات وتدمير الممتلكات.. وقامت الجبهة بفرض حصار حول السفارة الأمريكية.. مما اضطر الولايات المتحدة إلى إغلاق السفارة[٤٢] ومطالبة رعاياها فى اندونيسيا بالاستعداد لمغادرة البلاد.



الشرطة الإندونيسية تتصدى للمتظاهرين حول السفارة الامريكية فى جاكرتا

على المستوى الرسمى أدان مجلس النواب الإندونيسى القصف الأمريكى لأفغانستان ووصفه بأنه يتعارض مع مبادئ الشرعية الدولية.. وطالب الولايات المتحدة بوقف القصف بدون شروط، لأن أعمال العنف مرفوضة.. كما حث البيان الحكومة على إغلاق سفارات الولايات المتحدة والدول المشاركة فى التحالف.

بيان الحكومة الإندونيسية جاء أقل حدة من بيان مجلس النواب.. حيث اكتفى بالإعراب عن القلق العميق إزاء الهجوم الذى تقوده الولايات المتحدة على أفغانستان، والأمل فى أن تكون العملية محدودة فى طبيعتها وأهدافها والوقت المحدد لها، وتقليل حجم الخسائر فى صفوف المدنيين لأدنى حد ممكن. (٤٣)

وقد اضطرت الحكومة الإندونيسية فى مواجهة غضب الجماهير إلى إغلاق المدارس الأجنبية.. كما طلبت سفارات كل من بريطانيا واستراليا وفرنسا من رعاياها عدم مغادرة منازلهم إطلاقا.

التنديد جاء أيضا من العاصمة الفيتنامية «هانوى».. حيث نددت الحكومة الفيتنامية بالهجوم الأمريكى البريطانى على أفغانستان.. واكدت أنه مع إدانة الهجمات الإرهابية على الولايات المتحدة فى ١١ سبتمبر، فإن سقوط المزيد من الأرواح ليس رداً مناسباً..!!

وشددت علي أن أى عمل يجب أن يتم بموجب القواعد المنصوص عليها فى ميثاق الأمم المتحدة.(٤٤)

* * *

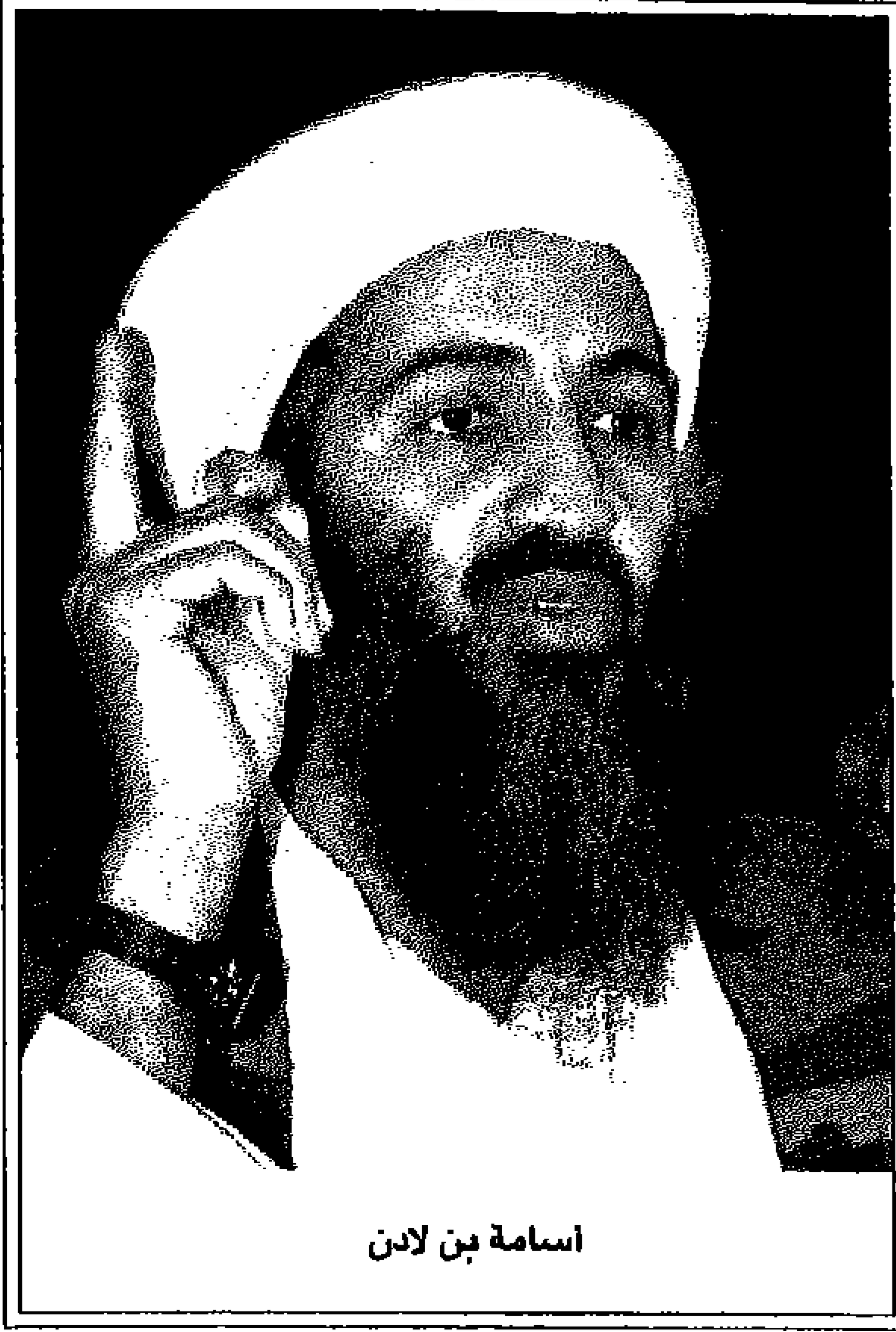
من بين المؤيدين للهجوم الأمريكى ـ البريطانى على أفغانستان، أو المعارضين له.. كانت هناك ردود فعل لافتة للنظر.

ـ فمثلا.. كوفى عنان أمين عام الأمم المتحدة، الذى تقتضى مهامه الوظيفية أن يستنكر كل حرب ويشجب كل استعمال للقوة.. باعتبار أن المنظمة التى يرأسها قامت أساساً من أجل الحفاظ على السلم والأمن الدوليين إذا به يبارك الحرب الأمريكية على أفغانستان ويدعو دول العالم إلى الانضمام لها.. بل ويتطوع بالشرح لإيجاد مظلة قانونية زائفة لهذه الحرب.. قال كوفى عنان يوم ٨ اكتوبر ٢٠٠١ بالنص: «إن عمليات القصف الأمريكى ـ البريطانى على أفغانستان شرعية، وانها تنضوى تحت المادة (٥١) من ميثاق الأمم المتحدة الذى يعطى الدول التى تتعرض لهجمات الحق فى الدفاع عن نفسها.. إن القرار الأخير الذى اتخذه مجلس الأمن بشأن اعتداءات سبتمبر الماضى، شدد على الحق الأصيل للدول أعضاء الأمم المتحدة فى الدفاع عن نفسها بشكل فردى أو فى إطار ترتيبات أمن جماعية.. أدعو كل حكومات العالم إلى إعطاء الدعم اللازم للحملة الدولية ضد الإرهاب، وإلى تسريع ومضاعفة الجهود الرامية إلى إنهاء عقود من الحرب الأهلية فى أفغانستان» [٤٥] ..

ـ كذلك ملك أفغانستان السابق ظاهر شاه.. الذى كانت الولايات المتحدة تخطط لإعادته إلى السلطة بعد الإطاحة بطالبان.. ومن ثم كانت تتوقع منه أن يعلن تأييده للهجوم.. فإذا به يعلن العكس ويقول إنه شعر بصدمة كبيرة وبحزن عندما شاهد على شاشات التليفزيون الطائرات الأمريكية تقصف أفغانستان.. وقال مستشاره عبدالستار سيرات: «إننا لانقبل أن نكون البديل لحركة طالبان عن طريق الضربات الأمريكية.. إن الحكم فى أفغانستان له طرق مشروعة أخرى، وهذا يخص إرادة ورغبة الشعب الأفغانى».. أكد سيرات «ان الملك ظاهر شاه يرفض أن يرجع إلى الحكم على أكتاف أمريكا أو غير أمريكا».. ووصف الهجوم الأمريكى على أفغانستان بأنه «أمر محزن ومأساوى يصيب كل أفغانى بالحزن والصدمة» [٤٦] ..

الرئيس الأفغانى السابق برهان الدين ربانى استنكر أيضا الهجوم.. قال: «إن الولايات المتحدة تستطيع القبض على بن لادن دون اللجوء إلى الحرب».. أضاف فى حوار لصحيفة «فرانكفورترسونتاجتسا يتونج» الألمانية[٤٧]: «إن الضغوط الخارجية يمكن أن تكون كافية لضمان تقديم بن لادن للعدالة».. قال أيضا للصحيفة: «لو كان ما يهم الأمريكيون حقاً هو بن لادن فقط.. فإن المشكلة يمكن حلها من خلال التعاون مع باكستان وبتكثيف الضغوط على طالبان.. أنتم لاتحتاجون إلى حرب للقبض عليه» ..!

* * *


اسامة بن لادن

أما أبرز ردود الفعل على الهجوم الأمريكى على أفغانستان.. فكان ظهور أسامة بن لادن على شاشات تليفزيون قناة الجزيرة عقب المرحلة الأولى من القصف الجوى مباشرة وإلقائه بياناً هدد فيه الولايات المتحدة الأمريكية بالانتقام.. وهذا هو نص البيان:

«إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا.. من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.. أما بعد.. فها هى أمريكا قد أصابها الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى مقتل من مقاتلها فدمر أعظم مبانيها فلله الحمد والمنة.. وها هى أمريكا قد امتلأت رعباً من شمالها إلى جنوبها ومن شرقها إلى غربها فلله الحمد والمنة..

وما تذوقه أمريكا اليوم هو شىء يسير مما ذقناه منذ عشرات السنين.. فإن أمتنا منذ بضعة وثمانين عاماً تذوق هذا الذل وتذوق هذه المهانة فيقتل أبناؤها وتسفك دماؤها ويعتدى على مقدساتها وتقتل بغير ما أنزل الله.. ولا سامع ولا مجيب، فلما أن وفق الله ـ سبحانه وتعالى ـ كوكبة من كواكب الإسلام، طليعة من طلائع الإسلام، فتح الله عليهم فدمروا أمريكا تدميراً. وأرجو من الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يرفع قدرهم وأن يرزقهم الفردوس الأعلى إنه ولى ذلك والقادر عليه.

فلما رد هؤلاء عن أبنائهم المستضعفين، وعن إخوانهم وأخواتهم فى فلسطين وفى كثير من بلاد الإسلام.. صاح العالم بأسره.. صاح الكفر وتبعه النفاق.. مليون طفل من الأطفال الأبرياء يقتلون إلى هذه اللحظة التى أتحدث فيها.. يقتلون فى العراق بلا ذنب جنوه.. ولانسمع مستنكرا ولا نسمع فتوى من حكام السلاطين.. وفى هذه الأيام تدخل الدبابات والمجنزرات الإسرائيلية لكى تعيث فى فلسطين فساداً فى جنين، ورام الله، وفى رفح، وفى بيت جالا، وفى غيرها من أرض الإسلام، ولانسمع من يرفع صوتاً أو يحرك ساكناً.. فإذا جاء السيف بعد ثمانين عاماً على أمريكا.. ظهر واشرأب النفاق برأسه يتحسر على هؤلاء القتلة الذين عبثوا بدماء وأعراض ومقدسات المسلمين.. فهؤلاء أقل ما يقال فيهم أنهم فسقة اتبعوا الباطل، ونصروا الجزار على الضحية، ونصروا الظالم على الطفل البرىء.. فحسبى الله عليهم وأرانا الله ـ سبحانه وتعالى ـ فيهم ما يستحقون.

إن الأمر واضح وجلى، وينبغى على كل مسلم بعد هذا الحدث، وبعد أن تحدث

كبار المسئولين فى الولايات المتحدة الأمريكية ابتداء برأس الكفر العالمى بوش ومن معه.. وقد خرجوا أشراً وبطراً برجالهم وبخيلهم.. وقد ألبوا علينا حتى الدول التى تنتسب إلى الإسلام على هذه الفئة التى خرجت تفر بدينها إلى الله - سبحانه وتعالى - تأبى أن تعطى الدنية فى دينها.. خرجوا من يريدون أن يحاربوا الإسلام ويزيفوا على الناس باسم الإرهاب.. شعب فى أقصى الأرض.. فى اليابان قتل منه مئات الألوف كباراً وصغاراً فهذه ليست جريمة حرب.. هذه مسألة فيها نظر.. مليون طفل فى العراق مسألة فيها نظر.. أما عندما قتل منهم بضعة عشر فى نيروبى ودار السلام.. قصفت أفغانستان وقصف العراق.. ووقف النفاق بأسره خلف رأس الكفر العالمى.. خلف «هبل العصر» أمريكا ومن معها.. فأقول إن هذه الأحداث قد قسمّت العالم بأسره إلى فسطاطين.. فسطاط إيمان لانفاق فيه.. وفسطاط كفر أعاذنا الله وإياكم منه.. وينبغى على كل مسلم أن يهب لنصرة دينه.. وقد هبت رياح الإيمان ورياح التغيير لإزالة الباطل من جزيرة محمد - صلى الله عليه وسلم - وأما أمريكا فأقول لها ولشعبها كلمات معدودة:

أقسم بالله العظيم الذى رفع السماء بلا عمد.. لن تحلم أمريكا ولا من يعيش فى أمريكا بالأمن قبل أن يعيشه واقعاً فى فلسطين، وقبل أن تخرج جميع الجيوش الكافرة من أرض محمد - صلى الله عليه وسلم - والله أكبر والعزة للإسلام.. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



توقيع أسامة بن لادن

* * *

انتشار القوات الأمريكية والبريطانية

قاعدة وايتمان الجوية
قاذفات ستلث 2 بي مالي
تاخذ ويمكنها الوصول إلى أهدافها في أفغانستان دون توقف.
القاذفة الواحدة يمكنها إسقاط 16 قنبلة موجهة زنتها 2000 رطل أو ثماني قنابل متفجرة زنتها 5000 رطل

تركيا قاعدة انجيرليك:
قوات أمريكية جوية: 1400 فرد
الطائرات: إف 15، إف 16، إس إيه 6 بي، كيه سي - 135، إيه 3 بي/سي، أواكس (نظام الإنذار والتحكم جوي)

دييجو جارسيا: جزيرة بريطانية في المحيط الهندي
قاعدة محصنة لقاذفات بي 52 التي استدعيت إلى المنطقة. معدات عسكرية ثقيلة وتحمل المياه والوقود والأسلحة لتسليح لواء

قبرص: 2000 جندي بريطاني ضمن كتيبتي مشاة و1200 جندي في القوات الجوية البريطانية

اليابان: حاملة طائرات يو إس إس كيتي هوك وتضم 70 مقاتلة حربية وفي طريقها إلى بحر العرب.

الكويت: قاعدة علي السالم
8 مقاتلات تورنيدو جي آر وان إس.
قاعدة الجابر: قوات أمريكية تراقب منطقة الحظر الجوي جنوب العراق 4000 جندي أمريكي بالإضافة إلى دبابات وناقلات جنود ومعدات إعادة التعزيز

السعودية: مدينة الملك خالد
قوات جوية أمريكية مقاتلات إف 15، إف 16، إف 17، سي 130، كيه سي 135 بالإضافة إلى 650 جنديا

المحيطين
جهاز استخبارات معروف وسفينة 10 في بحر ..

عمان: قوات بريطانية
20 ألف فرد، 30 مقاتلة تشمل تورنيدو جي آر 4، إس إف 3، هارير جي آر 7 إس، 12 سفينة حربية... سي 10 إس، 3 ... 2 إس، 4 إي 3 دي، وأكس، ناقلات 4 سي ـ 130.

الهند: أربع قواعد تنوفر للقوات الجوية الأمريكية

روسيا
البحر الأسود
كازاخستان
بحر قزوين
تركيا
البحر المتوسط
أوزبكستان
تركمانستان
سوريا
أفغانستان
طاجيكستان
ليبيا
مصر
العراق
الصين
إيران
باكستان
المملكة السعودية
السودان
بحر العرب
عمان
اليمن
الهند

بحر العرب: حاملة الطائرات يو إس إس كارل فينسن
75 إف 14 توم كاتس وإف 18 إس و10 ـ 12 قاربا و5000 فرد

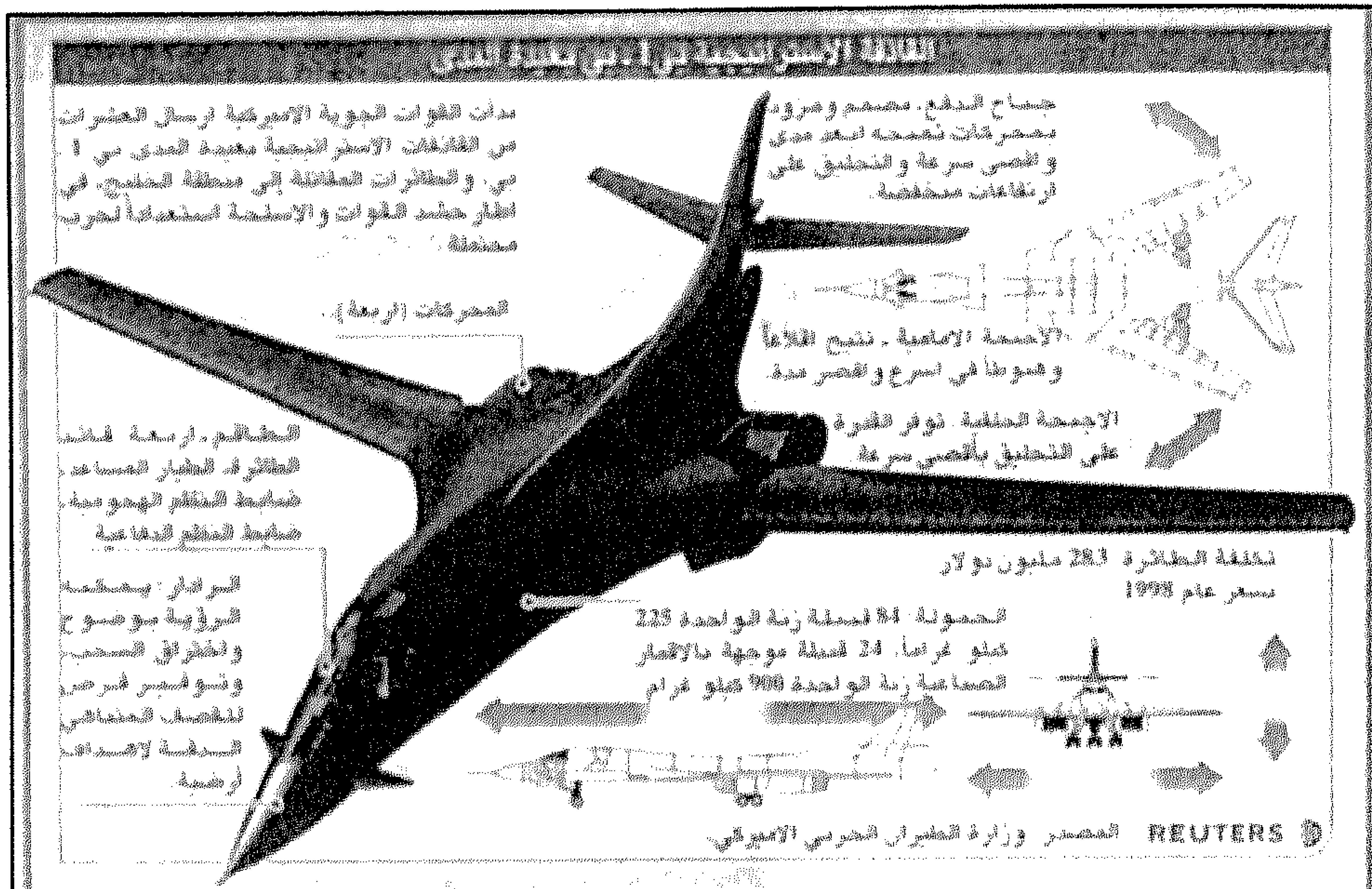
بحر العرب: حاملة الطائرات يو إس إس انتربرايز
90 إف 14 إس وإف ايه ـ 18 هورنتس
مدى أقصى 24 قاربا ومدمرة وغواصات مهاجمة قادرة على إطلاق صواريخ كروز طويلة المدى توماهوك
حاملة الطائرات يو إس إس ثيودور روزفلت تحمل وحدة مقاتلة 15000 فرد
رويال نيفي 27 زورق، الهجوم تتقدمها حاملة الطائرات إتش إم إس ألسيوس رس وتصحبها غواصتان نوويتان قادرتان على إطلاق صواريخ كروز

نحن بلد تيقظ للخطر وسيدافع عن الحرية

قطر الدوحة:
قوات أمريكية 300 فرد بالإضافة إلى معدات عسكرية ثقيلة تشمل التزويد بالمياه والوقود والذخيرة

السعودية: قاعدة الأمير سلطان الجوية، الخرج: قوات جوية أمريكية مقاتلات إف 15، إف 16 تراقب الحظر الجوي على جنوب العراق من أفراد القوات الجوية الأمريكية
القوات البريطانية 6 مقاتلات تورنيدو إف 3 إس و300 جندي من القوات الجوية البريطانية

جرافيك نيوز





طاقم حاملة الطائرات «انتربرايز» يقوم بتجهيز الصواريخ تمهيدا لاطلاقها من المحيط الهندى

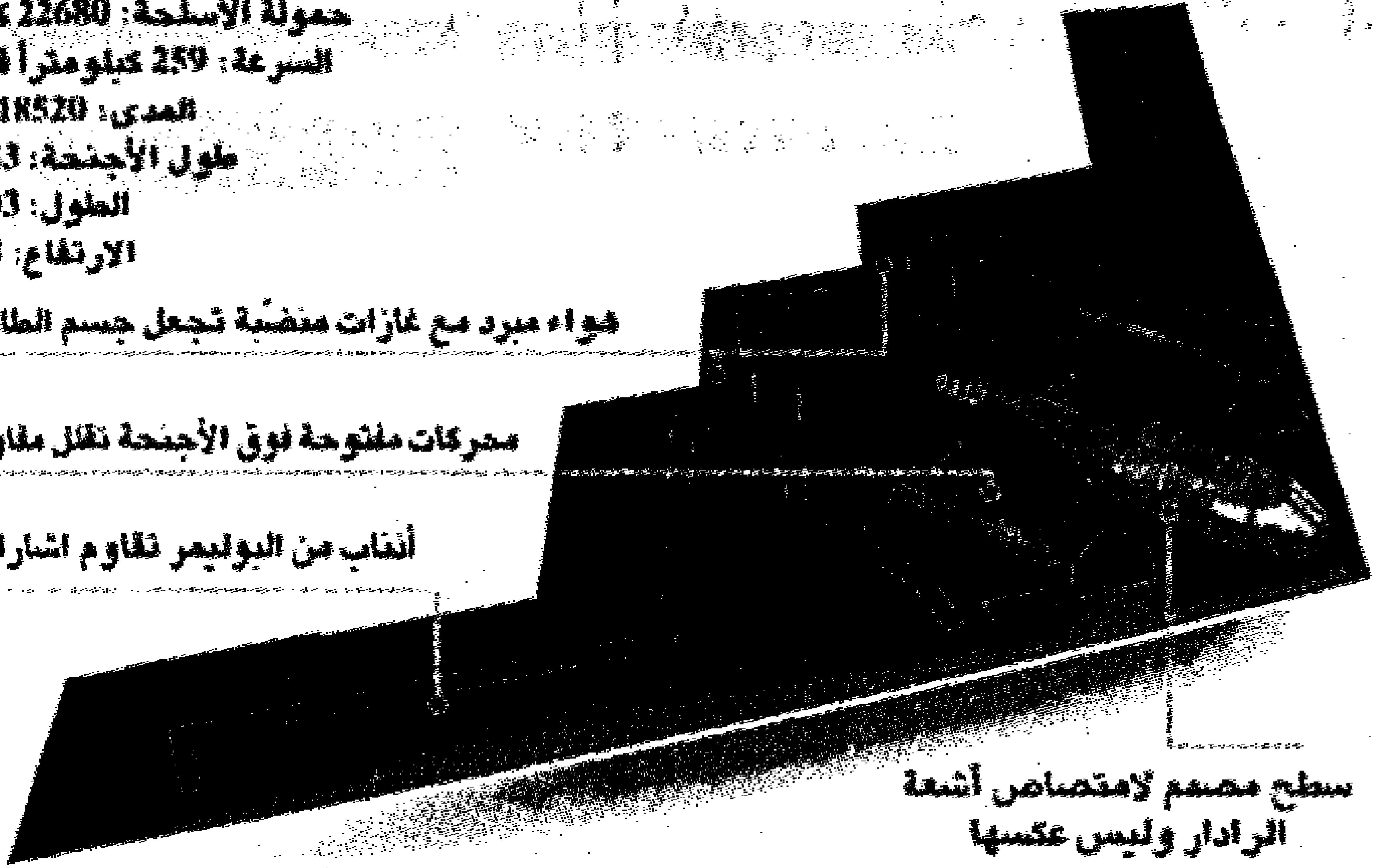
الطائرة الشبح

واصلت القوات الأمريكية والبريطانية ضرب أهداف لطالبان في أفغانستان

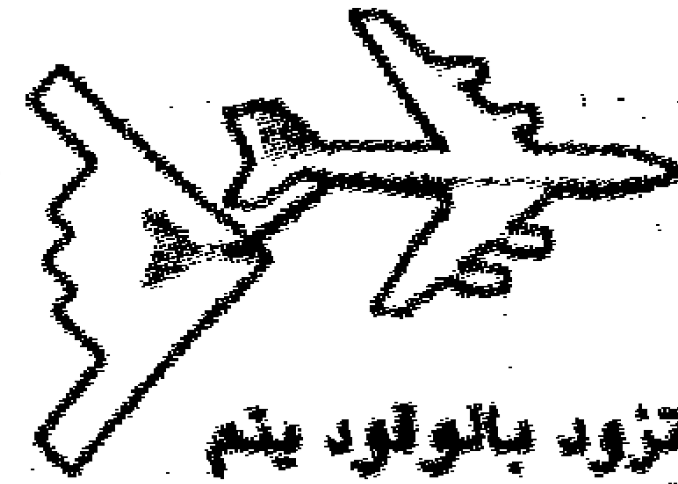
إحدى المقاتلات المستخدمة هي «بي 2» المسماة بالشبح والتي بوسعها حمل 22680 كيلوجراماً من القنابل للمهمة الواحدة والطيران بلا توقف من قواعد في الولايات المتحدة

طائرة الشبح:

حمولة الأسلحة: 22680 كيلوجراماً
السرعة: 259 كيلومتراً في الساعة
المدى: 18520 كيلومتراً
طول الأجنحة: 52.43 متراً
الطول: 21.03 متراً
الارتفاع: 5.18 متراً



أفغانستان بعيدة عن مدى تحليق الشبح لمرة واحدة ولذلك لابد من تزويدها بالوقود في الجو



خلال التزود بالوقود يتم ضخ 4.180 لـيـتـر من الوقود في الدقيقة



الفصل العاشر

• أزمة مشرف ..

« هكذا حددت باكستان خيارها..
ضحت بالصديق الأفغانى وقبلت المشاركة فى ذبحه..
مقابل ألا تطولها سكين الجزار..!»

☐ *كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة من مساء يوم الأحد السابع من أكتوبر عام ٢٠٠١، عندما كنت أجلس فى غرفتى بفندق «شيراز إن» بمدينة بيشاور أتابع أنباء القصف الأمريكى لأفغانستان على شاشة التليفزيون.*

سألت نفسى.. ما الذى يمكن أن يسفر عنه هذا القصف؟.. إن أفغانستان كما قال كثيرون - من بينهم وزير الدفاع الأمريكى دونالد رامسفيلد نفسه - ليس فيها أهداف ذات قيمة يمكن قصفها..! فما الذى يقصفه الأمريكيون إذن؟.. ثم تذكرت ما جاء على لسان الرئيس الأمريكى جورج بوش فى صحيفة «الإندبندنت» البريطانية[٤٨]:

«لن أطلق صاروخا واحدا تبلغ تكلفته مليونى دولار على خيمة فارغة لا تتجاوز قيمتها العشرة دولارات أو أصيب جملاً فى مقتل.. إن الأمر سيكون حاسما»..!

ترى كيف سيكون حاسما؟.. وما هو عدد القتلى الذين يعتبر بوش أنهم يساوون تكلفة الصاروخ ؟!..

اتصلت هاتفيا بالملا نجيب الله القنصل الأفغانى فى بيشاور لاستطلع منه نتائج القصف الأمريكى.. قال لى: إن القصف استهدف المطارات فى قندهار، وكابول، وجلال آباد.. وأن الكثير من الصواريخ أخطأت أهدافها وسقطت فى الجبال.. قال أيضا إن أسامة بن لادن والملا محمد عمر زعيم طالبان بخير ولم يصبهما أذى من الصواريخ الأمريكية.

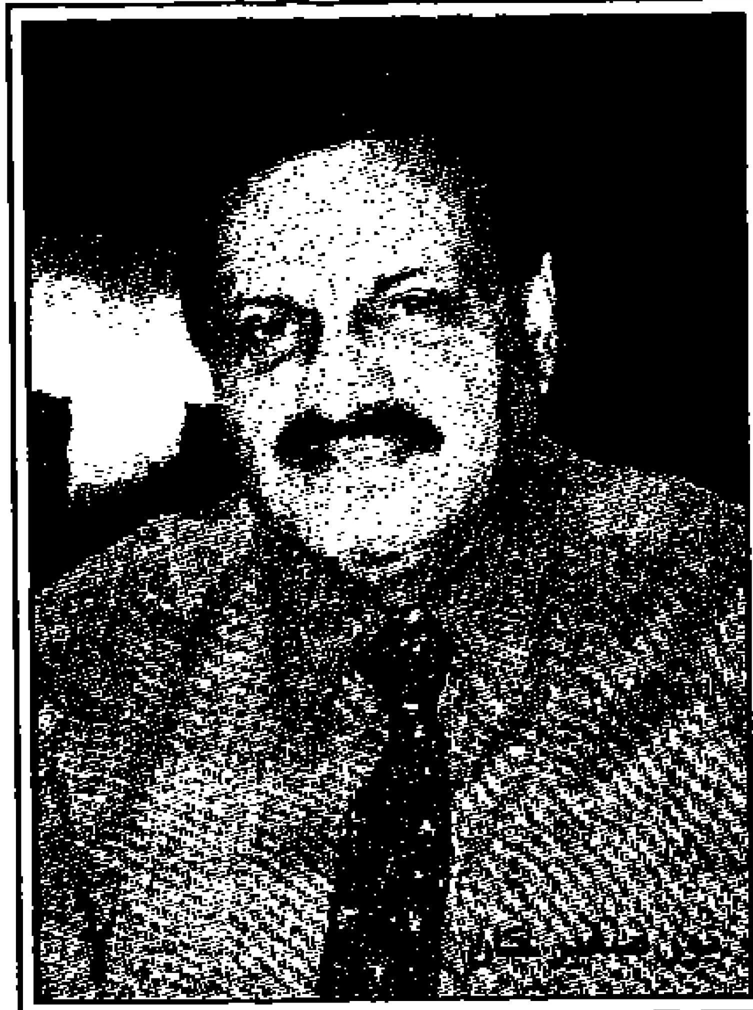
بعد ذلك اتصلت بصديقى فى إسلام آباد «نور صغير خان» مدير الإعلام الخارجى والقائم بأعمال وزير الإعلام فى الحكومة الباكستانية. فأبلغنى أن الرئيس الباكستانى بيرفيز مشرف سيعقد مؤتمرا صحفيا فى العاشرة صباح اليوم التالى بمقر «المكتبة القومية» فى إسلام آباد.. وقال إنه بحث عنى فى كل مكان ليدعونى لحضور المؤتمر.. والمشكلة أنه يريد منى فى نفس الليلة صورة شخصية لاستخراج بطاقة دخول المؤتمر وإرسالها قبل الصباح إلى جهاز الأمن برئاسة الجمهورية لاعتمادها..

كنت أسمع ذلك وأنا ممدد فى الفراش داخل غرفتى بالفندق فى مدينة بيشاور على مسافة ١٩٠كم تقريبا من مدينة إسلام آباد..!

نظرت إلى عقارب الساعة فوجدتها تقترب من الحادية عشرة مساء.. فرجوته ان ينتظرنى بمكتبه لمدة ساعتين.. وقفزت من الفراش أجمع ملابسى وأوراقى ثم غادرت الفندق بعد أقل من ربع ساعة فقط فى سيارة أجرة استدعاها لى بالهاتف موظف الاستقبال محمد سعيد..

كان موظفو الفندق قد شرحوا لسائق السيارة ضرورة الوصول بى إلى مقر وزارة الإعلام فى إسلام آباد خلال ساعتين فقط لا أكثر.. فانطلق بنا الرجل بأقصى سرعة ممكنة.. لم يعطلنا فى الطريق سوى رجال الشرطة الذين أوقفونا عدة مرات للتفتيش.

سألت السائق عن اسمه.. قال لى: «ذبيح الله».. فحاولت التحدث معه حتى لا ينام أثناء القيادة خاصة أننا فى منتصف الليل.. والطريق ضيق.. وسرعة السيارة أكثر من ١٠٠كم فى الساعة.. لكن المشكلة أنه كان لا يتحدث إلا اللغة البشتونية..وكلما سألته عن شىء يقول لى «معلوم».. وهى كلمة تحمل نفس المعنى فى اللغة العربية.. فقد كان السائق الطيب يظن كلما تحدثت إليه، أننى أؤكد عليه ضرورة الوصول فى الموعد المحدد..!



وقد وصلت بالفعل إلى مكتب «نور صغير خان» حوالى الساعة الواحدة والربع صباحا.. فوجدته بانتظارى مع مجموعة من موظفى السكرتارية الخاصة بمكتبه، كانوا يراجعون قوائم الصحفيين الأجانب الذين سيحضرون المؤتمر الصحفى للرئيس بيرفيز مشرف.. فتم استخراج بطاقة الدخول الخاصة بى خلال أقل من خمس دقائق فقط.. وبقيت معهم لاعتمادها من الأجهزة الأمنية..

* * *

كان المطلوب أن نتواجد فى الساعة السابعة والنصف صباحا بالمركز الإعلامى بفندق ماريوت لاستلام البطاقات من موظف اسمه «مستحسن».. بعد ذلك جاءت سيارات أتوبيس من رئاسة الجمهورية نقلتنا إلى مقر المكتبة القومية، حيث خضعنا لإجراءات أمنية طويلة ومعقدة استمرت قرابة ساعتين.. حتى سمح لنا بالدخول إلى القاعة التى سيعقد بها المؤتمر الصحفى.. وهى عبارة عن قاعة مسرح كبيرة.. مجهزة للعرض المسرحى.. لاحظت أن الصفوف الأمامية من المقاعد شغلها الوزراء وجنرالات الجيش الذين حضروا لمشاركتنا المؤتمر الصحفى.

لمحت وزير الخارجية عبدالستار الذى سبق أن تعرفت عليه فى «كوالالمبور» أثناء مؤتمر وزراء خارجية دول منظمة المؤتمر الإسلامى - الذى عقد فى يونيو عام ٢٠٠٠ -

فتبادلنا التحية.. ثم ذهبت إلى الرجل فصافحته وطلبت منه موعدا لإجراء حوار خاص معه حول التطورات الأخيرة.. فإذا به يقول لى إنه لا يتحدث إلى وسائل الاعلام فى هذه الفترة.. وان الوحيد الذى يتحدث هو رئيس الجمهورية..!

* * *

لماذا هذه الفترة بالذات التى لم يكن يتحدث فيها لوسائل الاعلام إلا رئيس الجمهورية..؟!

لانها كانت من أهم وأخطر الفترات التى واجهتها باكستان طوال تاريخها منذ نشأتها عام ١٩٤٧.

مصدر الخطورة أنه لأول مرة فى تاريخ الشعب الباكستانى ينقسم على نفسه أمام قضية من القضايا.. كما قال الرئيس بيرفيز مشرف نفسه فى خطابه يوم ١٩ سبتمبر عام ٢٠٠١..!

سبب الانقسام أن باكستان وجدت نفسها فجأة أمام خيارين كلاهما صعب..

- فهى إما أن توافق على طلب الولايات المتحدة الأمريكية بتقديم «المساعدة» لها فى ضرب أفغانستان.. الدولة الجارة.. المسلمة.. الصديقة.. التى تمثل لباكستان إحدى الركائز الأساسية لأمنها القومى، ويمثل نظام طالبان الحاكم فيها أهم الحلفاء الاستراتيجيين لباكستان فى صراعها مع الهند...

- وإما أن ترفض تقديم «المساعدة».. فتقدم بذلك للهند «فرصة تاريخية» للتحالف مع الولايات المتحدة ضدها.. وهو تحالف سيشهد عزل باكستان دوليا وتصنيفها ضمن الدول الراعية للإرهاب، لإيجاد المبرر لضربها وتدمير منشآتها النووية، مما سيسهل للهند بعد ذلك الاستيلاء على الجزء من كشمير الواقع تحت السيطرة الباكستانية.. وهذا بالضبط ما تريده الهند وتعد نفسها له منذ عدة عقود..

الهند تمنت الحصول على هذه «الفرصة التاريخية».. فلم تنتظر حتى تطلب منها الولايات المتحدة تقديم «المساعدة» فى ضرب أفغانستان.. بل بادرت من نفسها بالاتصال بواشنطن وعرضت فتح قواعدها العسكرية للقوات الأمريكية للانطلاق منها فى ضرب افغانستان (٤٩).. على الرغم من أن الهند ليست لديها أية حدود مشتركة مع أفغانستان..!

لكنها كانت تريد استغلال «الظرف التاريخى» للانقضاض على باكستان من ناحية.. ومن ناحية أخرى منع نشوء أى تقارب بين باكستان والولايات المتحدة.. قد تستفيد منه باكستان مستقبلا فى نزاعها مع الهند حول إقليم كشمير..!

بل وصل الامر إلى درجة ان باكستان تلقت بالفعل تهديدا بضرب منشآتها «الاستراتيجية»!

هذا التهديد كشف عنه صراحة الجنرال راشد قريشى المتحدث الرسمى باسم الرئيس الباكستانى يوم ١٥ سبتمبر ٢٠٠١ عندما قال بالحرف الواحد: «تلقت الحكومة الباكستانية معلومات تفيد تعرض مقدراتها الاستراتيجية لنوع من التهديد.. ومن ثم فقد أعلنت حالة الطوارىء فى القوات الجوية الباكستانية وأغلق مطار إسلام آباد»[٥٠].

ذكر أيضا أن مسئولين بالإدارة الأمريكية أبلغوا الباكستانيين أن بلادهم ستتعرض لهجوم عسكرى من كل من الولايات المتحدة والهند وإسرائيل، إذا رفضت التعاون مع الحملة العسكرية ضد ما أسموه بـ «الإرهاب».. فضلا عن أن باكستان نفسها ستكون أحد أهداف هذه الحملة باعتبارها قدمت الدعم والمساندة لحركة طالبان التى وفرت فى أفغانستان ملجأ آمنا لأسامة بن لادن ولتنظيم القاعدة منذ عام ١٩٩٦..!

هذا الكلام سمعته فى إسلام آباد من مصادر مطلعة على ما دار فى الاجتماع الذى عقد بمقر وزارة الخارجية الأمريكية بواشنطن يوم الأربعاء ١٢ سبتمبر ٢٠٠١، بين نائب وزير الخارجية الأمريكى «ريتشارد ارميتاج» والسفيرة الباكستانية لدى الولايات المتحدة «مليحة لودى» و«الجنرال محمود أحمد» رئيس جهاز المخابرات الباكستانية الذى تصادف وجوده فى واشنطن لمهمة أخرى وقت وقوع هجمات ١١ سبتمبر.

الرئيس بيرفيز مشرف فور أن علم بما دار فى هذا الاجتماع.. دعا كبار مستشاريه فى إسلام آباد إلى اجتماع طارىء.. عقد فى نفس اليوم ١٢ سبتمبر ٢٠٠١ بعد وقت قصير من انتهاء اجتماع واشنطن، واستمر ثلاث ساعات.. خرج بعده الرئيس مشرف يقول أمام وسائل الإعلام: «أريد أن أؤكد للرئيس بوش وحكومة الولايات المتحدة الأمريكية أننا سنتعاون بلا تحفظ فى مكافحة الإرهاب.. لأن الإرهاب شر يهدد المجتمع الدولى كله»..!

فى اليوم التالى - الخميس ١٣ سبتمبر ٢٠٠١ - استقبل مشرف السفيرة الأمريكية فى إسلام آباد «ويندى تشامبرلين» وأكد لها على نفس الموقف..

بقى إذن أن تحدد الولايات المتحدة نوع التعاون المطلوب من باكستان.

وهذا بالضبط ما جرى فى الاتصال الهاتفى بين الرئيس بوش ومشرف يوم الجمعة ١٤ سبتمبر ٢٠٠١، والذى حدد فيه بوش مجموعة من المطالب.. هى:

- السماح للطائرات الحربية الأمريكية باستخدام المجال الجوى الباكستانى للوصول إلى أفغانستان..

- السماح للسفن الحربية الأمريكية بالرسو على السواحل الباكستانية خلال العمليات العسكرية ضد أفغانستان..

- إمداد الولايات المتحدة بالمعلومات الاستخباراتية التى تساعد على تحقيق أهدافها فى الحرب..

- تقديم التسهيلات اللوجيستية التى تحتاجها القوات الأمريكية أثناء الحرب..
- إغلاق الحدود مع أفغانستان..
- وقف إمداد طالبان بالوقود..

وقد وافق مشرف على جميع هذه المطالب.. ولم يتقدم من جانبه بأية مطالب مقابلها.. غير أنه أبلغ بوش بالمشكلة الاقتصادية التى تواجه باكستان وأعرب عن أمله فى أن تلعب الولايات المتحدة دورا أكثر فاعلية فى تسوية النزاع بين باكستان والهند حول كشمير.

فى اليوم التالى.. السبت ١٥ سبتمبر ٢٠٠١.. عقد مشرف اجتماعا مشتركا لأعضاء مجلس الأمن القومى والحكومة الاتحادية أطلعهم فيه على ما جرى خلال الاتصال الهاتفى بينه وبين بوش.. والوضع الذى وجدت باكستان نفسها فيه ولم تكن تحسب له حسابا من قبل.. فتم تأييد الموقف الذى اتخذه مشرف.. وصدر عن الاجتماع بيانا جاء فيه:

«إن الجمعية العامة للأمم المتحدة ومجلس الأمن قد أصدرا قرارات تدين الإرهاب وتعرب عن التضامن مع الولايات المتحدة حكومة وشعبا، وتدعو كافة الدول الأعضاء فى الأمم المتحدة للعمل معا من أجل مواجهة مخاطر الارهاب وتقديم الارهابيين للعدالة.. فى ضوء هذه القرارات، إضافة لإدانة منظمة المؤتمر الإسلامى للهجمات الإرهابية التى تعرضت لها الولايات المتحدة، فإن باكستان ستنهض بكافة مسئولياتها بموجب مبادىء وأحكام القانون الدولى انطلاقا من عضويتها فى الأمم المتحدة والتزامها بالقرارات الصادرة عن الجمعية العامة ومجلس الأمن الدولى فضلا عن ميثاق المنظمة الدولية».

* * *

هكذا حددت باكستان خيارها.. ضحت بالصديق الأفغانى وقبلت المشاركة فى ذبحه.. مقابل ألا تطولها سكين الجزار..!

الرئيس بوش اتصل هاتفيا بالرئيس مشرف يشكره..

وكولين باول وزير الخارجية الأمريكى لم يفته أيضا واجب تقديم الشكر إلى الحكومة الباكستانية على: «موافقتها على الوفاء بقائمة الطلبات التى قدمتها لها الولايات المتحدة للحصول على مساعدات معينة فى إطار استعدادات واشنطن لتعقب الإرهاب».. ونقلت عنه شبكة «سى. إن. إن» الإخبارية قوله: «إننى أود أن أقدم الشكر بصفة خاصة للرئيس بيرفيز مشرف وللشعب الباكستانى للدعم والمساندة التى عرضوها، وكذلك للرغبة التى أبداها رئيس وشعب باكستان لمساعدة الولايات المتحدة لتحديد المسئولين عن ارتكاب هذه الجرائم أو من يستأجرونهم فى هذه المنطقة أيا كانوا».. وأكد باول على «إن هذا سيكون بمثابة تحالف سيظل صامدا ومتماسكا وسنحاول البناء عليه والإضافة إليه على مدى الزمن»[٥١]..

غير أن الشعب الباكستاني لم يكن حقيقة قد أبدى رغبته في مساعدة الولايات المتحدة كما جاء على لسان باول.. بل على العكس من ذلك كان له موقف آخر، عبر عنه عن طريق المظاهرات التي خرجت إلى الشوارع في جميع المدن الباكستانية تندد بأمريكا وبوش ومشرف..!

كان الشعب يريد مساعدة طالبان..

وحكومة مشرف تريد مساعدة أمريكا..

وكان ذلك هو أول «انقسام» يحدث في تاريخ باكستان بين الشعب والحكومة حول قضية خارجية تتصل بالأمن القومي للدولة.

«انقسام» كاد في أوقات كثيرة أن يتطور إلى «صدام» دموي شامل.. عندما تصاعد الرفض الشعبي لموقف الحكومة بدرجة كبيرة، وتزعمته الجماعات الإسلامية، حتى أصبح يشكل خطرا على مستقبل مشرف السياسي.. الرجل العسكري المتمسك بالسلطة..!

هذا الخطر عبر عنه الشيخ سميع الحق رئيس جامعة «الحقانية» وأحد الزعماء البارزين في جمعية علماء الإسلام عندما قال: «إن الحرب الأمريكية ليست ضد بن لادن وطالبان فقط، ولكنها ضد كل من يدعم فكرة وجود حكومة إسلامية.. ومن ثم، فإن مسألة التعاون مع أمريكا في هذه الحرب ليست مجرد قرار يتخذه مشرف ومساعدوه.. ولكنها مسألة شعب مسلم يرى في هذا القرار معادلا للانتحار السياسي»..!

قال أيضا سميع الحق: «إن السماح للأمريكيين باستخدام الأراضي أو الأجواء الباكستانية أو حصولهم على أي نوع آخر من التسهيلات والمساعدات.. هو تنازل طوعي من قبل حكومة مشرف عن استقلال باكستان.. ولو حدث ذلك فسوف يتحرك ١٤٥ مليون مواطن باكستاني لاقتلاع حكومة مشرف من جذورها»..!

وأشاعت أحزاب المعارضة الباكستانية أن «اتفاقا بليل» تم بين مشرف وبوش خلال الاتصال الهاتفي بينهما.. يقضي بأن يقدم الأول التسهيلات لأمريكا في حربها ضد أفغانستان، مقابل أن يضمن له الثاني البقاء في الحكم..!!

وقالت المعارضة إن هذه «الصفقة المشبوهة» مع أمريكا قضت قضاء مبرما على «الاتفاق الضمني» بين مشرف والقيادات السياسية في باكستان، خاصة الإسلامية منها - قبل أحداث ١١ سبتمبر - على عدم السماح لأية جهة أجنبية باستغلال باكستان في توجيه أي أعمال عدائية لأفغانستان أو طالبان.. حتى لو كانت في إطار تطبيق العقوبات التي فرضتها الأمم المتحدة على أفغانستان بعد اتهام «بن لادن» بتدبير عمليتي تفجير سفارتي الولايات المتحدة في كينيا وتنزانيا عام ١٩٩٨.

وذكّرت المعارضة الرئيس مشرف بتصريحاته في يوليو ٢٠٠١ التي دافع فيها عن تأييد بلاده لطالبان.. وقوله إنها تسيطر على أكثر من ٩٠٪ من أراضي أفغانستان

التى تمثل لباكستان نطاقا حيويا لأمنها القومى.. وتساءل المعارضون: هل خرجت أفغانستان الآن من نطاق الأمن القومى الباكستانى، وبالتالى يصبح ممكنا الدخول معها فى حرب معلنة مجاملة لأمريكا..؟![٥٢].

المشكلة أن تيار المعارضة فى باكستان ضد موقف مشرف لم يقتصر فقط على الأحزاب السياسية والجماعات الإسلامية.. بل امتد ليشمل مسئولين فى الحكومة والجيش والأجهزة الأمنية والإعلام، ووصف بعضهم العلاقة مع طالبان بأنها تتجاوز بكثير مثل هذه «الرغبات الطارئة» لمشرف..!

كان مشرف قد حاول فى البداية أن يكسب تأييد الرأى العام.. فعقد سلسلة من اللقاءات مع الشخصيات السياسية البارزة فى المجتمع الباكستانى وزعماء الجماعات الإسلامية والكتاب والمفكرين وكل من له ثقل جماهيرى على الساحة الداخلية.. وشرح لهم المخاطر التى ستحل بباكستان إذا رفض التعاون مع الولايات المتحدة.. وأن هذه المخاطر لن تقتصر فقط على فرض عقوبات اقتصادية أو عزلة دولية حولها.. بل ستمتد إلى جعل باكستان أحد أهداف الحملة العسكرية على الإرهاب..

قال لى أحد الذين حضروا هذه اللقاءات إن مشرف سألهم: ماذا يفعل لو قال لبوش لن اتعاون معك فى الحرب.. ثم وجد بعد ذلك المقاتلات الأمريكية تعبر الأجواء الباكستانية فى طريقها إلى أفغانستان.. هل يضرب المقاتلات الأمريكية ويسقطها لأنها لم تحصل على إذن منه.. فيدخل بذلك فى حرب مع أمريكا.. أم يتركها تعبر..؟!

وكأنه يعنى بذلك أن موافقته على التعاون مع أمريكا فى الحرب هى «تحصيل حاصل» ستستفيد منه باكستان سياسيا فى أزمتها مع الهند.. واقتصاديا بالحصول على معونات من أمريكا..!

لكن اللقاء مع «نخبة» المجتمع الباكستانى لم تكن كافية فى مواجهة المظاهرات العارمة التى أصبحت تخرج كل يوم فى الشوارع تندد بموقف مشرف، وتحرق أعلام أمريكا ومجسمات بوش..

لذلك قرر الرئيس الباكستانى أن يخاطب الشعب..

فالقى خطابا مؤثرا يوم ١٩ سبتمبر ٢٠٠١ عبر الإذاعة والتليفزيون، وضع فيه كل الحقائق أمام الباكستانيين.. قال: إنه بذل جهودا حثيثة لإنقاذ أفغانستان وطالبان من الموقف المعقد الذى وصلت إليه الأزمة.. وحاول ان يضع أقدامهم على الطريق الذى يؤدى إلى أقل ضرر.. لكنهم لم يستجيبوا لهذه الجهود..!

أوضح أن أسامة بن لادن هو «الهدف الأول» للحملة العسكرية التى تخطط لها الولايات المتحدة..

وأن طالبان هى «الهدف الثانى» باعتبارها تأوى بن لادن وتنظيم القاعدة.. وأن الولايات المتحدة حشدت المجتمع الدولى لتأييد حملتها.. وباكستان لا تستطيع

التخلف عن تأييد هذه الحملة باعتبارها جزءاً من المجتمع الدولي.

عرض الرئيس الباكستاني على الشعب المؤامرات التي تحيكها الهند في هذه الأزمة من أجل الإضرار بمصالح بلاده وأمنها.. قال: «لقد قدم عدونا كل نوع من الدعم للولايات المتحدة الأمريكية في محاولة لإعلان باكستان دولة إرهابية والإضرار بها استراتيجيا وكذلك بقضية كشمير».. ودعا الهنود أن يرفعوا أيديهم ويوقفوا حملتهم ضد الإسلام وضد باكستان..

وأكد مشرف «أن بلاده تواجه أخطر موقف، وأن القوات الجوية الباكستانية قد وضعت على أهبة الاستعداد».. ثم أضاف: «علينا اتخاذ قرار استراتيجي.. قرار يتعلق بأمن ١٤٥ مليون نسمة ومستقبلهم، وأعتقد أنه علينا أن نختار بين المشكلة الأكبر، والمشكلة الأصغر».

وكان أهم ما جاء في هذا الخطاب قوله: «أمن باكستان يأتي أولا.. وأي شيء آخر يأتي بعد ذلك».. «إنني قائد الجيش الباكستاني، والأولوية بالنسبة لي هي الدفاع عن باكستان، أما الباقي فيأتي ثانيا» وفي النهاية دعا الشعب إلى «الوحدة والتضامن في مواجهة العناصر المتطرفة التي تريد استغلال الوضع لإثارة الفوضى في باكستان.. حتى لا تنجح هذه العناصر في تحقيق مآربها الشخصية والسياسية».

* * *

إلا أن خطاب مشرف المؤثر لم يدم تأثيره طويلا.. خاصة بالنسبة للجماعات الإسلامية التي أعلنت فور انتهائه أنها ترفض ما جاء فيه وستواصل حملتها الاحتجاجية.. وتساءل مولانا فضل الرحمن زعيم جمعية علماء الإسلام: هل سيبقى هذا البلد بلدنا بعد أن دعا مشرف إليه الأمريكيين؟.. وهل سيبقى لنا ما نقوله حول المسألة النووية ومشكلة كشمير..؟!

كان موقف الرئيس مشرف في ذلك الوقت صعبا للغاية.. وصفته وكالة رويترز للأنباء بأنه «معصور» بين الضغط الأمريكي الذي استجاب له، وبين معارضة شعبه التعاون مع أمريكا..!

وفي محاولة للتخفيف عنه وتحسين موقفه داخليا.. سارعت واشنطن يوم ٢٢ سبتمبر ٢٠٠١ إلى رفع العقوبات الاقتصادية التي كانت مفروضة على باكستان منذ أجرت تجاربها النووية في أواخر مايو ١٩٩٨.. كما وافقت على إعادة جدولة الديون المستحقة عليها وقيمتها ٦٠٠ مليون دولار.. أيضا قررت اليابان صرف منحة طارئة لباكستان تبلغ ٤٠ مليون دولار لمساعدتها على مواجهة تدفق اللاجئين الأفغان إلى أراضيها.. وذهب ممثلو صندوق النقد والبنك الدولي إلى إسلام آباد للتعرف على حجم المساعدات الاقتصادية التي تحتاجها باكستان ووافقوا بالإجماع على تقديمها.. وقال جيمس وولفنسون رئيس البنك الدولي: «إننا معجبون كثيرا ببرنامج

الإصلاح الاقتصادى فى باكستان الذى بدأ منذ عامين - أى مع مجىء مشرف إلى السلطة - ومستعدون لمساعدتها على الاستمرار فى هذا البرنامج »..!

كذلك وافقت معظم الدول المانحة لباكستان على إعادة جدولة الديون المستحقة عليها..!

هذه الإجراءات جاءت فى وقت كان فيه الاقتصاد الباكستانى «فى مهب الريح» كما وصفته صحيفة «لوموند» الفرنسية فى مقال كتبه «جيلبرت إتيان» - أستاذ زائر بمعهد الدراسات الدولية بباريس - يوم ٢٥ سبتمبر ٢٠٠١[٥٣]..

فى هذا المقال قال إتيان:

- إن حجم الدين الخارجى على باكستان ٣٨ مليار دولار.. فى حين أن ميزانية الدولة لا تتعدى ١٢ مليارا فقط.

- إن حجم الاستثمارات الأجنبية الخاصة انخفض خلال الأعوام الأخيرة من ٤٨٠ مليون دولار عامى ١٩٩٩-٢٠٠٠ إلى ١٨٢ مليون دولار فقط عامى ٢٠٠٠ -٢٠٠١.

- إن معدل التنمية انخفض خلال العشر سنوات الأخيرة من ٦,٢٪ إلى ٢,٦٪..

- إن النظام الديمقراطى الكاذب فى الفترة من ١٩٨٨ إلى ١٩٩٩ اتسم بالتواطؤ والتغاضى والتستر على بعض رجال الأعمال والسياسيين بما فيهم بى نظير بوتو ونواز شريف مما أتاح الفرصة لهم للحصول على مبالغ كبيرة من بنوك القطاع العام كقروض لم يتم سدادها.. وعلى الرغم من أن نظام مشرف نجح فى استعادة ٧٢٠ مليون دولار من هذه القروض، إلا أنه لايزال هناك ٣ مليارات دولار لم ترد..

- إنه من بين تعداد سكان باكستان البالغ ١٤٥ مليون نسمة لم يكن يخضع لضريبة الدخل سوى ١,١ مليون شخص فقط، ثم زاد هذا الرقم فى ظل نظام مشرف إلى ١,٦ مليونا..

- إن حجم التهرب الضريبى فى باكستان مازال كبيرا.. ويقدر بحوالى ٣ مليارات دولار سنويا..

- فى ظل هذه الظروف.. زادت الديون الداخلية بسرعة كبيرة.. ووصلت فوائد الديون إلى ما يعادل ٦٠٪ من الدخل العام، وهو ما أسفر أيضا عن نقص الاستثمارات اللازمة للتنمية.

كانت هذه هى «حالة» الاقتصاد الباكستانى فى تلك الفترة.. وكانت من أهم الأسباب الضاغطة على الرئيس مشرف للإجابة بـ «نعم» على الطلبات الأمريكية.

* * *

لكن المسألة بالنسبة للشارع الباكستانى كان لها بعد آخر عقائديا وعميقا..

- لم تكن أزمة رغيف خبز أو ارتفاع فى أسعار الوقود يمكن أن تنتهى بمجرد الحصول على مساعدات أجنبية..

- بل كانت أزمة تمس العقيدة.. شخصتها الجماعات الإسلامية على أنها حرب ضد الإسلام تقودها أمريكا ويتعاون معها مشرف..!

لذلك فإن المظاهرات لم تتوقف بإعلان واشنطن رفع العقوبات الاقتصادية عن باكستان أو إعادة جدولة الديون.. لأن الخطاب في الشارع الباكستاني في ذلك الوقت كان يدعو للجهاد ضد أمريكا ويعتبره فرضا على كل مسلم.. كانت الحشود تعد لإرسالها إلى أفغانستان.. والتبرعات تجمع في كل صلاة بالمساجد وترسل إلى السفارة الأفغانية في إسلام آباد.. ومن ثم لم يكن هناك تأثير يذكر للعامل الاقتصادي على موقف الشارع الباكستاني من الأزمة..

أو بمعنى آخر.. فإن «الجزرة» التي لوحت بها واشنطن لم يلتفت لها الشعب الباكستاني.. وبقي ثائرا وغاضبا ومحتجا على قرار رئيسه التعاون مع أمريكا..!

في هذه الفترة.. تنامى التيار الإسلامي بقوة في باكستان.. وأصبحت الجماعات الإسلامية هي صاحبة الصوت الأعلى في الشارع.. وهي التي تقود الرأي العام.. فزاد النفوذ الشعبي لزعمائها واستطاعوا أن يحشدوا حولهم قطاعات كبيرة من الشعب.. عندئذ شعر مشرف بالخطر.. وشعر بأن «فاتورة» التعاون مع أمريكا في الحرب ضد أفغانستان يمكن أن يدفع ثمنها بالكامل من مستقبله السياسي.. رغم أن هذا الموقف اتخذه من منطلق الحرص على مصلحة باكستان وأمنها الإقليمي.. وليس لأية أغراض شخصية.. لكن من الذي يستطيع أن يقنع الناس بذلك..؟!

- إن لقاءات مشرف مع «النخبة».. لم تجد..

- وخطابه المؤثر إلى الشعب .. لم يدم تأثيره طويلا ..

- والمساعدات الاقتصادية لم تغير رأي الناس..!



لذلك قرر الرئيس مشرف أن يخاطب معارضيه بنفس أسلوبهم.... وهو المظاهرات والهتاف في الشوارع..!

وعلى طريقة «الأنظمة الشمولية» تم إخراج موظفي الحكومة إلى الشوارع في مظاهرات تهتف بتأييد الرئيس وترفع لافتات مطبوع عليها صورتان.. إحداها لمشرف والثانية للزعيم محمد على جناح مؤسس باكستان.

فردت الجماعات الإسلامية على هذه المظاهرات بمظاهرات أخرى ترفع لافتات مطبوع عليها صورة مشرف وهو يحمل على صدره كلبين.. وكتبت تحتها: «إن رئيسنا لا يراعي أن الكلاب حيوانات نجسة..!»

لقد كانت معركة مشرف مع المعارضة فى الداخل صعبة ومريرة.. لأن المعارضة فى هذه المرة لم تكن مجموعة من الأحزاب السياسية الطامعة فى الوصول إلى السلطة، حيث يمكن بسهولة حرق أوراقها عن طريق اتهامها بالفساد والزج بقياداتها فى المحاكم..

ولكنها كانت تيار إسلام سياسى.. تهيأت له التربة والمناخ فأخذ ينمو بسرعة..!

- التربة الدينية الخصبة فى هذه المنطقة من العالم.. حيث كان الدين هو أساس عملية تقسيم شبه القارة الهندية فى عام ١٩٤٧ إلى دولتين: باكستان دولة للمسلمين.. والهند دولة للهندوس.. وبالتالى فقد ارتبطت نشأة الدولة منذ البداية بنوع العقيدة.. فلم تقتصر فى حياة الناس على مجرد إقامة الشعائر الدينية، وإنما أصبحت نظاماً سياسياً.. فاطلقت باكستان على نفسها اسم «جمهورية باكستان الإسلامية»، ونصت دساتيرها الثلاثة التى صدرت أعوام ١٩٥٦، و١٩٦٢، و١٩٧٣ على أن نظام الحكم فيها يقوم على الشريعة الإسلامية.. فظلت الهوية الباكستانية منذ نشأة الدولة هوية إسلامية.. لم تتغير فى أى فترة من الفترات رغم اختلاف نظم الحكم.. كما لم تتأثر بالعلاقة الوثيقة مع الغرب أثناء الحرب الباردة.. بل إن الصراع مع الهند الهندوسية حول كشمير ذات الأغلبية المسلمة كان أحد العوامل التى ساعدت على تعميق الهوية الإسلامية لباكستان.

هكذا أصبح الإسلام فى باكستان عقيدة، وهوية، ونظام حكم.. وتربة سياسية..

- أما المناخ الذى تهيأ لتيار الإسلام السياسى المعارض للرئيس مشرف.. فأتى من طبيعة القضية المطروحة، والتى بدت فى نظر معظم الباكستانيين على أنها حرب ضد الإسلام تقودها أمريكا.. وبالتالى فالجهاد ضد أمريكا أصبح فريضة دينية واجبة فى نظر هؤلاء.. فما بالك برئيس دولتهم الذى وافق على تسخير إمكانات الدولة للتعاون مع أمريكا فى الحرب ضد الإسلام..!

هناك سبب آخر جعل موقف مشرف ضعيفاً أمام معارضيه.. هو قصة وصوله إلى الحكم فى باكستان..

فمشرف جاء أصلاً إلى الحكم على صهوة جواد رافضاً لسياسة سلفه السابق نواز شريف، التى جنحت فى أيامها الأخيرة إلى السير فى ركاب أمريكا والعمل بنصائحها فى الأزمة مع الهند عام ١٩٩٩.. حيث أمر شريف بانسحاب القوات الباكستانية من «كارجيل» بناءً على طلب واشنطن.. مما أثار الشارع الباكستانى ضده وأغضب الجماعات الإسلامية..

وكان مشرف يشغل فى ذلك الوقت منصب وزير الدفاع ويحظى باحترام وثقة الباكستانيين بسبب الانتصارات التى أحرزها ضد الهنود فى «كارجيل»، ونجاحه فى الاستيلاء على بعض مناطق كشمير التى كانت تقع تحت السيطرة الهندية..

فلما أطاح مشرف بشريف فى ١٢ أكتوبر ١٩٩٩.. استقبله الشارع الباكستانى استقبالاً حسناً بدرجة ما.. على الرغم من كونه جاء عن طريق المجنزرات وليس عن

طريق صناديق الاقتراع التى جاءت بشريف.. ذلك لأن الشارع الباكستانى فى تلك الفترة كان يريد التغيير بأى ثمن.. ومن أى باب..! حيث كان يقع تحت تأثير قوتين سياسيتين هما: حزب الشعب الباكستانى الذى ترأسه بى نظير بوتو.. والجماعات الإسلامية.. وكلاهما كان يريد التخلص من نواز شريف..!

لذلك فإن بيرفيز مشرف وضع نفسه فى مأزق كبير على الصعيد الداخلى عندما قرر السير فى ركاب أمريكا.. خاصة أنه لم يكتف بتنفيذ نصائحها فقط كما فعل سلفه السابق.. بل فتح الأجواء لطائراتها الحربية وقدم لها التسهيلات على الأرض لضرب حليف استراتيجى مهم لباكستان فى صراعها مع الهند.. هو أفغانستان الدولة المجاورة المسلمة..!

بذلك يكون مشرف قد ذهب فى السير فى ركاب أمريكا أبعد مما ذهب إليه شريف.. مما جعل الأحزاب والجماعات الإسلامية التى أيدته بالأمس تنقلب عليه وتنحاز لها قطاعات كبيرة أخرى من الشعب..

* * *

هكذا كان الوضع السياسى على الصعيد الداخلى فى باكستان عندما بدأت الولايات المتحدة الأمريكية الحرب ضد أفغانستان..

- انقسام بين السلطة والشعب..
- غضب عام بسبب الحرب..
- إحساس بالقلق من المستقبل المجهول للمنطقة..

الأمر الذى جعل تلك الفترة من أخطر الفترات التى واجهت باكستان منذ نشأتها..

لذلك، عندما التقيت بوزير الخارجية عبدالستار قبل دقائق من بدء المؤتمر الصحفى للرئيس مشرف صباح ٨ أكتوبر ٢٠٠١، وطلبت منه تحديد موعد لإجراء حوار معه.. تفهمت وجهة نظره حينما اقترح علىَّ إرجاء هذا الحوار.. قائلاً: إن الوحيد الذى يتحدث فى هذه الفترة هو رئيس الجمهورية..

كان العالم كله ينتظر حديث مشرف فى هذا اليوم..

وكنت قد اتخذت مكانى فى الصفوف الأولى من القاعة التى اكتظت عن آخرها بالصحفيين ومراسلى وكالات الأنباء وشبكات التليفزيون العالمية.. وعيوننا جميعاً معلقة بالباب الذى سيدخل منه الرئيس.. بينما جلس أحد «المقرئين» على جانب من المنصة وأخذ يجرى تجارب لضبط الصوت فى الميكروفون..

بعد أن جاوزت الساعة العاشرة بدقاق قليلة.. دخل الرئيس مشرف بزيه العسكرى وحوله مجموعة من جنرالات الجيش.. فوقف الوزراء والمسئولون تحية للرجل ووقفنا مثلهم.. بادلنا التحية فجلسنا..

كان الرجل هادئاً لا يبدو عليه أى توتر، رغم أجواء الحرب التى تعيشها المنطقة.. يتصرف ببساطة وتواضع شديدين..

ولاحظت خلال المؤتمر الصحفى أنه يتحدث بصدق وتلقائية، فيجعلك تتأثر بما يقوله وتحب أن تستمع إليه..

لم ينه المؤتمر إلا بعد أن ألقى الصحفيون عليه كل ما يريدون من أسئلة.. أعطى كل صحفى فرصة السؤال ورد عليه بكل اهتمام، فلم يُسَّخِفْ سؤالاً لصحفى للهروب من الإجابة عليه.. ولم يُسْتَثَر حتى عندما تجاوز أحد الصحفيين وسأله باللغة الأوردية: كيف ستقسم أنت وأصدقاؤك من الجنرالات ملايين الدولارات التى سترسلها أمريكا إلى باكستان؟.. وكم سيكون نصيب كل منكم؟.. بل اكتفى بالرد أن هذا غير صحيح..!

كان الرئيس بيرفيز مشرف مهذباً ومتحضراً ورقيقاً بدرجة لافتة للنظر.. تجعلك لا تكاد تصدق أن هذا الرجل الرقيق المتواضع.. لديه من القوة ما مكنه يوماً ما أن يقود انقلاباً عسكرياً فى باكستان من طائرة مدنية تحلق فى الجو، لم يكن مسموحاً لها بالهبوط.. فأطاح بنظام حكم نواز شريف فى أقل من ساعة زمن واحدة.. وهبط من الجو جالساً على كرسى الحكم..!

* * *

بدأ المؤتمر الصحفى بتلاوة المقرئ لآيات من القرآن الكريم.. ثم دعانا لقراءة الفاتحة فى نهاية التلاوة وغادر المنصة..

الرئيس مشرف بدأ حديثه أيضاً بـ «بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد» كأنه بذلك يريد أن يقول للجماعات الإسلامية فى الشارع.. إنه أيضاً مسلم..

فى هذا المؤتمر الصحفى بعث مشرف بعدة رسائل إلى الداخل والخارج.. حيث:

- أكد أنه لم يتم استخدام الأراضى الباكستانية فى العمليات العسكرية ضد أفغانستان.. وأن هذه العمليات تنطلق من قواعد فى آسيا الوسطى ومن حاملات الطائرات والغواصات الأمريكية والبريطانية الموجودة فى منطقة المحيط الهندى وبحر العرب.. وأن مساهمة باكستان فى هذه العمليات تقتصر على ثلاثة أشياء فقط:

١- السماح باستخدام المجال الجوى..

٢- تقديم الدعم اللوجيستى..

٣- التعاون فى مجال الاستخبارات..

- قال: إنه تلقى تأكيدات أن العمليات العسكرية ستكون قصيرة الأجل.. توقع أن تنتهى خلال يومين أو ثلاثة.. وأنها محددة الأهداف.. تستهدف مواقع أسامة بن لادن وتنظيم القاعدة وليس المدن الأفغانية.. ولن تكون لها آثار سلبية على المدنيين الأبرياء..

- دافع عن موقفه المؤيد لهذه العمليات.. قائلاً: «لقد اتخذت هذا القرار لأن باكستان جزء من المجتمع الدولى والتحالف الدولى لمحاربة الإرهاب».. مضيفاً: أنه لا يجب أن ينظر لهذه العمليات العسكرية على أنها ضد أفغانستان أو الشعب الأفغانى.. بل هى ضد الإرهاب والإرهابيين والداعمين لهم»..

ـ قال: إن الشعب الباكستانى يؤيد حكومته تأييداً مطلقاً، وأنه واثق من مساندة الغالبية العظمى للقرار الذى اتخذه.. واصفاً مؤيدى طالبان بأنهم مجرد مجموعة من المتطرفين لا يشكلون نسبة تذكر فى المجتمع الباكستانى.. ومحذرهم من أنهم إذا حاولوا استغلال الموقف وإثارة الفوضى فى البلاد، فإن السلطات قادرة على التصدى لهم..

ـ قال أيضاً: إن الحملة على أفغانستان تتكون من ثلاث مراحل.. هى:

١- العمل العسكرى..

٢- التغيير السياسى..

٣- إعادة تعمير أفغانستان وتأهيل الأفغان وتشجيع اللاجئين منهم بالخارج على العودة..

أوضح أن ما يعنيه بالتغيير السياسى هو أن تكون الحكومة الجديدة ممثلة لجميع الأعراق والفئات الأفغانية.. وألا تفرض على الأفغان من الخارج.. وأن تضمن تحقيق السلام والاستقرار فى الداخل وتحافظ على علاقات الصداقة وحسن الجوار مع باكستان..

ـ حذر مشرف من غرق أفغانستان في حالة الفوضى، إذا سمحت الولايات المتحدة الأمريكية لقوات التحالف الشمالى المناوىء لطالبان بالسيطرة على الحكومة المرتقبة قائلاً: «بالتأكيد يجب السيطرة على تحالف الشمال، لأنه لا يمكننا العودة إلى مرحلة الفوضى.. ووصفهم بأنهم سفاحون ومجرمون.. مشيراً إلى الآثار السلبية التى عانت منها باكستان قبل ذلك بسبب الاقتتال بين الفصائل الأفغانية بعد انسحاب القوات السوفيتية.. وأضاف: أنه يؤيد قيام الملك الأفغانى السابق محمد ظاهر شاه بدور فى مستقبل أفغانستان، رغم مواقفه غير الودية تجاه باكستان فى الماضى.. وقال: «إن الحقائق تتغير، وما فعله الملك السابق منذ ٥٠ عاماً قد لا يفعله الآن»..

وقد طرحت على الرئيس الباكستانى فى هذا المؤتمر الصحفى سؤالاً حول ما إذا كانت الولايات المتحدة قد اتخذت من هجمات ١١ سبتمبر سبباً للمجىء بقواتها إلى منطقة آسيا الوسطى.. والتمركز فى أفغانستان التى تتميز بموقع استراتيجى هام.. يجعلها قريبة من حقول النفط والثروات الطبيعية فى بحر قزوين للاستفادة منها.. وقريبة من روسيا لإزعاجها.. وتقف على حدود الصين لكبح جماحها إذا لزم الأمر.. وكذلك طبعاً بالنسبة لإيران.. أى أنها ستكون فى منطقة المركز بالنسبة لأعدائها الثلاثة.. روسيا والصين وإيران.. وهو موقع استراتيجى فريد لا يتوفر لها فى أى منطقة أخرى من العالم.. وقلت لمشرف: لقد ذهبت القوات الأمريكية إلى منطقة الخليج منذ ١١ عاماً بدعوى تحرير الكويت.. ولقد تحررت الكويت تماماً منذ أكثر من ١٠ سنوات.. لكن القوات الأمريكية مازالت حتى الآن متمركزة فى الخليج وليس فى نيتها أن تغادره.! ألا يمكن أن يتكرر نفس هذا السيناريو هنا فى المنطقة؟.. وهل

حصلت على تأكيدات من الولايات المتحدة بأن قواتها سوف تغادر المنطقة بمجرد تغيير الوضع السياسى فى أفغانستان؟!..

فلم يرتح الرئيس الباكستانى لسؤالى.. كما بدا عليه أنه فوجىء به.. أو كأننى فتحت بهذا السؤال موضوعاً لم يكن يريد له أن يفتح.. لاسيما أنه قبل أن يبدأ فى الإجابة على سؤالى، طلبت صحفية أخرى اسمها «عروسة علام» من صحيفة «الأوبزرفر» الباكستانية أن تضيف إلى السؤال نقاطاً أخرى لديها.. فلم يسمح لها الرئيس مشرف.. وقال لى: إنه يستبعد بقاء القوات الأمريكية لفترة طويلة فى المنطقة بعد انتهاء العمليات العسكرية.. لأنه ليس من مصلحة أى طرف من الأطراف.. بما فى ذلك الطرف الأمريكى نفسه.. بقاء هذه القوات..!

ثم طلبت «عروسة» بعد ذلك السؤال.. وعرضت وجهة نظرها فى نفس الموضوع.. وكانت تتفق مع وجهة نظرى..

* * *

كان يوم ٨ أكتوبر ٢٠٠١ يوم غضب عارم فى الشارع الباكستانى.. خرج فيه مئات الآلاف فى مظاهرات عنيفة بمختلف المدن الباكستانية ينددون بأمريكا ويهتفون بحياة طالبان وأسامة بن لادن.. ووقعت فى هذا اليوم صدامات وإصابات عديدة بين المتظاهرين ورجال الشرطة..

كانت أعنف المظاهرات فى مدينة «كويتا» التى تقع فى الجنوب بالقرب من الحدود الأفغانية.. حيث قام المتظاهرون بمهاجمة ٧ مصارف و٤ دور عرض سينمائى، ومركز شرطة، وعدد من المتاجر وأشعلوا فيها النار.. كما أشعلوا النار أيضاً فى مبنى تابع لصندوق الأمم المتحدة لرعاية الطفولة «اليونيسيف» وحطموا نوافذ مبنى آخر تابع لمفوضية الأمم المتحدة للاجئين.. واتجهوا نحو فندق «سيرينا» الفاخر لإشعال النار فيه، لكن قوات الشرطة تصدت لهم وأطلقت عليهم القنابل المسيلة للدموع والطلقات المطاطية ونصبت أسلاكاً شائكة على الطرق المؤدية إلى الفندق.. وقد لقى شخص مصرعه وأصيب مائة آخرون.. بينما انتشرت فى المدينة كلها رائحة الدخان المتصاعد من الإطارات المشتعلة وقنابل الدخان..

فى مدينة بيشاور لم يكن الحال أهدأ.. تكررت نفس مشاهد الحرق والضرب والصدامات.. ووصل الأمر إلى درجة قيام المتظاهرين بإغلاق بعض الطرق الرئيسية.. وقامت الشرطة بتكثيف الحراسة أمام مقر القنصلية الأمريكية..

فى مدينة كراتشى اضطرت السلطات إلى طلب قوات من المظليين لمساعدة قوات مكافحة الشغب على التصدى للمتظاهرين من أجل حماية المطار والميناء والمنشآت الحيوية بالمدينة..

نفس الحال كان فى مدن روالبندى ولاهور.. وغيرهما.. أما فى إسلام أباد فقد اتخذت الحكومة مسبقاً احتياطات مشددة بتكثيف قوات الشرطة فى الشوارع وحول مقار الوزارات والمؤسسات الحكومية.. كما طلبت من موظفى الأمم المتحدة عدم التوجه إلى مقار عملهم.. فضلاً عن القوات الضخمة والمصفحات التى أحاطت بالسفارة الأمريكية..

وفى مواجهة هذه الأحداث اضطرت الحكومة إلى تعطيل الدراسة بالمدارس والجامعات لمدة ثلاثة أيام وإعلان حالة الطوارئ فى القوات المسلحة..


الملا عبدالسلام ضعيف سفير طالبان فى باكستان وعلى يساره نائبه الملا محمد سهيل شاهين

* * *

كان يوم ٨ أكتوبر ٢٠٠١ أيضاً بداية سلسلة من المؤتمرات الصحفية اليومية التى استمر الملا عبدالسلام ضعيف سفير طالبان فى باكستان يعقدها.. حتى ألغت الحكومة الباكستانية اعترافها بطالبان وأمرت بإغلاق السفارة فى ٢٢ نوفمبر ٢٠٠١..

فى هذا اليوم.. ٨ أكتوبر ٢٠٠١.. قال عبدالسلام ضعيف فى مؤتمره الصحفى بالسفارة: لقد طلبنا من الأمريكيين إرسال الدلائل التى تثبت تورط أسامة بن لادن فى هجمات ١١ سبتمبر حتى يمكن لنا أن نحاكمه.. فأرسلوا بدلاً منها صواريخ كروز لتدمير المنازل والمساجد والمستشفيات.. فمن هو الإرهابى إذن؟.. طالبان أم الولايات المتحدة؟!!..

وصف الهجوم بالطائرات والصواريخ على بلاده بأنه عمل إرهابى وليس مجرد عدوان على الشعب الأفغانى المسلم فقط.. لكنه عدوان على جميع الشعوب الإسلامية فى العالم ويشكل إهانة لها وعاراً عليها.. وأنه لا يستهدف القضاء على الإرهاب كما تدعى أمريكا وإنما يستهدف القضاء على نظام الحكم الإسلامى الذى أقامته طالبان فى أفغانستان.. ثم أكد أن إمارة أفغانستان الإسلامية ـ وهو اسم الدولة فى عهد طالبان ـ لن ترهبها هذه الضربات.. وستتصدى لها بكل ما تملك من إمكانيات.. وسوف يكون النصر حليفها بإذن الله..

قال: إن أفغانستان لم تعتد على أى دولة، ولم ترتكب فى تاريخها عملاً إرهابياً.. لكنها سترد على الضربات التى وجهت إليها بأقسى مما يتوقع أى شخص.. شدد على أن طالبان لن تركع أبداً.. وأن الأفغان غير مستعدين لاستبدال دينهم الإسلامى

وشرفهم وكرامتهم بالدولارات الأمريكية.. بل سيلقنون الأمريكيين درساً أقسى من الذى لقنوه للسوفييت من قبل.. وكان الأحرى بالأمريكيين بدلاً من أن يتورطوا فى هذه الحرب، أن يأخذوا العظة مما حدث للسوفييت على أيدى الأفغان الذين انتصروا عليهم وطردوهم من بلادهم.. كما كان الأحرى بالبريطانيين بدلاً من أن يشاركوا فى هذه الحرب أن يقرأوا تاريخهم جيداً ليعرفوا كم أبيد منهم فى أفغانستان عندما حاولوا غزوها فى القرن التاسع عشر..!

وأعلن ضعيف أن دفاعات جيش طالبان قد نجحت فى إسقاط طائرة أمريكية فى إقليم «فراة» - يقع جنوب غرب أفغانستان على الحدود مع إيران - وأنه وردت إليه أنباء أخرى عن إسقاط ثلاث طائرات أمريكية قبل بدء المؤتمر الصحفى بقليل.. فقلنا له: إن الأمريكيين نفوا ذلك.. قال: إنهم كذابون.. حطام الطائرة موجود..!

ثم تلقى السفير عدة أسئلة بصيغ مختلفة حول مكان أسامة بن لادن والمُلا عمر، ومصيرهما بعد الهجوم؟.. فأكد أنهما بخير لم يصبهما أذى، وفى مكان آمن.. لكنه لا يعرف مكان بن لادن لأن اتصالاته بطالبان انقطعت..

وعندما طُلِب منه التعليق على ما جاء فى المؤتمر الصحفى للرئيس مشرف من أن العمليات العسكرية ضد أفغانستان قصيرة وستنتهى خلال يومين أو ثلاثة فقط.. قال عبدالسلام ضعيف:

نحن لم نُخْطَر ببرنامج الهجوم..!

* * *

لكن طالبان كانت قد أخطرت بموعد بدء الهجوم..

الخبر تسرب إليها عبر حلفاء لها فى باكستان مما أحرج الرئيس مشرف كثيراً أمام الأمريكيين وخلق أزمة ثقة بين الجانبين منذ بداية الحرب..

بالطبع لم يكن صعباً على مشرف أن يعرف أن المسئول عن تسريب الخبر هو رئيس جهاز المخابرات الباكستانية الجنرال محمود أحمد.. فأصدر على الفور قراراً بإقالته من منصبه هو وجنرال آخر اسمه «مظفر حسين عثمانى» معروف بموقفه الموالى لحركة طالبان، وكان يشغل منصب نائب القائد العام للقوات المسلحة..

المعلومات التى سمعتها من مصادر فى باكستان قالت لى: إن هذا القرار لم يكن هيناً.. فالرجلان هما من كبار القادة العسكريين الذين نفذوا انقلاب أكتوبر ١٩٩٩ الذى جاء بمشرف إلى السلطة فى باكستان.. بعد أن كانت طائرته معلقة فى الجو وغير مسموح لها بالهبوط على مدرج المطار..!

الرجلان أيضاً شاركا «مشرف» فى تأسيس حركة طالبان ودفعها إلى سدة الحكم فى أفغانستان..

الرجلان رفقاء سلاح لمشرف فى جميع العمليات التى قام بها الجيش الباكستانى فى كشمير..!

لكن مشرف لم تكن أمامه خيارات كثيرة فى التعامل مع الولايات المتحدة الأمريكية أثناء الحرب.. فاضطر إلى التضحية بهما، كما ضحى من قبل بطالبان على الرغم من أن بقاءهما فى السلطة فى أفغانستان كان يمثل أهمية كبيرة لأمن باكستان..!

كانت إقالة الرجلين بمثابة «ضربة قوية» للقوى الموالية لطالبان داخل الجيش والمخابرات الباكستانية، تواكبت مع توقيت بدء الحرب الأمريكية التى استهدفت فى مراحلها الأولى تدمير قدرات طالبان العسكرية.. فتم بذلك إضعاف الحركة داخلياً وخارجياً منذ اليوم الأول..

قرار إقالة الجنرال محمود أحمد من منصبه لم يذكر الأسباب الحقيقية للإقالة.. لكن المبرر الذى طرحته السلطة لاتخاذ هذا القرار هو فشل الرجل فى إقناع قيادات طالبان بتسليم أسامة بن لادن خلال جولات المحادثات التى أجراها معهم..!

أما ما سمعته يتردد فى الأوساط السياسية بباكستان.. أن الرجل هو الذى بادر بتقديم استقالته بمجرد بدء الحرب حتى لا يشارك فى تقديم المعلومات الاستخباراتية إلى القوات الأمريكية التى تساعدها فى ضرب أفغانستان.. وتبعه أيضاً لنفس السبب الجنرال «مظفر حسين عثمانى» الموالى لطالبان..

رواية ثانية تقول: إن الاستقالة تمت بسبب تخطيهما فى الترقية.. حيث قام الجنرال بيرفيز مشرف بترقية الليفتنانت جنرال محمد عزيز خان إلى رتبة جنرال وتعيينه رئيساً لهيئة أركان القوات المسلحة الباكستانية خلفاً لليفتنانت جنرال محمد يوسف الذى تقرر أيضاً ترقيته إلى رتبة جنرال وتعيينه نائباً للقائد العام للقوات المسلحة.. خلفاً للجنرال مظفر حسين عثمانى.. وكان كل من «محمود أحمد» و«مظفر حسين عثمانى» يريان أنفسهما أحق بالترقية..!

رواية ثالثة نشرتها صحيفة «ذا دون» ـ ومعناها: الفجر ـ وهى من أوسع الصحف انتشاراً فى باكستان.. تقول: إن قرار إقالة الجنرال محمود أحمد أصدره الرئيس مشرف بناء على طلب من الولايات المتحدة، بعد أن أثبتت التحقيقات الأمريكية علاقته بشخص ما اسمه «الشيخ عمر» كان محتجزاً فى السجن، وتم إطلاق سراحه مقابل إطلاق سراح مسافرى طائرة الخطوط الجوية الهندية التى اختطفت فى ديسمبر عام ١٩٩٩.. وأنه منذ فترة قصيرة قام «الشيخ عمر» بناء على أوامر من الجنرال محمود أحمد بتحويل مبلغ ١٠٠ ألف دولار أمريكى لحساب «محمد عطا» الذى تدعى السلطات الأمريكية أنه أحد الذين اشتركوا فى الهجوم على مركز التجارة العالمى بنيويورك يوم ١١ سبتمبر..!

وأياً كانت الرواية الحقيقية لإقالة الجنرال محمود أحمد.. فالثابت أن هذا الرجل عارض بشدة الحرب التى شنتها الولايات المتحدة على أفغانستان.. لذلك كانت إقالته من منصبه مسألة ضرورية بالنسبة للأمريكيين حتى يطمئنوا إلى سلامة وصحة المعلومات التى تقدم إليهم من جهاز المخابرات الباكستانية..

الثابت أيضاً أن هذا الرجل «شاهد عيان» على موافقة طالبان على تسليم أسامة بن لادن للمحاكمة وفق ضوابط معينة حددتها لضمان عدالة المحاكمة.. فهو الذى نقل إليهم الرسائل من إسلام آباد.. وهو الذى أجرى معهم المباحثات.. وهو الذى حمل موافقتهم إلى إسلام آباد بالشروط والضوابط التى وضعوها -تم ذكرها سلفاً فى الفصل الثالث- والتى تم التعتيم عليها فى معظم وسائل الإعلام الغربية لمساعدة الولايات المتحدة على تنفيذ مخططها فى أفغانستان..!

لذلك.. كان لابد أن يُقَال هذا الرجل من منصبه..!

وكان لابد أيضاً أن يمنع من الكلام..!

وهذا بالضبط ما حدث..!

* * *

الفصل الحادى عشر

• سيناريوهات متقاطعة ..

«ظاهر شـــاه.. هو الرجل
الذى ننشده!»

المخابرات المركزية الأمريكية

□ *منذ بدأ الإعداد للحرب على أفغانستان..*
كان مستقبل الأوضاع بعد طالبان.. هو الشغل الشاغل لجميع أطراف الأزمة..
كل طرف كان له هدف يعمل من اجله..!

ـ فالولايات المتحدة الأمريكية.. كانت تريد أن تفتدى كرامتها التى جرحت يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١ تحت أنقاض مركز التجارة العالمى والبنتاجون.. بذبح كبش فداء اسمه «طالبان وأسامة بن لادن»..

ولأنها لم تستطع الإمساك برأس هذا الكبش.. فقد قررت هدم الحظيرة على من فيها.. وتسليم مفتاحها لرجل عجوز عمره ٨٧ عاماً اسمه «الملك المخلوع محمد ظاهر شاه».. ولأن هذا العجوز سيعجز عن السيطرة على الأوضاع فى الحظيرة.. فإن ما تبقى فيها من كباش على قيد الحياة.. ستظل تتقاتل وتتناحر حتي تفتك ببعضها البعض.. وهذا بالضبط ما تريده أمريكا.. وكانت تخطط له ..!

ـ باكستان.. كان كل هدفها منع قوات التحالف الشمالى من العودة إلى السلطة بعد طالبان.. بسبب علاقتها الوثيقة مع الهند.. لذلك ظلت دائماً تطلب من الولايات المتحدة عدم السماح لهذه القوات بدخول كابول أو السيطرة على الحكومة المرتقبة.. وفى المقابل وافقت باكستان على عودة الملك المخلوع ظاهر شاه إلى أفغانستان رغم الإرث العدائى الكبير بينها وبينه.. لأنه فى النهاية بالنسبة لها «أهون» من التحالف الشمالى..!

ـ الهند.. كانت تريد نظاماً فى كابول موالياً لها ومعادياً لباكستان.. يرغب فى التعاون مع نيودلهى لإثارة القلاقل والمشاكل مع باكستان.. فتصبح الأخيرة مثل «ساندوتش» بين الهند وأفغانستان.. وتنشغل عن الكفاح فى كشمير بالكفاح فى المناطق الغربية منها.. لاسيما أن هناك أسباباً قوية لإثارة هذه المشاكل.. منها على سبيل المثال:

الخلاف الحدودى القديم، وإدعاء أفغانستان أن جزءاً من المناطق الغربية فى باكستان هو فى الأصل أراضٍ أفغانية يجب أن تعود إليها.

هذا الحلم الهندى.. كانت نيودلهى تعتقد أن قوات التحالف الشمالى المناوىء لطالبان هى «فرس الرهان» الذى يجب الاعتماد عليه لتحقيقه.

أولا: لعلاقتها الوثيقة مع الهند.. وثانيا: لكونها تتشكل من قوميات الطاجيك والأوزبك والهزارة وليس من قومية البشتون التى تتشكل منها طالبان.. وثالثا: أن هناك «ثأراً تاريخياً» بين قوات التحالف الشمالى وباكستان.. لأن الأخيرة هى التى أوجدت طالبان وساعدتها على دحر الأولى عام ١٩٩٦.

لذلك.. كانت الهند تنتظر بفارغ الصبر وصول قوات التحالف الشمالى إلى كابول.. فمنذ وقوع هجمات ١١ سبتمبر، وهى تحاول بكل الوسائل توظيف الأوضاع والتداعيات الناجمة عن هذه الهجمات لإقناع الولايات المتحدة بأن التحالف الشمالى هو البديل الأمثل لطالبان..!

- أما روسيا.. فكانت تريد أن تنزلق القدم الأمريكية فى «الوحل» الأفغانى.. ولا تخرج منه إلا بعد أن تقطع بعض أصابعها.. فتفقد بذلك بعض قوتها، وتشرب من نفس الكأس الذى شرب منه الروس من قبل فى أفغانستان.. عندما كانت الولايات المتحدة تمد الأفغان بالأسلحة المتطورة وأحدث أنواع العتاد العسكرى لمحاربة الروس..!

لذلك فإن الروس كانوا يستمتعون وهم يرون أعداء الأمس يتقاتلون.. فصواريخ «ستينجر» الأمريكية التى قدمتها الولايات المتحدة إلى الأفغان فى الثمانينيات لإسقاط الطائرات الروسية.. هى نفسها التى إستخدمها الأفغان بعد ذلك لإسقاط الطائرات الأمريكية.. كذلك منصات إطلاق الصواريخ والمدافع المضادة للطائرات ومعظم العتاد الذى لدى طالبان هو صناعة أمريكية.. وأى دمار يلحقه أى من الطرفين بالآخر فيه مصلحة أكيدة لروسيا.

لأن الولايات المتحدة مازالت فى خانة «الخصم» بالنسبة لروسيا.. ولأن طالبان كانت المنبع الرئيسى للدعم والتدريب والتسليح لمقاتلى الشيشان.

لكن الروس الذين كانوا ينظرون إلى هذه الحرب على أنها انتقام من السماء ينفذ فى خصميهم.. كانوا يتطلعون أيضا إلى تحقيق أهداف أخرى من وراء الأزمة، كثمن لتأييدهم الأمريكي ينفى هذه الحرب وغضهم الطرف عن تواجد قوات برية أمريكية على أراضى أوزبكستان.. هذا الثمن هو إستمرار التزام الولايات المتحدة بمعاهدة الدفاع المضاد للصواريخ الباليستية الموقعة بينهما عام ١٩٧٢، وما يعنيه ذلك من صرف واشنطن النظر عن مشروع درع الصواريخ الذى تنوى إقامته.

إلا أن بوش خَيب آمال الروس عندما أعلن فى المؤتمر الصحفى المشترك مع بوتين فى مدينة شنغهاى - أكتوبر ٢٠٠١ - إن الولايات المتحدة لن تتراجع عن سعيها للانسحاب من معاهدة ١٩٧٢[٥٤] وستواصل العمل فى مشروع درع الصواريخ.. بل وانتقد السياسة الروسية فى الشيشان مؤكداً ضرورة حل هذه الأزمة بالوسائل السلمية وليس العسكرية..!

هذه التصريحات دفعت الرئيس بوتين بعد ذلك إلى عقد قمة مفاجئة فى «دوشانبيه» عاصمة طاجيكستان مع قادة دول المنطقة - من الجمهوريات التى استقلت عن الاتحاد السوفيتى - للرد على الموقف الأمريكى.. حيث اتفق المشاركون فى هذه القمة على استبعاد طالبان من المشاركة فى الحكومة المستقبلية بأفغانستان.. وهو ما تعارض مع المحاولات التى كانت تبذلها واشنطن فى ذلك الوقت لشق صفوف طالبان عن طريق استمالة المعتدلين منهم وإشراكهم فى الحكومة الجديدة.. لأن طالبان تنتمى إلى قبائل البشتون التي تشكل أغلبية السكان بأفغانستان، ولا يمكن تجاهل تمثيلهم فى أية حكومة يتم تشكيلها.. فضلاً عن أن تجاهل تمثيلهم يعنى تشكيل الحكومة من القوميات الأخرى مثل الطاجيك والأوزبك والهزارة التى تتشكل منها قوات التحالف الشمالى.. وهذه القوميات بحكم جذورها التاريخية وعلاقتها الحالية بالروس والإيرانيين الذين يقدمون لها المساعدات.. سيظل ولاؤها للروس والإيرانيين وليس للأمريكيين أو الباكستانيين..!

- إيران أيضا.. كانت طرفاً فى الأزمة.

فهى جارة لأفغانستان تتقاسم معها حدود مشتركة يصل طولها إلى ٩٠٠ كم.

وهى استقبلت أكثر من مليونى لاجئ أفغانى اثناء فترة الحرب الأهلية فى السنوات الماضية.. مازالوا يعيشون على أرضها.

وهى لعبت من قبل عدة أدوار فى الشأن الأفغانى... سواء بمساعدة مختلف الفصائل الأفغانية أثناء الحرب ضد الروس.. أو تقديم الدعم لمجموعة رئيس الوزراء السابق قلب الدين حكمتيار الذى اتخذ من طهران بعد ذلك مقراً له.. أو القيام بدور «الحامى» للأقلية الشيعية فى أفغانستان - وهم الهزارة - عندما تعرضت أحيانا - لما وصفته - بالإضطهاد من جانب طالبان.. فضلاً عن أنها استضافت عددا كبيرا من القادة الأفغان.. مثل صبغة الله مجددى، وبرهان الدين ربانى، وأحمد شاه مسعود.. فإذا أضفنا إلى ما سبق أن العلاقة المتوترة بين طالبان والشيعة الأفغان انعكست بسرعة على العلاقة بين طالبان وإيران.. فاتسمت دائماً بالعداء والتوتر، حتى أصبحت كراهية إيران لطالبان تكاد تضارع كراهيتها لأمريكا - على حد تعبير مجلة «الإيكونوميست» البريطانية.. يتضح لنا إلى أى مدى كان لإيران مصلحة فى زوال نظام طالبان.. مثل أمريكا بالضبط..!

بل إن إيران سبق أن تحركت بمفردها عام ١٩٩٨ لإزالة نظام طالبان من الحكم بالقوة العسكرية عندما حشدت على حدودها مع أفغانستان نحو ٢٠٠ ألف جندى بأسلحتهم الثقيلة ووضعتهم على أهبة الاستعداد عقب قتل طالبان لثمانية من الدبلوماسيين الإيرانيين ومراسل إحدى الصحف الإيرانية بمدينة مزار الشريف فى أغسطس ١٩٩٨.





كل هذه الأسباب جعلت إيران مهتمة بالمشاركة فى إعادة ترتيب الوضع السياسى فى أفغانستان بعد طالبان.. وكان هدفها يتركز فى ضرورة أن يوفر الوضع الجديد الحماية اللازمة للشيعة الأفغان، ويمنحهم دوراً فى الحياة السياسية يتناسب مع حجمهم السكانى داخل الدولة.. لذلك دعت إلى أن تكون أية حكومة جديدة فى أفغانستان ممثلة لكافة الأعراق والقوى السياسية، لكى تضمن تمثيل الشيعة فى هذه الحكومة.. وقد وافقت الولايات المتحدة علي هذا الإقتراح.. كما وافقت عليه باكستان أيضا.. لأنه يعنى فى نفس الوقت أن تكون أغلبية أعضاء الحكومة من البشتون ـ حلفاء باكستان ـ باعتبارهم يمثلون أغلبية السكان فى أفغانستان..!

غير أن الأزمة الأفغانية أتاحت لإيران فرصة تحقيق هدف آخر هام بالنسبة لها.. هو تحسين صورتها فى الغرب بعدم وقوفها إلى جانب طالبان أثناء الأزمة.. ومحو صفة دعم الإرهاب عن نفسها، التي كانت واشنطن تتهمها بها دائماً.. حيث تبين عدم وجود أى من الإيرانيين فى تنظيم القاعدة الذى أصبح العدو رقم واحد في العالم للولايات المتحدة..!

هذه المصلحة المشتركة لكل من إيران والولايات المتحدة فى أفغانستان، أحيت من جديد فكرة «الحوار بين الشعبين الإيرانى والأمريكى» التى سبق أن دعا إليها الرئيس الإيرانى محمد خاتمى.. كما دفعت بعض النواب فى البرلمان ممن ينتمون إلى التيار الإصلاحى إلى المطالبة بالاستفادة من هذه الفرصة لبدء المفاوضات مع الولايات المتحدة حول كافة القضايا المعلقة بين الجانبين مثل الأرصدة الإيرانية التى مازالت منذ عام ١٩٧٩ مجمدة فى البنوك الأمريكية، والعقوبات التى فرضتها واشنطن على الشركات التى تستثمر فى إيران.. والأهم ا من ذلك هو تغيير السياسة الأمريكية نحو إيران التى تستهدف عزلها إقليمياً عن طريق عدة أدوات.. منها: الوجود العسكري الأمريكى فى منطقة الخليج، والنفوذ المتزايد للولايات المتحدة فى بعض جمهوريات آسيا الوسطى واستبعاد إيران من المشروعات البترولية فى بحر قزوين، وتعزيز الصداقة الأمريكية ـ التركية.

هذه مجموعة أهداف كان الإصلاحيون فى إيران بزعامة الرئيس محمد خاتمى يريدون تحقيقها عن طريق فتح صفحة جديدة بين طهران وواشنطن أثناء الأزمة الأفغانية.. إلا أن آية الله خامنئى مرشد الثورة الإسلامية وصاحب القرار النهائى فى

آخر مراحل السياسة الخارجية لإيران، رأى أنه لم يحن الوقت بعد للتخلى عن شعار «معاداة أمريكا» الذى كان أحد أسس قيام الجمهورية الإسلامية فى إيران.. وقال:«ليس لأن الولايات المتحدة اليوم عدو لنظام طالبان، أن تصبح أوتوماتيكياً وبلا قيد ولا شرط صديقة لجمهورية «إيران الإسلامية»..! ثم أضاف موضحا: «إن إتخاذ هذا الموقف لم يقم على آراء متعصبة، وانما على أساس تحليل عميق وتجربة دول أخرى.. فلقد توصلنا إلى أن اقامة علاقات مع الولايات المتحدة ليس وحده الذى يتعارض مع مصالح البلاد، ولكن أيضا إجراء مفاوضات معها»..!

* * *

هكذا.. كانت تفكر الأطراف الفاعلة فى الأزمة الأفغانية وتضع السيناريوهات لمستقبل الأوضاع بعد رحيل طالبان.

فى هذه الفترة برز اسم الملك السابق محمد ظاهر شاه للعودة إلى كابول وتولى العرش الأفغانى من جديد.

رشحته واشنطن بعد أن قال عنه رجال المخابرات المركزية الأمريكية «إنه الرجل الذى ننشده».. فهو خجول ومتواضع وانطوائى ويعيش فى عزلة بمنفاه فى روما منذ قرابة ثلاثين عاماً بعد أن أطيح به عام ١٩٧٣.. ولن يعترض عليه الأفغان لأنه ينتمى إلى البشتون.. فضلاً عن أنه يمثل بالنسبة لهم «الماضى الجميل» حيث كانت أفغانستان دولة عصرية مستقرة لم تشهد عنفاً أو اضطرابات طوال فترة حكمه التى استمرت ٤٠ عاماً.

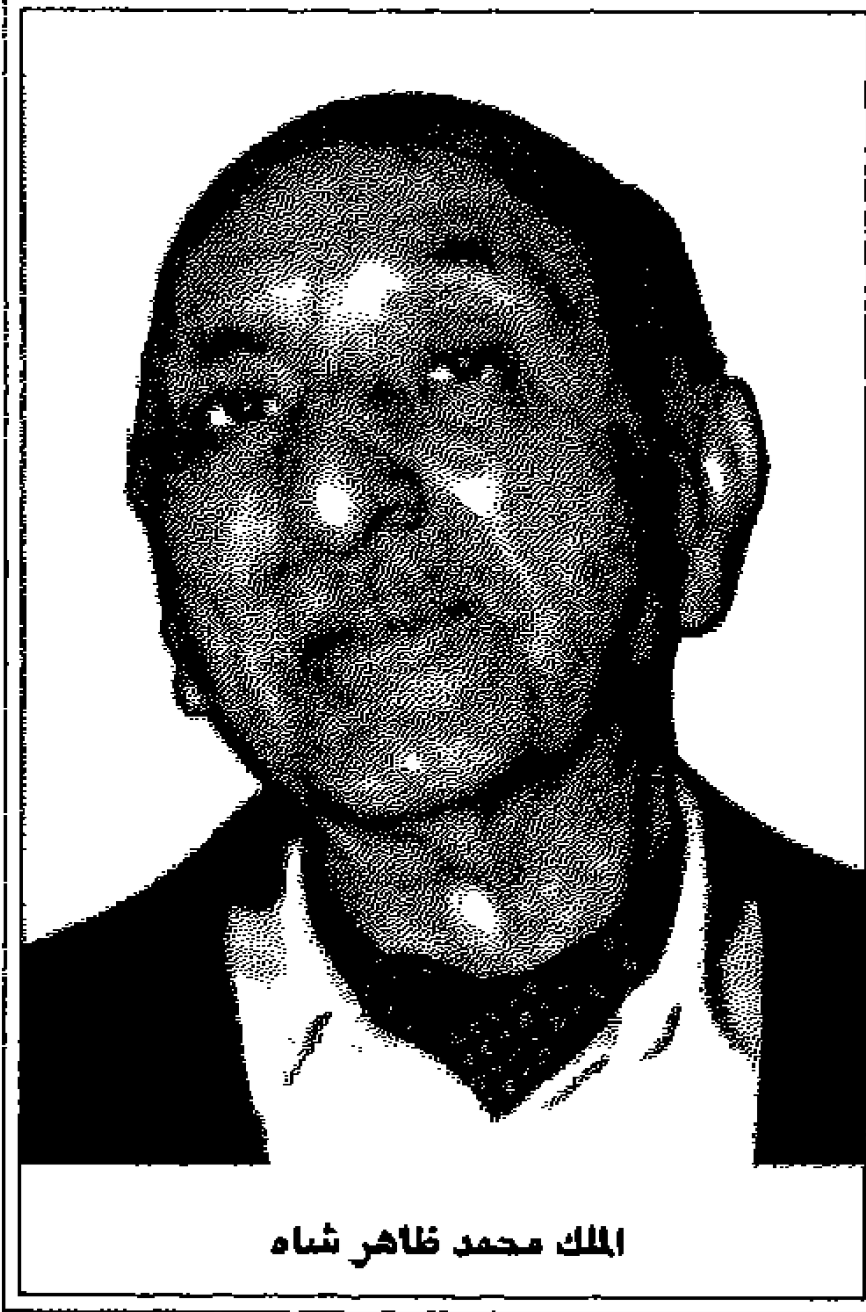
قصة هذا الرجل تعود إلى السنوات الأولى من القرن الماضى.. فقد ولد يوم ١٥ أكتوبر ١٩١٤.. وأمضى فترة شبابه الأولى فى باريس حيث كان والده نادر شاه وزيراً مفوضاً لبلاده فى فرنسا.

هذه النشأة جعلت ظاهر شاه مولعاً بالثقافة الفرنسية ومتأثراً بالدروس التى تلقاها في مدرسة «جانسون دى سايى» الثانوية، ثم فى «مونبولييه» بعد ذلك.

فى عام ١٩٢٩ وقع حدث مهم فى أفغانستان.. حيث أطاح بطل الطاجيك «باتشاى سقاو» بـ «أمان الله خان» - من البشتون - الذى كان يعتلى العرش الأفغانى فى تلك الفترة.. وبذلك أصبح حاكم أفغانستان الجديد من الطاجيك.. الأمر الذى أغضب نادر شاه.. وهو جنرال من قبيلة الدورانى البشتونية.. فعاد بأسرته من باريس، وقام بتوحيد قبائل البشتون فى شرق أفغانستان، ثم قاد هجوماً على «باتشاى سقاو» بعد ٩ شهور فقط من توليه السلطة فأطاح به، ونصب نفسه ملكاً على أفغانستان.. وبعد عامين من ذلك عين ابنه «ظاهر شاه» مساعداً لوزير الدفاع عندما بلغ ١٨ عاماً.

فى سبتمبر عام ١٩٣٣.. اغتيل الملك نادر شاه بإطلاق النار عليه فى ساحة القصر الملكى، بكابول اثناء حفل لتوزيع الجوائز على المتفوقين بالمدارس، نظمه ظاهر شاه

الذى كان فى ذلك الوقت يشغل منصب «القائم بأعمال وزير التعليم».. وقد قفز الابن من مكانه إلى حيث سقط والده محاولاً إنقاذه.. لكن الملك مات فى الحال بين ذراعى ابنه.


الملك محمد ظاهر شاه

يوم ٨ نوفمبر عام ١٩٣٣ تم تنصيب ظاهر شاه ملكاً على أفغانستان خلفاً لوالده، وكان عمره فى ذلك الوقت ١٩ عاماً و٢٤ يوماً.. فأصبح زعيماً جديداً على الساحة العالمية فى وقت كان الزعماء الآخرين فيه هم: ستالين فى موسكو.. وهتلر فى برلين.. وروزفلت فى واشنطن.. وجورج الخامس ملكاً فى لندن.

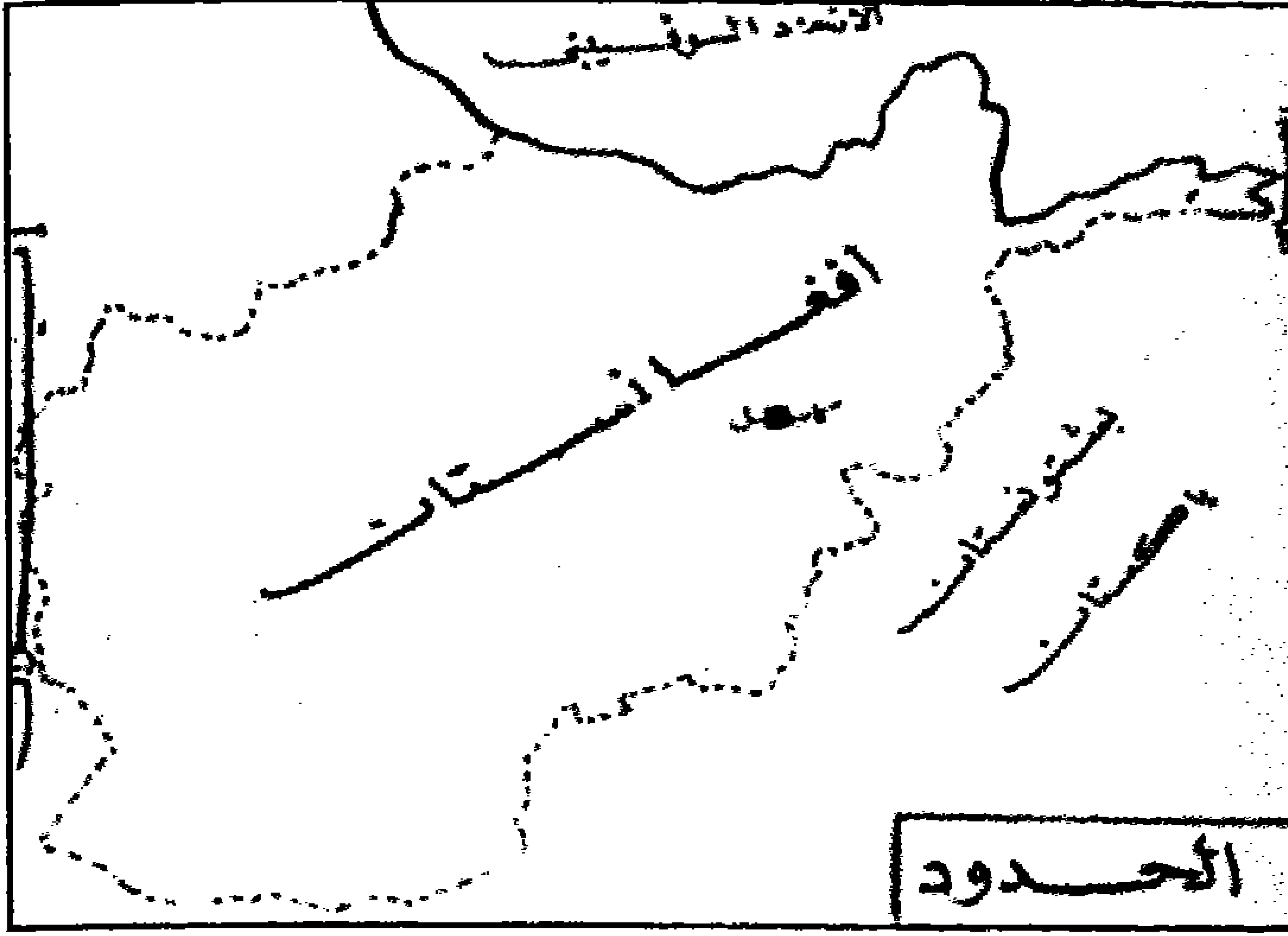
لكن حداثة سن الزعيم الأفغانى الجديد، فضلاً عن الظروف المأساوية لمصرع والده، حولته إلى ملك بلا سلطات.. لا يكاد يغادر القصر الذى يعيش فيه مع زوجته «حميرة» ابنة عمه التى تزوجها عندما بلغ السابعة عشرة من عمره.

فالسلطات الفعلية إنتقلت الى عميه الأميرين «هاشم» و«محمود» اللذين تعاقبا الوصاية على العرش.. بينما هو ظل مجرد واجهة للحكم حتى عام ١٩٤٦، عندما بدأ ممارسة سلطاته كملك.

- إنتهج ظاهر شاه فى حكمه سياسة معتدلة قامت على الحياد بين الشرق والغرب.. مما ساعده على تلقى مساعدات من الجانبين إستخدمها فى بناء بنية تحتية للبلاد فى مجالات الطرق والري والزراعة وتحسين الخدمات.

- بعد عام واحد من بدء مباشرته سلطاته بنفسه.. جرى تقسيم شبه القارة الهندى وأعلن قيام دولة باكستان المستقلة.. لكنه رفض الإعتراف بها وعارض إنضمامها إلى الأمم المتحدة، لأنها رفضت إعادة مناطق البشتون الحدودية إلى أفغانستان.. والتى تعرف بإسم «بشتو نستان» .. وكان ذلك أكبر خطأ فى حياته.. لأن العداء بين الدولتين استمر وتصاعد حتى أوشكتا الدخول فى حرب شاملة عام ١٩٦٩ لولا تدخل شاه إيران رضا بهلوى.. وقد ظل الباكستانيون يتعاملون مع الملك ظاهر شاه كعدو خطير يطمع فى إحتلال جزء من بلادهم، وساعد على تعزيز هذه الشكوك علاقته الوثيقة مع الهند.. لذلك عندما خرج الإتحاد السوفييتى من أفغانستان عام ١٩٨٩.. كان من أولويات الباكستانيين منع ظاهر شاه من العودة للعب أى دور فى أفغانستان.

- على الرغم من إنتهاء الوصية على العرش، إلا أن عائلة ظاهر شاه ظل لها دوراً كبيراً فى الحكم.. وعانى كثيراً من الخلافات بين أعمامه.. وفى عام ١٩٥٣ قرر الإستعانة فى الحكم بإبن عمه وزوج شقيقته محمد داود فعينه رئيساً للوزراء، لكنه أجبره على الإستقالة بعد عشر سنوات.. ثم بدأ فى تنفيذ خطة خمسية لتحويل



أفغانستان إلى دولة عصرية.. فأعلن قيام الملكية الدستورية وأجرى سلسلة من الإصلاحات الديمقراطية.. كإجراء انتخابات لتشكيل أول برلمان أفغانى عام ١٩٦٤.. والفصل بين السلطات.. والسماح بتكوين أحزاب سياسية.. ومنح الصحافة حريتها.. وسن قوانين أكثر تساهلاً مع النساء.. وحظر تولى المناصب السياسية على أفراد العائلة المالكة.

وانشاء أول جامعة أفغانية.. والتوسع فى إنشاء المرافق والخدمات.. فبرز كبطل إصلاحى، واتسمت هذه السنوات بالهدوء والاستقرار والإنفتاح... وازدهار الحريات الشخصية والدينية، ووسائل التعبير عن الرأى حتى وصل عدد الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية التى كانت تصدر فى أفغانستان فى تلك الفترة إلى ٧٠ صحيفة ومجلة..

لكن هذا الزمن الجميل لم يدم طويلاً فى تاريخ أفغانستان.. ففى ١٧ يوليو عام ١٩٧٣، وبينما كان الملك شاه يتلقى العلاج فى إيطاليا.. قاد ابن عمه محمد داود انقلاباً عسكرياً ضده استولى به على الحكم وأعلن قيام الجمهورية.. وبعد شهر من وقوع الإنقلاب تخلى ظاهر شاه رسمياً عن العرش وأقام مع زوجته وأولاده السبعة فى ضاحية سكنية بشمال مدينة روما.. وفى عام ١٩٧٨ سحبت منه الجنسية الأفغانية عندما استولى الشيوعيون على الحكم بانقلاب عسكرى.. ثم أعيدت اليه فى سبتمبر عام ١٩٩١.

ولم تشهد أفغانستان بعد رحيل ظاهر شاه عنها إستقراراً حقيقياً كما كانت فى عهده.. فقد وقعت ضحية الصراع بين المخابرات السوفيتية والأمريكية التى دبرت كل منها أكثر من إنقلاب لضمان بسط سيطرتها على هذه المنطقة الهامة من العام.. مما دفع بأفغانستان إلى دوامة من الفوضى والعنف لم تنته حتى الآن.

ففى عام ١٩٧٨.. قاد نور محمد تراقى انقلاباً شيوعياً استولى به على الحكم من محمد داود وقتله.

بعـد مـرور ١١ شـهـراً فقط على هذا الانقـلاب.. قـام حـفـيظ الله أمين بدعـم من المخابرات الأمريكية بالانقلاب على نور تراقى فاستولى منه على الحكم وقتله خنقاً.

بعد مرور ٩ شهور على ذلك.. قامت القوات السوفيتية بغزو أفغانستان.. فألقت القبض على حفيظ الله وأعدمته.. وسلمت السلطة إلى «بابراك كارمل» في ديسمبر ١٩٧٩.. فردت المخابرات الأمريكية على ذلك بحشد المجاهدين وتسليحهم.. واستمر القتال فى أفغانستان عشر سنوات كاملة، حتى انسحب منها السوفييت فى عام ١٩٨٩.. بعد أن دمرت الدولة تماماً وخربت مرافقها.

فى ٤ مايو ١٩٨٦.. استقال بابراك كارميل من رئاسة الحزب الشيوعى الحاكم فى أفغانستان لأسباب صحية.. ثم أرسل إلى إحدى المستشفيات بموسكو للعلاج.. وتوفى بالمستشفى.

فى ٣٠ سبتمبر ١٩٨٧ تم تنصيب د.نجيب الله رئيساً لأفغانستان وكان يشغل من قبل منصب السكرتير العام للحزب الشيوعى الأفغانى.

فى أبريل ١٩٩٢.. دخلت قوات القائد الطاجيكى أحمد شاه مسعود كابول.. فأسقطت نظام نجيب الله وفر إلى السفارة الهندية.

بعد ذلك تولى رئاسة أفغانستان صبغة الله مجددى، ثم برهان الدين ربانى.. وفى سبتمبر ١٩٩٦ سقطت كابول فى أيدى قوات طالبان.. ففر ربانى ورئيس وزرائه قلب الدين حكمتيار إلى وادى بانشير.. وألقت طالبان القبض على د.نجيب الله وشقيقه وأعدمتهما شنقاً وعلقت جثمانيهما، ثلاثة أيام فى أحد أعمدة إشارات المرور بميدان «أريانا» فى كابول..!

* * *

هذه الأحداث المتلاحقة من الإنقلابات والقتل والدمار التى شهدتها أفغانستان منذ الإطاحة بالملك ظاهر شاه.. جعلت العالم يتذكره.. وتلتقى عنده كل السيناريوهات التي وضعتها الأطراف الفاعلة فى الأزمة الأفغانية لمستقبل الأوضاع بعد طالبان.. بما فى ذلك سيناريو الباكستانيين أنفسهم، رغم أنهم لم ينسوا له أبداً أنه عارض إنشاء دولة مستقلة لهم عند تقسيم شبه القارة الهندية عام ١٩٤٧، وظل طوال فترة حكمه يطالب بضم المناطق الغربية فى باكستان إلى دولته باعتبارها كانت فى الأصل أراض أفغانية حتى عام ١٨٩٣.

كان الرجل بالنسبة للجميع يمثل الزمن الجميل فى التاريخ الأفغانى.. ونقطة الضوء الوحيدة فى النفق المظلم الذى انزلقت فيه أفغانستان منذ قرابة ربع قرن ومازالت لم تخرج منه..! فاتجهت إليه الأنظار.. وقصدت منزله فى روما وفود الدبلوماسيين والصحفيين ورجال المخابرات من أجناس عدة تطلب لقاء الرجل.. الذى ظل لقاؤه فى السنوات الماضية من دروب المستحيل، خاصة بعد الحادث الذى تعرض

له فى عام ١٩٩١ على يد أحد الصحفيين عندما طعنه بفاتحة خطابات بعد أن أجرى معه مقابلة صحفية، حتى يمنعه من العودة إلى أفغانستان..!

كانت كل هذه الوفود تنتظر كلمة من الرجل.. بينما الرجل نفسه لم يكن يبدى أية لهفة للعودة إلى الحكم..!

كان يريد أن يتحقق ذلك عبر «سيناريو» خاص وضعه بنفسه.. يختلف عن بقية السيناريوهات الأخرى التى وضعتها الأطراف الفاعلة فى الأزمة.

«سيناريو» يضمن به إذا ما أعيد له العرش.. ألا يكون مفخخاً فينسفه ويضيف اسمه إلى قائمة حكام أفغانستان السابقين الذين لقوا حتفهم شنقاً أو رمياً بالرصاص..!

طموح الرجل كان يتجاوز عرض الولايات المتحدة له بالعودة فى طائرة إلى كابول وتولى العرش.

هكذا قال مستشاره عبدالستار سيرات «إن الملك ظاهر شاه يرفض أن يرجع إلى الحكم على اكتاف أمريكا أو غير أمريكا».

كان ظاهر شاه يريد أن يعود إلى كابول بإرادة الشعب الأفغانى وليس بإرادة الأمريكيين الذين دمروا أفغانستان وقتلوا وشردوا الملايين من أبنائها.

لذلك دعا الرجل إلى اجتماع «لويا جيرجا» وهو مجلس يضم العلماء والقادة الدينيين وزعماء القبائل وكبار الشخصيات السياسية فى أفغانستان من أجل الاتفاق على شكل النظام السياسى بعد إنتهاء مرحلة طالبان.. حتى إذا ما اتفق المجلس على عودة الملكية، تكون عودته قد تمت بإرادة الشعب وليست مفروضة من الخارج.

نقطة الضعف الوحيدة فى ظاهر شاه، كانت تقدمه فى السن.. لذلك أعد حفيده «مصطفى» ليكون بجواره فى الحكم وخليفته.. ذلك لأن أبناء ظاهر شاه أنفسهم غير مبالين بالسياسة ولا بما آلت إليه الأوضاع فى بلادهم.. فإبنه الأكبر «أحمد شاه» الذى كان ولياً للعهد فترة حكم الملك، يعيش الآن فى ولاية فيرجينيا الأمريكية ومنشغل بكتابة الشعر.. وابنه الثانى «محمد نادر» الذى يليه فى أحقية العرش عازف جيتار مشهور فى كندا.. أما «مصطفى» فهو شاب عمره نحو ٣٦ عاماً.. متحمس لقضايا بلاده.. ينام وتحت وسادته حفنة من تراب أفغانستان!

* * *

دعوة الملك إلى عقد اجتماع «لويا جيرجا» التقطتها إسلام آباد وبدأت تعد لها فى صمت حتى تدفع بحلفائها فى أفغانستان إلى صدارة النظام السياسى المرتقب.

كانت الفكرة بالنسبة للباكستانيين كأنها فرصة هبطت عليهم من السماء لإنقاذهم من «الهم» الذى صاروا يبيتون ويصبحون فيه خشية سيطرة التحالف الشمالى على النظام المرتقب..!

فالـ «لويا جيرجا» إذا ما تم الإعداد لـها جيداً من وجـهـة النظر الباكسـتـانية ـ ودفعت إسلام آباد برجالها للمشاركة فيها.. يمكن أن تسفر عن وضع جديد كما كان في التصور الباكستـاني ـ بمنح الملك ظاهر شاه دوراً رمزياً فقط في الحكم بدعوى تقدمه في السن.. بينما السلطات الفعلية تمنح لرئيس الحكومة الذي يمكن أن ترشحه باكستان وتعمل على جمع التأييد له من زعماء القبائل.. فتكون باكستان بذلك قد أرضت أمريكا بإعادة ظاهر شاه.. وفي نفس الوقت ضمنت مصالحها بوضع السلطة في أيدي أحد الموالين لها.

في إطار هذا التصور.. تم عقد مؤتمر بمدينة بيشاور يومي ٢٤ و٢٥ أكتوبر ٢٠٠١ تحت شعار: «من أجل السلام والوحدة الوطنية في أفغانستان» دعا له بيرسيد أحمد جيلاني ـ «بير» في العربية معناها «الشيخ» ـ وهو رئيس الجبهة الإسلامية الوطنية لأفغانستان.. ومحل ثقة إسلام أباد.. فضلاً عن كونه زعيماً افغانياً خطيراً يحظى بثقة واحترام معظم القبائل.

وعليه شبه إجماع من البشتون الذين ينتمي إليهم.

حضر هذا المؤتمر نحو ألف مشارك يمثلون الجماعات الأفغانية في المنفى.. بينما قاطعته طالبان، والتحالف الشمالي، واكتفى الملك ظاهر شاه بإرسال برقية إلى المؤتمر أعرب فيها عن تمنياته له بالنجاح في أعماله.

في كلمة الإفتتاح قال جيلاني ان «أفغانستان غارقة في أخطر حقبة من تاريخها».. وانه يجب بذل كل الجهود لوقف العمليات العسكرية».. وبدء إعادة الإعمار في أقرب وقت ممكن.. ودعا إلى تشكيل مجلس مؤقت لإدارة أفغانستان يرأسه الملك السابق ظاهر شاه.. يعمل إلى جانب حكومة انتقالية يتم إشراك عناصر معتدلة من طالبان فيها.. كما اقترح تشكيل لجنة تبدأ في وضع مشروع دستور إسلامي لأفغانستان يحظى بموافقة وقبول مختلف فئات الشعب.. ويصبح نافذا فور إقراره من المجلس «يقصد المجتمعين في بيشاور».

وكشف جيلاني النقاب عن أنه اتفق مع ظاهر شاه على فترة زمنية محددة للحكومة الانتقالية التي لاتزيد عن ٦ أشهر، وأن تعمل تحت إشراف الأمم المتحدة، ويتم نشر قوات من بلدان إسلامية في المدن الرئيسية بأفغانستان لحفظ الأمن والنظام لحين تشكيل جيش وقوات أمن أفغانية.

ثم تحدث بعد ذلك عدد من زعماء القبائل فطالبوا جميعاً بضرورة وقف القصف الأمريكي لأفغانستان فوراً، وطرحوا أفكارهم بشأن الحكومة الانتقالية فلم تختلف كثيراً عما قاله بير جيلاني.

في نهاية اليوم الثاني للمؤتمر أصدر المجتمعون بيانهم الختامي.. وفيه قالوا «إننا نطلب من الأطراف المشاركة في الحرب، وضع حد لعملياتها في أقرب وقت ممكن».. «على هذه الأطراف أن تمهد الطريق لحل سياسي وتفاهم أفضل لضمان

حماية حياة الأبرياء من ناحية، ومنع أية أعمال دمار جديدة فى أفغانستان من ناحية أخرى».

وحذر المجتمعون فى بيشاور من تسليم السلطة إلى التحالف الشمالى.. قالوا فى بيانهم:«إن العمليات العسكرية التى تقودها الولايات المتحدة وحلفاؤها يمكن أن تؤدى إلى إسقاط نظام طالبان فى أى وقت مما سيترتب عليه حدوث فراغ سياسى.. وإذا تم ملء هذا الفراغ من قبل فصيل معين مسلح، فإن ذلك سيؤدى إلى حلقة جديدة من إراقة الدماء والفوضى ويجر ويلات جديدة على أمتنا.

وطالبوا بتشكيل قوة لحفظ السلام فى أفغانستان تعمل تحت مظلة الأمم المتحدة فى حال سقوط حكم طالبان.. وأن تضم هذه القوة قوات التحالف من دول إسلامية.. كما دعوا إلى ضرورة إشراك العناصر المعتدلة من طالبان فى «أى نظام حكم يتم تشكيله مستقبلاً فى أفغانستان».

ومن أجل كسب تأييد الولايات المتحدة لمقررات مؤتمر بيشاور.. أورد المجتمعون هذه الفقرة فى البيان الختامى:

«نحن المشاركين في المؤتمر من أجل السلام والوحدة الوطنية فى أفغانستان.. وكل الأفغان.. ندين بشدة هذه الأعمال التى وقعت فى الحادى عشر من سبتمبر فى الولايات المتحدة، ونطالب بأشد التعابير حزماً بأن يكف الأجانب الذين يزيدون من مآسينا، بسبب علاقتهم «بهذه الأعمال» عن استغلال ضيافة الأفغان وأن يغادروا البلاد»..!

* * *

لم يكن صعباً على واشنطن أن تدرك أن مؤتمر بيشاور هو إعداد وتنظيم وإخراج إسلام آباد.

وأن الحكومة الباكستانية كانت تقف وراء الكواليس أثناء مناقشات المؤتمر.. تستمع وتنصح وتوجه..!

وأن ما جاء فى البيان الختامى هو بالضبط ما تريد أن تقوله إسلام آباد لواشنطن.. قالته مرة بلسانها.. وتقوله مرة ثانية بلسان الأفغان أنفسهم بإعتبارهم أصحاب القضية.. لعل واشنطن تصدق وتقتنع وتعمل به..!

لكن الحقيقة أن واشنطن كانت تخطط لعمل شيء آخر.. هو فك الإرتباط بين إسلام آباد وكابول فى أية ترتيبات مستقبلية يتم وضعها لأفغانستان.. حتى يصبح ولاء النظام الجديد لها وليس لإسلام آباد.

بمعنى آخر.. كانت تريد أن يرفع الباكستانيون أيديهم عن أفغانستان..!

لذلك فإن واشنطن لم تكن راضية أصلاً عن عقد مؤتمر بيشاور.. وإنما وافقت عليه على مضض حتى لا تغضب الباكستانيين فى وقت كانوا يفتحون فيه اجواءهم وقواعدهم الجوية للعمليات العسكرية التى تشنها الولايات المتحدة على أفغانستان.

يتضح لنا ذلك مما نشرته بعض وسائل الإعلام يوم انعقاد المؤتمر على ألسنة مسئولين أمريكيين من أن «واشنطن متيقظة تماماً إزاء نفوذ محتمل لباكستان على أى حكومة تأتى فى أفغانستان بعد طالبان، إلى درجة أنها تفضل ألا تجتمع الجماعات الأفغانية المعارضة ـ لطالبان ـ داخل باكستان لتشكيل حكومة جديدة» (٥٤)

يتضح أيضا مما جرى فى اجتماع للجنة العلاقات الخارجية بمجلس النواب الأمريكى عقد يوم ٢٥ أكتوبر ٢٠٠١، وتحدث فيه كولين باول وزير الخارجية.. فقال:

«لقد أوضحنا للباكستانيين أننا لسنا واثقين من أن بلادهم هى المكان الأمثل لعقد اجتماع شامل للقوى الأفغانية».. وقال النائب بنيامين جيلمان: «إن ما يقلقنى هو أن تحاول باكستان من جديد التدخل بقرار بشأن من يملك السلطة فى أفغانستان بعد طالبان».. وتساءل جيلمان:«هل نقول للباكستانيين أن يكفوا أيديهم».. فأجاب باول:«إن باكستان بوصفها دولة مجاورة لأفغانستان.. ويعيش بها الملايين ممن ينتمون إلى قبائل البشتون التى تنتمى إليها طالبان أيضا.. لها مصلحة أكثر من عابرة فى شكل أى حكومة تتولى السلطة فى أفغانستان».

أضاف:«إن مشرف اعترف له بأن باكستان لا تستطيع الآن أن تلعب نفس أدوار الماضى».. وأكد باول أمام اللجنة على «ان الأمور لن تسير على ما يرام إذا ما أملت دولة ما تصورها لما ستكون عليه حكومة أفغانستان فى المستقبل.. حتى لو كانت هذه الدولة هى الولايات المتحدة»..!

هكذا بدت واشنطن مصممة على سحب السجادة الأفغانية من تحت أقدام الباكستانيين.. فوضعت بذلك حكومة مشرف فى حرج بالغ أمام الجبهة الداخلية.. وأثبتت مبكراً أن رهان هذه الحكومة على أمريكا هو رهان خاسر..!

بالطبع كان لابد على إسلام آباد أن تقول شيئاً تنقذ به نفسها من هذا الحرج ..

فقال السفير رياض محمد خان المتحدث باسم وزارة الخارجية الباكستانية:«ان كولين باول قد وقع فى خطأ عندما اعتقد أن الدول المجاورة لأفغانستان تريد فرض نظام سياسى معين عليها بعد طالبان».. موضحاً أن بلاده عندما وافقت على عقد مؤتمر بيشاور، فإنها وافقت عليه من منطلق ترحيبها بأية جهود ترمى إلى تحقيق الوفاق الوطنى بين الأفغان.. وليس لأنها تريد فرض نظام معين.. وأن دور باكستان لا يتعدى تقديم التسهيلات التى تساعد فى إقامة الحكومة المستقبلية فى أفغانستان، ولا يخرج عن نطاق قرارات مجلس الأمن والأمم المتحدة ومنظمة المؤتمر الإسلامى الخاصة بالأزمة الأفغانية.. كما نوه إلى أن بلاده لم تشدد ضرورة مساهمتها بدور فى تشكيل الحكومة الأفغانية الجديدة، وأنها اختصرت جهودها فى العمل على تحقيق الوفاق الوطنى وإحلال السلام فى أفغانستان، وإعادة ثلاثة ملايين لاجىء أفغانى فى باكستان إلى ديارهم.

أكد أيضا على ضرورة ان تكون الحكومة الجديدة فى كابول عريضة القاعدة وممثلة لكافة القوى والفصائل الأفغانية وأن ترعى حسن الجوار مع باكستان، ويتم اختيار رئيسها بواسطة الأفغان أنفسهم.. مشيراً إلى ان بلاده لن تمارس أى ضغط على الأفغان فى تشكيل هذه الحكومة.. كما لا تقبل أى تدخل خارجى لفرض نظام معين فى أفغانستان.

والحقيقة أن مؤتمر بيشاور كان لبنة جيدة، يمكن البناء عليها لتحقيق السلام والاستقرار فى أفغانستان.. إلا أن هذه «اللبنة» تم نسفها مبكراً من كل اتجاه.

- فأمريكا رفضته..
- وباكستان أخفت حماسها له..
- والملك لم يهتم بإرسال من يمثله فيه..
- والتحالف الشمالى لم يكتف بمقاطعته فقط.. بل اتخذ منه مناسبة للهجوم على باكستان..

فدعاها أحمد والى مسعود - شقيق القائد الطاجيكى أحمد شاه مسعود - إلى عدم الإصرار على التدخل فى الشئون الأفغانية.. وقال للباكستانيين:«من فضلكم اتركونا وشأننا.. نحن نستطيع أن نقرر مصيرنا بأنفسنا.. ونحدد مستقبلنا.. ونختار حكومتنا».. أضاف:«لو أن الحكومة الباكستانية.. والجنرال - مشرف - إستمرا فى التوسط والتدخل فى أفغانستان.. فإن مأساتنا سوف تطول»[٥٥]!.

- حتى الملا عبدالسلام ضعيف هاجم مؤتمر بيشاور.. ووصفه بأنه «يهدف إلى إيجاد نظام عميل للولايات المتحدة فى أفغانستان».

هكذا.. ضاعت على باكستان الجهود التى بذلتها فى الخفاء لإنجاح مؤتمر بيشاور، وجعله بمثابة «لوياجيرجا» للأفغان.. وبدت إسلام آباد فى وضع كما لو أن أوراقها فى اللعبة قد كشفها اللاعبون الآخرون ..!

الأكثر من ذلك أن أمريكا قررت إخراج باكستان من اللعبة.. فبدأت تعد وتحشد لعقد مؤتمر فى اسطنبول تحضره القوى الأفغانية المعارضة لطالبان لوضع الترتيبات المستقبلية لأفغانستان بعيداً عن أى تأثير لباكستان على أعمال المؤتمر.. وكان سبب اختيار الأمريكان لإسطنبول كما قال كولين باول هو أن «تركيا فى وضع يسمح لها بأداء دور بارز فى أفغانستان بصفتها بلداً إسلامياً وفى نفس الوقت عضواً فى حلف شمال الأطلنطى»[٥٦].

لذلك دفعت واشنطن بالأخضر الإبراهيمى إلى المنطقة للقاء فصائل الأفغان وسماع وجهات نظر الدول المجاورة لأفغانستان وأفكارها بشأن الحكومة الجديدة فى كابول لكى تحظى هذه الحكومة بصداقة ودعم جميع دول الجوار.. وذلك طبعاً بصفته «المبعوث الخاص للأمين العام للأمم المتحدة إلى أفغانستان».. حتى يكون انعقاد مؤتمر اسطنبول تحت مظلة الشرعية الدولية.

وتصور الإبراهيمى أنه كمبعوث دولى.. عليه الاتصال بجميع أطراف الأزمة الأفغانية، ومنها طالبان باعتباره قوة موجودة على الساحة لا يمكن اغفالها.. هكذا يقول المنطق..! أو هكذا أفهمته إسلام آباد عندما وصل إليها فى بداية جولته بالمنطقة.. فاتصل الرجل بالملا عبدالسلام ضعيف يطلب مقابلته.. إلا أن ضعيف أرجأه بعض الوقت قبل أن يوافق على المقابلة.

فى تلك الاثناء علمت واشنطن بهذا الإتصال.. فتدخلت.. فتراجع الإبراهيمى واضطر أن يعلن على لسان المتحدثة باسم مكتب الأمم المتحدة فى إسلام آباد أنه ليس لديه الوقت لمقابلة سفير طالبان.. كان ذلك يوم ٣١ أكتوبر ٢٠٠١. . فشن عليه ضعيف هجوماً ضارياً.. وقال فى المؤتمر الصحفى الذى كان يعقده يومياً فى السفارة أنه لم يسع لمقابلة الإبراهيمى.. لكن الإبراهيمى هو الذى اتصل به يطلب مقابلته وأنه أرجأه بعض الوقت حتى يعود إلى سلطات طالبان للتصريح له بهذه المقابلة إلا أن سلطات طالبان رفضت.. واستشهد على ذلك بما صدر عن مكتب الأمم المتحدة من تصريحات فى اليوم السابق تتحدث عن لقاء مرتقب بينه وبين الإبراهيمى.. ثم فسر ضعيف رفض طالبان عقد هذا اللقاء بأن الإبراهيمى جاء إلى المنطقة ليعمل على خدمة المصالح الأمريكية وليس مصلحة الشعب الأفغانى.. كما وصف دور الأمم المتحدة فى الأزمة الأفغانية بالإزدواجية.. فهى من ناحية ترسل المساعدات الغذائية للأفغان، ومن ناحية أخرى تصدر القرارات التى توفر بها المظلة الشرعية للأمريكيين لقصف بلادهم.. وقال ان تشكيل الحكومات بيد الشعوب وليس بيد الولايات المتحدة أو الأمم المتحدة التى يجب عليها حل الخلافات بين الدول.

وقد استمرت لقاءات الإبراهيمى فى المنطقة مع استمرار القصف الأمريكى لأفغانستان.. غير ان فكرة عقد مؤتمر الفصائل الأفغانية فى اسطنبول بدأت تتراجع أمام تزايد رفض الشارع التركى لهذا القصف.. خاصة الجماعات الإسلامية المنتشرة فى اسطنبول.. لذلك طرحت أسماء مدن أخرى لتكون مكاناً لعقد المؤتمر بها.. مثل روما، حيث يوجد الملك السابق ظاهر شاه.. أو برلين، حيث تتوفر ظروف أمنية أفضل.. وأخيراً استقر الرأى بعد ذلك على عقد المؤتمر فى مدينة بون العاصمة السابقة لألمانيا.

كانت باكستان ترقب وتتابع الاتصالات واللقاءات التى يعقدها الإبراهيمى على أرضها مع الشخصيات والقوى الأفغانية المختلفة بقلق بالغ.. فهى من ناحية لا تمتلك التدخل فيها أو الاعتراض عليها.. ومن ناحية أخرى تعلم أنها لا تجرى فى صالحها..!

غير أن أكثر ما كان يقلق الباكستانيين.. هو فكرة تقسيم افغانستان التى عادت للظهور بقوة وبدأت تتداول فى وسائل الإعلام.. أصحاب هذه الفكرة كانوا يقولون إن تقسيم أفغانستان أفضل من السعى إلى توحيدها رغماً عن إرادتها..! فبلد مقسم

رسمياً يعيش فى سلام أفضل من فصائل تتقاتل كما كانت الحال بين العامين ١٩٩٢ و١٩٩٦.

وذهب البعض فى القول إلى أن أفغانستان دولة مصطنعة.. أنشئت فى الأصل لتكون دولة عازلة بين امبراطورية الهند البريطانية فى الجنوب والامبراطورية الروسية فى الشمال فى القرن التاسع عشر.. وأنها تضم خليطاً من الشعوب المتنازعة منذ زمن طويل.. لا يجمع بينها عرق واحد حيث ينتمى الأفغان إلى عدة عروق مختلفة أهمها البشتون والطاجيك والأوزبك والهزارة.. ولا تجمع بينهما لغة واحدة.. حيث توجد لغتان رئيسيتان هما «الباشتو» و«الدارى» - وهى لغة متفرئه عن الفارسية - بالإضافة إلى عدة لهجات مختلفة.

حتى الدين الإسلامى الذى يعتنقه أغلب السكان ينقسمون إلى «سنة» و«شيعة».. وهناك أحقاد مزمنة ومجازر وقعت بين الطائفتين، آخرها ما ارتكبته طالبان ضد الشيعة من أبناء قبائل الهزارة.. أما التحالف الشمالى الذى تقاتل قواته ضد طالبان، فهو ليس أكثر من «إئتلاف مرحلى» فرضته الظروف.. لكن الحقيقة أن العداوة والبغضاء هى الشعور المتبادل بين قادته الذين لا يتوانون عن اللجوء إلى الخيانة متى تعلق الأمر بالسلطة ومناطق النفوذ..!

لكل ذلك كان أصحاب فكرة تقسيم أفغانستان يقولون دائما: لنترك كل شعب فى هذا البلد يحصل على أرض معترف بها دولياً مع علم وعاصمة..!

هذا الكلام كان يجعل الحكومة الباكستانية ترتجف وتطلب من الله ألا يتحقق.. لأن معناه أن يتحول الفناء الخلفى للبيت الباكستانى إلى ساحة وحوش تعيش فى صراع دائم حول الأرض والحدود والطرق والمطارات وكل مصادر القوة الاقتصادية.

لذلك تصدى المسئولون الباكستانيون لفكرة تقسيم أفغانستان.. فقال السفير عزيز أحمد خان المتحدث باسم وزارة الخارجية الباكستانية عندما طرحت عليه فى مؤتمر صحفى «إن الأفغان يعتبرون أنفسهم أمة واحدة».

وقال آخرون.. لو أن وجود أكثر من لغة فى البلد الواحد سيصبح سبباً للتقسيم.. فأول دولة فى العالم يجب تقسيمها هى «الهند».. لأن بها ١٧ لغة رسمية معترف بها فى الدستور.. بالإضافة إلى مئات اللغات واللهجات المحلية..!.

* * *

الفصل الثاني عشر

• معركة ٢٠ أكتوبر..

«إنها درس للأمريكيين..
يجب أن يتعلموه»..

عبدالسلام ضعيف

سفير طالبان فى باكستان

□ *كنت فى «إسلام آباد» عندما زارها وزير الخارجية الأمريكى «كولين باول» فى ١٥ أكتوبر ٢٠٠١..*
ما جرى هناك من احتياطات أمنية لهذه الزيارة كان لافتا للنظر بشكل كبير وشمل كل شىء.. بدءًا من التعتيم على موعد وصول الوزير إلى المطار.. وبرنامجه.. ولقاءاته.. ومكان إقامته.. حتى موعد مغادرته.

كل شىء كان يجرى تحت إشراف السفارة الأمريكية فى إسلام آباد.. هى التى تسمح، وهى التى تمنع..!

فهى التى سمحت لعدد محدود جداً من الصحفيين الباكستانيين بحضور المؤتمر الصحفى الذى عقده باول مع الرئيس مشرف.. إلى جانب الصحفيين الأمريكيين والأوربيين طبعاً.. أما الصحفيين العرب والآسيويين فتم منعهم..

وهى التى قررت أن يقتصر البث المباشر لوصول باول إلى المطار ومؤتمره الصحفى وجميع لقاءاته على محطة تليفزيونية واحدة فقط.. هى محطة «سى. إن. إن» الأمريكية.. أما بقية محطات العالم فتم منعها، بما فى ذلك محطة «بى. بى. سى» البريطانية.. الأمر الذى أغضب البريطانيين بشدة، لأنهم فى الأصل شركاء للأمريكيين فى الحملة العسكرية على أفغانستان.. وبالتالى كان يجب أن تكون محطتهم محل ثقة السفارة الأمريكية..!

الباكستانيون من جانبهم لم يشغلوا أنفسهم كثيراً بالأمر، وتركوا من يحضر يحضر ومن لايحضر لايحضر.. وركزوا جهودهم على إظهار الحفاوة بالضيف الأمريكى.. فاستضافه الرئيس مشرف فى مقر إقامته الخاص، ووصفت الصحف الباكستانية هذه الزيارة بأنها تعبير عن «رغبة الولايات المتحدة فى إحياء الروابط القديمة مع باكستان التى كانت تربط البلدين زمن الحرب الباردة..».

أما فى محادثات مشرف مع باول.. فقد حرص الرئيس الباكستانى على التركيز على الأولويات الثلاثة التى تهم باكستان فى علاقاتها مع الولايات المتحدة الأمريكية.. وهى: كسب تأييد واشنطن للموقف الباكستانى فى قضية كشمير.. الحصول على مساعدات اقتصادية.. استئناف العلاقات الاستراتيجية بين الدولتين.

باول أيضا كانت له ثلاثة أهداف يريد أن يحققها من زيارته لباكستان..
- الأول: إبلاغ الباكستانيين بعدم التدخل فى أية جهود تبذل لتشكيل الحكومة الأفغانية الجديدة.
- الثانى: التعرف على حقيقة الوضع الداخلى فى باكستان وحجم المعارضة الشعبية للرئيس مشرف.. لتقدير ما إذا كان يمكن الاعتماد عليه أم لا..
- الثالث: طلب تقديم مساعدات أرضية فى أفغانستان فى حالة بدء هجوم أمريكى بالقوات البرية.. لما لدى الباكستانيين من خبرة بالطبيعة الجغرافية هناك.

أما ما جاء فى المؤتمر الصحفى المشترك للرجلين.. فكان أغلبه عبارة عن رسائل موجهة إلى الشعب الباكستانى.. تتلخص فى أن الرئيس مشرف طلب من باول الإسراع بإنهاء العمليات العسكرية ضد طالبان.. وأن باول وعد بمساعدات أمريكية لدعم الاقتصاد الباكستانى..

* * *

فكرة الهجوم البرى التى ناقشها باول فى باكستان.. كانت تمثل المرحلة الثانية فى خطة الحرب الأمريكية على أفغانستان، وكان المفترض لها أن تبدأ بعد أن تكون عمليات القصف الجوى قد مهدت الأرض أمام القوات الأمريكية.. بأن انهكت قوات طالبان تماماً.. وشتّتها.. وجعلتها غير قادرة على المقاومة.. عندئذ تبدأ القوات الأمريكية فى الوصول والاشتباك معها بمساعدة قوات من التحالف الشمالى.. فيسهل بذلك هزيمة طالبان.

لكن المشكلة أنه حتى ذلك الوقت لم يكن الوضع على الأرض يسمح ببدء هذه المرحلة.. لأن طالبان كانت لاتزال قوية وتسيطر على معظم أفغانستان..

كان موضوع مشاركة قوات التحالف الشمالى فى الهجوم البرى مازال فى الحسابات الأمريكية لم يحسم أيضا بصورة نهائية.. لسببين:
- الأول: أن باكستان -الحليف الاستراتيجى للولايات المتحدة فى الحرب- ترفض السماح لهذه القوات بالمشاركة فى أية عمليات عسكرية حتى لايعطيها ذلك الحق فى المطالبة بالإحلال محل طالبان..
- الثانى: أن الولايات المتحدة نفسها كانت تضع فى حساباتها العلاقات التاريخية والعرقية الوثيقة التى تربط التحالف الشمالى بموسكو.. ومن ثم كانت تخشى من إفساح المجال له فيؤدى ذلك فى النهاية إلى عودة الدور الروسى فى أفغانستان ولو بشكل غير مباشر..!

لعل هذا يفسر لنا سبب الهزائم المتكررة التى منيت بها قوات التحالف الشمالى على أيدى طالبان فى بداية الحرب كلما كانت تحاول التقدم نحو الجنوب.. ذلك لأنها كانت تحارب بلا دعم يذكر من القوات الأمريكية، حيث لم تكن واشنطن قد قررت بعد

حجم الدور الذى ستسمح لقوات التحالف الشمالى القيام به فى المعركة.

أى أن الظروف على الأرض والحسابات السياسية لم تكن مواتية بعد لبدء عملية الهجوم البرى.. لكن ما دفع باول إلى مناقشة هذا الموضوع مع مشرف هو حاجة الإدارة الأمريكية فى تلك الفترة إلى إحراز نصر سريع على طالبان تكسب به إعجاب الرأى العام الأمريكى الذى انتظر ثمانية أيام منذ بدء الحرب ولم ير أى تقدم يحدث على الأرض ضد طالبان يوازى التصريحات الرنانة التى كان يطلقها كل يوم الرئيس بوش ووزير دفاعه دونالد رامسفيلد.. فبدأت الإدارة الأمريكية تدرس فكرة تطوير العمليات العسكرية بإشراك القوات البرية فيها.

من أجل ذلك عقد الرئيس بوش اجتماعاً طارئاً مع كبار مساعديه يوم ١٤ أكتوبر ٢٠٠١ - أى فى اليوم السابق لوصول باول إلى إسلام آباد- حضره «ديك تشينى» نائب الرئيس، و«كونداليزا رايس» مستشارة الأمن القومى، و«كولين باول» وزير الخارجية، و«دونالد رامسفيلد» وزير الدفاع، و«جورج تينت» مدير وكالة المخابرات المركزية، و«أندرو كارو» رئيس ديوان البيت الأبيض.. وتم فى هذا الاجتماع بحث موضوعين أساسيين..

الأول: استراتيجية الحرب الأمريكية فى أفغانستان والتطورات المقبلة فيها..

الثانى: تقييم موقف الرأى العام الأمريكى والعالمى من أحداث الحرب.. وخلص الاجتماع إلى أن هناك حالة من القلق بدأت تنتشر فى الرأى العام الأمريكى والدول الإسلامية بعد أسبوع من القصف المتواصل لم يسفر عن إضعاف طالبان ولا القاعدة ولا عن مقتل أحد قادتهما..

فالرأى العام الأمريكى بدأ يخشى من أن تتحول أفغانستان إلى فيتنام أخرى للجيش الأمريكى.

والدول الإسلامية بدأت تقلق من أن يطول أمد الحرب إلى شهر رمضان.. لما يمكن أن يؤدى إليه من اضطرابات شعبية فى هذه الدول.. خاصة أن حكامها كانوا مثل الرئيس مشرف يتصورون أن المسألة عبارة عن حملة عسكرية ستستغرق يومين أو ثلاثة يتم خلالها إلقاء القبض على أسامة بن لادن والملا محمد عمر وينتهى الموضوع.. فإذا بالحملة العسكرية مستمرة والموضوع لاينتهى..!

لذلك قرر الرئيس بوش ومساعدوه فى اجتماعهم الطارئ بدء عملية الهجوم البرى على طالبان بهدف تحقيق نصر سريع يرضى الأمريكيين، وفى نفس الوقت حسم المعركة قبل بداية شهر رمضان.. وكان فى تقديرهم أن مشاركة قوات برية باكستانية فى هذا الهجوم من شأنها أن تؤدى إلى تهميش دور قوات التحالف الشمالى وهو ما يحقق المصلحتين الأمريكية والباكستانية معاً.. فطلب باول ذلك من مشرف عندما زار إسلام آباد فى اليوم التالى.. إلا أن مشرف اعتبر هذا الطلب فوق طاقته فلم يستطع الموافقة عليه.. وهذا ما نقله لى أحد كبار المسئولين فى الحكومة الباكستانية..

قال باول للرئيس مشرف: إذا كنتم لاتريدون إشراك قوات التحالف الشمالى فى الهجوم البرى على المدن الأفغانية ومعاقل طالبان. لماذا لاتشاركنا إذن قوات من الجيش الباكستانى فى هذه المهمة..؟

- فرد الرئيس مشرف إنه لايستطيع أن يقدم على هذه الخطوة لأن الشعب سيثور ضده.. فضلاً عن أن الكثير من قادة الجيش أنفسهم يميلون إلى التيار الإسلامى وسيرفضون الاشتراك فى حرب مباشرة ضد إخوانهم المسلمين فى أفغانستان..

- قال باول إن الطبيعة الجغرافية لأفغانستان تجعل القوات الأمريكية فى حاجة إلى مساعدات أرضية ممن هم على دراية بالممرات الجبلية والمسالك والكهوف حتى لايسقط الجنود الأمريكيون فى أكمنة ينصبها لهم جنود طالبان.. وهذا يعنى إما أن يقدم الباكستانيون هذه المساعدات بمالهم من خبرة بالخريطة الأفغانية.. أو تقدمها قوات التحالف الشمالى التى حاربت على هذه الأرض وتحفظ دروبها شبراً شبراً.

- فرد الرئيس مشرف بأن جهاز المخابرات الباكستانية يقدم بالفعل للقوات الأمريكية كل ما تطلبه من خرائط ومعلومات عن أفغانستان ومقار معسكرات تنظيم القاعدة وطالبان.

لكن الخرائط والمعلومات لم تكن كافية بالنسبة للامريكيين ، وكانوا يريدون مشاركة فعلية من القوات الباكستانية فى العمليات العسكرية ..

هكذا.. ظلت هذه النقطة هى إحدى نقاط الخلاف بين الولايات المتحدة وباكستان أثناء الحرب..

- فلا باكستان تريد لقوات التحالف الشمالى المشاركة فى العمليات العسكرية ضد طالبان..

- ولا هى تستطيع المشاركة بقواتها..

- فى نفس الوقت.. تريد الولايات المتحدة قوات بديلة تدفع بها إلى الصفوف الأولى فى أية مواجهة عسكرية مباشرة مع قوات طالبان، حتى تقلل من خسائرها البشرية بأقصى قدر ممكن..

* * *

رفض الرئيس مشرف المشاركة بقواته فى الهجوم البرى.. وعدم استقرار الإدارة الأمريكية بعد على حجم الدور الذى ستسمح به لقوات التحالف الشمالى.. جعل أنظار الإدارة الأمريكية تتجه نحو ضرورة الاعتماد على قواتها الخاصة فى تنفيذ عمليات هجومية.. لكن المشكلة التى واجهتها أنه لم يكن لدى البنتاجون حتى هذا الوقت خطة مفصلة لعمل ذلك.. وهو ما أشارت له صحيفة «الجارديان» البريطانية يوم ١٦ اكتوبر ٢٠٠١ عندما قالت إن «رامسفيلد يشعر بالإحباط تجاه الفشل فى وضع خطة ميدانية خلاقة تستخدم فيها القوات الخاصة بصورة متزايدة».. وأكدت

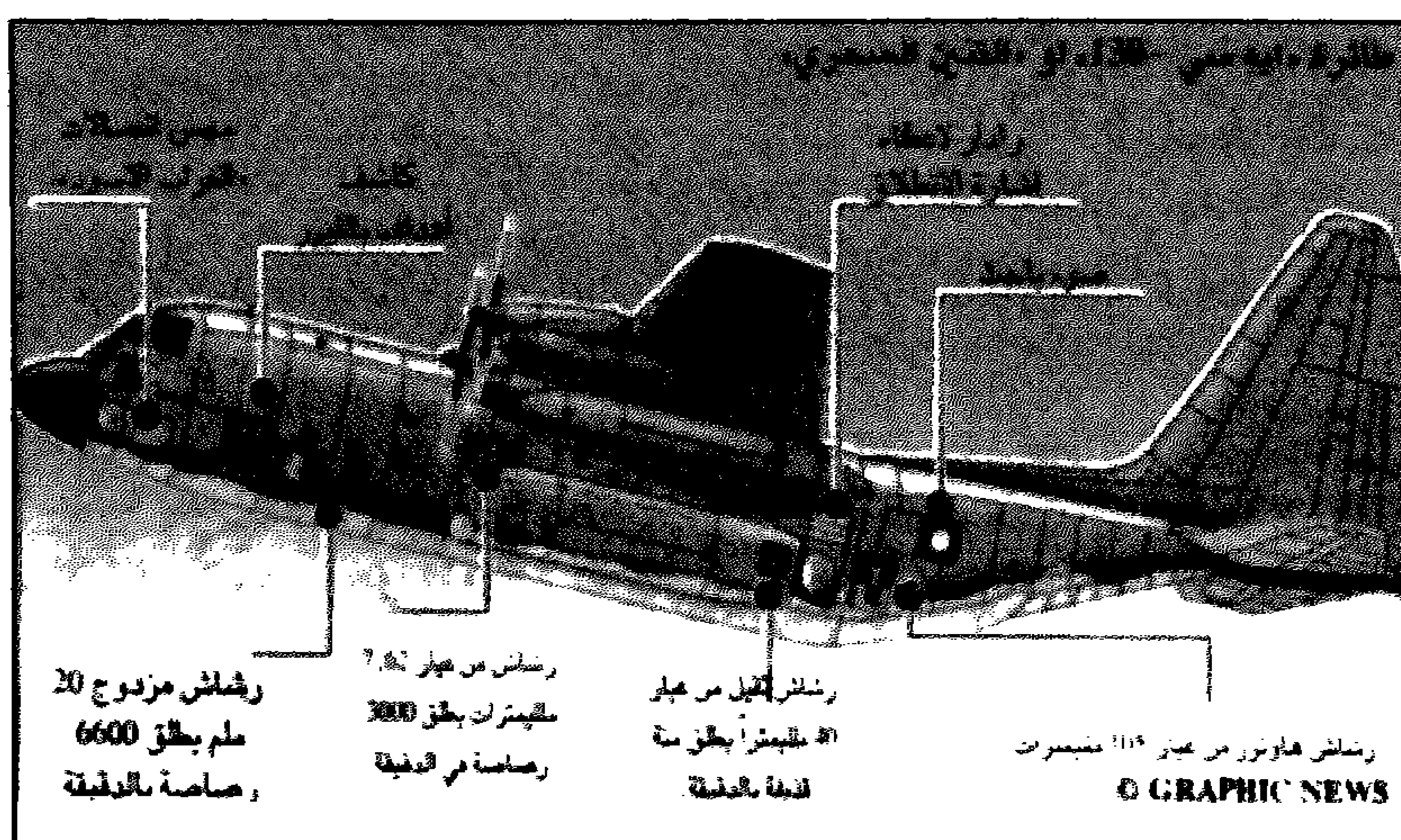
الصحيفة أنه لهذا السبب فإن قائد القيادة المركزية الجنرال «تومى فرانكز» لا يحظى بالثقة الكاملة لرامسفيلد، لأنه «ضابط مدفعية تقليدى» ليست لديه خلفية كاملة عن عمل القوات الخاصة.. بينما يرى رامسفيلد ضرورة استخدام القوات الخاصة بشكل اكبر والتخلى عن هيكل القيادة القديم المرتبط بالتقسيمات الجغرافية «لأن صواريخ كروز والقاذفات لن تحل المشكلة».. كما جاء على لسان رامسفيلد فى الصحيفة..

عندئذ.. كان الخيار السهل أمام الأمريكيين فى ذلك الوقت لتحقيق «النصر السريع» الذى يبحثون عنه.. هو تكثيف غاراتهم الجوية على أفغانستان، واستخدام أسلحة دمار شديدة جداً لقصف التجمعات العسكرية والمخابىء والأنفاق الأرضية فى محاولة للقضاء على القدرات العسكرية لطالبان وتنظيم القاعدة لتمهيد الأرض أمام وصول القوات البرية الخاصة.. وفى نفس الوقت إعطاء أنفسهم فرصة عدة أيام لإعداد خطة الهجوم بالقوات الخاصة.. فبدأوا تنفيذ هذا الخيار يوم ١٦ أكتوبر ٢٠٠١ -عقب انتهاء مباحثات باول ومشرف بوقت قصير.. حيث قامت المقاتلات الأمريكية فى هذا اليوم بشن ١٣٠ غارة اشتركت فيها ٥٠ مقاتلة و١٠ من القاذفات العملاقة طرازى «إف-١٤» و«إف-١٨» المتخصصة فى إلقاء القنابل تصل زنة الواحدة منها إلى ٢٠٠٠ رطل.

فى هذا اليوم أيضاً بدأ لأول مرة استخدام أشرس طائرات الهجوم الأرضى فى الترسانة الأمريكية وهى القاذفة «إيه سى- ١٣٠» التى يطلق عليها «التنين السحرى» لما تتمتع به من قدرات تدميرية هائلة تستطيع بها توجيه كمية نيران ثقيلة جداً فى جميع الاتجاهات فى وقت واحد وتصيب بصورة بالغة الدقة أهدافها وبقدر كبير من التأكد.. فهذه القاذفة ذات أربعة محركات توربينية.. يقودها طاقم مكوّن من ١٤ فرداً.. ومزودة بمدفع «هاوتزر» من عيار ١٠٥ ملليمترات، ورشاش ثقيل من عيار ٤٠ ملليمتراً يطلق مائة قذيفة فى الدقيقة، ورشاش من عيار ٧,٦٢ ملليمترا يطلق ٣٠٠٠ رصاصة فى الدقيقة، ورشاش مزدوج عيار ٢٠ ملليمتراً يطلق ٦٦٠٠ رصاصة فى الدقيقة.. كما أنها مجهزة بمجس اتصالات وكشافات ضوئية للبحث عن الأهداف، وكاشف أهداف بالليزر وكاميرات فيديو وأشعة تحت الحمراء ورادارات.. مما يجعلها قادرة على الضرب تحت أى ظروف مناخية وملاحقة أهدافها على الأرض مهما كانت صغيرة وتمييزها عن القوات الصديقة..!

استخدام هذه الطائرات فى قصف مواقع طالبان وتنظيم القاعدة.. اعتبره جميع الخبراء والمراقبين هو أولى مراحل الحرب البرية التى كانت الإدارة الأمريكية تريد أن تعجل بها..

الإدارة الأمريكية نفسها لم تخف ذلك.. بل أكدته على لسان ديك تشينى نائب الرئيس الأمريكى الذى قال: «إن عمليات القصف الجوى مهدت الطريق أمام بدء مرحلة جديدة من الحرب واتخاذ عمل جديد ليس بمقدور حركة طالبان أو تنظيم





التنين السحرى «إيه سى- ١٣٠» تطلق نيرانها

القاعدة توقعه أو الهروب منه».. دونالد رامسفيلد وزير الدفاع أوضح أن «العمل الجديد» ستقوم به القوات البرية.. لأنه -على حد قوله-: «الغارات الجوية المتواصلة نجحت فى إجبار أعضاء تنظيم القاعدة على الخروج من مخابئهم.. لكن الطائرات ليس فى مقدروها أن تتسلق الجبال للبحث عن أشخاص، وهذا ما سوق تقوم به القوات الأمريكية الخاصة..

* * *

رغم ذلك.. كان قرار إنزال قوات برية من الجيش الأمريكى فى أفغانستان أصعب على الأمريكيين من قرار الحرب..!

السبب أن صور ما جرى للجنود الأمريكيين فى فيتنام.. كانت ماثلة فى أذهان قادة البنتاجون ويخشون من تكرارها فى أفغانستان.. لاسيما أن الأفغان لديهم من الصلابة والخبرة القتالية ما لا يقل عن الفيتناميين.

كانت هناك أيضا أصوات كثيرة تحذر الأمريكيين من الوقوع فى فخ أفغانستان حتى لا يلقوا نفس مصير السوفييت والبريطانيين من قبل.. لأن ميدان المعركة فى أفغانستان دائما ما يجعل المعركة تحسم فى النهاية لصالح أهلها، لما لهم من دراية تامة بطبيعة هذا الميدان.. الذى هو عبارة عن كهوف الجبال وممراتها، وهى جبال يتراوح ارتفاعها ما بين ٢٥٨ مترا إلى ٧٤٨٥ مترا فوق مستوى سطح البحر..

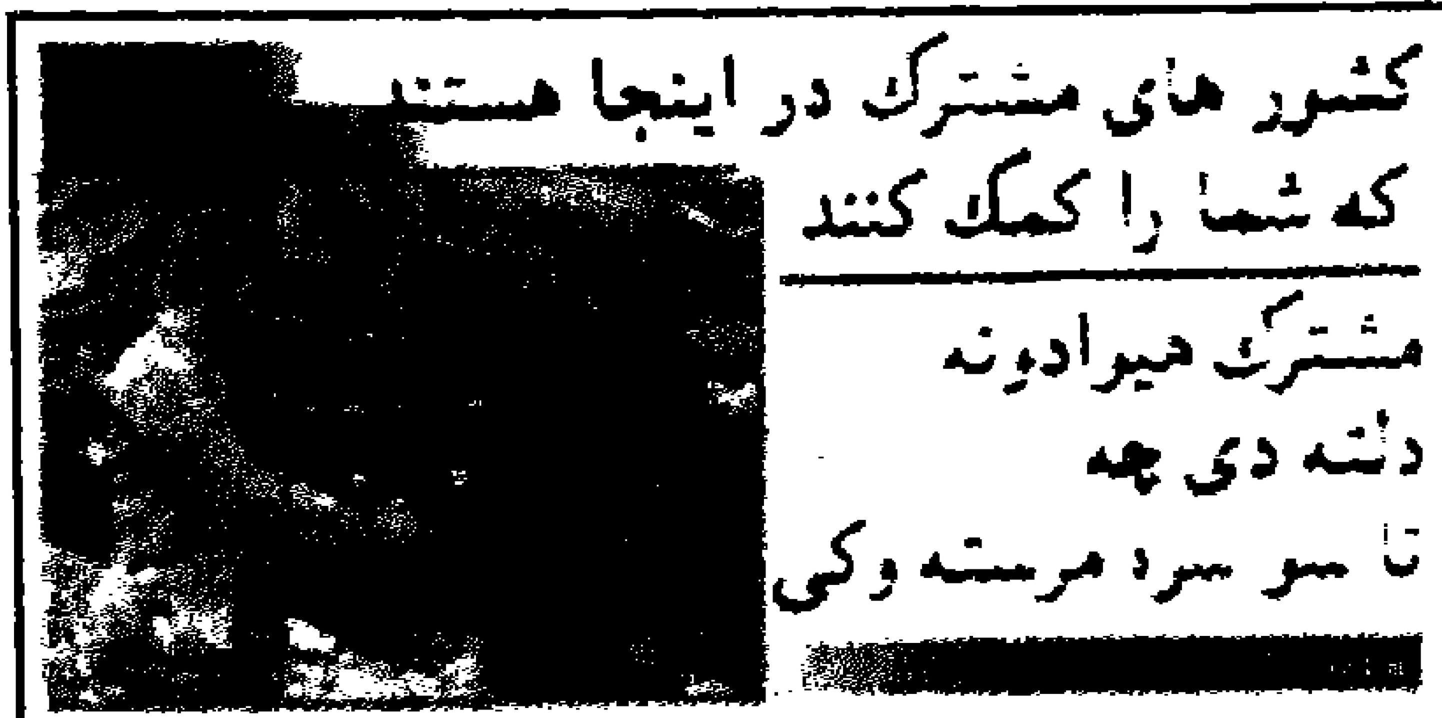
كانت أعداد الجنود الأمريكيين الذين قتلوا فى معارك سابقة حاضرة أيضا فى الأذهان.. وعلى صفحات الجرائد.. ٥٨ ألفا فى فيتنام.. ١٩ فى جرينادا و٢٣ فى بنما.. ١٤٨ فى حرب الخليج.. ٤٣ فى الصومال.. أما فى كوسوفو فقد خرجت الولايات المتحدة من المعركة بدون خسائر فى الأرواح لاعتمادها المطلق على القصف الجوى والصاروخى لمواقع الصرب.. وكم كان الأمريكيون يتمنون أن يتكرر ذلك فى أفغانستان.. لكن المشكلة كما قال رامسفيلد «أن الطائرات ليس فى مقدورها أن تتسلق الجبال للبحث عن أشخاص»..! وبما أن هذه الحرب نشبت أساسا من أجل القبض على شخص واحد اسمه أسامة بن لادن.. إذن لابد أن تذهب القوات الأمريكية الخاصة إلى هناك.. تتسلق الجبال وتدخل الكهوف للبحث عنه..

* * *

تهيئة الأرض فى أفغانستان لنزول القوات الأمريكية لم يكن يعنى فقط تكثيف الغارات الجوية لدك معاقل طالبان وإضعاف قوتها.. وإنما كان يعنى أيضا إضعاف التأييد الشعبى لها عن طريق تحسين صورة الولايات المتحدة فى نظر الأفغان واقناعهم بأن العمل العسكرى الذى تقوم به ليس موجها ضدهم، وإنما هو موجه ضد حركة طالبان وتنظيم القاعدة.. بقصد «المساهمة فى تحرير الأمة الأفغانية من براثنهم» كما جاء على لسان «دونالد رامسفيلد» فى مؤتمره الصحفى يوم ١٥ اكتوبر ٢٠٠١..!

الهدف من ذلك هو «تقليل احتمالات» قيام الأفغان بمهاجمة القوات الأمريكية عند نزولها..

ولتحقيق هذا الهدف بدأت الطائرات الأمريكية منذ يوم ١٤ اكتوبر فى إلقاء المنشورات فوق القرى والمدن الأفغانية التى كتبت بلغتى «البشتون» و«دارى» الأكثر استخداما فى أفغانستان والتى توضح أن الحرب ليست ضد الشعب الأفغانى.. وكانت تحمل صورة جندى أمريكى يصافح أفغانيا يرتدى العمامة.. وقد كتب تحت



احد المنشورات التى كانت تسقطها الطائرات الامريكية وتقول كلماته : قوات التحالف الدولى جاءت إلى افغانستان لمساعدتكم

الصورة عبارة: «المشاركة الدولية جاءت إلى هنا لمساعدتكم»..! كما كانت المنشورات تحث المواطنين الأفغان أيضا على الاستماع إلى الإذاعات الطائرة التى كانت تبثها الطائرات الأمريكية فى أجواء أفغانستان، وكانت تحمل أرقام الترددات التى تبث عليها هذه الإذاعات..

ترافق مع ذلك أيضا إلقاء وجبات غذائية.. قال رامسفيلد أنها بلغت ٢٧٥ ألف وجبة غذائية حتى نهاية الاسبوع الأول من الحرب.. ووصفها بأنها «توفر الغذاء الضرورى للأفغان وتنقل لهم رسالة صداقة من الشعب الأمريكى»..!!

هكذا كان يفكر قادة البنتاجون..!

وبهذا المنطق ـ اللامعقول ـ كانوا يعملون على تهيئة الأرض الأفغانية لإنزال قواتهم..!!

بل وصل بهم الأمر إلى درجة أنهم ألقوا منشورات تشرح للمقاتلين من طالبان الإجراءات التى ينبغى اتباعها عند الاستسلام للقوات الأمريكية.. كان المنشور ينصح المقاتل الذى سيسلم نفسه باتباع الآتى:

١- التقدم تجاه القوات الأمريكية ويداه مرفوعتان إلى أعلى..

٢- أن يضع المقاتل سلاحه خلف ظهره، وفوهة البندقية باتجاه الأرض، ويسحب خزينة السلاح من البندقية ثم يفرغ أية طلقات تكون بداخلها..!

اما بالنسبة للمدنيين.. فقد كانت المنشورات تنصحهم بالبقاء بعيدا عن المنشآت العسكرية والمبانى الحكومية والطرق والمصانع والكبارى، وعند وصول القوات الأمريكية فعليهم البقاء فى منازلهم ..

كانت المنشورات تسخر من مستوى تسليح قوات طالبان وقدراتهم الضعيفة أمام القوة الضاربة للقوات الأمريكية.. يقول أحد هذه المنشورات: «ماذا لديكم؟.. إن أسلحتكم لا تجارى ما لدى القوات الأمريكية.. فقنابلنا دقيقة للغاية وبإمكاننا أن



تجهيزات أحد جنود الكوماندوز الامريكيين
الذين فتك بهم جنود طالبان ليلة ٢٠ اكتوبر ٢٠٠١

نوجهها لأهدافها من خلال نوافذكم.. لديكم فرصة واحدة: الاستسلام... وسوف نمنحكم فرصة ثانية وندعكم تعيشون إذا استسلمتم»..

* * *

يوم الخميس ١٨ اكتوبر ٢٠٠١ قامت ٤ طائرات أمريكية من طراز «إيه. سي. ١٣» بإلقاء أطنان من هذه المنشورات فوق القرى والمدن الأفغانية..

ليلة السبت ٢٠ اكتوبر ٢٠٠١ حطت أربع طائرات هليكوبتر أمريكية بالقرب من مدينة «قندهار»..

لا أحد يعرف بالضبط عدد الجنود الذين كانت تحملهم هذه الطائرات..

فمصادر وزارة الدفاع الأمريكية قالت إن عددهم مائة.. لكن وسائل الإعلام الأمريكية ـ وفى مقدمتها محطة سى. بى. إس. نيوز ـ أكدت أن عددهم كان مائتين..

كلهم كانوا من قوات الرينجرز.. وهى قوات كوماندوز خاصة.. توصف بأنها الأعنف تدريبا والأشرس قتالا بين قوات الجيش الأمريكى..

كانت لهم مهمتان محددتان:

ـ الأولى: مهاجمة مجمع الملا محمد عمر فى قندهار.. الذى يعتبر مركز قيادة طالبان... وكان يتوقع أن يوجد الرجل بداخله..

ـ الثانية: مهاجمة مطار يوجد فى منطقة نائية جنوب غرب قندهار.. تستخدمه حركة طالبان..

المسافة بين المجمع والمطار حوالى ٩٠ كيلو مترا.. وتم اختيار المكانين كهدف لأول عملية إنزال برى أمريكية فى أفغانستان على أمل العثور على أسامة بن لادن أو الملا محمد عمر فى أى من المكانين..

هذا الأمل كان كبيرا جدا لدى قيادات البنتاجون لدرجة أنهم أرسلوا مع الجنود كاميرات فيديو لتصوير العملية لحظة بلحظة.. ليرى الشعب الأمريكى كيف جرت أول معركة مباشرة بين قواته وقوات طالبان وجها لوجه.. وكيف قام الكوماندوز الأمريكيون بإلقاء القبض على بن لادن والملا محمد عمر..!

وكانت الكاميرات متصلة بشاشة فيديو سرية يحملها معه الرئيس الأمريكى بوش.. حيث شاهد بالفعل هذه المعركة فى غرفته بأحد فنادق مدينة «شنغهاى» الصينية عندما كان يشارك فى قمة «أبيك» لدول آسيا والباسيفيك..

لكن ما شاهده بوش على الشاشة أصابه بالإحباط الشديد..!

فلم تكد الطائرات الأمريكية تهبط على الأرض ويخرج منها جنود الكوماندوز.. حتى وجدوا جنود طالبان بانتظارهم.. ودارت بين الجانبين معركة شرسة فوق جبل «بابا صاحب» القريب من مجمع الملا محمد عمر.. سقط فيها العديد من القتلى والجرحى من الجانبين، وتحطمت طائرتان أمريكيتان.. إحداهما فوق جبل «بابا صاحب».. والثانية فى اقليم «هيلمند»..

عقب انتهاء العملية أعلنت حكومة طالبان على لسان المتحدث باسمها «أمير خان متقى» وزير التربية والتعليم أنها رصدت القوة الأمريكية منذ بداية نزولها ليلة السبت فوق جبل «بابا صاحب».. حيث نقلت على أربع طائرات هليكوبتر.. وبمجرد هبوط الطائرات على الأرض توجهت إليها قوات طالبان واشتبكت معها من عدة اتجاهات حتى أجبرتها على الانسحاب دون أن تقع أية خسائر فى صفوف طالبان..

واكد متقى أن القوات الأمريكية لم تبق على الأرض سوى دقائق فقط ثم انسحبت على الفور تحت كثافة نيران طالبان.. وأنه تم إسقاط طائرتين من الطائرات الأربع وقتل حوالى ٢٥ من الجنود الأمريكيين.. وعندما سئل عن مكان جثث الجنود..

قال .. إنه عثر على بقع دماء فى مكان سقوط الطائرتين مما يرجح ان طائرات إنقاذ أمريكية قد أخلت الجثث.. وأضاف أن طائرات هليكوبتر أمريكية جاءت بعد ذلك وحاولت الهبوط فى المنطقة لالتقاط حطام الطائرتين.. لكن أطلقت عليها النيران ففرت هاربة..!

عبدالسلام ضعيف صرح فى «إسلام آباد» بأن هذا درس للأمريكيين يجب أن يتعلموه.. وقال إن القوات الأمريكية لن تعود إلى بلادها إذا دخلت أفغانستان.. وعلى الأمريكيين أن يبدأوا من الآن فى إعداد «أكياس البلاستيك» لاستلام جثث جنودهم، إذا فكروا مرة أخرى فى إرسالهم إلى أفغانستان..!

تصريحات الجانب الأمريكى جاءت متناقضة تماما مع تصريحات طالبان..!

فالجنرال «ريتشارد مايرز» رئيس هيئة الأركان المشتركة فى الجيش الأمريكى قال فى مؤتمره الصحفى اليومى يوم ٢٠ اكتوبر ٢٠٠١: إن العملية تمت بنجاح كامل ولم يحدث أى تدخل أو اشتباك من جانب قوات طالبان فى المنطقة..!.. بل وعرض «مايرز» لقطات فيديو لعملية إنزال القوات الأمريكية.. وقال إن هذه القوات اقتحمت مجمع الملا محمد عمر الذى وصفه بأنه مركز كبير وواسع للقيادة والتحكم ولكنها لم تعثر على أى من القادة البارزين أو أعضاء تنظيم القاعدة داخل المجمع وإنما عثرت على وثائق وأقراص كمبيوتر ومواد أخرى..

..وأضاف أنه تم سحب هذه القوات بعد بضع ساعات من إنزالها.. وأن وزارة الدفاع الأمريكية تخطط لشن المزيد من هذه العمليات..!

ونفى «مايرز» نفيا قاطعا ما أعلنته طالبان من أنها أسقطت مروحيتين أمريكيتين وقتلت ما بين ٢٠ و٢٥ جنديا أمريكيا.. وعلق على ذلك بأن طالبان «ربما تبحث عن أخبار مفرحة هذه الأيام»!.. كما وصف «رامسفيلد» تصريحات طالبان هذه بأنها «مجرد مزاعم كاذبة»..!.. ثم صدرت فى نفس اليوم تصريحات من وزارة الدفاع الأمريكية على لسان من سمى بـ«مسئول أمريكى رفيع المستوى» تقول إن مروحية أمريكية كانت فى مهمة مساندة وإغاثة لقوات الكوماندوز التى نزلت بأفغانستان قد سقطت داخل الأراضى الباكستانية مما أسفر عن مصرع اثنين من العسكريين وإصابة ثالث ونجاة قائد الطائرة ومساعده اللذين قفزا منها بسلام.. ونفى هذا المسئول أن تكون الطائرة قد سقطت بواسطة صواريخ أطلقتها حركة طالبان..!

طالبان ردت على ذلك بدعوة مصورى التليفزيون ووكالات الأنباء العالمية لتصوير حطام الطائرتين فوق الأراضى الأفغانية.. وأذاعت قناة «الجزيرة» صورا لأجزاء من حطام الطائرة التى تحطمت فى إقليم هيلمند.. وظهر فى ا لصور معدات الإنزال والعجلات وأجزاء من كابينة القيادة وحاوية كبيرة كتب عليها «بوينج» و«فيلادلفيا» و«بنسلفانيا».. كما بثت وكالة الأنباء الفرنسية صورا لحطام الطائرتين يوم ٢٢ اكتوبر ٢٠٠١ ونشرت بالصحف فى اليوم التالى ـ جريدة الجمهورية ص ٣ عدد ٢٣

اكتوبر ٢٠٠١ ... ثم قامت طالبان بنقل أجزاء من هذا الحطام وعلقتها فى ميدان «المرور» بمدينة «كابل» ليراها سكان العاصمة.. حيث لم تتح لهم فرصة مشاهداتها على شاشات التليفزيون لأنه ممنوع استخدامه بأمر طالبان..!



اثنان من اولاد اسامة بن لادن يعبثان باجزاء من حطام طائرة امريكية اسقطها مقاتلو طالبان داخل افغانستان

وقد سبب نشر هذه الصور حرجا بالغا للعسكريين الأمريكيين وأكسب تصريحات مسئولى طالبان المصداقية..

وبالقياس على ذلك لا يمكن بالطبع أن نثق فيما ذكره «ريتشارد مايرز» فى مؤتمره الصحفى من أن القوات الأمريكية قد اقتحمت مجمع الملا محمد عمر.. لاسيما أنه لا يوجد أى دليل على ذلك، ولم تعلن وزارة الدفاع الأمريكية عن فحوى الوثائق وأقراص الكمبيوتر التى قالت إن قواته عثرت عليها بداخل المجمع..

أما بالنسبة للقطات الفيديو التى عرضها «مايرز» وقال إنها تصور عملية إنزال القوات الأمريكية فى أفغانستان.. فيمكن فهمها فى إطار أنها صورت قبل بدء الاشتباك بين قوات طالبان والقوات الأمريكية.. وهى فترة زمنية يمكن أن تختلف باختلاف الموقع والوقت الذى هبطت فيه كل طائرة من الطائرات الأمريكية الأربع.. لأنه ليس هناك ما يبين أنها جميعا هبطت فى لحظة واحدة وفى مكان واحد..!

والخلاصة.. ان أول عملية إنزال برى قامت بها القوات الأمريكية فى أفغانستان قد فشلت فشلا ذريعا بكل المقاييس.

يتضح ذلك لنا أيضا من التصريحات التى أدلى بها الرئيس بوش فى «شنغهاى» عقب مشاهدته لتطورات العملية أولا بأول على شاشة الفيديو السرى الذى يحمله معه.. والتى قال فيها إن على الأمريكيين أن يدركوا أن النضال ضد -ما أسماه- «الارهاب» سوف يستغرق وقتا طويلا، وأن المعركة سوف تفرض عليهم «لحظات من التضحيات»..!

كما يتضح من سياسة «التعتيم الإعلامى» التى اتبعها البنتاجون بشأن نتائج هذه العملية .. حيث لم يعلن أبدا عن عدد الجنود الأمريكيين الذين قتلوا فيها،

ولا عدد الذين أصيبوا.. حتى نشرت مجلة «نيويوركر» الأمريكية معلومات تقول إن ١٢جنديا أمريكيا من الوحدة الخاصة السرية جدا التى يطلق عليها «دلتا فورس» قد أصيبوا بجروح أثناء اشتراكهم فى عملية إنزال برى فى أفغانستان تمت يوم ٢٠أكتوبر ٢٠٠١، وأن ثلاثة منهم حالتهم خطرة..! فاضطر «دونالد رامسفيلد» فى مؤتمر صحفى إلى التعليق على هذه المعلومات.. حيث اعترف لأول مرة بأن «٣١جنديا من القوات الخاصة الأمريكية قد أصيبوا بجروح طفيفة من جراء حوادث خلال عملية قاموا بها فى ٢٠ أكتوبر الماضى جنوبى أفغانستان.. وقد تسببوا هم فى إصابة أنفسهم بهذه الجروح.. حيث استخدموا متفجرات فى الدخول الى بعض الأماكن مما أدى إلى تطاير بعض قطع الأسمنت وإصابتهم بها» ! وقد جاء اعتراف رامسفيلد بعد مرور ١٨ يوما على وقوع العملية..

أما عدد الجنود الأمريكيين الذين قتلوا بنيران طالبان.. فلم يصدر أى اعتراف من البنتاجون بعددهم.. باستثناء ما ذكر عن مصرع اثنين منهم فى تحطم مروحية أمريكية فوق الأراضى الباكستانية كانت مشتركة فى هذه العملية.. وهى رواية مشكوك فى صحتها تماما بعد أن شاهد سكان العالم على شاشات التليفزيون صور حطام الطائرتين الأمريكيتين فوق الأراضى الأفغانية.. إلا إذا كانت الطائرة التى قيل أنها تحطمت فوق الأراضى الباكستانية هى ثالث طائرة أمريكية تتحطم فى عملية ٢٠ أكتوبر!

كما أن الجانب الأفغانى نفسه لم يستطع أن يقدم معلومات مؤكدة عن عدد القتلى الأمريكيين.. لأنه كما يبدو تم رفع جثثهم بواسطة زملائهم قبل أن يغادروا موقع المعركة.. كما قال «أمير خان متقى» المتحدث باسم حكومة طالبان.. وهو أمر منطقى يمكن فهمه فى إطار أن الخطة الأمريكية للعملية كانت تتضمن ذلك.. حتى لاتترك الفرصة لجنود طالبان للتمثيل بجثث الكوماندوز الأمريكيين أمام عدسات التليفزيون، لما يمكن أن يسببه ذلك من صدمة فى الشارع الأمريكى!

* * *

وقد أدى فشل عملية ٢٠ أكتوبر إلى اختلاف «لغة الخطاب» التى بدأ يتحدث بها العسكريون الأمريكيون عن «اللغة» التى كانوا يتحدثون بها من قبل..

فبعد أن كانوا يتحدثون عن: «عمل جديد ليس بمقدور طالبان توقعه أو الهروب منه».. وعن: «قنابل ذكية تدخل من النوافذ لتصل إلى أهدافها».. نجد رئيس هيئة الأركان المشتركة فى الجيش الأمريكى «الجنرال ريتشارد مايرز» فى المؤتمر الصحفى المشترك مع وزير الدفاع «دونالد رامسفيلد» يوم ٢٢ أكتوبر ٢٠٠١ يقول: «هذه حرب صعبة..! أحيانا العدو فى أماكن واضحة.. وأحيانا فى أماكن متخفية عنا.. إنها حرب واسعة جدا ومختلفة تماما عن حرب الخليج.. إنها أشبه بحرب المخدرات..!» أما رامسفيلد فقال: «فى الواقع أنا مشغول جدا بعملية تسريب المعلومات الخاصة

بدخول قواتنا البرية أفغانستان يوم الجمعة الماضى.. إن من تثبت مسئوليته عن تسريب هذه المعلومات سيعاقب».

فى هذا المؤتمر الصحفى أيضا أكد رامسفيلد أن عمليات القصف الأمريكى لأفغانستان ستستمر خلال شهر رمضان..

هكذا كان واضحا فى هذا المؤتمر الصحفى الذى عقد قبل بداية شهر رمضان بـ ٢٤ يوما.. أن الأمريكيين غير واثقين من إمكانية تحقيقهم انتصارا على طالبان خلال هذه المدة..!

مما يعنى أنهم قد أدركوا أن طالبان مازالت لديها القدرة على الصمود والمقاومة.. رغم عمليات القصف المتواصل التى تتعرض لها بلادهم بالليل والنهار.. والتى بلغ حجم الذخيرة التى ألقيت عليهم فيها خلال أول أسبوعين فقط من الحرب ٧ آلاف طن، كما جاء على لسان «مايرز» فى المؤتمر الصحفى.

وعندما سأله أحد الصحفيين عن عدد المدنيين الأفغان الذين لقوا حتفهم بسبب هذه الذخيرة.. رد «مايرز» بقوله إن هذا الرقم لايمثل بالنسبة له أى أهمية.. لأن هناك رقما آخر يفكر فيه دائما وهو السبعة آلاف أمريكى الذين لقوا حتفهم يوم ١١ سبتمبر..!

* * *

فشل العملية الأمريكية.. فتح الباب أمام الجنرالات الروس لتوجيه سيل من النصائح والتحذيرات إلى الجنرالات الأمريكيين ..!

- الجنرال «برديس جروموف» حاكم مقاطعة موسكو حذر الأمريكيين من أن تحقيق الانتصار على الشعب الأفغانى مسألة مستحيلة.. وقال إن محاربة الأفغان مسألة شاقة وصعبة للغاية لأسباب عديدة جغرافية ووطنية ودينية.

- الجنرال «يفجينى زينوف» النائب بالبرلمان الروسى والقائد السابق لسلاح الجو الروسى فى أفغانستان نصح واشنطن بشدة بعدم التورط فى حرب الجبال غير المضمونة.. ووجه نداءً حارا للأمريكيين.. قال فيه: «لاتضعوا أقدامكم فوق أرض أفغانستان على الإطلاق»..!

- الجنرال «أرسلانى أوسييف» القائد السابق لإحدى المدرعات السوفيتية فى أفغانستان.. قال إنه يمكن للأمريكيين قتل جميع السكان وتدمير القرى والمدن.. لكنها لن تصل إلى أسامة بن لادن أو الملا محمد عمر..

- الجنرال المتقاعد «الكسندر رأفيسكوس» حذر الأمريكيين من أنهم سيواجهون حربا طويلة فى أفغانستان قد تمتد عقودا من الزمن.. إلا إذا شنوا حرباً مدمرة تقضى على الشعب بأكمله..

هذه التحذيرات التى وصلت إلى الأمريكيين عبر وسائل الإعلام أصابتهم بالإحباط الشديد والخوف من تكرار ما حدث لهم فى فيتنام..!

في نفس الوقت كانوا يدركون أن عمليات القصف الجوى وحدها.. مهما بلغت شدتها.. لن تحقق لهم نصرا على طالبان.. وأنه لابد من المعارك البرية..

لذلك اتخذوا في هذه الفترة خطوتين:

- الأولى: دعم قوات التحالف الشمالى ومساعدتها على الاتجاه جنوبا.. وهى الخطوة التى ظلت الولايات المتحدة الأمريكية مترددة فى اتخاذها طوال الفترة الأولى من الحرب. حتى بدأت لأول مرة يوم ٢٢ أكتوبر ٢٠٠١ فى قصف الخطوط الأمامية لطالبان بهدف فتح الطريق أمام قوات التحالف الشمالى للتقدم.. وحتى تنشغل طالبان بالتصدى لهم.. فيهجم الأمريكيون من الجنوب.. كان هذا هو السيناريو.. لكنه لم ينجح فى تلك الفترة لسببين: الأول.. بسالة قوات طالبان فى المقاومة الى درجة أنهم استطاعوا فى احدى هذه المواجهات ضم أراض كانت تابعة للتحالف الشمالى إلى سيطرتهم.. والثانى.. هو عدم معرفة العسكريين الأمريكيين بدقة.. المواقع التى توجد فيها قوات طالبان على الخطوط الأمامية.. وبالتالى فشلوا فى إلحاق أضرار كبيرة بها.. بل إنهم أحيانا ما كانوا يقصفون عن طريق الخطأ قوات التحالف الشمالى كما حدث يوم ٢٢ أكتوبر ٢٠٠١.. عندما ألقت مقاتلتان أمريكيتان من طراز «إف - ١٦» ثلاث قنابل.. واحدة فقط منها التى أسقطت بالقرب من موقع لطالبان غرب قاعدة «باجرام» الجوية على مسافة ٤٥ كم شمال كابول.. بينما سقطت الاثنتان الأخريان فوق مواقع لقوات التحالف الشمالى فدمرتهما بالكامل.. مما جعل القادة المحليين للتحالف الشمالى فى هذه المنطقة يشعرون بالذعر، ويطلبون من المراسلين الأجانب الاتصال بالجانب الأمريكى عن طريق تليفونات «الموبايل» التى يحملونها لإبلاغ الأمريكيين بأنهم يقصفون مواقع القوات الصديقة..!

- أما الخطوة الثانية التى اتخذها الأمريكيون بعد فشل عملية ٢٠ أكتوبر.. فهى أنهم طلبوا سرا من بريطانيا إرسال وحدات من القوات البريطانية الخاصة «إس. إيه. إس» الشهيرة لمساعدتهم فى المواجهات البرية مع طالبان.. وقد وافقت بريطانيا.. وتسرب الخبر إلى الصحف البريطانية.. فوصفت صحيفة «صنداى تليجراف» الطلب الأمريكى بأنه «يدل على تزايد الإحباط فى وزارة الدفاع الأمريكية بسبب عدم تمكنها من العثور على بن لادن» ..

ثم بدأ الأمريكيون بعد ذلك تكثيف غاراتهم بشدة فوق أفغانستان، واستخدام قذائف ذات قوة تدميرية شديدة.. منها قنابل تصل زنة الواحدة منها إلى سبعة أطنان.. على أمل تدمير معاقل طالبان وكسر قوتهم.. حتى يمكن تهيئة الأرض لنزول الكوماندوز الأمريكيين مرة أخرى.. بعد أن أثبتت عملية ٢٠ أكتوبر أن أرض أفغانستان مازالت غير ممهدة لاستقبال الأمريكيين..!

* * *

الفصل الثالث عشر

• إعدام عبدالحق..

«كان يمكن لقائد القوات الأمريكية.. أن يرسل مجموعة من المظليين لإنقاذ عبدالحق.. لكنه تركه ولم يحاول أن ينقذه..!»

□ *بعد فشل عملية ٢٠ أكتوبر بيوم واحد..*
وقبل انعقاد مؤتمر بيشاور بثلاثة أيام..
أرسلت الولايات المتحدة الأمريكية اثنين من الأفغان البشتون إلى داخل أفغانستان في مهمة سرية تهدف إلى تأليب القبائل الموالية لطالبان وشق صفوف الحركة للانقلاب عليها من الداخل..

الإثنان هما: «عبدالحق» أحد أبرز قادة المجاهدين فى الحرب ضد السوفييت فى الثمانينيات.. و«حامد قرضاى» أحد زعماء البشتون المعروفين..

تسللا إلى أفغانستان ليلا من مكانين مختلفين بالدواب عبر الممرات الجبلية الوعرة..

الأول حاصرته طالبان ثم قبضت عليه وأعدمته.. والثانى فر عائدا إلى باكستان، وبعد عدة أسابيع تم اختياره رئيسا لأول حكومة انتقالية بعد طالبان..!

القصة بدأت عندما فقدت الولايات المتحدة الأمل فى امكانية تغيير الواقع على أرض أفغانستان.. سواء من الجو أو عن طريق عمليات الكوماندوز.. وبالتالى كان لابد لها من تحرك آخر.

فى ذلك الوقت كانت حركة طالبان لاتزال متماسكة ومسيطرة تماما على المناطق التابعة لها.. وكانت الولايات المتحدة تقصف بكل قوة، بمعدل يصل إلى حوالى ٥٠٠ طن يوميا من القنابل والصواريخ دون أى تقدم يذكر.. حتى محاولات قوات التحالف الشمالى اختراق خطوط الجبهة الأمامية لطالبان باءت كلها بالفشل.. ووصل الأمر الى درجة اعتراف «دونالد رامسفيلد» وزير الدفاع الأمريكى بصعوبة المعركة وتشبيهه البحث عن بن لادن فى أفغانستان بالبحث عن إبرة فى كومة كبيرة من القش.. نفس المعنى أيضا عبر عنه «جين هون» وزير الدفاع البريطانى بكلمات أخرى.. قال فى حديث لتليفزيون «بى. بى. سى»: «إن القوات الأمريكية والبريطانية لاتعرف حتى الآن مكان اختباء بن لادن.. ومن المستحيل وضع جدول زمنى للقضاء على حركة طالبان وتنظيم القاعدة، لأنهما يمكن أن يستمرا فى المقاومة حتى العام القادم»..!

هذه الحالة من «اليأس» من إمكانية القضاء على طالبان عن طريق القصف الجوى مهما كانت شدته.

والخوف من دفع قوات برية جديدة إلى أرض المعركة فتلقى حتفها مرة أخرى على أيدى قوات طالبان، مما يشكل انتكاسة كبيرة للقوات الأمريكية والبريطانية..

بالإضافة إلى القلق الدولى الذى بدأ يتزايد فى تلك الفترة بسبب مئات المدنيين الأفغان الذين كانوا يلقون حتفهم كل يوم .. بينما الهدف الحقيقى للعمليات العسكرية، وهو قوات طالبان والقاعدة وأسامة بن لادن والملا محمد عمر.. جميعهم بخير..!

كل ذلك دفع الأمريكيين إلى البحث عن طريقة أخرى للقضاء على طالبان.. فهداهم تفكيرهم إلى أن أفضل طريقة هى شق الحركة من الداخل إلى فصيلين، ثم مساعدة أحدهما للقضاء على الآخر..

لهذا السبب روج الأمريكيون فى البداية لفكرة وجود «معتدلين» و«متشددين» داخل الحركة.. وأن المعتدلين يمكن أن يشاركوا فى الحكومة الجديدة.. ثم بدأنا ونحن فى إسلام آباد نسمع شائعات عن زيارات سرية يقوم بها إلى العاصمة الباكستانية وكيل أحمد متوكل وزير الخارجية فى حكومة طالبان.. باعتباره يمثل الفصيل المعتدل فى الحركة.. وأن هناك مفاوضات سرية تجرى مع الرجل لتدبير انقلاب على الملا محمد عمر..

لكن بقدر ما كانت هذه الشائعات قوية جداً.. بقدر ما كان نفيها أيضاً قوياً وجازماً.. سواء على ألسنة مسئولى طالبان أو المسئولين فى الحكومة الباكستانية.

والنتيجة هى أن محاولات الولايات المتحدة - بمساعدة الباكستانيين طبعاً - استقطاب فصيل من طالبان للانقلاب على الحركة من الداخل فشلت!

فكان لابد من البحث عن طريقة جديدة..

هذه الطريقة تمثلت فى اللجوء إلى زعماء أفغان من خارج الحركة.. ينتمون إلى البشتون ليكونوا قادرين على جمع قادة القبائل الأفغانية حولهم.. وبذلك تنشأ قوة موازية لحركة طالبان داخل أفغانستان.. تخصم من الرصيد الشعبى للحركة وتصبح مناوئة لها على نفس الأرض التى تقف عليها..

فإذا ما عملت هذه القوة مع قوات التحالف الشمالى على الأرض تحت غطاء جوى أمريكى.. يمكنها بسهولة الإطاحة بطالبان..!

كان هذا هو السيناريو المطلوب تنفيذه..

والذى من أجله تسلل كل من «عبدالحق» و«حامد قرضاى» ليلاً إلى داخل أفغانستان.. طمعاً فى سلطة لم ينلهم نصيب منها أثناء حكم طالبان.

* * *

السيرة الذاتية لـ «عبدالحق» تقول إنه ولد عام ١٩٥٨ لأسرة ذات نفوذ تنتمى لإحدى قبائل البشتون التى تسكن شرق أفغانستان.. وفى عام ١٩٧٧ بدأ طريقه كثائر ضد الشيوعيين فى بلاده.. وعندما وقع الغزو السوفييتى لأفغانستان بعد عامين تحول الثائر إلى مقاتل شرس.. ثم لمع اسمه كأحد أبطال المقاومة ضد السوفييت، خاصة بعد أن تلقى تدريباً فى بريطانيا على نظم استخدام الأسلحة المتطورة.. فاشتهر عبدالحق بهجماته الصاروخية على مخازن الأسلحة والوقود التى كان يملكها الجيش السوفييتى فى أفغانستان، ونسفه خطوط ومحطات الطاقة الكهربائية مما كان يجعل كابول تعيش فى ظلام دامس..

وقد عرف عبدالحق فترة الحرب ضد السوفييت بأنه «رجل أمريكا وبريطانيا».. وكان محبوباً لدى البريطانيين إلى درجة أن مارجريت تاتشر رئيسة الحكومة البريطانية دعته إلى زيارتها عام ١٩٨٦..

.. لكنه لم يحظ بنفس القدر من الإعجاب لدى الأمريكيين - كما تقول صحيفة صنداى تايمز - بسبب ميله للشهرة وشغفه بها، حتى أن أحد المسئولين الأمريكيين السابقين وصفه ذات يوم بأنه «عبدالحق هوليوود»..!

رغم بطولاته فى الحرب فقد ألقى السلاح عام ١٩٨٩ بمجرد جلاء القوات السوفيتية عن أفغانستان، ولم يشارك فى الاقتتال بين فصائل المجاهدين . . مما جعله يحظى باحترام واسع وسمعة طيبة بين مختلف الأفغان..

وكان فى عام ١٩٩٢ بعد سقوط العاصمة كابول فى أيدى المجاهدين قد عين رئيسا للشرطة فى كابول، لكنه لم يستمر فى هذا المنصب سوى أشهر قليلة فقط.. بعد ذلك غادر إلى بيشاور واستقر بها عدة سنوات عمل خلالها بالتجارة..

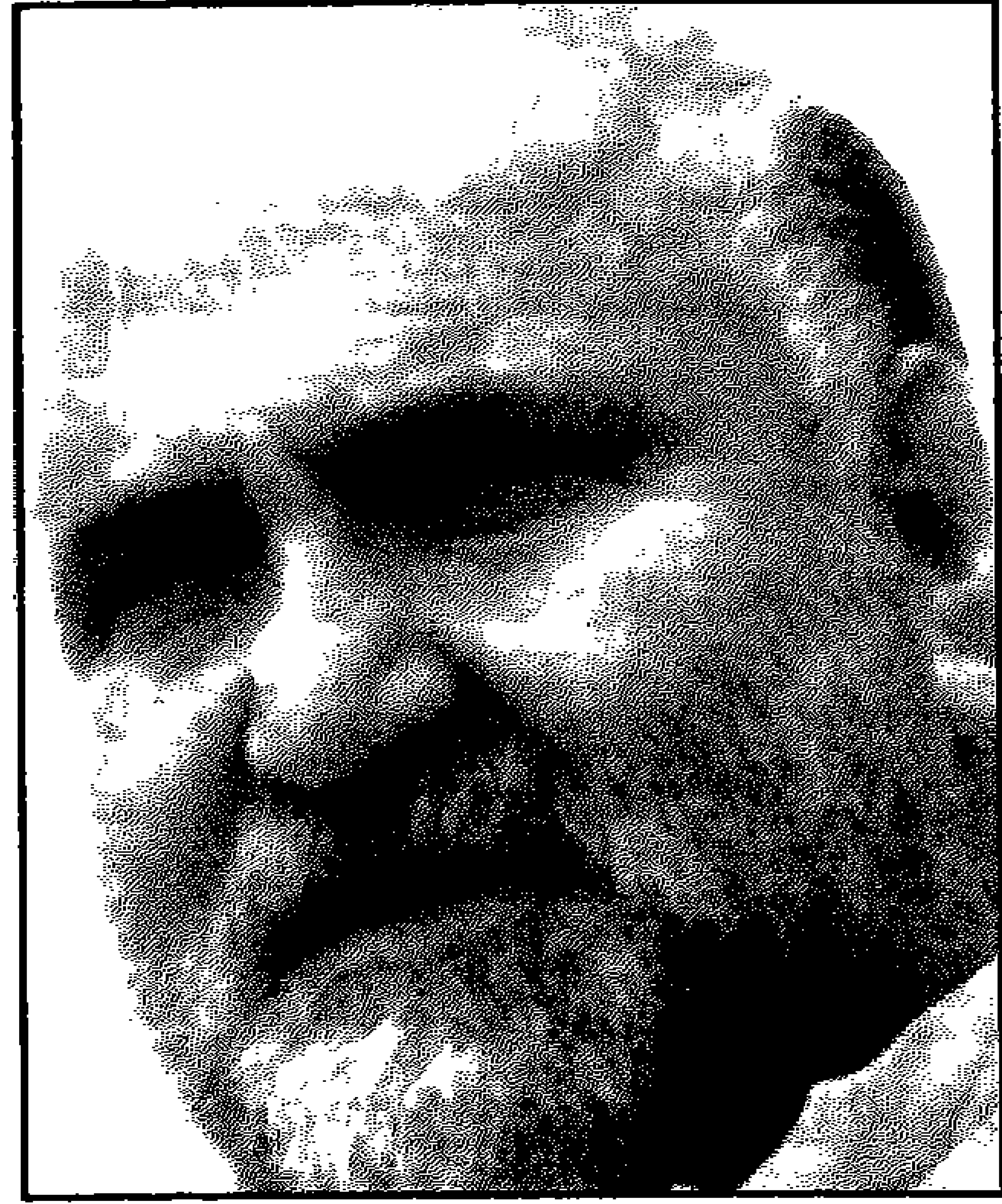
.. وقال عن تلك الفترة فى لقاء مع مراسل «رويترز»:

«لم يكن هناك شىء أستطيع عمله.. كما أننى لا أستطيع أن أشارك فى قتل شعبى، لذا خرجت».. ووصف الوضع السياسى فى كابول بقوله: «كان الأمر يبدو كما لو أن هناك عشرة وزراء للدفاع وعشرة وزراء للخارجية، لكل منهم مؤيدون فى الخارج ويريد كل منهم أن يصبح الزعيم»!

.. وعندما سأله المراسل لماذا لم يفكر هو أيضاً فى أن يصبح زعيماً.. قال: «بأمانة لدينا عدد كبير من الأذكياء فى هذا البلد الذين يمكنهم القيام بهذه المهمة أفضل منى.. إننى مريض وضقت ذرعاً بهذه الألعاب»..

لم يكن عبدالحق يشكو من مرض عضوى بسبب إصابته بفيروس أو ميكروب.. ولكنه فقد إحدى ساقيه نتيجة انفجار لغم أرضى به أثناء اشتراكه فى الحرب ضد السوفييت.

غير أن اتجاه الرجل إلى التجارة واستقراره فى بيشاور بعيداً عن صراعات الفصائل الأفغانية لم يوفر له الأمن.. حيث تعرض منزله لهجوم عام ١٩٩٩ قتلت فيه



عبدالحق



.. مع مارجريت تاتشر

زوجته وابنه البالغ من العمر ١١ عاماً وحارسه ، بينما كان عبدالحق خارج المنزل.

هذا الحادث المأساوى.. جعل عبدالحق لا يطيق البقاء فى بيشاور، فرحل عنها إلى مدينة «دبى» بالإمارات العربية المتحدة واستقر بها..

وعندما وقعت هجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١، وبدأت الولايات المتحدة الأمريكية تخطط للقضاء على طالبان واحلال نظام بديل لها فى أفغانستان .. تذكر رجال المخابرات الأمريكية عبدالحق.. فأعادوا الاتصال به بوصفه رجلهم القديم الذى يحظى باحترام الأفغان وله تاريخ مشرف فى الحرب ضد السوفييت..

كان الاعتقاد الأمريكى أنه الرجل المناسب الذى يمكنهم الاعتماد عليه فى تنفيذ السيناريو الذى وضعوه لتأليب القبائل الأفغانية ضد طالبان لإسقاطها من الداخل.. وكانت «الجزرة» المقدمة له هى منصب رئيس الحكومة الجديدة فى ظل نظام ملكى على رأسه الملك السابق محمد ظاهر شاه..

جاء الاتصال الأمريكى بعبد الحق فى وقت كان فيه الرجل مازال غاضباً وناقماً على طالبان، لاعتقاده أنها وراء اغتيال زوجته وابنه وحارسه..

كان أيضاً متطلعاً إلى شهرة يحبها.. وسلطة لم ينل منها حظاً يعادل ما قدمه من تضحيات أثناء الحرب ضد السوفييت، ، ظل يدفع ثمنها فى كل خطوة يخطوها منذ بترت إحدى ساقيه..!

وكان الرجل واثقاً من أن المخابرات الأمريكية قادرة على تأمين مهمته.. وحمايته.. والدفاع عنه عند الخطر..

* * *

فى هذه الأجواء بدأ عبدالحق يعد لرحلته إلى داخل أفغانستان..

كانت الخطوة الأولى هى العودة من دبى إلى بيشاور بعد حوالى أسبوعين من وقوع هجمات ١١ سبتمبر.. يومها قال لأصدقائه القدامى الذين استقبلوه إنه يريد أن يكون له دور فى حكومة ما بعد طالبان.. ثم أصبح بيته الريفى المترف فى إحدى ضواحى المدينة ملتقى معارضى طالبان الذين يعيشون فى المنفى..

فى هذه الفترة التقى عبدالحق بوفد من ثلاثة أعضاء من طرف الملك ظاهر شاه.. وأعرب بعد اللقاء عن إعتقاده بأن الملك يمكن أن يكون القوة الموحدة الرئيسية لمختلف طوائف الأفغان، لكنه تمسك بأن يتم تشكيل الحكومة الجديدة بواسطة الأفغان أنفسهم..

يوم الأحد ٢١ اكتوبر ٢٠٠١.. غادر عبدالحق مع سبعة من رفاقه بيشاور فى طريقهم إلى أفغانستان.. فى البداية توجه إلى منطقة تسمى «باراتشينار» للتزود بالسلاح، ثم سلك طريق المهربين عبر الجبال الذى كان يعرفه جيداً وسلكه من قبل عدة مرات أثناء الحرب ضد السوفييت..

قال الأشخاص الذين شاهدوه أنه لم يكن خائفاً ولم يضف سرية كبيرة على مهمته التى دخل أفغانستان من أجلها.. وكان من بين الذين معه ابن اخيه البالغ من العمر ٢٣ عاماً واسمه «عزة الله».. وهو خريج الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة بالسعودية.. كان هذا الشاب له منزلة خاصة لدى عمه عبدالحق، فما كان ليعرضه لخطر على علم به..

اتخذ عبدالحق وجهته الأولى إلى مسقط رأسه فى أفغانستان.. قرية اسمها «الهزرك» تقع فى إقليم ننجرهار بالقرب من جلال آباد.. وهناك نزل ورفاقه السبعة بمنزل شقيقه، ثم بدأ فى الاتصال.. ببعض معارفه القدامى، ونجح فى ضم عدد منهم إليه.. لكن لم يمض على ذلك وقت طويل حتى علمت طالبان بالمهمة التى جاء عبدالحق من أجلها.. فبدأت يوم ٢٣ اكتوبر ٢٠٠١ فرض حصار حول المنطقة التى يوجد بها..

البعض يقول إن طالبان علمت بوجوده من زعماء القبائل المحلية الذين أغروه بوعود كاذبة بانشقاق وشيك وفى نفس الوقت أبلغوا طالبان بمكان وجوده.. لكن البعض الآخر يعتقد - كما جاء فى صحيفة «صنداى تايمز» - أن بعض العناصر المؤيدة لطالبان فى جهاز المخابرات الباكستانية قد سربت إليها الخبر..!

الثانية صباح الجمعة ٢٦ اكتوبر ٢٠٠١.. كان عبدالحق مع ١٥ من رجاله فى قافلة مؤلفة من ثلاث سيارات تسير على إحدى الطرق بمنطقة «لوجار» الواقعة جنوب شرق كابول عندما اعترضهم مقاتلو طالبان وتم تبادل لإطلاق النار.. فى هذه الأثناء أجرى عبدالحق سلسلة من المكالمات الهاتفية يطلب المساعدة عبر هاتفه المحمول ماركة «الثريا»الذى يعمل بواسطة الأقمار الصناعية.. قال لمحدثه فى باكستان «إننى

محاصر على طريق جبلى وهناك قوات لطالبان أمامى وأخرى من خلفى، فهل يمكنك القيام بشىء ما؟»..

بالطبع كان يمكن لقائد القوات الأمريكية فى هذه الحرب أن يرسل مجموعة من المظليين لإنقاذ عبدالحق.. لكنه تركه ولم يحاول أن ينقذه..!

فاضطر عبدالحق إلى الاتصال بشقيقه فى بيشاور يطلب منه المساعدة.. فاتصل الشقيق بصديق أمريكى قديم لعبدالحق اسمه «جيمس ريتشى» الذى قام بنقل المكالمة إلى «روبرت ماكفرلين» وهو مستشار سابق للأمن القومى فى عهد الرئيس ريجان ويعرف عبدالحق منذ أيام حرب المقاومة ضد السوفييت فى الثمانينيات..

«ماكفرلين» اتصل بجهاز المخابرات الأمريكية وحثهم على ضرورة عمل شىء لإنقاذ عبدالحق..

لكن البنتاجون لم يكن مستعداً لتعريض أحد من جنوده لأية مخاطر محتملة فى سبيل إنقاذ عبدالحق.. فقرر فى وقت متأخر إرسال طائرة بدون طيار من نوع «بريديتور» مزودة بصواريخ مضادة للدبابات.

الطائرة وصلت إلى المنطقة فى حوالى الساعة الرابعة صباحاً وقذفت صواريخها مما أدى إلى مقتل جنديين من طالبان وتدمير شاحنة صغيرة.

بعد وقت قصير تم الاتصال بشقيق عبدالحق فى بيشاور من أحد هاتفين كانا مع عبدالحق.. وكان رجال طالبان على الخط.. فقد تم إلقاء القبض على عبدالحق ورفاقه..!

* * *

ما حدث بين الساعتين الثانية والرابعة فى تلك الليلة كان شيئاً مروعاً بالنسبة لعبدالحق.. لقد كان الرجل يأمل أن يتحرك الأمريكيون أسرع من ذلك لإنقاذه بواسطة المروحيات أو توفير الحماية له على الأقل بسد من النيران.. لكنهم خذلوه.. وعندما يأس منهم حاول الهروب من الموقع المحاصر فيه على صهوة جواد.. لكن مقاتلى طالبان أمسكوا به..

شقيق عبدالحق فى بيشاور.. واسمه «سيد حاجى دين محمد» أدلى برواية لوسائل الإعلام عن ماجرى لحظة القبض على عبدالحق نقلاً عن شاهد عيان أبلغه بها عبر الهاتف.. قال: «عندما ألقى القبض عليه.. وضع مقاتلو طالبان (الكلاشينكوف) على رأسه.. فسألهم لماذا تفعلون ذلك وقد أتيت للحديث معكم وليس لقتالكم..؟ ثم أمر مرافقيه بألا يشتبكوا مع مقاتلى طالبان.. وقال لهم: لقد أتينا للتفاوض وليس للقتال.. وإذا كنتم تعتبرون أن دخولنا بلدنا جريمة فأنا المسئول عنها ولا ذنب لمن معى لتأخذوهم بجريرتى.. فأنا الذى اصطحبتهم إلى هنا»..!

لكن الموقف بالطبع لم يكن فيه مجال لتبادل الحوار أو التفاهم.. لذلك قام مقاتلو طالبان بمصادرة ما لدى عبدالحق ومرافقيه من أسلحة وسيارات وهواتف وأموال ثم اصطحبوهم إلى مدينة كابول..

الساعة الواحدة تماماً عقب أداء صلاة الجمعة يوم ٢٦ اكتوبر ٢٠٠١.. تم إعدام عبدالحق مع اثنين من رفاقه، هما «عزة الله» ابن شقيقه.. و«حاجى داوران» الذى كان وزيراً فى أول حكومة للمجاهدين شكلت عام ١٩٩٢.. وذلك بعد تسع ساعات فقط من إلقاء القبض عليهم.

عملية الإعدام تمت أمام باب مسجد فى إحدى ضواحى كابول دون إجراء أية محاكمة.. ولكن بناء على فتوى سابقة أصدرها مجلس علماء الأفغان تقول إن أى شخص يتعاون أو يتجسس لصالح الولايات المتحدة الأمريكية أو بريطانيا لابد أن يعدم..

«محمد طيب أغا» المتحدث باسم طالبان قال إن «القائد العظيم الملا محمد عمر صدّق على الفتوى وأمر بتنفيذها فوراً.. لأن عبدالحق كان خائناً وعميلاً للأمريكيين والبريطانيين الذين تحالفوا معاً فى العدوان ضد أفغانستان»[٥٧] .

«قارى أحمد الله واثق» رئيس جهاز مخابرات طالبان قال إنه ضبطت مع عبدالحق عند القبض عليه كمية كبيرة من الدولارات كان يخطط لتوزيعها على شيوخ القبائل لاستمالتهم إليه ضد نظام طالبان.. كما ضبطت معه ٤ آلاف راية وعلم مرسوم عليها صورة الملك السابق ظاهر شاه، ومجموعة من المستندات تثبت أنه كان يعمل بنشاط لصالح الولايات المتحدة الأمريكية.

«سيد حاجى دين محمد» شقيق عبدالحق كذّب ما أعلنه رئيس جهاز مخابرات طالبان.. وقال: «لقد طلبت طالبان من الولايات المتحدة تقديم دليل على أن أسامة بن لادن هو المسئول عن هجمات ١١ سبتمبر.. ونحن أيضاً نطلب من طالبان تقديم دليل على أنهم ضبطوا مع عبدالحق كميات كبيرة من الدولارات والأعلام والمستندات.. لكنهم بدلا من أن يقدموا لنا الدليل سارعوا بإعدامه دون محاكمة..!».

* * *

اعدام عبدالحق كان بمثابة انتكاسة كبيرة لمخططات الولايات المتحدة لإسقاط طالبان من الداخل

كان أيضاً سبباً فى إحساس الأمريكيين بالإحباط واليأس من إمكانية تغيير الوضع فى أفغانستان بالسرعة التى كانوا يتوقعونها.. ولعل ذلك ما دفعهم فى نفس اليوم الذى تم فيه إعدام عبدالحق إلى شن غارات كثيفة على المدن الأفغانية.. خصوا كابول وحدها بـ ٨٠ طائرة ظلت تقصف المدينة طوال الليل.

وفى الوقت الذى اعتبر فيه الرئيس الباكستانى بيرفيز مشرف أن ذلك لن يؤثر على الجهود التى تبذل لتشكيل حكومة عريضة القاعدة فى أفغانستان.. فإن نبأ

إعدام عبدالحق كان بالنسبة للملك السابق ظاهر شاه «بمثابة حجر ثقيل جثم على صدر الملك» كما صورته صحيفة «الميساجيرو» الإيطالية.. وجعله يفكر جديا فى الاعتذار عن القيام بأى دور فى أية ترتيبات مستقبلية لما بعد طالبان.. خاصة فى ظل التهديد الذى وجهه رئيس مخابرات طالبان لأنصار الملك: «نحن ننصح أنصار ظاهر شاه بألا يحاولوا دخول أفغانستان، وأن يتخلوا عن أهدافهم الشائنة، وإلا فإنهم سيواجهون عواقب أفعالهم».

أما الابن الوحيد لعبدالحق الباقى على قيد الحياة فاسمه ماجد.. عمره ١٨ سنة، ويعيش حاليا مع أقاربه فى مدينة سان فرانسيسكو بالولايات المتحدة

.. قال إنه «يواجه وضعاً نفسياً صعباً بعد مقتل والده».. وأنه سيعود إلى أفغانستان بعد أن ينهى دراسته فى الولايات المتحدة.. و«سأخدم بلدى وأحاول أن أكمل المهمة التى بدأها والدى، لكنه لم يكملها بعد أن أعدمه نظام طالبان».. ووصف ماجد عبدالحق والده بهذه الكلمات: «أبى كان أسد أفغانستان، وقد ساهم بدور كبير فى تحرير بلادنا من الروس.. لقد كان بطلا كسب احترام جميع الأفغان.. ولم يكن أبا لى فقط بل كان أبا لكل الوطنيين فى بلادى.. لقد فقدت أفغانستان بمقتله رجلاً عظيماً».. وتابع الابن قائلا: «اشتقت له كثيراً.. ولا تمر ثانية واحدة دون ان أفكر فيه.. لقد كانت المرة الأخيرة التى رأيته فيها يوم ٥ سبتمبر الماضى لكننى سأعود إلى أفغانستان من أجله».

* * *

الفصل الرابع عشر

• البرنامج النووى.. والأزمة..

«إن أسامة بن لادن
لا يزعج الأمريكيين.. بقدر
ما يزعجهم امتلاك
باكستان أو أية دولة
إسلامية.. السلاح
النووى..!!»

عالم ذرة باكستانى

☐ *لم يغب البرنامج النووى الباكستانى عن الأزمة الأفغانية..*
كان مطروحا على الأجندة الأمريكية طوال الوقت.. حتى قبل ظهور هذه الأزمة..!
وعندما قررت الولايات المتحدة القيام بحملة عسكرية ضد أفغانستان ردا على هجمات ١١ سبتمبر.. كان البرنامج النووى الباكستانى أحد أهداف هذه الحملة.. وربما أهم أهدافها..

هذه الحقيقة لم يخترعها أحد..!

لكنها بدأت تتضح عندما طلبت الولايات المتحدة من باكستان التعاون معها فى الحملة العسكرية التى تعدها للهجوم على أفغانستان.. فى ذلك الوقت لم تصبر واشنطن حتى تسمع «نعم» أو «لا» من إسلام آباد.. وانما أتبعت طلبها على الفور بتهديد صريح للباكستانيين: أنه فى حالة رفضهم التعاون معها، فإنه سيتم تدمير القواعد النووية الباكستانية فى عملية خاطفة تشترك فيها كل من الولايات المتحدة وإسرائيل والهند..!

هذا التهديد جاء -تقريبا- فى نفس التوقيت الذى صرح فيه الرئيس الأمريكى بوش بعبارته الشهيرة فى وصف الحرب التى قررت الولايات المتحدة شنها ردا على هجمات ١١ سبتمبر.. بأنها «حرب صليبية».. ورغم ان مساعديه صوروا الأمر بعد ذلك على أنه مجرد «سقطة لسان» ونصحوه بأن يستدرك هذه السقطة بزيارة قام بها إلى المركز الإسلامى فى واشنطن.. إلا أن مواقف الإدارة الأمريكية بعد ذلك أثبتت كلها أن بوش كان يعنى ما قاله بالضبط..!

علاقة التهديد الأمريكى لباكستان بتصريح بوش.. هو أن الحرب الصليبية التى يقصدها تعنى بالقطع إشعال الصراع بين الحضارتين الإسلامية والغربية.. وهذا هو السبب الذى جعل الولايات المتحدة الأمريكية تراقب بحذر شديد محاولة أية دولة إسلامية فى العالم إنتاج السلاح النووى .. فلما نجحت باكستان تحت ظروف خاصة فى إنتاج هذا السلاح.. قررت الولايات المتحدة تدميره..!

* * *

محاولة باكستان إنتاج السلاح النووى تعود الى بداية السبعينيات عقب هزيمتها فى الحرب مع الهند عام ١٩٧١ التى انتهت بانفصال بنجلاديش عن باكستان وأسر الهند لأكثر من ٩٣ ألف جندى باكستانى.. مما اضطر ذوالفقار على بوتو رئيس الحكومة الباكستانية فى ذلك الوقت إلى القبول بشروط الهند لتوقيع إتفاقية بين البلدين فى يوليو ١٩٧٢ أطلق عليها «إتفاقية سيملا»..

لكن بوتو لم ينس الهزيمة التى لحقت ببلاده وأدت إلى شطرها نصفين.. فى نفس الوقت كانت الهند قد قطعت شوطا طويلا فى برنامجها النووى.. فقرر إنشاء برنامج نووى لباكستان على الرغم من الظروف الإقتصادية الصعبة التى كانت تواجهها فى تلك الفترة.. وعندما نجحت الهند فى إجراء تجربتها النووية الأولى عام ١٩٧٤.. قال بوتو عبارته المشهورة: «سنأكل العشب ونصنع القنبلة النووية»..!

عندئذ بدأت الولايات المتحدة الأمريكية تشعر بالقلق من إمكانية توصله إلى سر القنبلة، رغم أنه كان حليفا استراتيجيا لها فى مواجهة التحالف السوفييتى الهندى.. فأرسلت له وزير خارجيتها هنرى كسينجر الذى حاول أن يثنيه عن الاستمرار فى هذا الطريق مقابل صفقة طائرات مقاتلة وأسلحة أمريكية متطورة.. إلا أن بوتو رفض هذا العرض.. فقال كسينجر له كلمات واضحة: «إذا واصلت السير فى طريق إنتاج القنبلة النووية.. فلن ندعك تنتجها وسنجعل منك عبرة للآخرين»!.. لكن بوتو لم يأبه لهذا التهديد وأصر على مواصلة برنامجه..

بعد ذلك بفترة قصيرة أطاح به وزير دفاعه ضياء الحق فاستولى منه على السلطة وألقى به فى السجن ثم نفذ فيه حكم الإعدام شنقا عام ١٩٧٩.. رافضا وساطات دولية عديدة قام بها ملوك ورؤساء دول لتخفيف الحكم إلى السجن المؤبد.

فى عام ١٩٨٨ لقى ضياء الحق مصرعه فى حادث طائرة.. وأجريت إنتخابات فازت فيها «بى نظير بوتو» ابنة ذو الفقار على بوتو وأصبحت رئيسة للوزراء.. فأعادت تنشيط البرنامج النووى الباكستانى.. واستطاع العلماء الباكستانيون فى تكتم شديد التوصل خلال سنوات قليلة إلى سر القنبلة النووية وأصبحت جاهزة للتفجير..!.

عندما فاجأت الهند العالم بإجراء ثلاثة تفجيرات نووية يوم ١١ مايو ١٩٩٨، ثم أتبعتها بتفجيرين بعد يومين فقط.. ردت باكستان على التفجيرات الهندية بخمسة تفجيرات نووية أجرتها يوم ٢٨ فى نفس الشهر.. الأمر الذى أغضب الولايات المتحدة الأمريكية كثيرا، فقادت حملة دولية ضد كل من الهند وباكستان وفرضت عليهما عقوبات اقتصادية شاركتها فيها دول غربية كثيرة مثل كندا وأيضا اليابان.. ثم رفعت هذه العقوبات بعد ذلك.. لكن ظل فى الحسابات الاستراتيجية لكل من الولايات المتحدة وإسرائيل والهند ضرورة تجريد باكستان من أسلحتها النووية.

وهذا بالضبط ما حاولت الدول الثلاث تنفيذه خلال الأزمة الأفغانية..!!

لذلك فإن الولايات المتحدة لم تسعد بموافقة باكستان على التعاون معها في الحملة العسكرية ضد أفغانستان.. لأن هذه الموافقة أضاعت عليها فرصة تحقيق الهدف الأهم بالنسبة لها في المنطقة، وهو تدمير القواعد النووية الباكستانية.. أي نزع السلاح النووي من أيدي المسلمين.. في بداية الحرب الصليبية التي أعلن عنها الرئيس الأمريكي بوش..!

لأنه لا يخفى على الولايات المتحدة الأمريكية أنه في حال وصول الإسلاميين الى السلطة في إسلام آباد.. فإن السلاح النووي الموجود اليوم في باكستان من الممكن جدا أن ينتقل غدا إلى سوريا ، أو إيران، أو ليبيا.. وهي دول تعتبرها الولايات المتحدة دولا مارقة.. فتصبح هذه الدول ثلاث قوى نووية إسلامية مارقة في مواجهة الولايات المتحدة والغرب..! أيضا من الممكن في هذه الحالة أن ينتقل السلاح النووي بعد ذلك إلى جنوب لبنان ليحل محل صواريخ «الكاتيوشا» في أيدي مقاتلي حزب الله.. فيقصفوا به إسرائيل.. ومن ثم تنتهي قصتها..!

هذا السيناريو المرعب لكل من الولايات المتحدة وإسرائيل.. أصبح قائما في دائرة الاحتمال مع تصاعد التيار الإسلامي في باكستان وتحوله إلى تيار سياسي قوي يحتل الصف الأول في المعارضة، وله موالون كثيرون في صفوف الجيش وجهاز المخابرات ودوائر السلطة في باكستان..!!

لذلك بدأت الولايات المتحدة واسرائل تخططان للاستيلاء على السلاح النووي الباكستاني في حال الإطاحة ببيرفيز مشرف وتولي الإسلاميين السلطة في باكستان.. هذا ما كشفت عنه مجلة «نيويوركر» الأمريكية في الأسبوع الأخير من أكتوبر ٢٠٠١ على لسان مسئول بالبنتاجون، صرح للمجلة بأن وحدة خاصة من قوات الكوماندوز الأمريكية تجري تدريبات بهدف التمكن من الاستيلاء على الأسلحة النووية الباكستانية في حال سقوط حكومة بيرفيز مشرف.. أضاف المسئول أن فرقة كوماندوز إسرائيلية متخصصة في العمليات وراء خطوط العدو تشارك أيضا في هذه التدريبات[٥٨]..

وبالطبع.. فإن الهند لن تتأخر عن المشاركة في عملية كهذه عند بدء تنفيذها..!

* * *

هذا الخبر الذي نشرته مجلة «نيويوركر» الأمريكية.. أعاد إلى الأذهان ما سبق أن تردد في بعض أوساط المحللين السياسيين عن وجود «سيناريو» أمريكي إسرائيلي هندي لإزالة دولة باكستان من الخريطة السياسية لآسيا خلال العشر سنوات القادمة.. وإعادة ضمها إلى الهند كما كان الوضع قبل عام ١٩٤٧ ..!

وهو سيناريو يستلزم تنفيذه البدء أولا.. بنزع السلاح النووي من باكستان، حتى يسهل بعد ذلك اجتياحها ثم ضمها إلى الهند..!

لعل ذلك يفسر لنا «العلاقة الحميمة» التى بدأت تربط الولايات المتحدة وإسرائيل بالهند فى السنوات الأخيرة.. والتى تركزت بشكل أساسى فى المجالات العسكرية، سواء ما يتصل بتصنيع الأسلحة أو التدريبات المشتركة.. الخ، أيضا الخطاب السياسى للدول الثلاث الذى أصبح يعتبر أن مصدر الإرهاب فى العالم.. هم المتطرفون الإسلاميون وحدهم..!!

* * *

لكن الباكستانيين يسخرون من أيه فكرة تتحدث عن تجريدهم من السلاح النووى وإزالة دولتهم..

يقولون إن السلاح النووى ليس قطعة «بسكويت» يمكن خطفها من أيديهم..! وأن أية محاولة خارجية للمساس به ، من شأنها أن تشعل «النار النووية» فى منطقة جنوب آسيا كلها..!

وبينما التزمت الهند بأنها لن تكون البادئة باستخدام السلاح النووى فى أى صراع ينشب فى المنطقة.. فإن باكستان حتى الآن لم تقدم هذا الالتزام.. وانما قدمت إلتزاما آخر هو ألا تستخدم سلاحها النووى إلا فى حالة الدفاع عن النفس..!

- فهل اعتداء الهند على حدود باكستان يمكن أن يدفع الباكستانيين إلى إطلاق الصواريخ النووية.. من باب الدفاع عن النفس .. ؟

- الإجابة: نعم..!

سمعتها أول مرة من وزير الشئون الدينية والأوقاف الباكستانى «راجا محمد ظفر الحق» (٥٩) الذى جاء إلى القاهرة فى يونيو ١٩٩٩ مبعوثا من رئيس حكومته لينقل إلى المسئولين فى مصر موقف باكستان من أزمة كارجيل مع الهند..

ثم سمعتها بعد ذلك من رئيس الحكومة الباكستانية السابق نواز شريف خلال لقاء حضرته بمكتبه فى إسلام آباد- أغسطس ١٩٩٩- ضم معى خمسة من الصحفيين العرب.. ومازلت أذكر كلمات قالها لى وأنا أصافحه فى نهاية اللقاء: «لقد اقتطعنا تكلفة إنتاج السلاح النووى من قوت شعبنا الضرورى.. فإذا لم نستخدمه فى الدفاع عن استقلال أراضينا وأمننا القومى.. متى نستخدمه إذن؟.. إننا لم نصنع السلاح النووى لنضعه فى «فاترينة» ولكن لنستخدمه إذا ما تعرضت بلادنا للغزو.. لذلك يجب على الهند أن تفكر فى السلم ولا تفكر فى الحرب لأن المنطقة يعيش بها أكثر من مليار وربع المليار نسمة.. سيواجهون الموت إذا ما اشتعلت الحرب بيننا»..!

نفس الكلام سمعته بصيغ أخرى من بعض المسئولين فى حكومة بيرفيز مشرف(٦٠) وهذا يعنى ان الشعب الهندى هو الذى سيدفع من حياته ثمن المواجهة مع باكستان وليس الشعب الإسرائيلى او الشعب الأمريكى..

لكن يبدو أن هذ الحقيقة مازالت غائبة عن المسئولين فى نيودلهى..!

* * *

لم ينته حديث الأمريكيين عن البرنامج النووى الباكستانى بموافقة باكستان على التعاون معهم فى ضرب أفغانستان.. ولكنهم ظلوا يبحثون عن الفرص والمبررات للانقضاض على هذا البرنامج بعد أن أضاع الباكستانيون عليهم الفرصة الذهبية الأولى بالموافقة على التعاون معهم فى الحرب..

فى البداية أشاع الأمريكيون أن مجموعات من طالبان وتنظيم القاعدة تخطط لسرقة أسلحة نووية من باكستان للهجوم بها على الولايات المتحدة..!

فردت باكستان بأن ذلك غير ممكن.. وأدلى وزير خارجيتها عبد الستار بتصريحات مستفيضة للصحفيين يوم الأول من نوفمبر ٢٠٠١.. قال فيها:

- إن باكستان لديها سجل خالٍ من الأخطاء فيما يتعلق بحماية وسلامة منشآتها النووية، وأنه لم تحدث بها قبل ذلك أية واقعة سرقة أو تسرب أى مواد أو مكونات أو تقنيات نووية..

- أن الحكومة الباكستانية تقوم باستمرار بصيانة وتطوير وتحديث أنظمة التحكم والسيطرة والإجراءات الأمنية للمنشآت النووية.

- إنه لا توجد أية إمكانية لوقوع تلك المنشآت فى أيدى متطرفين فى حال حدوث عصيان أو تمرد واسع النطاق.. لأن الحكومة الباكستانية استثمرت مبالغ كبيرة وخصصت مصادر مالية وبشرية كافية لاستحداث اجراءات ونظم أمان للتعامل مع جميع أنواع التهديدات المحتملة للمنشآت النووية.

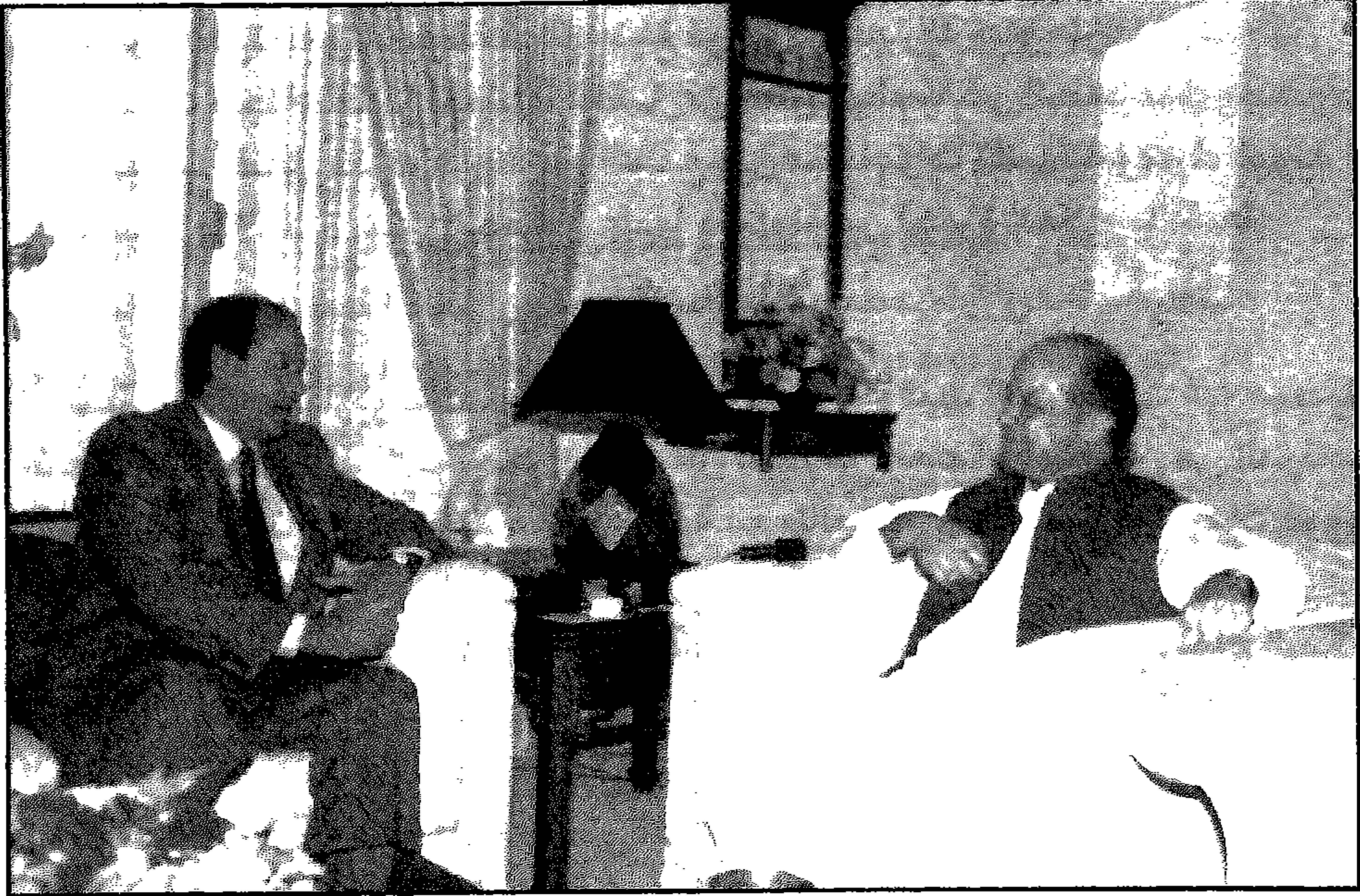
- إنه تم تأسيس قيادة استراتيجية للأفرع الرئيسية فى الجيش الباكستانى.. تعمل بتسلسل واضح للمسئولية لضمان عدم نشر الأسلحة النووية الباكستانية دون تخويل حقيقى بذلك من القيادة الباكستانية..

- إنه تم اتخاذ عدة اجراءات احتياطية لتقليل مخاطر أى حادث إطلاق عرضى أو مفتعل أو غير مصرح به للأسلحة النووية الباكستانية..

* * *

رغم ذلك استمر الأمريكيون يثيرون الشكوك حول مدى كفاية إجراءات الأمن فى المنشآت النووية بباكستان.. حتى أن صحيفة «واشنطن بوست» نشرت فى هذه الأثناء تقريرا قالت فيه أن بعض المواد النووية قد تسربت بالفعل من باكستان إلى تنظيم القاعدة..!

وقالت تقارير أخرى إن المخابرات المركزية الأمريكية سجلت مكالمة هاتفية لأحد مسئولى القاعدة تحدث فيها عن مخطط لشن هجوم «هيروشيما» على الولايات المتحدة [٦١].. الأمر الذى دفع الكثير من الصحف الغربية إلى استعراض السيناريوهات المحتملة لمثل هذا الهجوم.. فقالت مجلة «جينز ديفنس» الأسبوعية [٦٢] إن أسوأ هذه السيناريوهات هو الهجوم بطائرة على قباب المفاعلات النووية أو برك



قال لى نواز شريف :إننا لم نصنع السلاح النووى لنضعه فى «الفاترينة» .. !

الوقود المستنفذ فى إحدى المنشآت النووية.. لكن البعض قلل من إمكانية حدوث ذلك.. أولا: لأن الولايات المتحدة فرضت مناطق حظر جوى فوق ٨٦ موقعا نوويا لديها تم تحديدها كأهداف محتملة بعد ١١ سبتمبر.. وثانيا: لأن القباب النووية وبرك الوقود هى أهداف صغيرة نسبيا ويصعب جدا توجيه طائرة للاصطدام بها، فضلا عن أنه روعى تقوية بنائها لتتحمل الزلازل والحوادث العرضية الأخرى.. لذلك فإن السيناريو الأسهل والأكثر فاعلية هو الهجوم على الموقع النووى بواسطة شاحنات محملة بالمتفجرات..!

قالت المجلة أيضا إن بعض الجماعات، ومنها تنظيم القاعدة، حاولت شراء مواد نووية لتصنيع «قنبلة إرهابية».. وإن الوكالة الدولية للطاقة الذرية سجلت منذ عام١٩٩٣ حتى الآن ١٧٥ حالة اتجار بالمواد النووية، منها ١٨ حالة اشتملت على كميات من البلوتونيوم أو اليورانيوم المخصب بدرجة عالية.. أما مسألة ما إذا كانت هذه الجماعات قادرة على استخدام هذه المواد فى إنتاج سلاح نووى أم لا، فهى غير واضحة.. لأنه غير معروف ما إذا كان لديها الكميات اللازمة أم لا، والتى تقدر بـ ٨ كيلو جرامات من البلوتونيوم أو ٢٥ كيلو جراما من اليورانيوم المخصب بدرجة عالية.. كما أنها تحتاج أيضا إلى خبرة ومعدات متطورة لا تتوفر عادة إلا للدول الكبرى.. إلا أن بعض الخبراء قالوا إن المتطلبات اللازمة لتصنيع «قنبلة إرهابية» أقل بكثير من متطلبات الدول النووية.. وأنه يمكن لجماعة مثل تنظيم القاعدة بناء

قنبلة من البلوتونيوم بسيطة نسبيا تبلغ قوتها الانفجارية كيلو طن..!

تحدثت مجلة «جينز ديفنس» أيضا عن خطر قيام بعض الجماعات بصنع ما أسمتها بـ «قنابل قذرة» عن طريق الجمع بين متفجرات تقليدية ومواد نووية أو إشعاعية.. والأخيرة يمكن الحصول عليها بسهولة من أجهزة العلاج بالأشعة..

* * *

نشر هذه السيناريوهات.. جاء تقريبا فى نفس التوقيت الذى نشرت فيه صحيفة «نيويورك تايمز» يوم ٣ نوفمبر ٢٠٠١: «إن عددا من العلماء البارزين فى البرنامج النووى الباكستانى.. تربطهم علاقات قوية مع طالبان.. قاموا بنقل معلومات نووية مهمة إلى تنظيم القاعدة»..!

معنى ذلك أن تنظيم القاعدة أصبحت لديه «المواد والخبرة» اللازمة لإنتاج السلاح النووى.. وهو ما يشكل تهديدا خطيرا لأمن الولايات المتحدة الأمريكية.. بل لأمن الحضارة الإنسانية كلها، كما زعم الرئيس الأمريكى بوش فى خطابه يوم ٦ نوفمبر ٢٠٠١ عندما قال: «إن القاعدة تسعى للحصول على أسلحة كيماوية وبيولوجية ونووية، وإذا حصلت هذه المنظمة على مثل هذه الأسلحة، فإن ذلك يمثل خطرا على كل أمة.. بل على الحضارة نفسها»..!

ولأن هذه «المواد النووية» كما قالت صحيفة «واشنطن بوست».. وهذه «الخبرة» كما قالت صحيفة «نيويورك تايمز» قد حصل عليهما تنظيم القاعدة من باكستان..

إذن فعلى باكستان أن تتحمل المسئولية كاملة..!

- السؤال: كيف..؟

- الإجابة: بتدمير برنامجها النووى..!

كان هذا هو الهدف الحقيقى للولايات المتحدة الأمريكية..

والواقع أن نشر الأخبار والسيناريوهات والتقارير فى الصحافة الغربية عن ما تعتبره «قدرات نووية» لتنظيم القاعدة.. لم يكن يعكس حالة «خطر حقيقى» يهدد أمن الولايات المتحدة.. بقدر ما كان يهدف إلى تهيئة الأجواء واصطناع المبرر الذى يمكن للولايات المتحدة التذرع به فى التحرك نحو تدمير البرنامج النووى الباكستانى..!

لم يكن يعطل الأمريكيين عن اتخاذ هذه الخطوة فى ذلك الوقت سوى أن الباكستانيين وافقوا على كل طلباتهم فى الحرب ضد الأفغان.. من استعمال الأجواء والقواعد العسكرية والسواحل والمعلومات الاستخباراتية.. إلخ، ومن ثم لم يكن ممكنا أن يقابل الأمريكيون ذلك بقصف البرنامج النووى الباكستانى.. فضلا عن أن هذه الخطوة كان من شأنها أن تضع باكستان بكل ما لديها من إمكانيات عسكرية متقدمة جدا فى جبهة واحدة مع الأفغان ضد الأمريكيين.. مما كان سيؤثر بلا شك على نتيجة المعركة..!

لذلك لجأ الأمريكيون إلى خيار آخر.. هو مطالبة باكستان بتسليمهم اثنين من علماء البرنامج النووى للتحقيق معهم حول علاقتهم بتنظيم القاعدة..!

وهو خيار يحقق للولايات المتحدة عدة أهداف أهمها:

١- إرهاب جميع العلماء والباحثين والعاملين فى البرنامج النووى الباكستانى، بجعلهم يشعرون أن مصيرهم يوما ما سيكون إلقاء القبض عليهم وتسليمهم إلى الولايات المتحدة للتحقيق معهم.. وربما حبسهم فى أقفاص داخل سجون جوانتانامو.

٢- الحصول على معلومات تفصيلية عن طبيعة عمل البرنامج النووى الباكستانى.. وحجم الأسلحة، والصواريخ، ومداها، وعدد القنابل، وأماكن تخزينها، وكيفية استعمالها.. إلخ.

٣- معرفة ما إذا كانت باكستان تتعاون فى هذا المجال مع دول خارجية أم لا.. مثل الصين أو إيران.. وما إذا كانت تبيع المواد النووية للغير..

٤- الوقوف على حقيقة سعى تنظيم القاعدة فى أفغانستان لامتلاك مواد نووية ومحاولاته إنتاج أسلحة دمار شامل بدائية..

* * *

العالمان النوويان اللذان طلبت الولايات المتحدة من باكستان تسليمهما للتحقيق معهما.. هما: بشير الدين محمود، وتشودرى عبد المجيد.. وهما صديقان عملا معا فى مفاعل نووى يقع بمنطقة الخشاب فى إقليم البنجاب.. وقيل أنهما تقاعدا عام ١٩٩٨ ثم أسسا منظمة أهلية تهتم بتقديم الإمدادات الغذائية إلى الأفغان.. وأنهما فى إطار عمل هذه المنظمة سافرا إلى أفغانستان عدة مرات، والتقيا بأسامة بن لادن مرتين قبل هجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١..!

بالطبع رفضت باكستان تسليم العالمين.. إلا أنها تعرضت لحملة ضغط كبيرة من الولايات المتحدة.. ساعد على اشتداد هذه الحملة ما صرح به بن لادن فى مقابلة صحفية جرت يوم ٧ نوفمبر ٢٠٠١ مع صحفى باكستانى نشرها بصحيفتى «ذادون» و«أوصاف» الباكستانيتين [١٣].. من أنه «إذا لجأت أمريكا إلى استخدام الأسلحة الكيماوية أو النووية فى حربها ضد أفغانستان فإنه سيكون لديه الحق فى الرد بأسلحة كيماوية ونووية والتى سيتم استخدامها كوسيلة ردع»..!

هذا التصريح اعتبره الأمريكيون سيد الأدلة على أن بن لادن يمتلك أسلحة كيماوية ونووية.

ولابد إذن أنه حصل عليها من باكستان..

لكن لأن الولايات المتحدة لا تريد أن تظلم باكستان.. فهى تريد أولا أن تتأكد من هذا الأمر عن طريق التحقيق مع العالمين المذكورين اللذين قيل أنهما سافرا إلى

أفغانستان والتقيا بأسامة بن لادن مرتين .. !

وبالتالى فالمطلوب من باكستان إلقاء القبض على هذين العالمين وتسليمهما إلى الولايات المتحدة..

هكذا وجدت باكستان نفسها فى مأزق..

تصورت فى البداية أنها يمكن أن تخرج منه عن طريق التصريحات الصحفية.. فذهب الجنرال راشد قريشى المتحدث باسم الرئيس بيرفيز مشرف إلى حيث يعقد المؤتمر الصحفى اليومى بوزارة الخارجية فى إسلام آباد ويحضره عدد كبير من مراسلى وسائل الإعلام العالمية.. ونفى نفيا قاطعا أن يكون أسامة بن لادن حصل على أسلحة نووية من باكستان وأكد على التزام باكستان الصارم بجميع المعاهدات النووية الدولية التى تحظر تصدير أية مواد نووية إلى الخارج..

أما بالنسبة للعالمين المطلوبين.. فقد أكد الرئيس بيرفيز مشرف بنفسه على شاشة التليفزيون أنهما ليس لهما أية علاقة بالبرنامج النووى الباكستانى..

الأكثر من هذا أن الملا عبد السلام ضعيف سفير طالبان فى إسلام آباد.. شكك فى أن تكون المقابلة الصحفية مع بن لادن قد تمت أصلا.. وبالتالى فكل ما نشر عنها بصحيفتى «ذادون» و«أوصاف» الباكستانيتين قد يكون «فبركة صحفية»..! وقال «عندما نتأكد من صحة ما نشر فنحن نرفض ذلك ولا نسمح لأسامة بن لادن بمثل هذه التصريحات لأنها تزيد من مواجعنا ومواجع الشعب الأفغانى، وهذا جنون من أسامة.. فإذا اتضح لنا أن أسامة لم يدل بهذه التصريحات، فإننا فى القريب العاجل سنبلغ أسامة ونجبره على أن ينفى ذلك بنفسه»..(٦٤)

إلا أن حملة الضغط الأمريكية على باكستان كانت كبيرة.. شاركت فيها أجهزة رسمية وإعلامية واستخباراتية.. ولم تكن تصريحات قريشى.. ومشرف.. وضعيف.. كافية للتصدى لها، رغم اللغة الواضحة التى تحدثوا بها..

فبينما كانت الإدارة الأمريكية تطلب من السلطات الباكستانية تسليمها اثنين من العلماء.. إذا بصحيفة أمريكية ترفع عدد العلماء المطلوب تسليمهم إلى عشرة..!

هذه الصحيفة هى «يو. إس. إيه توداى» التى نشرت تقريرا يوم ١٢ نوفمبر ٢٠٠١، قالت فيه إنها علمت من مسئولين أمريكيين وباكستانيين كبار أن عملاء لحركة طالبان وتنظيم القاعدة قد اتصلوا بعشرة علماء باكستانيين على الأقل من بين المتخصصين فى المجال النووى ليساعدوا على تأسيس برنامج نووى فى أفغانستان.. وأن هؤلاء العلماء قد وافقوا على ذلك، لكنهم ربطوا بدء عملهم بموافقة الحكومة الباكستانية.. وأضافت الصحيفة: أن هذا الاقتراح عرض بالفعل على الحكومة الباكستانية خلال العامين الأخيرين، لكنه ظل فى «مرحلة أولية».

فى نفس التوقيت أيضا نشرت المخابرات المركزية الأمريكية تقريرا يقول إنها حصلت على معلومات تفيد بأن تنظيم القاعدة ربما تمكن من إنتاج كميات قليلة من

غاز «السيانيد» السام فى مختبر بدائى لتطوير أسلحة كيماوية يقع فى قرية «ديرونتا» القريبة من مدينة جلال آباد...[٦٥]

كل التقارير.. وتوقيتات نشرها.. وتنوع مصادرها.. كانت بالطبع جزءا من مخطط أمريكى للضغط على باكستان للقبض على العالمين بشير وتشودرى وتسليمهما إلى الولايات المتحدة.

والمتوقع طبعا أن الأمر لن يتوقف عند تسليم هذين العالمين.. بل سيتبعه مطالبات بتسليم بقية علماء البرنامج النووى الباكستانى واحدا واحدا.. أو اثنين اثنين.. بحجة أن ما قاله أحدهما فى التحقيق يستوجب استدعاء ثالث لسؤاله.. وهكذا..

لذلك صمد الباكستانيون أمام حملة الضغط الأمريكية ورفضوا تسليم العالمين.. لكنهم من باب إيجاد حل للأزمة.. وحتى لا يظهروا فى موقف «المتحدى» لأمريكا.. فيكرر الرئيس بوش عليهم قوله: «إما أن تكونوا معنا.. أو مع الإرهاب».. لجأوا إلى حل وسط، هو استدعاء العالمين والتحقيق معهما أمام السلطات الباكستانية فى إسلام آباد.. وإبلاغ الأمريكيين أن التحقيق تم، وإرسال صورة منه إلى واشنطن.. حيث أثبت بما لا يدع مجالا للشك براءة هذين العالمين من كل ما نسبته إليهما التقارير الإعلامية والاستخباراتية.. وأخذاً بالحيطة قررت السلطات الباكستانية تحديد إقامة العالمين بشير وتشودرى فى منزليهما..!

لكن هذا الحل الوسط لم يعجب أمريكا..! وردت عليه بالتلويح من جديد بقصف البرنامج النووى الباكستانى فى عملية خاطفة تشترك فيها قوات أمريكية وإسرائيلية وهندية..!

* * *

الأزمة تفاقمت إلى درجة أن باكستان اضطرت بالفعل إلى بحث فكرة نقل سلاحها النووى إلى الصين باعتبارها أكثر الحلفاء قربا منها والمكان الوحيد الآمن للحفاظ على قوتها النووية..

ولكن لأن هذه العملية تنطوى على مخاطر جمة، فقد استبعدت السلطات الباكستانية الفكرة.. وقبلت أن يقوم محققون من مكتب التحقيقات الفيدرالى وجهاز المخابرات المركزية الأمريكية بالتحقيق مع العالمين بشير وتشودرى.. ولكن داخل مقر السفارة الأمريكية فى إسلام آباد..[٦٦] باعتبارها أرضا أمريكية مرفوع فوقها العلم الأمريكى.. وبذلك تكون باكستان قد لبت للولايات المتحدة طلبها، وفى نفس الوقت احتفظت لنفسها «ببعض» ماء الوجه..!

التحقيقات الأمريكية مع العالمين.. جرت فى وقت كانت فيه الولايات المتحدة تعد ٢٢٠٠ من أفراد قواتها الخاصة التابعة للفرقة ١٥ المتمركزة فى الخليج العربى،

للإقلاع فى أية لحظة للسيطرة على المنشآت النووية فى باكستان..

وقد انتهت التحقيقات، كما ذكرت السلطات الباكستانية، بإخلاء سبيل العالمين بشير وتشودرى..

إلا أنه تم نقلهما يوم الثلاثاء ٢٠ نوفمبر ٢٠٠١ إلى جهة غير معلومة..!!

قبل ذلك بيومين فقط نشرت صحيفة «ذانيشن» الباكستانية خبرا يقول إنه تم إلقاء القبض على اثنين من قادة الأسطول البحرى «متقاعدين» للتحقيق معهما أمام فريق مشترك من جهازى المخابرات الأمريكية والباكستانية للاشتباه فى صلتهم بزعيم تنظيم القاعدة أسامة بن لادن.. القائدان اللذان ألقى القبض عليهما هما: «أرشد شودهارى» - القائد العام للأسطول البحرى الباكستانى المتقاعد.. و«هومايون نياز» - أحد كبار الجنرالات فى سلاح البحرية الباكستانى.. قاد عملية التحقيق مع الرجلين مكتب التحقيقات الفيدرالى الأمريكى وانتهت باحتجازهما واستدعاء ستة أشخاص آخرين للتحقيق معهم.. من بينهم متخصصون فى الهندسة والصناعات العسكرية والبرنامج النووى..!

* * *

كنت أتابع هذه الأحداث عن كثب خلال إقامتى فى باكستان لتغطية أنباء الحرب.. وقد أتيحت لى فرصة الالتقاء بأحد العاملين فى البرنامج النووى الباكستانى ممن تمت إقالتهم عن العمل..

قال لى إن مجال تخصصه: هندسة الالكترونيات.. لكنه رفض التحدث عن ظروف إقالته.. كما رفض التقاط صورة له أو السماح لى بنشر اسمه.. أو عنوانه.. أو أية بيانات تفيد فى التوصل إليه.. وكانت تلك شروطه لإجراء هذا الحوار معه..

● قلت له: لماذا تضع كل هذه الشروط للتحدث معى.. هل تشعر بالخوف..؟

- قال: نعم.. بدأت أشعر بالخوف منذ جاء رجال المخابرات المركزية الأمريكية وأعضاء مكتب التحقيقات الفيدرالى إلى بلادنا وبدأ جهاز المخابرات الباكستانية يقدم إليهم ما لديه من معلومات..!

● قلت له: ما رأيك فى التقارير التى تحدثت عن محاولات أسامة بن لادن إنتاج القنبلة النووية..؟

- رد بسرعة: هذه «تخاريف» تروجها المخابرات المركزية الأمريكية فى وسائل الإعلام الغربية لإيجاد ذريعة لاعتقال علماء البرنامج النووى الباكستانى بحجة تعاونهم مع بن لادن.. ثم تدمير البرنامج بعد ذلك بحجة أخرى معدة سلفا، هى التخوف من وقوعه فى أيدى الجماعات الإسلامية.. وللأسف هناك من يصدق هذه «التخاريف»..!

● قلت له: لماذا تصفها بـ«تخاريف».. ألم يحاول بن لادن إنتاج سلاح نووى..؟

- قال: كيف لابن لادن الذى يسكن الجبال والكهوف أن ينتج السلاح النووى.. إذا كانت دول أخرى كبيرة مثل إيران وتركيا وكوريا الشمالية لديها مؤسسات علمية ضخمة وميزانيات هائلة للبحث العلمي، ومازالت حتى الآن لم تستطع التوصل إلى صناعة القنبلة..؟

إننا فى باكستان قضينا حوالى ربع قرن من البحث العلمى المتواصل وأنفقنا مليارات الدولارات حتى عرفنا سر القنبلة..

فما بالك بأفغانستان التى لايوجد فيها من أولها إلى آخرها مركز واحد للبحث العلمي.. بل لا يوجد فيها ماء ولا كهرباء.. كيف ستنتج القنبلة النووية..؟!

● قلت له: التقارير لم تتحدث عن بحث علمي.. ولكنها قالت أن بن لادن يريد شراء سر القنبلة النووية ومكوناتها وسيسهل بعد ذلك تجميعها..

- قال: القنبلة النووية ليست راديو ترانزستور يمكن تجميع أجزائه.. إنها أضخم وأخطر صناعة فى العالم.. والأمريكيون يعرفون ذلك جيدا.. ويعرفون أن كل ما ينشر فى صحافتهم عن محاولات بن لادن إنتاج السلاح النووى.. هى محض شائعات وأكاذيب يطلقونها سعيا لتحقيق هدفهم فى المنطقة.. وهو اعتقال علماء البرنامج النووى فى باكستان ثم تدميره بعد ذلك..!

إن أسامة بن لادن لا يزعج الأمريكيين.. بقدر ما يزعجهم إمتلاك باكستان أو أية دولة إسلامية.. السلاح النووى..!!

* * *

الفصل الخامس عشر

• السؤال الصعب..

« .. ولم يكن الذين يمتلكون أجرة السيارة أفضل حظاً.. فقد قُتل معظمهم فى الطريق.. كانت الجثث تُلقى على جوانب الطرق لاتجد من يدفنها.. وكان المصابون ينقلون الي مستشفيات لاتتوفر بها أبسط المستلزمات الطبية.. وكانت الأمهات والآباء يفترقون عن أطفالهم ثم يبدأون بعد ذلك رحلة البحث عن من نجا منهم فى المستشفيات.. أو معسكرات اللاجئين..!»

□ *متى يتوقف القصف الأمريكي على أفغانستان..؟!*
هذا السؤال أصبح مطروحاً بشكل كبير في الشارع الباكستاني بعد الأسبوع الأول من الحرب..
كما أصبح يطرح كل يوم بصيغ مختلفة في المؤتمرات الصحفية التي يعقدها المسئولون في الحكومة..
لكن المشكلة أن الحكومة الباكستانية لم تكن تعرف إجابة السؤال..!

وكان كل يوم يمر في الحرب يزيد موقفها صعوبة أمام شعبها وأمام قوى المعارضة الداخلية التي اتسعت قواعدها وأصبحت تنظم المظاهرات ضدها كل يوم في الشوارع.

المشكلة الأكبر.. ان الرئيس بيرفيز مشرف كان قد أعلن في بداية العمليات العسكرية أنه تلقى تأكيدات بأنها ستكون قصيرة الأمد ومحددة الأهداف..

بينما قال الرئيس بوش في نفس الوقت إنها ستطول وستكون أوسع من أفغانستان.. وأبلغت إدارته مجلس الأمن في أول يوم للعمليات «بأن الولايات المتحدة قد تقوم بأعمال أخرى ضد منظمات أخرى ودول أخرى غير أفغانستان وذلك في إطار حقها المشروع في الدفاع عن النفس، الذي أيده صراحة الأمين العام للأمم المتحدة كوفي عنان» ..

بل إن الرئيس بوش اتخذ قراراً في الأيام الأولى للحرب بجعل تداول المعلومات الخاصة بخططها يتم في أضيق نطاق.. حدده بمساعديه وأربعة أشخاص آخرين فقط، هم زعماء الحزبين الجمهوري والديمقراطي في مجلسي النواب والشيوخ..!

هذا الموقف الأمريكي وضع حكومة الرئيس مشرف في حرج كبير أمام الرأي العام الباكستاني..

فلا هي تعرف متى تنتهي الحرب التي تقدم لها التسهيلات الجوية واللوجيستية والاستخباراتية .

ولاهي تستطيع الاعتراض على نوعية الأهداف التي تقصفها الطائرات الأمريكية، رغم أن أغلب ضحاياها من المدنيين..

ولا الرئيس الأمريكي يحيطها علماً بما ينوى عمله..

وحتى الهدف الذى من أجله بدأت الحرب.. وهو القبض على أسامة بن لادن حياً أو ميتاً.. تغير منذ اليوم الأول لبدء العمليات العسكرية، وقال وزير الدفاع الأمريكي دونالد رامسفيلد: «إن الولايات المتحدة ترفض ربط العملية العسكرية بشخص واحد.. لانه إذا اختفى اليوم سيواصل معاونوه مهمته»..!

هكذا أصبحت حكومة مشرف فى وضع لاتحسد عليه أمام الشعب الباكستانى..! وأمام اكثر من ألفى صحفى أجنبى منتشرين فى باكستان.. كل منهم لديه عشرات الاسئلة.. يطرحها كل يوم بصيغ مختلفة فى المؤتمرات الصحفية للحكومة ولايسمع إجابة شافية لها أبداً.. سوى الابتسام وتكرار الكلام..!

* * *

كان أشهر هذه المؤتمرات، الذى يعقد يومياً بمقر وزارة الخارجية فى إسلام آباد..

هناك تقابل إناساً مهذبين جداً.. يرحبون بك ويبتسمون فى وجهك ويسمعونك باهتمام.. ولاينتهى المؤتمر الصحفي قبل أن ينتهى جميع الصحفيين من طرح أسئلتهم.. اسأل كما تريد، لكنك لاتحصل على الإجابة التى تريدها.. بمرور الوقت أصبح كل شىء مألوفاً: الوجوه والاسئلة والإجابات.. لاشىء جديد على الإطلاق..

فالمتحدث كان دائماً واحداً من اثنين.. إما السفير عزيز أحمد خان أو السفير رياض محمد خان.. وبعد عدة أيام من بدء الحرب انضم إليهما الجنرال راشد قريشى المتحدث باسم الرئيس الباكستانى الذى كان يحضر المؤتمر الصحفى كمتحدث يشاركه أحد السفيرين..

سبب مجيئه.. أننا بعد بدء الحرب بدأنا نسأل كثيراً عن طبيعة ومستوى وحجم التسهيلات العسكرية التى تقدمها باكستان للقوات الأمريكية.. أسئلة لاتنتهى فى موضوع حساس كان السفيران يتخوفان من التحدث فيه.. وكان للسفير عزيز أحمد خان عبارة مشهورة يرد بها دائما علي هذه الاسئلة كان يقول: «أنا رجل دبلوماسى ولست متخصصاً فى النواحي العسكرية.. اسألونى في السياسة أجيب عليكم» .. وهى عبارة كانت تغلق علينا الباب الرسمى للبحث عن الحقيقة فى هذا الموضوع.. فكنا نضطر إلى البحث عنها وراء أبواب أخرى.. فأصبح أمرنا كمن يحاول شراء العملة الصعبة من السوق السوداء.. لابد أن يلحق أضراراً بالنظام الاقتصادى للدولة..!

هكذا فعلنا فى باكستان.. سألنا كل من رأى أو سمع أو عرف شيئاً عن التسهيلات العسكرية التى تقدمها باكستان للقوات الأمريكية.. وتبادلنا المعلومات.. ونشرناها على ألسنة «مصادر مطلعة رفضت ذكر اسمها».. فخلقنا بذلك مشكلة كبيرة للحكومة الباكستانية، لأن بعض مانشرناه فى هذا الموضوع تجاوز الخط الأحمر للمسموح بنشره فى وسائل الاعلام..

لذلك جاء الجنرال راشد قريشى.. وكانت أغلب ردوده على أسئلتنا هو نفي صحة مالدينا من معلومات.

- كنا نسأله: هل توجد قوات أمريكية فوق أراضى باكستان..؟

- فيقول: لا..

- فنعيد عليه السؤال بصيغة أخرى: هل الهجمات الأمريكية على أفغانستان تنطلق من الأراضى الباكستانية..؟

- فيقول: لا.. إنها تنطلق من حاملات الطائرات الأمريكية فى المحيط الهندى والبحر العربي..

ثم نأتي فى اليوم التالي ونقول له: إن شهود عيان قالوا لنا إنهم شاهدوا أمس طائرات أمريكية تهبط فى قاعدتى «يعقوب آباد» و«باسنى» الجويتين.. وإن احدى هذه الطائرات كانت تقل جنوداً أمريكيين.. فما هو حجم هذه القوات..؟!

- فيقول لنا: هؤلاء ليسوا شهود عيان.. ولكنهم مروجو شائعات..!

هكذا.. استمر الحال بيننا وبين الجنرال راشد قريشى عدة أيام.. نحن لانمل توجيه هذا النوع من الاسئلة.. وهو لايعترف أبداً بوجود قوات أمريكية فى باكستان.. كان يجلس فى المؤتمر الصحفى وعينيه تجوبان القاعة تتفحص كل منا.. متحفزاً.. تشعر أحياناً أنه يمارس مع نفسه أقصى درجات ضبط النفس.. لأن السؤال الواحد يطرح عليه عدة مرات بعدة صيغ.. وكان عادياً جداً أن يقف بعد ذلك أحد الصحفيين فيدعى أنه لايفهم الإنجليزية ثم يقوم بإعادة طرح نفس الأسئلة بلغة أخرى..! كل هذا لأننا كنا نريد أن نحصل على اعتراف من مسئول باكستانى بوجود قوات أمريكية فى باكستان..!

ولم ننتظر طويلاً.. فقد جاء الاعتراف بعد ذلك على لسان وزير الداخلية الباكستانى الجنرال معين الدين حيدر.. الرجل القوى فى الحكومة الذى كان يتحدث دائماً بحرية تامة إلى وسائل الإعلام العالمية..

قال الرجل فى تصريح له نقلته محطات التليفزيون إن باكستان وضعت مطارين عسكريين فى جنوب البلاد تحت تصرف الولايات المتحدة الأمريكية لاستخدامهما فى أية عمليات إنقاذ محتملة لجنودها فى أفغانستان.. المطاران هما مطار «يعقوب آباد» الذى يقع فى إقليم «السند» على مسافة ٥٠٠كم شمال شرق مدينة كراتشى..

ومطار «باسنى» الذى يقع فى إقليم «بلوشستان» على نفس المسافة تقريباً غرب كراتشى..

هذا التصريح أوقع الحكومة الباكستانية فى حرج كبير أمام شعبها.. لأنه جاء على لسان أحد أعضائها، فأكد صحة ماكنا نقوله وظلت الحكومة تنفيه وتكذبنا طوال الأيام الماضية..

إنه يعنى أن باكستان سمحت للقوات الأمريكية باستخدام مطاراتها العسكرية.. والتواجد فوق أراضيها.. وهو مالا يعرفه شعبها..!

يعنى أيضاً أن مستوى مشاركة باكستان فى هذه الحرب اعلى مما أعلنته الحكومة للشعب.. فالأمر إذن لايقتصر على تقديم المساعدات اللوجيستية والاستخباراتية والسماح للمقاتلات الأمريكية بعبور الأجواء الباكستانية فقط.. بل يتعدى ذلك إلى درجة تموين هذه المقاتلات بالوقود وإسعاف الجنود الأمريكيين وتقديم الغذاء والرعاية لهم.. وهو مايرفضه الشعب الباكستانى تماماً لأنه كان يعتبر العدوان على الشعب الأفغانى عدواناً عليه، يستوجب التطوع للجهاد مع الأفغان فى التصدى له..!

الحكومة الباكستانية حاولت معالجة الموقف بالتأكيد على لسان الجنرال راشد قريشى أن الأراضى الباكستانية لن تستخدم لشن عمليات عسكرية داخل أفغانستان. لكن الموقف لم ينته بالنسبة لنا بهذا التصريح.. كانت لدينا عشرات الأسئلة التى نريد أن نطرحها لنلم بتفاصيل الموضوع.. فأعدنا على الجنرال قصة شهود العيان الذين رأوا طائرات أمريكية من بينها طائرة شحن تقل جنوداً أمريكيين تهبط فى قاعدة «يعقوب آباد» الجوية.. قال: «لا أعتقد أنهم جنود مقاتلون»..

– فسألناه عن سبب الإجراءات الأمنية غير العادية التى اتخذت حول قاعدتى «يعقوب آباد» و«باسنى» الجويتين..

– قال: «لن أعلق على هذا لأننا وعدنا بتقديم الدعم اللوجيستى للأمريكيين والكل يفهم مايعنى ذلك»..

هكذا استمرت إجابات الجنرال راشد قريشى كلما حاصرناه بالأسئلة فى هذا الموضوع، يرفض التعليق..

لكن شهود العيان الذين رأوا الطائرات والمقاتلات الأمريكية تهبط فى قاعدتى «يعقوب آباد» و«باسنى» لم يكتفوا بالمشاهدة.. وإنما نظموا مظاهرات ضخمة أحاطت بالقاعدتين، ووقعت أعمال عنف ومصادمات شديدة مع قوات الأمن أسفرت عن مقتل أحد المتظاهرين وإصابة العشرات من بينهم بعض أفراد الأمن.. كما دعت الجماعات الإسلامية الى اضراب عام فى المدن الباكستانية واعلان حرب مفتوحة على سياسة الحكومة..

استمر الوضع هكذا عدة أيام.. مما اضطر الرئيس مشرف إلى عقد اجتماع لحكومته خصصه لبحث الأوضاع الأمنية فى البلاد [٦٧] حضره رؤساء حكومات الأقاليم الأربعة فى باكستان.. وهى البنجاب، والسند، وبلوشيسان، والإقليم الحدودى المتاخم لأفغانستان .. وفى هذا الاجتماع تعهد مشرف بحماية الأمن القومى للبلاد وضمان سلامة المواطنين الباكستانيين.. مهما كان الثمن.. وحذر من أسماهم بالجماعات المتطرفة من استغلال الموقف لإحداث فوضى وقلاقل بالبلاد.. كما اكد مشرف.. كعادته دائما فى كل مناسبة أن اغلبية الشعب الباكستانى تقف معه وتؤيد

قراره «بالتعاون مع التحالف الدولى ضد الإرهاب».. بينما الذين يمشون فى المظاهرات أغلبهم من اللاجئين الأفغان الذين انضم لهم بعض المتطرفين الباكستانيين.

ولم ينس مشرف كعادته أيضا طوال الأزمة.. أن يعرب عن أسفه لرفض حركة طالبان الاستجابة للجهود التى بذلها لإنقاذ أفغانستان، مؤكدا على أن موقف الحركة كان يفتقر إلى المنطق والعقل وهو الذى أدى لما أصاب الشعب الأفغانى..!

غير أن تصريحات مشرف لم يكن لها تأثير يذكر فى الشارع الباكستانى الذى ظل غاضبا وثائرا ورافضا لموقف حكومته.. خاصة بعد أن بدأت الحقائق تتكشف حول وجود قوات أمريكية فوق الأراضى الباكستانية.

الأمريكيون من جانبهم شعروا بالأزمة التى تمر بها حكومة مشرف، فحاولوا مساعدتها على استعادة ثقة رجل الشارع.. بأن أذاعت شبكة «سى. إن. إن» الإخبارية على لسان مسئولين بالبنتاجون أن دور باكستان فى المعركة يقتصر فقط على تقديم المعلومات الاستخبارية والدعم اللوجيستى للولايات المتحدة.. ولا صحة مطلقا للأنباء الخاصة بوجود قوات أمريكية على أراضيها.. إلا أن مصداقية «سى. إن. إن» نفسها فى الشارع الباكستانى كانت قد بدأت تتآكل.. فلم تجد من يصدقها..!

* * *

فى هذه الفترة.. كانت أنباء القصف الأمريكى المتواصل لأفغانستان.. وصور الدمار والقتل التى تعرضها شاشات التليفزيون.. تضيف عبئاً سياسياً ثقيلا علي الحكومة الباكستانية وتضعها دائما في موقف الدفاع عن النفس باعتبارها تقدم التسهيلات للمعتدى.. ولم يكن لدى المسئولين الباكستانيين ما يقولونه لنا فى المؤتمرات الصحفية سوى عبارات مكررة.. حفظناها لأننا كنا نسمعها كل يوم.. منها مثلاً:

- إن هذه الحرب ليست ضد الشعب الافغانى.. وليست ضد المسلمين.. وإنما هى ضد الإرهاب وضد المسئولين عن هجمات ١١ سبتمبر التى وقعت في الولايات المتحدة.

- إن القصف الأمريكى لأفغانستان لا يستهدف المدنيين.. وإنما يستهدف المواقع العسكرية لجماعة طالبان وتنظيم القاعدة الذي يتزعمه اسامة بن لادن.

- إن باكستان بذلت جهوداً حثيثة لإقناع طالبان بالتجاوب مع رغبة المجتمع الدولى وقرارات مجلس الأمن.. من أجل تجنب وقوع هذه الحرب، ولكن الجهود الباكستانية باءت بالفشل.

- إن باكستان تقدم التسهيلات الجوية واللوجيستية والاستخبارية للحملة ضد الإرهاب.. لأنها جزء من المجتمع الدولى ولا تستطيع أن تعيش بمعزل عنه..

وهكذا أصبحنا نسمع هذا الكلام كل يوم من المسئولين في الحكومة الباكستانية.. وكلما حاولنا أن نناقشهم فيه أو نضيق عليهم بالأسئلة.. يعيدون نفس الكلام بصيغ مختلفة.. حتى أننى عندما سألت السفير رياض محمد خان سؤالاً محدداً يقول: أيهما نصدق.. الرئيس مشرف أم الرئيس بوش.. الأول قال إن الحرب ستكون قصيرة.. والثانى قال إنها ستطول..؟.. رد قائلاً بانفعال: وهل تنتظر منى أن أقول لك غير ماقاله الرئيس مشرف..!

كذلك عندما كانت تطرح مسألة قتل المدنيين في أفغانستان تحت القصف الأمريكى، والمعاناة التى تلاقيها آلاف الأسر منهم التى شردت علي حدود الدول المجاورة هرباً من القصف.. يسارع المسئولون الباكستانيون بالإعراب عن تأثرهم لذلك بأربع كلمات كنا نحفظها.. هى: التألم.. والأسف.. والتعازى والمواساة.. ثم يعيدون علي الصحفيين قصة ماسبق أن بذلوه من محاولات لإقناع طالبان بالتجاوب مع رغبات المجتمع الدولى..

لكن زميلاً آخر من الصحفيين أعاد طرح نفس السؤال علي المتحدث في وزارة الخارجية بصيغة جديدة.. قال: لقد مات من الأفغان حتي الآن أكثر من ألف شخص تحت القصف.. فما هو رقم الضحايا الذى ستعلن عنده باكستان التوقف عن تقديم المساعدات للقوات الأمريكية.. ألفان.. أم ثلاثة آلاف.. أم أكثر؟!..

فلم يجد المتحدث الرسمى ما يجيب به علي هذا السؤال سوي أن قال: ياأخى لقد أعلنا من قبل على لسان وزير الخارجية أننا نتألم لموت ضحايا من المدنيين ونقدم التعازى والمواساة لأسرهم.. ألا يكفيك هذا..؟!

* * *

كان وضع المدنيين الأفغان هو أكثر مايثير القلق والإحراج للحكومة الباكستانية..

ففى هذه الفترة كانت محطات التليفزيون تبث مشاهد مروعة لصور حطام المنازل وأشلاء القتلى من الأطفال والنساء وكبار السن الذين لم يتمكنوا من مغادرة قراهم فدمرت منازلهم..

وظهرت علي شاشة تليفزيون «الجزيرة» طفلة صغيرة تبكى وهى تقول: إن والدها لم يكن يمتلك أجرة سيارة تنقلهم إلي أحد معسكرات اللاجئين علي الحدود فاضطروا للبقاء فى منزلهم.. لكنه قصف ومات جميع أفراد أسرتها..!

هكذا كان أيضاً مصير مئات الأسر..!

ولم يكن الذين يمتلكون أجرة السيارة أفضل حظاً.. فقد قتل معظمهم في الطريق.. وروى لنا من نجا منهم قصصاً مؤلمة عن نسف السيارات بالصواريخ.. ومصرع الركاب وجرح المئات وتفرق الأسر.. كانت الجثث تلقى على جوانب الطرق لاتجد من يدفنها.. وكان المصابون ينقلون إلي مستشفيات لا تتوفر بها أبسط المستلزمات الطبية.. وكانت الأمهات والآباء يفترقون عن أطفالهم ثم يبدأون بعد ذلك رحلة البحث

عن من نجا منهم في المستشفيات .. أو معسكرات اللاجئين..!

مآسٍ مروعة رواها لنا الفارون من القصف الأمريكي الذين استطاعوا الوصول إلي الحدود الباكستانية.. قالوا إنهم تركوا خلفهم آلاف الأسر ممن مازالوا في الطريق يحاولون الوصول إلي باكتسان أو غيرها عبر طرق وعرة وفي ظروف بالغة الصعوبة..! قال أحد الفارين إنه غادر مدينة «هيرات» في رفقة خمس أسر، وخلال مدة الرحلة التي استغرقت ستة أيام لقي ٢٥ شخصاً ممن كانوا معه مصرعهم في الطريق..!.. لاجئ آخر قال إن الغارات الأمريكية دمرت معظم منازل قريته وقتلت ١٨ شخصاً من افراد أسرته، فلم يبق علي قيد الحياة من الأسرة سوى طفلين فقط فاضطر إلي حملهما والسير بهما بإتجاه الحدود الباكستانية..!

لكن للأسف.. لم تكن الحدود مفتوحة لاستقبال هؤلاء الفارين من الموت..!

أغلقتها باكستان في وجوههم بدعوى أنه يوجد علي أرضها أكثر من ثلاثة ملايين لاجيء أفغاني يشكلون عبئاً اقتصاديا وأمنيا بالنسبة لها.. وأن ظروفها الاقتصادية لا تساعدها علي استقبال المزيد من اللاجئين..

كان هذا هو «الكلام الرسمي» الذي قاله المسئولون في الحكومة الباكستانية..

- ظاهره.. يحقق فائدة اقتصادية كبيرة لباكستان.. لأنه يعنى أن علي المجتمع الدولى الإسراع بإرسال المساعدات الاقتصادية لها حتى تتمكن من غوث هؤلاء اللاجئين..

- وباطنه.. يحقق فائدة سياسية كبيرة أيضاً.. لانه يعنى أن باكستان وضعت حجراً علي قلبها ولم تأبه لتوسلات الفارين من الموت.. استجابة لطلب الإدارة الأمريكية من جميع الدول المجاورة لأفغانستان بإغلاق الحدود معها.. حتى لا تتاح الفرصة لاسامة بن لادن والملا محمد عمر بالتسلل بين الفارين إلي الخارج..!

إلا أن هذه الفوائد لم تكن تعنى شيئاً بالنسبة للأفغان الفارين الذين كان الموت خلفهم وباكستان أمامهم.. وبالتالى لم يكن لديهم أى خيار سوى عبور الحدود الباكستانية بأى شكل.. فاصطدموا مع حرس الحدود ووقعت اشتباكات عنيفة.. وأطلقت أعيرة نارية.. وسالت دماء كثيرة على خط الحدود.. وتدخلت الأمم المتحدة بتوجيه عدة نداءات إلي الحكومة الباكستانية لفتح حدودها مع أفغانستان.. فاستجابت باكستان لهذه النداءات «نصف استجابة» بأن سمحت بالدخول للحالات الإنسانية فقط.. الأطفال والنساء والجرحى وكبار السن..

لكن ذلك لم يحل المشكلة.. لأن معدل تدفق الأفغان الفارين من جحيم القصف الأمريكى باتجاه الحدود الباكستانية كان عالياً جداً.. فتكدسوا بالآلاف علي الحدود وأصبح لابد من إيجاد حل لمشكلتهم..!

باكستان إقترحت إقامة معسكرات إيواء لهم - علي حساب الأمم المتحدة - في الجانب الآخر من الحدود داخل الأراضى الأفغانية.. طالبان وافقت.. وتم بالفعل إقامة عدد من

هذه المعسكرات.. لكن المشكلة أنها لم تستوعب سوى عدد محدود من اللاجئين.. وبقى معظمهم في العراء.. فضلاً عن عدم توفر المواد الغذائية والأغطية الكافية..

المشكلة الأكبر.. كانت في معاناة الملايين بالداخل الذين لم يتمكنوا من الفرار وأصبحوا يواجهون ظروفاً مأساوية.. حيث أدي القصف المستمر إلي عدم قدرتهم علي الخروج للعمل، فتعطلت المصالح، ونقص الغذاء والمؤن.. لاسيما بعد قصف الطائرات الامريكية لمخازن الصليب الأحمر في كابول..

وقد وصل الحال بهؤلاء الناس إلي درجة أن طالبان نفسها أخذت تستغيث بالمجتمع الدولى ومنظمات الإغاثة الإنسانية لسرعة إرسال المعونات والأدوية.. فالمجاعة انتشرت بين السكان.. والمستشفيات نفدت منها الأدوية.. وأصبح ملايين الأفغان علي شفا الموت..

مسئولو منظمات الإغاثة بذلوا محاولات حثيثة لادخال المعونات لهم.. وكانوا يجدون صعوبة شديدة فى العثور علي سائقى شاحنات يقبلون الذهاب الي أفغانستان في ظل استمرار القصف.. الأمر الذى دفع الأمم المتحدة إلي إصدار نداء «غير مسبوق» تناشد فيه الولايات المتحدة الامريكية وحلفاؤها وقف الحرب في أفغانستان لاتاحة الفرصة للقيام بعمليات إغاثة واسعة النطاق لإنقاذ ٧,٥ ملايين أفغانى بالداخل من المجاعة.. وصفهم المتحدث باسم المفوضية العليا للاجئين التابعة للأمم المتحدة بأنهم «يعانون الفقر المدقع والجوع والمرض بدرجة تحول دون سفرهم إلى أى بلد مجاور»..! وقالت «مارى روبنسون» المفوضة العليا لحقوق الإنسان في الأمم المتحدة إن مجلس الأمن عندما صوت في ٢٨ سبتمبر ٢٠٠١ لمكافحة الإرهاب، فإنه شدد في نفس الوقت علي ضرورة احترام حقوق المدنيين.. وحذرت من أن «الأفغان سيموتون من الجوع إذا لم تصلهم المساعدات الغذائية على الفور»..!

نفس النداءات انطلقت من منظمات دولية أخرى تابعة للأمم المتحدة، مثل برنامج الغذاء العالمى.. واللجنة الدولية للصليب الأحمر.. وهكذا انتشرت فى المجتمع الدولى حالة من القلق على أوضاع المدنيين فى أفغانستان.. أخذت تتزايد مع تزايد أنباء قصف المناطق المدنية، الذى كانت تبرره الولايات المتحدة دائماً بأنه «تم عن طريق الخطأ»..!

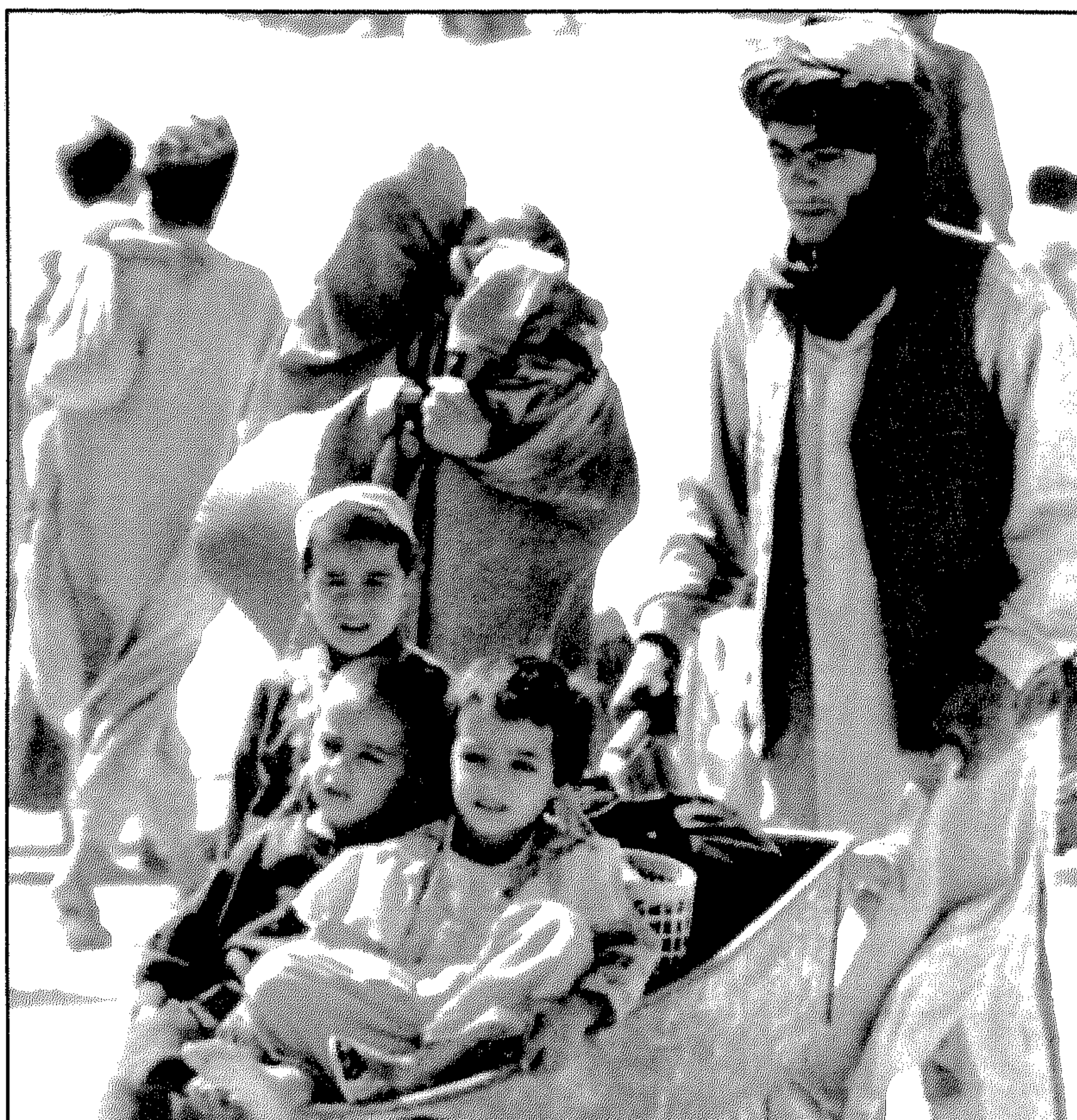
الولايات المتحدة رفضت بالطبع الاستجابة للنداءات الدولية التى تطالبها بوقف الحرب.. لكن فى محاولة لتحسين صورتها أمام العالم، قررت أن تقوم هى نفسها بتوصيل المساعدات الغذائية إلى الأفغان عن طريق إسقاطها لهم بالطائرات.. فكان هذا الإجراء هو أحد أعراض حالة «الشيزوفرينيا» التى اتسمت بها مواقف الإدارة الأمريكية فى عهد الرئيس بوش الابن..!



تركوا الطفل الصغير يحرس متاع الأسرة



هكذا قطع الأب وأولاده الطريق إلى الحدود الباكستانية



لم يكن يمتلك أجرة السيارة التى يفر بها من القصف..
فوضع أولاده فى عربة صغيرة، وأخذ يدفعها بيده وزوجته بجواره



الأب والأم
يجلسان فى
حالة حزن
شديدة بجوار
ابنتهما
الصغيرة التى
بترت يدها
اليمنى عند
تعرضهم
للقصف أثناء
الطريق



قوات حرس الحدود الباكستانية تتصدى للاجئين الافغان وتمنعهم من عبور الحدود إلى باكستان



هكذا جلسوا عند الحدود بعد أن منعتهم السلطات الباكستانية من العبور



اطفال ونساء ابرياء يجلسن على الارض بعد ان دمرت منازلهم



افغان يتفقدون منازلهم التى دمرها القصف الامريكى



الأم وأطفالها.. ونظرة إلى المجهول



حملت طفلها الصغير وسارت خلف زوجها.. إلى أى مكان.. بعيدا عن القصف

لأنه كان هناك نوعان من الطائرات الأمريكية تغير على أفغانستان فى وقت واحد.. طائرات محملة بالقنابل والصواريخ.. وطائرات محملة بأكياس الدقيق..!

طائرات تقصف مستودعات غذاء الصليب الأحمر.. أكثر من مرة فى أيام مختلفة مما يؤكد أن القصف لم يتم عن طريق الخطأ.. وطائرات اخرى تسقط فى نفس المناطق التابعة لطالبان - صناديق المعلبات الغذائية..!

هذا التناقض الصارخ.. زاد من آلام الشعب الأفغانى الذى من طبيعته الاعتزاز الشديد بالنفس وتفضيل الموت على التفريط فى الكرامة.

لذلك.. كان الأفغان يحرقون أكياس الدقيق وصناديق الأغذية التى تسقطها الطائرات الأمريكية.. ويرفضون استخدامها رغم حالة «الفقر المدقع والجوع» التى كانوا يعانون منها.. هكذا أكد الملا عبدالسلام ضعيف فى أكثر من مؤتمر صحفى بإسلام آباد..

كان كلما تحدث يناشد الأمم المتحدة ومنظمات الإغاثة الدولية الإسراع بإرسال المساعدات إلى الشعب الأفغانى لإنقاذه.. يسأله بعض الصحفيين: ألا تكفيكم المساعدات التى تسقطها لكم الطائرات الأمريكية..؟! فيرد الرجل بأن الأفغان يحرقونها لأنهم لا يقبلون المساعدة من أعدائهم.. ولأن الولايات المتحدة لو كانت تريد مساعدة الشعب الأفغانى فعلاً لأوقفت هذه الحرب..!!

كان يقول أيضاً: «إن سياسة إراقة الدماء وإسقاط الطرود الغذائية التى تتبعها الولايات المتحدة.. هى سياسة تنطوى على الرياء والنفاق الدولى.. وغير مقبولة».

* * *

هذه الأوضاع المأساوية التى كان يعيشها الأفغان سواء فى الداخل أو فى معسكرات اللاجئين على الحدود .. جعلت السؤال عن موعد انتهاء الحرب يزداد إلحاحاً فى الشارع الباكستانى.

نحن أيضاً كنا نطرحه فى كل مناسبة .. وفى جميع المؤتمرات الصحفية.. خاصة مع اقتراب شهر رمضان..

ثم بدأنا نسأل: هل يمكن أن تستمر الحرب فى شهر رمضان..؟!

السؤال ترددت أصداؤه فى معظم عواصم العالم الإسلامى.. ووجدت بعض الحكومات فيه فرصة لمطالبة الولايات المتحدة بإنهاء الحرب قبل شهر رمضان مراعاة لمشاعر المسلمين وحرمة الشهر المعظم.

هكذا قال الرئيس الباكستانى بيرفيز مشرف فى إسلام آباد.

وقال د. أسامة الباز المستشار السياسى للرئيس مبارك فى القاهرة.



د. حسن ويراجودا

وذهب وزير خارجية اندونيسيا د. حسن ويراجودا إلى درجة تحذير الولايات المتحدة الأمريكية من تفجر رد فعل هائل فى أنحاء العالم الإسلامى إذا استمرت فى حربها ضد أفغانستان خلال شهر رمضان، لأن المسلمين يحرصون دائماً فى هذا الشهر على إظهار تكاتفهم وتضامنهم مع بعضهم البعض فى مواجهة المحن.. ولأن الله سبحانه وتعالى حرّم القتال فى شهر رمضان.

الرد الأمريكى على ذلك جاء فى شكل «فتوى» أصدرها وزير الدفاع «دونالد رامسفيلد» قال إن الحرب «حلال» فى شهر رمضان.. وساق دليلاً على صحة فتواه بأن دولاً إسلامية ـ مثل العراق وإيران ـ حاربت بعضها فى هذا الشهر..! وأن الفصائل الأفغانية نفسها ظلت لعدة سنوات تتقاتل ولم توقف قتالها فيه، وبالتالى فليس هناك سبب يجعل أمريكا توقف الحرب..!

نفس السؤال طرح على «كولين باول» وزير الخارجية الأمريكى فتفادى بلباقة الرد عليه بالإيجاب أو النفى .. وقال إنه يأمل أن تحقق الحملة العسكرية على أفغانستان أهدافها قبل حلول شهر رمضان.

لكن ردود بعض المسئولين الآخرين فى الإدارة الأمريكية جاءت «مستفزة» لمشاعر المسلمين.. فمثلاً «ديك تشينى» نائب الرئيس الأمريكى قال لصيحفة «واشنطن بوست» إن الحرب ضد الإرهاب التى بدأت فى ٧ اكتوبر قد لاتنتهى أبداً.. على الأقل ليس فى حياتنا»..!.. الجنرال «ريتشارد مايرز» رئيس هيئة الأركان فى الجيش الأمريكى قال إن الحرب الدائرة الآن سوف تكون طويلة الأمد.. طويلة جداً.. قد تمتد للربيع القادم.. وربما الصيف القادم.. أو ربما بعد ذلك..!

هذا الموقف الأمريكى الذى كشف بوضوح عن «لا مبالاة» الإدارة الأمريكية بمشاعر المسلمين وحرمة شهر رمضان بالنسبة لهم.. زاد من غضب الشارع الباكستانى وخلق أزمة حقيقية لحكومة الرئيس مشرف.. خاصة عندما طالبها الشارع بوقف تقديم المساعدات للقوات الأمريكية اثناء شهر رمضان إذا لم تكن قادرة على إقناع الولايات المتحدة بوقف هذه الحرب.

لكن المشكلة أن حكومة مشرف لم تكن فى وضع يسمح لها باتخاذ خطوة كهذه.. لأنه كان لديها ثلاث أولويات أخرى فى علاقتها بالولايات المتحدة تسبق مسألة وقف الحرب فى رمضان.

هذه الأولويات كانت تبدأ بالرغبة فى كسب تأييد الولايات المتحدة لموقف باكستان فى نزاعها مع الهند حول كشمير .. ثم الرغبة فى الحصول على مساعدات اقتصادية من الولايات المتحدة للخروج من الأزمة الاقتصادية التى تمر بها باكستان.. ثم الرغبة فى بناء علاقة تحالف استراتيجى بين الدولتين تعود بالعلاقات بينهما إلى ما كانت عليه من قوة واستقرار فى زمن الحرب الباردة.. عندما كانت الهند حليفة للاتحاد السوفيتى وباكستان حليفة للولايات المتحدة.

لذلك.. ما أن شعرت حكومة مشرف بأن الولايات المتحدة لا تريد وقف الحرب فى رمضان، حتى سارعت بالإعلان على لسان الرئيس بيريز مشرف شخصياً يوم ٣٠ اكتوبر ٢٠٠١ إنها لن تضغط على الولايات المتحدة لإنهاء حملتها العسكرية على أفغانستان قبل شهر رمضان ما لم تكن الأهداف العسكرية لهذه الحملة قد اكتملت..

* * *

الفصل السادس عشر

• المعارضة تزأر..

« إن الرئيس مشرف يتصرف
كما لو كان أجيراً لدى الأمريكان »»

قاضى حسين أحمد

رئيس الجماعة الإسلامية فى باكستان
فى مؤتمر صحفى بمطار لاهور
يوم ٢٢ اكتوبر ٢٠٠١

« إن الشعب سيطيح بمشرف
وسيجره فى الشوارع لأنه لم يعد
يصلح رئيساً للبلاد ولا قائداً
للجيش »..!

لياقت بلوخ

فى اجتماع حاشد يوم ٢٧ اكتوبر ٢٠٠١

□ *كان كل هدف تصيبه الولايات المتحدة فى أفغانستان.. تكسب مقابله المعارضة الباكستانية أرضاً جديدة على الساحة السياسية..!*
فهذه المعارضة التى كان صوتها خافتاً حتى أمام أعتى الإجراءات مثل حل البرلمان وإلغاء الانتخابات النيابية فى البلاد.. أخذ صوتها يعلو ويغلظ فى وجه الحكومة بسبب استمرار مساندتها للحملة الأمريكية على ما تسميه أمريكا «مواقع الإرهابيين» وتسميه المعارضة الباكستانية «بلاد المسلمين»..!

طبعاً الفارق كبير بين المعنيين.. وبحجم هذا الفارق أصبح أيضاً حجم الفارق بين موقفى الحكومة والمعارضة فى باكستان، التى أصبحت تقودها الجماعات الإسلامية..

الخطير فى الأمر أن الأرض الجديدة التى اكتسبتها المعارضة الباكستانية كانت تقف عليها عناصر مؤثرة فى الساحة السياسية كالمهنيين من أطباء ومحامين ومثقفين الذين انتقلوا من مرحلة «الاعتراض الصامت» إلى مرحلة «التظاهر فى الشوارع»..

كانت تقف عليها أيضاً وسائل الإعلام التى أخذت تكشف كل يوم عن عدد من الحقائق التى تحرج الحكومة وتقوى موقف المعارضة.. مثل مسألة تواجد قوات أمريكية على الأراضى الباكستانية واستخدام القواعد البحرية الباكستانية فى الهجوم على أفغانستان.. وهو ما كانت تنفيه الحكومة فى البداية..!

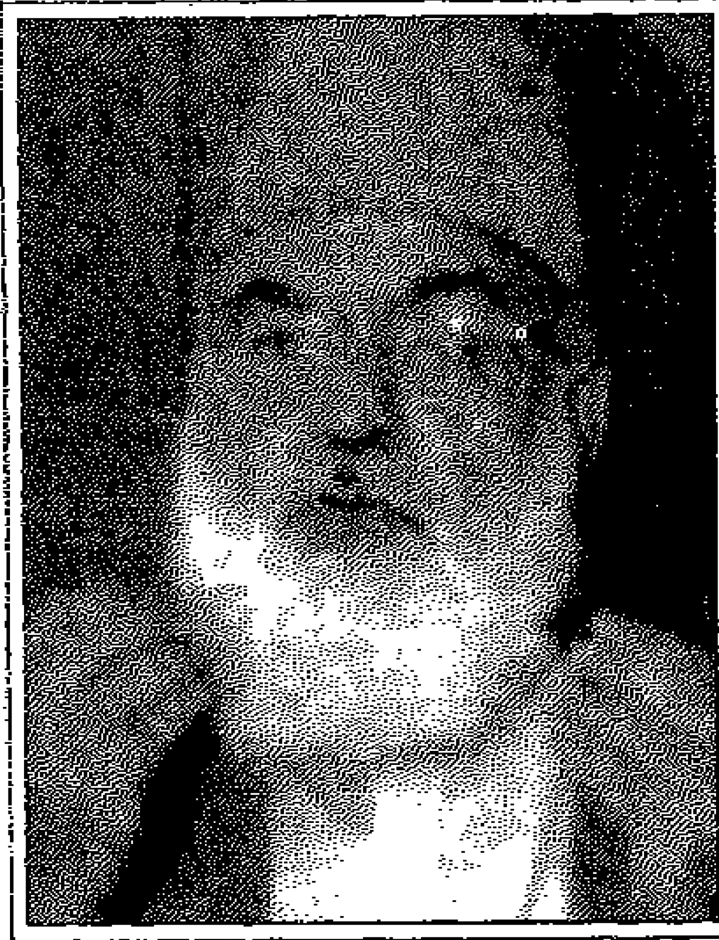
نجوم الشارع السياسى الباكستانى فى تلك الفترة كانوا هم: قاضى حسين أحمد رئيس الجماعة الإسلامية.. وسميع الحق رئيس مجلس الدفاع عن أفغانستان وباكستان.. وفضل الرحمن رئيس جمعية علماء الإسلام.

كانت منابرهم عبارة عن سيارات نصف نقل يجلسون فوقها وسط المظاهرات فى عرض الشارع.. وأدواتهم عبارة عن لافتات ترفع.. ودمى وأعلام أمريكية تحرق.. وعندما يقف أحدهم يخطب فى الناس عبر ميكروفون يعمل على بطارية السيارة، كان المتظاهرون يفترشون الأرض ساعات طويلة وكلهم تأثر بكل كلمة ينطق بها.. وبين الحين والآخر يقف أحد المتظاهرين يهتف بسقوط أمريكا وحياة بن لادن..

فيردد الجميع الهتاف خلفه بحماس منقطع النظير..!

كان النجوم الثلاثة لهم نواب ومساعدون ومندوبون فى كل مدينة وقرية فى باكستان.. يقومون بالتنسيق بينهم وإعداد كل شيء.. مكان المظاهرة.. وموعدها.. ونقطة انطلاقها.. وخط سيرها.. الخ.. ويحرصون على دعوة مراسلى الصحف ومحطات التليفزيون لنقل المظاهرة إلى القراء والمشاهدين فى جميع أنحاء العالم حتى تصلهم رسالة مفادها: أن طالبان ليست وحدها فى الحرب، وإنما يقف معها الشعب الباكستانى.

هتافات المتظاهرين كانت فى الأيام الأولى من الحرب تدعو مشرف إلى سحب تأييده للولايات المتحدة والتوقف عن تقديم المساعدات لها.. ثم تطورت مع استمرار الحرب إلى التهديد بإزاحته من السلطة.. هكذا هتف المتظاهرون فى «كويته» و«كراتشى» و«لاهور» و«بيشاور» و«روالبندى» يوم الجمعة ١٩ اكتوبر ٢٠٠١.. وقال قاضى حسين أحمد إن أعضاء الجماعة الإسلامية فى كل أرجاء باكستان سيزحفون يوم الأحد من نفس الأسبوع إلى العاصمة «إسلام آباد» لمطالبة الرئيس مشرف بسحب تأييده للولايات المتحدة فى حربها ضد أفغانستان..


قاضى حسين أحمد

وإلا فإن الجماعة الإسلامية ستعمل على إسقاط حكومته..!

يوم الأحد كانت قوات الأمن منتشرة فى كل مكان بالعاصمة فى انتظار المتظاهرين... فسارت المظاهرة فى شوارع «روالبندى» التى تبعد عن «إسلام آباد» حوالى ١٥ كيلو متراً فقط ويوجد بها مقر قيادة الجيش.

فى هذه المظاهرة ألقى قاضى حسين أحمد خطبة طويلة أكد فيها دعم جماعته الشديد لأسامة بن لادن وحركة طالبان.. وقال ان الرئيس مشرف قد ساوم على أمن باكستان وبرنامجها النووى، مقابل عدة دولارات.. و فشل فى الصمود ومقاومة الضغط الأمريكى عليه.

فى اليوم التالى.. كان الرجل فى طريقه من مدينة «لاهور» إلى مدينة «سكهر» بإقليم السند لقيادة مظاهرة شعبية لحصار قاعدة «يعقوب آباد» الجوية التى تستخدمها المقاتلات الأمريكية.. فمنعته سلطات مطار «لاهور» من ركوب الطائرة.. فعقد مؤتمراً صحفياً فى صالة المطار وصف فيه الرئيس مشرف بأنه يتصرف كما لو كان «أجيراً لدى الأمريكان»..!.. وقال «إن الجماعة الإسلامية لن تقاتل ضد الجيش.. ولكنها ستركز على إزاحة مشرف من السلطة، لأنه يمهد الطريق أمام الولايات المتحدة للمجيء إلى المنطقة.. حيث لديها خطة للبقاء طويلاً فيها لتدمير علاقات الصداقة بين باكستان والصين واحتلال منابع البترول والثروات المعدنية فى آسيا».

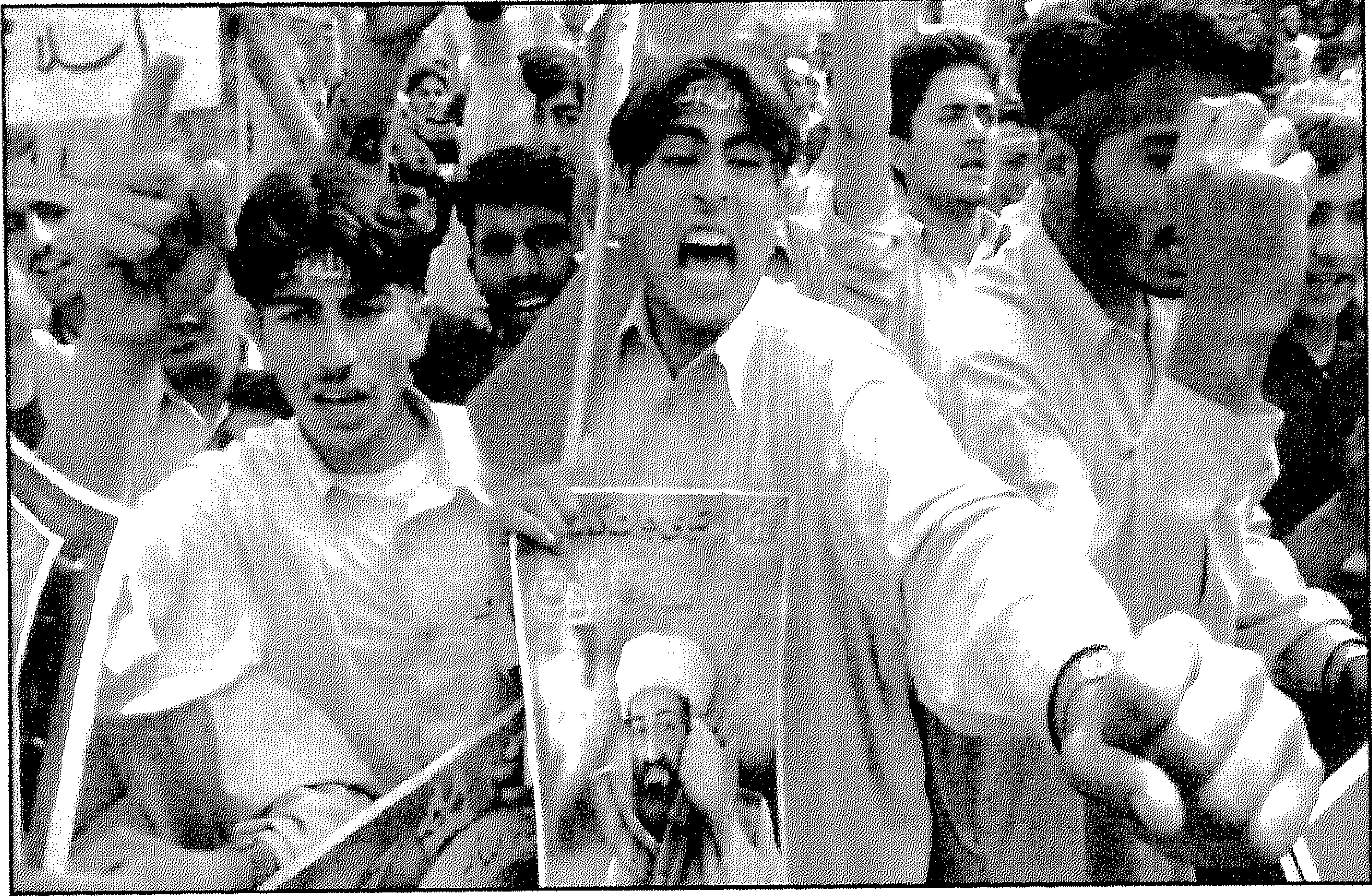
بعد أيام قليلة دعت الجماعة الإسلامية الجيش إلى الإطاحة بمشرف.. قال «لياقت بلوخ» نائب رئيس الجماعة فى اجتماع حاشد يوم ٢٧ اكتوبر ٢٠٠١: «إن الجماعة



تسقط أمريكا.. وتعيش طالبان



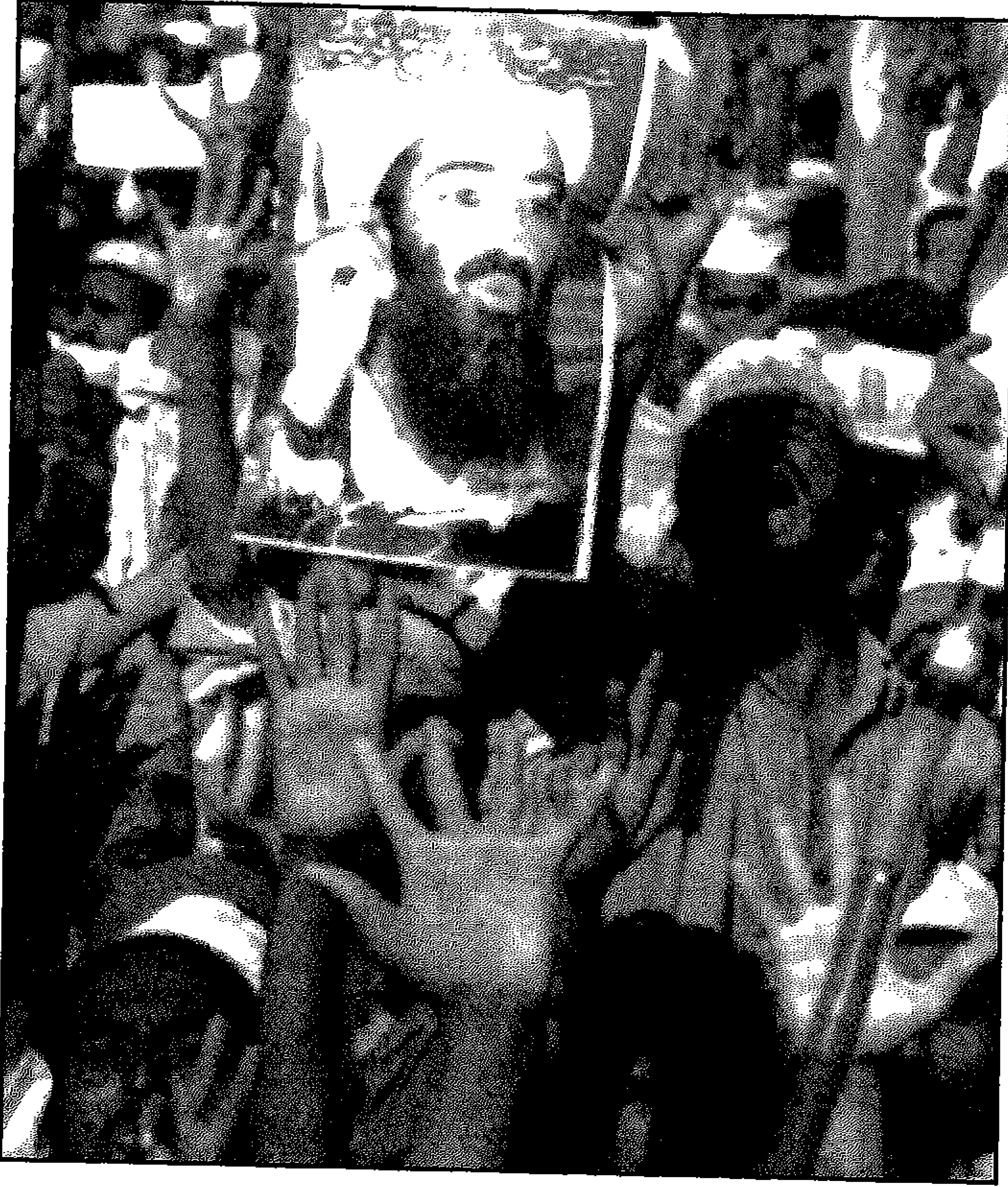
أمريكا الكافرة تقتل المسلمين فى أفغانستان



متظاهرون يقسمون على الثأر من أمريكا



المعارضة الباكستانية تؤكد وقوفها خلف طالبان وأسامة بن لادن

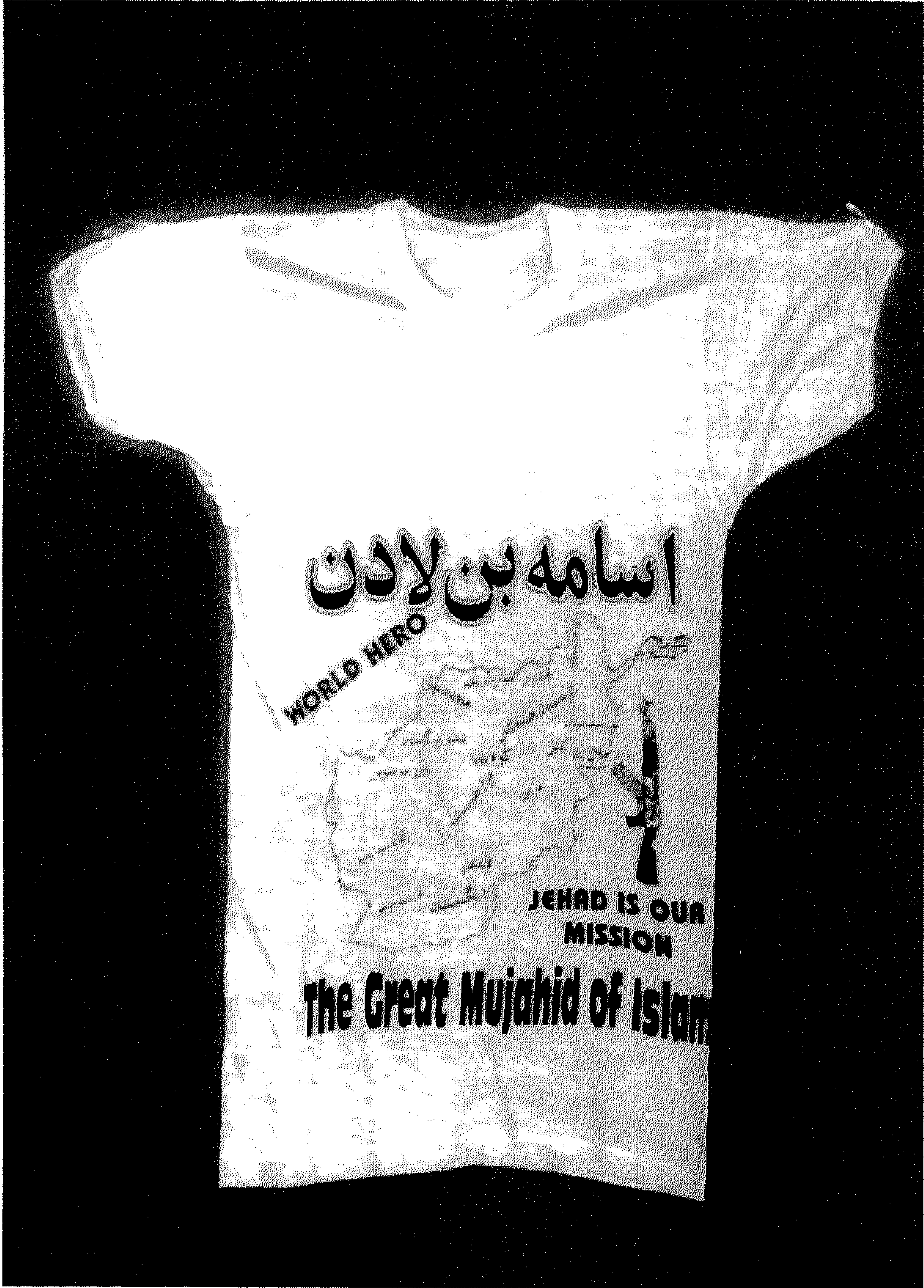


كلنا فداء
أسامة
بن لادن

تدعو الجيش وقادة الفرق وضباط القيادة إلى اتخاذ قرار يتفق مع ضمائرهم لتخليص الأمة من مشرف وإنقاذ مستقبل البلاد من التدهور» .. لكنه أضاف: «إن الشعب سيطيح بمشرف وسيجره فى الشوارع لأنه لم يعد يصلح رئيساً للبلاد ولا قائداً للجيش»..!

خطبة الجمعة فى المساجد تحولت أيضاً إلى خطبة سياسية تنتهى بالدعاء على أمريكا.. وكل من يتعاون معها فى العدوان على المسلمين.. وأثناء الخطبة يقوم اثنان من المصلين بالمرور بين الصفوف لجمع التبرعات المالية لصالح طالبان.. رأيتهما فى «المسجد الأحمر» بوسط إسلام آباد يجمعان التبرعات فى «ملاءة سرير» ثم ربطا أطرافها الأربع فأصبحت على شكل صرة كبيرة مملوءة بالنقود وذهبا بها بعد الصلاة إلى السفارة الأفغانية ـ على مسافة قريبة من المسجد ـ فسلماها إلى الملا عبدالسلام ضعيف.

هناك فى نفس اليوم ـ ٢٦ أكتوبر ٢٠٠١ ـ التقيت فى السفارة مع مجموعة من التجار الباكستانيين حضروا من مدينة «كراتشى» لتسليم السفير الأفغانى كمية من النقود تم جمعها من زملائهم لدعم صمود طالبان.. عرفت منهم ان فى «كراتشى»



قميص بن لادن.. وعليه خريطة أفغانستان.. أصبح يرتديه معظم الشباب الباكستانى

محترم پرویز مشرف

جنرل مشرف صاحب، دنیا کے ہر ریڈیو، ہر ٹی وی پہ آپ ہی کا نام ہے

دو میں سے ایک احسان فرما دیں

—یا— میرے سوالات کا جواب دیں یا دلوائیں —یا— مجھے میری شرائط پہ پھانسی دیں، مجھ پر ہی نہیں امت پہ بھی احسان ہو گا

تحریک فہم القرآن کے قائد و مؤسس میجر (ریٹائرڈ) محمد امین منہاس نے ۹ اکتوبر ۲۰۰۱ء کو جنرل مشرف صاحب کے افغانستان پہ امریکی اور برطانوی حملہ کے تیسرے روز جنرل مشرف صاحب سے دو درخواستیں کیں ایک یہ کہ جو سوالات میجر منہاس سے لندن میں پوچھے جا رہے ہیں ان کا جواب دیں یا کسی جسٹس صاحب سے دلوا دیں اور دوسرا میجر منہاس جو کہ قرآن و سنت سے صدفی صد متصادم آئین پاکستان کے سالہا سال سے باغی ہیں (جس کی سزا آئین پاکستان کے مطابق موت ہے) کے تحریری اقرار پہ میجر منہاس کو ان کی شرائط پہ پھانسی دی جائے

=== [illegible] ===

تک قرآن کریم کی تفسیر ریکارڈ کروانے پہ، مسلسل سات سال تک ماہ رمضان میں تین غیر اعظم میں سنے جانے پہ فخر ہے۔ اس حوالے سے لوگ پوچھتے ہیں۔ لیکن سوالات کا جواب شاید مشکل ہو پھانسی کا حکم دینا یا دلوانا آسان ہے۔ آئیں پھانسی دیئے جانے کی درخواست کی قانونی صورت حال اور اس کی حقانیت کا جائزہ لیتے ہیں

=== آئین پاکستان سے بغاوت کی سزا موت ہے ===

اس میں تو نہ آپ کو کوئی اختلاف ہے نہ کسی قانون دان کو نہ کسی جسٹس کو۔ اگر کوئی شے جواب طلب ہے وہ یہ ہے کہ آئین پاکستان کے بالفعل غداروں کو نہیں معلوم تمام چیف جسٹس صاحبان کے شاید ہی کوئی ہو۔ اگر روز روشن کی طرح آئین پاکستان کے باغیوں کو ذکر کریں تو ولی خان صاحب سے لے کر قائد ایم کیو ایم اور جی ایم سید (جو ہوئی کے حضور جا چکے) کون نہیں، انہیں پھانسی کی سزا اس لئے نہیں دی جا سکی تھی ان کا آئین پاکستان سے باغی ہونا عدالت میں ثابت نہیں کیا جا سکا

=== اس عاجز (میجر منہاس) کی صورت حال بالکل مختلف ===

ہے۔ میجر منہاس تو اقراری مجرم ہے۔ اس کے خلاف تو کچھ ثابت نہیں کرنا۔ میجر منہاس تو سالہا سال سے تحریراً لکھ کر دے رہا ہے کہ میں قرآن و سنت کے صدفی صد متصادم آئین پاکستان کا باغی ہوں مجھے میری شرائط پہ پھانسی دی جائے

=== جنرل صاحب آپ جاننا چاہیں گے کہ مجھے میری شرائط پہ پھانسی ===

دی جانے کی شرط کیوں۔ جواباً عرض ہے کہ ۹ اکتوبر کو جاری کردہ انگریزی بلیٹن میں تحریر کیا گیا تھا کہ آج کی قانونی امت مسلمہ میں سے ایک فی ملین بھی یہ کہنے کے لئے تیار نہیں کہ میں وہ مسلمان بننے کے لئے تیار ہوں جسے قرآن و سنت قانونی نہیں بلکہ حقیقی مسلمان قرار دیتا ہے۔ آج تک پوری دنیا میں سے ایک سے بھی نہیں نکلا۔ تو جب صورت حال یہ ہو اور بد نصیب کفار کے ساتھ مل کر کروڑوں کو مروا رہا ہو تو زندہ رہنے سے فائدہ؟

=== اب شرائط سن لیں ===

۱- اسمبلی ہال کے سامنے اس طرح سے (میرے خرچ پہ) پھانسی گھاٹ بنایا جائے کہ لا الہ الا اللہ کی تحریر نظر آ رہی ہو
۲- پھانسی کے وارنٹ پہ دستخط مجھ سے لندن کے ہوائی اڈے پہ جہاز میں بٹھانے سے پہلے کروائے جائیں
۳- اسلام آباد کے ہوائی اڈے سے سیدھا مجھے پھانسی گھاٹ لے جایا جائے
۴- میرے ہاتھ بے شک پیچھے بندھے ہوں لیکن چہرہ کھلا ہو تاکہ میں اعلان کر سکوں۔ اللہ گواہ رہنا، تاحد نظر مسلمان سن رہے ہیں کہ میں قرآن و سنت کے صدفی صد متصادم آئین پاکستان کا باغی ہوں۔ میں تو اس آئین کا ہی وفادار ہوں گا جس میں قرآن و سنت سپریم لاء ہو۔

===== ورق الٹیے =====

میجر منہاس ===== ۹ اکتوبر ۲۰۰۱ء ===== تحریک فہم القرآن

[illegible]

=== تحریک فہم القرآن ===

(پاکستان) اسلام آباد 12820901 ای میل pk@tehreek.com

بعض المنشورات التي كانت توزعها المعارضة الباكستانية

انسانیت کے اصل دشمن

جنات میں سے ابلیس لعین ۔۔۔ اور ۔۔۔ انسانوں میں سے یہودی ہیں!

امریکی عوام بھی اپنے اصل دشمن کو پہچانیں!!

- ہر مسلمان ہی نہیں اہل کتاب میں سے بھی ہر شخص جانتا ہے کہ جب اللہ تعالیٰ نے حضرت آدم کو خلافت ارضی عطا فرمائی تو ابلیس لعین نے حسد اور تکبر کی بنا پر بغاوت کر دی اور نسل آدم کو گمراہ کرنے کی قسم کھائی!
- اسی طرح ہر مسلمان اس سے واقف ہے کہ جب اللہ تعالیٰ نے ختم نبوت اور تکمیل رسالت کا تاج محمد رسول اللہ ﷺ کے سر مبارک پر رکھ دیا اور آپؐ کی امت کو خیر امت قرار دے دیا تو یہودی بھی حسد اور تکبر کی بنا پر نبی اکرمؐ اور آپؐ کی امت کے بدترین دشمن بن گئے!
- مزید برآں یہودی اپنی فقہ کی کتاب "تالمود" کی تعلیمات کے مطابق اعلانیہ طور پر یہ سمجھتے ہیں کہ اصل انسان تو صرف ہم ہیں باقی تمام انسان جنہیں Gentiles اور Goyems کہتے ہیں انسانوں کی صورت میں اصلاً حیوان ہیں ۔۔۔ جنہیں "استحصال" (Exploit) کرنا اور ہر ممکن طور سے اپنے مفادات کی بھینٹ چڑھانا ہمارا پیدائشی حق ہے۔

آج عالمی سطح پر ان دونوں انسان دشمن قوتوں کا گٹھ جوڑ

عالم انسانیت کے امن و سکون کو تہہ و بالا کرنے پر تل گیا ہے چنانچہ:

- نیویارک اور واشنگٹن پر دہشت گردی کے حملے مسلمانوں کی تو فطرت اور مزاج کے بھی بالکل منافی ہیں اور مسلمانوں میں سے کسی بھی فرد یا گروہ کے پاس ان وسائل و ذرائع کا ہونا بھی محال مطلق ہے جو ان حملوں کے لئے لازماً درکار تھے ۔۔۔ لامحالہ یہ کام اسرائیل کا ہے جس کے ایجنٹوں کا تانا بانا (Net Work) امریکہ میں ہر جگہ اور ہر سطح پر موجود ہے ۔۔۔ چنانچہ یہ واقعہ دنیا کے سامنے آ چکا ہے کہ جب امریکہ میں تحقیق اور تفتیش کا رخ اسرائیل اور امریکہ میں یہودی لابی کی جانب مڑنے لگا تو اسے حکماً مزید پیش قدمی سے روک دیا گیا۔
- اس عظیم ترین حادثے اور گھناؤنی ترین سازش کے ذریعے اسرائیل نے جسے ڈربن کانفرنس میں "نسل پرست اور دہشت گرد" قرار دیا جا رہا تھا، پورے عالم عیسائیت کو گمراہ کر کے مسلمانوں کے خلاف لا کھڑا کیا ہے اور جیسے دوسرے ملینیم کے آغاز پر پہلی صلیبی جنگوں کے ذریعے لاکھوں مسلمانوں کو تہ تیغ کیا گیا تھا اسی طرح اب تیسرے ملینیم کے شروع میں دوسری "صلیبی جنگ" کی بھٹی دہکنے کا اندیشہ پیدا ہو گیا ہے۔

ان حالات میں:

- ایک جانب تو مسلمانانِ عالم کا فرض ہے کہ اپنی صفوں میں کامل اتحاد پیدا کریں اور اپنے حکمرانوں کو مجبور کر دیں کہ وہ یہودیوں اور عیسائیوں کے گٹھ جوڑ کے آلہ کار بننے کی بجائے اللہ تعالیٰ کی جناب میں توبہ کے طور پر اللہ اور اس کے رسول ﷺ کے دیے ہوئے قوانین نافذ کر کے اللہ کی امداد کے مستحق بنیں اور اللہ کی نصرت کے بھروسے پر اللہ کے باغیوں اور اس کے رسول خاتم ﷺ کے دشمنوں کی جانب سے کسی بھی اقدام کا مقابلہ کرنے کے لئے تیار ہو جائیں۔
- اور دوسری جانب امریکی اور یورپی عوام کو بھی چاہئے کہ اپنے اصل دشمن کو پہچانیں اور اس کی سازش کو ناکام بنا دیں ۔۔۔ ورنہ خواہ فوری طور پر مسلمانوں کو بھی کوئی بڑا نقصان پہنچ جائے لیکن آخری اور کامل تباہی تو لامحالہ یہودیوں کی ہوگی اور اس گندم کے ساتھ عیسائی اقوام بھی گھن کی طرح پس جائیں گی!

ساتھ ہی اللہ سے دعا کرنی چاہئے

کہ جیسے نبی اکرم ﷺ کے زمانہ مبارک میں اللہ تعالیٰ نے بہت سے مواقع پر یہودیوں کی جانب سے بھڑکائی جانے والی جنگ کی آگ کو اپنے اختیار خصوصی سے بجھا دیا تھا (بمصداق: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ المائدۃ: ٦٤) اسی طرح اس عظیم آگ کو بھی اپنے فضل خصوصی سے بجھا دے جو بالعموم پورے عالم انسانیت اور بالخصوص مسلمانوں کے دشمن یہودیوں نے بھڑکا دی ہے ۔۔۔ آمین یا رب العالمین

خادم اسلام و قرآن
ڈاکٹر اسرار احمد عفی عنہ
امیر تنظیم اسلامی و داعی تحریک خلافت پاکستان

مرکزی دفتر: A-67 علامہ اقبال روڈ گڑھی شاہو لاہور
فون: 6366638,6316638 فیکس: 6305110
E-mail:markaz@tanzeem.org

علاقائی دفتر: حلقہ سرحد جنوبی A-18 مرسیٹن روڈ نمبر 2
شعبہ بازار پشاور فون دفتر: 091-214495
E-mail:peshawar@tanzeem.org

... ایٹر کو یہ پیغام دے دیا کہ ہم پر کوئی دباؤ نہ ڈالا جائے ورنہ ہم امریکہ کی اینٹ سے اینٹ بجا دیں گے!
... ایک سابق اسرائیلی وزیراعظم نتن یاہو کی اس دھمکی پر بالفعل عمل کر کے کہ "میں واشنگٹن میں آگ لگا دوں گا"
... جس کی پلیٹ میں ان کی خواہش ہے کہ پاکستان اور اس کی ایٹمی صلاحیت بھی آ جائے۔
... کروا کر ایک طرف تو یہ کوشش کی ہے کہ امریکہ فوری طور پر منتقل ہو کر افغانستان

اپنے ایجنٹوں کے ذریعے

ان حالات میں مسلمانانِ پاکستان کے کرنے کے کام یہ ہیں کہ:

۔۔۔ اولاً: ہر شخص انفرادی سطح پر اللہ کی جناب میں توبہ کرے اور اپنی معاش اور معاشرت کا جائزہ لے کہ ان میں کوئی خلافِ شریعت عنصر تو شامل نہیں؟ ۔ اور اگر ہو تو اسے فی الفور ختم کر دے ۔۔۔ ثانیاً: اجتماعی سطح پر پاکستان میں اسلامی نظام کے قیام اور شریعت اسلامی کے نفاذ کے لئے جدوجہد کی جائے تاکہ قومی سطح پر بھی توبہ کا حق ادا ہو جائے ۔۔۔ ثالثاً: سلطنت خداداد اور وطن عزیز پاکستان اور بالخصوص اللہ کی خصوصی عنایت کی مظہر ایٹمی صلاحیت کو اسلام اور پوری امت مسلمہ کی امانت سمجھتے ہوئے اس کی حفاظت کے لئے تن، من، دھن قربان کرنے کا عزم کیا جائے اور ۔۔۔ رابعاً: اپنے افغان بھائیوں کی دامے، درمے، سخنے جو امداد بھی ممکن ہو اس سے دریغ نہ کریں!

ساتھ ہی حکومت پاکستان کو بھی چاہئے

کہ صرف فوری اور وقتی مصلحتوں اور خالص مادی مفادات سے بلند تر سطح پر اور محض "حال" ہی میں مقید ہونے کی بجائے "ماضی" اور "مستقبل" کو بھی سامنے رکھتے ہوئے وسیع تر تناظر میں غور و فکر سے کام لے ۔ چنانچہ یہ بھی پیش نظر رکھے کہ قیام پاکستان کے عظیم تر مقاصد کیا تھے اور اس کا بھی ادراک و شعور حاصل کرے کہ مشیت ایزدی میں مستقبل کے آخری معرکہ خیر و شر میں پاکستان کے لئے کون سا عظیم کردار مقدر ہے ۔۔۔ اس کے ساتھ ساتھ اس حقیقت سے بھی چشم پوشی نہ کرے کہ طالبان افغانستان کے بعد عالم کفر کا اگلا لازمی ٹارگٹ جہاد کشمیر اور پاکستان کی ایٹمی صلاحیت ہے ۔۔۔ لہٰذا ہمارے لئے لازم ہے کہ ابھی سے ایمان و اسلام اور خودداری اور عزت نفس کے تقاضوں کو پورا کرتے ہوئے مردانہ وار ڈٹ کر کھڑے ہو جائیں اور افغانستان کے خلاف کسی کارروائی میں ہرگز ممد و معاون نہ ہوں!

اور "آخری مگر کمترین نہیں" کے مصداق قنوت نازلہ

کی صورت میں اللہ سے دعا کرتے رہیں کہ ۔۔۔ باری تعالیٰ! اسلام اور مسلمانوں کے دشمنوں کے عزائم خاک میں ملا دے ۔ ان کی جمعیت و اتحاد کو پارہ پارہ کر دے ۔ ان کے قدموں میں کمزوری اور لرزش پیدا کر دے ۔۔۔ اور ان پر اپنا وہ عذاب نازل فرما جو تیری قائم و دائم سنت میں ظالموں کے لئے مقدر ہے! آمین ۔۔۔ یا رب العالمین!!

خادم اسلام و قرآن
ڈاکٹر اسرار احمد عفی عنہ
امیر تنظیم اسلامی و داعی تحریک خلافت پاکستان

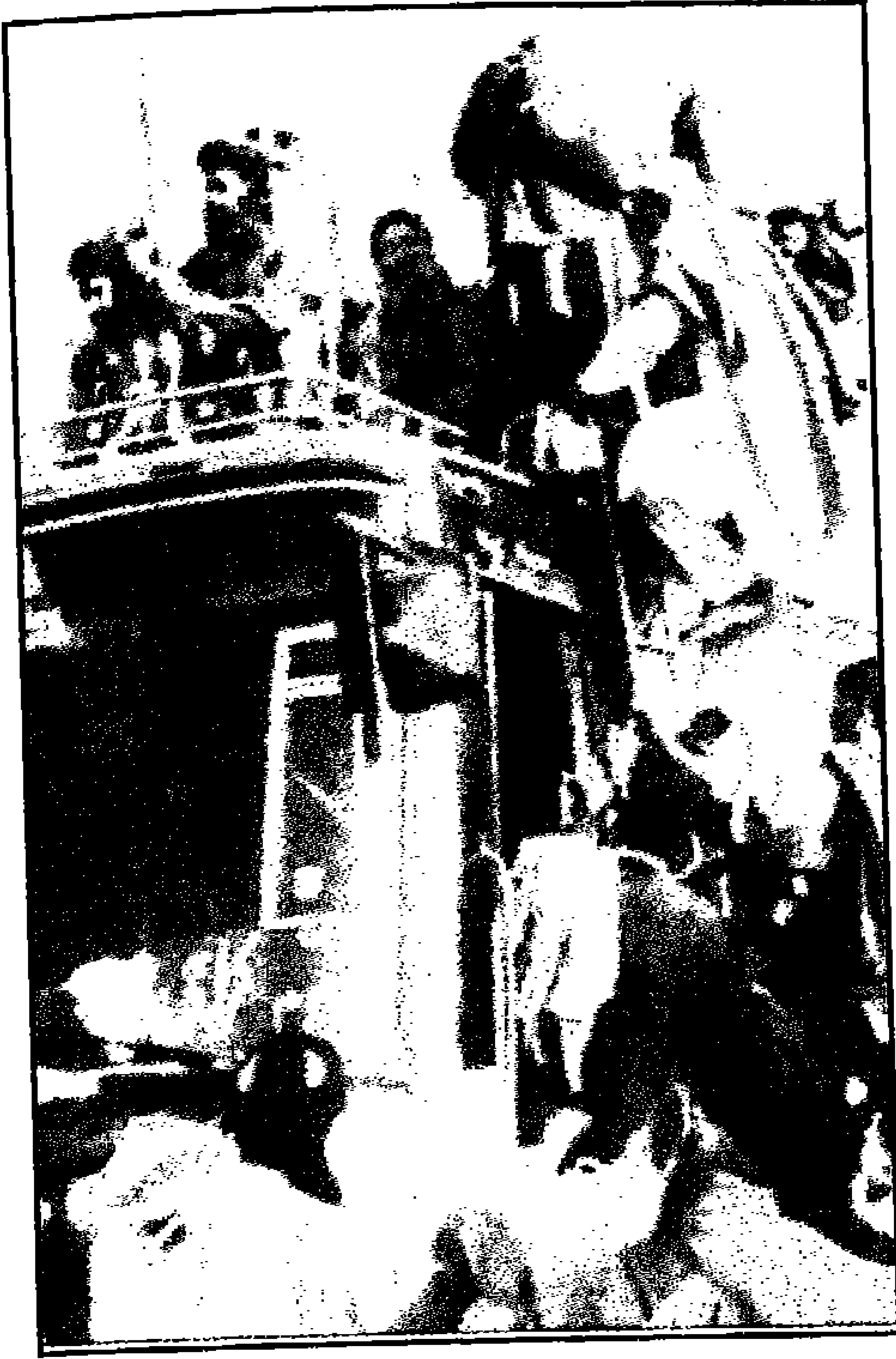
مرکزی دفتر: A-67 علامہ اقبال روڈ گڑھی شاہو لاہور
فون: 6366638,6316638 فیکس: 6305110
E-mail:markaz@tanzeem.org

علاقائی دفتر: حلقہ سرحد جنوبی A-18 مرسیٹن روڈ نمبر 2
شعبہ بازار پشاور فون دفتر: 091-214495
E-mail:peshawar@tanzeem.org

و«لاهور» و«كـويتـه» وغـيـرها من المدن الباكستانية يمر أحد الأشخاص كل يوم على المحال التجارية لجمع التبرعات لصالح طالبان.. ثم تسليمها كل أسبوع إلى السفير الأفغانى فى إسلام آباد.

* * *

فى تلك الأثناء بدأ نجم آخر يظهر على الساحة فى باكستان.. اسمه: صوفى محمد رئيس جماعة «تحريك نفاذ شريعة محمد الإسلامية».. ومعناها بالعربية جماعة «تطبيق شريعة محمد الإسلامية».



متطوعون بأسلحتهم يركبون احدى الشاحنات فى طريقهم إلى أفغانستان للجهاد

هذا الرجل لم يكتف بتسيير المظاهرات ضد مشرف أو جمع التبرعات المالية لطالبان.. ولكنه سلك طريقاً آخر هو حشد المتطوعين للجهاد فى صفوف طالبان.. واستطاع بالفعل حشد أكثر من ١٠ آلاف متطوع جمعهم عند منطقة «باجير» الحدودية شمال غرب باكستان .. جاءوا اليه بأسلحتهم التى كانت عبارة عن بنادق كلاشينكوف وقنابل يدوية ومدافع مضادة للطائرات ومنصات إطلاق صواريخ وصواريخ وسيوف.. وتم تجهيز ٦٠٠ شاحنة لنقلهم بأسلحتهم ومؤنهم الغذائية إلى داخل أفغانستان.. وقال إن هؤلاء هم الدفعة الأولى، وان لديه ٦٥ ألف متطوع آخرين جاهزين بأسلحتهم وسينضمون اليهم استعداداً للحرب البرية التى تعد الولايات المتحدة وبريطانيا لشنها على الأفغان.. فأعلنت الحكومة الباكستانية على لسان الجنرال راشد قريشى أنها لن تسمح لهؤلاء المتطوعين بعبور الحدود إلى أفغانستان وأن قوات حرس الحدود ستعتقل أى شخص يحاول عبور الحدود.. فرد صوفى على ذلك بأن أفراده سيقاومون كل من يحاول منعهم من دخول أفغانستان وأن الجهاد سيبدأ فى هذه الحالة من داخل الحدود الباكستانية..!

لكن المشكلة التى واجهته.. هى أن سلطات طالبان نفسها أعلنت على لسان عبدالسلام ضعيف أنها ليست فى حاجة الان لهؤلاء المتطوعين لأن المعركة البرية لم تبدأ بعد فأرسل صوفى محمد وفداً يضم ٢٠ فرداً من أتباعه إلى داخل أفغانستان لمقابلة زعماء طالبان وبحث الأمر معهم.. فاستقبلهم الملا عبدالرعوف حاكم مقاطعة

«كونار» الأفغانية المتاخمة للحدود مع باكستان.. وأبلغهم أنه لم يحن الوقت بعد لاستقبال المتطوعين للجهاد حتى لا يتعرضوا لمخاطر القصف الجوى فيزيد بذلك عدد الضحايا، حيث إن المعارك مازالت تدور من الجو فقط.. فضلاً عن الظروف الاقتصادية الصعبة التى يعانيها الشعب الأفغانى والتى لا تمكنه من استضافة هؤلاء المتطوعين، خاصة أن أعدادهم كبيرة.

وقد مثل هذا الرد نوعاً من «الصدمة» للمتطوعين وللجماعات الإسلامية فى باكستان التى كان تعد عدتها للسفر والجهاد فى صفوف طالبان.. كما قلب حسابات الزعماء الدينيين رأساً على عقب وأثار علامات استفهام كثيرة..!

وقد علمت من أحد زعماء طالبان الذين التقيت بهم بعد ذلك أن الملا محمد عمر رفض استقبال هؤلاء المتطوعين خشية أن تندس بينهم عناصر معادية لطالبان تحت ستار التطوع للجهاد.. وتكون هذه هى خطة الولايات المتحدة لبدء الحرب البرية.. خاصة أن ذلك حدث فى نفس الوقت الذى تسلل فيه عبد الحق إلى أفغانستان.

المهم أن المتطوعين مكثوا عدة أيام عند الحدود فى انتظار سماح حركة طالبان لهم بدخول أفغانستان.

فى تلك الأثناء لقى ٣٥ شخصاً من جماعة «حركة المجاهدين» الباكستانية مصرعهم تحت قصف الطائرات الأمريكية ـ ليلة الأربعاء ٢٤ اكتوبر ٢٠٠١ ـ لمنطقة «دار الأمان» الواقعة جنوب العاصمة الأفغانية «كابول».. وهى أحد مراكز تدريب المقاتلين المعروفة فى أفغانستان، وكانت تستقبل عادة المتطوعين للجهاد من الدول العربية والإسلامية.. وكان هؤلاء المتطوعون قد دخلوا أفغانستان قبل بداية الحرب.

هذا الحادث أدى إلى اشتعال الغضب فى الشارع الباكستانى كله وزيادة السخط على موقف حكومة الرئيس مشرف.

زاد الغضب.. وزاد السخط.. ان الحكومة الباكستانية رفضت السماح بدخول جثث المتوفين إلى باكستان بدعوى أن الحدود مع أفغانستان مغلقة.. وقال وزير الخارجية عبدالستار: «نحن لم نطلب منهم المشاركة فى حرب تدور فى دولة أخرى».. فخرجت المظاهرات تهاجم الحكومة وتطالب بفتح الحدود لدخول المتوفين.. لكن الحكومة أصرت على موقفها وتصدت للمتظاهرين بخراطيم المياه والقنابل المسيلة للدموع.. فوقعت صدامات وحدثت إصابات.. وأثناء ذلك تم تهريب الجثث عبر الممرات الجبلية.

كان من بين الجثث التى تم تهريبها جثة أحد قادة حركة المجاهدين.. اسمه «فاروق» وهو من كراتشى.. فتحولت جنازته فى المدينة إلى مظاهرة ضخمة أقسم فيها زعماء الحركة على قتل ١٠ أمريكيين مقابل كل عضو قتل من حركتهم..!

كل هذا حدث والعشرة آلاف متطوع الذين جمعهم صوفى محمد للقتال فى صفوف طالبان مازالوا عند الحدود ينتظرون دخول أفغانستان.. بعضهم لا يصدق أن طالبان

لا تريدهم، ويفسر رد الحركة بأنه نتيجة ضغط من الحكومة الباكستانية التى كانت لاتزال على اتصال بطالبان وتبقى على سفارتها مفتوحة فى إسلام آباد.. فأقسم هؤلاء على دخول أفغانستان مهما كلفهم ذلك من ثمن.. فتصدت لهم الحكومة الباكتسانية وقالت إنها لن تسمح لأحد بعبور الحدود.

والواقع أنه كان يمكن أن تحدث مجزرة لو اشتبك المتطوعون للجهاد مع قوات حرس الحدود الباكستانية لأن كلا الطرفين كان مسلحاً تسليحاً جيداً.. لكن ما حال دون وقوع هذا الاشتباك هو أن صوفى محمد ورفاقه من زعماء «جماعة تطبيق الشريعة المحمدية» فضلوا عدم دخول أفغانستان دون التنسيق مع طالبان.. وإن كان بعض من معهم استطاعوا التسلل ودخلوا بالفعل.

ميدان هذه الأحداث كلها.. حيث يُمنع المتطوعون للجهاد من دخول أفغانستان، وتُمنع جثث المتوفين من دخول باكستان.. كان منطقة شمال غرب باكستان الحدودية التى تسكنها قبائل البشتون الغاضبة، التى تكن كراهية شديدة للأمريكيين ولحكومة الرئيس مشرف.. وقد زادت هذه الأحداث من غضب القبائل وسخطها وجعلتها فى حالة هياج واستنفار شديدين... ودبت فيها روح الثورة.. فظهر فى تلك الفترة شاب من أبناء هذه القبائل اسمه «أمان الله» فى العشرينيات من عمره، ويعتبره الناس هناك «عالم دين» لانه يقوم بتدريس القرآن فى المدرسة المحلية كما أنه عضو فى حركة المجاهدين.

هذا الشاب قاد حركة تمرد واسعة فى المنطقة بدأت بإغلاق «طريق الحرير» الذى يربط بين باكستان والصين عن طريق وضع المتاريس لمنع السيارات والشاحنات من المرور حيث خرج اتباعه المسلحون عند بلدة «شنجلى بالا» فى جبال الهيمالايا فوضعوا المتاريس وأفرغوا بنادقهم ورشاشاتهم فوق الطريق وهم يقسمون على الانتقام من أمريكا وكل من ساعدها فى ارتكاب جريمتها التى راح ضحيتها أبناء عمومتهم فى أفغانستان.. وقال «أمان الله»: «لقد أغلقنا الطريق حتى يتمكن قادتنا من العبور بأمان الى أفغانستان ليرتبوا الأمور أمام اتباع حركتنا للانضمام إلى طالبان والقتال فى صفوفهم متى بدأ الهجوم البرى الأمريكى».

المنطقة التى تم فيها إغلاق الطريق (٦٧) تمثل أهمية استراتيجية كبيرة لكل من باكستان والصين.. ليس فقط لأنه الطريق البرى الوحيد الذى يصل بين الدولتين.. ولكن لانه من ناحية باكستان يمتد فى هذه المنطقة إلى مرتفعات «سياشين» التي تتمركز بها قوات هندية وباكستانية حول الخط الفاصل فى كشمير.. ومن ناحية الصين يمتد نحو اقليم «زينجيانغ» الذى يعش فيه معظم أبناء الأقلية المسلمة فى الصين، مما يجعل هذه المنطقة فى هذا الوقت بالذات «تربة خصبة» لنمو وانتشار أفكار أسامة بن لادن ورؤية طالبان للإسلام.. وهو ما كانت تخشاه الصين وتعمل له ألف حساب.. خاصة أن سكان الجانب الباكستانى فى هذه المنطقة هم من

المجاهدين الأفغان السابقين والمقاتلين فى كشمير.

الحكومة الباكستانية ردت على إغلاق الطريق بإرسال قوات إلى المنطقة.. لكنها فضلت عدم الدخول فى مواجهة عسكرية مع رجال القبائل بسبب كثرة عددهم وقوة تسليحهم واستعدادهم للموت.. وحاولت معالجة الأزمة عن طريق وسطاء للتفاوض معهم.. فوضع المسلحون ثلاثة شروط لإعادة فتح الطريق.. هى:

١ ـ أن تسحب الحكومة الباكستانية تأييدها للولايات المتحدة الأمريكية فى الحملة على أفغانستان.

٢ ـ أن تتوقف عن تقديم المساعدات للقوات الأمريكية فى هذه الحملة.

٣ ـ أن تفرج عن الشيخ فضل الرحمن رئيس جمعية علماء الإسلام وعن جميع أعضاء الجماعات الإسلامية المعتقلين.. وكان فضل الرحمن قد تم تحديد إقامته بمنزله عند بداية الحملة العسكرية على أفغانستان.

لم تكن الحكومة الباكستانية فى وضع يسمح لها بقبول هذه الشروط.. كما أنها فى نفس الوقت لم تكن تستطيع الدخول فى مواجهة عسكرية مع القبائل ولا الإبقاء على الطريق مغلقاً..

فاضطرت إلى طلب المساعدة من أحد خصومها الذى يكيل لها الهجوم بالليل والنهار، وهو د. سميع الحق رئيس مجلس الدفاع عن أفغانستان وباكستان.. لأنها تعلم أن له منزلة كبيرة عند رجال القبائل ويمثل زعامة دينية فى المنطقة لكونه رئيس جامعة «الحقانية» التى تقع على مسافة قريبة من مدينة «بيشاور» وتخرج فيها على يديه عدد كبير من المتعلمين فى المنطقة.. فطلبت منه التوسط لدى المسلحين من أجل إعادة فتح الطريق.. لكن د. سميع الحق رفض التوسط لحل هذه الأزمة ما لم تعلن الحكومة أولاً سحب تأييدها للولايات المتحدة فى الحرب.

فى هذه الأثناء كان «أمان الله» وأتباعه يهددون الحكومة بأنها إذا لم تقم بتنفيذ شروطهم فإنهم لن يكتفوا بالاستمرار فى إغلاق طريق الحرير، وإنما سيقومون بالاستيلاء على مواقع استراتيجية أخرى.. كانوا يعلنون ذلك كل يوم فوق الطريق وسط هتافات حماسية بطول الحياة لابن لادن والملا محمد عمر، والموت لأمريكا ومن معها.. وبعد كل جولة من الهتافات يطلقون النار من بنادقهم ورشاشاتهم بهدف إسماع قوات حرس الحدود الباكستانية أنهم ليسوا فى مزاج تفاوضى..!

لم يكن «أمان الله» يحمل معه سلاحاً.. ولكن الآلاف من أتباعه كانوا يجلسون على الطريق شاهرين أسلحتهم الآلية فى انتظار إشارة منه للتحرك!

ولم تتأخر هذه الإشارة.. فبعد يومين فقط من اغلاق طريق الحرير تحركت مجموعات مسلحة منهم وقامت بالاستيلاء على مطار «شيلاز» الواقع بالقرب من مدينة «جيلجيت» فى أقصى شمال غرب باكستان.. كما استولوا على مركز للشرطة..

وحطموا جدران سجن بالمدينة ففر منه ٣٦ سجيناً كانوا بداخله.. كل ذلك كان يحدث وسط فوضى ومظاهرات يتخللها إطلاق أعيرة نارية وقسم على الثأر والانتقام من أمريكا.

هكذا أصبح الوضع فى منطقة شمال غرب باكستان تحت السيطرة الكاملة لرجال القبائل.. زمن وقوع هذه الأحداث هو الأسبوع الأخير من شهر اكتوبر ٢٠٠١.. وكان يمكن بالطبع أن يعلنوا قيام دولة مستقلة لهم فى المنطقة.. لولا أنهم من الناحية الاقتصادية يعتمدون فى حياتهم بصورة أساسية على المساعدات التى ترسلها لهم الحكومة الباكستانية من أغذية وأدوية وخيام.. الخ.. فمعظمهم فلاحون فقراء يعيشون فى خيام رقيقة أعالى جبال الهيمالايا.. ليس لهم من متاع الدنيا سوى البنادق الآلية .. وليس لهم من «هم» يبيتون ويصبحون فيه إلا الإنتقام من أمريكا..!

* * *

وصول الأزمة بين الحكومة ورجال القبائل الى هذه الدرجة دفع الرئيس بيرفيز مشرف إلى دعوة زعماء الأحزاب السياسية والقيادات الدينية للالتقاء معهم من أجل التشاور حول ما وصلت اليه الأوضاع الداخلية بباكستان فى ظل استمرار الحملة العسكرية الأمريكية على أفغانستان.

هذه اللقاءات بدأت يوم ٣٠ اكتوبر ٢٠٠١ وحظيت بتغطية إعلامية واسعة.. ولم توجه الدعوة لحضورها إلى د. سميع الحق بسبب الانتقادات الحادة التى وجهها للحكومة، ولا إلى جمعية علماء الإسلام التى يتزعمها الشيخ فضل الرحمن الذى كانت إقامته محددة فى ذلك الوقت بمنزله، ولا إلي الفرع الذى يتزعمه رئيس الوزراء السابق نواز شريف من حزب الرابطة الاسلامية كما لم يحضرها بالطبع الشيخ قاضى حسين أحمد زعيم الجماعة الإسلامية الذى كان رهن الاعتقال.

رغم ذلك أسفرت هذه اللقاءات عن تحسين موقف حكومة الرئيس مشرف فى الشارع الباكستانى لسببين رئيسيين:

- الأول: أنه تحدث مع الزعماء السياسيين والدينيين بصراحة شديدة، وأقنعهم بأنه كان مضطراً للسير فى الطريق الذى سار فيه وهو تأييد الولايات المتحدة الأمريكية[٦٨] فى الحملة العسكرية على طالبان .. لأن البديل كان هو ضرب باكستان وتدمير سلاحها النووى.. واستمع الى آرائهم فأشعرهم بذلك أن الرأى شورى وأنهم شركاء معه فى الحكم ووعدهم بعدد من الحقائب الوزارية عند إعادة تشكيل الحكومة.. فكسب بذلك تأييدهم.

- الثانى: أن الحكومة تعاملت مع المتظاهرين دائماً بسعة صدر كبيرة.. وعند التصدى للمظاهرات كانت تركز فقط على حماية المنشآت الهامة والمصالح الحكومية وعدم السماح بأعمال تخريبية.. كما أنها تقبلت النقد والهجوم والشتائم بصدر

رحب ولم تقم في المقابل بتصفية معارضيها، وإنما كان أقصى إجراء اتخذته هو تحديد إقامة بعض الزعماء الدينيين في منازلهم.. وبالتالي لم تحدث «ضغينة» بين الحكومة والشعب.. وإنما الذى حدث يمكن أن نسميه «اختلاف في المواقف» أو «انقسام» أو «شقاق» أو أى شيء بهذا المعنى.. فإذا أضفنا إلى ذلك «الحرية المطلقة» التى تتمتع بها الصحافة الباكستانية والتى تبدو كأنها تصدر في أكثر دول العالم ديمقراطية وليس في دولة يحكمها نظام عسكرى.. ندرك بسهولة الأسباب التى جعلت زعماء الأحزاب السياسية والقيادات الدينية الذين التقوا بالرئيس مشرف يتجاوبون مع موقفه ويتحركون لمساعدة حكومته في احتواء الأزمة القائمة مع رجال القبائل في شمال غرب البلاد.. فلم تكد تمضى على هذا اللقاء عدة أيام حتى تم بالفعل إنهاء هذه الأزمة وإعادة فتح طريق الحرير.

هكذا استطاع الرئيس مشرف تهدئة الساحة الداخلية في باكستان بعض الشيء.. وهو يستعد للقيام برحلته الأولى إلى الولايات المتحدة الأمريكية التى بدأت يوم ٧ نوفمبر ٢٠٠١ لحضور اجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة التى كانت قد تأجلت بسبب هجمات ١١ سبتمبر.. ولعقد قمة ثنائية مع الرئيس بوش.

كان مشرف يريد استمرار هذا «الهدوء النسبى» على الساحة الداخلية حتى يثبت لبوش أن الشعب الباكستانى يقف معه.. وبالتالى يمكن للولايات المتحدة الوثوق فيه والاعتماد عليه ليكون رجلها في المنطقة.

إلا أن د. سميع الحق كان يريد إثبات العكس.. فدعا المواطنين إلى العصيان المدنى، وأعطى حكومة مشرف مهلة حتى ٧ نوفمبر ٢٠٠١ لتغيير سياستها ووقف الدعم الذى تقدمه للقوات الأمريكية.. فإذا لم تفعل سيقوم مجلس الدفاع عن أفغانستان وباكستان الذى يترأسه بتنظيم إضراب عام في جميع أنحاء باكستان يوم ٩ نوفمبر والعمل على الإطاحة بالحكومة عن طريق اللجوء إلى تعطيل الحركة على الطرق والمظاهرات ورفض تسديد الضرائب..

لكن في الحقيقة لم يكن الأمر بهذه السهولة التي تصورها د.سميع الحق.. حيث لم يزد عدد الذين خرجوا يوم ٩ نوفمبر للهتاف ضد الحكومة سوى عدة آلاف في بعض المدن.. هتفوا ضد مشرف وأحرقوا العلم الأمريكي ثم انفضوا وعادوا إلي منازلهم!

لسبب بسيط. هو أن رفض طالبان استقبال المتطوعين للجهاد قلب حسابات كثيرة في الشارع الباكستانى..!

* * *

الفصل السابع عشر

• حوارات الأزمة..

« أنصح رجال الدين فى باكستان بالابتعاد عن معترك الحياة السياسية.. خيراً لهم وللشعب الباكستانى..»!

الجنرال معين الدين حيدر
وزير داخلية باكستان

««من وجهة نظرى.. يمكن الحكم على العمل العسكرى، عندما تظهر لنا النتائج التى سيسفر عنها..» »

الجنرال راشد قريشى
المتحدث الخاص باسم رئيس الجمهورية

«نحن لا نعمل فى الخفاء.. وإنما فى النور.. وأمام الناس»

عبدالستار
وزير خارجية باكستان

☐ بقدر ما كنت حريصا خلال إقامتى فى باكستان على التواجد دائماً فى قلب الأحداث والمظاهرات والالتقاء بأقطاب المعارضة.
بقدر ما كنت حريصاً أيضاً على الالتقاء مع صناع القرار فى الحكومة الباكستانية وإجراء حوارات خاصة معهم.. لكى أسمع وجهة نظر الحكومة، وأرى الوجه الآخر للحقيقة.. خاصة أن ما كانوا يطرحونه فى المؤتمر الصحفية لم يكن ـ من وجهة نظرى ـ كافياً للرد على التساؤلات الضخمة التى كانت مثارة ذلك الوقت فى الشارع الباكستانى.

كنا نعتقد دائماً أن لدى الحكومة الكثير من الأسباب والمعلومات التى لا تريد أن تفصح عنها لوسائل الإعلام.. ونتطلع إلى الفوز ببعضها عن طريق إجراء حوار خاص مع أحد أعضاء الحكومة.. حتى لو طلب أن يكون جانباً من هذا الحوار خارج جهاز التسجيل.

لكن ذلك لم يكن سهلاً أبداً فى تلك الفترة.. فالوضع فى باكستان كان يمر بمرحلة شديدة الخطورة.. ولم يكن هناك من مسئول حكومى يتحدث إلى وسائل الإعلام إلا عند الضرورة فقط.. حيث كان يفضل جميع الوزراء أن يكون المتحدث إلى الصحفيين دائماً هو الرئيس بيرفيز مشرف شخصياً حتى لا يتحملوا مسئولية كلمة تنشر على لسانهم هنا أو هناك..!

أما ما كان يقال فى المؤتمر الصحفى اليومى بوزارة الخارجية فكان كله يدور فى فلك ما سبق أن قاله الرئيس مشرف فى أى موضوع..

هكذا كانت الحال فى باكستان تلك الفترة..

الوزراء يأخذون حذرهم من الصحفيين ولا يحبون التعامل معهم..

والمؤتمرات الصحفية لا تقدم لك إجابة شافية على أى سؤال..!

غير أننى استعنت بعلاقات قديمة كانت تربطنى بمسئولين كبار فى الحكومة الباكستانية.. ساعدونى على إجراء عدد من الحوارات الخاصة مع من يمكن وصفهم بـ«صناع القرار» فى الحكومة.. وقد أجريت هذه الحوارات ـ وفق الترتيب الزمنى ـ مع كل من:

ـ وزير الداخلية الجنرال معين الدين حيدر..
ـ المتحدث الخاص باسم رئيس الجمهورية الجنرال راشد قريشى
ـ وزير الخارجية عبدالستار..
وهذا ما دار فى حوارتى معهم:

* * *

نصيحة الوزير

● الجنرال معين الدين حيدر..



سمعتهم فى باكستان يصفونه بـ«الرجل القوى» فى الحكومة..

لا تستطيع أن تقول عنه «الرجل الثانى»، لأنه لا أحد هناك يعرف بالضبط من هو «الرجل الثانى» بعد الرئيس مشرف..!

ولد الجنرال معين الدين حيدر.. يوم ٥ يونيو عام ١٩٤٢.. وخدم الجيش الباكستانى ٣٧ عاماً، اشترك خلالها فى الحربين الهندية الباكستانية عامى ١٩٦٥ و١٩٧١.. وفى مارس عام ١٩٩٧ عين حاكماً لإقليم السند.. وفى نوفمبر عام ١٩٩٩ عين وزيراً للداخلية.

التقيت به أول مرة بعد انتهاء المؤتمر الصحفى للرئيس مشرف الذى عقد يوم ٨ أكتوبر ٢٠٠١ صبيحة بدء الحملة العسكرية الأمريكية على أفغانستان.. قدمنى إليه صديقى «نور صغير خان» مدير الإعلام الخارجى بوزارة الإعلام والقائم بأعمال وزير الإعلام فى ذلك الوقت.

تبادلت والجنرال بطاقات التعارف.. واتفقنا على اللقاء مرة أخرى بعد عدة أيام لإجراء الحوار فى مكتبه.

«عدة أيام».. كانت مناسبة جداً لكل منا.. فمن ناحية الرجل لم يكن هناك ما يمكن أن يضيفه إلى ما قاله الرئيس مشرف فى المؤتمر الصحفى.. ومن ناحيتى كنت أفضل الانتظار حتى يتضح رد فعل الشارع الباكستانى على الحملة العسكرية الأمريكية.

مرت تسعة أيام.. والتقيت بالرجل فى مكتبه يوم الأربعاء ١٧ أكتوبر ٢٠٠١..

كان رد فعل الشارع الباكستانى قد بلغ ذروته.

ـ فالمظاهرات كل يوم فى الشوارع..

ـ والغضب فى كل مدينة..

ـ والدعوة إلى الجهاد ضد أمريكا هى الصوت الأعلى فى كل حديث.

ـ والظروف التى أصبحت عليها باكستان تمثل اختباراً صعباً لأى وزير داخلية مهمته الأولى الحفاظ على الاستقرار..!

لذلك كان الجنرال معين الدين حيدر وزير الداخلية الباكستانى يعيش تلك الأيام حالة استعداد قصوى لمواجهة هذه الظروف.. حتى لا تفلت الأمور من يده فتنقلب المائدة الباكستانية..!

* * *

فى بداية الحوار.. اعترف الجنرال حيدر أنه بدأ يشعر بالقلق لتزايد شعبية الأحزاب الإسلامية فى بلاده..

ـ قال لى إن باكستان ليست فى حاجة أصلاً إلى هذه الأحزاب.. لأنها دولة إسلامية قامت على أساس دينى.. ودستورها ينص على أن تستمد كل قوانينها من أحكام القرآن الكريم والسنة المحمدية، وأن تطبق الحكومة النظام الإسلامى.. فما فائدة الأحزاب الإسلامية إذن..؟!

أضاف: إننى لا أفهم سبباً واحداً لوجود الأحزاب الإسلامية فى باكستان بهذه الكثرة.. ومن وجهة نظرى يجب اختصار عدد كل الأحزاب إلى ثلاثة فقط.. حزب اشتراكى، وحزب ديمقراطى.. وحزب دينى واحد لتحقيق التوازن بين الحزبين.

● قلت له: لقد سمعنا الرئيس بيرفيز مشرف مراراً يؤكد أن أغلبية الشعب الباكستانى تؤيد قراره بالتعاون مع ما يسمى بـ «التحالف الدولى ضد الإرهاب».. لكننا كل يوم نرى المظاهرات تجوب الشوارع تندد بالهجوم الأمريكى على أفغانستان.. وبموقف الرئيس مشرف.. فكيف تفسر ذلك..؟

ـ قال: الأغلبية فى باكستان تؤيد قرار الرئيس.. لكن باكستان كأى مجتمع مدنى فى العالم لابد أن توجد فيه بعض العناصر الدينية المتعصبة التى تخرج عن الإجماع الوطنى.. نحن أيضا عندنا من هذه العناصر من تجدهم يتعاطفون مع جماعة طالبان ويحرضون الناس على التظاهر فى الشوارع ضد قرار الرئيس.. لكن هؤلاء قلة لا يمثلون نسبة تذكر من تعداد الشعب الباكستانى.. ومهما وصل عددهم.. فباكستان فى النهاية دولة كبيرة.. وبها مدن كثيرة مثل فيصل آباد، ومولتان، وبهاول بور وغيرها التى لم تخرج بها أية مظاهرات رغم أن تعداد كل مدينة منها يزيد على مليون نسمة.

● قلت له: لكن أغلب المدن الباكستانية خرجت بها مظاهرات..

ـ قال: معظم المظاهرات خرجت فى إقليمين فقط مجاورين لأفغانستان.. هما إقليم

«سرحد» وإقليم «بلوشستان».. والسبب أن هناك قبائل مشتركة بين باكستان وأفغانستان تعيش فى هذين الإقليمين.. كما أن هناك مدارس دينية تديرها جماعات دينية متطرفة وتدفع بطلبة المدارس للتظاهر فى الشوارع.. أما عامة الشعب الباكستانى الذى يزيد تعداده على ١٤٠ مليون نسمة فلم تشارك فى المظاهرات لأنها تؤيد قرار الرئيس مشرف..

● قلت له: يا سيادة الوزير.. ما نراهم على شاشات التليفزيون ليس كلهم من طلبة المدارس.. إنهم أعضاء فى تنظيمات سياسية دينية نزلوا إلى الشارع وأصبحوا يشكلون معارضة قوية.. حتى أن البعض بات يعتقد أنه أصبح بإمكانهم الوصول إلى الحكم..!

ـ قال لى: الذين يتظاهرون فى الشارع.. ليسوا هم الأحزاب السياسية التى تمثل الاتجاه الصحيح فى باكستان.. أغلبهم أحزاب دينية متطرفة سبق لها أن شاركت فى الانتخابات ولم تحصل على تمثيل نيابى ذى قيمة فى البرلمان.. على مدى أكثر من ٥٠ عاماً.. لأن الناس لم ينتخبوهم.

لذلك فانا لا أرى أية فرصة لهم فى المستقبل للوصول إلى الحكم.. سواء عن طريق الحصول على الأغلبية البرلمانية.. أو الدخول فى إئتلاف مع الأحزاب الأخرى.

● قلت له: ولكن بعد الأحداث الأخيرة.. من الممكن أن تزيد فرصتهم فى أية انتخابات قادمة..

ـ قال لى: لا أعتقد ذلك.. لأن الأحداث الأخيرة أثبتت أيضاً فشل تجربة طالبان فى تشكيل حكومة إسلامية.. حيث لم تحظ باعتراف المجتمع الدولى بها.. بما فى ذلك دول منظمة المؤتمر الإسلامى نفسها ـ باستثناء ثلاث دول فقط هى باكستان والسعودية والإمارات العربية المتحدة ـ التى كانت تنظر إلى حكومة طالبان على أنها



أثناء الحوار مع الجنرال معين الدين حيدر

تمثل اتجاها متطرفاً.. وكانوا يخشون من الاعتراف بها أن تؤثر على ثقافتهم الإسلامية بأفكارها المتطرفة وتوجهاتها القبلية.

أضاف: إذا كنت تريد أن تعرف رأيي الشخصي في المسألة التي تطرحها في سؤالك.. وهي إمكانية وصول الأحزاب الإسلامية إلى الحكم.. فأنا أرى أن رجال الدين يجب أن يتفرغوا لعملية الوعظ والإرشاد الديني فقط ليساعدوا الناس على أن يكون إيمانهم بالله قوياً.. لأنهم إذا حاولوا الاشتغال بالسياسة وجعلوا هدفهم الوصول إلى الحكم.. فإن أمور السياسة سوف تشغلهم عن الدين..!

فضلا عن أن عملية الحكم في العصر الحالي لم تعد سهلة.. وأصبحت تعتمد على العلوم الحديثة كالتكنولوجيا والكمبيوتر والاتصالات واللغات، وغير ذلك مما ليس لرجال الدين دراية به.. إذن كيف نسلمهم السلطة..!

إن نجاح أي مجتمع يستلزم أن يتم فيه توزيع الأدوار.

السياسة لرجال السياسة..

والدين لرجال الدين..

وأمامنا أمثلة كثيرة في العالم.. كالسودان وأفغانستان مثلاً.. عندما أمسك رجال الدين فيهما بزمام السلطة.. ماذا قدموا لبلادهم..؟

لذلك.. فأنا أنصح رجال الدين في باكستان بالابتعاد عن معترك الحياة السياسية.. خيراً لهم وللشعب الباكستاني.

● قلت له: لقد اعتقلت الأيام الماضية بعض القيادات الدينية في باكستان.. مثل الشيخ فضل الرحمن رئيس جمعية علماء الإسلام.. وآخرين.. هل كان اعتقالهم ضرورياً..؟



باكستان ليست في حاجة إلى أحزاب إسلامية

ـ قال: نعم.. كان ضرورياً جداً.. لأنه عمد إلى تحريض الناس على العنف وزعزعة الاستقرار والإخلال بالأمن.. وقامت جماعته باتلاف الممتلكات العامة ومتاجر الناس ومقار المنظمات الخيرية.. وبالطبع لم يكن من الممكن لنا أبداً أن نحتمل ذلك.. لأن معناه نشر الفوضى فى المجتمع والقضاء على النظام.. وهذا ليس من الإسلام فى شىء.. ولا لمصلحة الشعب الباكستانى.. لذلك اضطررنا طبقاً للقانون إلى تحديد إقامة فضل الرحمن فى منزله واعتقال كل من ضبط أثناء قيامه باتلاف الممتلكات.

لكن هناك نقطة أخرى أود أن أنبهك لها.. وهى أننا صحيح حكومة عسكرية.. لكن فى نفس الوقت لابد أنك لاحظت هنا فى باكستان أن الصحافة تمارس حريتها بالكامل.. وأن الحريات العامة متوافرة للجميع بما فى ذلك تنظيم الاجتماعات والمسيرات والمظاهرات.. والشيخ فضل الرحمن نفسه كان متروكا له كامل حريته فى التعبير عن مواقف جماعته بكل وسائل التعبير المشروعة سواء فى الصحافة.. أو فى المساجد.. أو حتى فى الشارع.. وكنا نتوقع منه الالتزام بالقانون.. لكنه لم يلتزم فحددنا إقامته فى منزله.

● قلت له: ومتى ستطلقون سراحه.. وسراح المعتقلين..؟

ـ قال: لابد أولاً أن يدفعوا تعويضات لأصحاب المتاجر والمصالح التى أتلفوها.. والبنوك التى نهبوها..

هكذا تقول لنا الشريعة الإسلامية.. من يتلف شيئاً عامداً متعمداً فعليه إصلاحه أو دفع التعويض اللازم..

ونحن بالطبع دولة إسلامية تطبق الشريعة الإسلامية.. وبالتالى فعلى قيادات الجماعات الإسلامية أن يقبلوا تطبيق الشريعة ويدفعوا التعويضات..

وبعد أن يدفعوا التعويضات.. سيقدمون إلى العدالة لأنهم خرجوا عن القانون..!

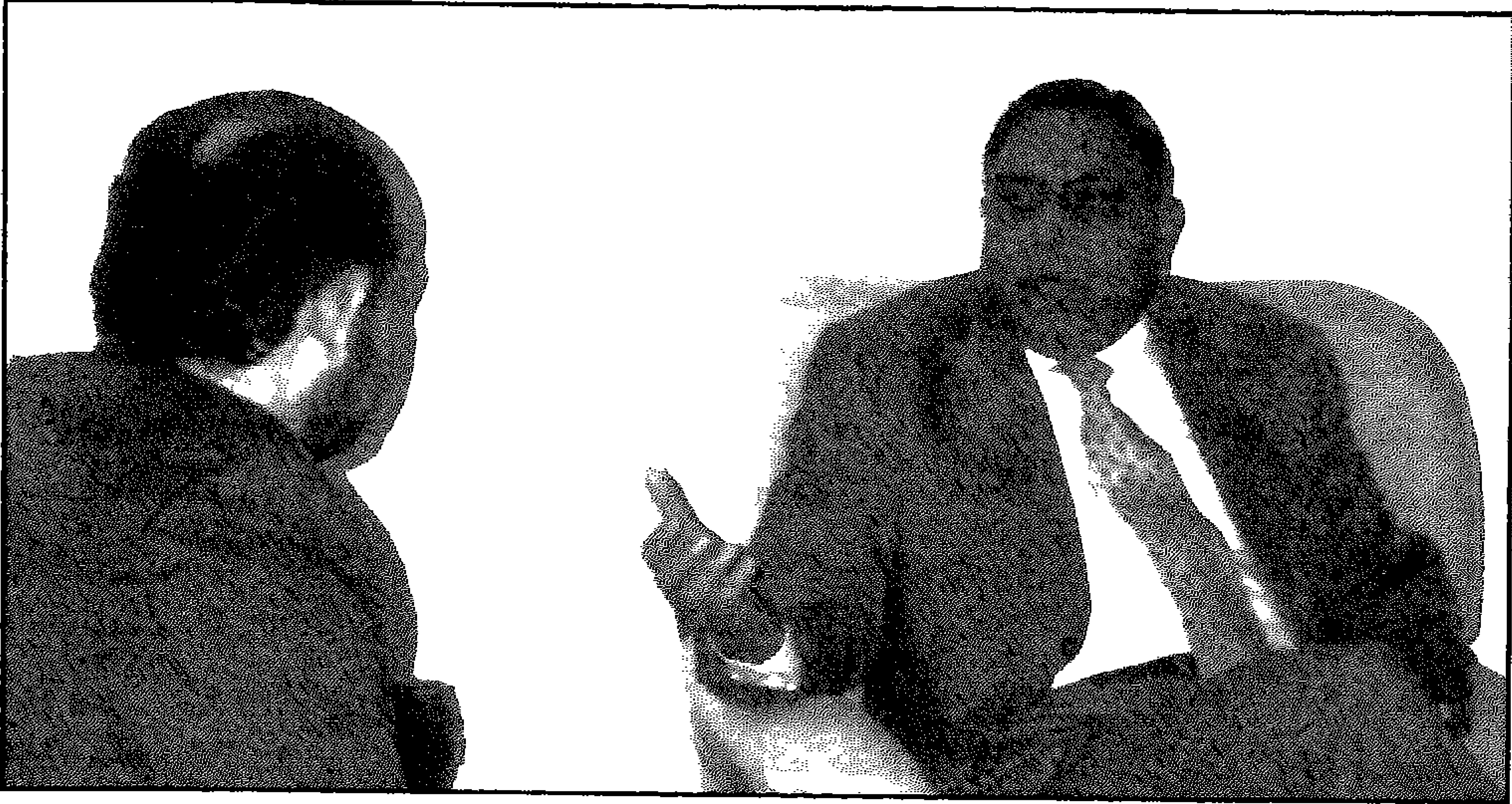
● قلت له: إذا انتقلنا إلى قضية اللاجئين الأفغان فى باكستان.. إلى أى مدى أثروا عليكم من النواحى السياسية والاقتصادية والأمنية؟

ـ قال: هجرة الأفغان إلى باكستان بدأت عندما هاجم الاتحاد السوفييتى بلادهم عام ١٩٧٩.

فى ذلك الوقت نزح ٤ ملايين لاجىء أفغانى إلى كل من باكستان وإيران.. حوالى مليونين لكل دولة.

بعد التطورات الأخيرة ارتفع عدد اللاجئين الأفغان عندنا إلى نحو ثلاثة ملايين لاجىء.. طبعاً جلبوا معهم الأسلحة والمخدرات والتقاليد الخاصة بهم.. مما سبب قلقاً كبيراً لباكستان.. لا سيما أننا نستضيفهم منذ أكثر من ٢١ عاماً..

وكالات المعونة الدولية وبرنامج الأغذية التابع للأمم المتحدة انسحبت وتركت العبء علينا طوال هذه الفترة.. فقمنا بواجبنا بالكامل نحو إخواننا الأفغان، على الرغم من الظروف الاقتصادية الصعبة التى نعيشها..



قال لى: بعض اللاجئين الأفغان اندمجوا فى المجتمع الباكستانى

حالياً يدخل باكستان كل يوم حوالى ألفا لاجئ أفغانى متسللين عبر الممرات الجبلية.. وهناك نحو مائة ألف آخرين عند البوابات الحدودية يريدون الدخول.. وأنا أتساءل: أليس هناك دول إسلامية أخرى مجاورة أيضاً لأفغانستان.. مثل: إيران وأوزبكستان وطاجيكستان.. من واجبهم أن يشاركونا العبء فى إيواء هؤلاء اللاجئين..؟.. أم سيظل العبء كله على باكستان وحدها..!

● قلت له: هل الأسلحة التى جاء بها اللاجئون الأفغان تسبب لكم قلقاً من الناحية الأمنية..؟

- قال: بالطبع تسبب لنا قلقاً.. لكن دعنى أقول لك فى نفس الوقت إن بعض اللاجئين الأفغان الذين قدموا إلى باكستان منذ عدة سنوات قد اندمجوا فى المجتمع الباكستانى.. ونحن نتعاطف معهم، على الرغم من أن بعضهم شارك فى المظاهرات الأخيرة فى «كراتشى» و«كويته» ومدن أخرى، وقاموا باتلاف الممتلكات.. لكن رغم ذلك عاملناهم كباكستانيين.. وحذرناهم من أن كونهم لاجئين عندنا لا يعطيهم الحق فى القيام بمثل هذه الأعمال.. وإلا سيتم ترحيلهم إلى أفغانستان..

● قلت له: من وجهة نظرك.. ما هو مستقبل نظام طالبان.. وهل يمكن أن يستمروا فى الحكم..؟

- قال: طالبان حكمت لمدة ٦ سنوات.. والواقع أنهم حققوا فى البداية عدة إنجازات طيبة.. مثل جمع الأسلحة التى كانت منتشرة فى المجتمع الأفغانى.. وإنهاء القتال الذى استمر ١٥ عاماً بين الفصائل الأفغانية المختلفة.. والقضاء على زراعة الخشخاش التى كانت منتشرة هناك بشكل خطير.. باختصار: استطاعوا توفير

السلام والطمأنينة للشعب الأفغانى فى المناطق التى كانت تحت سيطرتهم..

لكنهم فى نفس الوقت.. اتبعوا ـ للأسف ـ نهجاً متشدداً فى الحكم.. جعل الناس فى الداخل تنفر منهم وتضطر للهجرة.. كما جعل المجتمع الدولى ينظر إليهم بتوجس ولا يعترف بهم.. فظلوا فى عزلة عن الأسرة الدولية.. ولو كان لديهم مرونة وتجاوب مع الناس فى الداخل، ومع العالم من حولهم.. لاختلف الوضع كثيراً عما صارت عليه الأمور الآن.

نحن من جانبنا ساعدناهم.. ووقفنا بجوارهم كثيراً.. فى الوقت الذى كانت فيه جارتهم الإسلامية الأخرى «إيران» على خلاف معهم.

بل إن الرئيس بيرفيز مشرف بذل جهوداً كثيرة لإقناع دول العالم بالاعتراف بهم.. لكنهم ظلوا مصرين على نهجهم المتشدد الذى اتبعوه.. بل إننا عندما عبرنا لهم عن قلقنا لتزايد عمليات تهريب الأسلحة والمخدرات عبر الحدود المشتركة معهم إلى داخل باكستان.. وطلبنا منهم تسليم الإرهابيين الذين تسللوا إلى بلادهم لتقديمهم إلى العدالة وسلمناهم قائمة بأسمائهم.. لم يقدموا لنا أحداً..

أعود إلى سؤالك عن مستقبل طالبان.. وإجابتى عليه هى أن بين جماعة طالبان قادة متشددين.. وآخرين معتدلين يرغبون فى إتباع نهج معتدل يحقق مصلحة الشعب الأفغانى.. وأعتقد أنه بإمكان هؤلاء المعتدلين تغيير اسم «جماعة طالبان» إلى أى اسم آخر.. ومن ثم المشاركة فى أية حكومة مستقبلية، لأنه فى كل الأحوال هم ينتمون إلى قبائل البشتون الذين يشكلون أغلبية الشعب الأفغانى ولا يمكن تجاهل تمثيلهم فى أية حكومة مستقبلية تحت أى ظرف من الظروف.

● قلت له: هل تعتقد أن الهند تحاول استغلال الأزمة الحالية لتحقيق مكاسب فى نزاعها مع باكستان..؟

ـ قال: نعم.. بل وتحاول أيضاً استغلال الأزمة لتصدير الإرهاب إلينا عبر الحدود.. لقد ألقينا القبض منذ أيام قليلة على رجل يحمل قنبلة، وهو يحاول عبور الحدود المشتركة مع الهند بالقرب من مدينة «سيالكوت» فى إقليم البنجاب.. وفى الفترة الماضية شهدت نفس المدينة انفجار قنبلتين.. مما يؤكد أن الهند تحاول استغلال الظروف التى تعيشها المنطقة الآن لزعزعة الاستقرار السياسى والأمنى بباكستان فى وقت ينشغل فيه العالم كله الآن بالمعركة ضد الإرهاب..!

أما بالنسبة لعلاقة الهند بالوضع فى أفغانستان.. فأود أن أقول لك إن الاتحاد السوفيتى احتل أفغانستان ١١ عاماً.. خلال هذه الفترة لم تحرك الهند ساكنا.. وعندما خرج السوفييت بدأت الهند تقوم بتحريض المعارضة الأفغانية ـ يقصد التحالف الشمالى ـ ضد طالبان وضد باكستان.. ونحن نتساءل: إذا كانت الهند ليس لها أية حدود مع أفغانستان وليس لها أية مصلحة هناك.. فلماذا تتدخل إذن فى شئون الأفغان..؟!

* * *

استكشاف الرؤى

■ الحوار الثانى من حوارات الأزمة فى باكستان.. أجريته مع الجنرال راشد قريشى المتحدث الخاص باسم رئيس الجمهورية الباكستانى الجنرال بيرفيز مشرف..

كنت قد تعرفت على الجنرال قريشى أثناء زيارتى الأولى لباكستان فى أغسطس عام ١٩٩٩.. وقتها كانت أزمة «كارجيل» بين الهند وباكستان فى ذروتها.. وسافرت إلى هناك تلبية لدعوة تلقيتها من الحكومة الباكستانية ضمن وفد يضم ستة صحفيين عرب للقاء رئيس الحكومة السابق نواز شريف..

أثناء الزيارة أجريت حواراً خاصاً مع الجنرال راشد قريشى الذى كان فى ذلك الوقت متحدثاً باسم الجيش الباكستانى.. فكان ذلك سبباً للتعارف بيننا.. ثم التقيت به بعد ذلك عدة مرات أثناء الأزمة الأفغانية فى مقار رئاسة الجمهورية ووزارة الخارجية، فضلاً عن مقابلاتنا شبه اليومية أثناء المؤتمرات الصحفية التى كانت تعقد بوزارة الخارجية.. وكان غالباً هو المتحدث الرئيسى فيها..

ورغم أن الرجل كان لا ينهى المؤتمر الصحفى قبل أن يطرح جميع الصحفيين ما لديهم من أسئلة.. بل ويدخل معنا فى مناقشات ثنائية طويلة بعد نهاية المؤتمر.. إلا أن الحوار الخاص معه كان يكتسب أهمية خاصة..

أولاً: لأننى كنت أود أن أطرح عليه نوعاً من الأسئلة التى تتخطى هدف الحصول على خبر أو الاستفهام عن شىء وتدخل فى نطاق محاولة استكشاف الرؤى والاستراتيجيات.. وهذا النوع من الأسئلة قد لايكون من المناسب طرحه فى المؤتمرات الصحفية.. فضلا عن أهمية الاستئثار بمعرفة الإجابة عليه.

ثانيا: أن الجنرال راشد قريشى كان يملك بالفعل الإجابة على هذا النوع من الأسئلة.. لأنه واحد من أهم رجال هذه الفترة فى باكستان.

فهو محل ثقة الرئيس بيرفيز مشرف ومستشاره وأقرب الناس إليه.. هذه الثقة ترجع إلى العلاقة الحميمة التى تربطهما منذ سنوات طويلة مضت قبل أن يأتى مشرف إلى السلطة فى باكستان.. عندما كان الرجلان ـ رغم الفارق بينهما فى العمر والرتبة العسكرية ـ يقفان فى خندق واحد على خط المواجهة مع الهندفى كشمير.. هذه الفترة جعلت بيرفيز مشرف يكتشف راشد قريشى كتلميذ نجيب ومخلص له فجعله قريبا منه ومحل ثقته.. ساعد على تقوية هذه العلاقة الصفات المشتركة التي تجمع الرجلين.. والتى أبرزها الكياسة والأدب الجم إلى درجة الخجل.. والتواضع مع الناس.. والقدرة على ضبط الأعصاب حتى فى مواجهة أكثر المواقف إستفزازية.

لذلك كان طبيعيا عندما أصبح بيرفيز مشرف وزيراً للدفاع أن يعين راشد قريشى

متحدثا باسم الجيش.. وعندما جاء إلى السلطة ثم أصبح رئيسا للجمهورية.. ظل راشد قريشي في نفس المنزلة بالنسبة له: التلميذ النجيب المخلص.. والمتحدث الخاص باسمه.. وأقرب الناس إليه.


مع الجنرال راشد قريشي

عندما طلبت من الجنرال راشد قريشي موعدا خاصا للقائه.. كنا في ذروة الأزمة والحرب على أشدها.. وباكستان تغلي من الداخل.. وهو شخصيا في قمة مشاغله.. لكنني فوجئت به يقول.

ـ يسعدني استقبالك في أي وقت..

كان الرجل معي ودودا ومجاملا.. لم ينس لقاءنا السابق عام ١٩٩٩. فاتفقنا على اللقاء في اليوم التالي: الخميس أول نوفمبر ٢٠٠١ الساعة الثانية ظهرا بمكتبه في رئاسة الجمهورية..

بعد الترحيب والتقاط الصور.. بدأت الحوار معه بهذا السؤال:

● ما هو تقييمك للوضع الذي تمر به المنطقة الآن..؟

ـ قال لي: ماذا تقصد من سؤالك؟

● قلت له: أقصد الوضع الجديد الذي طرأ على المنطقة منذ ١١ سبتمبر الماضي.. وما أقصده بالمنطقة.. هما باكستان وأفغانستان..

ـ قال: بالنسبة للوضع في أفغانستان.. أعتقد أنه من الأفضل أن توجه سؤالك إلى قوات التحالف الدولي والولايات المتحدة.. لأنهم يعرفون أكثر منا ماذا يجري هناك..

أما بالنسبة لباكستان.. فقد عبر الرئيس بيرفيز مشرف عن موقفنا أكثر من مرة.. وقال إن هناك ثلاث مراحل استراتيجية يجب تنفيذها لإنهاء الأزمة الأفغانية..

ـ المرحلة الأولى: هي العمل العسكري الذي تقوم به قوات التحالف الدولي الآن.. ونحن نشعر في الواقع أنه يجب الإسراع بوقف العمل العسكري.. لأنه من الأفضل في الاستراتيجيات العسكرية أن تكون الضربات محددة الأهداف وقصيرة بقدر الإمكان.. وبعيدة عن المناطق السكنية التي يقطنها المدنيون..

ـ المرحلة الثانية: هي التغيير السياسي الذي يجعل أفغانستان كما يريدها الأفغان أنفسهم.. وهذا يمكن أن يتحقق من خلال تشكيل حكومة عريضة القاعدة تمثل فيها كل القوميات التي يتشكل منها الشعب الأفغاني.. سواء كانت هذه

القوميات تمثل أغلبية السكان مثل البشتون، أو أقليات أخرى مثل الطاجيك والأوزبك.

- أما المرحلة الثالثة.. فهى إعادة تعمير أفغانستان وتأهيل الأفغان وإقامة المشروعات لتشجيع اللاجئين منهم على العودة إلى ديارهم..

● قلت له: هل تعتقد أن العمل العسكرى الذى تقوم به الولايات المتحدة ضد أفغانستان.. كان ضروريا؟!

- بدا على ملامح وجهه أن السؤال لم يعجبه.. أو أنه لم يستسغه.. فصمت برهة.. ثم قال وهو يخرج الكلمات من فمه ببطء..

إجابة هذا السؤال ليست عندى.. ولكنها عند قوات التحالف.. فهم الذين اتخذوا قرار العمل العسكرى.. وهم الذين يعرفون أهدافهم هناك.. أنا لا أعرفها.. لكن من وجهة نظرى يمكن الحكم على العمل العسكرى.. ما إذا كان ضروريا أم لا.. عندما تظهر لنا النتائج التى سيسفر عنها..

أضاف: طبعا قرار العمل العسكرى اتخذ رداً على الأحداث التي وقعت فى نيويورك وواشنطن يوم ١١ سبتمبر.. وكل إنسان فى العالم استنكر وقوع هذه الأحداث وقال إنها ما كان يجب أن تحدث..

● قلت له: لكن البعض يرى أن الولايات المتحدة الأمريكية اتخذت من أحداث ١١ سبتمبر ذريعة لكى ترسل قواتها إلى هذه المنطقة.. فتقضى على طالبان، ثم تستقر بعد ذلك فى أفغانستان لما تتميز به من موقع استراتيجى فريد يتيح للأمريكيين فرصة التواجد بقواتهم على حدود الصين المنافس القوى لهم.. وكذلك بجوار جمهوريات آسيا الوسطى التى تتوفر بها كميات هائلة من النفط والثروات المعدنية.. فما رأيك؟

- قال: أنا لا أفهم ماذا تقصد من سؤالك بالضبط.. هل تقصد أن الولايات المتحدة هى التي قامت بنفسها بنسف برجى مركز التجارة العالمى فى نيويورك.. وقصف البنتاجون فى واشنطن.. وقتل أكثر من ستة آلاف من مواطنيها.. لكى تصنع «ذريعة» لإرسال قواتها إلى أفغانستان.؟!

● قلت له: أنا لم أقل ذلك.. ولكننى قلت إنه بعد وقوع الحادث رأت الولايات المتحدة أن تتخذ منه «ذريعة» - أى سببا - لإرسال قواتها إلى هذه المنطقة الهامة والبقاء فيها.. بالضبط كما حدث من قبل فى منطقة الخليج.. قامت العراق بغزو الكويت.. فذهبت القوات الأمريكية إلى هناك بذريعة تحرير الكويت.. الكويت تحررت منذ أكثر من عشر سنوات.. لكن القوات الأمريكية ظلت فى المنطقة لم تغادرها حتى الآن.. والسؤال هو: هل تعتقد أن سيناريو بقاء القوات الأمريكية فى الخليج سيتكرر فى أفغانستان..؟

- قال: ماسمعناه.. هو أن الولايات المتحدة لديها دلائل معقولة على وجود علاقة

بين طالبان وتنظيم القاعدة وأحداث ١١ سبتمبر.. هذا ما سمعناه.. ثم هل تعرف أين توجد قواعد القوات الأمريكية الآن.. إنها توجد في الشرق الأوسط والبحر العربي والمحيط الهندي وأوزبكستان.. إذن فما حاجتها لكي تأتي إلى هنا..

● قلت: لكنها ياسيادة الجنرال تريد أن تتواجد فوق أرض ملاصقة للصين.. أي في أفغانستان. لأن الصين كما تعلم بدأت تظهر كقوة كبرى مرشحة لمنافسة الولايات المتحدة..

- قال: كيف ستكون قريبة من الصين إذا كانت القوات الأمريكية مازالت حتى الآن متواجدة في الشرق الأوسط. إنها لم تأت إلى باكستان..

● قلت: ستصبح قريبة من الصين بالتواجد فوق أراضي أفغانستان..

- قال: هل تقصد من سؤالك أن قوات التحالف تريد البقاء في أفغانستان..

قلت له: نعم أقصد ذلك..

- قال: وأنا لا أعتقد أن ذلك هو هدف قوات التحالف..

لاحظت منذ بدأ الحوار معه أنه حريص على عدم استخدام كلمة «قوات أمريكية» وأنه يستخدم بدلا منها كلمة «قوات التحالف».. فطرحت السؤال التالي بشكل أكثر تحديدا عن القوات الأمريكية..

● قلت له: هناك تقارير كثيرة في الصحف تشير إلى وجود قوات أمريكية على أراضي باكستان.. وقال بعض شهود العيان لوسائل الإعلام إنهم رأوا طائرات أمريكية تهبط وتقلع من قاعدة «يعقوب آباد» في اقليم السند.. وقاعدة «باسني» في إقليم بلوشستان.. هل هذا صحيح..؟

- قال: هذا السؤال مازال يطرح كثيرا.. رغم أننا أجبنا عليه من قبل أكثر من مرة بوضوح شديد.. وأنا لا أفهم لماذا تصرون على إعادة طرح السؤال في كل وقت..

يجب أن تعرف أن هناك ثلاثة أنواع فقط من المساعدة وافقت باكستان على تقديمها لقوات التحالف الدولي.. هي: تقديم الدعم اللوجيستي - التعاون في مجال الاستخبارات - التعاون في مجالنا الجوي.. هذا فقط ما نقدمه لقوات التحالف الدولي.. وأنا أؤكد لك أنه لا توجد أية قوات أجنبية تنطلق من باكستان لمهاجمة أفغانستان.. جميع الهجمات تنطلق من الخليج ومن البحر العربي ومن المحيط الهندي ومن أوزبكستان.. ولكن ليس من باكستان..

● قلت له: سمعنا في الأيام الأخيرة عن ظهور بعض بوادر الخلاف بين كل من الولايات المتحدة وباكستان.. فالبعض يقول إن الأمريكيين غاضبون لأنهم يعتقدون أن المعلومات الاستخبارية التي تقدمونها إليهم غير دقيقة.. إلى أي مدى وصل الخلاف بينكما الآن؟

- قال: لايوجد خلاف مطلقا.. وأنا لم أسمع أبدا من قبل أن الولايات المتحدة أو قوات التحالف الدولي غاضبة من باكستان.. ما سمعته هو أنهم يطلبون أن تستمر

باكستان فى تقديم الدعم الذى تقدمه إليهم.. وهو فى حدود الثلاثة أنواع من المساعدات التى ذكرتها لك من قبل..

● قلت له: هناك أيضا تقارير تتحدث عن أن الولايات المتحدة لا ترغب فى إعطاء باكستان فرصة القيام بدور فى تشكيل الحكومة الجديدة فى أفغانستان.. ما تعليقك على ذلك؟

ـ قال: ونحن لا نرغب فى القيام بهذا الدور ونعتبره شأناً أفغانياً.. يا أخى العزيز باكستان منذ بداية الأزمة لها موقف ثابت من هذه المسألة.. وهو ضرورة أن تكون الحكومة الأفغانية القادمة عريضة القاعدة.. ممثلة لكافة العرقيات والفصائل والقوى الأفغانية.. قادرة على تحقيق الوفاق الوطنى ومراعاة حسن الجوار مع الدول الأخرى، وجعل أفغانستان كما يريد الأفغان أن تكون بلادهم.. فمثل هذه الحكومة هى التى يمكن أن تستمر فى الحكم وليس أى حكومة أخرى تفرض من الخارج.. من روما أو من جنيف مثلا..

● سألته: من وجهة نظرك.. ما هو مستقبل طالبان؟

ـ قال: طالبان فى لغتنا تعنى «الطلبة» وهناك مئات الآلاف من الطلبة ومستقبلهم يحدده الشعب الأفغانى وليست باكستان..

قلت له: يا سيادة الجنرال.. أنا أقصد مستقبل جماعة طالبان.. كحكومة ونظام يسيطر الآن على معظم الأراضى الأفغانية ويواجه حربا مع قوات التحالف الدولى.. كيف ترى مستقبلهم؟

ـ قال: هناك عناصر متطرفة فى حكومة طالبان هى التى تقوم بالعمليات الإرهابية وهى التى تستهدفها ضربات قوات التحالف الدولى.. ولا تستهدف الشعب الأفغانى..!

(لاحظت أنه يتهرب من الإجابة على السؤال بالحديث فى موضوع آخر لم أسأل عنه.. فانتقلت إلى نقطة أخرى)..

● قلت له: يرى البعض أن الحرب التى تقوم بها الآن قوات التحالف الدولى ـ كما يسميها ـ ضد أفغانستان.. تأتى فى إطار الصراع بين الحضارات الذى تنبأ به الكاتب الأمريكى «صموئيل هانتنجتون» فى كتاب صدر له عام ١٩٩٣.. هل توافق على ذلك؟

ـ قال: لا أعتقد أن ذلك صحيح..

● قلت له: إذا انتقلنا إلى المشكلة بين باكستان والهند.. هل تعتقد أن الهند حاولت استغلال الأزمة الحالية فى المنطقة لتصعيد التوتر مع باكستان فى كشمير؟

ـ قال: نعم.. هذا أمر لاشك فيه.. فقد حاولت الهند منذ بداية الأزمة فى ١١ سبتمبر

٢٠٠١ استغلالها لتهديد باكستان.. وايذاء باكستان.. وتصعيد التوتر فى كشمير وارتكاب أعمال وحشية ضد سكانها.. وسبب ذلك أنها لاحظت ان باكستان أصبحت تمثل أهمية استراتيجية للعالم كله.. وهذه الأهمية تزداد يوما بعد يوم.. فبدأت تقوم بعمليات تستهدف منها تشويه صورة باكستان أمام العالم.. مثل حادث خطف الطائرة المدنية.. وإطلاق النار فى مناطق خط السيطرة.. وغير ذلك.

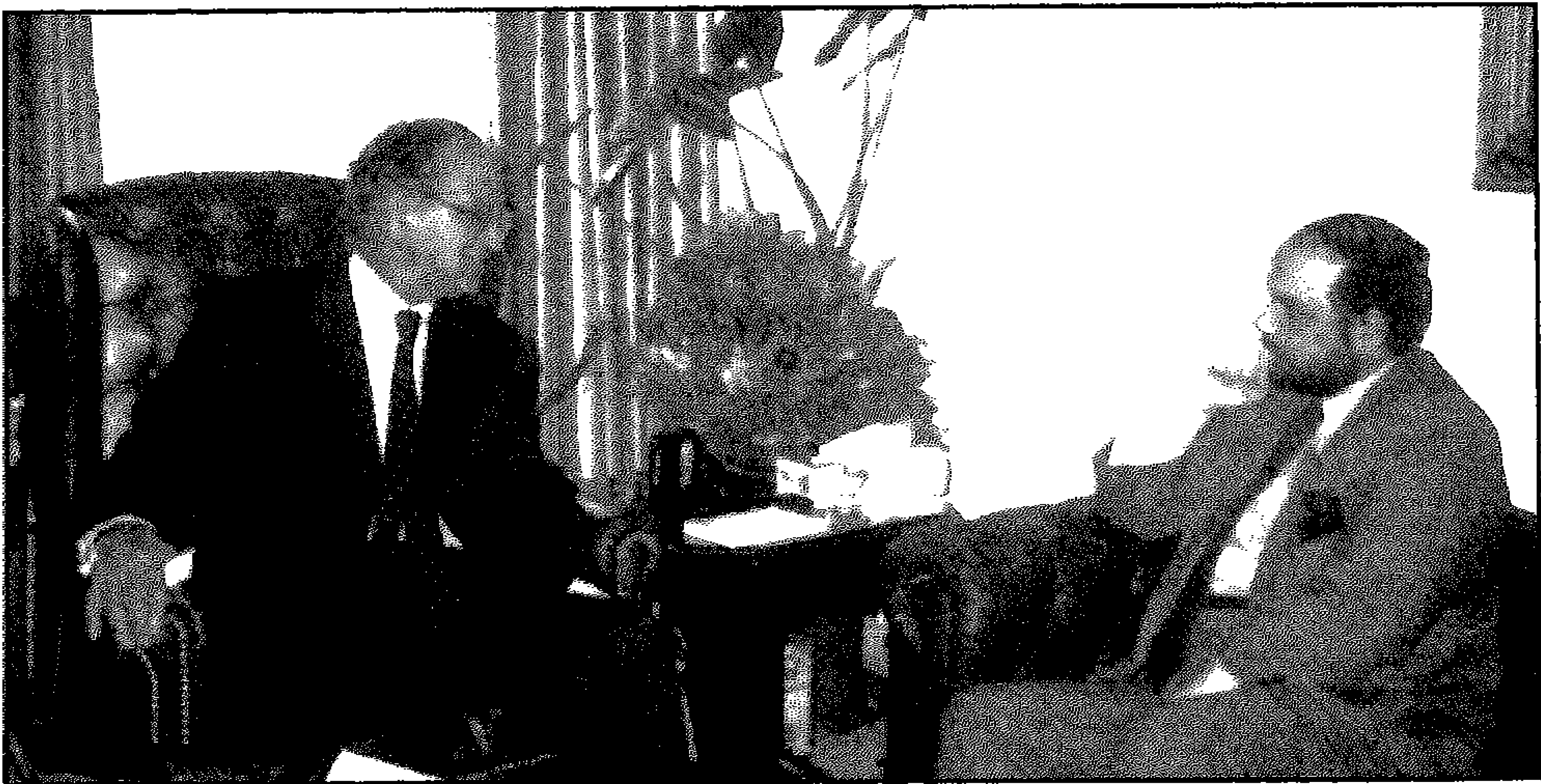
* * *

الموقف السياسى

الحوار الثالث مع صناع القرار فى الحكومة الباكستانية.. كان مع وزير الخارجية عبدالستار.

كنت قد التقيت به قبل ذلك فى العاصمة الماليزية «كوالالمبور» على هامش مؤتمر وزراء خارجية دول منظمة المؤتمر الإسلامى الذى عقد بها فى الأسبوع الأخير من شهر يونيو عام ٢٠٠٠.. وأجريت معه حوار خاصا حول علاقة النظام الجديد فى باكستان بالمجتمع الدولى.. حيث كانت حكومة الرئيس مشرف فى ذلك الوقت مازالت لم تكمل عامها الأول، وتعيش أزمة كبيرة مع المجتمع الدولى بسبب وصولها إلى السلطة عبر انقلاب عسكرى أطاح برئيس حكومة منتخب هو نواز شريف..

وكان وزير الخارجية الباكستانى عبدالستار يبذل فى هذا المؤتمر جهودا حثيثه لبناء الجسور مع وزراء خارجية الدول الإسلامية كخطوة نحو الاندماج فى المجتمع الدولى، وكسر طوق العزلة التى فرضتها مجموعة دول الكومنولث البريطانى على



أثناء الحوار مع وزير الخارجية الباكستانى عبدالستار

باكستان منذ اتخذت قرارا بتجميد عضويتها فى المجموعة.. لذلك كان عبدالستار طوال أيام المؤتمر متحمسا جدا للتحدث مع مندوبى وسائل الإعلام العالمية.. من أجل تحسين فكرة العالم عن نظام الرئيس مشرف.. وكنت واحدا ممن التقوا به وأجريت معه حوارا نشرته بعد ذلك فى جريدة الجمهورية..

ثم وقعت أحداث ١١ سبتمبر.. وذهبت إلى باكستان لتغطية ما يجرى فى المنطقة التى أصبحت بؤرة الاهتمام العالمى.. فكان أول من طلبت اللقاء بهم هو وزير الخارجية عبدالستار.. غير أن الرجل ـ رغم أهمية الوزارة التى يتولاها ـ كان مثل بقية الوزراء الآخرين يفضل أن يترك الحديث للرئيس مشرف.. إلى أن التقيت به مصادفة ذات يوم وتحدثت معه فى الأمر، فقال لى إن عدد الذين يطلبون إجراء مقابلات صحفية معه بلغ ٧٢ مراسلا وأنه لا يستطيع أن يجد الوقت الكافى لإعطاء كل منهم حوارا خاصا.. لكنه رغم ذلك سيخصص ساعة من وقته لاستقبالى فى مكتبه.. واتفقنا على موعدها: الثانية ظهرا.. يوم السبت ٣ نوفمبر ٢٠٠١.

* * *

الساعة امتدت إلى ساعتين.. والحوار كان صريحا متدفقا. لم ينته إلا بعد أن فرغت من طرح ما لدى من أسئلة..

● سألته فى البداية: كيف يمكن لنا أن نفهم موقف باكستان فى الأزمة الأفغانية.. الذى يقدم المساعدة إلى القوات الأمريكية من ناحية.. ومن ناحية أخرى يحتفظ بعلاقات دبلوماسية مع نظام طالبان..؟!

ـ قال: نحن على مر السنوات احتفظنا دائما بعلاقات ودية مع طالبان.. حتى فى الأوقات التى ظهرت بيننا فيها بعض الخلافات لم نقطع علاقاتنا بهم..

● متى ظهرت هذه الخلافات؟

ـ ظهرت فى أوقات كثيرة.. مثلما حدث عندما قرروا تحطيم تماثيل «بوذا»لأنها كانت من وجهة نظرهم أصناما ووثنية.. فقلنا لهم إن مثل هذا الإجراء لا يتمشى مع الأعراف الدولية، وبادر الرئيس بيرفيز مشرف بإرسال مبعوث خاص لنقل وجهة نظرنا إليهم.. وهى أن لدينا فى باكستان تراثاً حجرياً يعود إلى أكثر من ألفى عام.. وفى مصر تماثيل كثيرة للفراعنة لا يقل عمرها عن خمسة آلاف عام.. ومع ذلك فلا نحن ولا المصريين نعتبر هذه التماثيل أصناما.. بل هى آثار حضارة قديمة نعتز بها أمام العالم.. رغم ذلك أصر قادة طالبان على تنفيذ قرارهم وحطموا التماثيل مما أغضب المجتمع الدولى..

أضاف وزير الخارجية الباكستانى: هذا مجرد مثال لما كان يظهر بيننا أحيانا من خلافات.. لكن علاقتنا بهم استمرت ودية وطيبة.. بل وكنا ندعو دول العالم إلى الاعتراف بهم كحكومة شرعية لأفغانستان.. حتى ظهرت الأزمة الحالية.. فكان الخلاف بيننا بشأن تنفيذ قرار مجلس الأمن رقم ١٣٣٣ الذى يدعوهم إلى تسليم

المتهمين بإرتكاب أحداث ١١ سبتمبر، بمثابة القشة التى قسمت ظهر البعير فى علاقاتنا بطالبان.

نحن نصحناهم بضرورة تنفيذ القرار.. لأن هذه هى رغبة المجتمع الدولى.. والرئيس مشرف أرسل إليهم وفدا يوضح لهم مخاطر عدم تنفيذ القرار.. وهى لجوء الولايات المتحدة وحلفائها إلى استخدام القوة العسكرية مما سيؤدى إلى زيادة معاناة الشعب الأفغانى الفقير..

لقد بذلنا معهم جهودا كبيرة لتوضيح الأمر.. لكنهم رفضوا نصيحتنا.. لأن قيادات طالبان هم بالطبع مثل كل أبناء الشعب الأفغانى يتسمون بالعناد والتصلب ويفضلون التمسك بقراراتهم..

أما بالنسبة لما ذكرته فى سؤالك الأول عن الاحتفاظ بعلاقات دبلوماسية مع طالبان.. فنحن من جانبنا قمنا بسحب جميع أعضاء بعثتنا الدبلوماسية فى أفغانستان منذ أواخر سبتمبر الماضى.. لكننا فى نفس الوقت لم نطلب منهم سحب بعثتهم الدبلوماسية فى إسلام آباد، لأننا رأينا أن استمرار وجود هذه البعثة قد يحقق فائدة للأسرة الدولية.. ليس فقط بالنسبة للدول التى لها قضايا ثنائية تريد بحثها مع طالبان.. ولكن أيضا بالنسبة للأمم المتحدة التى مازالت بعض وكالاتها الإنسانية تعمل هناك، وتحتاج إلى التنسيق مع سفير طالبان فى إسلام آباد..

هذا هو كل ما فى الأمر، لكن يجب أن أوضح لك أن وجود سفارة لحكومة طالبان فى إسلام آباد لايعنى أبدا أننا مازلنا أصدقاء..!

● قلت له: البعض يتصور أن الإبقاء على فتح هذه السفارة.. يعنى أيضا الإبقاء على نافذة مفتوحة للاتصالات التى يمكن أن تقود إلى مفاوضات أو مبادرات سلمية لإنهاء الأزمة.. فهل هناك أمل للسير فى هذا الطريق..؟!

ـ قال: كانت هناك بادرة أمل ظهرت أثناء الزيارة التى قام بها الأخضر الإبراهيمى مبعوث الأمم المتحدة إلى إسلام آباد منذ أيام.. فقد كنا نتصور أنها ستهيىء الفرصة للحوار بينه وبين عبدالسلام ضعيف سفير طالبان .. لكن تعليمات قيادة طالبان إلى السفير منعته من لقاء الإبراهيمى.. فضاعت الفرصة..

إلا أن السفارة مازالت مفتوحة.. وهى تنقل كل يوم عبر المؤتمرات الصحفية للسفير وجهة نظر حكومة طالبان إلى العالم.. ونأمل أن يتمكن الابراهيمى عاجلا أو آجلا من تقديم مبادرة مقبولة لتشكيل حكومة جديدة فى أفغانستان.. تكون عريضة القاعدة ومستقلة..

● قلت له: بمناسبة الحكومة الجديدة.. هناك من يقول إن الولايات المتحدة لاتريد لباكستان أن تلعب دورا فى تشكيل هذه الحكومة.. وإنها لم تكن راضية عن عقد مؤتمر بيشاور.. لذلك بدأت الترتيب لعقد مؤتمر آخر فى اسطنبول.. عقد بعد ذلك فى بون .. هل هذا الكلام صحيح..؟

ـ قال: سأشرح لك موقفنا من هذا الموضوع.. وهو يقوم على النقاط التالية:

١ـ أن أفغانستان مثل أى دولة فى العالم يجب أن تظل موحدة.

٢ـ أن يكون فيها حكومة عريضة القاعدة.. ممثلة لكافة المجموعات العرقية.

٣ـ أن عملية تشكيل الحكومة الجديدة يجب أن تنبع من الأفغان أنفسهم ولا تفرض عليهم من الخارج.. وهذا يعنى التشاور فيما بينهم..

فإذا كان هناك من يعتقد أن باكستان تدعى بأن لها دورا خاصا فى هذه العملية.. فهذا اعتقاد خاطىء..

ماحدث هو أنه منذ بدأت العملية العسكرية فى أفغانستان.. وجدت مجموعات أفغانية كثيرة أن الفرصة قد سنحت لها لتشكيل حكومة جديدة.. فبدأت هذه المجموعات تنشط وبالذات مجموعة التحالف الشمالى المعارض التى إتصلت بالملك السابق ظاهر شاه فى روما، وأرسلت إليه وفدا لمقابلته والاتفاق معه..

هناك أيضا مجموعات أفغانية أخرى لها أفكار مختلفة.. وهناك ثلاثة ملايين لاجىء أفغانى فى باكستان لديهم أيضا أفكارهم وآراؤهم.. ولابد طبعا من التشاور بين كل هذه المجموعات حول شكل الحكومة القادمة فى أفغانستان.. هذا بالضبط هو الهدف الذى من أجله عقد اجتماع فى بيشاور يومى ٢٤ و ٢٥ اكتوبر الماضى، بدعوة من بيرسيد أحمد جيلانى الذى يعد واحدا من كبار المجاهدين الأفغان ويحظى باحترام القبائل الأفغانية.. وحاليا هو رئيس الجبهة الإسلامية الأفغانية.. وقد حرص جيلانى قبل أن يعقد الاجتماع على الاتصال بكافة المجموعات الأفغانية ودعوتهم لحضور الاجتماع، بمن فيهم الملك ظاهر شاه نفسه.. حيث اجتمع به جيلانى فى روما، وأكد له الملك تقديره لاجتماع بيشاور..

لذا.. فإن اجتماع بيشاور.. من وجهة النظر المنطقية.. يعد مساهمة جيدة فى جهود تشكيل حكومة أفغانية موسعة، وخطوة هامة على هذا الطريق.. ونحن نأمل أن تستمر هذه الاجتماعات تحت مظلة الأمم المتحدة للتمهيد إلى تشكيل هذه الحكومة التي يجب عليها أن تكون قادرة على تحقيق الوفاق الوطنى بين الأفغان ورعاية حسن الجوار مع الدول الأخرى..

دعنى أوضح لك أيضا.. أنه من الضرورى أن تكون الحكومة القادمة فى أفغانستان عريضة القاعدة وممثلة لكافة المجموعات العرقية بما فى ذلك أيضا الأقليات مثل الطاجيك والأوزبك والهزارا.. لأننا لو استبعدنا أية مجموعة من هذه المجموعات، فإن ذلك ستكون له آثار سلبية على استقرار أفغانستان.. وبالطبع لابد من تمثيل البشتون فى الحكومة، لأنهم يشكلون أغلبية الشعب الأفغانى.. ولايمكن لأى حكومة مستقبلية فى أفغانستان أن تتشكل بدون تمثيل البشتون..

* * *



قال لى : طالبان رفضت نصحيتنا .. !

● قلت له: هناك شعور غاضب فى الشارع الباكستانى.. المظاهرات تخرج كل يوم تندد بقرار الحكومة التعاون مع الولايات المتحدة وقوات التحالف فى قصف أفغانستان.. بينما الحكومة تؤكد كل يوم أيضا أن أغلبية الشعب الباكستانى تقف معها.. فأين الحقيقة؟

ـ قال: قبل كل شىء.. دعنى أخبرك بأن الرئيس بيرفيز مشرف أمضى أكثر من ٤٠ ساعة فى لقاءات مع القيادات الحزبية المختلفة والشخصيات العامة الممثلة لكافة شرائح الشعب الباكستانى وشرح لهم كل الحقائق.. كما أنه فى الأيام الأولى من الأزمة ـ يوم ١٩ سبتمبر ـ وجه خطابا إلى الأمة تحدث فيه بصراحة لم يتحدث بها من قبل أى زعيم فى تاريخ باكستان.. لأنه وضع كل الحقائق أمام الناس.. الصعوبات والضغوط والمزايا وغير المزايا وكل شئ.. بالإضافة إلى أنه عقد لقاءات عديدة مع كبار المثقفين والكتاب فى وسائل الإعلام المختلفة..

إذن.. فنحن لا نعمل فى الخفاء.. وانما فى النور وأمام الناس ونطلعهم على كل شئ.

لذلك فإن أغلبية الشعب الباكستانى تؤيد الحكومة وتقف معها.. لأنها تتفهم الظروف وتثق فى صحة قرارات الحكومة.

اما بالنسبة للمظاهرات.. وهى تخرج عادة يوم الجمعة، حيث يستغل منظموها تجمع الناس للصلاة.. فالمشاركون فيها قلة من الأفراد لا يمثلون أى نسبة تذكر من المجتمع الباكستانى الذى يضم ١٤٥ مليون نسمة.

إنك لو ذهبت إلى أى سوق فى أى مكان فى باكستان.. ستجد ان عدد من فيه يزيد على عدد المشاركين فى أى مظاهرة.

لكن.. لأننا دولة ديمقراطية.. فنحن لا نمنع خروج المظاهرات إلى الشوارع فى أى

وقت وأى مكان.. ونسمح لمصورى التليفزيون بتصويرها.. وعندما تبث هذه الصور يعتقد الناس فى الخارج أن هذه المظاهرات تمثل أغلبية الشعب الباكستانى.. وهذا غير صحيح..!.

● قلت له: كيف تقول دولة ديمقراطية.. ونظام الحكم عندكم عسكرى..؟.

- قال: نعم.. نحن دولة ديمقراطية.. وأنت بنفسك تلمس أن الحرية متوفرة للناس هنا بالكامل.. فى الشوارع والمساجد ووسائل الإعلام.. صحيح عندنا نظام عسكرى.. لكنه يحكم فى إطار القوانين المدنية.. ولم يعترض جندى واحد فى باكستان طريق أى مظاهرة إلا عندما حاول البعض استغلال المظاهرات للقيام بأعمال تخريبية فى المنشآت المدنية كالبنوك والمحال التجارية.. فهل كنت تنتظر منا أن نقف مكتوفى الأيدى والبنوك تنهب والمحال تدمر لكى نثبت للعالم أننا دولة ديمقراطية..!

* * *

● قلت له: هناك الآن قلق وغضب لدى الشعوب الإسلامية من استمرار عمليات القصف وقتل المدنيين الأفغان.. وأصبح الكثيرون يتعاطفون معهم.. ويتساءلون: لماذا أنتم مستمرون فى تقديم الدعم للقوات الأمريكية وقوات التحالف..؟

- قال: نحن أيضا متألمون جدا لقتل المدنيين الأفغان.. وطالبنا قوات التحالف بعدم توجيه أية ضربات للمناطق المدنية لأننا تربطنا مشاعر قوية وصلات تاريخية وثيقة بالشعب الأفغانى.. فهم بالنسبة لنا جيران وأشقاء.. لذلك فنحن نتألم بشدة لمعاناتهم.. ونقدم كل ما نستطيع من عون للاجئين منهم.. فعلى الرغم من قرارنا بإغلاق الحدود، حيث لدينا الآن بالفعل أكثر من ثلاثة ملايين لاجئ أفغانى وظروفنا الاقتصادية لا تسمح لنا باستقبال المزيد منهم.. فإننا قررنا فتح هذه الحدود أمام الحالات الإنسانية من اللاجئين.. كالنساء والأطفال والمرضى والشيوخ المسنين..

لذلك.. إذا كان هناك غضب أو عدم ارتياح لدى الشعوب الإسلامية بسبب معاناة الأفغان.. فذلك لأن مشاعرهم لا تقل عن مشاعرنا..

أما بالنسبة للدعم الذى نقدمه لقوات التحالف.. فهناك أسباب قوية دفعتنا لاتخاذ هذا القرار الضرورى.. وهى:

- أولا: نحن جميعا ملتزمون بقرارات مجلس الأمن.. ومن غير المنطقى أن نوافق على تنفيذ بعض القرارات ونرفض تنفيذ البعض الآخر.

- ثانيا: إذا لم تتعاون باكستان مع المجتمع الدولى.. فإن باكستان سوف تعزل عن العالم.. وسوف يترك ذلك تأثيرات سلبية عليها.. والآن بعد اتخاذنا هذا القرار أصبح بإمكاننا أن نظهر للعالم أن الأمة الإسلامية تتحمل مسئوليتها كجزء من العالم..

- ثالثا: أن الجاليات الإسلامية فى الدول الغربية تعرضت لهجمات من بعض

الأشخاص ضيقى الأفق الذين كانوا يحاولون إلصاق تهمة الإرهاب بالإسلام.. وهذا بالطبع أمر غير مقبول.. لذلك كان على باكستان فى هذه الظروف الحرجة أن تتخذ موقفا تثبت به أن الإسلام لا يشجع على الإرهاب.. وأن المسألة ليست مواجهة بين الشرق والغرب.

والدليل على أن قرارنا كان صائبا وضروريا هو ما جاء فى مؤتمر وزراء خارجية دول منظمة المؤتمر الإسلامى الذى عقد بمدينة «الدوحة» فى ١٠ أكتوبر الماضى.. والذى أظهر أن الدول الإسلامية تتفق تماما فى وجهة نظرها مع الأمم المتحدة.. مما يؤكد أن القرار الذى اتخذناه بالتعاون مع قوات التحالف الدولى، كانت ستتخذه أيضا أية دولة إسلامية أخرى لو كانت فى موقفنا..!

● قلت له: إذا انتقلنا إلى علاقتكم مع الهند.. لقد لاحظنا منذ بدأت الأزمة الحالية بين الولايات المتحدة وطالبان والتى تطورت إلى الحرب التى نشهدها على أفغانستان.. أن الهند تحاول استغلال هذه الأزمة لتصعيد التوتر فى كشمير وجر باكستان إلى حرب معها.. وأحيانا كانت الدولتان تخوضان حربا كلامية ضد بعضهما البعض.. ما تعليقك؟

ـ قال: حيث إن الأزمة الحالية تتعلق بمسألة الإرهاب.. فالهند اعتقدت أنها تستطيع استغلال هذه الفرصة لإدراج ولاية كشمير ضمن مناطق الإرهاب فى العالم..

ثم تساءل وزير الخارجية الباكستانى: ما هو الإرهاب؟.. قال: إنه قتل الناس الأبرياء.. إذا نظرت إلى ولاية كشمير ستجد سكان الولاية إناساً أبرياء. ورغم ذلك فأكثر من ٧٥ ألف شخص منهم لقوا مصرعهم خلال الـ ١٢ عاما الأخيرة على أيدى القوات الهندية التى تمارس القمع بوحشية ضد المدنيين الأبرياء..

الهند يجب عليها أن تدرك أن الإرهاب فى كشمير هو نوع من إرهاب الدولة الذى تمارسه ضد الأبرياء العزل..

لكنها للأسف تحاول إقناع بعض الدول الغربية بأن الإرهاب يتسلل إليها عبر الحدود مع باكستان.. وهذا أمر مضلل ومخزى..

والهند لو سمحت لمراقبين دوليين وأعضاء منظمات حقوق الإنسان ورجال الإعلام بزيارة كشمير.. فإنهم سيرون بأعينهم أسماء الموتى مكتوبة على المقابر.. كلهم كشميريون.. إذن ما معنى الحديث عما تسميه الهند بتسلل الإرهابيين عبر الحدود؟..

إذا كنا سنتحدث عن «التسلل».. فواقع الأمر أن الهنود هم الذين تسللوا من داخل حدودهم إلى ولاية كشمير..

أما بالنسبة لما وصفته فى سؤالك بـ «الحرب الكلامية».. فذلك لأنهم يحاولون استغلال حملة العالم للقضاء على الإرهاب فى القضاء على الكفاح من أجل الحرية فى

كشمير.. ونحن من جانبنا نحاول دائما توضيح الحقيقة للعالم.. وهى أن الكفاح من أجل الحرية ليس إرهابا..

انظر إلى الحقائق.. فكفاح الكمشيريين مستمر منذ مدة طويلة وجذب عددا كبيرا من المجاهدين.. لكن بدلا من أن تعترف الهند بحق الكشميريين فى تقرير مصيرهم بأنفسهم كما نصت على ذلك قرارات مجلس الأمن والأمم المتحدة.. فإنها تريد أن تلصق بهم صفة الإرهاب.. وهذا غير صحيح..

نحن ندعو الهند إلى إعادة النظر فى موقفها.. ونحن من جانبنا مستعدون دائما للحوار معها..

* * *

الفصل الثامن عشر

• حرق المربعات..

«إن الضربات الأمريكية المتتالية لأفغانستان.. جعلت الولايات المتحدة تبدو كما لو أنها بلطجي هاى.. تك»..!

جوزيف باير ن

رئيس لجنة العلاقات الخارجية
مجلس الشيوخ الأمريكى

«إنها أكبر عملية عسكرية تخوضها الولايات المتحدة منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية» ..

الجنرال ريتشارد مايرز

رئيس هيئة الأركان المشتركة
فى الجيش الأمريكى

«إن الولايات المتحدة لا تستبعد استخدام الأسلحة النووية فى أفغانستان»..!

دونالد رامسفيلد

وزير الدفاع الأمريكى

□ مع بداية الأسبوع الرابع للحرب الأمريكية على أفغانستان.. بدأ الأمريكيون يشعرون بالقلق والاحباط بسبب عدم إحراز أى تقدم فى الحرب..!

– فالقصف الجوى المتواصل بالليل والنهار لم يفت فى عضد طالبان.. وإنما أدى فقط إلى هدم البيوت والمنازل وتشريد الناس وسقوط نحو ألف قتيل وإصابة عدة آلاف آخرين.. كلهم من المدنيين الأبرياء.. الذين لم يكن لهم أى دور أو علاقة بما حدث فى نيويورك وواشنطن يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١.. مما أثار امتعاض وغضب الكثير من شعوب وحكومات العالم.

– ومحاولة القيام بهجوم برى التى تمت يوم ٢٠ أكتوبر.. فشلت، ولم تسفر سوى عن تحطم طائرتين أمريكيتين وقتل وجرح العشرات من جنود الكوماندوز الأمريكيين.. وعندما حاول البنتاجون تكرارها فى أول نوفمبر بإرسال مائة من القوات الخاصة على متن أربع طائرات هليكوبتر مقاتلة أقلعت من على ظهر الحاملة «بيليلو» فى المحيط الهندى.. فشلت هذه المحاولة أيضا لأنها قوبلت بنيران كثيفة من طالبان أجبرت الطائرات على التراجع.. واعترف بذلك دونالد رامسفيلد وزير الدفاع الأمريكى نفسه عندما قال: «إن النيران الأرضية كانت غزيرة إلى درجة أنها حالت دون إنزال الجنود الأمريكيين مما أرغم الطائرات على العودة..»[٦٩].

بذلك فشل الرئيس الأمريكى بوش فى أن يحقق للأمريكيين ما وعدهم به.. وهو تنفيذ بعض العمليات البرية التى سيتمكن الشعب الأمريكى من مشاهداتها على شاشات التليفزيون..[٧٠].

– أيضا لم تفلح محاولة شق صفوف حركة طالبان من الداخل التى دفعت الولايات المتحدة بعبد الحق ورفاقه للقيام بها.. وتم إعدامهم جميعا وتعليق جثثهم على باب المسجد فى كابول.

– كما أن قوات التحالف الشمالى كانت عاجزة عن التقدم نحو الجنوب.. وكلما حاولت الهجوم على الخطوط الأمامية لطالبان لا تحصد سوى فقدان عدد من جنودها..!

أما قوات طالبان وتنظيم القاعدة.. والملا محمد عمر والشيخ أسامة بن لادن.. فالجميع ظلوا بخير.. لم يصب أحد منهم بسوء.

هكذا كانت الحال مع بداية الأسبوع الرابع للحرب.

وبحسابات الأرقام كان كل يوم فى الحرب يكلف الولايات المتحدة ٤٠ مليون دولار..

كانت المقاتلات الأمريكية.. حتى ذلك الوقت.. قد قصفت أفغانستان بأكثر من ١٢ ألف طن متفجرات.

بالأرقام.. يصبح نصيب كل أفغانى ممن لقوا مصرعهم تحت القصف ١٢ طنا من المتفجرات الأمريكية..!!.. الأمر الذى جعل تكلفة الحرب وجدواها أصبحت موضع دراسات ومناقشات عديدة فى أوساط أمريكية مختلفة.

«فجوردون آدمز» مدير برنامج دراسات السياسات الأمنية بجامعة جورج واشنطن.. قال فى دراسة أعدها عن نفقات هذه الحرب أنها تكلف الولايات المتحدة شهريا حوالى ١,٢ مليار دولار.. وأن الفرق بينها وبين حرب الخليج الثانية عام ١٩٩١ التى بلغت تكاليفها ٦٠ مليار دولار، هو أن الحلفاء فى حرب الخليج تحملوا جزءا من تكاليفها.

.. أما حرب أفغانستان فلا أحد يتحمل تكاليفها سوى دافع الضرائب الأمريكى وحده.

والتكاليف ليست فقط هى الأجور الخاصة التى يتقاضاها الجنود والضباط المشاركون فى الحرب - الذين كان يبلغ عددهم نحو ٣٠ ألفا - وإنما هناك أيضا أجور قوات الاحتياط التى تم استدعاؤها، والتى وصل عددها حتى الأول من نوفمبر ٤١٣٩٢ جنديا وثمن الكميات الضخمة من الوقود التى تستهلكها السفن والطائرات وحاملات الطائرات.. فضلا عن أثمان الأسلحة والذخائر المستخدمة.. وهى مرتفعة جدا.. خاصة تلك الأسلحة التى تعرف باسم «الأسلحة الذكية».. فبعض الصواريخ يصل ثمن الواحد منها إلى مليونى دولار.. والقنابل القديمة تحتاج إلى تزويدها بأجهزة توجيه يتراوح ثمنها بين ٢٠ و٣٠ ألف دولار لكل قنبلة حتى تصيب هدفها بدقة.

* * *

. ارتفاع تكلفة الحرب.. زائد.. التصريحات الرنانة التى كان يطلقها كل يوم «بوش» و«رامسفيلد» و«مايرز».. جعلت من الطبيعى بعد مرور ثلاثة أسابيع من الحرب المتواصلة على أفغانستان أن يتساءل دافع الضرائب الأمريكى عما حققته هذه الحرب..!

السؤال فجر انتقادات كثيرة لإدارة الرئيس بوش.. بدأت تظهر فى وسائل الإعلام جنبا إلى جنب أخبار الحرب.

* «آلان ليكتمان» المؤرخ والأستاذ بجامعة واشنطن عبر عن ذلك بقوله: «إن الانتقادات تجاه الحملة العسكرية على أفغانستان تتزايد، وهى تبدأ عادة من كبار أصحاب الرأى والناشطين، ثم تتسرب ببطء وتدريجيا إلى الجمهور».. ولخص هذه الانتقادات فى ثلاث نقاط رئيسية: [٧١].

١- عجز الحملة العسكرية على أفغانستان عن إحراز أى تقدم نحو اعتقال أو قتل أسامة بن لادن .

٢- خسارة الولايات المتحدة حرب الدعاية فى العالم الإسلامى الذى يزداد الغضب الشعبى فيه تجاه الأمريكيين.

٣- تأييد بوش محاولة الجمهوريين فى مجلس النواب إعادة مليارات الدولارات - ٧٥ مليارا - من ضرائب تم تحصيلها إلى شركات غنية، تحت قناع تقديم حزمة من الإجراءات لتنشيط الاقتصاد.

.النقطة الأخيرة قال عنها أيضا «جويل جولدشتاين» أستاذ العلوم السياسية بجامعة «سانت لويس»: «إن بوش سيواجه انتقادات بسبب مشروع مجلس النواب بإعادة أموال ضريبية إلى شركات أسهم العديد منها فى حملته الانتخابية، وذلك بصفته سياسيا أكثر من كونه القائد الأعلى للقوات المسلحة».

● بالنسبة لإنتقاد إدارة بوش لفشلها فى إدارة حملة الدعاية فى العالم الإسلامى.. اعتبر «ريتشارد هولبروك» السفير الأمريكى السابق فى الأمم المتحدة أن «بن لادن كسب، بينما خسرت أمريكا»[٧٢] قال: «يبدو أن سفاحا - يقصد أسامة بن لادن - يعمل فى كهف بجنوب أفغانستان يحرز السبق أمام زعيمة العالم فى الاتصالات الولايات المتحدة»..!

● الكاتب الصحفى «تشالز كراوتهامر» كتب فى صحيفة «واشنطن بوست» يوم ٣٠أكتوبر ٢٠٠١ يقول: «الحرب لا تسير بطريقة جيدة، وحان الوقت لإعلان السبب..!».

● الكاتب الأمريكى «روبرت كيجان» قال فى كلمة ألقاها أمام منتدى الأكاديمية الأمريكية للسلام الدولى المعروف باسم «منتدى كارنيجى»: «إن الولايات المتحدة خسرت الجولة الأولى من الحرب ضد طالبان..!» [٧٣].

● صحيفة «واشنطن بوست» قالت فى عددها الصادر يوم ٤ نوفمبر ٢٠٠١: «بعد نحو أربعة أسابيع من الهجمات الجوية المكثفة واستخدام أكثر القذائف والمعدات التكنولوجية تقدما.. فإن بن لادن تمكن من الإفلات من أن يصبح أكبر غنيمة لحكومة الرئيس بوش التى وصفته بأنه الهدف الأول المطلوب حيا أو ميتا من هجومها ضد أفغانستان» ونقلت الصحيفة عن مسئولين بالمخابرات الباكستانية قولهم «إن الكثيرين من الأفغان بمن فيهم المعارضون لطالبان أو أولئك الذين يعتقد أنه يمكن استئجارهم قد رفضوا تسليم بن لادن أو حتى تقديم معلومات عن مكانه وهو ما كان يتوقعه المسئولون الأمريكيون منذ البداية».

● صحيفة «كريستيان ساينس مونيتور» كتبت تقول: «بعد مرور ثلاثة أسابيع على الحملة الأمريكية ضد أفغانستان تزايد الشعور بالاستياء إزاء إدارة فريق الرئيس الأمريكي بوش للحرب ضد الارهاب، بل ظهرت أصوات بارزة تشير إلى أن الولايات المتحدة تخسر الحرب سواء على الجبهة الخارجية أو الجبهة الداخلية».

● «بيل تايلور» الخبير العسكرى الأمريكى فى مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية بواشنطن قال: «إن الولايات المتحدة قصفت حتى الآن كل ما يمكن قصفه فى أفغانستان.. ولكن لم تظهر أى اشارة موضوعية إلى إحرازها أى تقدم باتجاه تحطيم تنظيم القاعدة أو أسامة بن لادن..».[٧٤]

● السيناتور الديمقراطى «جوزيف باين» رئيس لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ الأمريكى.. قال: «إن الضربات الأمريكية المتتالية لأفغانستان جعلت الولايات المتحدة تبدو كما لو كانت «بلطجى هاى.. تك»..! [٧٥].

● انتقادات الكتاب والمثقفين وأعضاء الكونجرس لإدارة الرئيس بوش انضم إليها أيضا العسكريون القدامى الذين قالوا إن الولايات المتحدة اعتمدت أكثر من اللازم على الخطط التقليدية فى الحرب التى تعتمد على الهيمنة الجوية.. بينما فشلت فى وضع الأساس لحرب عصابات غير تقليدية هى وحدها الكفيلة باقتلاع طالبان وبن لادن من أفغانستان.. العقيد المتقاعد هاى روزستاين» قائد العمليات الخاصة فى الجيش الأمريكى سابقا.. قال: «نحن تعرضنا لهجوم غير تقليدى وغير متوازن. ولكن استجابتنا كانت تقليدية. استقيناها مباشرة من الكتب التقليدية».[٧٦].

● الانتقادات تسربت من أصحاب الرأى إلى الجمهور كما توقع المؤرخ «آلان ليكتمان».. فظهر فى استطلاعات الرأى انخفاض نسبة المؤيدين للحملة العسكرية على أفغانستان، وخرجت مظاهرات فى «واشنطن» و«نيويورك» و«لوس أنجلوس» تندد بالحرب وتطالب الرئيس بوش بالتوقف عن قصف أفغانستان وسحب القوات الأمريكية من آسيا الوسطى[٧٧].

المظاهرات نقلتها وسائل الإعلام.. وبدأ يظهر فى الرأى العام الأمريكى والأوربى تيار مناهض للحرب.. وإحساس عام بفشل الإدارة الأمريكية فى تحقيق الهدف منها وهو قتل أسامة بن لادن.. أو القبض عليه..!

لم يكن بوش ومساعدوه على استعداد للاعتراف بهذا الفشل.. كل ما فعلوه هو مطالبة الناس بالصبر.. هكذا قال وزير الخارجية الأمريكى «كولين باول» لمراسل وكالة الأنباء الفرنسية يوم ٣١ أكتوبر ٢٠٠١: «إن مفتاح النصر هو التحلى بالصبر».. وهكذا قال أيضا «بوش» و«تشينى» و«رامسفيلد» و«مايرز» ولكن بعبارات أخرى.

مطالبة الناس بالصبر كان يقابلها انفلات أعصاب الإدارة الأمريكية.. لدرجة أنها أوشكت على ضرب أفغانستان بالقنابل النووية.. هكذا قال بالحرف الواحد «رامسفيلد» للصحفيين يوم ٢٩ أكتوبر ٢٠٠١: «إن الولايات المتحدة لا تستبعد استخدام الأسلحة النووية فى أفغانستان».[٧٨]!

في هذا الوقت.. بدأت مرحلة جديدة من الحرب اتسمت بالشراسة.. واستخدمت فيها القنابل العنقودية المحرمة دوليا.. واعتمدت عمليات القصف على أسلوب «حرق المربعات بالكامل».. أى تقسيم المناطق المراد قصفها إلى مربعات وتدميرها تدميرا كاملا لضمان القضاء تماما على أية قوات لطالبان يحتمل أن توجد بها.

وبسبب الطبيعة الجبلية الوعرة لأراضى أفغانستان، والرغبة في تدمير الكهوف والمخابىء التى يتوقع أن يوجد بها قادة طالبان وتنظيم القاعدة.. فقد استخدم الأمريكيون فى عمليات القصف القاذفات الاستراتيجية الثقيلة بعيدة المدى ذات الثمانية محركات «بى - ٥٢» والتى يطلقون عليها «القلاع الطائرة».. حيث تعتبر كل منها قلعة محصنة، وتستطيع إلقاء جميع حمولتها من القنابل والصواريخ دفعة واحدة فتدمر بالكامل مساحة تعادل مساحة أربعة ملاعب كرة قدم متجاورة.

وفى أسلوب «حرق المربعات بالكامل» الذى اتبعه الأمريكيون فى هذه المرحلة من الحرب.. كانت الطائرات تلقى بمعدل ٥٠ قنبلة ثقيلة على الموقع الواحد فتدكه دكا وتسوى جميع المنشآت فيه بالأرض..!

فضلا عن كثافة الغارات بشكل مذهل.. والتى كانت تصل إلى درجة اشتراك أكثر من مائة طائرة مقاتلة فى قصف مدينة واحدة فى ليلة واحدة.. كما حدث مثلا فى قصف مدينة «قندهار» ليلة الأربعاء ٣١ أكتوبر ٢٠٠١..!

هذا «القصف المركز».. الذى يسميه البعض «القصف الاكتساحى».. ويسميه الأمريكيون «كاربت بومبنج».. أدى بالفعل إلى تدمير معظم مراكز القيادة والسيطرة التابعة لحركة طالبان.. وجعل أغلب الاتصالات بين مستويات القيادة داخل الحركة تتم بصعوبة.. كما أصبحت عمليات الامداد لقوات الحركة على الخطوط الأمامية تواجه معوقات عديدة.. لكن رغم ذلك ظل القادة المحليون لطالبان يحافظون على قدرة الاتصال بالملا محمد عمر.. ويعتمدون على امكاناتهم المحدودة فى المقاومة.. فاستطاعوا بالفعل إفشال جميع محاولات الهجوم البرى التى قام بها الأمريكيون فى ذلك الوقت. حتى بلغ عدد الطائرات التى أسقطوها ٦ طائرات، وعدد جنود الكوماندوز الأمريكيين الذين لقوا مصرعهم خلال هذه العمليات حوالى ٥٠ جنديا.. حتى أن الولايات المتحدة اضطرت إلى تجهيز طائرات مروحية كانت مهمتها سحب جثث هؤلاء الجنود، وطائرات أخرى «إف - ١٨» كانت تقوم بنسف أجزاء الطائرات المحطمة.. بدعوى عدم السماح لطالبان بالحصول على أسرار عسكرية منها.. والحقيقة هى عدم إعطاء الفرصة لطالبان للاحتفال بإسقاط هذه الطائرات وعرض حطامها على شاشات التليفزيون، كما حدث فى أول عملية إنزال برى وأثر كثيرا على معنويات الشعب الأمريكى.

هذه المقاومة جعلت قادة البنتاجون يدركون صعوبة المعركة التى يخوضونها فى أفغانستان.. إلى درجة أن الجنرال «ريتشارد مايرز» وصفها بأنها: «أكبر عملية

عسكرية تخوضها الولايات المتحدة منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية»..[٧٩].

فى معركة بهذا الحجم لم يكن الأمريكيون مستعدين للإصغاء إلى أية انتقادات دولية توجه إليهم.. سواء بسبب كثرة الضحايا من المدنيين.. أو بسبب استخدام الأسلحة الكيماوية والقنابل العنقودية والانشطارية المحرم استخدامها دوليا..!

فقد أعلنت متحدثة باسم الأمم المتحدة أن القنابل العنقودية قتلت ٨٠ مدنيا عندما أصابت قرية غربى أفغانستان، وتناثرت من القنبلة العنقوية مئات القنابل الصغيرة شديدة الانفجار فى حجم قبضة اليد.. بعضها انفجر.. وبعضها بقى على الأرض دون انفجار مثل الألغام المضادة للأفراد..[٨٠].

كما عقد «محمد أواسى» وزير الصحة فى حكومة طالبان، واثنان من كبار الأطباء فى مستشفى وزير أكبر خان الأفغانية مؤتمرا صحفيا يوم ٢٩ أكتوبر ٢٠٠١ قدموا فيه دلائل واضحة على استخدام الولايات المتحدة أسلحة كيماوية وقذائف اليورانيوم الانشطارية فى قصف المدن الأفغانية.. قال «د.موزيرى» إن ثلاثة صبية أصيبوا بجروح سطحية خلال إحدى الغارات.، ولكنهم ما أن وصلوا إلى المستشفى حتى أصيبوا بحالة ضيق شديد فى التنفس ونزيف داخلى أدى إلى موتهم دون وجود سبب ظاهر لتلك الإصابة.. وردا على سؤال حول عدم إرساله عينات للتحليل فى الخارج.. قال وزير الصحة إنه لا يوجد منفذ لإرسال هذه العينات.. فباكستان فى حالة حرب مع أفغانستان!! ومنظمة الصحة العالمية خاضعة لنفوذ الولايات المتحدة!![٨١].

الغريب أن الولايات المتحدة لم تحاول نفى ذلك أو تكذيبه.. بل على العكس اعترفت به، وأكدت على لسان نائب وزير الدفاع الأمريكى «بول ولفوويتز» أنها سوف تستخدم الأسلحة التى تحتاجها للفوز فى معركتها ضد ما تسميه بـ«الإرهاب»..!

«ولفوويتز» قال أيضا لصحيفة «صنداى تليجراف» البريطانية إنه «يشعر بالاستياء لمعارضة منظمات الإغاثة الدولية الطريقة التى تقاتل بها الولايات المتحدة خاصة استخدام القنابل العنقودية». [٨٢].

وقال الجنرال «ريتشارد مايرز»: «إن الولايات المتحدة لن تغير استراتيجيتها العسكرية بسبب الجدل الدائر حول استخدام القنابل العنقودية». أضاف «مايرز» فى تصريحات أدلى بها يوم ٢٦ أكتوبر ٢٠٠١: «إننا نستخدم القنابل العنقودية عندما تكون السلاح الأكثر فعالية لضرب الهدف الذى نريده»[٨٣] وردا على سؤال حول ما يسببه استخدام هذا النوع من القنابل من سقوط أعداد كبيرة من الضحايا المدنيين.. قال: «إن قضية الضحايا المدنيين التى تفجر انتقادات متصاعدة، خاصة فى العالم الإسلامى، لن تجعل الولايات المتحدة تحيد عن أهدافها..» !

* * *

اعتراف الولايات المتحدة باستخدام القنابل العنقودية فى قصف أفغانستان.. وعدم اكتراثها بأعداد الضحايا المدنيين الذين سقطوا بسببها.. أثار عاصفة من الانتقادات الدولية، وبدأ خبراء الامم المتحدة فى التحذير من أن خطر هذه القنابل يستمر لمدد تصل إلى ٥٠ عاما. مما يعنى أن عملية قتل المدنيين فى أفغانستان لن تتوقف مع توقف الحرب..!

«بيتر لوسوير» الخبير فى برنامج الأمم المتحدة لإزالة الألغام فى افغانستان.. قال «إن القنابل العنقودية لها تاريخ سيىء فى قتل المدنيين خلال فترات السلم والحرب على السواء».. وأكد أن القوات الأمريكية كانت تلقى كل يوم على أفغانستان آلاف القنابل العنقودية من طراز «بى. إل.يو ٩٧».. ! [٨٤] وعن خواص هذا الطراز من القنابل، قال إن لها إطاراً ماسياً حديدياً يبلغ سمكه ٦ ملليمترات.. وعندما تنفجر القنبلة يتحول هذا الإطار إلى شظايا من الصلب تطير بسرعة رصاصة انطلقت من بندقية فتقتل الأشخاص بشكل عشوائى.. قال أيضا إن القنابل العنقودية يتم إلقاؤها بمعدل ٢٠٠ قنبلة فى المرة الواحدة فينفجر بعضها فى الهواء وينتشر على مسافة ٣٥٠ مترا.. أما التى لا تنفجر فى الحال فتتسلل إلى داخل الأرض وتصبح عرضة للانفجار عند أى لمسة خفيفة.. مما يجعلها بمثابة شراك أو ألغام للمدنيين!

* * *


الطائرة « بى -٥٢» تلقى دفعة من القنابل

الفصل التاسع عشر

• تأشيرة دخول..

« كـان الوقت ليـلاً عندمـا وصلت إليه.. فوجدته بانتظارى وبصحبته رجلان من قيادات طالبان..»

□ *إذا جاز لنا أن نشبه هذه الحرب بعملية «الطهى».. فإن باكستان كانت «المطبخ» الذى تجرى فيه مراحل إعداد «الطبخة» عسكريا وإعلاميا.. وكانت أفغانستان هى «الفرن» الذى تطهى به..!!*

لذلك.. بعد أن قضيت عدة أسابيع فى «المطبخ الباكستانى» شاهد عيان على كل ما يدور فيه.. بدأت استئنف محاولاتى دخول أفغانستان التى كانت فى ذلك الوقت فرنا مشتعلا ..

كان الدافع هو أن أنقل إلى القارىء كل عناصر الصورة.. وأن أكتب إليه من قلب الأحداث بمعنى الكلمة.. حتى لو كان هذا القلب مشتعلا بالنيران.. والرحلة إليه فوق طريق مزروع بالألغام..!

وقد بدأت الإعداد لهذه الرحلة بتوطيد علاقاتى بالمسئولين فى السفارة الأفغانية فى إسلام آباد من أجل الحصول على تأشيرة دخول أفغانستان.

صادقت الجميع بدءا من الملا «عبدالسلام ضعيف» السفير الأفغانى.. حتى الأخ «عابد» عامل التليفون الذى كان يمثل أهمية كبيرة بالنسبة لجميع الصحفيين فى ذلك الوقت.. فهو الذى - بمزاجه - يقوم بتحويل مكالماتنا إلى المسئولين بالسفارة.. و-بمزاجه ايضا - يطلب من الحراس السماح لنا بالدخول.. وهو الذى يخبرنا بمواعيد المؤتمرات الصحفية، وما إذا كان السفير موجوداً فى مكتبه أو غير موجود.. كان هو الكل فى الكل.. شخص هادئ.. مبتسم دائما.. يرتدى جلباباً أبيض وعمامة بيضاء، ووسيلة التقرب إليه هى أن تجعله إماما لك فى الصلاة.

وذات يوم فوجئت بموظف فى القسم السياسى بالسفارة - كنت أعرفه منذ فترة - اسمه «عبدالرحيم محمد أسلم» يطلب منى طلبا لم أتوقعه.. قال لى إنه يريد منى أن أكتب بخط يدى رأيى فى الحرب التى شنتها الولايات المتحدة على أفغانستان فى حدود صفحة أو صفحتين، لكى يضمه إلى استمارة البيانات الخاصة بى التى سبق أن تقدمت بها للحصول على التأشيرة.. لأن ذلك سيسهل لى الحصول عليها.. فأخرجت من حقيبتى ورقتين وكتبت بهما يلى:

بسم الله الرحمن الرحيم..

الحمد لله رب العالمين.. خالق الخلق.. مالك الملك.. مدبر الأمر.. قادر على كل شىء.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد عبده ورسوله.. قال الله تعالى فى كتابه الكريم.. بسم الله الرحمن الرحيم: «الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا».. صدق الله العظيم.. نعم.. لقد جمع أعداء الإسلام لإخواننا المسلمين فى أفغانستان.. وشنوا عليهم بالصواريخ والطائرات عدوانا ظالما .. دون ذنب اقترفوه أو دليل ضدهم. ولعل ذلك يفرض على جميع الدول الإسلامية الوقوف معهم ضد هذا العدوان وعدم الاكتفاء ببيانات الشجب والإدانة، لأن هذه البيانات لن تسقط الطائرات المعتدية، ولن تنقذ ضحايا القصف.. ولن تسعف المصابين..!

إن سياسة مواجهة الاعتداءات الظالمة بإصدار بيانات الشجب هى سياسة عرجاء يجب الإقلاع عنها.. والقتال صفا واحدا عندما يفرض القتال على المسلمين من أعداء الإسلام.. قال الله تعالى فى كتابه الكريم: «كتب عليكم القتال وهو كره لكم» صدق الله العظيم.

إن المظلة التى تقوم تحتها الولايات المتحدة بقصف الشعب الأفغانى.. وهى «الحرب على الإرهاب» - هى مظلة كاذبة.. بالضبط مثل مظلة «الشرعية الدولية» الزائفة التى قامت تحتها بتدمير العراق.. بينما الولايات المتحدة هى التى تقوم بتعطيل تطبيق قرارات الشرعية الدولية فى فلسطين وفى كشمير وفى غيرهما من بلاد المسلمين..

إننى لا أستطيع أن أطالب دولة إسلامية بعينها التحرك بمفردها لصد العدوان الأمريكى عن الشعب الأفغانى.. لأن هناك اعتبارات سياسية كثيرة تفرضها ظروف الوضع الدولى السائد الآن تمنع ذلك.. بل وقد تجعله نوعا من التهلكة.. ولكن التحرك العملى الذى أقترحه هو أن تقوم منظمة المؤتمر الإسلامى بتشكيل جيش إسلامى يضم فرقا عسكرية من جميع الدول الإسلامية، يكون بمثابة الذراع العسكرى للمنظمة التى تحمى الشعوب والدول الإسلامية. عندما تتعرض للعدوان.

إن الدول الغربية لها حلف عسكرى هو «حلف الأطلنطى».. فلماذا لا يكون للدول الإسلامية أيضا حلف عسكرى يسمى مثلا «الحلف الإسلامى».. لاسيما بعد أن أعلن الرئيس الأمريكى صراحة أن الحرب التى بدأتها بلاده الآن هى حرب صليبية - إن على المسلمين أن يتحركوا ويعدوا ما استطاعوا لعدوهم قبل أن تدور عليهم الدائرة دولة وراء دولة.. اليوم أفغانستان.. وغدا العراق .. ثم إيران.. وهكذا.. حتى يصبح المسلمون مستضعفين فى الأرض».

* * *

اعطيت ماكتبته لعبد الرحيم اسلم ، ثم أمضيت بعد ذلك عدة ايام فى «إسلام آباد» وأنا أحاول الحصول على تأشيرة دخول أفغانستان.

كان يحاول مثلى عشرات الصحفيين أيضا.. غير أن السفارة الأفغانية لم تعط التأشيرة لأحد رغم أنها وعدت الجميع بذلك.. فمرت علينا أيام طويلة ونحن ننتظر من المسئولين بها الوفاء بما وعدونا به.. لكن الأمر لم يكن بيدهم.. كان بيد المسئولين فى حكومة طالبان، وربما بيد الملا محمد عمر شخصيا.. لأنه كانت هناك مخاوف لدى طالبان من أن يكون بين الصحفيين الراغبين فى دخول أفغانستان عملاء للمخابرات الأمريكية..!

لذلك بدأ بعضنا يفقد الأمل، والبعض الآخر راح يبحث عن وسيلة أخرى تساعده على دخول أفغانستان - فحزمت حقائبى فى الخامس من نوفمبر وتوجهت إلى بيشاور.. حيث يوجد هناك صديقى الملا نجيب الله قنصل أفغانستان، الذى كنت على اتصال دائم به ..

كان الوقت ليلا عندما وصلت إليه.. فوجدته بانتظارى فى فناء القنصلية وبصحبته رجلان. كان يبدو من مظهرهما أنهما من قيادات طالبان.. استقبلنى الملا نجيب الله بحرارة وترحاب وعانقنى ثم قدمنى لضيوفه فبادلونى التحية والعناق على الطريقة الأفغانية.. وعندما شرعت فى التحدث إليه عن رغبتى فى دخول أفغانستان، وحاجتى لمساعدته فى القيام بالرحلة التى وعدنى بها قبل بدء الحرب.. كان الرجل يقاطعنى دائما بدعوتى لتناول العشاء معهم، ويقسم أنه وضيوفه لن يمدوا أيديهم إلى طعام مالم أكن جالسا معهم ومشاركهم فيه.

عيش أفغانى وأرز وخضار ولحوم وشاى وكرم ضيافة.. جمعنى فوق سجادة كبيرة على الأرض بثلاثة رجال طيبين.. لم يكن يفصل بينى وبينهم سوى اللغة البشتونية التى كانوا يتبادلون الحديث بها على العشاء.. رغم حرص الملا نجيب الله على إشراكى فى الحديث معهم بترجمة جانب منه إلى العربية.

هون علىّ الرجال الثلاثة الأمر.. وقال الملا نجيب الله أنه فى الصباح سوف يستأذن وزير خارجية طالبان وكيل أحمد متوكل لمنحى تأشيرة دخول أفغانستان.

فى الصباح.. تم كل شىء.

وطبعت «التأشيرة» بصفحة ٢٥ فى جواز سفرى.

قال لى المسئول بقسم التأشيرات فى القنصلية وهو يسلمنى جواز السفر: «اكتب فى سيرتك الذاتية أنك زرت أفغانستان.. التى هزمت من قبل بريطانيا العظمى والاتحاد السوفييتى.. وتخوض الآن حربا ضد الولايات المتحدة».. قلت له: إننى ذاهب إلى هناك لأكتب عن هذه الحرب».

* * *

قبل أن أغادر القنصلية توجهت إلى الملا نجيب الله فى مكتبه.. لكى أشكره وأودعه.. قال لى: «لقد رتبت لك هناك كل شىء.. ستجد دائما شخصا بجانبك يعرفك ويساعدك».

– قلت له: أريد أن ألتقى بالملا محمد عمر كما حدثتك من قبل.. سأنقل صوتكم إلى مصر والعالم العربى.. بل والعالم كله..

– قال: قلت لك لقد رتبنا كل شىء.. هناك سيستقبلك إن شاء الله أحد الزعماء الكبار فى طالبان.. لا تسأل عنه.. فهو الذى سيطلبك ويرسل لك أحد الأشخاص لاصطحابك إليه.. وبعد ذلك سوف يستأذن ويخبرك.. فلا تتحدث فى هذا الأمر لأحد ولا تفصح عنه لغيرك من الصحفيين حتى لا تفسد ما رتبناه لك..».

شكرت الرجل بحرارة.. ثم مددت يدى أصافحه، فسار معى خطوات حتى باب مكتبه وهو ممسك بيدى.. عانقته وقلت له: نلتقى على خير إن شاء الله.

– فرد قائلا: ألقاك فى الجنة إن شاء الله..!!

ثم أدار ظهره ودخل مكتبه.. وتركنى أفكر وأسأل نفسى.. لماذا قال لى ذلك؟!

عند باب القنصلية.. التقيت ببعض الصحفيين الذين كانوا فى طريقهم أيضا إلى أفغانستان.. معظمهم وجوه أعرفها والتقيت بها من قبل فى المؤتمرات الصحفية.. أو فى المظاهرات.. أو نزلنا معا بأحد الفنادق.

* * *

كانت الساعة تقترب من الرابعة عصرا يوم الثلاثاء ٦ نوفمبر ٢٠٠١ عندما أنهيت كافة الإجراءات الأمنية اللازمة لعبور الحدود.. وكان الملا نجيب الله قد جهز لى سيارة خاصة من القنصلية للسفر بها إلى مدينة «جلال آباد».. أول محطة فى رحلتى داخل أفغانستان.. وأقرب المدن الأفغانية إلى الحدود مع باكستان على الطريق من بيشاور إلى كابول.

لكن «خيال محمد».. وهو شاب أفغانى فى الثلاثينات من عمره التقيت به فى القنصلية، رآنى وأنا أستعد لركوب السيارة.. فجاء يهمس فى أذنى قائلا: «أنا أشفق عليك من السفر أثناء الليل.. إن الرحلة بالسيارة من «بيشاور» إلى «جلال آباد» تستغرق حوالى ٦ ساعات.. والطائرات الأمريكية تغير على أفغانستان دائما فى مطلع الليل.. وستكون سيارتكم هدفا سهلا لها، لأنكم ستضطرون أثناء الليل إلى إضاءة أنوار السيارة.. لاسيما أن الطريق وعرة جدا.. انتظر للصباح الباكر.. فهذا أفضل لك».

ووجدت شابا أفغانيا آخر يعمل فى القنصلية اسمه «محمد عيسى» ينضم إلينا ويؤكد على صحة ما قاله «خيال».. ويضيف: «إن السيارات التى تسير على الطرق فى أفغانستان أصبحت الآن هدفا مهما تبحث عنه المقاتلات الأمريكية وتقصفه بالصواريخ.. على أمل أن يكون بين ركابها أحد زعماء طالبان.. أو الشيخ أسامة بن لادن

ينتقل من مكان إلى آخر.. فتكون الولايات المتحدة بنسف هذه السيارة قد انتصرت في الحرب..»!

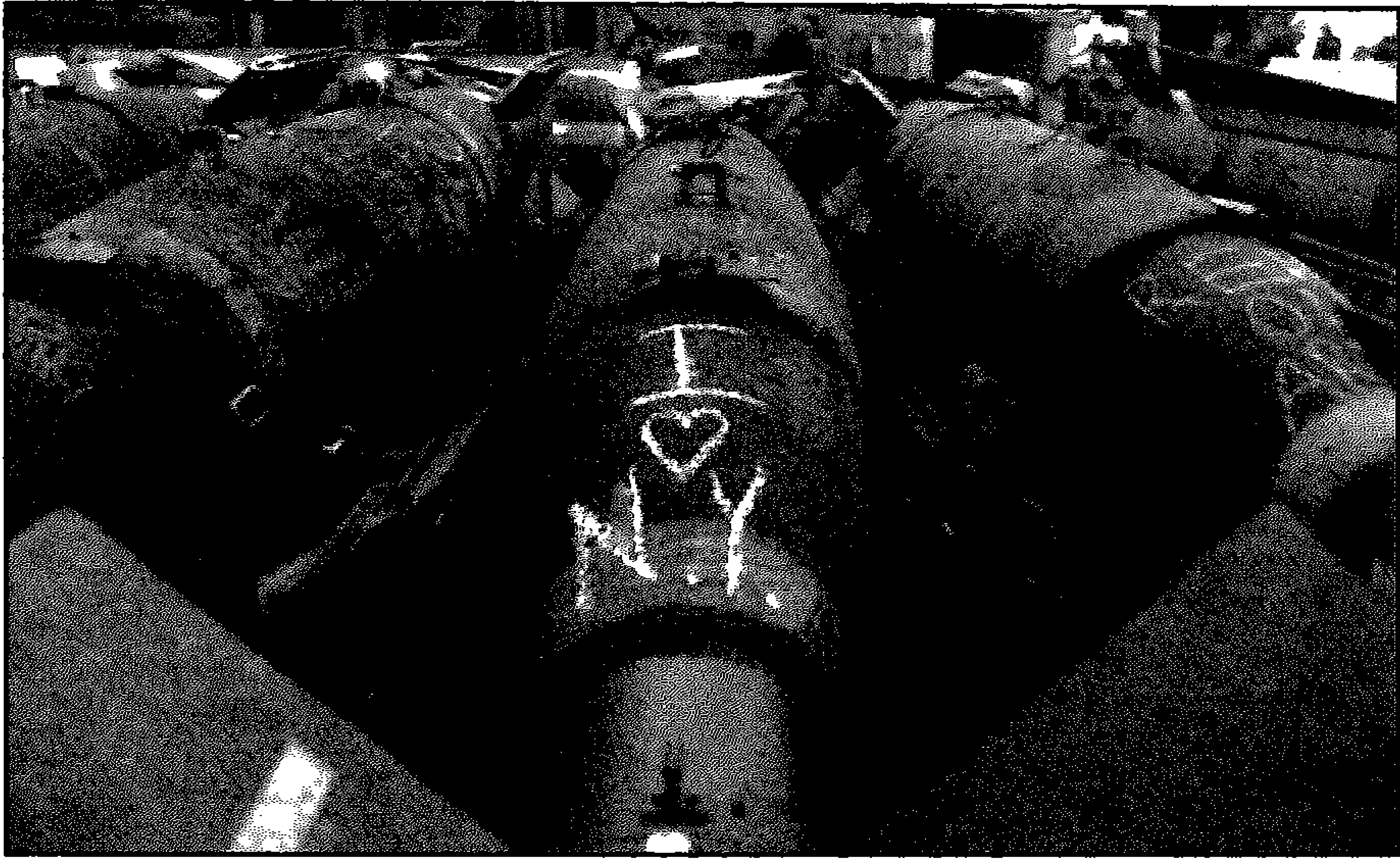
ترددت قليلا بعد أن سمعت هذا الكلام لأنني كنت قد أعددت نفسي لدخول أفغانستان أثناء الليل.. حتى أبدأ من الصباح الباكر في زيارة المواقع وإجراء اللقاءات.. وأجد متسعا من الوقت أكتب فيه رسالتي إلى جريدة «الجمهورية».

هكذا كنت أحسب الأمر.

فشكرت «خيال محمد» و«محمد عيسى» على نصيحتهما لي.. وقلت لهما وأنا أحاول إقناعهما برأيي: «إن الرحلة كلها خطرة.. ولن يزيد خطورتها السفر أثناء الليل..!».

قال لي «خيال»: «لقد حذرتك.. سيارتك ستكون هدفا سهلا لصواريخ «كروز» الأمريكية.. لأنكم ستضطرون إلى إضاءة أنوار السيارة..»!

هكذا تغيرت خطتي وتم تأجيل موعد السفر إلى صباح اليوم التالي.



صواريخ كروز الامريكية جاهزة للقصف ، وعليها الحروف الاولى من اسماء الجنود الامريكيين وصديقاتهم

الفصل العشرون

• أرض النار والدم..

«إذا مت هنـاك.. لن يبكــى
عليـــك أحـــد..!»

□ *كانت الرحلة إلى أفغانستان محاطة بكل أنواع المخاطر..!*

فالأرض من تحتك مزروعة بملايين الألغام التى خلفتها حروب أكثر من ٢٠ عاماً متواصلة.. مابين الجهاد ضد السوفييت، والصراع بين الفصائل الأفغانية المتناحرة..!

والسماء من فوقك تمطر الأرض بالقنابل العنقودية وصواريخ كروز..!

وأنت تزور بلداً كتب تاريخه بالنار والدم.. واختار شعبه أن يقدم من أبنائه أكثر من مليون شهيد، ونحو مليون ونصف المليون معاق.. حتى لايحنى رأسه لغاصب أو مستعمر...

وأنت تذهب إليه الآن.. وهو يخوض أشرس معاركه فى مواجهة تحالف بزعامة أقوى دولة فى العالم.. الولايات المتحدة الأمريكية.. وفى وقت تشعر فيه القوات الأمريكية والقوات المتحالفة معها أنها عاجزة عن تحقيق نصر حاسم على طالبان وتنظيم القاعدة.. فبدأت تقصف البلد والناس بشراسة لم يسبق لها مثيل، وبكل أنواع الأسلحة المحرمة دولياً أو غير المحرمة..!

وأنت ذاهب إلى إناس لايعرفون فى الحوار أو المواقف.. نقطة منتصف الطريق.. فالناس عندهم صنفان لاثالث لهما.. إما صديق يحتفون به.. أو عدو يطلقون عليه الرصاص..!

* * *

بدأت هذه الرحلة الخطرة صباح السابع من نوفمبر ٢٠٠١ فى سيارة «فولكس فاجن – فان» مع ثلاثة من مراسلى التليفزيون، كنت قد التقيت بهم قبل ذلك فى السفارة الأفغانية بإسلام آباد وتعارفنا وصرنا أصدقاء.. ثم التقيت بهم صدفة فى بيشاور ليلة السفر.. سهرنا معاً وأكلنا وحكى كل منا تجربته فى الحصول على التأشيرة.. وفى الصباح انطلقت بنا سيارة واحدة..

اثنان منهم يراسلان محطة تليفزيون «ايه. إن. إن» هما «منذر سليمان النمرى» من تونس، و«عثمان آيه فرح» من إريتريا.. أما الثالث فيراسل محطة تليفزيون» «بى.بي.سى» البريطانية واسمه «راجا عمر».. شاب صومالى فى العقد الثالث من

عمره.. نشأ وتربي ودرس فى بريطانيا ولايعرف من اللغة العربية سوى كلمة «السلام عليكم..»!

فى الطريق تحدثنا عن كل شىء.. قصص ومواقف كثيرة واجهناها أثناء عملنا فى «إسلام آباد». وحكايات لاتنتهى عن المظاهرات ورجال الأمن وخطباء المساجد.. وقال كل منا توقعاته عن المكان الذى يوجد فيه أسامة بن لادن..

كانت آخر نقطة سمح لسيارتنا بالذهاب إليها هى «ترخم» - لا أعرف كيف أصفها.. مدينة أم قرية أم ماذا ؟ ولكنها منطقة سكنية على الحدود الباكستانية الأفغانية.. توجد بها بوابة العبور ومكاتب الأجهزة الأمنية التى تقوم بفحص أوراق المسافرين..

فحص المسئول فى قوات حرس الحدود الباكستانية أوراقنا بدقة .. ونقل فى دفتره اسم كل منا وتاريخ ميلاده وجنسيته ورقم جواز سفره.. ودقق أكثر من مرة فى تأشيرة دخول أفغانستان وخطاب وزارة الداخلية الباكستانية بالتصريح لنا بعبور الحدود..

بعد ذلك أعطى إشارة صغيرة للجنود الواقفين على بوابة عبور الحدود ففتحوها لنا.. بوابة ضخمة يقف على جانبيها جنود من البلدين.. الجنود الباكستانيون يرتدون الملابس العسكرية، والجنود الأفغان يرتدون الجلاليب والعمائم.. وعلى أطراف قضبان الحديد التى صنعت منها البوابة توجد أكوام من شرائط التسجيل وأفلام التصوير التى سبق أن ضبطت مع بعض الأشخاص، فتم إتلافها وعلقت فى هذا المكان لتذكرة المسافرين الى أفغانستان بأن طالبان لاتسمح بهذه الأشياء.. كان ذلك طبعاً قبل الحرب..

* * *



راجا عمر



المؤلف بين منذر النمرى «يمين الصورة»
وعثمان أيه فرح «يسار الصورة»

فتحت البوابة..

ووطأت قدماى أرض أفغانستان..

حاولت الإمساك بتلك «اللحظة» التى انتظرتها طويلاً.. فنظرت فى كل أرجاء المكان أحاول حفر صورة له فى ذاكرتى.. ونظرت بإمتداد البصر إلى داخل ذلك البلد الذى أنا ذاهب إليه فى مهمة صحفية تتساوى فيها إحتمالات الموت والنجاة.. تذكرت ماقاله لى صديقى محمود الانصارى مراسل وكالة انباء الامارات فى باكستان :

« إذا مت هناك لن يبكى عليك أحد .. فأنت فى نظر الأفغان لست أفضل من أى واحد ممن يموتون منهم هناك كل يوم.. وأنت فى نظر الأمريكيين تستحق الموت.. لأنك ذاهب إلى هناك لتصور بكاميرتك وقلمك الفظائع التى يرتكبونها ضد شعب برئ أعزل..!»

والحقيقة أننى لم أكن أخاف الموت..! كنت أخاف «الإصابة الخطيرة» التى تحرم الإنسان طعم الشهادة.. وفى نفس الوقت تحرمه القدرة على مواصلة الحياة بصورة طبيعية وآداء مسئولياته فيها..

كان أخشى ما أخشاه أن أفقد ذراعى اليمنى فى هذه الرحلة.. فأفقد بذلك القدرة على الكتابة..

* * *

فتحت البوابة.. واستقبلنا شاب صغير فى العشرينات من عمره يعمل فى مكتب حرس الحدود الأفغانى.. قدم لنا نفسه: «الملا نور الله فاروقى»..

كان برفقته مجموعة من زملائه.. الكل ملتح والكلا شينكوف على الأكتاف.. ثم قادونا إلى حجرة صغيرة مفروشة بالحصير.. طلبوا منا خلع الأحذية والجلوس على الحصير حتى ينتهوا من فحص جوازات السفر..


مصطفى

بعد ذلك نقلتنا سيارة أتوبيس تابعة لطالبان إلى مدينة «جلال آباد» .. كان معنا فى السيارة عدد آخر من مراسلى محطات التليفزيون.. معظمهم صحفيون أتراك يراسلون محطة تليفزيون «سى.إن.إن» الأمريكية.. حيث لم ترسل هذه المحطة أحداً من الصحفيين الأمريكيين خشية أن يقع فى أسر طالبان.. وأرسلت صحفيين مسلمين للقيام بهذه المهمة.. وكانت تدفع لكل منهم ألف دولار فى اليوم الواحد كبدل سفر..

كان برفقتنا أيضا فى السيارة مجموعة من جنود طالبان يقومون بحراستنا وتسهيل مرورنا عبر البوابات الأمنية المنتشرة فى الطريق من «ترخم» الي مدينة «جلال آباد».. كان يقودهم شاب .. إسمه مصطفى .. فقد ساقه فى احدى المعارك ضد السوفييت ، وكان قوى الشخصية .. سريع الحركة رغم اعاقته .. بإشارة منه كانت تفتح لنا البوابات الامنية المنتشرة على الطرق ..

جلس بجانبي أحد هؤلاء الجنود وأخذ يحدثنى عن نفسه.. اسمه «شاه محمود».. عمره ٣٣ عاماً.. نشأ فى مخيم «شامشاتو» للاجئين الأفغان المقام بالقرب من مدينة «بيشاور».. وتلقى تعليمه فى «معهد عبدالله بن الزبير» داخل المخيم على أيدى أساتذة من مصر.. كان يتذكر منهم «أبويحيى» و«صلاح الدين»..

وبينما كان يتحدث .. والسيارة تقترب بنا من مدينة «جلال آباد».. وجدته يقطع حديثه ويشير إلى هضبة عالية بعيدة، ويقول بتأثر شديد : هنا.. فوق هذه الهضبة استشهد أبى عام ١٩٨٦ وهو يقاتل الروس».. تأثرت معه ، ولاحظت أنه ظل لبضع دقائق لايحول نظره عن الهضبة.. فأخذت أسأله عن اسم المنطقة وكيف دارت المعركة لعلى أخرجه من حالة الحزن التى بدت عليه.. قال: «المنطقة اسمها «سمر خيل»، وأبى كان يقود مجموعة من المجاهدين لتحريرها من الروس.. لكن الروس كانوا أكثر عتاداً.. فدارت هنا معركة شرسة استمرت عدة شهور واستشهد فيها أبى متأثراً بجراحه.. لم يجرؤ الروس على الاقتراب منه وإنما أصابوه من مكان بعيد فسقط وسلاحه بجانبه.. كان عمرى ١٨ عاماً في ذلك الوقت.. فدفنت أبى وحملت سلاحه وبدأت الجهاد».. ثم أشار إلى بندقيته بفخر وقال: «هذا هو ميراثى من أبى..!»

* * *

طوال الطريق.. كنا نرى على جانبيه آثار المعارك التى دارت فى أفغانستان.. دبابات محترقة.. سيارات محطمة.. مجنزرات تعطلت وغاصت فى الرمال.. بقايا من ذخائر انفجرت.. أجزاء من أجسام صواريخ.. كلها أطلال تحكى تاريخ بلد لم يعرف طعم الاستقرار منذ حوالى ربع قرن ..

دخلت بنا السيارة «جلال آباد».. مدينة فقيرة حزينة.. آثار القصف فى كل شارع.. رغم ذلك فالمحال مفتوحة والناس يبيعون ويشترون.. تأملت وجوه المارة فى الشوارع.. وجدت عليها سكينة وإيماناً شديدين كأنها تنطق بالآية القرآنية الكريمة: «قل لن يصيبنا إلا ماكتب الله لنا».. صدق الله العظيم..

مضت بنا السيارة داخل المدينة إلى مبنى حكومى مكون من طابقين متهالكين.. وجدناه مغلقاً ولايوجد به أحد.. انتظرنا فى حديقة المبنى قرابة الساعة حتى حضر إلينا رجلان يرتديان الجلاليب والعمائم ورحبا بنا ترحيباً حاراً.. عناق وأحضان.. بإعتبارنا ضيوفاً ..

قدما نفسيهما: سردار محمد – مدير الروابط الخارجية فى جلال آباد.. والملا «تاجالى» من مكتب البروتوكول التابع لإدارة المدينة..

كانت شمس ذلك اليوم قد بدأت تجنح للمغيب.. وبعد مناقشات طويلة استقر الرأى بيننا على الذهاب الى أحد معسكرات اللاجئين الفارين من المدن والقرى الواقعة حولها حيث تزداد كثافة القصف الأمريكي..

المعسكر اسمه: «كامب حصر شاهى» .. اتخذ اسمه من اسم المنطقة التى أقيم

فيها، وهى منطقة «حصر شاهى» التى تقع على مسافة كيلو مترات قليلة شرق «جلال آباد».. حوالي ربع ساعة بالسيارة..

ما أن وصلنا.. وبدأنا فى التقاط الصور للمعسكر.. حتى تجمع الناس حولنا بسرعة.. لايقل عن ألف شخص برزوا خلال دقيقتين أو ثلاثة فقط.. ربما لأن بعضهم ظن أننا جئنا إليهم بأغطية ودقيق وغذاء.. رجال وأطفال وفتيات ملابسهم رثة.. جوعى وفقراء.. فروا بأجسادهم الهزيلة من الموت الى هذه البقعة من الصحراء..

عندما رأوا الكاميرات تصورهم أخذوا يهتفون «الموت لأمريكا وبريطانيا».. أعدادهم بدأت تزداد بسرعة.. الهتاف تحول إلى مظاهرة.. بحر من البشر أخذت أصواتهم ترج المكان..

كنا نبحث وسطهم عن مسئول يتحدث إلينا.. بعد وقت قصير ظهر «محمد يونس شريفى» .. قدم لنا نفسه بصفته: «مسئول أمور اللاجئين في المنطقة الشرقية».. تحدث الرجل عن أحوال هؤلاء الناس.. قال ان هذا المعسكر يعيش فيه حوالى ٢٠٠٠ أسرة من أكثر من ٥٠ ألف أسرة أفغانية نزحت من مدنها وقراها واتجهت شرقاً نحو باكستان للجوء إليها هرباً من القصف الأمريكى.. لكن السلطات الباكستانية لم تسمح لهم بعبور الحدود، فافترشوا الأرض ، والتحفوا السماء.. ثم قامت هيئات الإغاثة الدولية بإقامة عدة معسكرات لهم شرق أفغانستان..

كان الحديث عن نقص الأغذية والأدوية أمراً متوقعاً.. لكن أكثر ما آلمنى هو أن هؤلاء الناس كانوا عطشى..!! لأن الماء غير متوفر فى المكان، والوسيلة الوحيدة لنقله الى المعسكر كانت سيارة نقل وتم نسفها فى إحدى الغارات!

كان المؤلم أيضا.. واللافت للنظر.. أن نسبة كبيرة من هؤلاء الناس معوقون.. فقدوا أطرافهم.. إما نتيجة القصف أو بسبب انفجار الألغام التى تمتلىء بها أراضى أفغانستان..!

هؤلاء العطشى. المعوقون.. بدأوا يتحدثون إلينا :

– مولانا شير محمد.. رب أسرة تعيش فى المعسكر.. قال: هذه المنطقة هى أكثر المناطق أمناً الآن فى أفغانستان.. لكن المشكلة أنه لاتتوفر بها احتياجات الحياة.. لاطعام ولاماء ولاكساء.. والشتاء قادم.. والحياة هنا ستزداد صعوبة..!.. سألته: ألا توجد هنا فرص للعمل وكسب الرزق.. قال: هذه المنطقة صحراء جرداء ليس فيها نهر ولا حقل.. والناس كلهم جالسون فى الخيام.. شيوخاً وأطفالاً ونساء .. الكثير منهم مرضى..

– الملا عبد القدوس.. رحيم الله.. محمد عاصف.. عبدالقدير خان.. رحمة الله محمد.. محمد طاهر.. كلهم شباب تتراوح أعمارهم بين ١٥ و٢٠ عاماً.. يعيشون مع أسرهم فى الخيام.. ليس لهم عمل، وجاهزون لحمل السلاح..!

سألت «محمد يونس شريفى» عن حالة الأمن فى المعسكر وما إذا كانت تنشب مشاجرات بين الناس بسبب الظروف الصعبة التى يعيشونها.. قال: الناس هنا متعاونون جداً.. لأنهم فى البلاء سواء..!



أحد مخيمات اللاجئين

* * *

قضينا فى «جلال آباد» ليلة واحدة..

فندق قديم أقيم علي الطراز السوفييتي.. اسمه: «سبين غر».. ومعناها: الجبل الأبيض..

لاتليفزيون.. ولا راديو.. ولاصحف.. ولا أى شيء!

أنت هنا منقطع عن أخبار العالم كله ..

حاولت استخدام التليفون المحمول للاتصال بالجريدة، وإملاء رسالتى.. فشلت كل المحاولات..!

لاحظت أن زميلى «راجا عمر» يستخدم « تليفون فضائى» فى الاتصال بمحطة تليفزيون «بى.بى.سى» البريطانية فطلبت استعارته .. وافق خجلاً.. لأنه كان عليه ألا يشغل التليفون بعد الانتهاء من إرسال تقاريره انتظاراً لأى اتصال من المحطة فى أى وقت للسؤال عما يجرى حولنا..

طلبت رقم جريدة «الجمهورية» فى القاهرة.. وبدأت فى إملاء رسالتى.. لكن كما خجل «راجا» أن يرفض إعطائى التليفون.. خجلت أنا أيضاً من الإطالة فى المكالمة خاصة أن الإتصال كان ينقطع كل دقيقتين مما اضطرنا للخروج إلى الخلاء حتي تسهل عملية الاتصال .. بعد ثلاث محاولات اتصال استغرقوا نحو خمس دقائق فقط.. أعطيته التليفون وشكرته، ثم عدت الى الفندق ابحث عن مسئول به..

كانت سطور قليلة فقط تلك التى استطعت إملاءها للجريدة ومازالت معى بقية الرسالة لم تُملِ..

الفندق ليس به تليفون..

الساعة تجاوزت التاسعة مساء.. الدنيا شتاء.. والجو ممطر.. والشوارع مظلمة.. والمدينة ساكنة سكوناً مخيفاً..

ومعى «رسالة» لن يغمض لى جفن حتى انتهى من إملائها للجريدة..

كنت أقف فى صالة الإستقبال بالفندق أحاول شرح مشكلتى لرجلين من الأفغان مسئولين به.. أقول أحاول لأنهما كانا يتحدثان اللغة البشتونية وأنا أتحدث العربية والإنجليزية.

بعد حوالى ربع ساعة.. فهم أحد الرجلين مشكلتى وشرحها لزميله.. ثم انخرطا معاً فى حديث طويل بالبشتونية انتهى بأن اصطحبني أحدهما إلى الخارج..

ركبنا معاً سيارة أتوبيس ضخمة كانت تقف أمام الفندق..

كانت السيارة قديمة.. وصوت الموتور عالياً إلى درجة أننا كنا لانسمع بعضنا البعض داخل السيارة.. فكان مرافقى كلما أراد أن يطلب من السائق الاتجاه إلى أحد الشوارع ينهض من مكانه ويلكز السائق فى كتفه ثم يقول له مايريد..

كانت الدنيا ظلاماً.. والسائق يسير فى الشوارع على هدى ضوء الفوانيس الصغيرة بالسيارة خشية أن يضيء الفوانيس الكبيرة فنتعرض للقصف من الطائرات الأمريكية.

وكنت أحسد الرجلين.. فعلى رأس كل منهما عمامة كبيرة بينما رأسي عارية والبرد قارس..

حاولت أن أرفع زجاج النافذة بجانبى.. وجدته لايرتفع ولاينخفض.. فكمشت مكانى فى وجه تيارات الهواء الباردة التى كانت تدخل السيارة من كل اتجاه..

وصلنا إلى بيت يوجد فى طابقه الأرضى مكتب اتصالات.. فهمت أنه «سنترال المدينة»

كرسى ومكتب وكنبتان خشب..

على الكرسى يجلس مدير السنترال وأمامه آلة التليفون فوق المكتب.. والزبائن يجلسون فوق الكنبتين.

المدير يطلب الرقم ثم يعطى سماعة التليفون للزبون.. فيجرى المكالمة .. الكل يسمع تفاصيلها..

أعطيت رقم جريدة «الجمهورية» للمدير .. ثم جلست على إحدى الكنبتين انتظر دوري.

على الكنبة الثانية رأيت شاباً ملامحه مصرية مائة فى المائة.. فكرت أن أصافحه وأتعرف عليه .. لكنه لم يعطنى الفرصة.. ظل يتجاهل النظر لى طوال الوقت منذ سمع مرافقى يقدمنى لمدير السنترال باننى صحفى من مصر.

جاء دور الشاب للتحدث فى التليفون.. كانت لهجته مصرية خالصة.. أخذ يطمئن محدثته على نفسه ويطلب منها عمل بعض الأشياء.. فهمت أنها زوجته.. قررت التعرف عليه لعله يصطحبنى معه لمقابلة عرب آخرين فى المدينة ، فيكون ذلك هو موضوع رسالتى القادمة إلى الجريدة.

انتظرت حتى أنهى مكالمته، ثم نهضت من مكانى، وتوجهت إليه وسألته: حضرتك من مصر؟.. أجاب بسرعة: لا..

قالها بطريقة حاسمة وقاطعة ثم أدار ظهره وغادر المكان..!

كان صوت المطر يأتى إلينا من النافذة.. وأنا جالس على الكنبة قلقاً أحسب الدقائق والثوانى خشية التأخر فى إملاء الرسالة فتفوتها فرصة النشر بالطبعة الأولى.

بعد حوالى نصف ساعة جاءت القاهرة.. الصوت بعيد جداً.. كان أول شىء فعلته هو إملاء رقم التليفون الذى اتحدث منه فى «جلال آباد» الى الأخ «عطية يوسف» رئيس قسم التليفونات بالجريدة، وطلبت منه الاتصال بى فوراً إذا انقطع الاتصال.

وقد حدث ذلك عدة مرات حتي فرغت من إملاء رسالتي.

قدم لى مدير السنترال الفاتورة.. المبلغ المطلوب ٤٤٤ ألف أفغانى ثمن مكالمتين للقاهرة مجموعهما ٤ دقائق.. فدفعت له نصف مليون وشكرته.

كنا نستبدل الدولار الأمريكى فى ذلك الوقت بـ٣٦ ألف أفغانى..!

تکت سند محصول تیلیفون ریاست مخابرات ننگرهار	
نمبر مسلسل	
نمبر تیلیفون	[illegible]
اسم متکلم	
نمبر تیلیفون	978529
مرجع مخابره	
تاریخ مخابره	22-8-74
مدت دقیقه	2
امضاء کارمند تیلیفون	222000

٤٤٤ ألف أفغانى ثمن الاتصال بالقاهرة ٤ دقائق

تکت سند محصول تیلیفون ریاست مخابرات ننگرهار	
نمبر مسلسل	
نمبر تیلیفون	[illegible]
اسم متکلم	
نمبر تیلیفون	978122
مرجع مخابره	
تاریخ مخابره	22-8-74
مدت دقیقه	2
امضاء کارمند تیلیفون	222000

جلست علي مائدة العشاء بالفندق مع بقية زملائى.

مائدة واحدة كبيرة وضعت فى صالة الطعام، وعليها أطباق لحوم وأرز وخضار.. وخبز أفغانى «تأكل أصابعك وراه» كما يقول المثل المصرى.. والحلو «مهلبية»..!!

كان ذلك من مفارقات القدر.. أن يتوفر لنا مثل هذا الطعام الفاخر فى «جلال آباد».. الذى قد يزيد فى حلاوة الطعم عن مثيله فى «نيويورك»..!

أكلنا وشبعنا.. وجاء الطباخ الأفغانى بحلة «المهلبية» يغرف لكل منا دور ثان فى طبقه بعد أن صحنا إعجاباً بها بكلمة «الله».

لم يكن ينافس حلاوة الطعام فى هذه الليلة سوي الكرم الحاتمى الذى كان يعاملنا به أصحاب الفندق.. فلم يتعاملوا معنا أبداً كزبائن.. وإنما كضيوف.. كانوا يقدمون لنا الطعام والمشروبات بلا حساب ولا فواتير.. وفى النهاية جمعوا الحساب كله وقسموه على عددنا وأضافوا ناتج القسمة إلى فاتورة الإقامة..!

كان الأفغان معنا فى هذه الليلة كرماء وطيبين جداً.

ولا أدرى لماذا أنا بالذات دعونى للسهر معهم بينما كان زملائى من المراسلين يتوجهون إلى غرفهم للنوم.

جلست معهم فى صالة الفندق ننظر الى بعضنا البعض، ونحن نتبادل الابتسامات.. فلم تكن هناك لغة مشتركة يمكن أن نتحدث بها.. كنا نتعامل بالإشارة، وأحيانا بالرسم علي الورق.

كنت كلما تحدثت اليهم ينصتون باهتمام وسعادة بالغين رغم أنهم لا يفهمون معظم ما أقوله..! لكن الطيبة والكرم والشهامة والقلوب البيضاء المنفتحة.. كانت لغة غير منطوقة تربط بيننا..!!

طلبت لنا إبريقا من الشاى نشربه معاً.. فسألونى عن نوع الشاى الذى أريد أن أشربه.. أخضر أم أحمر؟.. لم أفهم السؤال.. فأعادوه عليّ باللغات الثلاثة المنتشرة فى أفغانستان.. وهى «البشتونية» و«الفارسية» و«الأوردية» وهى لغات لا أعرف منها إلا كلمات قليلة فقط، فظل الحوار بيننا متعثراً حتى جاء «حسبان الله»، وهو صديق أعرفه من بيشاور.. يعمل مراسلاً لوكالة الأنباء الإسلامية ويجيد التحدث باللغة العربية إلى جانب اللغات الثلاثة السابقة.

تولى «حسبان الله» الترجمة وجلس معنا لتناول الشاى.. فبدأت أسأل كل منهم عن نوع البندقية التي يحملها.. وكيف تدرب علي استعمالها.. فأخذ كل منهم يحكى قصته.

كان عدد البنادق فى هذه السهرة.. أكثر من عدد أكواب الشاى..!

* * *

الفصل الحادى والعشرون

• كابول ..

٨ نوفمبر ٢٠٠١

« مدينة حزينة ..مهدمة .. شبه خالية من السكان»

□ *غادرنا «جلال آباد» صباح اليوم التالى إلى «كابول» ..*
ست ساعات استغرقتها الرحلة فوق طريق وعر ملئ بالمطبات والحفر.. وآثار أسفلت قديم لا تكاد تستقر عليه عجلات السيارة حتى تسقط بعد ذلك بين صخور ورمال تظل ترفع السيارة وتخفضها..

هذا الطريق كان يوما ما جزءا من طريق الحرير الذى كانت تمر منه التجارة بين الشرق والغرب.. ثم أصبح طريقا للمجنزرات والمصفحات أثناء فترة الحروب التى شهدتها أفغانستان، فدمرته تماما كما دمرت البلاد وشرّدت العباد..!

طوله ١٥٦ كيلو مترا.. لكن المسافات فى أفغانستان لم تعد تقاس بالكيلو مترات، وإنما تقاس بعدد الساعات التى تستغرقها رحلة السيارة.. ذلك لأن معظم الطرق فقدت معالمها وتحولت إلى ما يشبه الممرات الجبلية..!

طوال الطريق، كانت تقابلنا سيارات ركوب صغيرة تحمل الفارين من المناطق التى تقصفها الطائرات الأمريكية إلى منطقة الحدود مع باكستان.. التى كانت أكثر المناطق أمنا فى أفغانستان فى ذلك الوقت..

كنت أنظر من نافذة الأتوبيس إلى السيارات الصغيرة، وأنا أشفق على من فيها.. لأنها أكثر تأثرا بوعورة الطريق.. كانت تبدو كأنها تقطع المسافات قفزا على الطريق لعمق الحفر وكثرة الأحجار..!

ثم عرفت أن هذه السيارات الصغيرة أكثر أمنا للمسافرين بها من سيارة الأتوبيس التى أركبها.. لأن الطائرات الأمريكية تفضل دائما قصف السيارات الكبيرة.. حيث بها عدد أكثر من الركاب.. يساوى من وجهة النظر الأمريكية ثمن الصاروخ الذى ستقصف به..!

غير أن هذا الخطر أصبح فيما بعد يحيط بكل أنواع السيارات.. الكبيرة والصغيرة.. لاسيما بعد أن مضت عدة أسابيع على الحرب لم تستطع فيها الولايات المتحدة الإمساك بأحد من قادة طالبان، فقررت نسف كل ما يمكن نسفه من السيارات التى تحمل المسافرين على الطرق.. على أمل أن يكون بين هؤلاء أسامة بن لادن أو الملا محمد عمر.. وخصصت للقيام بهذه المهمة طائرات من طراز «إيه سى - ١٣٠» التى يطلق عليها «التنين

السحرى» وهى مزودة بمدافع «هاوتزر» ورشاشات تصل سرعة إطلاق الرصاص منها إلى ٦٦٠٠ رصاصة فى الدقيقة، وكشافات ضوئية للبحث عن الأهداف فى الظلام، وكاشف أهداف بالليزر وكاميرات فيديو ورادارات.. وقد اختير هذا الطراز من المقاتلات بالذات لمهمة نسف السيارات على الطرق لأنها قادرة على الطيران ببطء لمتابعة أهدافها وإصابتها بصورة بالغة الدقة.

وكانت مجلة «نيويوركر» الأمريكية قد نشرت فى عددها الذى صدر فى الأسبوع الثانى من الحرب أن طائرة استطلاع أمريكية بدون طيار من طراز «بريويتور» المزودة بصواريخ هجومية قد رصدت يوم ٧ أكتوبر ـ أول أيام الحرب ـ قافلة من السيارات تغادر العاصمة «كابول» وهى تحمل الملا محمد عمر زعيم حركة طالبان.. فتم الاتصال بالقيادة المركزية الأمريكية فى فلوريدا لأخذ إذن بمهاجمتها لكن القيادة رفضت ذلك ـ كما تقول المجلة ـ بسبب اعتراض محامين عسكريين يعملون بها..!! وبقية القصة أن دونالد رامسفيلد وزير الدفاع حين سمع بذلك هاج وماج، وألقى على الأرض بكل ما أمامه من أكواب وزجاجات وخرج غاضبا من المكان الذى كان به..!

بعد ذلك أصبح قصف السيارات على الطرق.. أحد الأهداف المهمة للحملة العسكرية على أفغانستان.. فمات المئات من ركابها الأبرياء ولم يكن بينهم أبدا.. لا أسامة بن لادن.. ولا الملا محمد عمر..!

* * *

دخلنا كابول يوم ٨ نوفمبر ٢٠٠١..

مدينة حزينة.. مهدمة.. شبه خالية من السكان..

كانت عقارب الساعة قد تجاوزت بقليل الثالثة بعد الظهر .. وكانت الحرب قد مضى على بدايتها ٣١ يوما.. قصفت خلالها المدينة بآلاف الأطنان من القنابل والصواريخ..

آثار القصف كانت فى كل شارع..!

بيوت مدمرة.. أصابتها القنابل الذكية بدقة بالغة فهدمت الجدران وبعثرت الأثاث وقتلت السكان..

أطفال ونساء وشيوخ.. لم يسمعوا فى حياتهم أبدا عن مبنى اسمه «مركز التجارة العالمى»..ولا يعرفوا ما هو «البنتاجون».. ماتوا تحت الأنقاض..!!

حاولت التقاط عدة صور بالكاميرا من نافذة الأتوبيس للبيوت والمنشآت المدمرة.. وحزنت لأن حجم الدمار الذى تراه عينى كان أكبر من أن تنقله أية آلة تصوير فى العالم مهما كانت متطورة.. كنت أشعر بعجز الكاميرا فى يدى عن نقل الصورة كما أراها فى الواقع..!

التقطت عشرات الصور.. وطلبت من سائق الأتوبيس التوقف فى أحد الشوارع

عندما رأيت شكل البيوت المدمرة يجعلها تبدو كما لو كانت فريسة نهشتها الكلاب، وتركت ما تبقى منها على جانب الطريق..!!

نزلت من الأتوبيس والتقطت عددا من الصور لهذه البيوت.. وسألت نفسى:

- ما الفرق بين قصف المدن وخطف الطائرات..؟

كلاهما جريمة واحدة.. لأن الضحايا فى كلتا الحالتين من المدنيين الأبرياء.. الذين هم







هكـــــذا فعلـــت القنابـــل الذكـــــية فى كابــول

فى الأغلب لاعلاقة لهم بالسياسة، وليسوا طرفا فى الصراعات الدولية.. لكنهم - فجأة - يدفعون حياتهم ثمنا لهذه الصراعات..!

وبالتالى.. لا فرق إذن بين الطيار الذى يحمّل طائرته بأطنان من القنابل والصواريخ، ثم يقلع بها نحو مدينة سكنية يقصفها، فيدمر بيوتها ويقتل من فيها.. وبين الآخر الذى يختطف طائرة مدنية ويفجرها..

فإذا قلنا إن الثانى إرهابى.. فالأول إرهابى أيضا..

وإذا قلنا أن الجهة التى كلفت الثانى القيام بهذا العمل هى «تنظيم إرهابى».. فالحكومة التى تطلب من طياريها قصف المدن السكنية هى «حكومة إرهابية» أيضا..!

إن كل طيار يشارك فى قصف المدن.. إنما يشارك فى عمل إرهابى..

وكل قائد عسكرى يخطط لقصف المدن.. لا يختلف أبدا عن قائد أى تنظيم يخطط لعمل إرهابى..!

* * *

قصدنا بعد ذلك مبنى وزارة الخارجية فى كابول.. وقام أحد المسئولين بقسم المراسم والاستقبال باصطحابنا إلى فندق «إنتركونتيننتال».. ونزلت بغرفة رقم ١١٢..

فندق كبير ضخم بنى على ربوة عالية فى كابول فأصبحت غرفه كلها تشرف على المدينة.. يتكون من خمسة طوابق متكررة فى كل طابق ٤٤ غرفة بالإضافة إلى طابق الاستقبال.

اخترت الإقامة فى إحدى غرف الطابق الأول لاعتقادى أنه سيكون الأقل تدميرا فى حالة ما إذا قصف الفندق.. لأن القصف يأتى غالبا من أعلى.. وسيكون أمام الصواريخ والقنابل أربعة أسقف خرسانية قبل أن تصل إلى الطابق الأول.. ثم اكتشفت فيما بعد أنها نظرية خاطئة عندما زرت إحدى المنشآت التى تم قصفها، فوجدت أن الذين كانوا فى الطوابق السفلى دفنوا جميعا تحت الأنقاض..!


الملا عبدالحنان

فى المساء.. جاء إلى الفندق «الملا عبدالحنان همت»رئيس وكالة «باختر» الأفغانية للأنباء.. شاب صغير ولد عام ١٩٧١ وتلقى تعليمه بمدارس «بيشاور».. عقد لنا مؤتمرا صحفيا تحدث فيه عن نتائج عمليات القصف التى تمت طوال اليوم.. عدد من قتلوا.. وعدد من جرحوا.. ومواقع القصف .. ثم نظر فى ساعته واصطحب مرافقيه إلى حديقة الفندق.. فخلع عباءته وألقاها على الأرض وصلى بهم جماعة..

بسرعة توضأت ولحقت بهم..

بعد الصلاة جلسنا ندعو على أمريكا.

كان يدعو باللغة البشتونية.. وأنا أسمع كلمة «أمريكا» فى نهاية كل جملة من الدعاء فأقول: اللهم آمين..

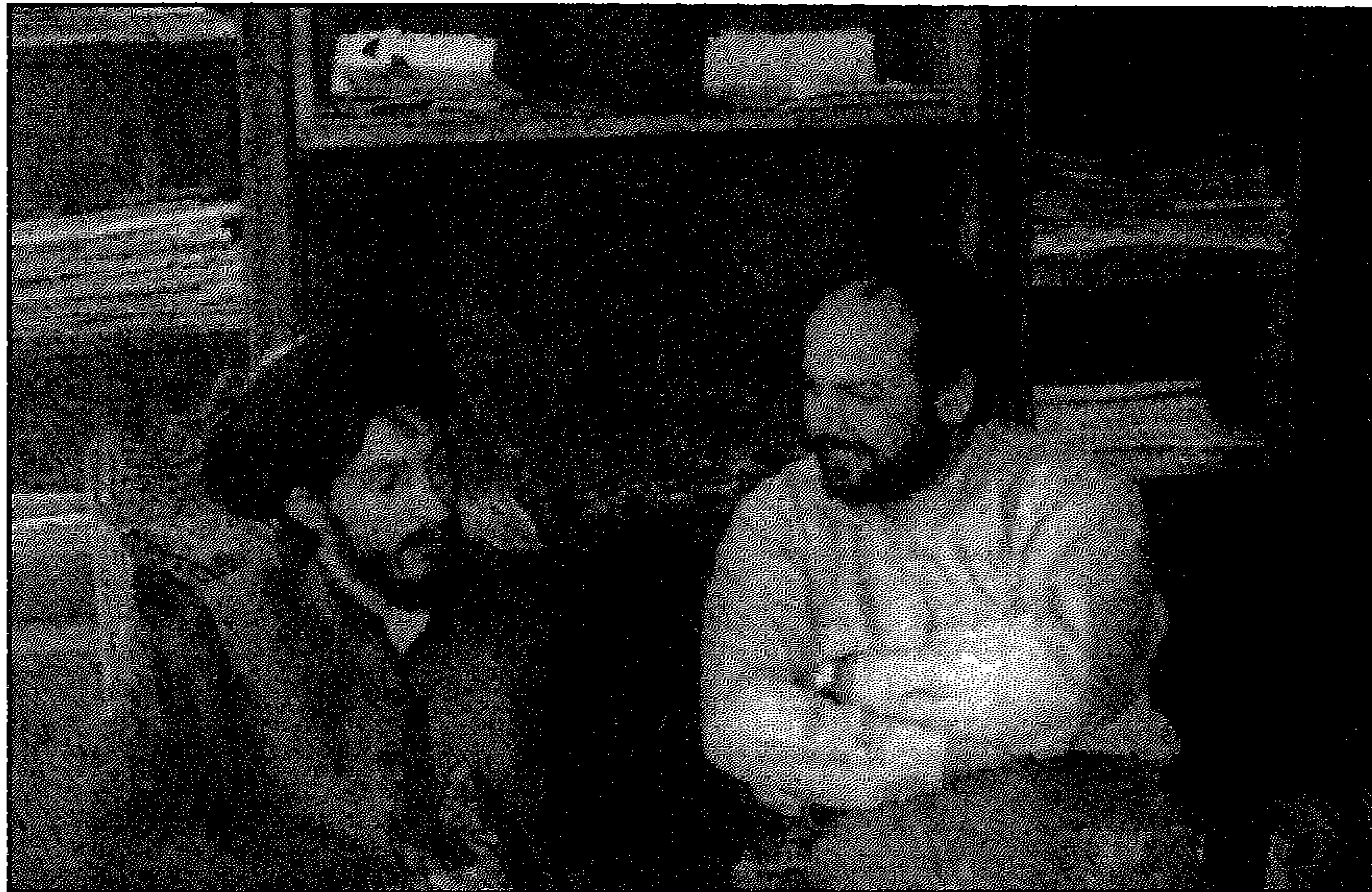
فلما انتهى من الدعاء قلت بصوت عال: «اللهم كسر أمريكا» .. وهو دعاء كثيرا ما كنت أسمعه من خطباء المساجد فى «بيشاور» و«إسلام آباد»، ولفت نظرى أن كلماته هى نفس الكلمات العربية.. فقال الحاضرون: اللهم آمين..وتصافحنا وقدمت نفسى إلى الملا عبدالحنان، فقدم لى بطاقته..

كنت أريد توثيق علاقتى بهذا الشاب. لعله يستطيع مساعدتى فى الوصول إلى قيادات طالبان البارزين.. صناع القرار فى الحركة..

وقد لاحظت منذ أول لقاء به أنه شديد الثقة بالنفس.. يحرص دائما على إبقاء مسافة بينه وبين الناس.. فهو قليل الكلام.. لا يبتسم.. يحيط نفسه بمجموعة من الأتباع كأنه زعيم قبيلة.. ورغم أن سنه كانت صغيرة على هذا «الدور» .. إلا أنه فرض علينا أن نتعامل معه على هذا الأساس..!

وقد أجريت معه بعد ذلك حوارا خاصا فى مكتبه .. قال فيه إن أفغانستان ضحية لمؤامرة دولية كبيرة تقودها الولايات المتحدة، وتهدف إلى القضاء على نظام الحكم الإسلامى بها حتى لا يتكرر فى أى بلد آخر بالعالم.. لكن مهما فعلت أمريكا فإنها لن تؤثر فى عزيمة الأفغان.. ولا فى تمسكهم بالإسلام كعقيدة ونظام حكم..

سألته عن الملا محمد عمر.. قال لى إنه بخير وصحة جيدة، ويقود البلد كلها بنفسه وله اتصالات بكل المسئولين والدوائر الحكومية فى أفغانستان..



اثناء الحوار مع عبد الحنان

- قلت له: متى تتوقع بدء الحرب البرية..؟

- قال: الأمريكيون لن يجرؤوا على القيام بهجوم برى آخر بعد أن أسقطنا مروحياتهم وقتلنا من فيها..

- قلت له: وقوات طالبان.. ألم يقتل منها أحد؟

- قال: معظم ضحايانا من المدنيين.. لأن المواقع التى قصفها الأمريكيون ظنا منهم أنها معسكرات لقواتنا.. كانت بالفعل معسكرات لقواتنا قبل بدء الحرب ثم تركناها.

* * *

يوم الجمعة ٩ نوفمبر ٢٠٠١ زرنا ثلاثة مواقع..

● كان الموقع الأول عبارة عن منزل يقع وسط مدينة كابول.. تم قصفه بصاروخ الساعة ١١,٥ ليلا مساء الأربعاء ٧ نوفمبر، فسقط الصاروخ فى غرفة نوم عروسين لقيا حتفهما فورا.. العريس اسمه: «سيد إقبال».. والعروس اسمها «زرلشت»..

وقفنا نلتقط صورا لغرفة النوم.. الأثاث مبعثر.. ورائحة الموت تملأ المكان.. عبدالواسع قريب العروس كان يحكى لنا ما حدث.. بقع الدماء على الجدران وقطع الأثاث.. ملابس العروسين البيضاء اختلطت بالتراب الذى تفجر من حفرة عميقة صنعها الصاروخ بأرض الغرفة..

كانت نساء البيت تبكين.. وعبدالواسع يعدد لنا مآثر العريس القتيل.. كان شابا



غرفة نوم العروسين بعد القصف

فى العشرينات من عمره.. يحفظ القرآن.. بارا بأسرته.. يرحمهما الله..

● الموقع الثانى.. كان أحد مستشفيات «كابول».. اسمه «مستشفى كارته سه للجراحة»..

هناك تشاهد وتسمع مآسى مروعة.. وتقابل جرحى الحرب الأمريكية على أفغانستان.. بشر أبرياء شوهت الإصابة أجسادهم.. أغلبهم أطفال ونساء.. وليس بينهم جندى واحد من طالبان أو تنظيم القاعدة..!

المستشفى ضخم.. به أقسام وطرقات وقاعات.. لكن ليس به إمكانات تذكر.

كل ما رأيناه أربطة شاش.. وأسرة قديمة ينام عليها المصابون.. وزجاجات محاليل معلقة فى مشابك حديدية صدئة تتدلى من حبل مشدود بعرض الغرفة..!

الدكتور «نجيب الله أمر خير» رئيس قسم الحالات الحرجة فى المستشفى.. قال لى: «كان عندنا أدوية وبعض المستلزمات الطبية.. لكن بعد القصف وإغلاق الحدود.. أصبح عندنا نقص فى كل شئ..!»

اصطحبنى معه إلى غرفة العناية المركزة..

لم ألحظ بها جهازا للتكييف..ولا أية تجهيزات طبية مما تتوفر عادة فى أبسط غرفة للعناية المركزة فى أية مستشفى..!

لم يكن بها سوى الأسرة القديمة.. والمرضى.. والمحاليل المعلقة.. والذباب..!

قال لى: معظم حالات الإصابة التى تصل إلى المستشفى خطرة جدا.. إناس تم إخراجهم بين الحياة والموت من تحت أنقاض البيوت، أو حطام السيارات المدمرة على الطرق.. أو سائرون أصابتهم شظايا القنابل..

– على أحد الأسرة كان يرقد طفل صغير اسمه «نيك ولى» .. عمره ٧ سنوات.. حالته الصحية كانت حرجة جدا.. حيث أصابته شظية فى رأسه أثناء ركوبه السيارة مع أسرته فارين إلى الحدود بعيدا عن مناطق القصف.. الحادث وقع عند منطقة تسمى «حاجى كاجك» عندما كانت سيارتهم تسير على مسافة قريبة من سيارتين أخريين على الطريق فهاجمتهم، طائرة أمريكية وصوبت نيرانا كثيفة على السيارات الثلاث.. بلغ عدد القتلى ٤٣.. لا أحد يعرف مصير أسرة الطفل..!

– على سرير آخر .. كان يرقد رجل فى منتصف العمر اسمه: «خان لا لا».. سائق سيارة أجرة كان ينقل مجموعة من المسافرين من مدينة «مزار الشريف» إلى مدينة «كابول» عندما نسفت سيارته بالصواريخ على الطريق بين المدينتين.. معظم الركاب لقوا حتفهم على الفور.. أما هو فقد أصيب فى بطنه ووجهه كانت حالته سيئة جدا.. لا يستطيع التحدث إلى أحد أو التعرف على أحد..

«محمد زمان» رئيس هيئة التمريض بالمستشفى قال لى: «إن أسرة هذا السائق مازالت لا تعرف عن مصيره شيئا».

لكن بينما كنت اتجول بين الأسرة.. إذا برجل يدخل علينا غرفة العناية المركزة،

وأخذ يتفحص وجوه المرضى..حتى بلغ السائق فنظر إلى وجهه ثم ارتمى عليه وهو يجهش فى البكاء.. انه ابن خالته «جول محمد».. كان يبحث عنه منذ عدة أيام ووجده فى هذه اللحظة..!

- فى قسم الأطفال بالمستشفى.. قصص مؤلمة تمزق القلب لأطفال صغار لا ذنب لهم..

● «إحسان الله » عمره ٨ سنوات.. تلميذ بالسنة الثالثة بمدرسة «أبوذر الغفارى» فى كابول.. رأى الطائرة الأمريكية تسقط على الأرض علبة صغيرة تشبه علب «البسكويت».. فجرى نحوها وانحنى على الأرض يأخذها ليأكل ما بها.. بمجرد أن لمسها انفجرت فيه فأصابته إصابات بالغة فى ساقيه وبطنه وذراعه.. قال لى: اكتب رسالة إلى أطفال الولايات المتحدة واطلب منهم أن يسألوا آباءهم: لماذا فعلوا بى هكذا..؟!!

● «نرجس» عمرها عامان.. صراخها لا ينقطع..

نوع الإصابة: شظية فى الرأس أثناء قصف المنزل.. وشظية أخرى فى يدها اليمنى أثناء نقلها إلى المستشفى..!!

● «مطيع الله السخى» عمره ٥ سنوات.. قُطع أصبعان من قدمه اليمنى بسبب شظية أصابته.

● «عصمت الله عزيز الله» عمره ١٢ سنة.. تلميذ فى مدرسة «نوهيه شهيد» بكابول.. نوع الإصابة: جرح كبير بالرأس.. قال لى: إنه عندما شاهد القنبلة تنفجر جرى بسرعة بعيدا عن موقع الانفجار خشية أن تصيبه إحدى شظاياها.. فصدمته سيارة.!

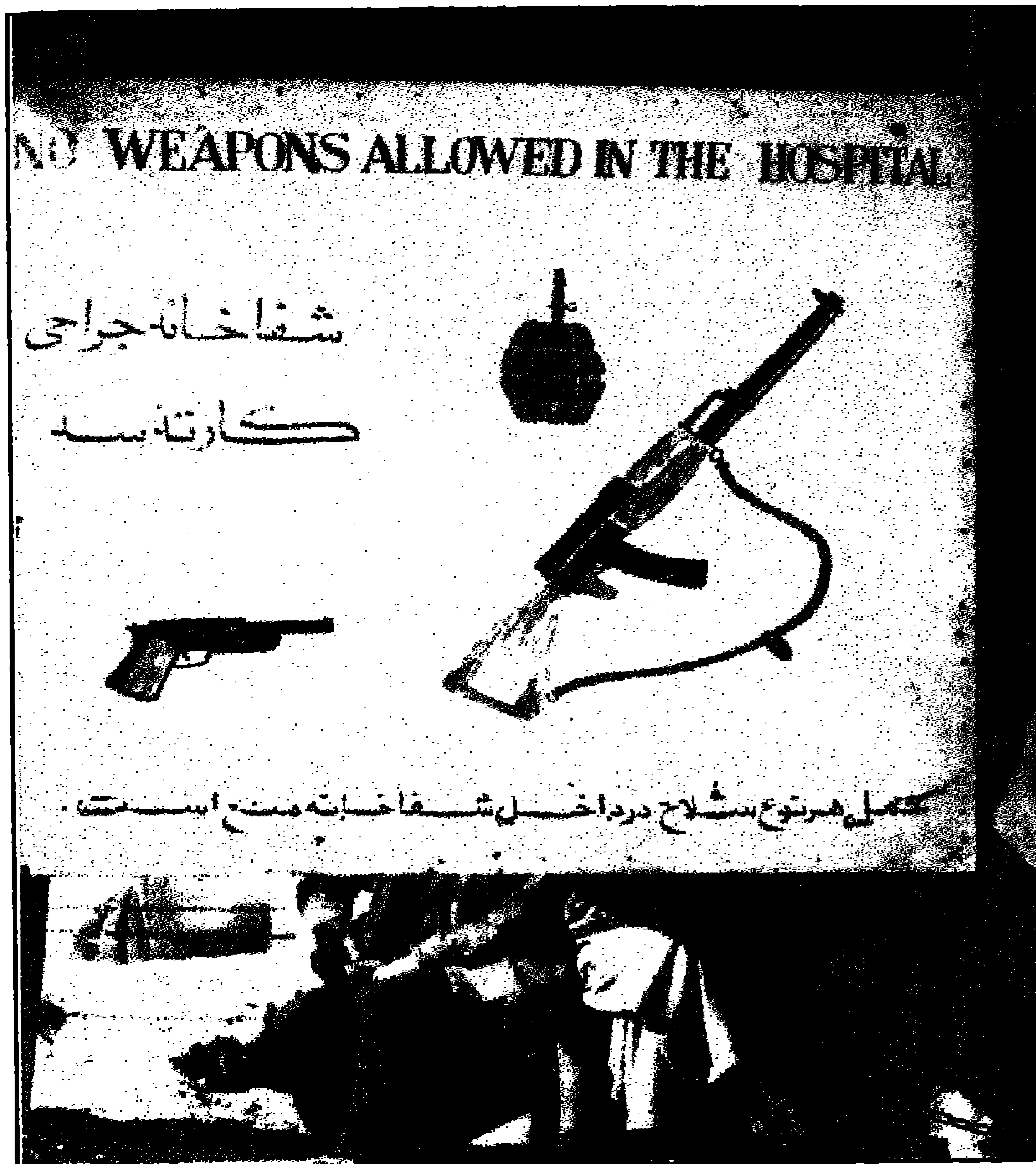
● «هميرة».. عمرها ٩ سنوات.. من قرية اسمها «كارخا» تقع على مسافة ١٥ كيلو مترا من «كابول».. نوع الإصابة: شظية فى الساق.. قالت لى: «كنت ألعب أمام البيت عندما قصفته الطائرة بالقنابل..والحمد لله أننى لم أكن بداخله.»!

- فى قسم النساء كانت نظرات المريضات أبلغ تعبير عما أصابهن.. التقاليد منعتهن من التحدث معى.. وبالطبع لم يكن من اللائق أبدا أن أفتح الكاميرا وألتقط لهن الصور.. امرأة واحدة فقط منهن تحدثت معى.. قالت لى: «الحمد لله إصابتى خفيفة.. شظية صغيرة دخلت كتفى أثناء قصف منطقة «خير خانة»، التى أقطنها مع أسرتى.. بيتنا هناك تحول إلى أنقاض بعد أن قصف أكثر من عشر مرات لأنه قريب من مطار «كابول».. ثم تساءلت: «ما ذنبنا نحن؟.. نحن لا نعرف أسامة بن لادن.. فلماذا تقصفنا أمريكا..؟!

المرضة التى كانت تشرف على قسم النساء اسمها: «زليخة».. قالت لى: «أصبحت أعيش حياتى كلها فى قلق.. إذا ذهبت إلى بيتى أشعر بالقلق على المرضى ..وإذا جئت إلى المستشفى لرعايتهن أشعر بالقلق على أولادى وزوجى، وأخشى دائما أن

أعود إليهم يوما فأجد البيت قد قصف وانهار عليهم..!.. أرجو أن تطلبوا من أمريكا التوقف عن قصف أفغانستان.. لأن الضحايا كما ترى..كلهم نساء وأطفال ومدنيون أبرياء..!»

تأثرت لكلمات الممرضة التى تعيش حياتها فى قلق دائم بسب إحساسها بالمسئولية تجاه مرضاها وتجاه زوجها وأولادها..وتأملت هذه الكتيبة الباسلة من الأطباء والممرضين والعاملين بالمستشفى الذين استمروا فى تأدية عملهم تحت القصف، ولم يفكروا فى ترك المستشفى ومغادرة «كابول» كما فعل معظم سكان المدينة.. رغم أنهم كانوا يؤدون هذا العمل بلا أجر.. ولا بدلات.. ولا حوافز.. ولا ينتظرون ترقيات ولا منح.. لقد تغلب إحساسهم بالمسئولية تجاه مرضاهم على إحساسهم بالخوف من الموت تحت القصف الأمريكى الذى وصل فى شدته إلى درجة تفوق الوصف.. فوهبوا أنفسهم لإسعاف المصابين وتخفيف آلامهم..ولو برباط شاش..!!

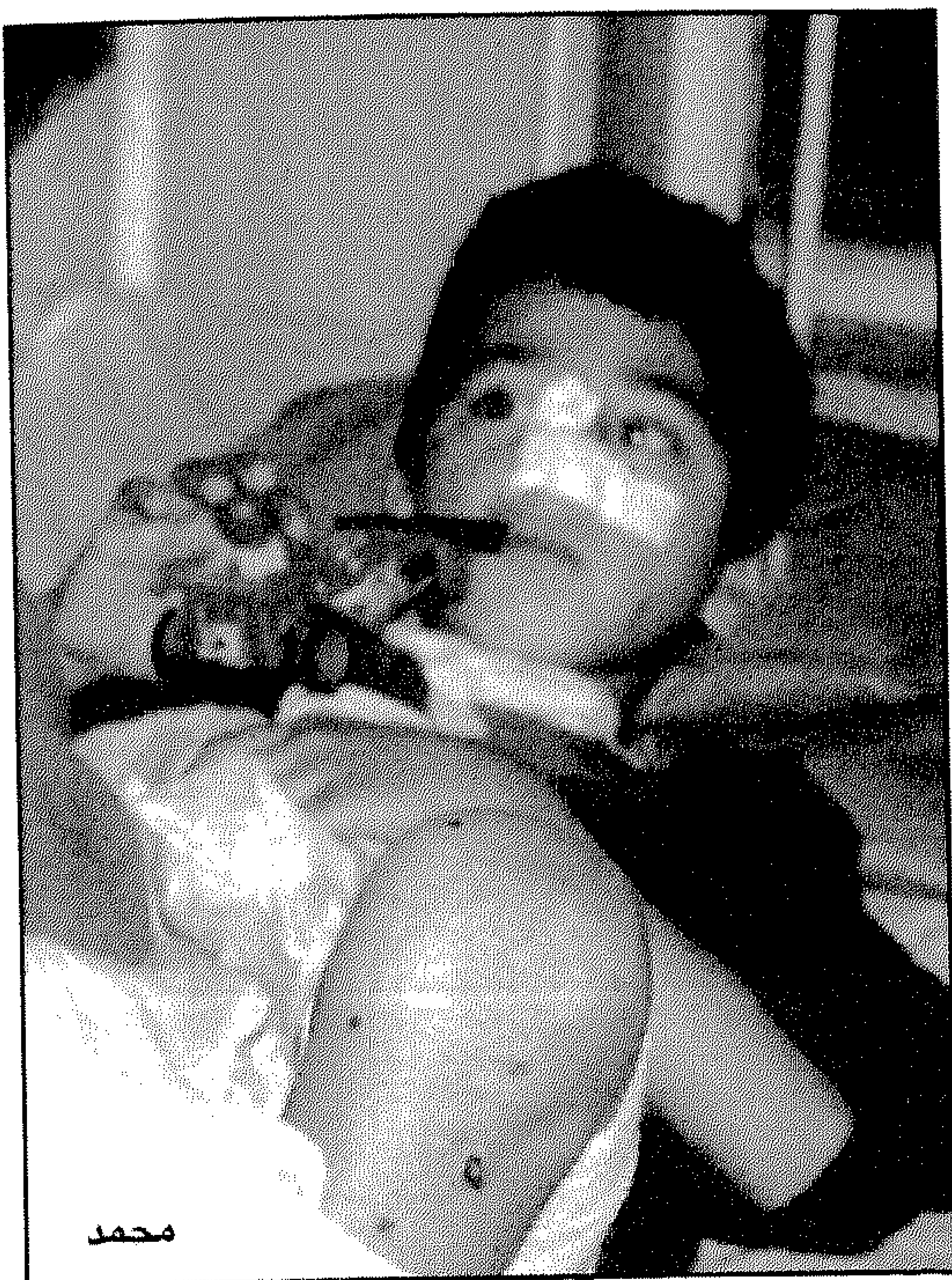


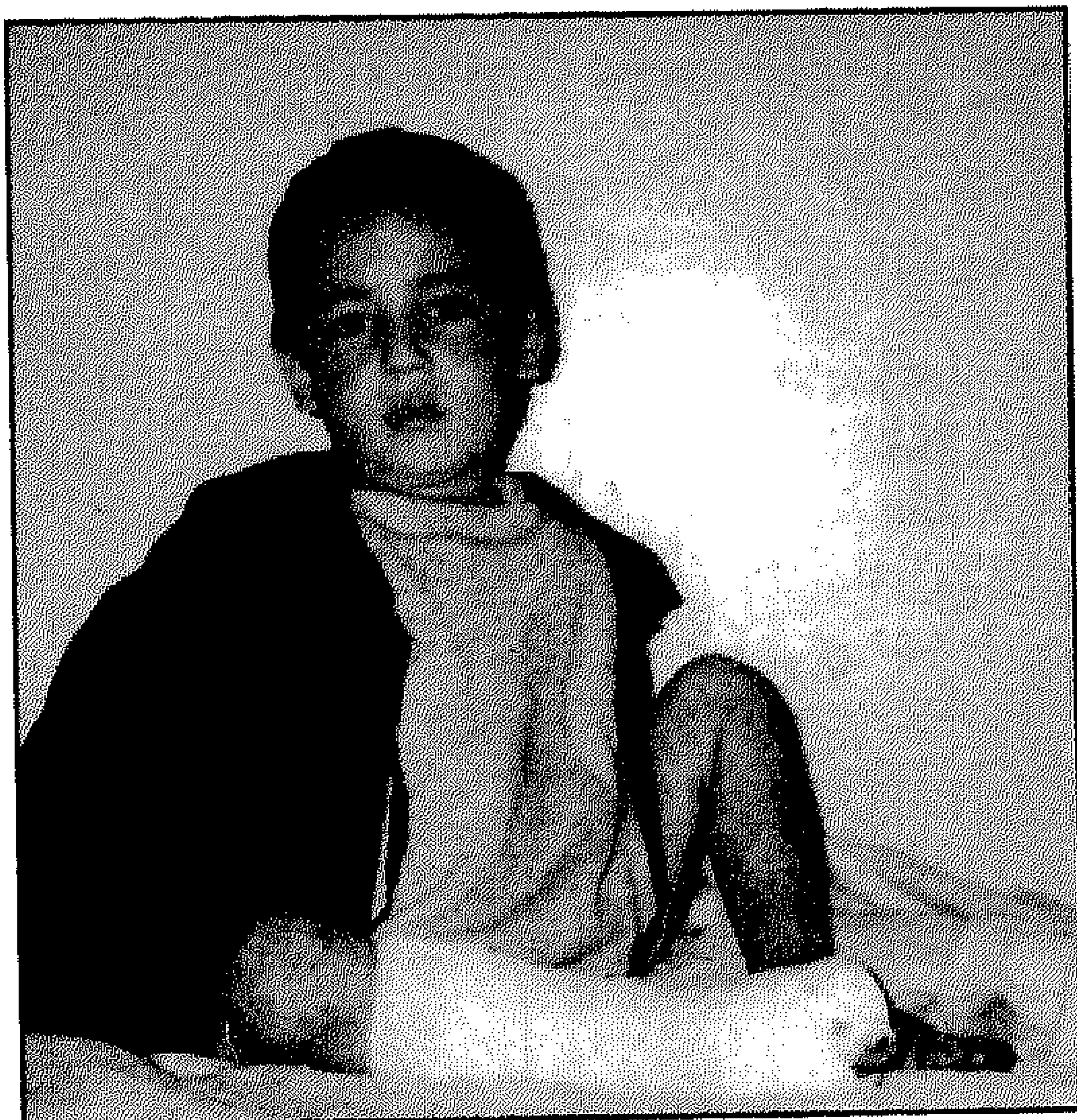
لافتة عند مدخل المستشفى تقول غير مسموح الدخول بهذه الأسلحة

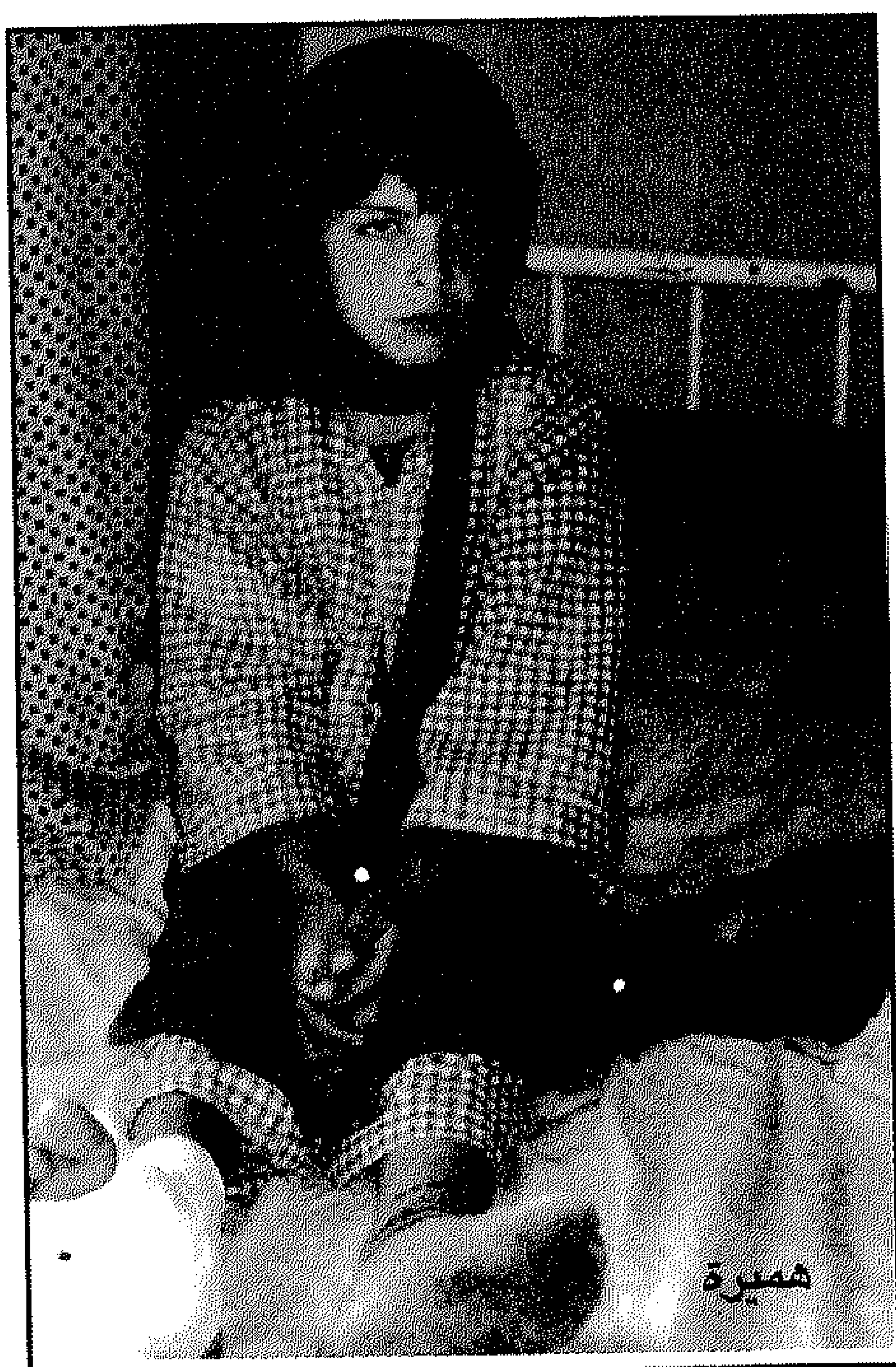

نیک ولی

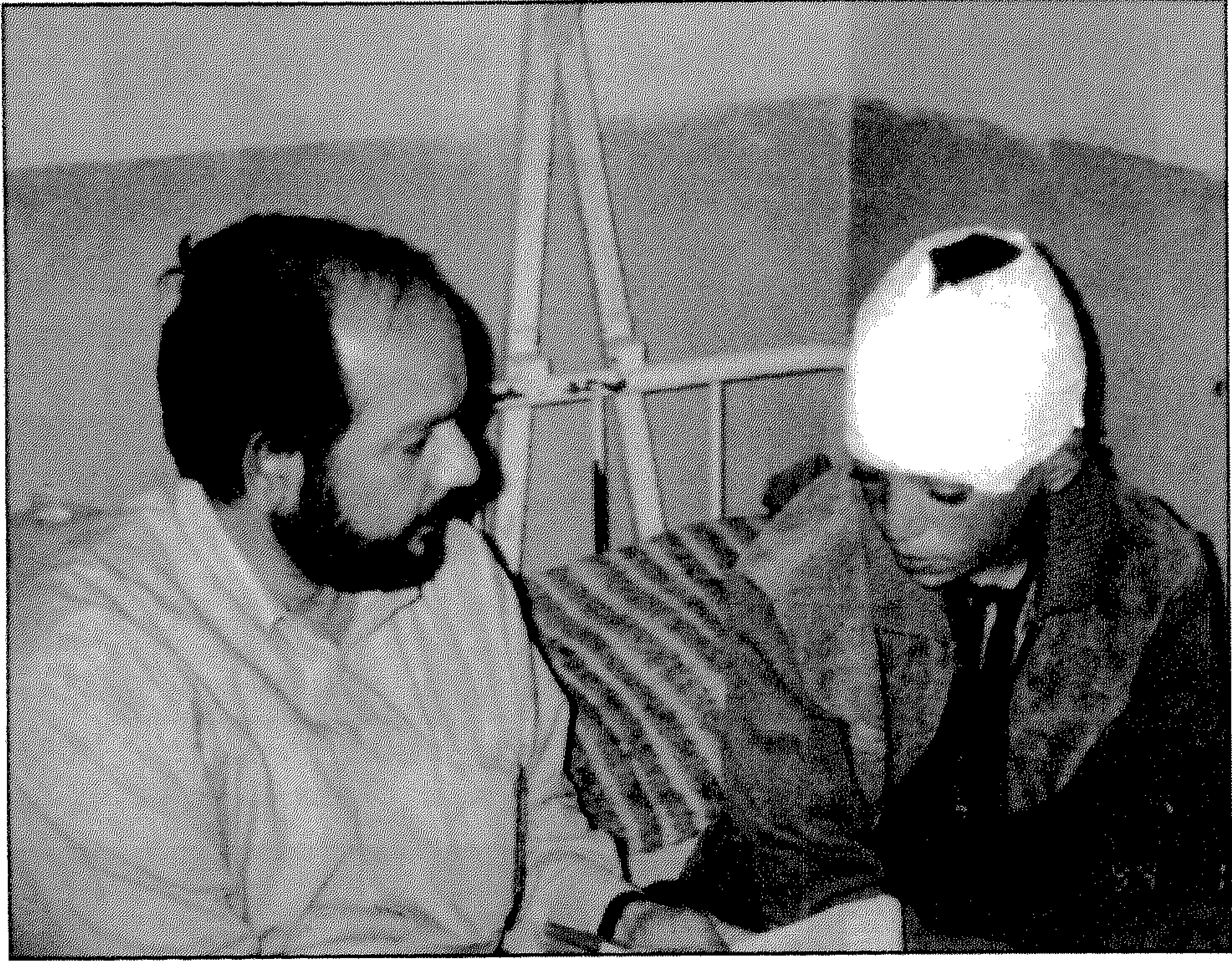

احسان الله


نرجس

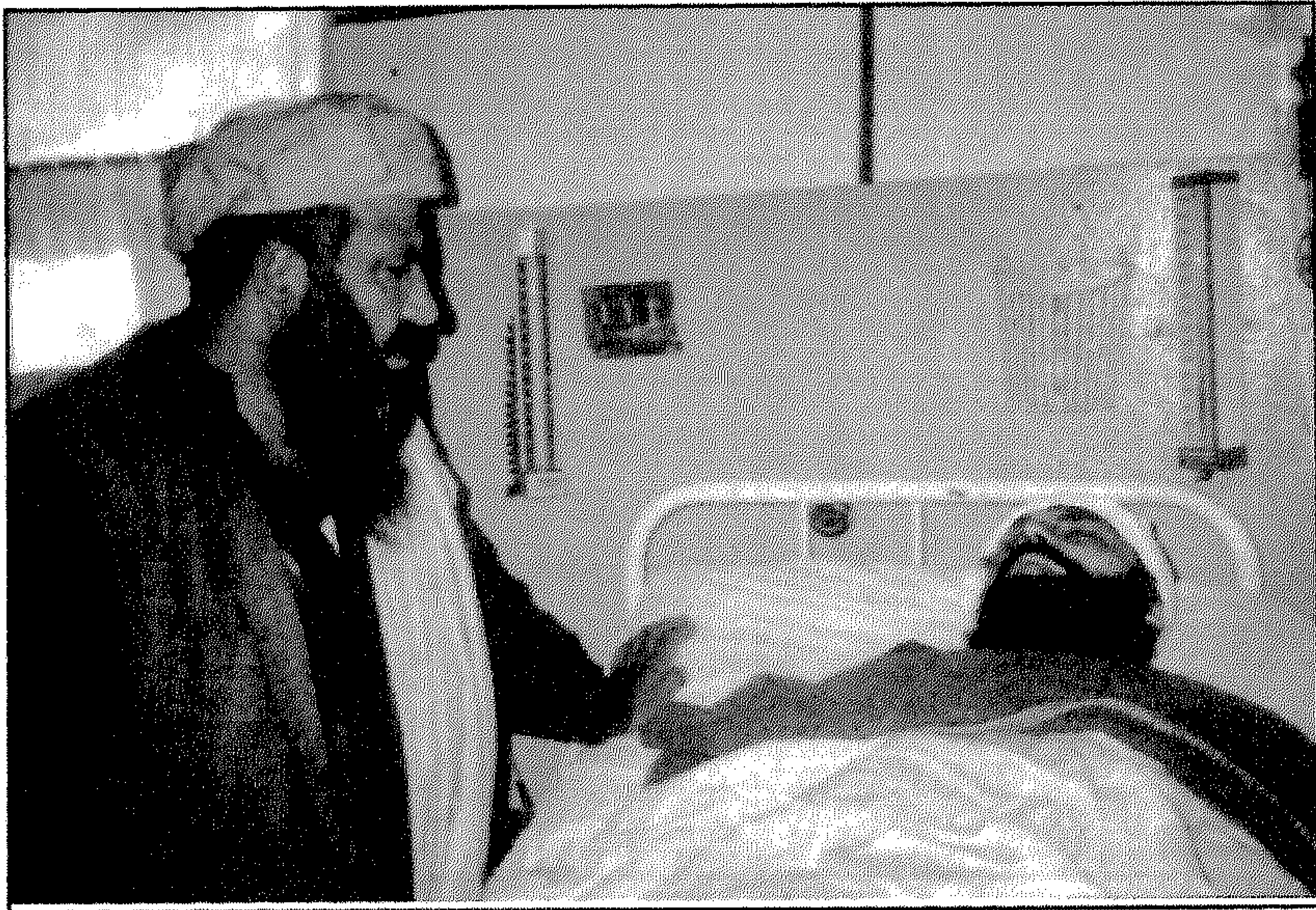

محمد


مطيع الله السخي


هميرة



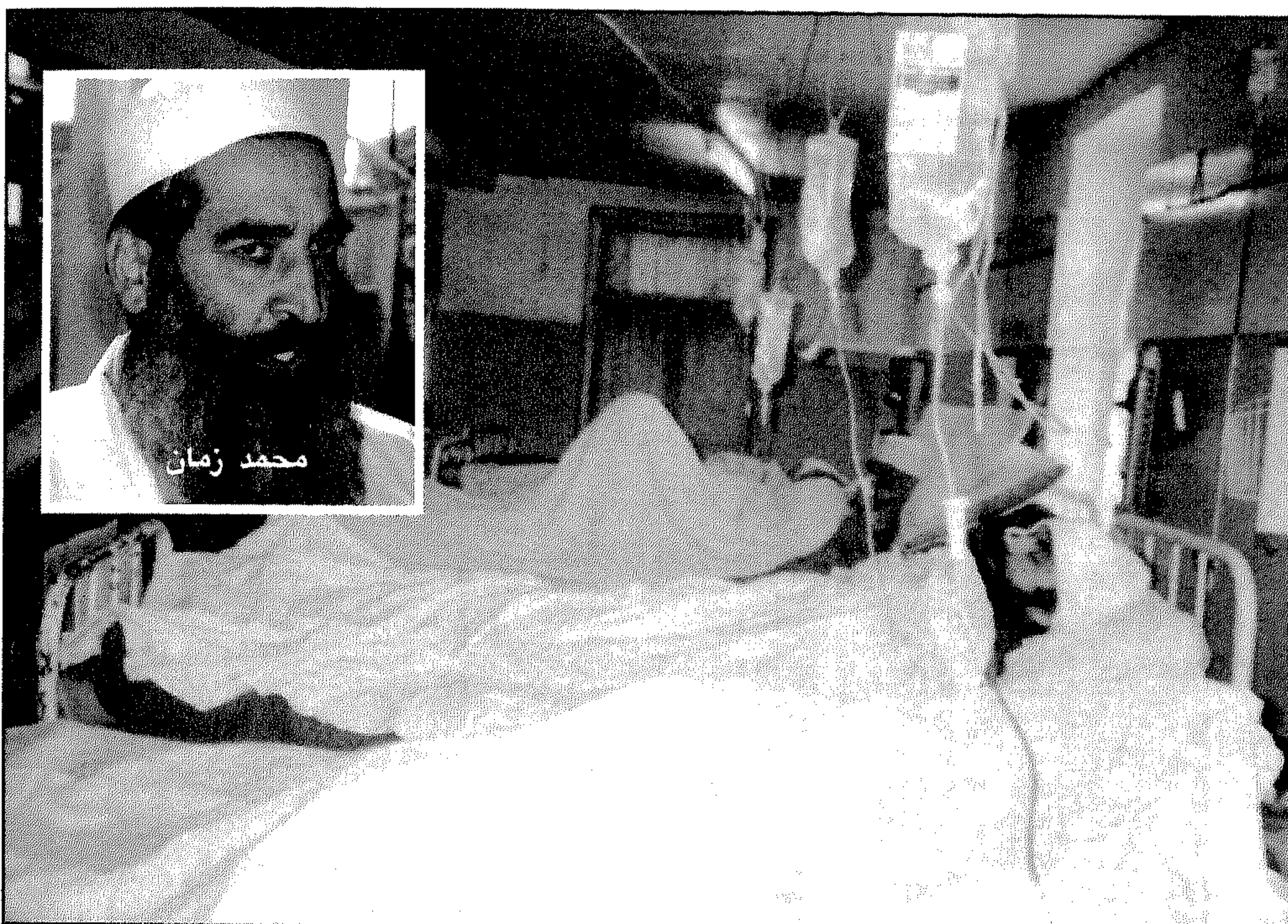
المؤلف مع عصمت الله عزيز الله



جول محمد يربت بيده على ابن خالته السائق



مع الدكتور نجيب الله قمر خير



قسم الحالات الحرجة فى مستشفى كابول

● الموقع الثالث.. كان مخازن الصليب الأحمر فى كابول.. التى قصفتها المقاتلات الأمريكية ثلاث مرات..!

المرة الأولى يوم ١٦ أكتوبر ٢٠٠١.. والمرة الثانية يوم ٢٥ من نفس الشهر.. والمرة الثالثة يوم ٢٦ من نفس الشهر أيضا.. مما يثبت أن قصفها كان عملا متعمدا وهدفا مقصودا فى خطة الحرب الأمريكية على أفغانستان.. وليس نتيجة خطأ فى التصويب أوتعطل فى أجهزة توجيه القنابل كما ادعت الولايات المتحدة..

فى المرة الأولى فوجئ العالم.. لأن مخازن الصليب الأحمر ومقار الأمم المتحدة فى أى مكان بالعالم لها نفس حصانة مقرها فى نيويورك.. فردت الولايات المتحدة بأن القصف تم عن طريق الخطأ.. وغير مقصود.. وأعربت عن أسفها.. وقالت «فيكتوريا كلارك» المتحدثة باسم البنتاجون إن المسئولين فى وزارة الدفاع الأمريكية يدرسون التقارير الخاصة بهذه العملية..وصدق العالم ذلك.

ثم تكرر القصف مرة ثانية مساء يوم الخميس ٢٥ أكتوبر.. حيث قامت طائرتان تابعتان للبحرية الأمريكية من طراز «إف إيه ١٨ سى» بإسقاط قنبلتين زنة الواحدة منها ٩٠٠ كيلو جرام على نفس المخازن..! وذلك طبقا لبيان صادر من القيادة المركزية الأمريكية نفسها.. وأضاف البيان: «أنه فى نفس الوقت تقريبا أصابت قنبلة زنتها ٢٢٠ كيلو جراما بشكل غير متعمد مخازن الصليب الأحمر.. عندما أصابت منطقة سكنية تبعد نحو ٢٠٠ متر جنوبى المخازن بسبب عطل على ما يبدو فى نظام توجيه القنبلة..!!»

ثم قصفت المخازن مرة ثالثة فجر اليوم التالى.. الجمعة ٢٦ اكتوبر.. بثلاث قنابل زنة الواحدة ٩٠٠ كيلو جرام أيضا، ألقتها طائرتان من طراز «بى ٥٢».. كما جاء فى بيان للقيادة المركزية الأمريكية.. وقال البيان: «إن الولايات المتحدة تأسف بصدق لهذا الهجوم غير المتعمد على مخازن اللجنة الدولية للصليب الأحمر».. وقبل العالم الأسف..!!

والواقع أن القصف الأمريكى لمخازن الصليب الأحمر كان متعمدا وتم فى إطار خطة أمريكية شملت أيضا عددا من المستشفيات.. مثل مستشفى قندهار الذى قصف يوم ١٦ اكتوبر، ولقى خمسة مرضى فيه مصرعهم..!

الهدف من ذلك كان تدمير أية مواقع يعتقد أن أسامة بن لادن أو الملا محمد عمر قد لجأ إليها بإعتبارها محصنة دوليا.. خاصة بعد أن ترك الموظفون الدوليون أفغانستان قبل بداية الحرب وتركوا إدارة هذه المواقع للموظفين المحليين.. الذين هم أفغان.. ويعملون تحت سيطرة حكومة طالبان..!

وقف «نور أغا» مسئول الأمن فى مخازن الصليب الأحمر يحكى لنا ما حدث..

قال: «القنابل نزلت دمرت كل شئ.. الـ ٣ مخازن احترقت بالكامل.. كان مخزن «المسلى» به ١٦٠ ألف علبة احترقت كلها.. مخزن الحبوب ومخزن الدقيق ظلت

النيران مشتعلة بهما عدة ساعات حتى أتت على كل شئ.

ثم قادنا إلى حيث سقطت إحدى القنابل فى المسافة التى تقع بين البوابة الرئيسية والمخازن لنرى حجم الحفرة التى صنعتها القنبلة.. كان قطرها لا يقل عن ١٥ مترا وعمقها كذلك.

قضينا أكثر من ساعة نتجول بين المخازن المحترقة.. نلتقط الصور لمعلبات وأجولة وعبوات غذائية احترقت وتفحمت بدلا من أن تذهب إلى بطون الفقراء الخاوية.

مواد غذائية دفع المجتمع الدولى ثمنها وأرسلها إلى أفغانستان لإطعام الفقراء.. لكن الولايات المتحدة «قطعت الطريق» وقصفت هذه المواد بالقنابل والصواريخ فأحرقتها.. ليموت فى أفغانستان من الجوع من لم تقتله قنابلها..!!



هكذا دمرت الطائرات الأمريكية مخازن الصليب الأحمر فى كابول
فاشتعلت النيران فى علب الأغذية



المؤلف وسط حطام مخازن الصليب الأحمر



عشرات الآلاف من العلب التى كانت مليئة بالسمن والأغذية.. احترقت وتحولت إلى «خردة»..!



النار أكلت كل شىء..!



هذا ما فعلته القنابل الذكية فى مخازن الصليب الأحمر

الفصل الثانى والعشرون

• سلاح التجويع..

« ربما اعتاد الناس فى «كابول» على سماع أصوات القصف.. وانفجار القنابل.. وانهيار الأبنية وسقوط الضحايا.. لكن لا أحد فى الدنيا يستطيع الاعتياد على الجوع..!»..!

□ فى مدينة كابول.. كل شخص كان يمتلك أجرة سيارة تنقله وأسرته إلى خارج المدينة.. فر منها هارباً الى أبعد نقطة يستطيع الوصول اليها..!

لم يبق فى المدينة إلا الفقراء المعدمين.. يتلقون القصف بالقنابل العنقودية وصواريخ كروز طوال الليل والنهار.. فى معركة أطلق عليها الغرب اسم: «الحرب ضد الإرهاب».. بينما هم كانوا يتساءلون دائماً: «وما ذنبنا نحن؟.. هل نحن إرهابيون؟!..»

فقراء ومساكين ومعدمون ومعوقون.. كان هؤلاء هم الذين تقصفهم المقاتلات الأمريكية فى كابول، فتدمر بيوتهم وتقتلهم..!

عانوا ٢٢ عاماً من الحروب والصراعات المستمرة.. تارة ضد السوفييت ، وتارة أخرى بين الفصائل الأفغانية المتناحرة على السلطة وحقول المخدرات.. ثم جاء القصف الأمريكى أخيراً، فحول مدينتهم إلى أطلال مهدمة..

وعندما تسير فى شوارع المدينة لا تجد فرقاً بين الناس والبيوت.. كلاهما مدمر..!

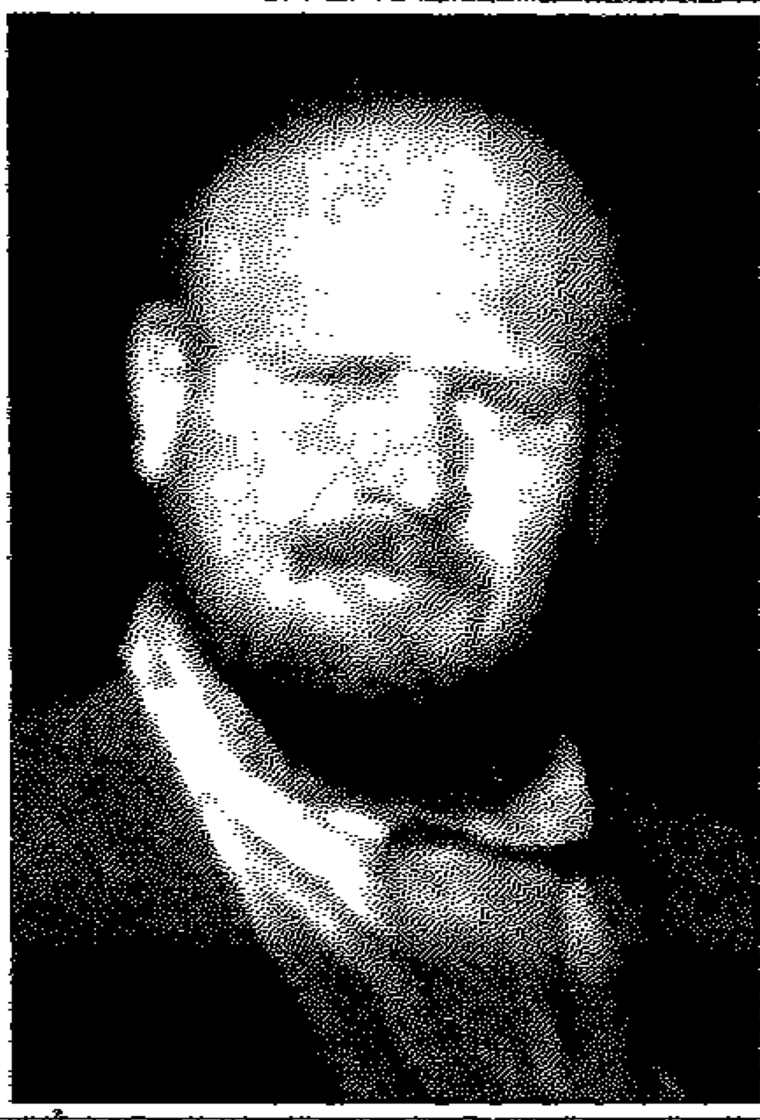
* * *

٢٠ بالمائة من «سكان المدينة» معوقون..!

إحصائية سمعتها من «أيوب الهرمذى» نائب رئيس هيئة الإغاثة الكندية فى أفغانستان الذى أصبح المسئول الأول فى الهيئة بعد أن فر رئيسها الأجنبى إلى خارج البلاد هرباً من القصف.

أما أيوب.. وهو شاب عمره ٣٦ سنة عراقى الجنسية من محافظة كركوك.. فقد أبى ضميره أن يغادر كابول.

قال لى: لقد شعرت أن هذا هو الوقت الصعب الذى يحتاجنى فيه الناس.. فلم أستطع أن أدير ظهرى لمن يستغيث بى من الجوع.. بل ضاعفت من جهدى، وقمت مع زملائى فى الهيئة ـ من الأفغان ـ بتوزيع ثلاثة آلاف طن من القمح والدقيق على آلاف الأسر فى محافظات «كابول»، و «غازنى»، و «لوجا»، و «بارتكا».. وغيرها.. دخلت بيوتاً لم يكن فيها رغيف خبز واحد يأكله الأطفال قبل أن يناموا فى المساء.. فشعرت


أيوب الهرمزى

بأن الجوع سيقتلهم.. وقدمت لكل أسرة جوالاً من القمح.

- سألته: ومن أين يأتى لك الآن هذا القمح؟

- قال: يأتي إلينا من برنامج الغذاء العالمى فى «إسلام آباد».. أما المواد الغذائية الأخرى والأدوية، فتأتى إلينا من تبرعات المسلمين فى كندا.

- قلت له: وماذا يأتيك من منظمة المؤتمر الإسلامى؟

- قال: لا شئ على الإطلاق..!

- قلت له: وبماذا تعلق على ذلك؟

- قال: أشعر بالأسف..!

- سألته: ولماذا لم تبادر أنت بالاتصال بهم وتطلب المساعدات..؟

- قال: بادرت والله.. فقالوا لى سندرس الموضوع.. قلت لهم، وهل هذا وقت دراسة.. إن المسلمين في أفغانستان يواجهون الموت جوعاً.. لأن الحرب أقعدتهم فى البيوت.. وحاصرتهم.. وعطلت أعمالهم.. فما فائدة منظمة المؤتمر الإسلامى إذن..؟!.. إذا كانت هذه المنظمة هى فعلاً منظمة إسلامية فعليها أن تسارع بالتحرك لإنقاذ مسلمى أفغانستان من الجوع والفقر.. لأن الرسول عليه الصلاة والسلام قال فى الحديث الشريف: «ليس منا من بات شبعانا وجاره جائع».

- قلت له: ألا تخاف الآن أن تقصف الطائرات الأمريكية مخازنكم كما قصفت من قبل مخازن الصليب الأحمر..؟

- قال: طبعاً كل شئ جائز.. لذلك قمت من باب الحيطة بوضع العلامات المميزة لهيئة الإغاثة الكندية فوق أسطح المخازن وعلى باب مكتبى.. واعتقد أنهم إذا كانوا فعلاً يرصدون كل كبيرة وصغيرة بالأقمار الصناعية الى درجة أنهم يقصفون السيارات المارة علي الطريق.. فلابد أنهم سيرون العلامات التى وضعتها..

- قلت له: وأنت.. ألا تخاف على حياتك..؟

- قال: أحد العاملين معى فى الهيئة أصيب بشظية فى ساقه عندما انفجرت قنبلة قريباً منا.. وأنا لا أخاف على حياتى لأن الأعمار بيد الله.. قال تعالى فى كتابه الكريم: «قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا».. صدق الله العظيم.

- سألته: ما هو نوع دراستك؟

- قال: أنا مهندس طرق وجسور.. تخرجت فى كلية الهندسة جامعة أنقرة.

- قلت له: وما رأيك فى الطرق والجسور فى أفغانستان؟

- قال: الحرب دمرتها كلها.. فلم تعد توجد أية طرق بالمعنى المعروف مما يضاعف من متاعبنا.. لا سيما أن أجهزة الاتصالات التى لدينا أصبحت لا تعمل بعد أن منعت حكومة طالبان الاتصال عن طريق الراديو..

- لماذا منعته..؟
- لأن الأقمار الصناعية التجسسية تملأ سماء أفغانستان.
- وكيف يتم الاتصال بينكم..؟
- عن طريق السيارات.. قبل ذلك كنت أحصل على المعلومات الخاصة بالموقف فى أى محافظة خلال دقيقة واحدة عن طريق الاتصال بالراديو.. لكن الآن أصبح لابد أن أستقل سيارة لمدة ٥ ساعات مثلاً للذهاب الى محافظة مثل محافظة غازى.. ثم أجلس هناك لمدة ساعة على الأقل.. وبعد ذلك أقضى ٥ ساعات أخرى فى العودة.. أى أقضى يوماً كاملاً فى السفر على طرق وعرة جداً من أجل التعرف على مدى احتياجات سكان منطقة ما.. ونحن لا نبالى عناء السفر.. لكن المشكلة أن السيارات على الطرق أصبحت أهدافاً مفضلة للمقاتلات الأمريكية كما تعرف..!

* * *

معاناة الناس فى «كابول» بسبب نقص الأغذية.. هى أول شىء يصدمك عندما تذهب إليها.

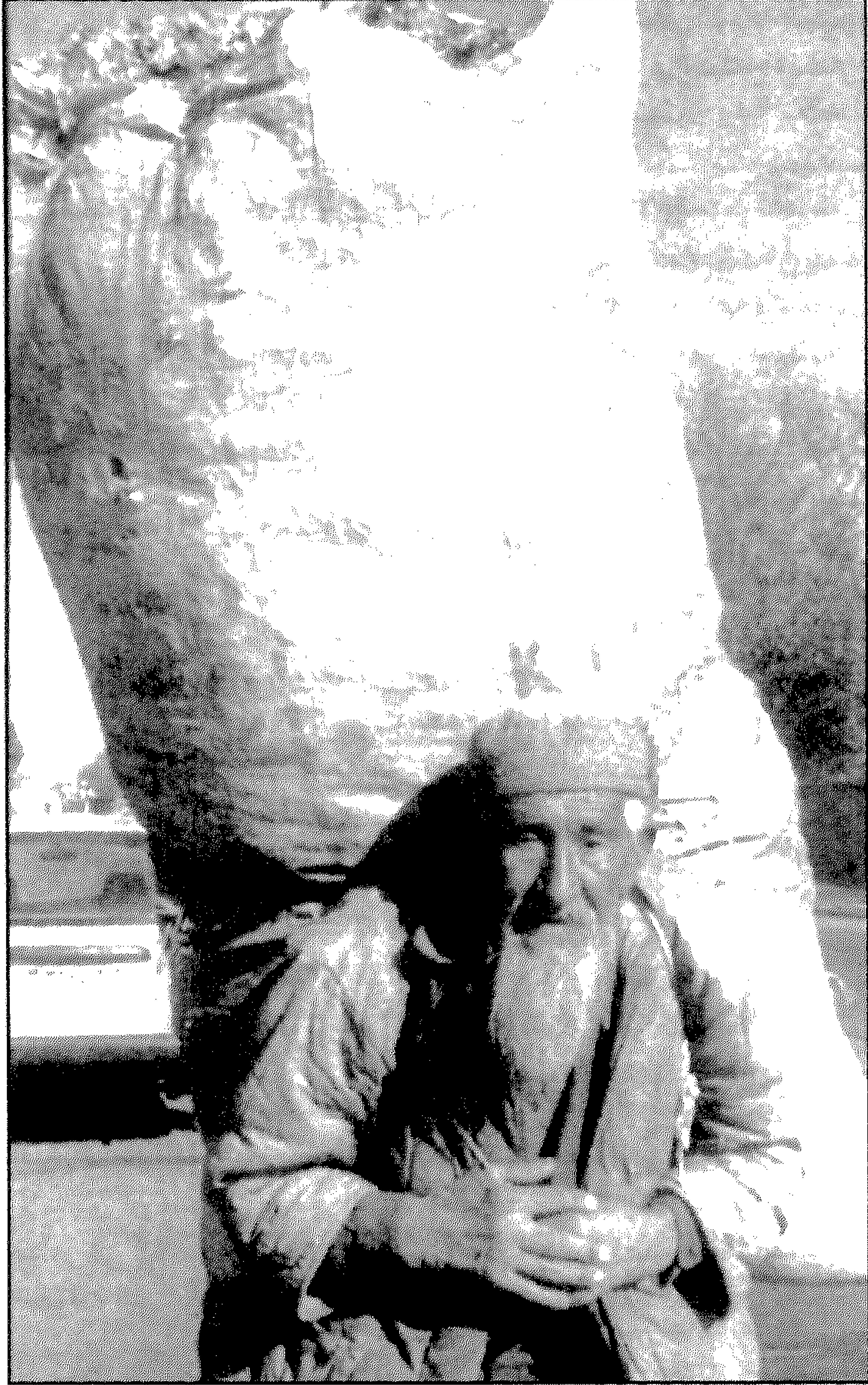
ربما اعتادوا على سماع أصوات القصف.. وانفجار القنابل.. وانهيار الأبنية وسقوط الضحايا.

لكن لا أحد فى الدنيا يستطيع الاعتياد على الجوع.. وهذا هو أشد ما كانوا يعانونه..!

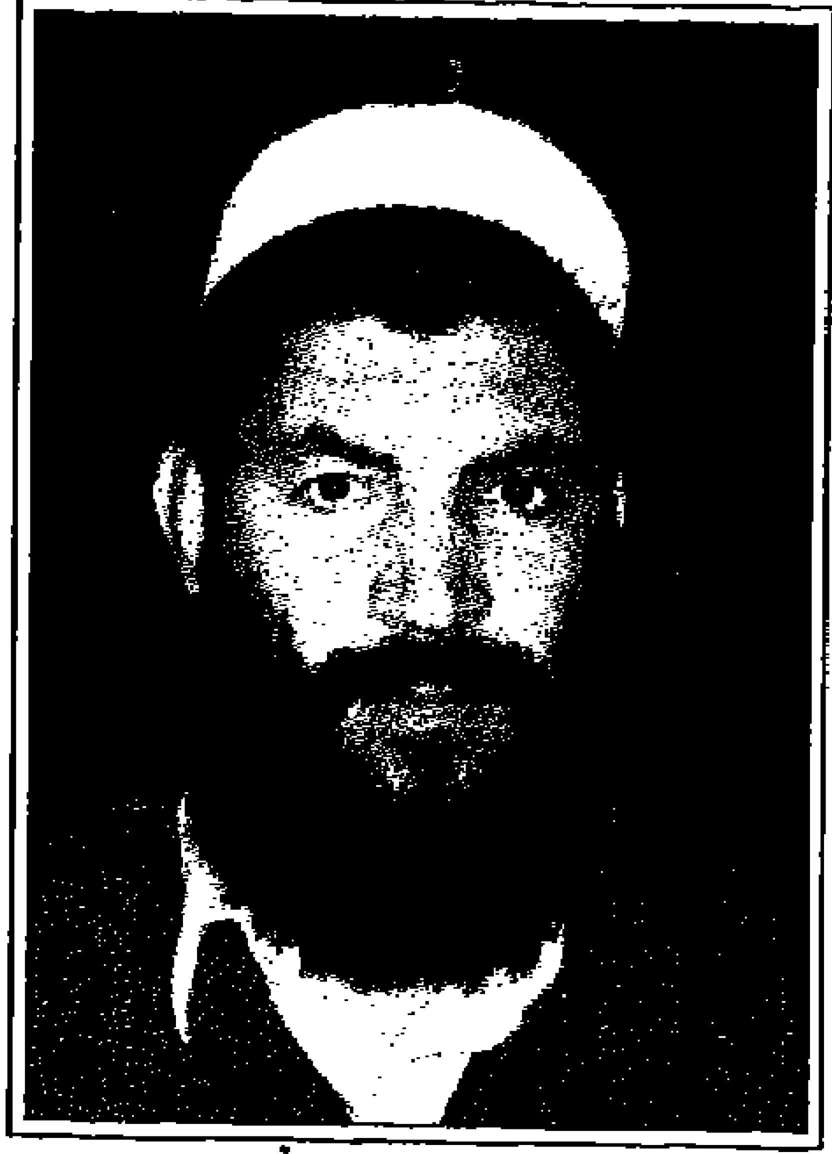
«الجوع كافر».. قالها لى بعربية ركيكة «محمد يوسف».. شاب أفغانى عمره ٢٩ عاماً.. تخرج فى كلية الهندسة جامعة بيشاور عام ١٩٩٣.. وكان المسئول الوحيد عن برنامج الغذاء العالمى فى العاصمة «كابول» و١٢ إقليماً تابعاً لها بعد أن غادر أفغانستان المسئولون الأجانب عن البرنامج.

قال لى إن عدد العاملين معه ٨٠ شخصاً كلهم من الأفغان.. قاموا بتوزيع ١٠ آلاف طن من القمح والدقيق على ٢٠٠ ألف أسرة خلال شهر أكتوبر ٢٠٠١ فقط..!.. رغم ذلك ظلت احتياجات الناس للغذاء أكبر بكثير من حجم المساعدات الغذائية التى كانت تصل إليه عن طريق الأمم المتحدة.

- سألته: وما هو حجم رصيد الأغذية عندك الآن فى المخازن..؟
- قال: ٣٥٠٠ طن فقط من القمح والدقيق.. بينما الاحتياجات الشهرية تقدر بـ ٥٢ ألف طن..!.. والمشكلة أن الشتاء قادم.. واحتياجات الناس تزداد فى الشتاء.. خاصة فى ظل هذه الحرب التى جعلتهم محاصرين وغير قادرين على الخروج للعمل فى الحقول.. لذلك أناشد المسئولين بالأمم المتحدة بمضاعفة حصص المساعدات الغذائية الى يرسلونها لنا.. لأن فى أفغانستان الآن حوالى ٧,٥ ملايين أفغانى يتعرضون للمجاعة.



هذا الرجل العجوز لم يكن يمتلك أجرة السيارة التى يفر بها من كابول.. فاضطر للبقاء فى المدينة.. وهاهو يحمل فوق ظهره عيدان القش التى جمعها طوال اليوم ليستخدمها فى التدفئة ..


محمد يوسف

ومثل صديقه «أيوب الترمذى» قام «محمد يوسف» بوضع علامات الأمم المتحدة فوق أسطح المخازن الخاصة ببرنامجه حتى لا تتعرض للقصف.

– سألته: هل تشعر أن مخازنكم أصبحت هدفاً للمقاتلات الأمريكية..؟

– قال: أعتقد ذلك.. لا سيما بعد أن سقطت قنبلة بالقرب من مخازننا منذ عدة أيام، وأصيب عدد من العاملين معى فى البرنامج بشظاياها.

– قلت له: وهل ستواصل أداء مهمتك فى ظل هذه الظروف الخطيرة..؟

– قال: نعم.. بكل تأكيد.. سأواصل آداءها رغم أن العبء قد زاد على كثيراً بعد مغادرة بعض الكوادر المساعدة لى مدينة «كابول» للعيش فى مناطق أخرى أكثر أمناً.

– قلت له: وأنت.. ألا تخشى على أسرتك من البقاء فى كابول..؟

– قال: لقد أرسلت زوجتى وطفلتى إلى قرية تبعد عن «كابول» بـ ٥٠ كيلو متراً.. وأذهب اليهم كل يوم فى المساء للمبيت معهم.. ثم أعود الى كابول فى الصباح.

– سألته: هل تعمل بالتنسيق مع المسئولين عن الصليب الأحمر..؟

– قال: المسئولون الأجانب عن الصليب الأحمر تركوه وغادروا البلاد قبل بداية الحرب.. أما الأفغانيون الذين حلوا محلهم فليس لديهم الخبرة الكافية فى العمل الإغاثى.. وعلى العموم مخازن الصليب الأحمر دمرت تماماً ولم يعد فيها أى شىء بعد أن قصفتها المقاتلات الأمريكية ثلاث مرات!

– قلت له: وهل تعتقد أن قصف مخازن الصليب الأحمر كان مستهدفاً، أم تم عن طريق الخطأ..؟

– قال: بالقطع كان مستهدفاً.. لأنهم فى المرة الأولى قصفوا مخزناً واحداً.. وفى المرة الثانية قصفوا المخزنين الآخرين.. فلو كان القصف فى المرة الأولى تم عن طريق الخطأ.. لا يمكن ان يتم عن طريق الخطأ أيضا فى المرة الثانية، ويستهدف المخازن التى لم تدمر فى القصف الأول.. ثم يتكرر القصف مرة ثالثة ليتأكدوا من أن المخازن كلها قد تحولت الى أنقاض والمواد الغذائية التى كانت بها احترقت بالكامل...!

* * *

قابلت فى كابول أيضا «د.خالد دياب».. طبيب أسنان عمره ٣٣ سنة.. من أصل سورى ويحمل الجنسية الأمريكية.

جاء إلى كابول مندوباً لمؤسسة النجدة العالمية.. وهى مؤسسة غير حكومية مقرها الولايات المتحدة الأمريكية.. قال لى إن المؤسسة افتتحت مكتبا فى «كابول»

منذ ٧ شهور فقط يعمل به طبيبان و ١١ موظفاً.. كما افتتحت مدرستين في مدينتي «كابول» و «جلال آباد» لتعليم الشباب الحرف المدنية كالنجارة والحدادة والبناء وغير ذلك.. في محاولة لإعادة تأهيل الشباب الأفغاني.


د.خالد دياب

أما عن طبيعة مهمته في «كابول» تلك الفترة.. فقال لي إنه جاء لتقييم مدى حاجة المستشفيات للأجهزة الطبية والأدوية.. وإنه لاحظ وجود نقص كبير فيهما.. فضلاً عن أن غرف العمليات وغرف العناية المركزة لا تتوفر بها أدنى الشروط المطلوبة مما يعرض حياة المرضى للخطر الشديد.. ونتيجة لهذا النقص في الامكانات أصبحت المستشفيات - فيما يشبه قراراً غير مكتوب - ترفض استقبال المرضى.. فضلاً عن أن بعض المرضى أنفسهم أصبحوا يخافون من المبيت في المستشفى خشية تعرضها للقصف ليلاً.. كما قصفت من قبل احدى المستشفيات بمدينة «قندهار»..!

قال لي إنه يناشد المؤسسات العالمية التي تعمل في مجال المساعدات الإنسانية الحضور الى أفغانستان وتقديم كل المساعدات الممكنة لأن الشعب الأفغاني أصبح في أشد الحاجة الى هذه المساعدات.. خاصة في المناطق التي توجد خارج العاصمة «كابول».. والتي قصدتها أعداد غفيرة من الفارين من القصف.

ساق مثالاً على ذلك بمعسكر للاجئين في إقليم نمروز اسمه «مكاتي».. يقع بالقرب من الحدود الإيرانية.. قال لي إن فريقاً من مؤسسته ذهب إلى هناك فوجد في هذا المعسكر أكثر من ٧ آلاف شخص يعيشون في خيام بالية.. ونحو ٩ آلاف يعيشون في العراء.. أصوات بكاء الأطفال لا تنقطع طوال الليل بسبب الظروف المناخية المؤلمة التي تتعرض لها هذه المنطقة.. حيث تتعرض لرياح شمالية باردة جداً اثناء الليل فضلا عن عدم توفر أي نوع من الخدمات الصحية.. والنقص الشديد في الغذاء..!

* * *

هكذا.. كان خطر الموت جوعاً يلاحق الأفغان.. كما تلاحقهم القنابل والصواريخ الأمريكية.

حتى أنني كنت أشعر هناك أن من لم يقتله القصف.. سيقتله الجوع..!

فهل كان سلاح التجويع هو أحد الأسلحة التي استخدمتها الولايات المتحدة في حربها ضد أفغانستان..؟!

* * *

الفصل الثالث والعشرون

• فنجان قهوة مع حفيظ الله..

« يكفيك أن تقول لأى أحد فى أفغانستان.. أنا من بلد الشيخ عبدالباسط عبدالصمد..»

حفيظ الله

□ *فندق «انتركونتيننتال» الذى نزلت به فى «كابول».. هو واحد من أجمل فنادق العالم من حيث التصميم المعمارى..*

كل ركن فيه.. وكل غرفة.. وكل مكان تم تصميمه وبناؤه وتأثيثه بعناية فائقة تنبئك بأن الذين شيدوه لم يكن يخطر ببالهم قط ما شهدته أفغانستان بعد ذلك من أحداث أدت إلى صعود التيار الإسلامى بهذه القوة.. وإنما شيدوه لاستقبال الضيوف والسائحين الأجانب .. لذلك فقد راعوا فيه بناء البارات والكازينوهات وصالات الرقص وقاعات الطعام على نحو يلبى احتياجات السياح من متعة وخصوصية.. واستجمام..!

وقد ظل الفندق على حاله.. لم يتأثر بما شهدته «كابول» من حروب وصراعات وقصف بالمدافع والطائرات.. كأن الأطراف المتصارعة فى كل مرة قد اتفقت على أن تبقى عليه سليماً.. لأن كلاً منها كان يأمل الإقامة به عندما يستولى على السلطة..!

التغيير الوحيد الذى طرأ على الفندق حدث عندما جاءت طالبان إلى الحكم.. حيث غطت كلمة «بار» المكتوبة أعلى باب قاعة لتناول الخمور بأن لصقت فوقها ورقة بيضاء فى حجم ورقة الكراسة. بينما تركت كل شىء داخل القاعة كما هو.. الأرفف.. زجاجات الخمر.. الكئووس.. المقاعد المخصصة للزبائن .. كل شىء كما هو لم يتغير..!

وقد دخلت هذه القاعة.. وجلست فوق أحد هذه المقاعد وتأملت المكان.. كان الوقت ليلاً.. وكان الصمت يطبق حولى من كل ناحية.. حيث كنت وحيداً، ولم يكن عدد نزلاء الفندق كله فى هذه الليلة يزيد على عدد أصابع اليد الواحدة..!

تركت خيالى يشكل صور زبائن القاعة الذين دخلوها من قبل.. رجالاً ونساء.. شربوا فيها وثملوا وذهبوا.. تخيلتهم كأنهم حاضرون.. وسألت نفسى: إن كل شىء فى القاعة مازال كما هو.. حتى طفايات السجائر..! فهل سيعود الزبائن إلى هنا يوماً..؟

ربما.. فهذه القاعة يمكن اعتبارها «ترمومتر» الوضع السياسى فى أفغانستان.. تخلو إذا جاء الإسلاميون إلى الحكم.. وتمتلىء إذا ذهبوا..!

من أجمل القاعات بالفندق أيضاً قاعة الطعام.. أو «الريستوران» التى صممت كأن الذين سيتناولون الطعام فيها هم العشاق فقط..! حيث تضم مجموعة من «الأركان» تفصل بينها حواجز خشبية رائعة التصميم والجمال لتوفر الخصوصية لكل شخصين معاً.. فيأكلان ويشربان بعيداً عن عيون الناس.. كأنهما وحدهما فى هذا الكون الفسيح..!

ويطل «الريستوران» على مدينة «كابول» التى تبدو مساكنها كأنها نائمة فى حضن الجبل أسفل الهضبة التى بنى عليها الفندق.. فتشعر عندما تنظر إليها من خلف الجدار الزجاجى لـ «الريستوران» كأنك تحلق فى السماء فوق البيوت..!

هذا الإحساس بجمال المكان كان يخنقه دائماً الإحساس بالخطر الذى نعيشه.. خطر قصف الفندق فى أى لحظة بالقنابل والموت تحت الأنقاض..!

لذلك.. لم يكن هناك من حديث لنا سوى أخبار الحرب.. وقدرة طالبان على الصمود.. وما إذا كانت الحرب ستطول عشر سنوات كما طالت الحرب مع السوفييت، أم ستحسم خلال أيام..

وكنت دائماً أحب الاستماع إلى وجهة نظر المواطنين الأفغان أنفسهم.. فهم أصحاب القضية وأصحاب الأرض..

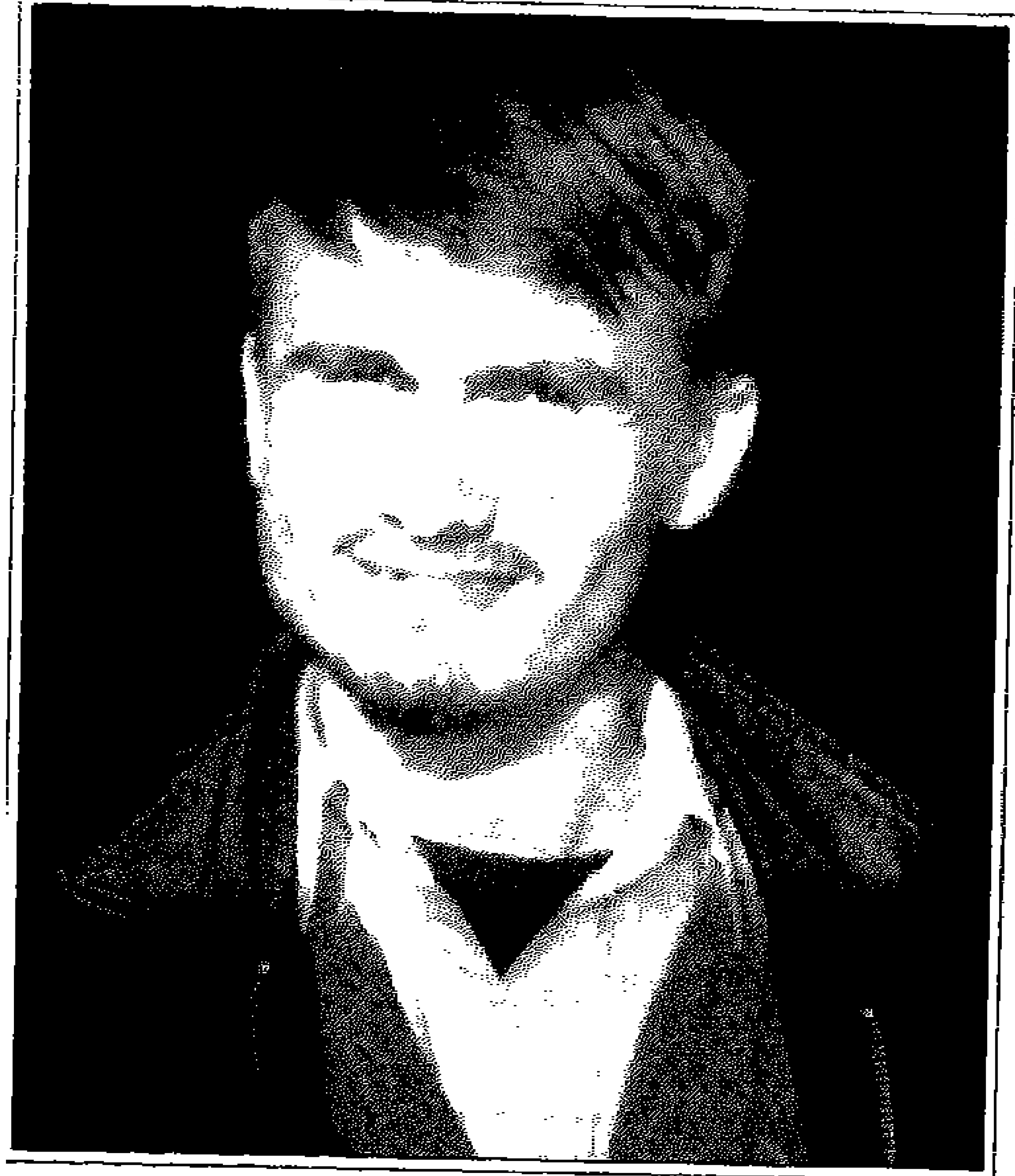
من هؤلاء.. شاب أفغانى اسمه: «حفيظ الله».. قال لى إن الحرب هذه المرة تختلف عن الحرب التى خضناها ضد السوفييت فى الثمانينيات.. حربنا هذه المرة أصعب.. والسبب أن باكستان تتعاون مع أمريكا ضدنا، بينما فى الحرب السابقة كانت تتعاون معنا ضد السوفييت.. باكستان هى العمق الاستراتيجى لبلادنا، وعندما تفتح أراضيها وأجواءها لمن يحاربوننا.. لابد أن يؤثر ذلك فى نتيجة الحرب.



المؤلف أمام فندق «انتركونتيننتال» فى كابول

ثم شن «حفيظ الله» هجوماً ضارياً على باكستان.. قال إنها تتخذ مواقفها دائماً من منطلق مصالحها الخاصة دون مراعاة لمصلحة الشعب الأفغانى.. والدليل على ذلك موقفها من هذه الحرب.. لقد باعت أمن وسلامة الشعب الأفغانى ببضعة دولارات من أجل أن تحل أزمتها الاقتصادية.. ولو كانت قد وقفت بجانبنا لما جرؤت أمريكا وبريطانيا على دخول حرب ضدنا..

* * *


حفيظ الله

كان «حفيظ الله» يتحدث بانفعال شديد.. ويعض بأسنانه على شفته السفلى كلما ذكر اسم «أمريكا».. حتى خشيت أن ينهض ويطلق النار فى الهواء.. فغيرت موضوع الحديث وسألته: أين تعلمت اللغة العربية؟.. قال: فى المدارس الدينية..

ـ ثم سألنى: هل أنت من مصر نفسها؟

ـ قلت له: نعم..

ـ قال: ياسلام.. البلد التى أنجبت الشيخ عبدالباسط عبدالصمد..

ـ قلت له: وأنجبت الكثير أيضاً من المقرئين..

ـ قال: لكن ليس منهم أحد مثل الشيخ عبدالباسط عبدالصمد.. إن له شعبية كبيرة فى أفغانستان والناس هنا يحبونه جداً.. يكفيك أن تقول لأى أحد أنك من بلد الشيخ عبدالباسط عبد الصمد ..

ثم أردف قائلا: لكن يا خسارة.. لقد حزنا جداً عندما علمنا أن إحدى بناته اشتغلت بالتمثيل فى السينما..!

ـ قلت له: أنا لم أسمع أبداً عن ذلك.. من هى؟!

ـ قال: ليلى علوى..

ـ قلت له: ليلى علوى ليست ابنة الشيخ عبدالباسط عبدالصمد.. أنا متأكد من ذلك.. ثم إن اسمها ليلى علوى وليست ليلى عبدالباسط.

ـ قال: ليلى علوى هو الاسم الفنى لها..!

كان «حفيظ الله» يتحدث بثقة شديدة فى صحة معلوماته ولا يقبل منى تكذيبها..

وفى نفس الوقت لم أكن أريد ترك الموضوع هكذا حتى لا ينتهى الأمر بعد ذلك باغتيال ليلى علوى باعتبارها ابنة الشيخ عبدالباسط عبدالصمد والشعب الأفغانى غاضب لأن ابنة الشيخ عبدالباسط تعمل بالتمثيل..!

فهدأته.. وقلت له: أنا لا أكذبك يا حفيظ.. ولكنى أريد فقط أن أصحح المعلومة التى لديك.. وأن تعرف أنه كان فى مصر مقرىء عظيم للقرآن الكريم اسمه الشيخ محمود الحصرى عليه رحمة الله.. كان صوته من أجمل الأصوات فى تلاوة القرآن.. وله ابنة اسمها «ياسمين الخيام» اشتغلت فترة بالغناء وليس بالتمثيل.. ثم اعتزلت الغناء الآن وارتدت الحجاب وأقامت مركزاً لتحفيظ القرآن الكريم فى القاهرة أطلقت عليه اسم والدها.. هذا هو أصل المعلومة التى لديك.. لكنها شوهت كثيراً لكثرة الألسنة التى تناقلتها حتى وصلت إليك.. حيث نسى بعض الذين تناقلوها اسم الشيخ محمود الحصرى فاستبدلوه باسم الشيخ عبدالباسط عبدالصمد.. ونسى البعض الآخر اسم ياسمين الخيام ،فاستبدلوه باسم ليلى علوى.. وهكذا جعلوا ليلى علوى ابنة عبدالباسط عبدالصمد..!

ومثل هذا الخلط فى المعلومات.. هو نتيجة طبيعية فى مجتمع مثل مجتمعكم بعد أن حرمتم وسائل الإعلام المرئية والمسموعة.. فأصبحت الأخبار والمعلومات تنقل إليكم عبر عشرات الألسنة.. التى لابد أن ينسى بعضها جزءاً من الحقيقة.. فيستبدل ما نسيه ببعض من خياله..!

* * *

ولقد تقبل «حفيظ الله» ما قلته بصدر رحب.. رغم أنه من هذا النوع من الناس الذى لا يقبل التشكيك فى معلوماته.. فكل شىء لديه محسوم وغير قابل للمناقشة.. لكن يبدو أنه تقبل كلامى من باب «إكرام الضيف»..!

وهو نفس المنطق الذى بسببه رفض بإصرار أن يسمح لى بدفع ثمن «فنجان قهوة» طلبته له بالفندق.. قال: «أنت ضيف عندنا وأنا الذى سأدفع الحساب»..

ولما كان ثمن «فنجان القهوة» الواحد ٤٠ ألف أفغانى.. ولا يمكن أن اتركه يدفع مبلغاً كهذا.. وهو أيضاً يصر على دفعه.. فقد تطور الموقف بيننا بسرعة وعلا صوتنا حتى جاء الموظف المسئول بالفندق يستوضح الأمر.. فوقعت بسرعة على الفاتورة وطلبت منه إضافتها إلى حساب الغرفة.. لكن «حفيظ الله» اعتبر كأننى أفرض عليه ما أريده، وفى ذلك مساس بكرامته.. فتعقد الموقف بيننا.. ولأننى ضيف عندهم فقد صب غضبه على موظف الفندق.. فجاء موظف ثان.. والمسألة كبرت.. ولم يكن هناك من حل لها سوى القبول باقتراح قدمه لنا موظف الفندق فى صورة رجاء، وهو اعتبار «فنجانى القهوة» اللذين شربناهما «تحية» قدمها لنا الفندق احتفاء بكونى ضيفاً على الشعب الأفغانى..!

وقد تعجبت بشدة لهذا الموقف الذى لا يمكن أن يحدث فى أى فندق بالعالم.. وهو

موقف يبين لك أن الشعب الأفغانى يضع دائماً مسألة «إكرام الضيف» على رأس أولوياته.. أليس هو الشعب الذى فضل أن يخوض حرباً ضد الولايات المتحدة يقصف فيها كل يوم بـ ٥٠٠ طن من القنابل، ولا يسلم إليها ضيفه «أسامة بن لادن»..! وهو ما عبر عنه «الملا عبدالسلام ضعيف» ذات يوم فى أحد مؤتمراته الصحفية بقوله: «لن نسلم أسامة بن لادن أبداً للأمريكيين حتى لو أبيد الشعب الأفغانى عن بكرة أبيه»..!

ولقد توطدت علاقتى بعد ذلك بحفيظ الله وصرنا أصدقاء.. وجدته شاباً شديد النقاء.. يتدفق حماسة وشهامة ورجولة.. ثائراً وغاضباً لما أصاب بلاده، وناقم أشد النقمة على الرئيس الباكستانى «بيرفيز مشرف» لأنه كما كان يقول لى «دائماً» «وضع يده فى يد أمريكا»..!

ولما كانت أخطط لكى تكون محطتى التالية فى أفغانستان هى مدينة «قندهار».. فقد بدأت أبحث مع «حفيظ الله» فكرة السفر إليها.. قال لى: «الطريق إلى قندهار «خربان».. ليس أقل من ١٦ ساعة بالسيارة»..!

ـ سألته: هل تعرف طول المسافة بالكيلو متر..؟

ـ قال: المسألة ليست كيلو مترات.. الطريق وعر ولابد أن يكون معك حارس ومترجم وتبيتون ليلة فى الطريق.. حتى لا تضيئوا أنوار السيارة أثناء الليل فتقصفكم الطائرات الأمريكية..

ـ قلت له: أنا أعرف ذلك.. ولكننى أريد أن أعرف منك طول المسافة، وما إذا كانت هناك مدن على الطريق يمكن المبيت بها أم لا؟.. وهل توجد فى قندهار فنادق.. وما هو حجم هذه المدينة.. وما أهميتها فى تاريخ أفغانستان.. كل هذه المعلومات أريد أن أعرفها قبل السفر..

ـ قال: عندى كتاب باللغة العربية فيه كل شىء عن أفغانستان.. المدن والطرق والجبال والأنهار والشعب والتاريخ.. سأهديه لك..

ثم نهض إلى منزله وعاد بعد ذلك ومعه الكتاب فجلست أتصفحه..

* * *

الكتاب اسمه: «أهلاً بكم فى أفغانستان».. صدر عن المكتب الثقافى والصحفى بالسفارة الأفغانية فى القاهرة.. لا يوجد على الكتاب تاريخ صدوره، ولكن تتصدره فى الصفحة الأولى صورة كبيرة للملك محمد ظاهر شاه مما يبين لك أنه صدر قبل عام ١٩٧٣، وهو العام الذى انقلب فيه محمد داود على الملك ظاهر شاه انقلابا عسكرياً سلمياً استولى به على الحكم، وألغى الملكية وأقام جمهورية أفغانستان على أساس دستور جديد وحزب واحد..

فى الصفحة التالية.. مقدمة بتوقيع «عبدالرءوف بينوا» مدير المكتب الثقافى والصحفى بالسفارة الأفغانية يدعو فيها القراء إلى زيارة أفغانستان.. يقول: «إذا لم

تجد فيها ناطحات السحاب، فإن جبالها الشاهقة الشامخة التى تمتد إلى عنان السماء، ومناظرها الجميلة الرائعة، ستبهج نفسك وتسر خاطرك»..

ثم يبدأ الكتاب بالحديث عن أصل الدولة.. يقول: عندما اتخذت القبائل الآرية، قبل خمسة آلاف عام – المناطق الشمالية من سلسلة جبال هندوكش ـ الواقعة فى أفغانستان ـ موطناً لها، سمت بلادها «آريانا».. أى بلاد الشعب الآرى.. وفى عصر أسرة «يفتلى» فى القرن الخامس الميلادى عرفت هذه المنطقة باسم «خراسان» أى بلاد المشرق.. وظلت تحمل هذا الاسم حتى القرن التاسع عشر الميلادى، ثم عرفت بعد ذلك باسم «أفغانستان».

ـ مساحة الدولة ٦٨٣٠٢٠ كيلو متراً، وربع هذه المساحة قابل للزراعة..

ـ يحدها من الشمال جمهوريات: طاجكستان وتركمانستان بطول ١٩٣٧ كيلو متراً، منها ١٢٠٠ كيلو متر نهر «آمودريا».. ويحدها من الغرب إيران بطول ٨٤٩ كيلو متراً.. ومن الشمال الشرقى الصين بطول ٧١ كيلو متراً.. من الجنوب والشرق بشتونستان بطول ٢٤٦٦ كيلو متراً.

ولأن الكتاب صدر فى عهد الملك السابق محمد ظاهر شاه الذى كان يعتبر كل الأراضى الواقعة فى منطقة القبائل حالياً هى أراضٍ أفغانية، وليست باكستانية.. وأنها اتخذت اسمها «بشتونستان» من اسم قبائل البشتون التى تسكنها.. فإن الكتاب لم يعترف بوجود أى حدود مشتركة بين أفغانستان وباكستان..!

ثم يتحدث الكتاب عن مناخ أفغانستان وأنهارها وجبالها وطرقها.. وعدد السكان الذى كان يبلغ ١٣ مليوناً و١٤٧ ألف نسمة حسب تعداد عام ١٩٦١ ـ ثم وصل إلى ٢٦,٦ مليون حسب تقديرات عام ٢٠٠٠ ـ .. ويذكر الكتاب أن ٦٥٪ من السكان ينتمون إلى «البشتون»، و٣٥٪ ينتمون إلى «الطاجيك» و«الهزارة» و«الأزبك» و«التركمان» و«العرب» و«النورستان».. و«غيرهم الذين يعيشون فى وطنهم أخوة متحابين، فكلهم أفغان دون النظر إلى الأصل والجنس».. هكذا يقول الكتاب..!

ـ أما اللغة.. فهناك لغتان رسميتان تكتبان بالخط العربى هما: «لغة البشتو» التى يتحدث بها معظم السكان، و«اللغة الفارسية».. واللغتان تنتميان إلى الأصل الآرى، وتمتد جذورهما إلى آلاف السنين.. وبالإضافة إلى اللغتين السابقتين هناك ٢١ لغة محلية أخرى..!

ـ الدين الرسمى للدولة هو الدين الإسلامى ويعتنقه ٩٩٪ من السكان.. منهم ٨٢٪ سنية، و١٥٪ شيعة، و٢٪ شيعة اسماعيلية.. و١٪ أقليات صغيرة من الهندوس والسيخ واليهود..

ويذكر الكتاب أسماء علماء وأئمة كبار فى الإسلام أنجبتهم أفغانستان.. مثل الأئمة: «أبى حنيفة» و«ابن حنبل» و«الرازى» و«الغزالى» و«ابن قتيبية».. ومن الفلاسفة: «ابن سينا» و«الفارابى» و«بيرونى».. ومن المفسرين: «السجاوندى»

و«يعقوب الجرحى» و«حسينى كاشفى».. ومن الزهاد: «إبراهيم بن أدهم» و«عبدالله أنصارى» و«الزمخشرى».. ومن المفكرين: الثائر جمال الدين الأفغانى..

ثم يمضى الكتاب فى الحديث عن أهم المدن الأفغانية.. وتقع كلها فوق مستوى سطح البحر بارتفاعات تتراوح بين ٤٠٠ متر مثل مدينة «مزار شريف» إلى ٢٣٠٠ متر مثل مدينة «كرديز».. حيث إن الدولة كلها عبارة عن هضبة مرتفعة تقع وسط سلسلة جبال آسيا الوسطى، مما يجعل مناخها صحياً وربيعياً طوال معظم الفصول وفى الشتاء يكثر تساقط الثلج..

أهم المدن التى يعرضها الكتاب: «كابول» العاصمة الحالية.. و«قندهار» التى كانت عاصمة الدولة فى عهد «أحمد شاه». كما جعلها الملا محمد عمر مقراً للحكم فى عهد طالبان.. و«مزار شريف» التى يذكر الكتاب أن بها ضريح ومسجد الإمام «على» رضى الله عنه.. و«هرات» التى تعتبر من المدن التاريخية المهمة، وكانت مركزاً من مراكز العلم والثقافة والفن.. و«جلال آباد» عاصمة محافظة «ننكرهار» التى ولد فى إحدى قراها «جمال الدين الأفغانى».. و«بغلان» التى تقع فى شمال الدولة وكانت من أهم المراكز الصناعية فى أفغانستان.. و«كرديز» عاصمة محافظة «بكتيا» التى تكثر بها الغابات.. و«غزنى» التى كانت عاصمة أفغانستان فى عهد السلطان «محمود الغزنوى»..

غير أن أكثر ما يلفت النظر فى الكتاب.. هو حجم البنية الأساسية التى كانت لدى هذه الدولة وتم تدميرها أثناء فترة الحروب..

فعلى سبيل المثال كان بها مطاران دوليان كبيران.. أحدهما فى «كابول» والآخر فى «قندهار».. وكان مطار «قندهار» من أكبر المطارات فى العالم.. مجهزاً لاستقبال جميع أنواع الطائرات الحديثة بمعدل طائرة كل دقيقة.. وكان به ممران رئيسيان لصعود الطائرات وهبوطها طول كل منهما ٣٢٠٠ متر وعرضه ٥٠ متراً.. وبإمكانه تهيئة الوسائل لصعود وهبوط ٢٨٨٠ طائرة يومياً. وتتوفر به أجهزة آلية لتزويد الطائرات الحديثة بالوقود اللازم بكميات تصل إلى ٢٢ ألف جالون فى أقل من ٢٠ دقيقة.. وبامكانيات تسمح بتزويد ١٨ طائرة كبيرة ومتوسطة فى وقت واحد.. وبالمطار مخزن للوقود يتسع لـ ٥٣٥٠٠٠ جالون.

كان هناك أيضاً مصانع ضخمة للنسيج والسكر وتجفيف الفواكه والكبريت والرخام والأسمنت.. ومحطات ضخمة لتوليد الطاقة الكهربائية أنشئت منذ عام ١٨٩٣ فى عهد الأمير عبدالرحمن خان.

كان التعليم كله بالمجان.. بما فى ذلك المدارس الداخلية، وكانت الدولة تقدم للتلاميذ الأدوات المدرسية من كتب وكراسات وأقلام بالمجان.. ولم تعرف أفغانستان المدارس الخاصة ولا الأجنبية.. وكانت ترسل المتفوقين من أبنائها إلى الخارج لاستكمال دراستهم العليا على نفقة الدولة.. كان عدد المدارس ١٤٤٢ مدرسة ابتدائية وثانوية وفنية موزعة على مناطق الدولة.. وكان بها جامعتان «جامعة كابول» التى بدأت

الدراسة فيها بكلية الطب عام ١٩٣٢، ثم أضيفت لها كلية الحقوق والعلوم السياسية عام ١٩٣٨، وكلية العلوم عام ١٩٤٢، وكلية الآداب عام ١٩٤٤، وكلية الشريعة عام ١٩٥١، وكلية الهندسة عام ١٩٥٦، وكلية الزراعة عام ١٩٥٦، وكلية الاقتصاد عام ١٩٥٧، وكليات الصيدلة، والتربية والتعليم، والتدبير المنزلي عام ١٩٦٢..

الجامعة الثانية.. «جامعة ننكرهار».. وقد أنشئت في مدينة «جلال أباد» عاصمة محافظة «ننكرهار» وتم افتتاحها في ٩ نوفمبر عام ١٩٦٣.. وتضم عدداً من الكليات المشابهة..

كان في أفغانستان أيضاً نهضة ثقافية وإعلامية وفنية كبيرة.. تمثلت في المتاحف التي عرفتها منذ العصور القديمة.. حيث كان ملوك الدولة وسلاطينها يجمعون ما تصل اليه أيديهم من آثار وتحف نادرة في متاحف خاصة بهم.. وفي العصر الحديث تم إنشاء متحف بمدينة «كابول» عام ١٩١٨ ضم كل محتويات مجموعة المتاحف الخاصة بالملوك السابقين..

وكانت هناك مكتبات عامة وإذاعة وفرق فنية وموسيقية ومطربون ومطربات.. وصحف بلغ عددها ٧٠ جريدة ومجلة منها صحف للأطفال مثل صحيفة «سراج الأطفال» التي كانت تصدر منذ عام ١٩١٨.. وصحف نسائية مثل صحيفة «إرشاد النسوان» التي كانت تصدر منذ عام ١٩٢٠..

ويشير الكتاب إلى أن الأفغان من أوائل شعوب العالم التي عرفت الديمقراطية والمجالس النيابية.. حيث يذكر أنه منذ عام ٢٥٠٠ قبل الميلاد كانت القبائل الآرية في أفغانستان تأخذ بآراء مختلف أفراد الشعب في القضايا العامة والمسائل التي تتعلق بحياتهم اليومية والقبلية.. وكان هناك مجلسان شعبيان.. الأول اسمه «سبها»، وكان عبارة عن مجلس محلي يضم أعضاء من رجال القبائل والقرى في كل منطقة ويختص بالمشاكل اليومية والمحلية.. والثاني اسمه: «سميني» وكان عبارة عن مجلس وطني قومي أعضاؤه من زعماء القبائل وأعيان القرى والمدن، ويختص بالمشاكل التي تتعلق بكيان البلاد وجميع أفراد الشعب..

* * *

غير أن الكتاب لم يتحدث عن التاريخ السياسي لأفغانستان ونشأة الدولة الحديثة في عام ١٧٤٧ عندما تولى «أحمد شاه دوراني» الحكم في «قندهار» بعد وفاة «نادر أفشار» الحاكم الإيراني الذي كان يحكم الجزء الغربي والجنوبي من أفغانستان مع ايران.

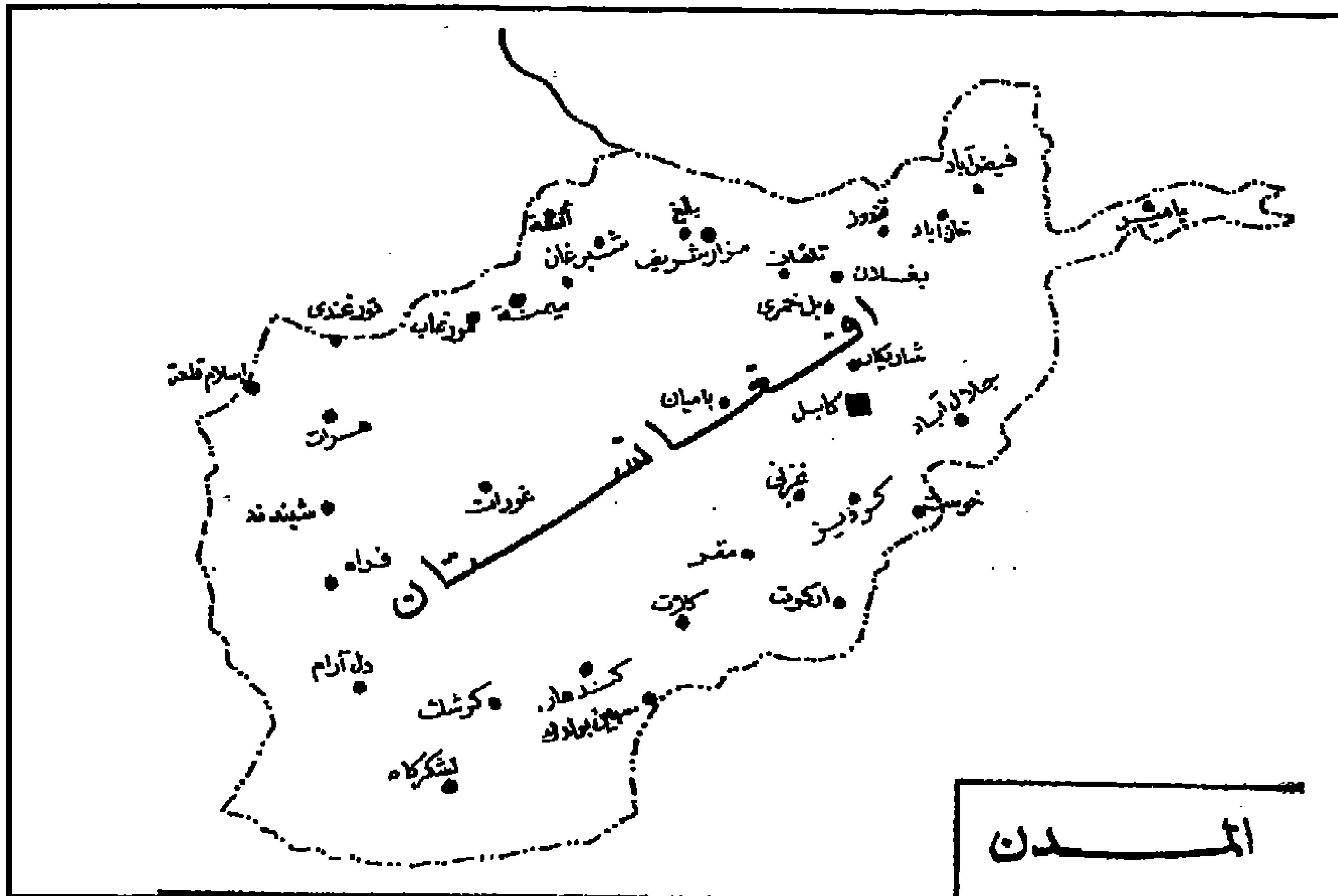
كان «أحمد شاه» ضابطاً في الجيش، واستطاع خلال فترة قصيرة بسط سيطرته غرباً وجنوباً، فامتد حكمه من «دلهي» في الشرق إلى «مشهد» في الغرب، ومن نهر «آمودريا» في الشمال إلى الهند في الجنوب.. واتخذ من «قندهار» عاصمة لبلاده.

- خلال القرن التاسع عشر.. وقعت أفغانستان فريسة للصراع البريطاني - الروسي.. فخاضت بسبب ذلك ثلاثة حروب مع بريطانيا..

الحرب الأولى من عام ١٨٣٩ إلى عام ١٨٤٢.. وانتصر فيها الأفغان على الجيش البريطانى وسحقوه.

الحرب الثانية من عام ١٨٧٨ إلى عام ١٨٨٠.. انتصر فيها الأفغان أيضاً على الجيش البريطانى.. وسحب البريطانيون قواتهم..

الحرب الثالثة عام ١٩١٩، وانتهت بتوقيع بريطانيا - بعد هزيمتها من الأفغان للمرة الثالثة - معاهدة روالبندى فى ١٩ اغسطس ١٩١٩ التى تعترف باستقلال أفغانستان داخلياً وخارجياً.. فأصبح هذا التاريخ عيدا للاستقلال.. ثم توالت الأحداث بعد ذلك كما جاء فى الفصل الحادى عشر من هذا الكتاب.





المطربة الافغانية «رخشانة» تغنى بأحد استويوهات الإذاعة فى كابول ايام الملك ظاهر شاه

الفصل الرابع والعشرون

• سقوط مزار الشريف

« إن جثثهم ملقاة هناك على الأرض..
لمن يريد أن يحصى العدد..»!

الملا عبدالحنان

□ عندما دخلت أفغانستان.. كانت الحرب قد وصلت ذروتها.. والطائرات الامريكية بدأت تقصف مواقع طالبان بالقنابل الثقيلة.. بمعدل ١٠٠ قنبلة كل ٥ ساعات..!

سبب هذا التصعيد.. أن الولايات المتحدة كانت تريد أن تثأر لهزيمتها في معركة ٢٠ أكتوبر.. التي جرت فيها أول مواجهة على الأرض بين جنودها وجنود طالبان.. أسفرت عن جرح وقتل العشرات من جنود الكوماندوز الأمريكيين، وإسقاط طائرتين أمريكيتين..!

كانت تريد أيضا أن تنتقم لإعدام رجلها عبدالحق.. الذي أرسلته إلى أفغانستان لشق صفوف حركة طالبان.. فإذا بطالبان تقبض عليه مع رفاقه وتعدمهم أمام مسجد في كابول عقب صلاة الجمعة يوم ٢٦ أكتوبر..

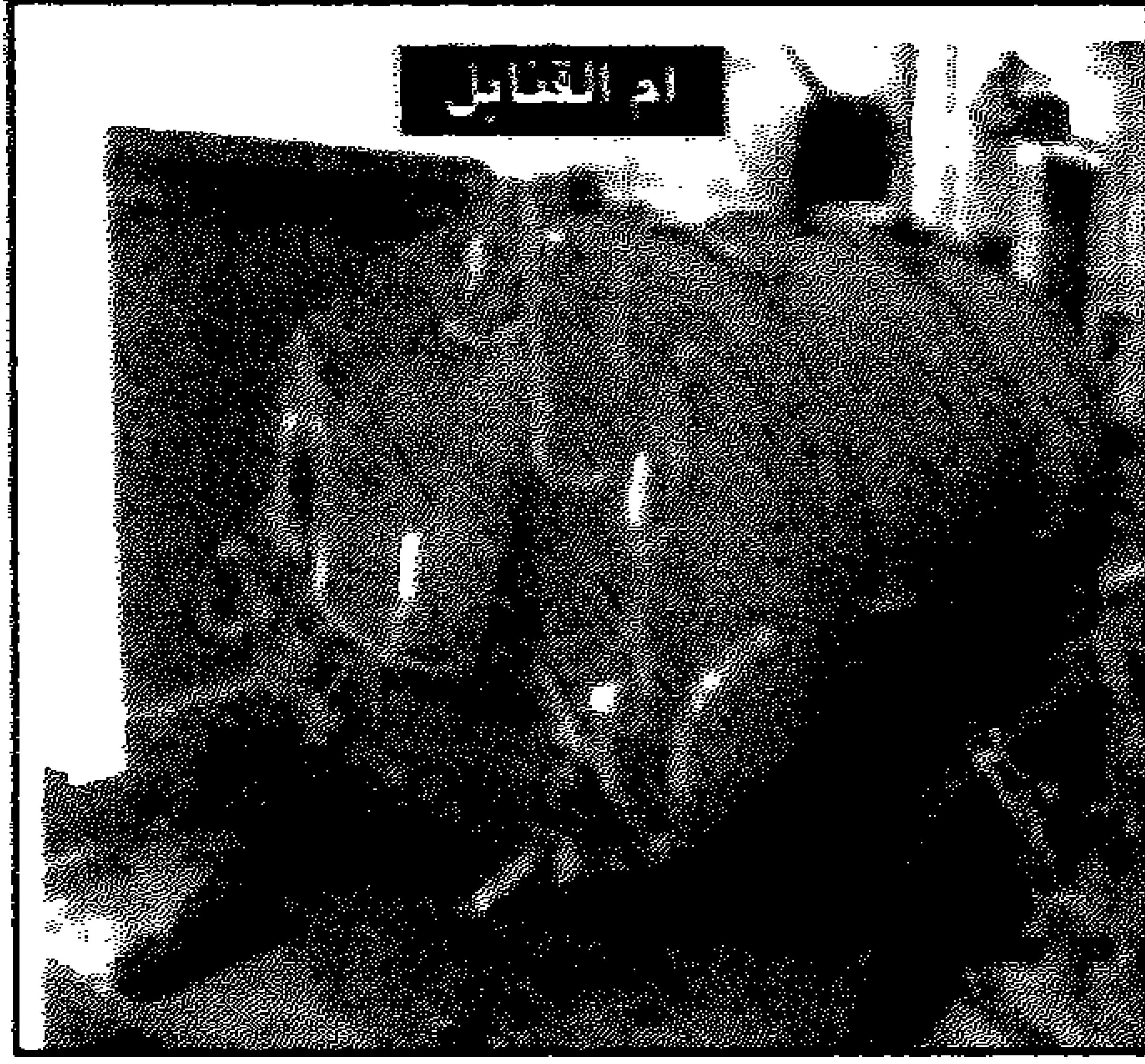
كما كانت تريد أن تؤكد قدرتها العسكرية على حسم المعركة لصالحها.. بعد أن بدأت آمالها في القبض على أسامة بن لادن تتضاءل عندما فاجأها المواطنون الأفغان.. الفقراء المعدمون.. برفض أي مقابل مادي للإرشاد عن مكان بن لادن.. رغم أن الولايات المتحدة رفعت هذا المقابل إلى ٢٥ مليون دولار..!

لذلك .. بدأ العسكريون الأمريكيون مرحلة جديدة في الحرب.. تعتمد على الغارات المكثفة، التي كانت تصل إلى ٨٠ طائرة في الليلة الواحدة على كل مدينة..!

وعلى استخدام القنابل الثقيلة.. منها القنابل الارتجاجية زنة ١٥ ألف رطل - حوالي ٧ أطنان - من طراز «بي إل يو - ٨٢» التي يطلق عليها «أم القنابل» وهي تعد أكبر قنبلة غير نووية في الترسانة الأمريكية ويسمع صوت انفجارها على بعد ٣٠ كيلو مترا .. ويمكنها تحويل كل شئ إلى رماد في دائرة قطرها ٦٠ ياردة.. وقد استخدمت هذه القنابل لقدرتها على تدمير المواقع الحصينة تحت الأرض.. كما استخدمت صواريخ موجهة من طراز «إيه. جي. إم - ١٣٠» الرهيبة لقدرتها على اختراق الكهوف الجبلية بسهولة.. كل ذلك لعل إحدى هذه القنابل أو الصواريخ تصادف الموقع الذي يوجد به أسامة بن لادن.. فتقتله..!

واعتمدت المرحلة الجديدة في الحرب أيضا على تركيز القصف على الخطوط

الأمامية لقوات طالبان فى محاولة لفتح ثغرة بينها تدخل منها قوات التحالف الشمالى للإستيلاء على مدينة «مزار الشريف».



* * *

التصعيد الأمريكى هذه المرة.. كان فوق قدرة طالبان على التصدى له.. فسقطت «مزار الشريف» بعد عدة معارك طاحنة دارت حولها.. تغلبت فيها طالبان أول الأمر، وأنزلت هزيمة قاسية بقوات الجنرال «عبدالرشيد دوستم».. فى معركة دارت ليلة السبت ٣ نوفمبر ٢٠٠١ بمنطقة «أكوبروك» التى تقع جنوب «مزار الشريف».. لكن قوات دوستم، ومعها الفصائل الأخرى من التحالف الشمالى أعادت تجميع نفسها إستعداداً للهجوم ثانية على المدينة.. مما دفع طالبان لإرسال تعزيزات كبيرة من المتطوعين المدربين من الباكستانيين والأفغان العرب والشيشان إلى قواتها المتمركزة فى الخطوط الأمامية من أجل الدفاع عن المدينة، لما تمثله من أهمية استراتيجية فى الحرب.

إلا أن قوات طالبان لم تستطع الصمود طويلاً أمام زحف قوات التحالف الشمالى التى أعادت هجومها على المدينة تحت غطاء مكثف من القاذفات الأمريكية أدى إلى تشتيت جنود طالبان، وفرارهم من مواقعهم تحت شدة القصف الذى استخدمت فيه القنابل العنقودية والقنابل الثقيلة وصواريخ «توماهوك» .. خاصة وأن قوات التحالف الشمالى كانت مسلحة هذه المرة بالأسلحة والمعدات التى أرسلتها إليهم روسيا مقابل ٨٠ مليون دولار دفعتها واشنطن إلى موسكو.. (الأسلحة والمعدات الروسية كانت عبارة عن ٤٠ دبابة من طراز «تى - ٥٥» و١٠٠ عربة مدرعة)..

فى هذه الأثناء كانت طالبان تدرك خطر سقوط مدينة «مزار الشريف» على معنويات مقاتليها فى المواقع الأخرى.. فأخذت تكذب الأخبار التى تتحدث عن تفوق قوات التحالف الشمالى، وقال لنا الملا عبدالحنان فى المؤتمر الصحفى الذى عقده فى «كابول» قبل ساعات قليلة فقط من سقوط المدينة: «إن قوات التحالف الشمالى تدعمها القوات الأمريكية والبريطانية تشن هجوما مشتركا على «مزار الشريف» وتتصدى لهم قوات طالبان».. فسألناه عن عدد الضحايا.. قال: «ثلاثة شهداء من طالبان»..! قلنا له: وكم عدد الذين قتلوا من التحالف الشمالى؟.. قال: «إن جثثهم ملقاة هناك على الأرض لمن يريد أن يحصى العددا».

ثم شن «الملا عبدالحنان» هجوماً عنيفاً على قوات التحالف الشمالى.. فقال إنهم ليسوا من أصول أفغانية.. ولا سيادة لهم ولا استقلال فى الرأى، ولكنهم مجرد أداة مسخرة فى أيدى الآخرين.. الكافرين!

ـ فسألته سؤالاً محدداً: هل قوات طالبان مازالت قادرة على الدفاع عن مدينة «مزار الشريف» ومنع التحالف الشمالى من دخولها؟

ـ قال: نعم.. مازلنا قادرين على الدفاع عن «مزار الشريف» وجميع المدن والأراضى الأفغانية.. بل وأراضى الدول الإسلامية أيضا.. إننا ندعو أمريكا وإسرائيل أن يتركوا المسلمين فى الدول الأخرى ويأتوا إلينا فى أفغانستان لنتحارب.. وسوف ننتصر عليهم إن شاء الله، وندفن جنودهم فى مقابر خاصة.

والواقع أن طالبان كانت تواجه فى تلك الفترة هجوماً جوياً مكثفاً على جميع المناطق .. «كابول» و«قندهار» و«جلال آباد» و«هرات» و«مزار الشريف» وكردين» و«غزنى».. كل هذه المدن كانت تقصف كل ليلة بمئات القنابل.. وهناك قرى دمرت بالكامل.. حتى أن «الملا عبدالحنان» نفسه كان قبل ذلك بيوم واحد يدعونا لزيارة قرية اسمها «شاه أغا» تقع بالقرب من مدينة «قندهار».. لقى فيها ٣٠٠ شخص مصرعهم فى ليلة واحدة تحت القصف ودفنت جثثهم تحت الأنقاض..!

فالقصف فى هذه الفترة اتخذ طابعاً وحشيا .. وشمل المستشفيات والمساجد والمدارس والجسور.. فضلاً عن السيارات التى تنقل المواطنين على الطرق..

هذه الوحشية غير المسبوقة.. وهذا الاتساع فى نطاق القصف.. جعل طالبان تدرك بسهولة أنها مقدمة لهجوم برى وشيك.

لكن مشكلتها أنها لم تكن تعرف من أين سيبدأ الهجوم البرى؟..

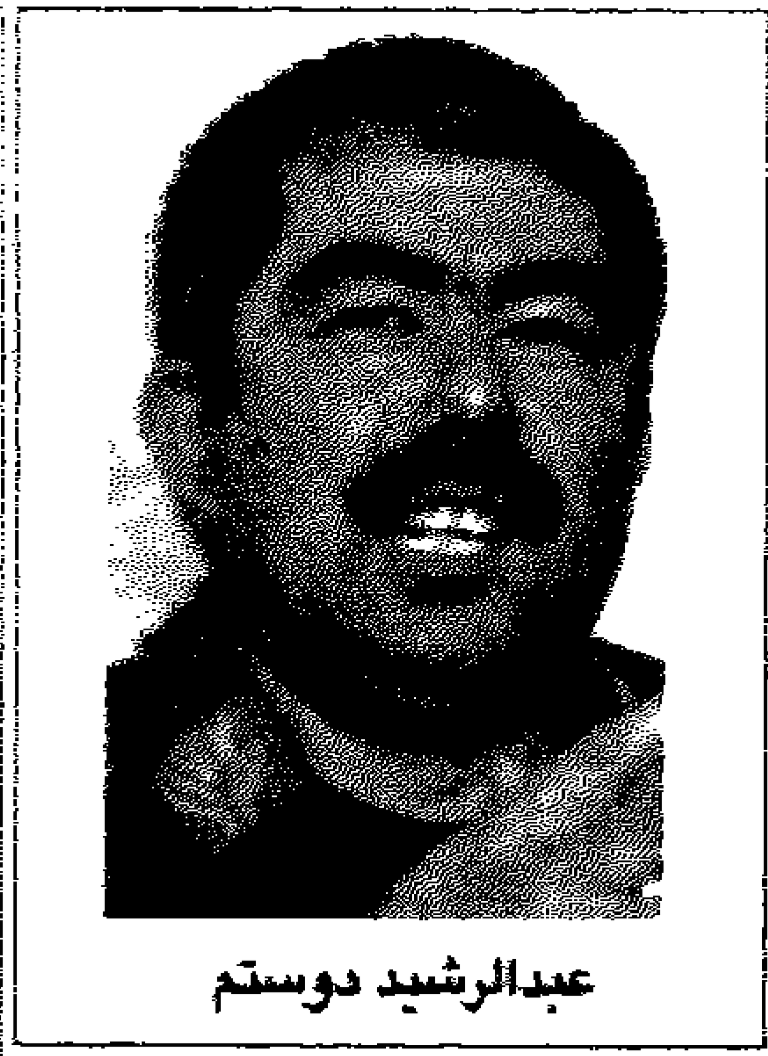
هل سيبدأ من قندهار كما حدث من قبل؟.. أم سيبدأ من جلال آباد القريبة من باكستان التى تقدم المساعدات اللوجيستية للأمريكيين؟.. أم من كابول التى تغير عليها كل ليلة حوالى مائة طائرة، وباعتبارها العاصمة فإن سقوطها يعنى هزيمة طالبان.. فضلاً عن وجود قاعدة «باجرام» الجوية بالقرب منها، وماتمثله هذه القاعدة من أهمية استراتيجية كبيرة للأمريكيين إذا وقعت فى أيديهم؟.. أم سيبدأ من «مزار الشريف» التى تتحكم فى أربعة طرق مهمة.. الأول يصل من طاجيكستان الى كابول.. والثانى من أوزبكستان إلى كابول.. وسقوطها يعنى فتح هذين الطريقين أمام القوات الأمريكية المتمركزة فى هاتين الدولتين للوصول إلى كابول واحتلالها.. أما الطريقين الثالث والرابع فأحدهما يصل «مزار الشريف» بوسط أفغانستان عبر «كابول» أيضا.. والآخر يصل إلى الحدود الأفغانية الباكستانية.. وكل هذه الطرق فى حال سقوط «مزار الشريف» ستتدفق منها القوات البرية المعادية لطالبان إلى بقية أجزاء الدولة تحت الحماية الجوية.. وهذا بالضبط ماحدث بعد ذلك..

كل هذه الاحتمالات كانت شبه متساوية أمام متخذ القرار فى طالبان.. وبالتالى لم يرغب فى تكثيف قواته على جبهة واحدة خشية أن يأتيه الهجوم من جبهة أخرى..

كانت الصورة أمامه ضبابية جداً.. لايعرف أى الطرق يسلك.. وقاتمة جداً.. بسبب ما يتعرض له الشعب الأفغانى كل يوم من دمار وقتل وتشريد.. وعجزه عن إيقاف هذه الحرب.. !

كان هناك أيضا هدف آخر يضعه فى حساباته .. وهو المحافظة بقدر مايستطيع على قدراته العسكرية ليواصل بها الحرب ضد الأمريكيين من الجبال فى حال تغلبهم عليه واحتلالهم المدن..

فى ظل هذه الظروف سقطت مدينة «مزار الشريف» فى أيدى قوات التحالف الشمالى التى دخلتها بقيادة «الجنرال عبدالرشيد دوستم» يوم الجمعة ٩ نوفمبر ٢٠٠١، ولم تلق من قوات طالبان مقاومة تذكر..!


عبدالرشيد دوستم

«عبدالرشيد دوستم» ظهر بعد دخوله المدينة مباشرة على شاشة قناة التليفزيون الروسية «إن . تى. فى».. وقال إنه خاض معركة على أبواب المدينة ضد قوات طالبان استمرت ساعة ونصف قتل فيها ٩٠ جنديا من طالبان وأسر ٢٥٠، بينما لم يقتل من قواته سوى ٨ جنود فقط.. لكن طالبان نفت ذلك تماماً على لسان «الملا عبدالحنان همت» الذى دعانا صباح اليوم التالى - السبت ١٠ نوفمبر - إلى مؤتمر صحفى قال فيه الآتى:

«لقد قامت القوات الأمريكية وحلفاؤها طوال الاسبوع الماضى بقصف جو - أرض مكثف ومتواصل على قوات طالبان فى المناطق الشمالية .. مما ساعد قوات التحالف الشمالى على التقدم نحو مدينة «مزار الشريف».. وعندما اقتربت منها رأت وزارة الدفاع الأفغانية أن تتقهقر قوات طالبان قليلاً الى الوراء لتجنب حدوث مذبحة للمدنيين فى «مزار الشريف» فى حال وقوع مواجهة عسكرية بين الجانبين على أرض مدينتهم.. لذلك قمنا بالانسحاب من مدينة «مزار الشريف».. ولم يؤثر هذا الانسحاب بشئ على معنويات قواتنا.. لأنه لم تقع بينها أية خسائر فى الأرواح أو المعدات.. وإنما انسحبت فى أمن وسلام واستقرت عند الحدود الجنوبية لولاية «بلخ» - وهى الولاية التى عاصمتها «مزار الشريف» - وقد اتصلت برئيس تشكيلات قواتنا فى منطقة الشمال «الملا نور الله نورى» .. فأخبرنى أن القوات خرجت من مدينة «مزار الشريف» بسلام، وأن هذا لم يكن إنسحاباً وإنما تحرك تكتيكى..».

- سألناه: هل صحيح ماذكره «الجنرال عبدالرشيد دوستم» عن قتل ٩٠ جنديا من طالبان وأسر ٢٥٠؟

- قال: الخسائر تقع فى صفوف القوات عندما تجبر على الخروج بالقوة.. ونحن قررنا الإنسحاب بمحض إرادتنا فلم تقع فى صفوفنا أية خسائر .. لكن دوستم الذى كثيرا ماتجرع مرارة الهزيمة من قواتنا كئووسا كئووساً.. يريد الآن أن يصور الأمر أمام العالم، وكأنه بطل خاض معركة ضد قوات طالبان، وانتصر عليها .. ففرت من أمامه بعد أن قتل وأسر بعض أفرادها.. وهذا غير صحيح.. فلم تحدث معركة فى المدينة، ولم يقتل أو يقع فى الأسر أحد من جنودنا..

- سألناه: هل ستحاول طالبان استعادة «مزار الشريف»؟
- قال: هذا يتعلق بوزارة الدفاع الأفغانية..
- سألناه: هل تتوقع الهجوم على «كابول» قريبا؟..
- قال: هذا يتعلق بخطط العدو.. ولكن فيما يتعلق بنا، فقواتنا فى الخطوط الأمامية مستعدة لصد أى هجوم..

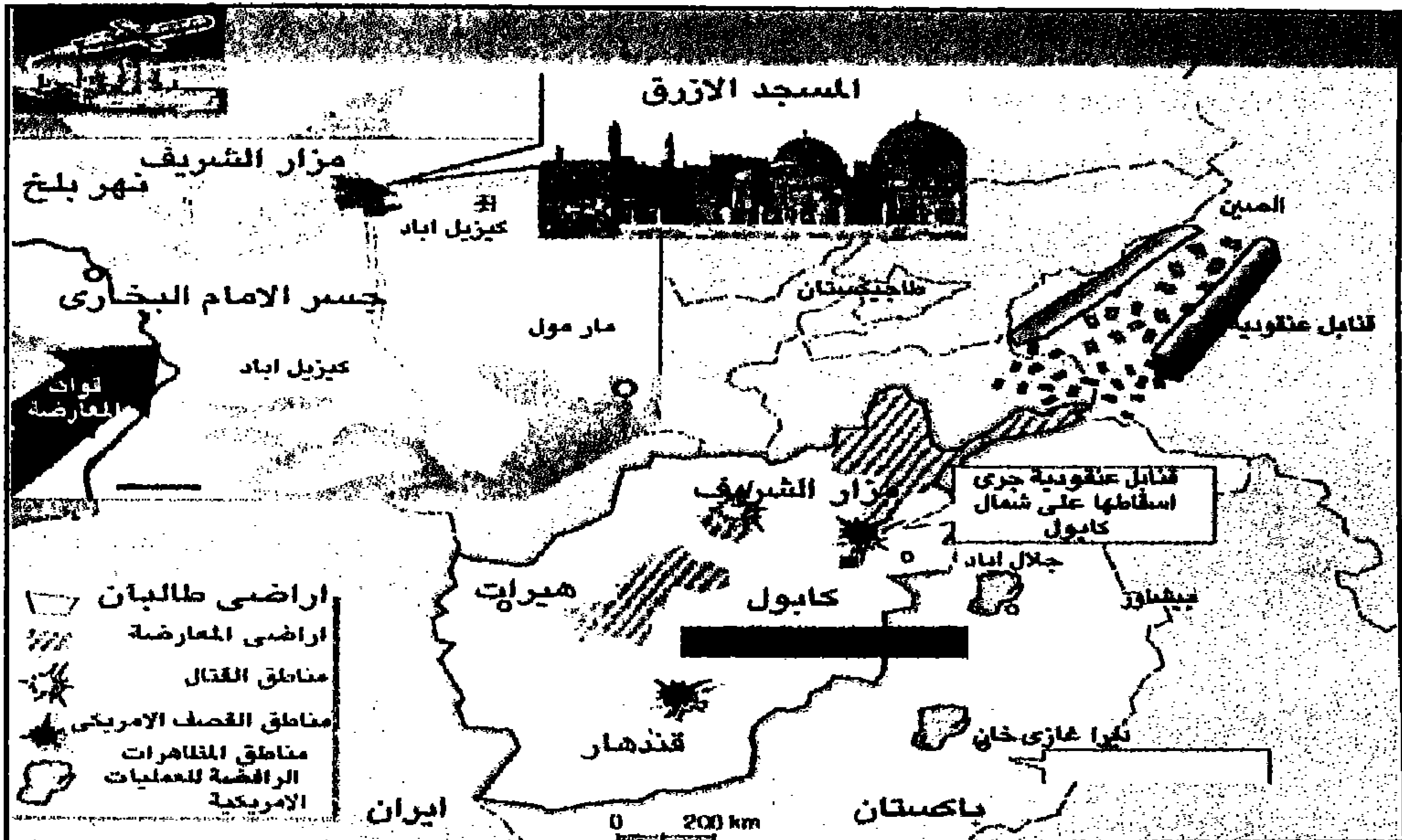
ثم أضاف: «أريد أن أقول للمجتمع الدولى من خلال الصحافة إن هذه الحرب ظالمة.. وإنها ضد الإسلام وليست ضد الإرهاب.. بوش بنفسه هو الذى قال إنها حرب صليبية.. نريد أن يعلم المجتمع الدولى أن القصف الأمريكى يستهدف المدنيين الأفغان الإبرياء .. بينما مراكز تنظيم القاعدة وقوات طالبان لم ينلها أى أذى .. لذا يجب على المجتمع الدولى أن يتحرك بسرعة لإيقاف هذه الحرب..!».

* * *

ورغم تقليل قادة طالبان فى البداية من أهمية سقوط مدينة «مزار الشريف» فى أيدى قوات التحالف الشمالى.. إلا أن سقوط المدينة كان نقطة تحول هائلة غيرت مسار الحرب تماما.. لهذه الأسباب:

١- إن سقوطها أدى إلى عزل مواقع طالبان على طول الجبهة الشمالية، وأصبح من الصعب إمدادها بما تحتاجه من ذخيرة وقوات.. فاضطر أغلبها إلى الاستسلام..

٢- فى نفس الوقت سهل عملية إمداد قوات التحالف الشمالى بالأسلحة والمعدات عبر أوزبكستان التى تبعد عن «مزار الشريف» ٧٠ كيلو متراً فقط.. وبذلك تحول ميزان القوة بين الجانبين بسرعة لصالح التحالف الشمالى الذى أخذ يتقدم على



الأرض تحت مظلة من القاذفات الأمريكية.

٣- كان لسقوطها أثر معنوى كبير على الجانبين.. حيث رفع الروح المعنوية عالياً فى صفوف التحالف الشمالى بعد خمس سنوات من الهزائم المتكررة لهم على أيدى طالبان، وفتح أمامهم باب الأمل فى الوصول إلى السلطة فى أفغانستان.. بينما أصاب الكثير من قوات طالبان باليأس ودفعهم للاستسلام!

* * *

والأهمية الاستراتيجية لمدينة «مزار الشريف» لا تقتصر فقط على كونها تتحكم فى أربعة طرق رئيسية وبها مطار كبير.. لكن أيضا لكونها تقع فى منطقة سهلية ممتدة فى وسط آسيا، وليس وسط مرتفعات كغيرها من المدن الأفغانية مما يجعلها دائماً قليلة التأثر بفصل الشتاء الذى يتساقط فيه الثلج بكثافة كبيرة على الجبال والمرتفعات فى معظم انحاء أفغانستان.

لهذا السبب استخدمها السوفييت فى غزو أفغانستان فى شهر ديسمبر عام ١٩٧٩، وأقاموا بها مركزاً رئيسياً للإمداد والتموين لقواتهم.. وقاموا بتأمينها بقوة وحمايتها طوال فترة احتلالهم لأفغانستان حتى خرجوا منها عام ١٩٨٩.. لذلك كانت «مزار الشريف» هى أفضل المدن الأفغانية حظاً طوال فترة الحرب بين الأفغان والسوفييت.

لكنها بعد ذلك شهدت معارك ضارية منذ جاءت طالبان إلى السلطة عام ١٩٩٦، وبدأت الصراع مع التحالف الشمالى.. حيث تبادل الطرفان السيطرة على المدينة أربع مرات حتى استولت طالبان عليها نهائيا عام ١٩٩٨، وطردت قوات التحالف الشمالى إلى ولاية «باداخشان» الشمالية الشرقية، فاتخذوا من عاصمتها «فايزأباد» عاصمة لهم.. لكنهم ظلوا يتطلعون إلى استعادة سيطرتهم على «مزار الشريف».

تحظى «مزار الشريف» أيضا بأهمية دينية كبيرة لدى الشيعة.. لأنها أقيمت فى الأصل حول مسجد «الإمام على» رضى الله عنه - رابع الخلفاء الراشدين - الذى يرجع إنشاؤه إلى عام ١٤٨١ ميلادية حول ضريح فى هذا المكان.. وذلك عندما رأى أحد المتصوفين فى المنام أن «الإمام على» مدفون به.. منذ ذلك التاريخ أصبح هذا المسجد مركزاً شيعياً ينافس مدينة «نجف» بالعراق التى يوجد بها قبر «الإمام على» والذى اغتيل داخل مسجد بمدينة الكوفة عام ٦٦١ ميلادية.. حيث يحج كل عام إلى «مزار الشريف» مئات الآلاف من الشيعة ويعتبرونها من الأماكن المقدسة.

وقد حاولت بعض وسائل الإعلام الغربية استغلال هذه المشاعر الدينية لدى الشيعة فى إثارتهم ضد طالبان.. وذلك بنشر شائعات فى صيف عام ٢٠٠١ تتحدث عن رغبة زعماء طالبان فى هدم مسجد ما يسمونه بـ «مسجد الملحدين» فى «مزار الشريف» وذلك بعد هدمهم تماثيل «بوذا» فى باميان..! إلا أن هذه الشائعات لم تلق رواجا فى ذلك الوقت فى أفغانستان.. ربما لعدم وجود وسائل إعلام بها.

الفصل الخامس والعشرون

• موعد مع الوزير..

« عندنا أسلحة كثيرة أقوى من تلك التى تملكها امريكا وبريطانيا.. أهم هذه الأسلحة هو حبنا للشهادة..!»

الملا قدرة الله جمال

وزير الإعلام والثقافة
فى حكومة طالبان

□ يوم السبت ١٠ نوفمبر ٢٠٠١ ..
انتهى المؤتمر الصحفى للمُلا عبدالحنان همت حوالى الساعة العاشرة والنصف صباحاً..

ما كدت أجمع أوراقى، وأنهض من مقعدى حتى وجدت شابا أفغانياً كنت ألمحه فى القاعة منذ بداية المؤتمر.. يتقدم نحوى ويهمس فى أذنى: «نحن نريدك»..

نظرت إليه.. وسألته: «من حضرتك؟»..

قال: «اتبعنى»..!

ثم مضى.. وأنا أهرول خلفه إلى سيارة كانت تنتظرنا خارج الفندق..

فتح لى باب السيارة وقال: «تفضل».. ثم جلس بجانبى فأمسك بعجلة القيادة وانطلق بنا..

جلست بجواره صامتاً.. وقد آثرت أن أترك له بداية الحديث.. لعل البداية التى يختارها تساعدنى على استكشاف ما سيأتى بعد ذلك..!

فى هذه اللحظة تذكرت ما قاله لى «الملا نجيب الله» قنصل طالبان فى «بيشاور» ، وأنا أودعه فى طريقى إلى أفغانستان: «لقد رتبت لك هناك كل شىء.. ستجد دائماً شخصاً بجانبك يعرفك ويساعدك».. «هناك سيستقبلك -إن شاء الله- أحد الزعماء الكبار فى طالبان.. لا تسأل عنه.. فهو الذى سيطلبك ويرسل لك أحد الأشخاص لاصطحابك إليه.. وبعد ذلك سوف يستأذن ويخبرك.. فلا تتحدث فى هذا الأمر لأحد.. ولا تفصح عنه لغيرك من الصحفيين حتى لا تفسد ما رتبناه لك..».

قلت لنفسى.. لعل الذى يصطحبنى الآن فى سيارته هو هذا الشخص المقصود..

* * *

لم تطل فترة الصمت بيننا.. قطعها الذى يصطحبنى فى سيارته بقوله: أنا أعرفك.. فهل تعرفنى..؟ .. كان يتحدث العربية بطلاقة..

ـ قلت له: لقد سألتك قبل أن أركب معك السيارة.. ولم تجبنى..!

ـ ضحك قائلاً: وكيف تركب سيارة شخص لا تعرفه..؟

ـ قلت له: لا مجال للخوف.. لأننى هنا فى ضيافة طالبان..!

أعجبته إجابتى.. فنظر لى باطمئنان وثقة.. وقال: أعرّفك بنفسى.. أنا «محمد نعيم صافى» مسئول التخطيط والعلاقات الخارجية بوزارة الإعلام..

مددت يدى أصافحه باهتمام شديد.. وظللت ممسكاً على يده كأننى أقطع معه عهداً.. وقلت له: ما دمت تعرفنى قبل أن أعرفك بنفسى.. إذن فأنت تعرف الهدف الذى من أجله أتيت إلى هنا.. أريد مقابلة الملا محمد عمر والزعماء الكبار فى طالبان.. وأريد مساعدتك فى الوصول إليهم..

ـ قال: ستقابل اليوم -إن شاء الله- واحداً من الزعماء الكبار.. هو «الملا قدرة الله جمال» وزير الإعلام والثقافة فى حكومة طالبان.. ويمكنك أن تطلب منه مقابلة الملا محمد عمر..

* * *

بعد قليل وصلنا وزارة الإعلام والثقافة.. مبنى متواضع جداً.. طرقات واسعة وغرف واسعة، لكن الأثاث قديم ومتهالك.. فتح «محمد نعيم» لى إحدى الغرف وقال: «انتظر هنا»..

داخل الغرفة وجدت رجلين من طالبان يجلسان على الأرض فى أحد الأركان وبجوارهما مدفأة، ومنضدة صغيرة عليها عدة تليفونات حديثة مختلفة الأشكال والأحجام.. ليس بالغرفة أى أثاث، لكنها مفروشة بموكيت أخضر.. وفى ركن آخر بها يوجد شخص نائم وفرش وبطاطين وأطباق وبقايا طعام..

خلعت حذائى عند باب الغرفة وتقدمت نحو الرجلين.. صافحتهما وجلست معهما أمام المدفأة، فقد كان الجو شديد البرودة.. دون أن أسألهما عن شىء فهمت مما يدور فى الغرفة أن وظيفتهما تلقى أنباء الحرب من مختلف المواقع.. المناطق التى قصفت.. عدد الضحايا.. حجم الخسائر.. إلخ، ثم إبلاغها إلى وزير الإعلام والملا عبدالحنان..

لم تكن بيننا أية لغة مشتركة نتحدث بها سوى العبارات الدينية المعروفة كذكر الله والصلاة على النبى.. لذلك لم أستطع أن أعرف منهما أية أخبار جديدة عن الموقف، واكتفيت بالجلوس معهما أمام المدفأة..!

بعد قليل عاد «محمد نعيم صافى» وقال لى: الوزير سيستقبلك -إن شاء الله- فى منزله الساعة الواحدة بعد صلاة الظهر.. أى بعد حوالى ساعة ونصف الساعة من الآن.. هل لديك ما تريد أن تفعله خلال هذا الوقت؟.. قلت له: سأتجول بالمدينة.. قال: إذن لابد أن أكون معك.. هيا بنا..

* * *



المؤلف مع اثنين من رجال طالبان فى غرفة تلقى أنباء الحرب بوزارة الإعلام

لم أر فى الشارع أى أثر على وجوه الناس لسقوط مدينة «مزار الشريف» فى أيدى قوات التحالف الشمالى..

كان الإحساس الغالب فى كابول ذلك اليوم أن قوات طالبان مازالت متماسكة، ومسيطرة على الوضع فى كافة المواقع.. وأن سقوط المدينة ما هو إلا وضع مؤقت يحدث فى أى حرب.. سرعان ما سيتغير وتعود المدينة إلى طالبان..!

كانت الثقة فى «جيش طالبان» مازالت كبيرة..

وكان «محمد نعيم صافى» لايشك فى قدرة هذا الجيش على استعادة «مزار الشريف» قريباً، وتلقين قوات «دوستم» درساً آخر كالذى لقنه لهم قبل ذلك بأسبوع واحد.. هكذا قال لى..

فتحت «كاميرتى»، وبدأت فى التقاط عدة صور للبيوت التى دمرها القصف الأمريكى فى «كابول».. قال «محمد نعيم» وهو يبطىء من سرعة السيارة لكى أتمكن من التقاط الصور: «لقد حاربنا كلا من الروس والأمريكيين.. الروس حاربناهم عشر سنوات كاملة لم يقصفوا خلالها مستشفى ولا مسجداً ولم يطلقوا النار على مدنى واحد.. كانوا يأتون لحربنا وجهاً لوجه ويحرصون على التقاليد العسكرية فى الحرب.. أما الأمريكيون فلا يقصفون إلا المناطق المدنية.. هل سمعت فى تاريخ الحروب كلها عن دولة قصفت مخازن الصليب الأحمر ٣ مرات.. إنها أمريكا..!».

ثم واصل: «سنذهب الآن إلى ميدان (إريانا) لتصور أيضاً حطام الطائرات الأمريكية التى أسقطناها، وتنشر هذه الصور مع صور البيوت المدمرة ليعرف العالم أن من يعتدى على أفغانستان لابد أن يلقى حتفه فيها».



جانب من البيوت المدمرة في كابول

ـ سألته بدهشة: هل مازال حطام الطائرات موجوداً إلى الآن؟

ـ قال: ستراه بعينيك.. لقد أحضرناه إلى «كابول» لكي يراه مراسلو الإعلام بعد أن كذبتنا أمريكا وادعت أننا لم نسقط أيا من طائراتها..!

لم اكتف بالتقاط الصور لحطام الطائرات.. وإنما نزلت من السيارة وتفحصت الحطام بنفسى لكى أتأكد أنه حطام طائرة أمريكية سقطت حديثاً أثناء هذه الحرب.. ثم طلبت من «محمد نعيم» أن يلتقط لى عدة صور.

كان معظم الحطام عبارة عن أجزاء من كابينة قيادة الطائرة.. وكان معلقاً فى أحد أعمدة المرور بالميدان..

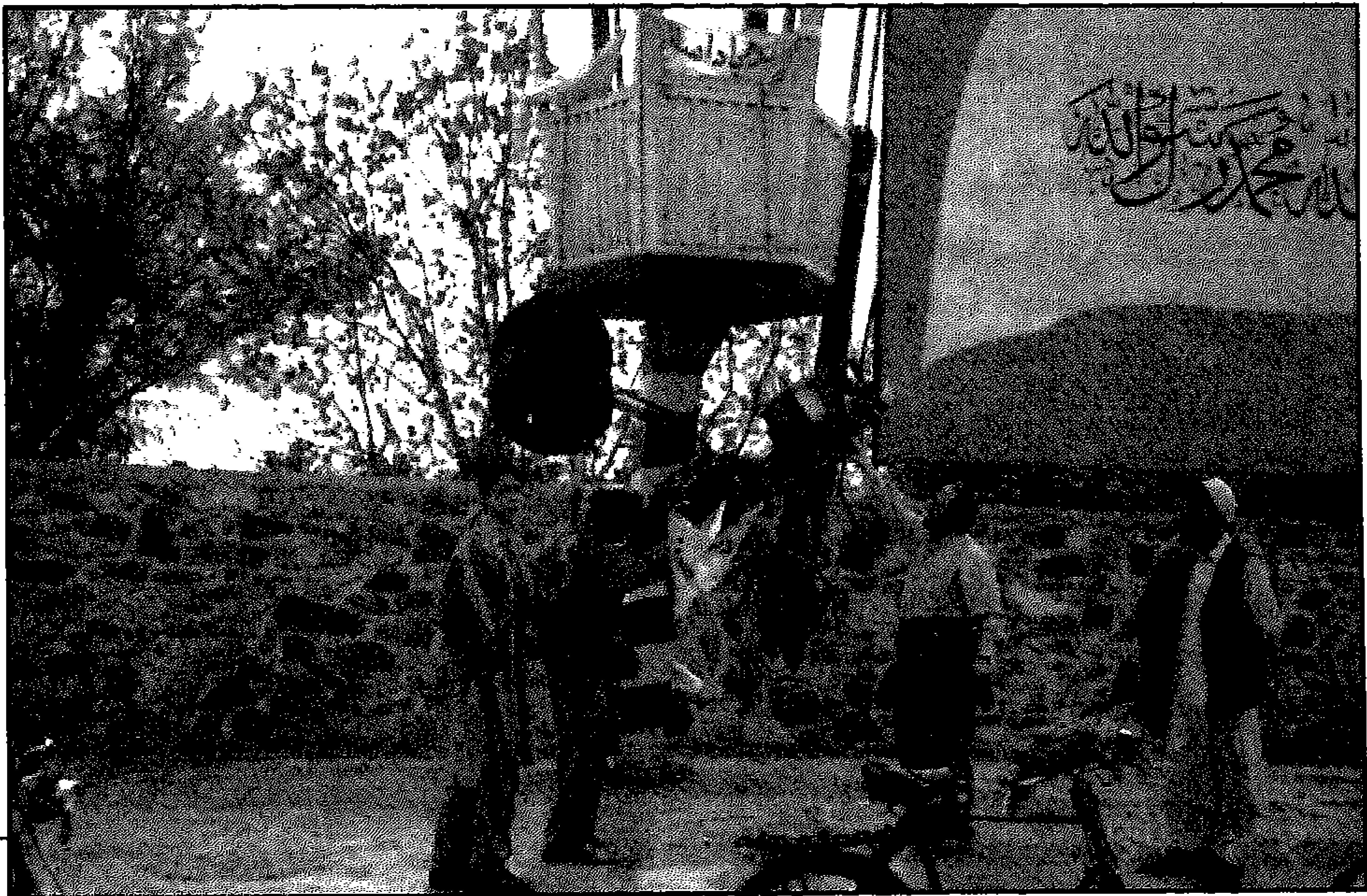
قال «محمد نعيم»: «فى نفس هذا العمود علقنا من قبل جثة نجيب الله وشقيقه ثلاثة أيام» ـ يقصد د. نجيب الله الذى تولى رئاسة أفغانستان فى ٣٠ سبتمبر ١٩٨٧ وأعدمته طالبان وشقيقه شنقاً فى ٢٦ سبتمبر ١٩٩٦ عندما استولت على العاصمة «كابول».

بعد التقاط الصور واصلنا جولتنا فى المدينة.. اصطحبنى «محمد نعيم» إلى الحى الدبلوماسى، وأخذ يشير إلى كل سفارة باسمها.. الحى مهجور.. وكل السفارات مغلقة..!

توقفنا أمام باب السفارة المصرية.. ونزلت من السيارة أنظر إليها بحب شديد.. كأنها قطعة من أرض مصر.. وسعدت أنها فى موقع متميز بين السفارات.. فهى على مسافة قريبة جداً من مقر وزارة الخارجية ، وتقع معها فى نفس الشارع المؤدى إلى ميدان «الأصغر»..



بقايا من حطام احدى الطائرات الأمريكية التى أسقطتها طالبان.. معلق بعمود المرور بوسط كابول.. فى أقوى تكذيب للأمريكيين..!



لمست بيدى حطام الطائرة الأمريكية



على باب السفارة المصرية فى كابول

ظل «محمد نعيم» يتجول بنا فى «كابول» حتى اقترب موعدنا مع وزير الإعلام والثقافة «الملا قدرة الله جمال» فانطلقنا بالسيارة إلى منزله..

المنزل بسيط ومتواضع جداً.. يقع قبالة السفارة الأمريكية.. صعدنا الدرج إلى الطابق الأول حيث استقبلنا أحد الأشخاص، ودعانا للانتظار فى احدى الغرف حتى يفرغ الوزير من أداء صلاة الظهر..

لم يكن بالغرفة من أثاث سوى مكتبة قديمة على أرففها بعض الكتب والمجلات.. ومرتبة صغيرة على الأرض فى جانب من الغرفة جلسنا فوقها.. ثم بدأت التحدث همساً مع «محمد نعيم»:

- أفى هذا البيت المتواضع تعيش أسرة الوزير؟

- قال: الوزير أرسل أسرته إلى خارج «كابول» قبل بداية الحرب.. ويعيش هنا مع بعض معاونيه..

- هل يستطيع أن يرتب لى موعداً لمقابلة «الملا محمد عمر»..؟

- إن شاء الله يستطيع.. إنه وزير الإعلام فى طالبان..

ضبطت جهاز التسجيل.. ووضعت فيلماً جديداً فى «الكاميرا».. وأخذت أدرب «محمد نعيم» على التقاط الصور لنا أثناء الحوار.. ثم خرجت إلى الشرفة فوقعت عينى على القمر الصناعى وقد دمره القصف بالصواريخ.. ليست الصواريخ

الأمريكية هذه المرة، ولكنها صواريخ الفصائل الأفغانية المتناحرة.. كانت الصورة تلخص أشياء كثيرة لما وصلت إليه الحال فى أفغانستان.. دون حاجة إلى تعليق..!

فرغ الوزير من الصلاة.. وانتقلنا لمقابلته فى الغرفة المجاورة.. شاب فى الثلاثينيات من عمره.. يتحدث اللغة العربية كما تعلمها فى المدارس الإسلامية ببيشاور.. رحب بى ودعانى إلى الجلوس بجانبه..

امتد الحوار إلى ما يقرب من ثلاث ساعات.. تناولنا خلالها الشاى مرتين.. وتحدثنا بصراحة تامة فى كل شيء.. كنا نتحدث من القلب، فنشأ بيننا نوع من الألفة والصداقة.. دفعت الوزير -قبل أن أغادر منزله- إلى أن يجرى الاتصالات.. ويستأذن.. ويحدد لى موعداً مع الملا محمد عمر..

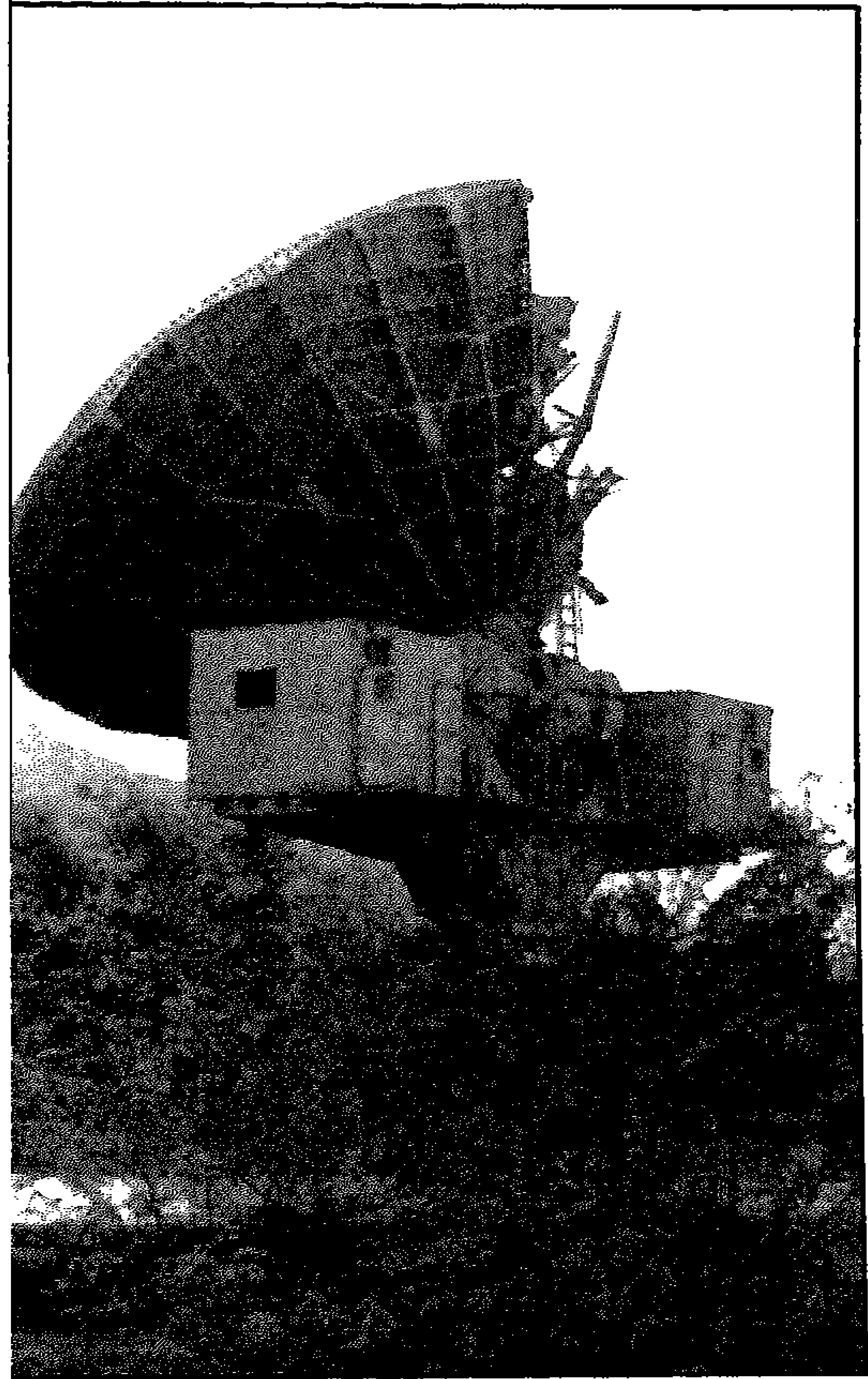
وهذا هو نص الحوار الذى دار بيننا.. أنقله كما هو.. بنفس التعبيرات اللغوية التى استخدمها -دون تدخل منى- لما فيها من صدق وبلاغة.. قد يفسدها التدخل لإعادة صياغة الحوار:

ـ قلت له: كما تعرف يا مولانا أن أى حرب يكون فيها دائماً شق إعلامى هام جداً.. ووسائل الإعلام تخوض الحروب.. بالضبط.. مثل الجيوش التى تحارب فى ميادين القتال.. وأنا أرى أن وسائل الإعلام الغربية تشن الآن حرباً ضروساً على جماعة طالبان.. لا تقل بشاعة ولا ظلماً عن القصف الذى تقوم به على بلادكم القوات الأمريكية والقوات المتحالفة معها.. هل تتفق معى فى ذلك..؟

● قال: نعم.. أتفق معك فيما قلته.. لكن كما ترى إعلامنا ضعيف..

ـ قلت له: دعنى يا مولانا أحدثكم بصراحة فأقول أنكم الذين أعطيتم وسائل الإعلام الغربية فرصة الهجوم عليكم بهذا الشكل.. ذلك أنه قبل حادث ١١ سبتمبر وقع هنا فى أفغانستان حادثان مهمان.. قامت وسائل الإعلام الغربية باستغلالهما لتشويه صورة الإسلام وطالبان أمام المجتمع الدولى..

الحادث الأول: هو قيامكم بتحطيم تمثالى «بوذا».. فاستغلت وسائل الإعلام الغربية هذا الحادث وشنت


القمر الصناعى فى كابول وقد تم تدميره بالصواريخ



أثناء الحوار مع الملا قدرة الله جمال وزير الإعلام والثقافة فى حكومة طالبان

عليكم حملة عنيفة.. أقامت الدنيا وأقعدتها.. وجعلتكم فى نظر الرأى العام العالمى.. أعداء للحضارة..

الحادث الثانى: هو قيامكم بالقبض على بعض العاملات فى الوكالات الدولية هنا، بدعوى محاولتهن نشر الديانة المسيحية فى أفغانستان.. فاستغلت وسائل الإعلام الغربية أيضاً هذا الحادث وهاجمتكم..

ثم جاء بعد ذلك بوقت قصير حادث ١١ سبتمبر.. وبدأت الولايات المتحدة تخطط للعدوان على بلادكم.. فوجدت الرأى العام العالمى متعاطف معها، لأنه كان معبئاً قبل ذلك ضدكم بسبب الحادثين السابقين..

أى أنكم.. بأنفسكم.. أعطيتم الفرصة لوسائل الإعلام الغربية كى تقوم بتهيئة الأجواء الدولية لشن هذه الحرب ضدكم.. أليس كذلك..؟

● قال: فى وقت هدم الأصنام -يقصد تمثالى بوذا-.. العلماء هم الذين أفتوا بضرورة هدمها.. لأن الأصل فى الإسلام هو هدم الأصنام، ولابد للمسلمين أن يعملوا عليه.. ونحن عملنا على الأصل.. والأصل فى الأصنام هو الهدم.. فسيدنا إبراهيم أبوالأنبياء عليه الصلاة والسلام هدم الأصنام فى زمانه.. ونبينا محمد صلى الله

عليه وسلم عندما هاجر من مكة إلى المدينة المنورة.. أمر بهدم الأصنام.. كما هدم بعد ذلك الأصنام التى كانت موجودة فى مكة المكرمة منذ زمن الجاهلية.. ونحن هنا لم نفعل غير ما فعله سيدنا إبراهيم وسيدنا محمد..!

لكن المشكلة أن وسائل الإعلام الأمريكية والأوربية تريد دائماً أن يكون المسلمون مثل اليهود والعياذ بالله.. يعتزون بالأصنام والتصاوير.. لذلك يهاجمون الإسلام..

أما المسألة الثانية.. فنحن وجدنا العاملات فى الوكالات الدولية يردن أخذ المسلمين إلى أديان أخرى.. وحُكم أمير المؤمنين -يقصد الملا محمد عمر- لو وجدتم أحداً يريد نقل المسلمين إلى أديان غير الإسلام فلابد أن يحبس ونمسكه..

ـ قلت له: يا مولانا.. البعض يقول كما سمعت من وزير الخارجية الباكستانى عبدالستار.. إنهم أرسلوا إليكم وفداً، وأخبروكم أن فى باكستان تماثيل عمرها أكثر من ألفى عام.. وفى مصر تماثيل عمرها أكثر من خمسة آلاف عام.. أى قبل مجيىء سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام..

● قاطعنى قائلاً:

نحن لسنا ولاية فى باكستان لكى نلتزم برأيهم ونطبق نصائحهم.. نحن دولة مستقلة.. وكلام وزير الخارجية عبدالستار لسنا ملزمين بالعمل به..

أنا أقول أن فى أفغانستان شريعة.. لكن ليس فى باكستان شريعة.. والدليل على ذلك أنهم يقولون إن الصنم لايخالف الإسلام.. وأنه أحسن.. لأنه يجعل السياح يأتون لزيارته.. وهذا ليس من الإسلام.. لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال: زوروا ثلاثة.. المسجد الحرام والمسجد النبوى والمسجد الأقصى.. لم يقل النبى لنا زوروا أصناما فى باكستان أو فى أفغانستان أو فى غيرهما من الدول..

نحن نأخذ بكلام الرسول.. ونعتبر أن الزيارة يجب أن تكون لثلاثة أماكن هى مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس الشريف..

المسلمون الذين يعرفون أساس الإسلام لا يقولون مثل كلام عبدالستار..

نحن نقول: نحن فى أفغانستان نعمل بالقرآن والسُنَّة لأننا مسلمون.. والمسلمون يجب أن يعملوا دائماً بما جاء فى الكتاب والسُنَّة.. لأن النبى صلى الله عليه وسلم ليس موجوداً بيننا الآن.. وإنما رحل عنا، وقال قبل أن يرحل: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبداً.. كتاب الله وسُنَّتى».. ونحن تمسكنا بكل ما جاء فى الكتاب والسُنَّة..

ـ قلت له: يا مولانا.. هذا الحدث جاء فى وقت كانت طالبان تحاول فيه أن تمد الجسور مع المجتمع الدولى.. أنت تعلم أن فى ذلك الوقت لم يكن هناك سوى ثلاث دول فقط تقيم علاقات دبلوماسية مع طالبان.. هى باكستان والسعودية والإمارات العربية.. وكنتم..

● قال مقاطعاً:

ليس هكذا.. نحن نقول عندما هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى

المدينة.. لم يكن معه دول غير المدينة المنورة.. وفى ذلك الوقت فرض على الرسول صلى الله عليه وسلم الجهاد، فجاهد هو ومن معه من الصحابة.. لم يقل ليس معى اليمن أو سوريا أو أمريكا..!

نحن نمشى على طريقة الرسول صلى الله عليه وسلم فى تطبيق الشريعة.. لا نقول إن معنا ثلاث دول فقط هى باكستان والسعودية والإمارات فكيف إذن نطبق الشريعة..؟ .. وإنما نحن نطبقها.. لأنه لم يرد فى الكتاب الكريم.. ولا فى السُنَّة.. ولا فى أى كتاب من كتب الدين الإسلامى ما يقول: انتظروا حتى يعترف العالم بكم، ثم بعد ذلك إبدأوا فى تطبيق الشريعة..!!.. أو ما يقول: لا تطبقوا الشريعة حتى ترضى دول العالم عنكم وتعترف بكم..

تطبيق الشريعة لازم على المسلم فى أى مكان وأى زمان.. وليس فقط زمان الرسول عليه الصلاة والسلام والخلفاء الراشدين، وبعد ذلك ليس لازماً على المسلمين تطبيق الشريعة!

الإسلام جاء لكل زمان ومكان..

ولما فرض الجهاد على المسلمين.. ونزل حكم بهدم الأصنام.. لازم على المسلم أن يعمل ذلك فى أى زمان وأى مكان..

- قلت له: لكن البعض يرى أنكم لو أرجأتم هدم الأصنام بعض الوقت.. لكان يمكن أن تعترف الأمم المتحدة بحكومتكم، وأن تسمح لكم بإقامة علاقات دبلوماسية مع المجتمع الدولى.. وإقامة علاقات تجارية واقتصادية تعود على بلادكم بالنفع.. وفتح قنوات اتصال..

● قاطعنى أيضاً.. وقال:

نحن نعمل بما جاء فى كتاب الله تعالى.. وإذا كان ذلك لا يرضى الآخرين.. فالله تعالى يقول فى كتابه عنهم: بسم الله الرحمن الرحيم «ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم» صدق الله العظيم..

أنا أقول أن أمريكا لم تزعل منا لأننا هدمنا الأصنام.. لكن أمريكا تريد أن تهدم الإسلام كله..

البعض يقول لماذا لا تعطون الإجازة للنساء للتعلم فى المدارس.. البعض يقول لماذا عندكم الأفيون والمخدرات[٨٥].. مرة يقولون ليس معكم الناس جميعاً -يقصد الاعتراف الدولى بهم-.. هم يزعلون من الإسلام وليس منا.. أمريكا وروسيا لا يرضون عن الإسلام..

الأصنام موجودة فى باكستان منذ ألفى عام كما قال لك وزير الخارجية عبدالستار.. لكن هذه الأصنام لم تشفع لحكومة «بيرفيز مشرف» عندما جاءت إلى السلطة ورفض العالم الاعتراف بها..!.. لا لم تشفع وظلت أمريكا تقول له حكومتك غير شرعية.. حتى احتاجت إليه للتعاون معها فى ضرب أفغانستان.

إذن ما فائدة الأصنام..؟!

وكيف تكون الأصنام موجودة فى باكستان.. وأمريكا تقول لبيرفيز مشرف حكومتك ليست قانونية..؟!!

أنا أقول لك إن الأصنام لاتفتح الطريق لإقامة علاقات قوية مع أمريكا.. ولا تقدر على توفير الأمن والحياة الكريمة للشعوب.. فلماذا نبقى عليها، ونعصى الله..!

بعض الناس يقولون لو هدمتم الأصنام بعد عشر سنوات مثلاً لكان ذلك أفضل..

ونحن نقول ليس مكتوباً فى الورق عندنا أننا سنعيش عشر سنوات.. ما وصلت إلينا هذه الرسالة..!!

ـ قلت له: يا مولانا.. أنتم صحيح حكومة إسلامية.. لكن البعض يرى أنكم تطبقون تعاليم الإسلام بتشدد وتصلب.. فأنتم مثلاً تفرضون على الناس إطلاق اللحى.. وتحرمون مشاهدة التليفزيون.. وتحظرون تعليم البنات.. وتمنعون النساء من العمل.. أليس كل هذا تشدداً..؟

● قال: أنا أقول إن الإسلام جاء من الأول بتشدد.. ولو لم يكن فى الإسلام تشدد لما فرض الجهاد.. فالجهاد الذى يقتل فيه المسلمون فيه تشدد أم ليس فيه تشدد؟.. فكيف يقول المسلمون إن طالبان تطبق الشريعة الإسلامية بتشدد.. نحن نعمل بما جاء فى الكتاب، ونمشى على طريقة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.. النبى صلى الله عليه وسلم كانت له لحية أم لا..؟! .. فكيف إذن نقول إننا نمشى على طريقة الرسول صلى الله عليه وسلم.. وبعد ذلك نخالف الطريقة.. هذا لا يطابق..

ـ قلت له: ولماذا حرمتم مشاهدة التليفزيون.. وهو وسيلة حضارية لنقل الأخبار والاندماج مع الشعوب الأخرى..؟!

● قال: لأن التليفزيون ليس قناة واحدة لكى نعطى الناس إجازة لمشاهدته.. ونذيع منها القرآن والتفسير ومثل هذه المسائل الشرعية فقط.. أنت تعرف أن فى التليفزيون كل شىء.. الطيب والخبيث.. لكن الخبيث أكثر من الطيب فى معظم تليفزيونات الدول الإسلامية.. تجد ساعة أو نصف ساعة للقرآن والتفسير.. وبعد ذلك تجد كل الخبائث..!

ـ قلت له: وتعليم البنات..؟

● قال: نحن لم نعترض على تعليم البنات.. لكن الفقر الذى تعانى منه الأسر هو الذى جعلها لا تستطيع مواصلة تعليم بناتها.. إذ كيف لمن لايملك أثاثا فى منزله أو ملابس كافية لأولاده.. أو نقوداً للإنفاق على أسرته.. كيف لمثل هذا الرجل أن ينفق على تعليم بناته فى المدارس..! .. بعض الناس فى أفغانستان ليس لديها الخبز الذى تأكله..!

ـ قلت له: لكن من حيث المبدأ.. أنتم تؤمنون بحق المرأة فى التعليم..؟

● قال: نعم نؤمن بذلك.. لأن الله سبحانه وتعالى قال فى كتابه الكريم: «هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون» صدق الله العظيم.. إذن فالعلم هو من الإيمان.. وهو الذى يجعل المسلم يعرف طريق الإسلام..

قلت له: بعض الإحصائيات تشير إلى أن نسبة الأمية فى أفغانستان حوالى ٨٠٪.. ولاشك أن هذا يتطلب فتح المدارس ونشر التعليم..

● قال: أنتم تعرفون أنه يوجد فى أفغانستان حوالى ٧٥٠٠ مدرسة.. وبالنسبة لتعليم البنات لم تكن بأفغانستان فى عهد ظاهر شاه أو داود خان مدارس للبنات.. فلماذا تذكروا هذه المسألة الآن فقط وبدأوا يهاجموننا ويتهموننا بتحريم تعليم البنات..!!

ـ قلت له: فى الحقيقة.. التاريخ يشهد لطالبان.. وكذلك كل من التقيت بهم فى المنطقة.. أنها أعادت إلى أفغانستان الأمن والاستقرار، وقضت على زراعة المخدرات، وبدأت فى نشر التعليم والثقافة.. كل الأفغان الذين قابلتهم قالوا لى ذلك.. وكذلك المسئولون فى باكستان قالوا نفس الكلام.. مثل الجنرال معين الدين حيدر وزير الداخلية..

● قال: نعم.. لأن طالبان تعلموا العلم.. ومن يتعلم العلم يعرف كيف يسكن فى هذه الدنيا.. وكيف يعيش فى هذه الدنيا.. والعيش مع التعليم أحسن..

أما الناس الذين يعتقدون أن طالبان تخالف العلم وتريد الحرب.. فهذه ليست الحقيقة.. لأن العلم لايدعو الإنسان إلى الحرب، وسوء الأخلاق.. العلم يدعو الإنسان إلى الجلوس والتحاور مع الآخرين..



قال لى: هم دائما يقولون نحن نحارب الارهاب..
والحقيقة أنهم يحاربون الإسلام..!!

* * *

ـ قلت له: ننتقل إلى العلاقة مع الولايات المتحدة الأمريكية.. أنا أعرف أنه منذ جاءت طالبان إلى السلطة فى أفغانستان، والولايات المتحدة تحاول دائماً الاتصال بكم سراً.. وتغريكم بالاعتراف بحكومتكم كحكومة شرعية فى أفغانستان وتقديم المساعدات لكم مقابل تسليم الشيخ أسامة بن لادن.. فهل هذا صحيح..؟

● قال: نعم صحيح.. ونحن قلنا ليس لأمريكا كلام مع أسامة بن لادن.. قلنا أيضا قبل سنوات ان أمريكا لا تريد الإسلام.. وقد ثبت هذا.. لأنه منذ أول ليلة فى القصف استهدفت الطائرات الأمريكية قصف بيت أمير المؤمنين -يقصد الملا محمد عمر- بالصواريخ..

لم تسقط الصواريخ على بيت أسامة.. ولا على أى مكان من الأماكن التى يعيش فيها..

هم دائماً يقولون نحن نحارب الإرهاب.. والحقيقة أنهم يحاربون الإسلام.. ويحاربون طالبان لأنها تطبق شريعة الإسلام..

مرة يقولون أعطوا لنا أسامة بن لادن.. ومرة يقولون اعطوا لنا......... والحقيقة أن اليهود دائماً لايريدون الإسلام..

ـ قلت له: والحقيقة أيضا أن كثيرا من الناس فى الخارج يشعرون بالدهشة.. ويرون أنكم قد عرضتم البلاد لحرب من قوات التحالف وقوات الولايات المتحدة الأمريكية.. أقوى جيش فى العالم.. مقابل عدم تسليم الشيخ أسامة بن لادن.. ولو كان يعيش فى أى دولة أخرى لقامت بتسليمه على الفور..!

● قال: لما وقع الحادث فى نيويورك وواشنطن.. قال الرئيس الأمريكى إن الحرب صليبية وستكون مدتها طويلة.. هكذا قال.. لم يقل نحن نريد من طالبان أسامة بن لادن.. كما لم يقل إن الحرب ضد أسامة بن لادن.. وإنما قال «الحرب على الإرهاب».. والإرهاب فى نظر الأمريكيين واليهود هو الجهاد من أجل الحرية والدفاع عن الأوطان.. إن اليهود والأمريكيين لا يفرقون بين الجهاد والإرهاب!

ـ قلت له: لكن الرئيس الأمريكى بوش قال بعد ذلك إن قوله بأنها «حرب صليبية» كان مجرد «زلة لسان».. وقام بزيارة المركز الإسلامى فى واشنطن..

● قال: كيف لرئيس كبير.. ورئيس لدولة كبيرة بحجم الولايات المتحدة أن تصدر منه «زلة لسان».. ويدعو ويقول أنا رئيس العالم..؟ كيف يخطىء فى الكلام..؟!!

ما قاله هو كلام صادر عن قلبه..!

ما قاله هو الحقيقة..!

نحن قلنا منذ سنوات أن أمريكا لا تريد الإسلام فى الدنيا.. ليس فى أفغانستان فقط.. بل فى كل مكان..

أنتم ترون كيف جاءت الولايات المتحدة إلى أفغانستان.. البلد الصغير.. وكيف جمعت الدنيا كلها معها ضد هذا البلد الصغير..

كان يدور وزير الخارجية الأمريكى، ورئيس الوزراء البريطانى علي كل الدنيا لكى يدعوها للتحالف معه لمحاربة أفغانستان..!

أفغانستان ـ كما يعرف كل الناس ـ بلد صغير وناسه ضعفاء..

لكن اتفاق اليهود والنصارى ضدنا يدل على اتفاقهم على هدم الإسلام.. وليس على هدم حكومة طالبان..!

ـ قلت له: البعض يعتقد أنها مؤامرة دولية.. تهدف من ورائها الولايات المتحدة إرسال قواتها والتمركز هنا فى أفغانستان لتكون قريبة من الصين، فتحد من نموها.. لأن الصين تبزغ الآن كقوة عظمى تنافس الولايات المتحدة.. وكذلك قريبة من حقول النفط فى جمهوريات آسيا الوسطى وبحر قزوين.. وفى نفس الوقت تكون على مرمى حجر من روسيا العدو التقليدى للولايات المتحدة.. أى أن الولايات المتحدة تريد الاستفادة من الموقع الاستراتيجى المهم لأفغانستان والبقاء فيها.. بالضبط كما هى مازالت باقية حتى الآن فى منطقة الخليج العربى التى أرسلت قواتها إليها لتحرير الكويت.. الكويت تحررت منذ أكثر من عشر سنوات، لكن القوات

الأمـريكيـة بقـيت فى المنطقـة لـم تغـادرها.. والآن تريد أن تكرر هذا السـيناريـو فى أفغانستان.. فما رأيك فى هذا الكلام..؟

● قال: هـذا الكلام صحـيح.. لقد ثبت هذا.. أمريكا تريد أن تكون فى أفغانستـان.. وتكون آسيا تحت يديها.. على باب الصين، وعلى باب روسيا.. هذا ثابت..

ـ قلت لـه: هل كـان من الممكن أن تدخلوا فى مفـاوضات مع أمـريكا.. هذا سـؤال.. مجرد سؤال يا مولانا.. فتوافقوا مثلاً على منح الولايات المتحدة قواعد عسكرية فى أفغانستان مقابل إنهاء الحرب والتصالح معها وإقامة علاقات سياسية..؟

● قال: لا نريد ذلك.. نريد الشهـادة فى سبيل الله ونستشـهد أفضل لنا.. لأن النبى صلى الله عليـه وسلم يقـول: الشـهـادة أحـسن.. والصـحـابة الكرام اسـتـشـهـدوا.. وإخواننا الأحباء قد استشهدوا.. فليس عيباً علينا أن نستشهد..

ـ قلت له: أريـد أن أسمع رأيك فى منظمـة المؤتمر الإسلامى.. هل أنتم راضـون عن دورها وعن موقفها فى هذه الأزمة..؟

● قـال: نـحن لم نـجـد هذه المنظمـة..! .. ولو كـانت هذه المنظمـة موجـودة لسـألت أمريكا لماذا تهاجم الإسلام.. فالإسلام ليس دين الأفغان وحدهم.. ولكنه دين المسلمين جميعاً.. لو كانت هذه المنظمة موجودة.. كان يجب عليها التدخل..!!

ـ قلت لـه: كنتم قبل بداية القصف قد تقـدمتم بمبـادرة مـعقولة طلبتم فيـهـا من الولايات المتحدة تقديم الدلائل التى لديها على أن الشيخ أسامة بن لادن هو المسئول عن هجمات ١١ سبتمبر، وستقوم المحكمة العليـا فى أفغـانستـان بالتحقيق فى هذه الدلائل.. فإذا لم توافق أمريكا على هذه المحكمة.. يمكن تشكيل مـحكمـة أخـرى من قضاة مسلمين من السعودية وأفغانستان ودولة إسلامية أخرى تقوم بالتحقيق فى الأدلة الأمريكيـة تحت إشراف منظمة المؤتمر الإسلامى.. وفى هذه الحـالة ستوافقون على تـسليم الشـيخ أسـامـة بن لادن إلى هذه المحكمـة.. هل تلقـيتم أية اتصـالات من منظمة المؤتمر الإسلامى بعد طرحكم لهذه المبادرة..؟

● قال: قلت لك من قبل إن منظمة المؤتمر الإسلامى غير موجودة.. فلو سمحت لا تسألنى عنها بعد ذلك..

أما بالنسبـة لمسألة تسليم أسامة بن لادن.. فنحن نقول إن بوش قال بعد اصطدام الطائرة الأولى بعمارة برج التجارة العالمى أن المسئول عن هذا الحادث هو أسامة بن لادن.. هكذا فى دقيقتين فقط وجه هذا الاتهام.. وبعد عشرين دقيقة جاءت ثلاث طائرات بعده..!

كيف يوجه الاتهام بهذه السرعة إلى أسامة بن لادن.. وهو لايدرى أن فيه ثلاث طائرات أخرى بعد عشرين دقيقة..؟!

بوش مخه خراب..!

عندنا فى المحكمة الإسلامية.. نحكم بكتاب الله.. القرآن والسُنَّة عندنا موجودة..

نحن نقول: أسامـة بن لادن ضيف.. مجاهد.. مسلم.. ورجل يسكن فى أفغانستان..

هذا رجل نعرفه ليس معه صديق ولا رفيق فى الدنيا.. لأن المؤتمر الإسلامى ضعيف جداً.. ما سمعنا اسمه..

ـ قلت له: طيب يا مولانا أنتم تخوضون الآن حرباً غير متكافئة.. فالولايات المتحدة الأمريكية لديها أقوى جيش فى العالم.. وعندها قنابل عنقودية ونووية وأجهزة اليكترونية للتصويب ومعدات حديثة جداً.. وتتحالف معها ضدكم أقوى جيوش العالم: بريطانيا وفرنسا واستراليا واليابان.. بينما أسلحتكم ليست بمستوى الأسلحة المتطورة التى لديهم.. فما هى عدتكم لمواجهة هذه الجيوش الفتاكة..؟

● قال: عندنا أسلحة كثيرة، أقوى من التى تملكها أمريكا وبريطانيا.. أهم هذه الأسلحة هو حبنا للشهادة..!

لما المسلم يكون حبه للشهادة كبيرا.. لابد أن ينتصر على الكفار..

نحن معنا سلاح الإيمان.. وهذا السلاح ليس معهم..!

والفرق بين الجهاد والحرب.. أن إيمان الرجل فى الجهاد يكون قوياً، واعتقاده بالله عز وجل يكون قويا.. هذان السلاحان يضمنان له الانتصار على الكفار..

بينما فى الحرب.. يقتضى الأمر أن تكون هناك مساواة فى العتاد.. إذا كان مع طرف دبابتان، لابد أن يكون مع الطرف الآخر دبابتان أيضا.. وهكذا.. حتى يكون الطرفان متكافئان..

نحن نجاهد الكفار.. والجهاد لا يحتاج منا الجنود والأسلحة والطائرات بنفس الأعداد التى لديهم.. فقط يحتاج منا الإيمان القوى.. والصبر.. والطاعة.. والعقيدة القوية.. وحب الاستشهاد..

وإخواننا وآباؤنا استشهدوا فى وقت الروس.. فليس عيباً أن نستشهد.. بسم الله الرحمن الرحيم: «الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً» صدق الله العظيم.. هذه الآية الكريمة تنطبق على حالنا الآن..

الحمد لله فى هذا الوقت نحن لسنا زعلانين لأننا لم نقم علاقات مع واشنطن.. ولكننا فرحانين لأننا كنا نريد تطبيق الشريعة الإسلامية فى أفغانستان.. والحمد لله طبقنا الشريعة..

ـ قلت له: لكن يا مولانا الكل الآن يتحالف ضدكم.. حتى أعداء الأمس تحالفوا ضدكم.. روسيا تحالفت مع أمريكا فى الحرب عليكم.. وأمريكا أعطتها منذ أسبوعين ٨٠ مليون دولار مقابل أسلحة روسية لقوات التحالف الشمالى.. تقدمت بها نحو مدينة «مزار الشريف» واستولت عليها..

● قال: هذه هى الحرب.. وإن شاء الله تسمع عن قريب أننا استرددنا هذه المدينة.. وسوف يقعون بأسلحتهم فى أيدى طالبان.. إن شاء الله تسمع عن قريب.

ـ قلت له: هل انت واثق من ذلك..؟

● قال: نعم..!

ـ قلت له: طيب يا مولانا.. المظاهرات كل يوم فى الشارع الباكستانى تؤيد طالبان.. والخطباء فى المساجد يدعون لنصرة طالبان.. وهناك أعداد كثيرة جداً من الباكستانيين تريد التطوع للجهاد.. ومولانا صوفى محمد رئيس جمعية تطبيق الشريعة المحمدية حشد عشرات الآلاف من المتطوعين للجهاد على الحدود.. لكننا فوجئنا بطالبان ترفض استقبال المتطوعين.. لماذا؟

● قال: الحمد لله.. فيه قوة فى طالبان ونحن لسنا ضعافاً.. الجهاد فرض على المسلمين فى أى دولة.. فى باكستان وأفغانستان وكل دولة..

لأن المسلمين يعلمون أن هذه الحرب ضد الإسلام، وليست ضد الأفغان.. ولو كانت ضد الأفغان.. فالأفغان يوجدون فى مصر وباكستان وإيران وكل مكان.. لو كانت الحرب ضد الأفغان لقامت أمريكا بضرب كل هذه الدول حيث يوجد الأفغان..!

الحرب هى بين الكفر والإسلام..

والحمد لله.. المسلمون هنا كثير.. فلو جاء الكثير الكثير لأصابتهم الصواريخ والقذائف واستشهد الكثيرون منهم..

* * *

ـ قلت له: الحقيقة يا مولانا.. أنت يقع عليك الآن عبء كبير فى هذه الحرب.. لأنه إلى جانب القصف المستمر ليلاً ونهاراً على بلادكم.. هناك أيضا دوائر أخرى بدأت تتحرك وتعقد الاجتماعات وتدبر لتشكيل حكومة جديدة لأفغانستان.. أحياناً يقولون برئاسة «ظاهر شاه».. وأحيانا يقولون برئاسة «بير سيد أحمد جيلانى» الذى عقد الشهر الماضى مؤتمراً فى بيشاور لهذا الغرض.. وأمريكا غير راضية عن هذا المؤتمر، ولاتريد لباكستان القيام بدور فى تشكيل الحكومة الجديدة، فبدأت تخطط لعقد



سألته: لماذا رفضتم استقبال المتطوعين معكم للجهاد..؟

مؤتمر آخر في أوربا.. وظاهر شاه يتحرك في روما.. والكل الآن يتحدث عما يسمى بالحكومة المستقبلية في أفغانستان.. فكيف ترى ما يحدث الآن في «واشنطن» و«روما» و«إسلام آباد»..؟

● قال: أرى أنهم منذ وقت طويل وحتى الآن لم يتفقوا على رجل واحد ليكون رئيساً لأفغانستان.. ونتمنى ألا يتفقوا.. فكل الأسماء التي يتحدثون عنها، كانوا من قبل في أفغانستان رؤساء ووزراء، وفشلوا في أن يوفروا الأمن للناس أو يحافظوا على وحدة الدولة.. لذلك فأمريكا وروسيا الآن في حيرة ماذا يفعلون..؟! .. أما نحن فنقول لأنفسنا دائماً «وما النصر إلا من عند الله»..

ـ قلت له: هل ظاهر شاه يصلح لرئاسة أفغانستان..؟

● قال: ظاهر شاه ليس عنده قوة.. رجل أفكاره قديمة.. والفكرة القديمة لا تصلح لهذا الزمان..

ـ قلت له: باكستان والأمم المتحدة تطالبان دائماً بأن تكون الحكومة الأفغانية الجديدة عريضة القاعدة.. تمثل كل الفصائل الأفغانية.. قادرة على تحقيق الوفاق الوطني وإعادة الاستقرار إلى أفغانستان.. ومن أجل ذلك جاء «الأخضر الإبراهيمي» مبعوث الأمين العام للأمم المتحدة إلى «إسلام آباد» لاستطلاع الآراء حول تشكيل الحكومة الجديدة.. وقالوا إنه طلب مقابلة «الملا عبدالسلام ضعيف» لكن طالبان رفضت.. فلماذا رفضتم..؟!

● قال: «الأخضر الإبراهيمي» ليس معه كلام جديد.. كل كلامه قديم.. لهذا لم نعط الإجازة لعبدالسلام ضعيف لكي يجلس معه..

ـ قلت له: ولماذا قاطعتم مؤتمر «بيشاور»..؟

● قال: لا نقل فيه شيء.. لأنه كان معهم عبدالحق.. وعبدالحق جاء إلى أفغانستان ومشى من الدنيا..!

ـ قلت له: لماذا تعجلتم إعدامه..؟

● قال: لأنه كان من طرف أمريكا.. فهو إذن عدو الإسلام.. ولم يعد كما كان في السابق عبدالحق القديم الذي جاهد ضد الروس.. تغير لونه.. تغير عمله.. وجاء لمساعدة أمريكا على تنفيذ خططها في أفغانستان..

ـ قلت له: البعض يقول إن طالبان على اتصال وعلاقة طيبة بقلب الدين حكمتيار..

● قال: هذا ليس صحيحاً.. لم نتكلم مع حكمت يار.. وليس بيننا خلافات..

ـ قلت له: ولكنني قرأت في الصحف الباكستانية أنه اتصل بكم، وقدم إليكم مخازن صواريخ.. وقال لكم ....

● قال مقاطعاً: هذا ليس صحيحاً.. كذب..!

ـ قلت له: البعض تحدث أيضاً عن انشقاق في صفوف طالبان.. هل هذا صحيح..؟

● قال: كيف ينشق المسلم عن المسلم.. نحن مسلمون ولسنا يهوداً..

الانشقاق حدث في زمن اليهود.. كانوا يأخذون التوراة، والإنجيل يطبقونها على

رؤسائهم بطريقة، وعلي عامة الناس بطريقة أخرى..

لا يصح للمسلم أن يكون معتدلا أو متشددا..

نحن نعمل بكتاب الله وسُنَّة رسوله.. اليهود كانوا يؤمنون ببعض الكتاب، ويكفرون ببعضه.. أما نحن فقد آمنا بكل ما جاء فى الكتاب..

ـ قلت له: هذا من ناحية العقيدة.. لكننى أقصد من الناحية السياسية.. ألم تحدث انشقاقات فى طالبان.. أو خلافات فى الرأى..؟

● قال: لا لم تحدث.. ولو كان فيه انشقاقات أو خلافات فى الرأى بينهم، لأخذت أمريكا أفغانستان فى ثلاثة أيام فقط..! .. بل إن ما حدث زاد الحب بيننا..!

ـ قلت له: بصراحة يا مولانا.. أنا سمعت أقاويل كثيرة عن انشقاق «وكيل أحمد متوكل» وزير الخارجية..

● قال: وزير الخارجية هو أقوى منِّى فى الإيمان.. هو مجاهد.. استشهد أبوه وقت الروس فى مطار «قندهار».. هو ابن الشهيد وإيمانه قوى.

أنا وزير الإعلام وهو وزير الخارجية، لكننا لا نتحدث كثيراً إلى وسائل الإعلام.. لأن الذى يتكلم باسم الإمارة الإسلامية -يقصد أفغانستان- هو أمير خان متقى وزير التربية والتعليم.. ونحن اتفقنا على ذلك.. كل دولة يكون لها رجل واحد يتحدث باسمها ونحن اخترنا أمير خان متقى..

ـ قلت له: يا مولانا.. وسائل الإعلام الغربية نشرت تقارير كثيرة حول هذا الموضوع.. بعضها قال إن «وكيل أحمد متوكل» قبض عليه.. وبعضها قال إنه هرب إلى باكستان.. وبعضها..

● قال مقاطعاً: هو كان معى منذ وقت قصير.. وأنا أعرفه قبل تأسيس الإمارة الإسلامية.. وأعرف أنه لا يحب الباكستانيين.. نحن عشنا فى باكستان سنوات طويلة، لكننا لا نحب باكستان.. ونفضل الاستشهاد على أرض أفغانستان عن الهروب إلى باكستان.. وكيل أحمد متوكل موجود فى أفغانستان.. لم يقبض عليه ولم يهرب..

* * *

ـ قلت له: فى ظل الظروف التى تواجهونها الآن.. ما هى رؤيتك للمستقبل..؟

● قال: نحن نعتقد أن النصر فى النهاية سيكون لطالبان بإذن الله على الكفار.. وفى الامتحان تأتى الجراح والتعب قبل الراحة..

ـ قلت له: ألا يوجد الآن بصيص من أمل لوقف القتال وبدء التفاوض.. ألا توجد أية فرصة للحوار مع الأطراف الأخرى..؟

● قال: أمريكا لا تريد الحوار، ولا تريد التفاوض.. أمريكا لها هدف محدد تعمل على تحقيقه، وهو إنهاء نظام الإمارة الإسلامية فى أفغانستان..

لكن إذا كنت تتحدث عن وقف القتال.. فيمكن تحقيق ذلك عن طريقين:

الأول: أن يتحد المسلمون فى تحالف واحد.. كما اتحد الكفار والمشركون مع أمريكا.. فى هذه الساعة ستقف الحرب..

الثاني: أن تخرج إسرائيل من فلسطين.. وتخرج أمريكا من أرض النبى صلى الله عليه وسلم.. عندئذ يبقى مفيش حرب..

ـ قلت له: ما رأيك فى موقف باكستان من هذه الأزمة..؟

● قال: لا يصح للمسلم أن يساعد الكفار على قتل أخيه المسلم.. نحن نعرف أن حكومة باكستان تواجه صعوبات كثيرة.. أزمات اقتصادية.. وضغوطاً من أمريكا..

ـ قلت له: إذن فأنت ترى ان هناك اعتبارات سياسية معقولة دفعت باكستان إلى اتخاذ هذا الموقف..

● قال: أنا قلت لا يصح للمسلم أن يتعاون مع الغير ضد المسلم.. المسلمون كثير.. لكنهم ساكتون.. والرسول صلى الله عليه وسلم قال: «الساكت عن الحق شيطان أخرس»..

ـ قلت له: أريد أن أقدمك للقارىء.. كم عمرك؟ أين ولدت؟.. ما نوع دراستك؟

● قال:

ـ عمرى ٣٣ سنة ونصف السنة..

ـ ولدت فى أفغانستان.. فى ولاية «بكتيا» التى تقع على مسافة ١١٠ كيلومترات جنوب مدينة «كابول»..

ـ تلقيت تعليمى الأولى فى أفغانستان.. وعندما بلغ عمرى ١٢ عاماً هاجرت أسرتى إلى باكستان، فانتقلت معها، وعشت فى باكستان ١٥ عاماً استكملت خلالها دراستى..

ـ نوع الدراسة: دراسة عصرية وإسلامية فى مدارس «بيشاور»..

ـ متزوج وعندى ولد واحد..

ـ قلت له: كيف بدأت علاقتك بطالبان؟ .. ومتى التقيت بالملا محمد عمر؟..

● قال: دمى مع طالبان.. وفى أفغانستان يقال «طالبان».. للطلبة الذين درسوا القرآن الكريم والحديث الشريف والفقه وأصول الدين.. أما الذين درسوا فى المدارس العصرية فلا يقال لهم «طالبان»..

نحن نحب طالبان.. والتقينا مع أمير المؤمنين «الملا محمد عمر» منذ اليوم الأول، وبدأنا الكفاح معاً من أجل القضاء على الظلم الذى انتشر بأفغانستان فى عهد ربانى -يقصد الرئيس برهان الدين ربانى الذى تولى السلطة فى أفغانستان فى الفترة من ٢٨ يونيو ١٩٩٢ إلى ٢٧ سبتمبر ١٩٩٦- .. كانوا يجعلون من الرجال كلاباً لا تتكلم..! يأخذون من الناس نقودهم وكل ما فى جيوبهم.. النساء كن يلقين بأنفسهن من الطوابق العليا لأنهن يرفضن الاغتصاب..! .. الشذوذ انتشر فى البلاد، لأن الرجال كانوا يتزوجون الأطفال.. فكان فرضاً علينا أن نجاهد لتغيير هذه الأوضاع.. فخرجنا من مدارسنا، وبدأنا الجهاد حتى نصرنا الله عليهم..

ـ قلت له: فى نهاية هذا الحوار.. هل تود أن تضيف شيئاً آخر..

● قال: نحن نقول للمسلمين إننا مسلمون.. نريد الإسلام.. ونعلم أن فيه الفرح والسرور.. ونعمل بالكتاب والسُنَّة.. الأمر بإقامة الحدود جاء من عند الله وليس من عندنا.. ولما أقمنا الحد على شخص واحد فى «كابول» لم نر بعده سرقة ولا قتل.. وفى «قندهار» قطعنا أيدى ثلاثة لصوص فقط لم تقع بعد ذلك حادثة سرقة واحدة.. فانتشر الأمن والاطمئنان بين الناس لما أقمنا حدود الله التى وردت فى القرآن الكريم..

نقول للمسلمين إن العزة لله وللإسلام وللمسلمين.. فلا تسكتوا عن الحق.. ولازم المسلمين يتفقوا.. ويحبوا الشهادة.. لكي ينصروا دين الله الإسلام على أمريكا.. لأن الله سبحانه وتعالى قال لنا فى القرآن الكريم.. بسم الله الرحمن الرحيم: «إن تنصروا الله ينصركم» صدق الله العظيم..

* * *

انتهى حوارى مع «الملا قدرة الله جمال» وزير الإعلام والثقافة فى حكومة طالبان.. فشكرته.. وأغلقت جهاز التسجيل.. ثم طلبت منه مساعدتى فى ترتيب موعد لمقابلة «الملا محمد عمر».. وقبل أن يجيب.. قلت له: أنا مستعد أن تعصبوا عينى وتأخذونى إليه فى صندوق مغلق.. أو بأى وسيلة أخرى ترونها مناسبة.. أنا موافق عليها مقدماً.. المهم أن ألتقى بأمير المؤمنين «الملا محمد عمر» وأجرى معه حواراً..

ضحك «الملا قدرة الله جمال» وقال: ليست المشكلة فى أن نعصب عينيك، لكن المشكلة أن أمير المؤمنين مشغول جداً هذه الأيام فى إدارة الحرب..

ـ قلت له: أنت وزير إعلام.. وتعرف أن الإعلام أحد أسلحة الحرب.. ومادام جهازكم الإعلامى ضعيفا كما قلت لى فى بداية الحوار.. فإننى مستعد لنقل رسائلكم ووجهات نظركم إلى الخارج ليقرأها الناس ويعرفوا الوجه الآخر للحقيقة.. لأنهم الآن لا يقرأون ولا يسمعون ولا يعرفون سوى وجهات نظر أعدائكم فقط..!

إن جريدة (الجمهورية) التى أعمل بها.. هى واحدة من اكبر وأهم الصحف العربية على الإطلاق.. إنها تصدر من مصر.. وأنت تعرف مكانة مصر على الساحتين العربية والإسلامية.. فإذا كنت تريد أن توجه خطاباً إلى المسلمين فى العالم، كما كنت تقول لى دائماً أثناء الحوار بيننا: «نحن نقول للمسلمين..»، فإن أفضل منبر يمكن أن ينطلق منه هذا الخطاب هو صحيفة مصرية كبيرة مثل جريدة (الجمهورية).. لقد نشرت بها من قبل الحوار الذى أجريته مع «الملا نجيب الله» قنصل أفغانستان فى «بيشاور».. فتناقلته وكالات الأنباء العالمية.. وأحدث ردود فعل كبيرة..

● قال: أنا أعرف.. أنا أعرف.. لكن المشكلة أن أمير المؤمنين كثير التنقل هذه الأيام بين المناطق المختلفة، لكى يطمئن بنفسه على قواتنا..

ـ قلت له: أنا لا أطلب لقاء أمير المؤمنين فى وقت محدد.. أنا مستعد للقائه فى أى وقت يحدده وأى مكان يختاره.. والمسألة ليست مجرد سبق صحفى بالنسبة لى.. لكنها على جانب كبير من الأهمية فى ظل الظروف الحالية.. لسببين:

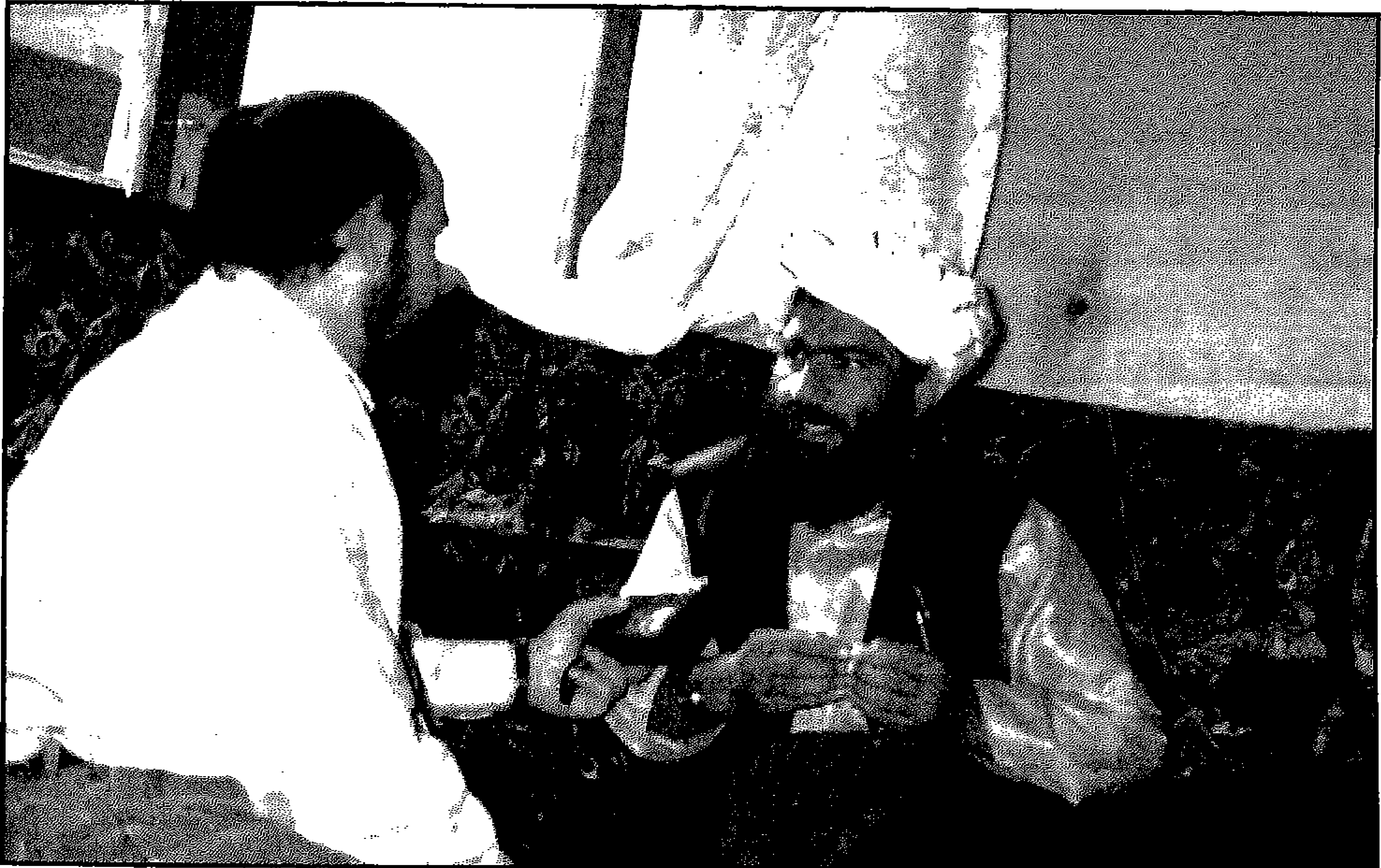
الأول: أنه مضى الآن على بدء الحرب أكثر من شهر.. والناس أصبحت فى حاجة إلى معرفة رأى «الملا محمد عمر» فيما يدور لكى يلتفوا حوله فى مواجهة الأعداء..

الثانى: أن بعض التقارير التى نشرت مؤخراً بالصحف شككت فى وجود شخص باسم «الملا محمد عمر».. وقالت إنها شخصية خيالية ابتكرتها طالبان لأسباب أمنية وسياسية.. وأن «الملا محمد عمر» هو نفسه «الشيخ أسامة بن لادن».. وقد ساعد على رواج هذه الشائعة أن «الملا محمد عمر» لا يتحدث إلى وسائل الإعلام ،ولا يعرف أحد صورته.. بينما «الشيخ أسامة» يتحدث إلى وسائل الإعلام، والناس تعرف صوته وصورته..

ضحك «الملا قدرة الله جمال» وقال: هم يقولون إن «الملا محمد عمر» شخصية خيالية.. إذن إن شاء الله ستقابله وتراه وتتحدث معه بنفسك.. وعليك بعد ذلك أن تكذبهم..

ثم أخرج من جيبه ورقة مدوّن بها عدة أرقام.. وأجرى اتصالاً هاتفياً استغرق بضع دقائق.. ثم قال لى:

«إن شاء الله يوم الأربعاء تسافر إلى «قندهار».. وهناك سيستقبلك أحد إخواننا..»..!!



قال لى: إن شاء الله ستقابل الملا محمد عمر.. وتراه.. وتتحدث معه بنفسك.

الفصل السادس والعشرون

• رأيت الموت .. !

« هو ضيفي.. وسأقتل من يقتله ».. !

محمد نعيم صافي

□ *كنت أشعر أن يوم الأربعاء الذى حدده لى «الملا قدرة الله جمال» للسفر إلى «قندهار» يعتبر بعيدا بالقياس إلى سرعة الأحداث التى كانت تجرى فى تلك الفترة..*

فقوات التحالف الشمالى بعد أن استولت على مدينة «مزار الشريف».. واصلت زحفها بسرعة نحو المدن الأخرى وسط أنباء عن استسلام بعض قوات طالبان لها وتقهقر البعض الآخر.. حتى أصبح السؤال.. هل يمكن أن تصل إلى «كابول»..؟!

كلنا كنا نستبعد ذلك فى ظل الحسابات السياسية التى كانت مطروحة ذلك الوقت.. خاصة بعد أن دعا الرئيسان الأمريكى «جورج بوش»، والباكستانى «بيرفيز مشرف» فى مؤتمر صحفى مشترك عقداه بمدينة نيويورك مساء السبت ١٠ نوفمبر ٢٠٠١، على هامش اجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة.. دعوا قوات التحالف الشمالى إلى عدم دخول «كابول» «لما سيكون لذلك من تأثير سلبى على مستقبل أفغانستان».

وجهة النظر الأمريكية كما شرحها وزير الخارجية الأمريكى «كولين باول» [٨٦]: «إن سقوط كابول فى أيدى قوات المعارضة -يقصد التحالف الشمالى- سوف يقود إلى مشكلات وصعوبات حقيقية».. «وإن حكومة واشنطن ترى أنه يتعين على المعارضة أن تعمل على تدمير طالبان فى العاصمة الأفغانية دون أن تستولى عليها».. و«أن الإدارة الأمريكية ترى أن «كابول» ينبغى أن تبقى مدينة مفتوحة لحين تشكيل حكومة مؤقتة فى أفغانستان، وأنه يتعين على المعارضة البقاء بعيدا عن «كابول»!.

وجهة النظر الباكستانية كما عبر عنها الرئيس الباكستانى «بيرفيز مشرف» [٨٧]: «إن سقوط «كابول» فى أيدى قوات المعارضة ربما تنجم عنه فظائع تشبه تلك التى حدثت عقب انسحاب القوات السوفيتية من العاصمة الأفغانية قبل عشرة أعوام».

كان المطلب الباكستانى كما عبر عنه المتحدث باسم وزارة الخارجية الباكستانية هو «ألا تحتل «كابول» من قبل أى قوة، وأن تظل عاصمة لكل الأفغان تحت إشراف الأمم المتحدة».

فى نفس الوقت كانت قيادات طالبان مازالت تؤكد على تماسك قواتها وقدرتها على التصدى لقوات التحالف الشمالى.. ففى اليوم التالى لسقوط «مزار الشريف» عقد «الملا محمد عمر» اجتماعا فى «قندهار» لمجلس القيادة العسكرى لقوات طالبان كلف فيه وزير دفاعه «الملا عبيد الله» بنشر وحشد المزيد من القوات على خطوط المواجهة مع قوات التحالف الشمالى لكبح جماح تغلغلها غير المعهود داخل الأراضى التابعة لطالبان..

من جانبه ايضا قلل «الملا عبيد الله» كثيرا من أهمية استيلاء التحالف الشمالى على «مزار الشريف» ووصفه بأنه «مجرد انسحاب تكتيكى من رجال طالبان».. وقال [٨٨]: «إن تقدم قوات التحالف الشمالى المعارض وسيطرتها على مدينة «مزار الشريف» وبعض المواقع الأخرى لايضر فى مجريات الحرب شيئا، ولن يؤثر فى الإمارة الإسلامية ولا فى المجاهدين إن شاء الله». أضاف: «قبل أربع سنوات تقريبا دخلت قوات الإمارة الإسلامية -يقصد قوات طالبان- إلى «مزار الشريف» وسيطرنا على المدينة بعد أن أظهر لنا الجنرال الخائن «عبدالملك» موافقته على تسليم المدينة، ثم بعد ذلك اتفق مع التحالف الشمالى وغدروا بقوات الإمارة الإسلامية وحاصروهم وقتلوا منهم فى مجازر جماعية مايقرب من عشرة آلاف مجاهد وعدداً آخر من القادة والمقرئين والعلماء الذين ذهبوا للإحتفال بسقوط المدينة.. إلا أن قوات الإمارة الإسلامية لم تتأثر تأثرا بالغا بمثل تلك الحادثة، وأعادت الكرة من جديد وهاجمت «مزار الشريف» بعد بضعة أشهر وفتحت المدينة، وطردت منها قوات التحالف.. فتلك المصيبة والفاجعة التى حلت بقوات الإمارة الإسلامية لم تثن المجاهدين عن مواصلة الجهاد رغم فقدهم لقادتهم وعلمائهم وواصلوا الدرب حتى انتصروا..»!

* * *

هكذا وصلتنا تصريحات «بوش» و«مشرف» و«الملا محمد عمر» و«الملا عبيدالله».. وهكذا كانت الحسابات المطروحة أمامنا تستبعد كلها إمكانية استيلاء قوات التحالف الشمالى على العاصمة «كابول»..!

لكن.. بدأ يظهر لنا بسرعة على أرض الواقع فى العاصمة شيء مختلف.. عبرت عنه هذه المواقف..

(١)

كان أصدق تعبير عنه ماجاءنا على لسان متسول فى المدينة بما يشبه «الإنذار» لنا.. ونقله إلينا الزميل «تيسير علونى» مراسل قناة «الجزيرة» فى كابول..

جاء المتسول يمد يده بإلحاح إلى الزميل «تيسير»، فاعتذر إليه وطلب منه الانصراف بسبب كثرة المتسولين الذين كانوا يقابلوننا هناك.. فإذا بالمتسول يقول

لنا فى تحد: «أترفضون مساعدتى ببعض النقود... أنا أعرفكم.. أنتم صحفيون عرب.. والله يا «......» لنقتلكم ونقطع أجسادكم ونصلبكم فى ميادين كابول.. ألستم أنتم الذين قتلتم القائد أحمد شاه مسعود..»!

كان هذا المتسول واحدا من مئات يعيشون فى «كابول» ويدينون بالولاء لقوات التحالف الشمالى.. وينتظرون بفارغ الصبر اليوم الذى تدخل فيه هذه القوات المدينة.

وكان «السيناريو» الموضوع هو أن يقوم هؤلاء الأشخاص بالتمرد، وإثارة حالة من الفوضى فى «كابول» عند اقتراب قوات التحالف الشمالى من حدودها.. فيسهل بذلك سقوط المدينة فى أيديهم..

وهو سيناريو قديم حاولوا من قبل تنفيذه أثناء المعارك بين التحالف الشمالى وطالبان -فترة ما قبل ١١ سبتمبر ٢٠٠١- لكنهم فشلوا.. لأنهم تعجلوا بإثارة الفوضى قبل اقتراب قوات التحالف الشمالى من المدينة.. فتمكنت قوات طالبان من سحقهم.. أما الآن، فانهم - وقد استفادوا من درس التجربة السابقة - أصبحوا يفضلون التريث حتى يتأكدوا من اقتراب قوات التحالف الشمالى.. فيبدأون معركتهم داخل المدينة للثأر والانتقام وتصفية الحسابات..

وكان أول المستهدفين فى معركة تصفية الحسابات هم الأفغان العرب.. الذين وقفوا مع طالبان منذ البداية وقاتلوا إلى جانبهم.

أما الصحفيون العرب.. فكانوا على رأس قائمة المطلوب قتلهم.. لأنهم متهمون بقتل القائد الشمالى أحمد شاه مسعود فى عملية انتحارية تمت يوم ٨ سبتمبر ٢٠٠١ عندما ذهب إليه شخصان ادعيا أنهما يعملان فى شبكة تليفزيون هندية تسمى «إيه إن. آى» وطلبا إجراء مقابلة معه.. فما أن جلس للتحدث إليهما حتى انفجرت الكاميرا المفخخة بالديناميت وقتلت الجميع..!

لذلك.. كانت كلمات المتسول بمثابة رسالة واضحة لنا فهمناها جيدا..

لكننا لم نكن نتصور أبدا أن الأمور سوف تسير بهذه السرعة.

(٢)

طوال فترة إقامتى فى كابول.. كان الاتصال بصحفنا - لإملاء الأخبار والتقارير- يمثل خطرا كبيرا على حياتنا، لأنه لم تكن هناك من وسيلة اتصال سوى عن طريق الأقمار الصناعية، وكان الأمر يستلزم أن نصعد جبلا قريبا من الفندق الذى نقيم به حتى يمكن للهاتف أن ينقل الصوت بشكل واضح.. هذه العملية كانت تجعل كل منا هدفا سهلا للمقاتلات الأمريكية التى تلتقط الإشارات اللاسلكية الصادرة من الهاتف بسهولة.. ويمكنها التصويب عليها بالكومبيوتر.. فيأتى التصويب محكما ودقيقا

للغاية.. لذلك كنا نسارع بإغلاق الهاتف بمجرد سماع صوت طائرة قادمة..

لكن المشكلة أننا كنا نادرا ما نسمع أصوات الطائرات، لأنها كانت تطير على ارتفاعات عالية جدا لتجنب تعرضها للإصابة بصواريخ «ستينجر» التى يصل مداها إلى ١١ كيلو مترا.. كنا نسمع فقط أصوات انفجارات القنابل والصواريخ عند سقوطها على أحد المواقع.

وذات ليلة.. صعدت الجبل لإملاء الأخبار للجريدة عبر الهاتف، وكان معى زميلى راجا عمر مراسل شبكة تليفزيون «بى. بى. سى» البريطانية.. كنا نستعين بكشاف كهربائى صغير لقراءة الأوراق التى كتبناها.. ففوجئنا بطائرة تصوب نحونا أضواء قوية.. يبدو أن قائدها كان يظننا دفاعات أرضية فأراد التأكد قبل أن يقصفها..! بالطبع أغلقنا الهاتف بسرعة وجرى كل منا فى اتجاه.. وعندما وصلت الفندق طلبت من مديره أن يفعل أى شئ، وبأى ثمن لكى أتمكن من استخدام الهاتف الخاص بالفندق.. وقلت له: لقد سمعت بأذنى رنين هذا الهاتف من قبل.. إذن فهو يعمل ومن حقى أن استخدمه.

قال: نعم.. هو يعمل ومن حقك أن تستخدمه.. لكن المشكلة أن مدينة كابول كلها التى يعيش بها أكثر من مليون نسمة ليس بها سوى ٣٠ خط هاتف فقط، قدمتهم الحكومة الباكستانية حتى تظل على اتصال بالمسئولين فى المدينة ومتابعة ما يجرى بها.. وطبعا الـ ٣٠ خطا استحوذ على معظمها مسئولو طالبان، ولم يبق منها إلا القليل للمستشفيات، ووكالات الاغاثة والمنشآت المدنية الأخرى، ومنها هذا الفندق.. وبالتالى فنادرا جدا ما تجد «حرارة» فى هذا الهاتف.. ثم أضاف: لكن يمكنك استخدام هاتف آخر لدى الفندق أيضا، وهو يعمل عن طريق القمر الصناعى.. إلا أن المشكلة التى ستواجهك عند استعماله أن البطارية التى يعمل بها ضعيفة جدا.. وقديمة.. لذلك فإن مدة المكالمة لن تزيد معك عن ثلاث دقائق أو أربع.. أنت وحظك مع البطارية..!

(٣)

ظهور طائرة فى سماء كابول على ارتفاع منخفض، وتوجيه كشافاتها الضوئية نحونا بهذا الشكل.. كان بالنسبة لنا أحد المؤشرات على قرب اجتياح المدينة..

هذا الإحساس تأكد لى فى اليوم التالى.. الأحد ١١ نوفمبر ٢٠٠١..

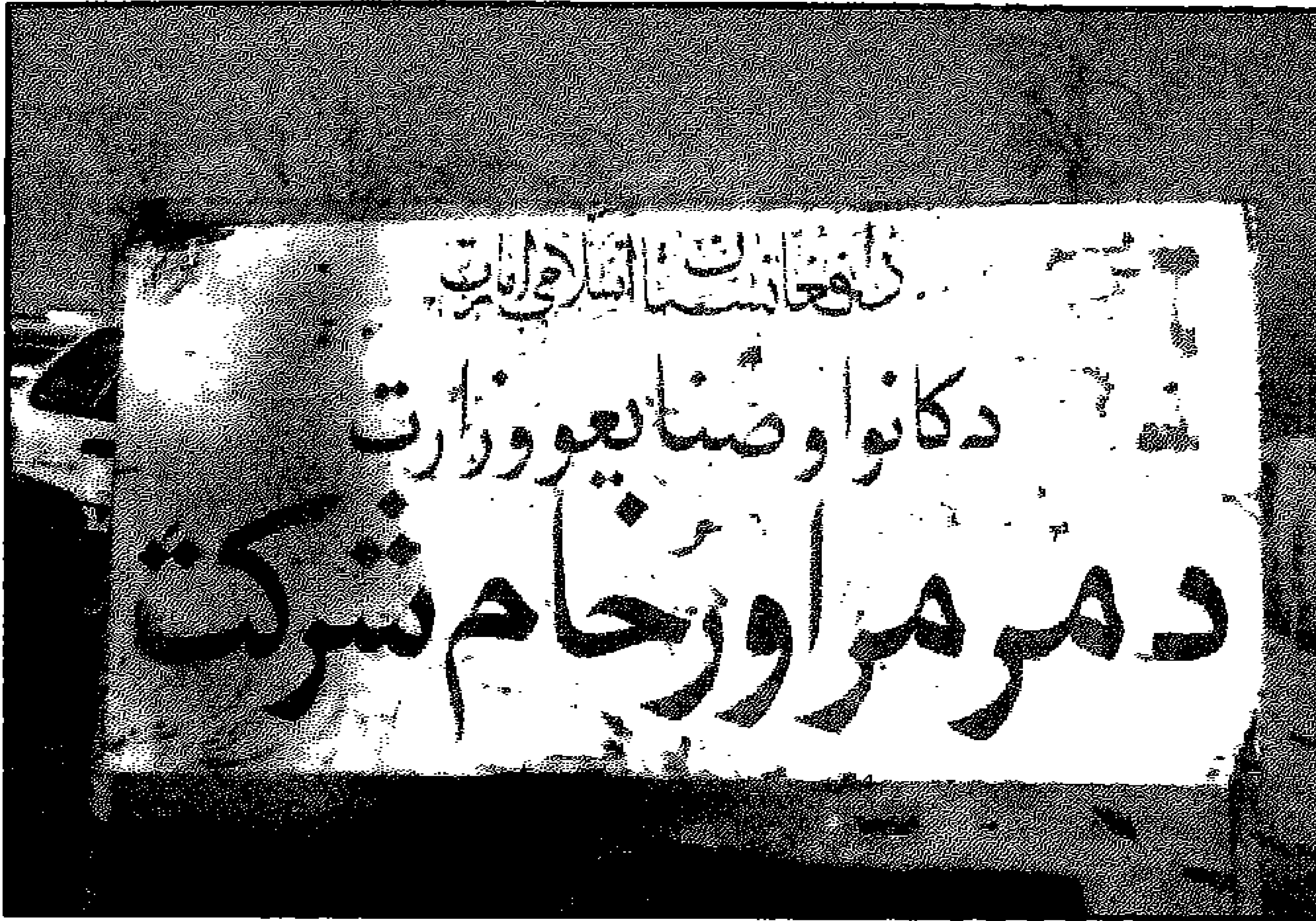
ففى صباح هذا اليوم اصطحبنى محمد نعيم صافى معه إلى إحدى ضواحى كابول.. منطقة فقيرة يعيش بها حوالى ٢٠٠ نسمة، وتبعد عن وسط المدينة ١٦ كيلو

مترا على الطريق إلى جلال آباد..

فى هذه المنطقة يوجد مصنع اسمه «مصنع مرمر لإنتاج الرخام» وله حارسان يبيتان به أثناء الليل فى غرفة مخصصة لهما بجوار بوابة المصنع..

فى حوالى الساعة العاشرة مساء السبت ١٠ نوفمبر ٢٠٠١.. كان الحارسان قد فرغا من أداء صلاة العشاء ، وجلسا يحتسيان الشاى وقد «تكور» كل منهما على نفسه من شدة البرد.. هكذا وصفهما لى «سيف الدين» أحد سكان المنطقة الذى شاركهما صلاة العشاء ثم انصرف.

لم تكد تمر دقائق قليلة على انصراف «سيف الدين».. حتى قصف المصنع بأربعة قنابل دمرته بالكامل، وسقطت إحداها فوق غرفة الحارسين، فدفنتهما تحت الانقاض..!



يافطة المصنع الذى قصفته الطائرات الأمريكية


المصنع بعد القصف

بعد ذلك بعدة ساعات قصف المصنع مرة ثانية بالصواريخ.. قرب الفجر..!

قال لى سكان المنطقة أن الأمريكيين يقومون أحيانا بقصف الموقع الواحد مرتين.. بين كل مرة ومرة عدة ساعات.. حتى يقتل فى المرة الثانية من ذهبوا لإنقاذ المصابين واستخراج جثث قتلى المرة الأولى..!

وقد يكون للأمريكيين حسابات أخرى تقوم على احتمال لجوء قيادات طالبان وتنظيم القاعدة إلى المواقع التى يتم قصفها.. باعتبار أنها أصبحت آمنة لأنها دمرت وحذفت من قائمة أهداف الطيارين الأمريكيين.. لذلك يقصفونها مرة أخرى..

المهم أن التجربة علمت الأفغان الحذر.. فلم يسارع

أحد منهم إلى مصنع الرخام بعد قصفه فى المرة الأولى.. وظل الحارسان مدفونين تحت الأنقاض حتى الصباح.

عندما وصلت إلى الموقع مع محمد نعيم صافى.. كان عشرات الناس قد تجمعوا حول غرفة الحارسين التى تحولت إلى أنقاض وبدأوا العمل لاستخراج جثتيهما..

وضعت حقيبتى جانبا وشمرت ساعدى، ونزلت مع محمد نعيم نشارك الناس العمل..

بدأنا برفع الكتل الخرسانية الضخمة.. ثم بعد ذلك الأقل حجما، فالأقل حتى وصلنا إلى الطوب والأتربة.. لاحظت أن الأفغان لديهم خبرة كبيرة فى آداء هذا العمل.. لأنهم كانوا يرفعون الأتربة بأيديهم ولم يستخدموا فأسا أو جاروفا حتى لايصطدم بجثة المتوفى..

أثناء ذلك سمعت صرخة مدوية.. «بوى»..!

خرجت من صبى صغير لايتجاوز عمره ١٥ عاما وكأنها اقتلعت قلب الصبى معها..

استدرت خلفى استطلع الأمر.. انه ابن المرحوم أحمد صابر.. أحد الحارسين اللذين كنا نستخرج جثتيهما.. ارسلته أمه إلى المصنع يستفسر عن سبب تأخر والده فى العودة إلى المنزل هذا الصباح.. فوجده مدفونا تحت الأنقاض..!

صراخ الصبى ضاعف مشاعر الحزن والألم التى كانت تمزق صدورنا.

انهارت دموعه غزيرة.. فخلع طاقيته يخفى بها دموعه، وهو لايستطيع التوقف عن البكاء..

قال له الناس: لاتبك.. أبوك شهيد..!

بعد قليل جاء أولاد الحارس الآخر وأقاربه وأهله.. «إنا لله وإنا إليه راجعون» كانت العبارة التى يرددها الجميع فى ذلك اليوم..

واصلنا رفع الأنقاض.. مرت ساعة من الوقت حتى ظهرت لنا جثة أحد الحارسين.. فصاح الناس: لا إله إلا الله.. ثم أخذنا فى رفع الكتل الخرسانية والدبش والتراب من فوقها..

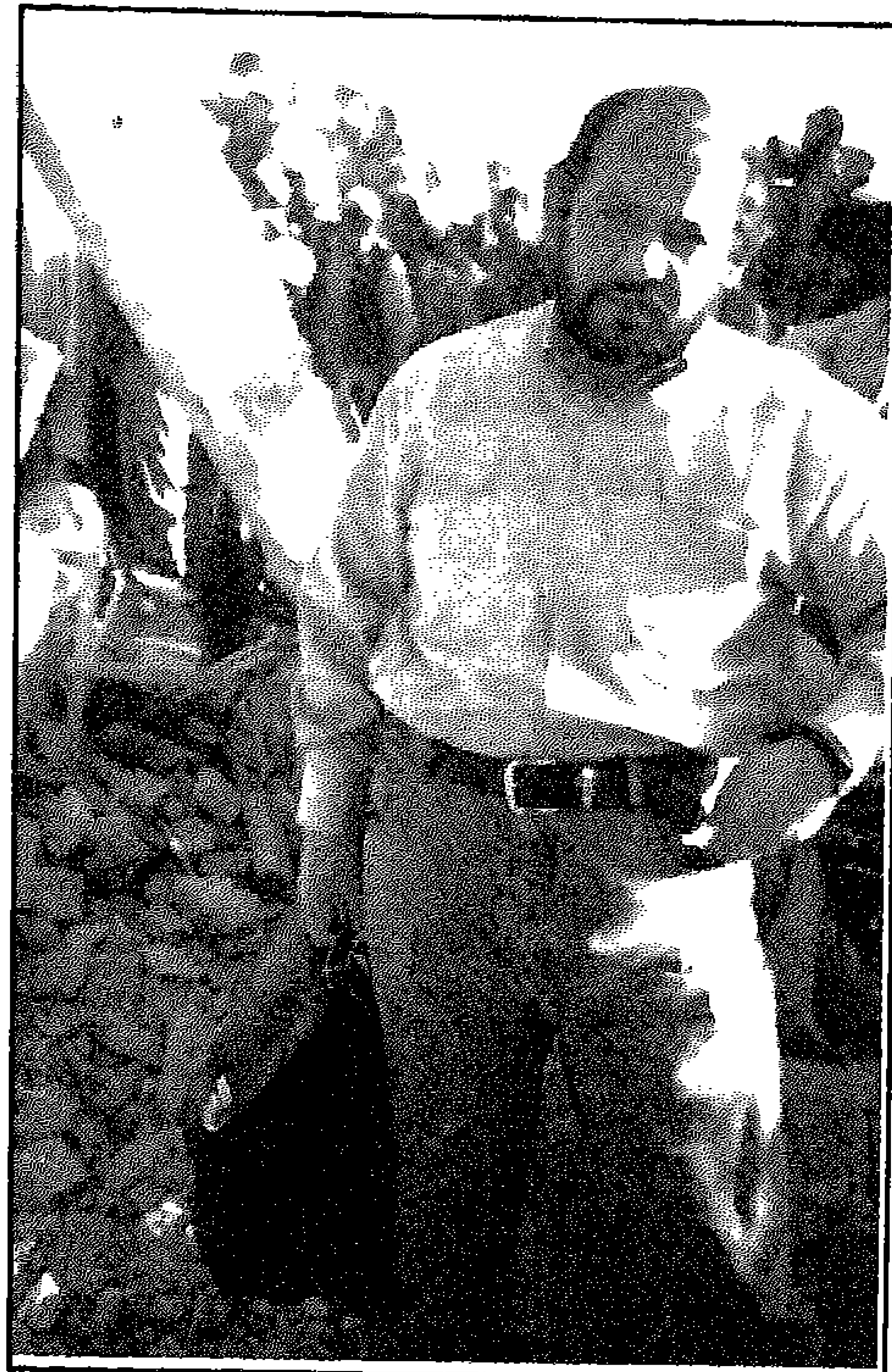
لاحظت أن اليد اليسرى للحارس تغطى وجهه، وقد تصلبت على هذا الوضع فلم تطاوعنى عندما حاولت أن أفرد ذراعه بجانبه..! كأنما كان الرجل قد رفعها لحظة القصف يحاول أن يدفع بها الأحجار التى تساقطت فوق رأسه وقتلته.. فتصلبت يده على هذا الوضع..!

رفعنا الجثة.. وحمدنا الله أنها سليمة.. وخلع أحد الواقفين عباءته وفرشها على الأرض فوضعنا عليها الجثة وحملناها الى الخارج..

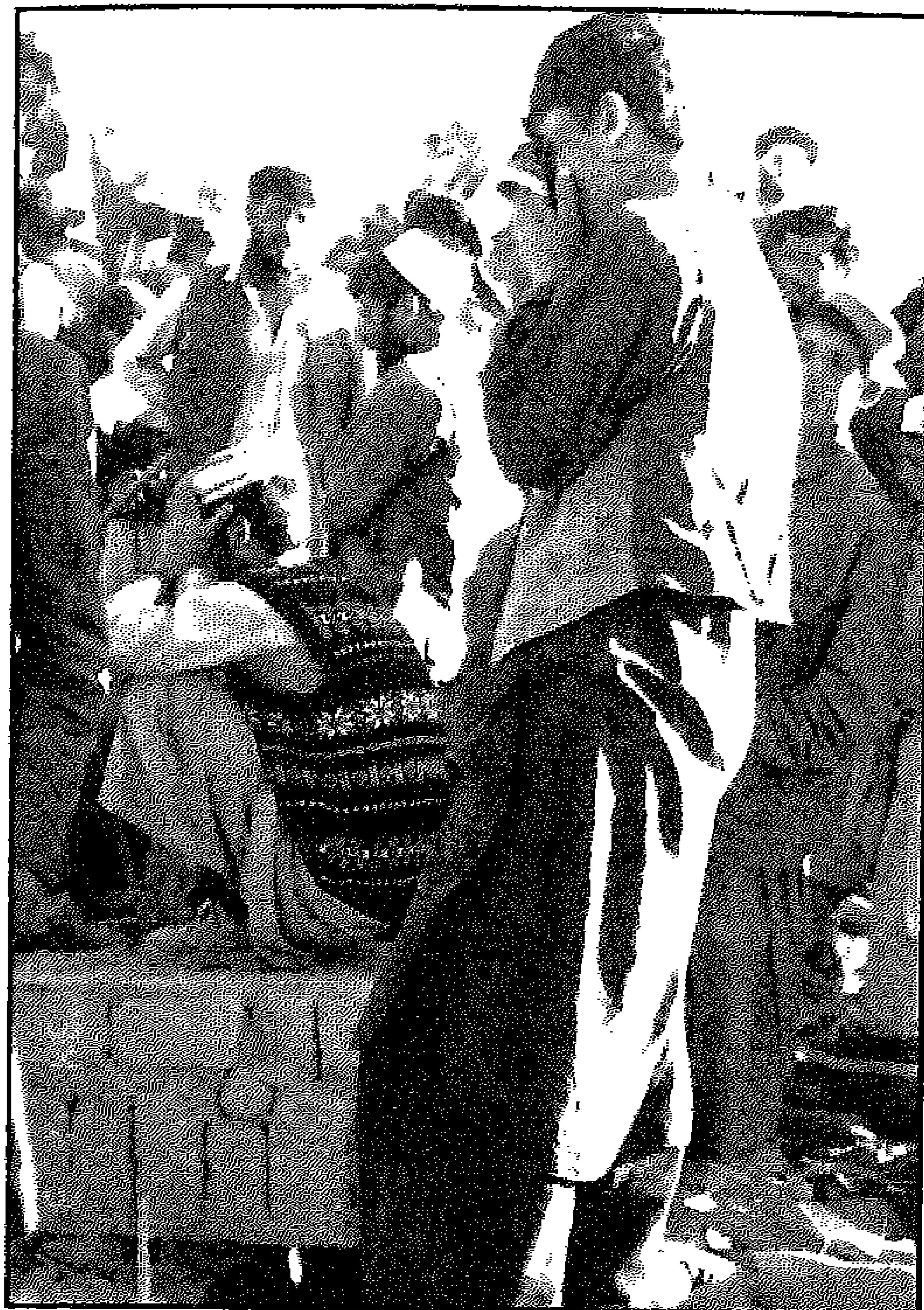
ثم واصلنا البحث عن الجثة الثانية حتى عثرنا عليها.. حملنا الجثتين إلى

مسجد قريب.. قمنا بأداء صلاة الجنازة عليهما.. ودعونا للحارسين بالرحمة والمغفرة ودخول الجنة، ولم ينس الإمام أن يدعو على أمريكا بالهلاك.

قال لى سيف الدين وأنا أصافحه مودعا: هذه المنطقة ليس بها مبنى واحد لحكومة طالبان أو تنظيم القاعدة.. فلماذا يقصفها الأمريكيون..؟!



وضعت الحقيبة جانبا.. وشمرت عن ساعدى لمشاركة الناس فى استخراج الجثتين



ابن المرحوم أحمد صابر يخفى دموعه بالطاقية



ويقف أقصى يمين الصوة يراقب عملية استخراج جثة والده من تحت الانقاض



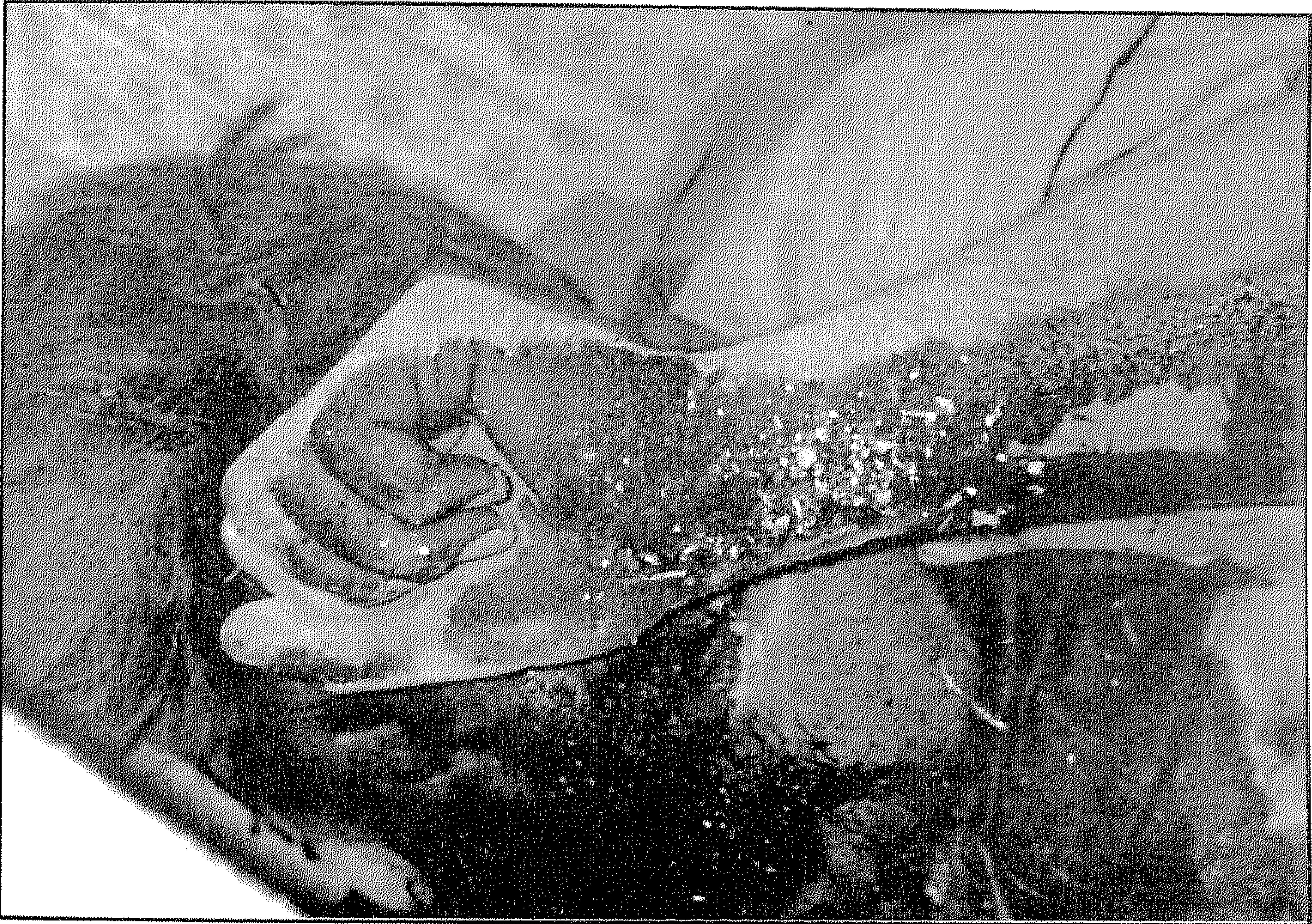
الناس ينتظرون العثور على جثتى الحارسين



شقيق الحارس الثانى جلس على الأرض يبكى بينما أخذ أحد أقاربه يواسيه ويربت عليه بيده



هكذا قتل أحمد صابر.. تصلبت يده فوق وجهه وهو يحاول أن يدفع بها الأحجار المتساقطة عليه



الدماء كانت تغطى الوجه واليد



الحارس الآخر.. عثرنا على جثته بعد نصف ساعة من العثور على جثة زميله أحمد صابر



الجثة مغطاة بعباءة قدمها أحد الحاضرين

في طريق العودة إلى الفندق فوجئت بمجموعة من المسلحين بالبنادق والمدافع الرشاشة يستوقفوننا عند مدخل المدينة.. معظمهم شباب صغير السن في العشرينات من أعمارهم.. ملابسهم مهلهلة.. يتصرفون بوحشية.. لم يكن واضحا لنا الجهة التي ينتمون إليها بالضبط..

بكلمات قليلة عرفهم محمد نعيم بنفسه.. لكنهم تجاهلوه وطلبوا منا النزول من السيارة،.. رفض وأخرج بطاقته من جيبه يطلعهم عليها.. لم يهتموا بها..!

تطور الحوار بينهما إلى شجار.. فتدخلت لتهدئة الموقف، وقلت لهم إنني من مصر.. متوقعا منهم الاهتمام والترحيب بي كما كان يحدث من قبل..

لكن هذه المرة لم يرحبوا بي.. بل جاء أحدهم يدق زجاج السيارة جانبي بعنف ويطلب مني النزول..

كان أكثر مايخيفني في تلك اللحظة أن يأخذوا حقيبتي.. وبها الكاميرا والأفلام والشرائط وجهاز التسجيل.. وكل حصيلة الرحلة من صور وأحاديث.. فقذفت بالحقيبة أسفل المقعد الذي أجلس عليه.. وحاولت من خلف الزجاج تهدئة الشاب الذي كان يحاول فتح باب السيارة.. فلما لم يستطع أخذ يدق على الزجاج بكعب المدفع..!

اصطنعت على وجهي ابتسامة وأنا أشير له بيدي كي يهدأ.. قال كأنه يسألني عن اللغة التي أتحدث بها: إنجلش.. أرابيك.. فطلب مني محمد نعيم عدم التحدث معه أو النزول من السيارة.. قال: طالما تجلس في سيارتي فأنا مسئول عن حمايتك.. أما إذا نزلت من السيارة فلست مسئولا عنك..!

زاد عدد الذين يحاولون فتح باب السيارة جانبي إلى ثلاثة أشخاص.. صبر أولهم أخذ في النفاذ فدق بيده على خزانة الرصاص بمدفعه وبدأ يستعد لإطلاق النار..!

في لحظة أحسبها أقصر من لمح البصر.. سحب محمد نعيم مدفعا رشاشا كان يضعه خلف مقعده وقفز واقفا خارج السيارة.. قائلا لهم: هو ضيفي.. وسأقتل من يقتله..!

مرت دقيقة صمت بدافيها كل طرف مستعدا لإطلاق النار..!

كان محمد نعيم يتعامل معهم بإعتباره مسئولا في حكومة طالبان، ويجب عليهم أن يحترموه.. فصاح فيهم: أين كبيركم يتحدث معي.

تقدم أحدهم إليه وقال له: «أمير المؤمنين الملا محمد عمر أمرنا بقتل كل أجنبي يحاول دخول المدينة..ونحن لن نعصى أمر أمير المؤمنين..!»

قال محمد نعيم: لكن هذا الرجل الذي تريدون قتله الآن.. ضيف على الإمارة الإسلامية.. ومسلم.. ومجاهد.

رد محدثه: نحن في حرب.. وصدرت لنا اليوم أوامر بقتل كل أجنبي يضبط، وهو يحاول دخول المدينة..!

فطلب محمد نعيم عرض الأمر أولا على القائد الذى يتبعونه.. فوافقوا.
فتح باب السيارة.. فقفز فيها اثنان منهم بمدفعيهما وجلسا بالمقعد الخلفى.
فى الطريق إلى القائد لمحت الشابين ينظران لى بنوع من الفضول والفرح الصامت.. كأنهما متشوقان لتجربة «القتل» التى سيمارسانها بعد قليل.. بينما كان وجه محمد نعيم مكفهرا وغاضبا..!
عرجنا بالسيارة إلى قلب الجبل.. وسرنا مسافة كيلو متر تقريبا حتى وصلنا إلى منطقة فضاء بها مبنى واحد يتكون من طابقين مازال عليهما آثار قصف قديم..
المبنى أمامه فناء واسع.. والمكان كله خال من الناس لا يوجد به أحد على الإطلاق.. باستثناء شخص واحد فقط يجلس فى طرف الفناء فوق كومة من القش اتخذ منها مصلى.
كان ظهر الرجل للمبنى ووجهه للجبل كأنما قد أعطى ظهره للدنيا كلها وجلس مستغرقا فى قراءة القرآن من مصحف وضعه أمامه فوق قطعتين من الخشب على شكل (×).
كانت ملابسه قليلة وقديمة لا تكاد تكفيه.. فأخذ يرتعش من البرد.. ويرفع عباءته لتغطى كتفيه كلما سقطت من عليهما..!
وقفنا بالسيارة على مسافة تقدر بنحو ٥٠ مترا من الرجل.. وأصر الشابان على إنزالى من السيارة.. قالا لمحمد نعيم: هنا لم يعد ضيفك.. ثم اصطحبنى أحدهما فأوقفنى بجوار جدار المبنى.. بينما ذهب الآخر مع محمد نعيم إلى الرجل، ووقفا صامتين لا يتكلمان حتى استدار الرجل إليهما يستطلع الأمر..
لم يسمعهما أكثر من دقيقة واحدة.. ثم أشار لهما بيده إشارة فهما منها إطلاق سراحى والسماح لى بدخول المدينة.. وعاد الرجل إلى جلسته الأولى يقرأ القرآن.. كأن أمرنا كله لم يكن يستحق منه التوقف عن القراءة.!

* * *

دخلنا المدينة.. بعد أن عشت لحظات صعبة وقفت فيها على شاطئ الموت.. كنت انتظر فى كل لحظة منها إطلاق الرصاص على رأسى أو على صدرى.. حسبما يختار القتلة..!
– على المستوى الشخصى.. كانت التجربة قاسية.. استعنت فى مواجهتها بإيمانى العميق بالله وقوله تعالى «قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا» ـ صدق الله العظيم.. وتذكرت مثلا كثيرا ما قاله لى زميلنا جمال إسماعيل مراسل قناة تليفزيون أبوظبى فى إسلام آباد بينما كنت أستعد لدخول أفغانستان.. يقول المثل: «والله.. مايعرف يفك الراس إلا اللى ركبها»..!
– على مستوى الأحداث.. كانت التجربة تحمل دلالات قوية على أن قوات التحالف الشمالى أصبحت قريبة من كابول.. فلو أخذت برأى محمد نعيم، وهو أن الشباب

الذين اعترضوا طريقنا ليسوا إلا مجموعة من «الرعاع» يحاولون استغلال الوضع لابتزاز الناس وسلب ما لديهم من نقود.. فإن ذلك يعنى ضعف سيطرة طالبان على كابول، ومن ثم انتشار الفوضى وتنفيذ «سيناريو» الموالين للتحالف الشمالى لإسقاط المدينة..ولو أخذت بصحة ما قاله لنا «كبير» هؤلاء الشباب من أن الملا محمد عمر قد أمرهم فعلا بقتل كل أجنبى يحاول دخول المدينة.. فإن ذلك يعنى أن قوات التحالف الشمالى قد أصبحت على أبواب كابول، والملا محمد عمر يخشى من إرسال «الأجانب» كطلائع يتجسسون لحسابهم.. لذلك أمر بقتل كل أجنبى يحاول دخول المدينة..

لم يكن هناك من احتمال ثالث.. وبالتالى شعرت أن المدينة مقبلة على «حمام دماء» سيقتل فيه الآلاف حتى تتمكن إحدى القوتين من السيطرة عليها..!

هذا الشعور دفعنى لمحاولة التعجيل بالسفر إلى قندهار.. عرضت الفكرة على محمد نعيم.. فقال لى: سأرتب لك الأمر غدا..

(٤)

عدت إلى الفندق فوجدته شبه خال.. ووجدت رسالة تركتها لى زميلة من وكالة أنباء «أسوشيتدبرس».. اسمها «كاثى».. تنصحنى فيها بمغادرة الفندق بأسرع وقت ممكن.. قالت إنها انتقلت للإقامة فى المنزل رقم ٩٥ شارع ١١ بمنطقة «وزير أكبر خان»..!

راجا عمر وكل مجموعة تليفزيون الـ «بى. بى. سى» تركوا الفندق أيضا.. كذلك مجموعة الصحفيين الأتراك الذين يراسلون شبكة تليفزيون «سى. إن. إن».

قلت لنفسى كل هؤلاء يراسلون وسائل إعلام بريطانية وأمريكية.. ولابد أنهم علموا من رؤسائهم أن الفندق سوف يقصف.. لذلك غادروه..

فحزمت حقيبة ملابسى وعزمت على البحث عن مكان آخر للإقامة به.. لكن المسئول بقسم الاستقبال فى الفندق حذرنى من ذلك قائلا إن وزارة الخارجية حددت إقامتنا فى فندق «إنتركونتيننتال» فقط، ولا يجوز لأى أحد منا مجرد الخروج إلى الشارع إلا برفقة مسئول من وزارة الخارجية.. كذلك لاتجوز الإقامة فى أى مكان آخر إلا بتصريح مكتوب ومختوم من وزارة الخارجية.

قلت له: لكن مراسلى «الأسوشيتدبرس» والـ «بى. بى. سى» والـ «سى. إن. إن» تركوا الفندق، وانتقلوا للإقامة فى أماكن أخرى.. قال: لقد سمح لهم بذلك لأن لهم مكاتب دائمة فى كابول..

هكذا وجدت نفسى تحت الإقامة الجبرية بفندق شبه خال..!

سألت عن الملا قدرة الله جمال.. لم أجده فى كابول..!

سألت عن الملا عبدالحنان همت.. اختفى..!

الشخصيات التى تعودت رؤيتها بالفندق والجلوس معها فى «الريستوران».. لم يأت منها أحد..

«الريستوران» خال تماما.. صعدت إلى غرفتى.. لم أستطع البقاء فيها طويلا حيث لا يوجد بها تليفزيون ولا راديو ولا تليفون ولا صحف حتى التيار الكهربائى مقطوع والظلام يلف الفندق كله.. كنت أجلس فى الغرفة على ضوء شمعة صغيرة بينما شريط أحداث اليوم بدأ يدور أمامى من أوله.. كان الأبرز فيه وجهى الحارسين اللذين أخرجنا جثتيهما من تحت الأنقاض.. وكأنهما جاءا إلى الغرفة ليحكيا لى كيف وقع الحادث..!

السكون الذى كان يملأ المكان لم يكن هدوءا .. بل كان وحشا مفترسا له ألف صوت وألف شكل..!

أطفأت الشمعة وخرجت أتحسس فى الظلام سلم النزول إلى طابق الاستقبال بالفندق لعلى أجد أحدا أتحدث إليه.. فوجدت نفسى وحيدا فى طابق طويل عريض ملئ بالمقاعد الخالية.. ذهبت أتحدث إلى موظف الاستقبال الذى لم يكن يعرف من الإنجليزية سوى عشر كلمات.. فهمت منها بصعوبة أنه قرر الخروج بأسرته من كابول بمجرد أن يأتى الصباح..

واصلنا الحديث معا من أجل تبديد السكون فى المكان.. لكن فى الحقيقة لم يكن أحدنا يفهم من الآخر سوى كلمات قليلة..!

ثم سمعت صوتا فى «الريستوران» فذهبت إلى هناك استطلع الأمر.. وجدت صديقى «منذر النمرى» و«عثمان آية فرح» قد عادا من الخارج ويبحثان عن أحد يقدم لهما طعام العشاء..

جلسنا نتناول الطعام على ضوء فوانيس صغيرة تعمل بالكيروسين.. كان يقدمه لنا أفغانيان تعودنا رؤيتهما منذ وصلنا إلى الفندق.. لكن وجهيهما فى هذه الليلة كانا ينطقان بالهم والخوف من المجهول..!

بعد قليل.. دخل القاعة صحفى ألمانى اسمه: «كريستوف هورستيل» يعمل مراسلا للقناة الثانية بالتليفزيون الألمانى.. جلس معنا يتناول العشاء.. وقال إنه فصل اليوم من عمله لأن رؤسائه يتهمونه بالتحيز لطالبان..حيث طلبوا منه أكثر من مرة التوقف عن إرسال الصور التى تكشف فظائع القصف الأمريكى على الشعب الأفغانى، والتركيز بدلا من ذلك على عمليات توزيع المساعدات الإنسانية على معسكرات اللاجئين.. لكنه لم يستجب لهذه التوجيهات.. ففصلوه.. وأبلغوه بقرار الفصل عبر الهاتف..!

كان يعرض الأمر علينا ببساطة وروحه المعنوية مرتفعة جدا..

Christoph Hörstel

اسم: «كريستوف هورستيل» كما كتبه لى بخط يده

فسألته: وما هى خطتك الآن.. هل ستغادر كابول؟..

قال: لا.. سأواصل العمل هنا، وأرسل التقارير إلى قناة تليفزيون «أى. تى. إن» البريطانية.. لقد اتصلت بهم واتفقنا على العمل.. سأبقى هنا لأننى أصبحت متعاطفامع طالبان، ولابد أن أنقل للعالم ما يتعرض له الشعب الأفغانى من مذابح.. ابق معى..

قلت له: سأبقى معك.. رغم شعورى بأننا لن نبقى طويلا.. لأن هناك إحتمالا أن يقصف الفندق الليلة ونموت تحت الأنقاض!

قال: إذا متنا سنذهب إلى الله.. إن الحياة مع الله أفضل من الحياة مع الناس.. الناس سيئون..!

* * *

صعدت مع «منذر النمرى» و«عثمان آية فرح» إلى سطح الفندق نحاول إرسال تقاريرنا الصحفية التى جمعنا موادها طوال اليوم بينما بقى كريستوف فى «الريستوران» يحتسى القهوة.. ثم عدت بعد ذلك إلى غرفتى..

وقفت فى الشرفة أنظر إلى مدينة كابول الغارقة فى الظلام.. لم يكن التيار الكهربائى مقطوعا عنها بسبب عطل أو نقص فى الوقود.. وانما كان إجراء تقوم به سلطات طالبان لعله يساعد فى إبعاد الطيارين الأمريكيين عن المدينة، لأن معظم الغارات الجوية كانت تحدث أثناء الليل.. عندما يحل الظلام وتشتد البرودة، ويأوى الأفغان إلى مساكنهم عندئذ تبدأ الطائرات الأمريكية فى قصفهم بالقنابل والصواريخ لتضمن بذلك سقوط أكبر عدد ممكن من الضحايا، وفى نفس الوقت تحتمى بالظلام من دفاعات طالبان..!

لذلك اعتدت طوال الفترة التى أقمتها فى أفغانستان على سماع صوت الانفجارات أثناء الليل حتى ساعات الصباح الأولى.. سواء فى جلال آباد.. أو كابول التى كان المبيت فيها يعنى محاولة النوم فى مدينة تقصف كل ليلة أكثر من ٨٠ مرة..!

لا أستطيع القول إننى لم أنم فى كابول.. فقد كنت أغفو بعض الأوقات فى الليل.. لكننى كنت أفيق بسرعة على صوت انفجار القنابل وانهيار البيوت وصراخ الناس.. وكلما اشتد القصف أحسب أن القنبلة القادمة ستسقط فوق فندق «إنتركونتيننتال» الذى أقيم به.. لاسيما أنه قبل وصولى كابول بأيام قليلة قصف فندق قريب جدا منه اسمه «سبين هوتيل» بأربع قنابل..!

أغلقت الشرفة وذهبت إلى الفراش أحاول النوم.. لكن الطائرات الأمريكية جاءت إلى المدينة قبل أن يأتى النوم.. فسهرت مع صوت الانفجارات حتى الصباح.. كانت القنابل فى هذه الليلة تهز العاصمة.. يبدو أن معظمها كانت من النوع ثقيلة الوزن.. وبعضها كانت تسقط أحيانا متتابعة كأنما تنطلق من مدفع سريع الطلقات..!

قضيت الليل جالسا فى الفراش.. أتمزق مع سقوط كل قنبلة لإحساسى بأن أبرياء

قد لقوا حتفهم فى هذه اللحظة.. كانت لحظات صعبة.. أصعبها عندما سقطت قنبلة بالقرب من الفندق واخترقت احدى شظاياها زجاج شرفة غرفتى ثم استقرت فى الفراش على بعد سنتيمترات قليلة منى..!



زجاج شرفة غرفتى بالفندق.. بعد أن اخترقته احدى الشظايا واستقرت فى فراشى على بعد سنتيمترات قليلة منى..!!

صباح اليوم التالى.. الاثنين ١٢ نوفمبر ٢٠٠١.. كنت على موعد فى وزارة الخارجية لاستلام تأشيرة بتمديد إقامتى فى أفغانستان مدة أسبوع آخر.. حيث كانت مدة التأشيرة الأولى قد أوشكت على الانتهاء.. لكننى قبل أن أغادر الفندق فوجئت بالزميل تيسير علونى مراسل قناة الجزيرة يأتى إلينا فى وقت مبكر، ويبلغنا أن قوات التحالف الشمالى قد أصبحت على مسافة قريبة من كابول.. وأنه من الأفضل أن نغادر المدينة فى سيارات صغيرة قبل أن يحل الظلام.. لأن قوات التحالف الشمالى إذا دخلت المدينة سوف تقوم بارتكاب مذابح.. خاصة ضد العرب.. قال: «لقد نصحتكم.. وأنا عن نفسى سأخرج من المدينة عندما أشعر بالخطر»..!

كنت أثق فى تقدير الزميل تيسير علونى للأمور.. ليس فقط لأنه كان مقيما فى كابول وله صلات قوية بالمسئولين والناس هناك.. ولكن لأنه يعتبر من أكفأ المراسلين على الإطلاق.. واستطاع برسائله عبر قناة الجزيرة أن ينقل مئات الملايين من المشاهدين فى العالم إلى ميدان الحرب.. ويجعلهم يعيشون أحداثها لحظة بلحظة.. كما كانت اللقطات التى صورها فى كابول.. وكذلك التى صورها الزميل يوسف الشولى مراسل الجزيرة فى قندهار.. هى المصدر الوحيد الذى اعتمدت عليه جميع شبكات التليفزيون العالمية الأخرى فى نقل أحداث الحرب.. فرأى العالم صورا حية لفظائع العدوان الأمريكى على أفغانستان..وثارت قطاعات كبيرة فى الرأى العام العالمى ضد الولايات المتحدة إلى الدرجة التى جعلت الإدارة الأمريكية تشعر بالقلق والخوف، وتوجه الانتقادات على لسان أكبر مسئوليها ـ بوش ورامسفيلد ـ إلى قناة الجزيرة..!


تيسير علونى

لذلك أخذت ما قاله الزميل تيسير علونى فى الاعتبار..

لكن فى نفس الوقت كان من الصعب علىَّ جدا أن أضحى بفرصة لقاء الملا محمد عمر. فبدأت البحث عن محمد نعيم صافى لمساعدتى على مغادرة كابول إلى قندهار.. لم أجده..!

توجهت إلى وزارة الإعلام والثقافة.. لم أستطع الوصول إليها.. فقد كان كل شئ فى المدينة يتغير بسرعة شديدة.. العنف.. الغضب.. الشجار.. إعتراض الناس فى الشوارع.. إطلاق النار.. كانت ملامح الفوضى قد بدأت تظهر بوضوح فى المدينة. وأصبح كل شئ خارج السيطرة..!

فى هذه اللحظة بدأت أفقد الأمل فى إمكانية لقاء الملا محمد عمر.. فقصدت وزارة الخارجية والتى تقع على مسافة قريبة من الفندق لأستطلع الأمر. .

هناك التقيت بالملا رحيم الله أمان الله عبدالله .. نائب رئيس قسم المراسم والاستقبالات بالوزارة.. تخرج فى كلية أصول الدين جامعة الأزهر عام ١٩٩٨.. استقبلنى بحفاوة بالغة وقدم لى والد زوجته الذى كان موجودا معه بالمكتب.. وفهمت أن الأسرة كلها على وشك مغادرة كابول.. فأدركت أن ذلك هو القرار السليم فى مثل هذا اليوم..

قدمت جواز سفرى إلى الملا رحيم الله..وطلبت منه تصريحا بمغادرة البلاد.. أنجزه لى بسرعة شديدة وأعفانى من دفع رسوم قيمتها عشرة دولارات... لأننى كما قال: «من مصر أم الدنيا»..

كان ودودا .. وكريما معى للغاية.. وحرص على أن يصحبنى حتى باب الوزارة ليودعنى.. ويبدو أنها كانت آخر مهمة يقوم بها الملا رحيم الله فى وزارة الخارجية.

* * *

لم يمهلنى الوقت لأسأل عن محمد نعيم صافى مرة أخرى.. ولم التقط له صورة.. فقد كنا نؤجل ذلك دائما إلى «لقاء» يحكى لى فيه عن ذكرياته فى مصر عندما كان طالبا بجامعة الأزهر فى منتصف التسعينيات.. لكن اللقاء لم يتم.. والصورة لم تلتقطها الكاميرا.. ولكنها محفورة فى ذهنى وستظل فى خاطرى إلى الأبد.. كما سيظل صوته يرن فى أذنى وهو يقول: «هو ضيفى.. وسأقتل من يقتله»..!

شكرا لمحمد نعيم صافى.. الذى أنقذ حياتى..

* * *

السادسة والنصف مساء الإثنين ١٢ نوفمبر ٢٠٠١ وصلت إلى ترخم.. وعبرت الحدود من أفغانستان إلى باكستان.. فى نفس الوقت الذى كانت فيه قوات التحالف الشمالى قد وصلت إلى أبواب كابول .. !

الفصل السابع والعشرون

• سقوط كابول ..

«« قصة نصف يوم من التاريخ» ..

□ *لم يكن قادة التحالف الشمالى أنفسهم يتوقعون سقوط مدينة كابول فى أيديهم بهذه السرعة.. وبهذه الطريقة الدراماتيكية.. التى تبدو وكأن المدينة هى التى كانت تناديهم ليتسلموا مفاتيحها..!*

لكن هناك ثلاثة أسباب عجلت بسقوط المدينة..

ـ السبب الأول: وقوع خيانات فى صفوف الجبهة الأمامية لقوات طالبان بعد شراء ذمم بعض قادتها بمبالغ ضخمة.. وهو أمر كثيراً ما يحدث على الساحة الأفغانية.. ويعتقد أن جماعة طالبان نفسها لجأت إلى هذا الأسلوب عام ١٩٩٦ لبسط سيطرتها على معظم أجزاء الدولة..

ـ السبب الثانى: القصف الأمريكى المكثف لخطوط القتال الأمامية لطالبان، والذى أصابها بخسائر كبيرة وجعلها غير قادرة على الصمود.. وبالتالى مهد الطريق لشراء ذمم قادتها واستسلامهم..

كذلك فإن القصف المتواصل لكابول وسقوط مئات الضحايا وتدمير المنشآت والمنازل بها، أصاب سكانها بالإحباط الشديد، وأفقدهم الثقة فى قدرة طالبان على حمايتهم أو الدفاع عنهم.. فأصبحوا يلتمسون السلام والأمن بأى ثمن.. ويرحبون بقدوم أى طرف يكون قادراً على وقف القصف بالقنابل والصواريخ التى ظلوا يتعرضون لها بالليل والنهار على مدى خمسة أسابيع متصلة.. وهو ما كان قد توفر بالفعل لسكان المدن التى سقطت فى أيدى قوات التحالف الشمالى..

ـ السبب الثالث: ضعف العتاد العسكرى لقوات طالبان.. حيث كان معظمه قديماً ويحتاج إلى الصيانة، وقطع الغيار حتى يمكن استعماله بكفاءة ـ مثل صواريخ ستينجر التى كانت تمثل تهديداً للطائرات الأمريكية ولم يتم استخدامها بسبب انتهاء فترة صلاحية بطارياتها[٨٩]ـ وذلك فى مواجهة أسلحة حديثة كانت قوات التحالف الشمالى قد حصلت عليها بعد بدء الحرب بعدة أسابيع من روسيا، وساعدتها على التقدم بسرعة واحتلال العاصمة.. الدليل على ذلك أن قوات التحالف الشمالى قبل أن تحصل على هذه الأسلحة ـ وحتى فى ظل القصف الأمريكى لقوات طالبان ـ عجزت عن التقدم على الأرض خطوة واحدة.. وفشلت كل محاولاتها فى

بسط سيطرتها على مدينة مزار الشريف طوال الأسابيع الأولى من بدء القتال..

أما القول بأن انسحاب قوات طالبان.. سواء من كابول أو غيرها من المدن الأفغانية التى سقطت فى أيدى التحالف الشمالى.. قد جاء فى إطار خطة وضعها المُلا محمد عمر لنقل ميدان المعركة إلى الجبال والتحضير لحرب عصابات طويلة بعيداً عن المدن السكنية لتجنيب المدنيين ويلات القصف الأمريكى، والمواجهة العسكرية مع قوات التحالف الشمالى.. فهو كان مجرد محاولة لتقديم تفسير مقبول لما حدث من أجل الإبقاء على الروح المعنوية عالية لمن تبقى من قوات طالبان، ومن يؤيدونهم من قبائل البشتون.. وفى نفس الوقت إعفاء زعماء طالبان من الاعتراف بالهزيمة..

* * *

وهناك تفسيرات أخرى كثيرة لما حدث.. بعضها يقول: إن المُلا محمد عمر أصدر قراره المباغت بالانسحاب من كابول من أجل إحداث انشقاق فى صفوف التحالف الشمالى عند دخولهم العاصمة.. وبعضها يقول: إنه أراد إرسال «رسالة» إلى الحكومة الباكستانية يلفت بها نظرها إلى ما أدى إليه تخليها عن طالبان من نتائج سلبية تمثلت فى استيلاء خصوم باكستان على العاصمة الأفغانية..

غير أن أقرب التفسيرات إلى المنطق ما جاء فى أحد التقارير الأمريكية.. وهو أن الروس لعبوا دوراً أساسياً فى سقوط كابول على هذا النحو المفاجىء الذى لم يتوقعه الأمريكيون أنفسهم.. بل وكانوا لا يريدون حدوثه بهذا الشكل، وطلبوا من قوات التحالف الشمالى البقاء خارج كابول، وتركها مدينة مفتوحة لحين تشكيل حكومة مؤقتة فى أفغانستان..

يقول التقرير الأمريكى[٩٠].. إن الرئيس الروسى فلاديمير بوتين اتصل بنظيره الأمريكى الرئيس جورج بوش يوم ٧ نوفمبر ٢٠٠١، وطلب منه أن يوافق على دخول قوات التحالف الشمالى إلى مزار الشريف «خلال ساعات»، ثم التقدم بعد ذلك بسرعة نحو كابول.. فسأله الرئيس بوش عما إذا كان بوسع قوات التحالف الشمالى الاستيلاء على مزار الشريف.. قال بوتين: «نعم.. لقد قمنا خلال الأيام القليلة الماضية بالإعداد لذلك.. والآن نعتقد أنه أصبح بالإمكان الاستيلاء على مزار الشريف، ثم التقدم نحو كابول».. ولخص بوتين وجهة نظره فى الموقف بضرورة إنجاز ذلك فى «عملية واحدة سريعة» للاستفادة من حالة الانهيار والتخبط التى ستحدث فى صفوف قوات طالبان عقب سقوط مزار الشريف.. خاصة وأن قوات من الجيش الأوزبكى سوف تنضم للقتال إلى جانب قوات التحالف الشمالى ضد طالبان بعد أن تمكن الرئيس بوتين من إقناع الرئيس الأوزبكى «كاريموف» كى يقوم بدفع وحدات بأكملها من القوات المسلحة الأوزبكية، بعتادها وأسلحتها، إلى مناطق الاشتباكات بين طالبان والتحالف الشمالى، بعد أن تتخلى هذه الوحدات عن ملابسها العسكرية

النظامية التى تحمل علامة الجيش الأوزبكى، فتبدو كأنها جزء من قوات الجنرال عبدالرشيد دوستم..!

يكشف التقرير الأمريكى أن دونالد رامسفيلد وزير الدفاع الأمريكى كان قد طلب قبل ذلك من الرئيس كاريموف إشراك القوات الأوزبكية فى القتال.. لكن كاريموف رفض هذا الطلب بسبب خشيته من رد فعل الجماعات الإسلامية التى من الممكن أن تنظم تمرداً ضده فى البلاد، لأنه فى هذه الحالة سوف يحتاج إلى كل الوحدات العسكرية الموالية له لقمع التمرد.. إلا أن الرئيس بوتين اتصل بكاريموف عقب مغادرة رامسفيلد لأوزبكستان، وأبلغه أن موسكو لن تتخلى عن حكومته فى حالة حدوث تمرد داخلى، وتعهد بوتين لكاريموف بأن القوات الروسية ستتدخل لقمع هذا التمرد إذا حدث.. شرط أن يوافق على إرسال وحدات عسكرية بتجهيزاتها إلى أفغانستان.. فوافق كاريموف، وتم بالفعل إرسال هذه الوحدات..

فى نفس الوقت نجحت المخابرات الروسية فى اختراق صفوف القادة المحليين الذين يحاربون إلى جانب طالبان بعد أن قدمت إليهم كميات كبيرة من النقود - حيث إن العملة الأفغانية تطبع فى موسكو - ووعدتهم بوظائف ثابتة فى الحكومة الجديدة، وفى ظل الجيش الأفغانى بعد سقوط حكومة طالبان.. بشرط تخليهم عن دعم الحركة..

ويعترف التقرير الأمريكى أن ما فعلته وحدات المخابرات الروسية حول مدينتى مزار الشريف وكابول هو الذى غير مسار الحرب، وليس العمليات التى قامت بها القوات الخاصة الأمريكية..!

بعد سقوط مزار الشريف ـ يوم ٩ نوفمبر ـ اتصل الرئيس بوتين مرة أخرى بالرئيس بوش ليبلغه أنه من الأفضل أن تتقدم قوات التحالف الشمالى بسرعة نحو كابول.. فوعده بوش بالرد عليه بعد أن يجرى «تشاورا قصيرا» مع مستشاريه.. إلا أن بوش لم يستشر أحداً، وإنما جلس بمفرده بعض الوقت ثم اتصل ببوتين ليبلغه أنه لا يمانع من استيلاء قوات التحالف الشمالى على كابول إذا كانت موسكو واثقة من أن ما حدث فى مزار الشريف يمكن أن يتكرر فى كابول..



بوش جلس بمفرده ولم يستشر أحداً

ويفسر التقرير الأمريكى إحجام الرئيس بوش عن استشارة باول ورامسفيلد.. بأن الأول كان سيعترض بسبب التعهدات التى قطعها على نفسه للجنرال مشرف بأن كابول ستبقى مدينة مفتوحة، ولن يدخلها التحالف الشمالى.. والثانى كان سيعترض أيضاً لاعتقاده أن تدخل الروس على هذا النحو يعرقل الخطط العسكرية الأمريكية، ويثير «الشكوك» حول ما تريد موسكو أن تفعله مستقبلاً فى أفغانستان.. بينما الرئيس بوش كان يشعر بالحاجة إلى تحقيق انتصار «ملموس» يقدمه إلى الرأى العام الأمريكى بعد مرورة أكثر من شهر على بدء الحرب، لذلك اضطر إلى تغيير حساباته ووافق على دخول قوات التحالف الشمالى كابول..

كما اضطر المُلا محمد عمر أيضاً إلى تغيير حساباته فأمر قواته بالانسحاب من كابول، عندما أدرك أن أسلوب الاشتباك النظامى مع قوات كاريموف المسلحة جيداً، ومعها قوات التحالف الشمالى تحت حماية جوية من المقاتلات الأمريكية لن ينتهى لصالح قواته..خاصة فى ضوء افتقاد كابول للوقود، وافتقاد طالبان للذخائر.. واستمرار «سيناريو مزار الشريف» على طول الطريق إلى كابول من حيث استمالة القادة المحليين الموالين لطالبان.. إما لتغيير معسكرهم أو للوقوف على الحياد..!

* * *

هكذا يعترف التقرير الأمريكى بأن سقوط مدينتى مزار الشريف وكابول تم بخطة وضعها الرئيس الروسى فلاديمير بوتين، واشترك فى تنفيذها جهاز المخابرات الروسية.. فضلاً عن أن الأسلحة التى استخدمتها قوات التحالف الشمالى فى الهجوم على مواقع طالبان كانت أسلحة روسية.. واشتراك القوات الأوزبكية فى الحرب كان أيضا بطلب روسى بعد أن رفض كاريموف الطلب الأمريكى..!



فلاديمير بوتين

أما الولايات المتحدة التى ظلت تقصف أفغانستان لمدة تزيد على شهر، فيما يشبه الاستعراض العسكرى لقوتها.. فلم تستطع أن تغير مسار الحرب إلا بعد التدخل الروسى..!

* * *

هذا عن الأسباب والظروف التى أدت إلى سقوط كابول فى أيدى قوات التحالف الشمالى.. أما وقائع الحدث فقد جرت على النحو التالى:

- يوم ١٢ نوفمبر ٢٠٠١ وصلت قوات التحالف الشمالى إلى أبواب العاصمة

كابول، وبقيت خارجها فى انتظار صدور التعليمات لها باقتحام المدينة..

ـ فى منتصف ليل ١٢ ـ ١٣ نوفمبر ٢٠٠١ انسحبت قوات طالبان بعتادها وأسلحتها تحت جنح الظلام من كابول متوجهة إلى قندهار والولايات الجنوبية للتمركز بها.. بينما رفض عدد من الأفغان العرب الانسحاب وظلوا بالمدينة..

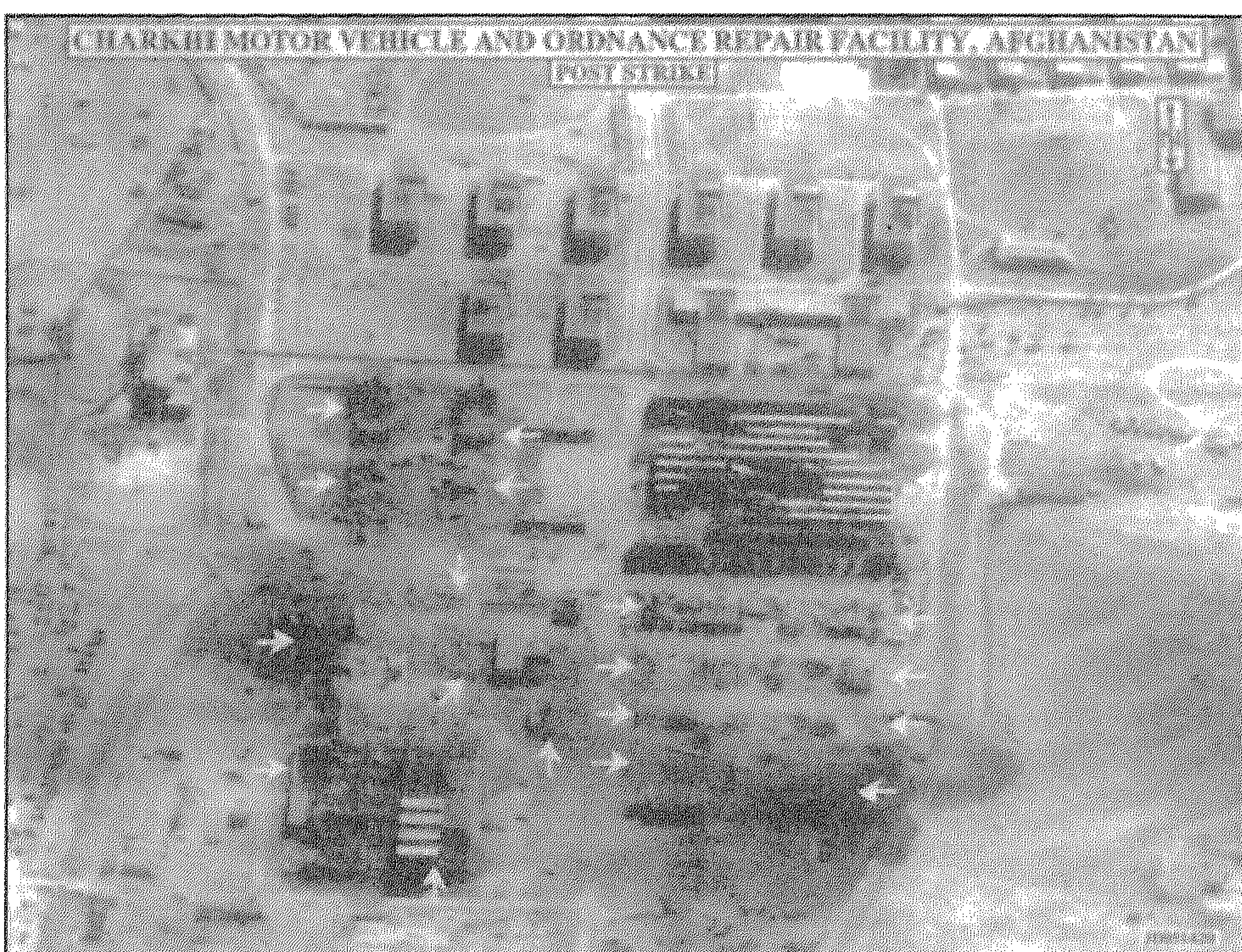
ـ صباح الثلاثاء ١٣ نوفمبر.. وجدت قوات التحالف الشمالى العاصمة الأفغانية مفتوحة أمامها، وخالية من أية قوات لطالبان.. فدخلتها من جهة الشمال عبر الطريق القديم على متن شاحنات وسيارات عسكرية، وسيراً على الأقدام.. وكان بين السيارات التى تقل الجنود سيارة «لاندكروز» سوداء يجلس بداخلها الجنرال محمد قاسم فهيم وزير الدفاع فى التحالف الشمالى الذى خلف القائد السابق أحمد شاه مسعود بعد اغتياله، وبجواره عبدالله عبدالله وزير خارجية التحالف الشمالى..

ـ حاول الأفغان العرب ـ وكان عددهم محدوداً جداً ـ الدفاع عن المدينة.. فاشتبكت معهم قوات التحالف الشمالى وقتلتهم.. كما قامت بعمليات انتقام وحشية فى كل من اشتبهت أنه من جنود طالبان ومثلت بجثثهم فى الشوارع.. وقد وصف هذه المذابح مراسلو الصحف الذين كانوا يقومون بالتغطية فى الجانب الشمالى من أفغانستان، ورافقوا قوات التحالف الشمالى أثناء زحفها من مزار الشريف إلى كابول.. يقول مراسل مجلة «نيويوركر» الأمريكية: إن هذه القوات عثرت على أحد جنود طالبان مصاباً بالقرب من مخبأ مهجور على مشارف المدينة، فقاموا بجره على الأرض من قدميه بعد أن أخرجوا كل ما فى جيوبه.. ورغم توسلاته لهم للإبقاء على حياته، فقد قام أحدهم بإطلاق دفعتين من بندقيته على صدر الجندى الأسير، وبعد موته راح يضربه بمؤخرة البندقية على صدره، ثم حطم ثالث رأسه بقاذف للصواريخ..! يضيف المراسل: على بعد مائتى متر من جثة هذا الجندى.. قتلوا عجوزاً بعد نهبه، وتركوه وفى رأسه حفرة نتيجة عدة دفعات من الرصاص أطلقوها على رأسه من بنادقهم بلا رحمة أو شفقة.. وبعد دقائق وقريباً منه كانت جثة ثالث ممددة، وفى حلقه قذيفة «مورتار» غير مستخدمة، وضعوها بعد أن قتلوه.. وعلى مسافة أخرى تقدر بميل تقريباً كانت جثة الرابع ممددة، ويداه مرفوعتان لأعلى كما لو كان يطلب الرحمة أو يستسلم.. يقول مراسل «نيويوركر»: إن الإعدام والتنكيل بالمصابين كان وسيلة قوات التحالف الشمالى للتعبير عن فرحتهم بالانتصار على طالبان.. يضيف: لقد كانوا أيضاً مهتمين بالبحث عن الغنائم، فأحياناً ما كنا نسمع أحدهم يصيح: «عثرت على ٧٠٠ ألف أفغانى ـ حوالى ٢٠ دولاراً» فيبتسم أحد القادة ويقول: «دعونا نمض.. دعونا نمض»، لقد نهبوا كل ما وصلت إليه أيديهم من مال وملابس وأحذية وعبوات غذائية.. وكل شىء [٩١]..!

ـ فى هذه الأثناء.. وقعت بالمدينة عمليات نهب وسرقة كبيرة.. خاصة فى سوق تبادل العملات الأجنبية الذى سرقت منه عدة ملايين من الروبيات الباكستانية والدولارات والعملات الأخرى..



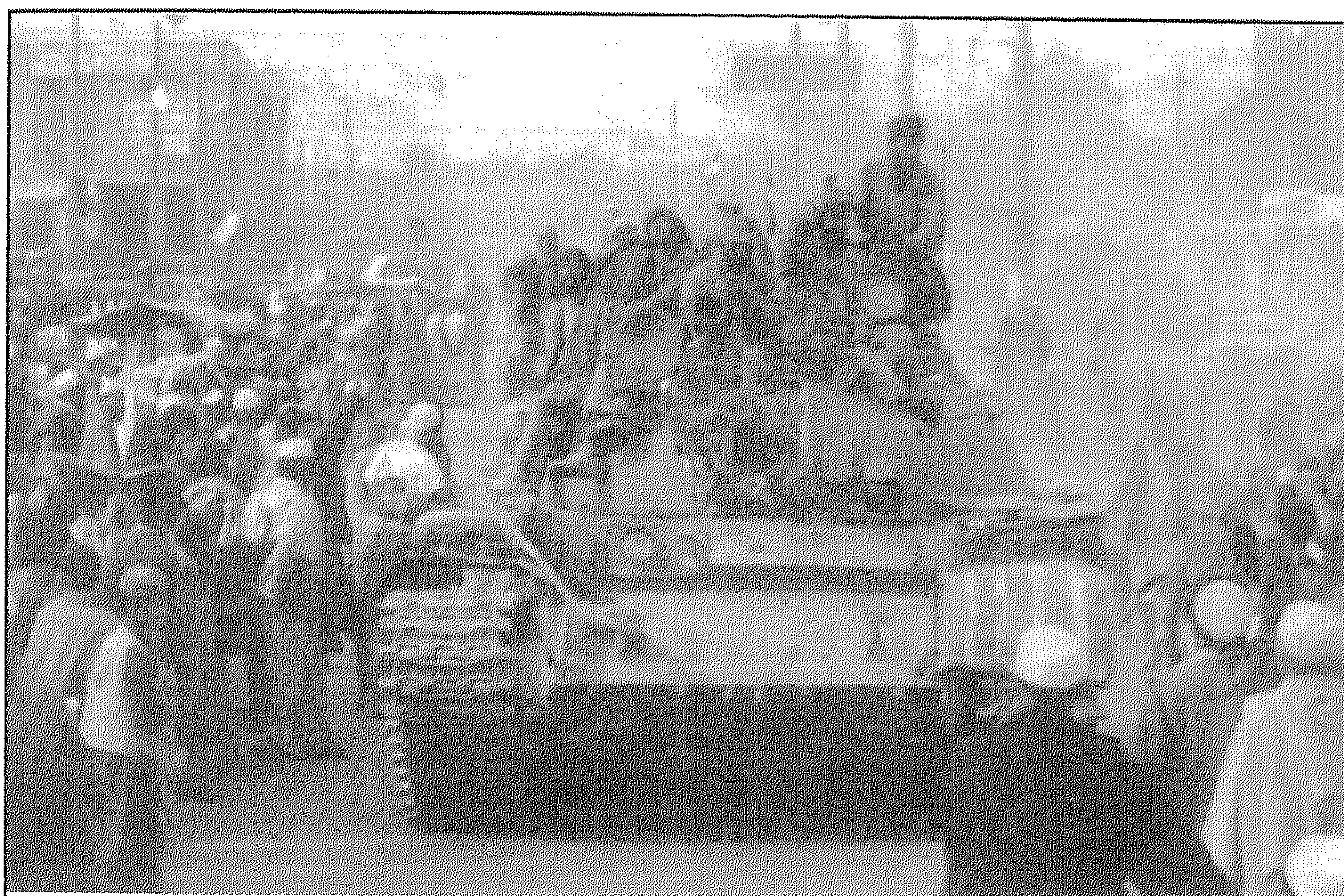
قوات التحالف الشمالى فوق احدى المدرعات فى الطريق إلى كابول



صورة من الجو لبعض المواقع التى تم تدميرها فى كابول



قوات التحالف الشمالي في انتظار الأوامر بدخول كابول



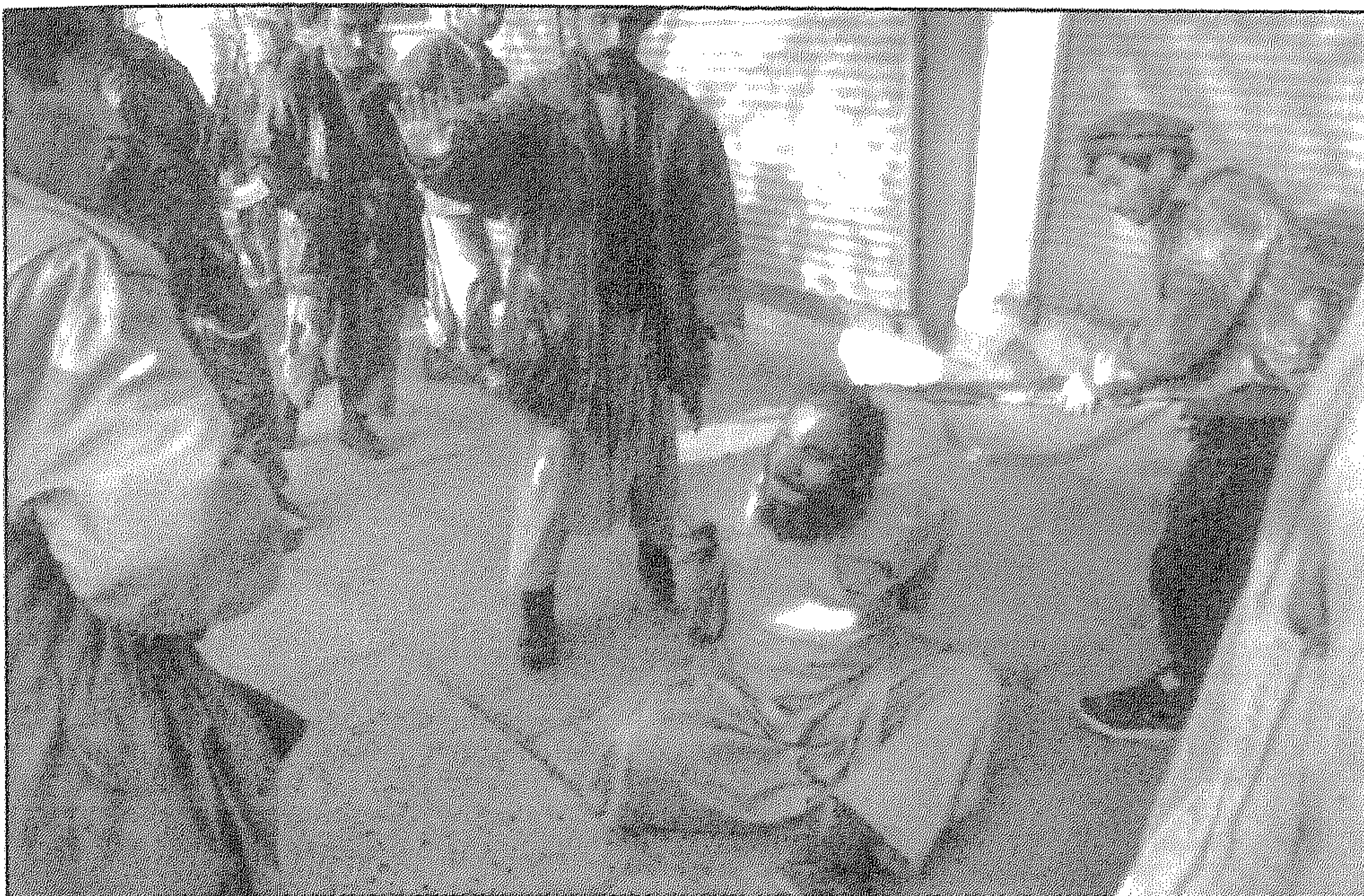
وفوق احدى الدبابات في أحد الشوارع بمدينة كابول



اثنان من الأفغان العرب أثناء تصديهم لقوات التحالف الشمالى



اثنان من جنود التحالف الشمالى يسحبان جثة رجل من طالبان



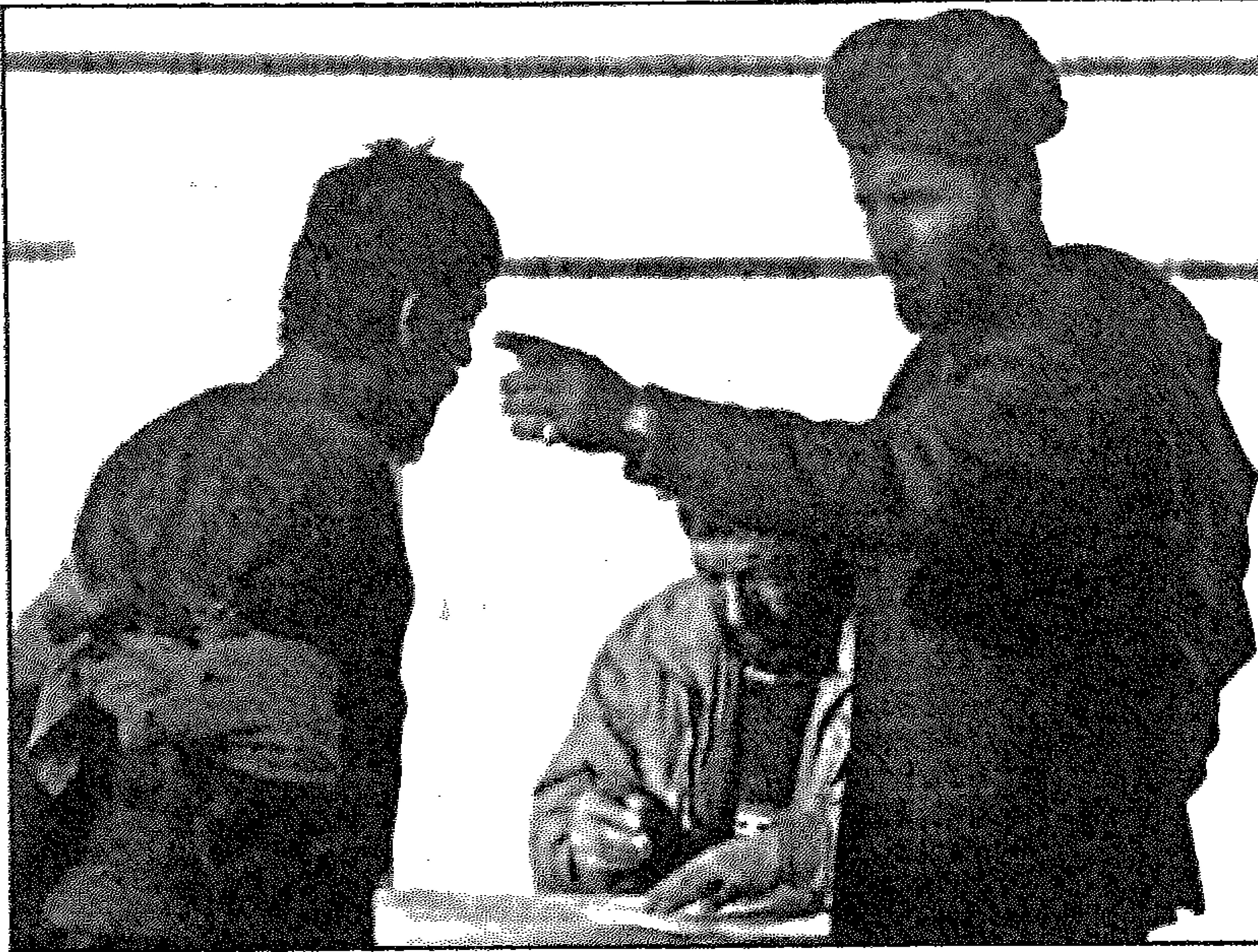
هكذا كانوا يقومون بتعذيب كل من يصادفهم من قوات طالبان



جثث مجموعة من الأفغان العرب
ملقاه في شوارع كابول



أحد قوات التحالف الشمالى
يمثل بجثة جندى من طالبان



جندى من طالبان مكتوف اليدين أثناء التحقيق معه من قبل التحالف الشمالى

- عقب دخول قوات التحالف الشمالى إلى كابول طلبت هذه القوات من جميع الصحفيين الأجانب البقاء فى فندق «إنتر كونتيننتال».. أما الصحفيين العرب فقد بدأ البحث عنهم..!

- فى هذا الوقت وصف المتحدث باسم البيت الأبيض الوضع فى العاصمة الأفغانية بأنه «مائع جداً»، وقال: إن الإدارة الأمريكية تقوم بدراسة التقارير الواردة من جبهة القتال.. كما اعترف المتحدث باسم وزارة الدفاع الأمريكية بأن عمليات الجيش الأمريكى، وتحالف الشمال لم تكن منسقة تماماً مثلما يمكن أن يظهر.. وقال: «نحن لا نتتبع تحركاتهم من إقليم إلى إقليم أو من مدينة إلى مدينة.. ودورنا ينحصر فى تقديم المشورة لهم فقط..!» (٩٢)..

- لما كانت الولايات المتحدة قد طلبت قبل ذلك من قوات التحالف الشمالى البقاء خارج كابول لجعلها مدينة مفتوحة متعددة الأعراق.. فقد سارع عبدالله عبدالله وزير الخارجية فى التحالف الشمالى بعقد مؤتمر صحفى عقب دخوله المدينة لطمأنة الولايات المتحدة قال فيه: إن مقاتلى التحالف لم يدخلوا كابول إلا لحفظ الأمن فيها بعد انسحاب طالبان منها على نحو غير متوقع.. مضيفاً: لم يكن أمامنا خيار آخر..! ونفى أن يكون التحالف الشمالى لديه أية مخططات لتولى الحكم فى أفغانستان.. قال فى بيان ألقاه فى المؤتمر الصحفى: إن التحالف دعا الأمم المتحدة لإرسال مبعوثين إلى كابول لإجراء مباحثات مع مختلف الفصائل الأفغانية حول مستقبل أفغانستان، وتم توجيه الدعوة إلى جميع الفصائل للحضور، والمشاركة فى هذه

المباحثات باستثناء طالبان فقط لم توجه لها الدعوة.. كما وجهت الدعوة أيضاً إلى الملك السابق ظاهر شاه لإرسال مندوب عنه إلى كابول للمشاركة فى المباحثات..


برهان الدين ربانى

وفى إشارة إلى عدم الحاجة لقوات أجنبية فى كابول.. قال عبدالله عبدالله: إن التحالف الشمالى وضع ٦ آلاف من قواته داخل العاصمة وحولها، وهم قادرون على حفظ الأمن بهاـ كان عدد قوات طالبان التى انسحبت من كابول ٨ آلاف مقاتل ـ..

ـ برهان الدين ربانى رئيس التحالف الشمالى.. وهو الرئيس السابق لأفغانستان الذى خلعته طالبان عندما استولت على كابول فى ٢٦ سبتمبر ١٩٩٦، وأصبح من بعدها يحمل لقب «الرئيس الأفغانى المخلوع».. أعلن أنه سيعود إلى كابول..

* * *

السقوط المفاجىء لكابول جعل ردود الفعل فى الداخل والخارج تتباين.. وبعضها لم يكن قد استقر بعد على موقف محدد..

أول رد فعل جاء من طالبان على لسان مسئول بالحركة صرح لوكالة الأنباء الفرنسيةـ يوم ١٣ نوفمبرـ: «بأن الحرب لم تبدأ بعد، وأن الحرب فى أفغانستان لا يتم خوضها فى المدن والقرى.. ولكن الحرب الحاسمة هى التى تدور رحاها فى الجبال والكهوف.. وهذه تحت سيطرتنا تماماً..!»..

كما ألقى المُلا محمد عمر خطاباً فى الإذاعة الأفغانية استغرق نحو ثمانى دقائق ونقلته وكالة الأنباء الإسلامية الأفغانية التى تتخذ من باكستان مقراً لها.. قال فيه إنه يتكلم من مقره فى قندهار، ودعا مقاتلى الحركة إلى إعادة تجميع أنفسهم ومقاومة قوات التحالف الشمالى: «آمركم بالاستمرار فى طاعة أوامر قادتكم. يجب أن تعيدوا تجميع أنفسكم، وتقاوموا وتقاتلوا»..

ـ نجل الملك السابق ظاهر شاه أعلن أن والده كان غاضباً عندما أبلغوه بدخول التحالف الشمالى كابول، لأن ذلك تم بشكل يخالف ما سبق أن تم الاتفاق عليه معه.. وصرح الملك بأنه سيعود قريباً جداً إلى أفغانستان.. ليس كملك ولكن لخدمة شعبه وبلاده..

ـ فى نفس اليوم الذى سقطت فيه كابول كان الرئيسان الأمريكى جورج بوش، والروسى فلاديمير بوتين يعقدان قمة فى البيت الأبيض بواشنطن اتفقا فيها على خفض مخزون الأسلحة النووية الاستراتيجية لدى الدولتين.. بوش أعلن أن الولايات المتحدة ستخفض ترسانتها النووية التى تحوى نحو ٧ آلاف سلاح نووى بمقدار الثلثين خلال السنوات العشر التالية لتصل إلى ما بين ١٧٠٠ إلى ٢٢٠٠

سـلاح نووى.. وبوتـين قـال: إن روسـيـاـ الـتى تملك نحـو ٦ آلاف سـلاح نووى ـ ستحاول القيام بالمثل لتصل إلى نحو ٢٠٠٠ سلاح نووى، لكنه طالب بإبرام معاهدة مكتوبة بذلك، ورحب بوش.. أما بالنسبة للوضع فى أفغانستان فلم تكن مواقف الرئيسين قد تبلورت بعد بشكل نهائى على ضوء السقوط المفاجىء لكابول.. لأنه حتى الرئيس بوتين الذى أمد التحالف الشمالى بالأسلحة، وساعده فى الوصول إلى كابول لم يكن يتوقع سقوط المدينة بهذه السرعة.. ودون قتال..! وكان لايزال يقف حائراً أمام تسارع الأحداث، وتداخلها ببعض.. وهل تظل بلاده على موقفها السابق الذى يقبل بمشاركة المعتدلين فى طالبان فى الحكومة الأفغانية الجديدة كما جاء من قبل على لسان إيجور إيفانوف وزير خارجية روسيا، وسيرجى إيفانوف وزير الدفاع الروسى، وعلى لسان بوتين نفسه فى لقائه ببرهان الدين ربانى فى «دوشنبه» عاصمة طاجيكستان.. أم تغير روسيا موقفها على ضوء رفض التحالف الشمالى توجيه الدعوة إلى طالبان للمشاركة فى المباحثات حول مستقبل أفغانستان، التى دعا إلى إجرائها فى كابول؟.. الحقيقة أن روسيا غيرت موقفها.. لكن حتى موعد انعقاد المؤتمر الصحفى المشترك لبوش وبوتين ـ عقب اجتماع القمة بينهما فى البيت الأبيض ـ لم يكن بوتين قد اتخذ قراره بعد فى هذه النقطة، فاكتفى بالقول: إن الوضع فى أفغانستان يجب أن يكون تحت السيطرة..

كذلك بوش.. كان فى موقف يحاول فيه إنقاذ ما يمكن إنقاذه من حساباته القديمة التى كانت تقوم على بقاء التحالف الشمالى خارج كابول، وجعلها مدينة مفتوحة لكل الأعراق.. فأكد حرص بلاده الشديد على أن تكون الحكومة الجديدة فى أفغانستان ممثلة لكل الأعراق.. وأن يحترم تحالف الشمال حقوق الإنسان فى أفغانستان.. وفى إشارة منه لطمأنة باكستان تجاه الوضع الجديد فى أفغانستان بعد سقوط كابول فى أيدى خصومها قال بوش: «أنا مصمم تصميماً مطلقاً على تحقيق نصر راسخ، كما أننى مصمم أيضاً على التأكد من أن هذا البلدـ يقصد أفغانستان ـ لن يشكل تهديداً لجيرانه، ولن يستمر فى تصدير الهيروييين، وبوتين مستشار جيد فى هذا الموضوع»..

وقد وصفت هذه القمة بأنها أهم قمة بعد نهاية الحرب الباردة.. ربما لأنها رسخت التعاون بين أعداء الأمس.. ضد عدو جديد مشترك لهما.. وهذا بالضبط ما عبر عنه الرئيس بوش وهو يمتدح تعاون روسيا مع الولايات المتحدة فى مكافحة ـ ما أسماه بـ «الإرهاب» قائلاً: «إن ذلك يثبت للعالم أن بإمكان الخصوم السابقين فى الحرب الباردة أن يصبحوا شركاء»..!

فى نفس الإطار .. وهو سعى واشنطن لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من حساباتها القديمة ـ بدأ كولين باول وزير الخارجية الأمريكى التحرك على الصعيد الدولى من

أجل إرسال قوة دولية تابعة للأمم المتحدة يقودها جنود من دول إسلامية لتأمين العاصمة الأفغانية.. وكانت وجهة نظر باول فى ذلك الوقت - كما عبر عنها فى حديث لصحيفة «نيويورك تايمز» - أن هذه المهمة من الأفضل أن تقوم بها دول إسلامية، وليس القوى الكبرى مستبعداً أن يشترك فيها أى جنود أمريكيين.. وذكر أن كلاً من الأردن وتركيا وبنجلاديش عرضت إرسال قوات للمشاركة فى هذه المهمة..

- رد الفعل الباكستانى جاء على لسان الرئيس بيرفيز مشرف الذى حذر من اندلاع حرب أهلية فى كابول ما لم تدخلها قوة دولية بمشاركة من الدول الإسلامية تحت إشراف الأمم المتحدة لحفظ الأمن فى المدينة.. كما أجرت وزارة الخارجية الباكستانية اتصالات عاجلة مع كافة الأطراف المعنية، وفى مقدمتها الولايات المتحدة، وأبدت احتجاجها على دخول التحالف الشمالى كابول الذى يتعارض مع الاتفاق السابق بعدم دخول العاصمة إلا بعد تشكيل حكومة ائتلافية موحدة تمثل فيها كل الأعراق الأفغانية.. وطالب السفير عزيز أحمد خان المتحدث باسم وزارة الخارجية الباكستانية بإخراج قوات التحالف الشمالى من كابول.. وقال: إن العاصمة الأفغانية يجب أن تبقى منطقة منزوعة السلاح موضوعة تحت إشراف قوة حفظ سلام تابعة للأمم المتحدة، أو قوة متعددة الجنسيات يوافق عليها مجلس الأمن الدولى..

- الأمم المتحدة التى كان لها مبعوث فى أفغانستان فوجئت أيضاً بسقوط كابول، فطلب أمينها العام كوفى عنان من مجلس الأمن الدولى التحرك السريع لملء الفراغ السياسى والأمنى فى أفغانستان منعاً لحدوث فوضى.. وبالفعل اجتمع مجلس الأمن بعد ساعات قليلة فقط من دخول التحالف الشمالى كابول، وناقش خطة من خمس نقاط لتشكيل حكومة أفغانية موسعة قدمها الأخضر الإبراهيمى مبعوث الأمم المتحدة فى أفغانستان.. والنقاط الخمس هى:

١- تعقد الأمم المتحدة اجتماعاً يحضره التحالف الشمالى، والجماعات الأفغانية الأخرى لبحث المستقبل السياسى للبلاد.

٢- يتخذ الاجتماع خطوات محددة لتشكيل حكومة انتقالية.

٣- تبحث هذه الحكومة الانتقال إلى حكومة جديدة فى غضون عامين اثنين.

٤- يتم تشكيل مجلس «لويا جوركا» من زعماء المجموعات العرقية.

٥- خلال الفترة الانتقالية يجتمع اللويا جوركا للمرة الثانية لتشكيل حكومة جديدة.

وكرر الإبراهيمى ضرورة أن تكون الحكومة الأفغانية الانتقالية «صناعة محلية»، وموسعة بحيث تمثل فيها مختلف الفصائل والقوى والمجموعات العرقية، ويتم اختيارها بحرية كاملة حتى يمكن لها النجاح فى مهمتها..

أما بالنسبة لما طالبت به الولايات المتحدة وباكستان ودول أخرى من ضرورة

إرسال قوة حفظ سلام، أو قوة متعددة الجنسيات إلى كابول.. قال الإبراهيمي: إن الأمم المتحدة تفضل إرسال قوة أمنية ممثلة من جميع الأفغان عن قوة حفظ سلام تابعة للأمم المتحدة أو قوة متعددة الجنسيات سيتطلب تشكيلها وقتاً، فضلاً عن أنها لن تكون مناسبة في ظل الأوضاع السائدة في أفغانستان..!

ـ وقد واصل مجلس الأمن الدولي مناقشاته بعد ذلك، حيث وافق على خطة الإبراهيمي يوم ١٥ نوفمبر بعد أن وضعت في إطار مشروع قرار تقدمت به للمجلس كل من بريطانيا وفرنسا ـ..

* * *

كل هذه الأحداث وقعت في نصف يوم واحد فقط من التاريخ.. هو النصف الأول من يوم الثلاثاء الموافق ١٣ نوفمبر عام ٢٠٠١.. يوم سقوط كابول..!!

أما النصف الثاني من اليوم فقد واصل فيه التحالف الشمالي الاستيلاء على عدد آخر من المدن الأفغانية الهامة في شمال وشرق وغرب البلاد.. مثل: باميان، وجلال آباد، وغزني، وفراة.. حتى وصل إلى مقاطعة قندهار نفسها، معقل حركة طالبان، واستطاع السيطرة على أحد المطارات بالمقاطعة ..!

الفصل الثامن والعشرون

• تقسيم «الكعكة»..!

«لن نسمح لذبابة أجنبية أن تضع أقدامها على أرض أفغانستان..!»

عبد رب الرسول سياف

□ *بسقوط كابول ظهر واقع جديد على الساحة الأفغانية..*
كانت تريده روسيا والهند وإيران..
وتخشاه باكستان..
ولا تتوقعه الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاؤها الغربيون..

هذا الواقع هو سيطرة قوات التحالف الشمالى على الأرض.. والناس.. ومقاليد السلطة فى أفغانستان..!

- ورغم أن قوات التحالف الشمالى وصلت إلى ذلك تحت غطاء المقاتلات الأمريكية.. إلا أنها فى نشوة الانتصار نسيت هذا، ورفضت طلب الولايات المتحدة وضع كابول تحت إشراف قوة دولية تابعة للأمم المتحدة.

- كما نسيت أيضاً ما قالته فى اليوم الأول لدخولها العاصمة من أنها دخلت فقط لحفظ الأمن بالمدينة، وليس لديها أية مخططات لتولى الحكم فى أفغانستان.. نسيت هذا وبدأت فى اليوم الثانى مباشرة إصدار بيانات عبر الإذاعة باسم «حكومة أفغانستان الإسلامية»..!

- ونسيت أيضاً أنها سبق أن قالت «نعم» للولايات المتحدة عندما أعلنت عن عزمها إعطاء الملك السابق محمد ظاهر شاه دوراً فى السلطة الجديدة فى أفغانستان.. فقال برهان الدين ربانى بمجرد أن وطأت أقدام قوات التحالف الشمالى أرض كابول أنه أصبح بإمكان الملك السابق محمد ظاهر شاه العودة إلى أفغانستان.. ولكن كمواطن عادى فقط..!

* * *

فى نشوة الانتصار أيضاً نسيت قوات التحالف الشمالى الأمم المتحدة.. وأصبح صوت الأخضر الإبراهيمى فى الهاتف لا يعجب القادة الشماليين، وهو يدعوهم إلى حضور مؤتمر يضم الفصائل الأفغانية لتشكيل حكومة مؤقتة من مختلف الأعراق.. طبقاً لما جاء فى قرار لمجلس الأمن صدر يوم ١٥ نوفمبر ٢٠٠١، بناء على مشروع قرار تقدمت به كل من بريطانيا وفرنسا بتأييد خطة الأخضر الإبراهيمى ذات النقاط الخمس لتحقيق التسوية السياسية فى أفغانستان.. وقد نص القرار على عبارة «بلا

إبطاء ولا شروط» فى البند الخاص بدعوة تحالف الشمال، والفصائل الأفغانية لحضور المؤتمر.. إلا أن قيادات التحالف الشمالى بدأت تضع عقبات، وتفرض شروطاً مسبقة لموافقتها على الحضور.. حتى أن الأخضر الإبراهيمى وجه لها انتقادات علنية فى وسائل الإعلام، واتهمها بتعطيل جهود الأمم المتحدة لعقد المؤتمر.. ولما يئس من جدوى الاتصالات الهاتفية مع هذه القيادات، أرسل إليهم نائبه فرانسيس فندريل الذى وصل كابول يوم السبت ١٧ نوفمبر ٢٠٠١ لإقناعهم بضرورة حضور المؤتمر ..!

هكذا أخذ التحالف الشمالى بعد سيطرته على كابول يتعامل مع الأمم المتحدة بامتعاض شديد.. رغم أنه لولا الأمم المتحدة لما بقى للتحالف الشمالى أى وجود على الساحة الأفغانية.

- فالأمم المتحدة هى التى رفضت من قبل الاعتراف بحكومة طالبان كحكومة شرعية لأفغانستان عندما استولت على السلطة، وسيطرت على ٩٠٪ من أراضى الدولة عام ١٩٩٦.

- والأمم المتحدة هى التى ظلت تعترف بحكومة برهان الدين ربانى زعيم التحالف الشمالى، وتخصص مقعداً لها فى الجمعية العامة بوصفها الممثل الشرعى للشعب الأفغانى.. وتصدر القرارات التى تساندها وتدعمها.. وتفرض العقوبات على طالبان.. رغم أن حكومة ربانى فى ذلك الوقت لم يكن لها أى وجود فى الواقع.

لكن سقوط كابول قلب المائدة الأفغانية.. فأصبح التحالف الشمالى هو الذى يضع الشروط المسبقة لكى يوافق على حضور مؤتمر تدعو له الأمم المتحدة من اجل تشكيل حكومة جديدة فى أفغانستان.. وهو الذى لم يكن يحلم من قبل بالمشاركة فى مثل هذا المؤتمر..!

وهكذا حال الدنيا.. فالأيام دول.. دولة تسقط.. ودولة تقوم..!

واليوم هو يوم دولة التحالف الشمالى فى أفعانستان..

غير أن كل التوقعات تشير إلى أنه سيكون يوماً قصيراً للغاية.. فكما بزغت شمسه بسرعة غير متوقعة، ستغرب أيضاً بسرعة غير متوقعة.. وربما يكون أقصر الأيام فى تاريخ أفغانستان..!

* * *

السبب هو أن التحالف الشمالى ليس فيه من «التحالف» الحقيقى سوى اسمه فقط.. أما حقيقة الأمر فهو يجمع فصائل وأعراقاً مختلفة، بينها إرث من العداء أكبر بكثير من العداء الذى كان بين كل منها وطالبان.. ولم يجمع هذه الفصائل سوى المصلحة المشتركة فى اختطاف «كعكة» الحكم من طالبان، ثم بعد ذلك تقسيم هذه «الكعكة» فيما بينها.

الدليل على ذلك هو أن الصراع على تقسيم «كعكة الحكم» بدأ فى الظهور بين فصائل التحالف الشمالى حتى قبل أن يتم إسقاط حكم طالبان فى جميع مناطق الدولة.. حيث بدأ كل فصيل فى تحصين مواقعه والعمل على الفوز بأكبر نصيب من «الكعكة».

– فالقائد الأوزبكى عبدالرشيد دوستم الذى تمكنت قواته من الاستيلاء على مدينة مزار الشريف يوم ٩ نوفمبر ٢٠٠١ محققة بذلك أول نصر فى الحرب على طالبان.. يعتبر نفسه هو الذى فتح الطريق أمام قوات التحالف الشمالى لدخول كابول.. وأن ذلك يجب أن يحسب له دائماً.. ولما كان يحظى بدعم كبير من الروس، فهو لم يبد أى رغبة فى تنسيق تحركاته العسكرية مع بقية قوات التحالف الشمالى، وظل يعمل فى منطقته بشكل منفرد.. وباستقلال تام، لا سيما أنه نجح من قبل فى إقامة دولة مستقلة به، جعل عاصمتها مزار الشريف، وأصدر لها عملة خاصة.. ونصب من نفسه ملكاً على ٥ ملايين أفغانى يعيشون فى هذه المنطقة، وظلت دولته قائمة حتى استولت طالبان على مزار الشريف فى مايو ١٩٩٧.. ففر إلى تركيا.. ثم عاد منها فى أكتوبر من نفس العام ليتحالف مع أحمد شاه مسعود ضد طالبان.. وبالتالى فأقل ما يمكن أن يقبل به دوستم من «كعكة الحكم» فى أفغانستان هو أن تظل المناطق الشمالية حول مزار الشريف – التى حررها – تحت سيطرته.

– أيضاً مجموعة الطاجيك فى التحالف الشمالى عملت بشكل منفرد.. وما أن سنحت لها الفرصة لدخول العاصمة كابول حتى سارعت بدخولها منفردة لكى تكون الأعلى صوتاً بعد ذلك فى المساومات حول تقسيم السلطة.. بل إنها حجزت لنفسها المناصب الرفيعة قبل وصول الآخرين.. فمنح زعيمها برهان الدين ربانى نفسه منصب رئيس الدولة، والجنرال محمد قاسم فهيم منصب وزير الدفاع، وعبدالله عبدالله منصب وزير الخارجية، ويونس قانونى منصب وزير الداخلية.. هذا فى الوقت الذى لم تكن قد بدأت فيه بعد أية مشاورات لتشكيل الحكومة الجديدة فى أفغانستان.. لا من قبل الأمم المتحدة والأطراف الدولية المعنية بالأزمة التى كانت تعرف باسم مجموعة «٦ + ٢».. ولا من قبل الفصائل الأفغانية نفسها..!


إسماعيل خان

– هناك أيضاً الجنرال إسماعيل خان الذى تسيطر قواته على مناطق واسعة فى غرب أفغانستان ويتخذ من مدينة «هيرات» مقراً له.. وهو عسكرى محترف ترك الجيش الأفغانى عشية غزو القوات السوفيتية لأفغانستان عام ١٩٧٩، وتحول إلى المعارضة، حيث برز كقائد من أكثر القادة نفوذاً وقوة، وكان لا يقل بأى حال عن القائد الطاجيكى أحمد شاه مسعود.. وهو الذى حرر هيرات لأول

مرة من الحكم الشيوعى - حكومة د. نجيب الله - فى عام ١٩٩٢ قبل عدة أسابيع من استيلاء شاه مسعود على كابول.. فأصبح الجنرال اسماعيل خان بعدها يحمل لقب «أمير هيرات الأسطورى».. وعندما ظهرت طالبان عام ١٩٩٤ كانت لديه القدرة على التصدى لها فى بداية الأمر، لكن طالبان قويت بعد ذلك، وانتزعت منه هيرات فى سبتمبر ١٩٩٥، ففر إلى إيران، ثم عاد منها عام ١٩٩٦ وقام بحشد عدة آلاف من رجاله شمال شرق هيرات.. لكنه فشل فى استعادة المدينة بسبب خيانة واحد من رجاله يدعى «القائد عبدالملك»، فوقع فى قبضة طالبان وأدخلوه السجن.. لكنه استطاع الهرب منه واللجوء ثانية إلى إيران.. ثم عاد منها مرة أخرى عندما بدأت الحرب الأمريكية على أفغانستان، واستطاع تجميع قواته من جديد، واستعادة المدينة من أيدى طالبان يوم ١٢ نوفمبر ٢٠٠١.. أى قبل سقوط كابول فى أيدى التحالف الشمالى بيوم واحد.. وكان لسقوط هيرات أهمية استراتيجية كبيرة فى الحرب لا تقل عن أهمية سقوط مزار الشريف.. لأنها فتحت الطريق إلى قندهار.. مثلما فتحت مزار الشريف الطريق إلى كابول..

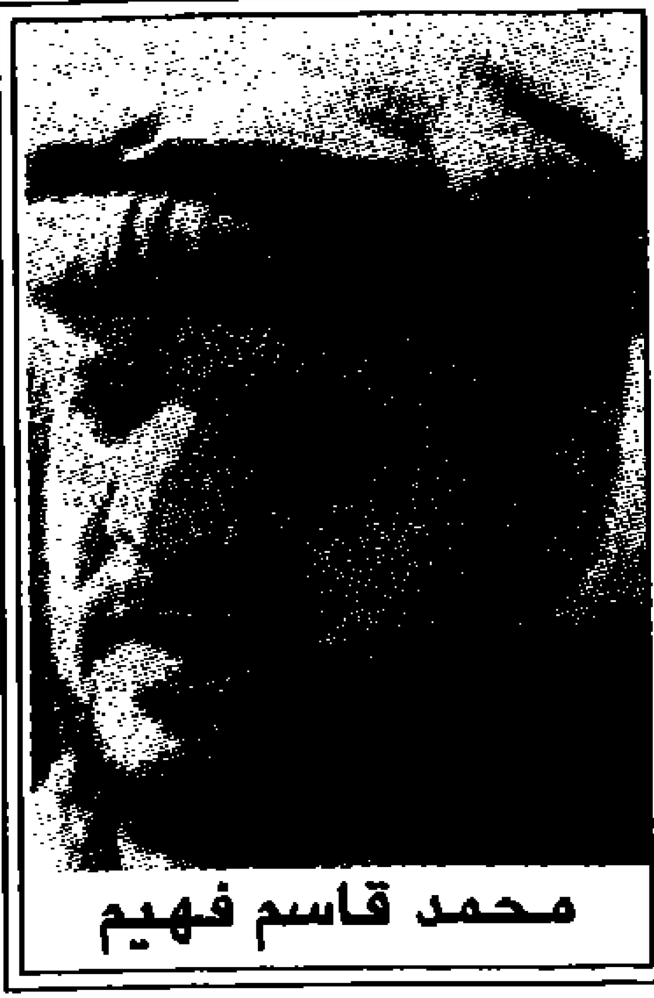
لذلك فإن الجنرال إسماعيل خان لا يمكن أن يقبل من «كعكة الحكم» فى أفغانستان بأقل من السيطرة على المناطق الغربية من الدولة التى تقع حول مدينة «هيرات» التى حررها أكثر من مرة ويحمل لقب أميرها الاسطورى.. مثله فى ذلك بالضبط مثل الجنرال عبدالرشيد دوستم فى الشمال..

- أما فى منطقة الوسط، فهناك قائد آخر اسمه عبدالكريم خليلى.. وهو حليف لإيران، ويرأس حزب الوحدة الذى يتكون من ائتلاف ثمانية أحزاب شيعية صغيرة تمثل أقلية الهزارة فى أفغانستان ويتخذ من مدينة باميان فى وسط البلاد مقراً له.

وقد تولى خليلى عام ١٩٩٣ منصب وزير المالية فى حكومة برهان الدين ربانى التى ضمت فصائل مختلفة من المجاهدين.. وعندما سقطت الحكومة عام ١٩٩٦ باستيلاء طالبان على كابول انسحب إلى ولاية باميان وأقام هناك مدرجاً لهبوط الطائرات لتلقى إمدادات عسكرية من إيران، واستطاع أن يحشد حوله أكثر من عشرة آلاف مقاتل.. قاموا بالاستيلاء على باميان من طالبان يوم ١٣ نوفمبر ٢٠٠١.

* * *

من ذلك يتضح لنا أن قادة بحجم عبدالرشيد دوستم، وإسماعيل خان، وعبدالكريم خليلى، لا يمكن أبداً أن يدينوا بالولاء أو ينصاعوا لأوامر أحد من الطاجيك الذين دخلوا كابول.. مثل محمد قاسم فهيم الذى خلف أحمد شاه مسعود، وحجز لنفسه منصب وزير الدفاع.. لأن كلاً من القادة الثلاثة يعتبر نفسه أميراً فى منطقته لا ينبغى لأحد أن ينازعه الحكم فيها.. فضلاً عن أنهم ينظرون إلى محمد قاسم فهيم وزملائه على انهم حديثو العهد بالقيادة، وليس لهم تاريخ عسكرى مثلهم.


محمد قاسم فهيم

فإذا أضفنا إلى ماسبق أن مناطق الشرق والجنوب فى أفغانستان التى تسكنها قبائل البشتون، لا يمكن بأى حال أن تقبل سلطة عليها من أحد من الأقليات الأخرى سواء كان من الطاجيك أو الأوزبك أو الهزارة.. والدليل على ذلك هى محاولة الاغتيال التى تعرض لها محمد قاسم فهيم فى مدينة جلال آباد أثناء أول وآخر زيارة قام بها إلى هناك كوزير للدفاع فى أوائل عام ٢٠٠٢.. ندرك بسهولة أن الدولة التى قامت فى أفغانستان - بقيادة فعلية للتحالف الشمالى - بعد سقوط طالبان، ليس لها نفوذ على معظم أجزاء البلاد، كما أنها تفتقر إلى مقومات البقاء والاستقرار.. وبالتالى فالحرب يمكن أن تستأنف هناك فى أى وقت.. ليس بين الولايات المتحدة وطالبان.. ولكن بين الفصائل الأفغانية نفسها..

أما الحرب بين الولايات المتحدة وطالبان.. فقد انتهت بانتصار روسيا والهند وإيران..!

* * *

- انتهت بانتصار روسيا.. لأنها تخلصت من نظام طالبان الذى كان يقدم الدعم للمتمردين الشيشان.. دون أن تتكبد أى عناء أو تدخل أى حرب.. بل على العكس من ذلك قبضت روسيا ٨٠ مليون دولار من الولايات المتحدة ثمن أسلحة باعتها إلى قوات التحالف الشمالى للهجوم بها على قوات طالبان.. فضلاً عن أن معظم فصائل التحالف الشمالى التى أمسكت بزمام السلطة بعد طالبان تدين بالولاء لروسيا، على اعتبار أن الروس والطاجيك والأوزبك هم فى الأصل شعوب الاتحاد السوفيتى القديم.

- والهند انتصرت فى الحرب.. لأن الفناء الخلفى لبيت «عدوتها اللدودة» باكستان أصبح يسكنه أصدقاء الهنود بعد أن كان يسكنه أصدقاء الباكستانيين.. حيث من المعروف أن العلاقات بين الهند والتحالف الشمالى وثيقة وقوية.. بل واستراتيجية إلى درجة أن عبدالله عبدالله وزير خارجية التحالف الشمالى صرح أثناء الحرب بما لم يصرح به أحد فى الهند.. حيث دعا يوم ١٦ نوفمبر ٢٠٠١ إلى ضرب باكستان بالقنابل النووية.. ولم يرد عليه الباكستانيون من باب الترفع..!

فإذا أضفنا إلى ذلك أن المقاتلين فى كشمير - كما تؤكد الهند دائماً - كانوا يتلقون الدعم والتدريب فى معسكرات طالبان وتنظيم القاعدة.. تصبح الهند هى أكبر المنتصرين فى الحرب التى شنتها الولايات المتحدة الأمريكية على طالبان والقاعدة..!

- أما إيران.. فقد تخلصت دون عناء من طالبان التى قتلت فى عام ١٩٩٨ ثمانية من أعضاء بعثتها الدبلوماسية ومراسلاً لإحدى الصحف الإيرانية بمدينة مزار الشريف.. وكانت مصدر قلق وأرق لها دائماً.. وصل إلى درجة أن إيران تحركت

بمفردها عام ١٩٩٨ فحشدت نحو ٢٠٠ ألف جندى بأسلحتهم الثقيلة على حدودها مع أفغانستان استعداداً لغزوها وإسقاط طالبان.. لكنها ضبطت أعصابها فى آخر لحظة.. ثم جاءت الحرب الأمريكية، فخلصت إيران من هذا الجار المزعج، وجاءت بساكن جديد للبيت خصص إحدى الحجرات فيه لحزب الوحدة الشيعى وثيق الصلة بإيران..!

* * *

أما الولايات المتحدة الأمريكية فلم تنتصر فى الحرب.. وبدأت بعد سقوط كابول تدرك خطأ حساباتها فى أفغانستان.. وتكتشف أن ما فعلته طوال ستة أسابيع من القصف المتواصل للمدن الأفغانية وقوات طالبان.. استخدمت فيه أكثر من ٢٠ ألف طن من القنابل والصواريخ.. قد أدى ببساطة شديدة إلى فتح الطريق لعودة النفوذ الروسى فى أفغانستان، بعد أن كانت الولايات المتحدة نفسها هى التى ظلت على مدى عشر سنوات كاملة - ما بين عامى ١٩٧٩ و١٩٨٩ - تقدم الدعم والأموال والأسلحة والعتاد للأفغان من أجل قتال الروس وإخراجهم.. تحت شعار «الجهاد ضد الشيوعية»..!

فى هذه الحرب.. الولايات المتحدة نفسها هى التى قامت بالقضاء على أعداء الروس فى أفغانستان.. وسلمت مفاتيح المدن الأفغانية لقوات التحالف الشمالى التى ترتبط مع الروس بعلاقات استراتيجية وروابط عرقية ومصالح مشتركة.. فضلاً عن حاجتها الدائمة إلى الروس لحمايتها من القوى الأفغانية الأخرى..!

أما الولايات المتحدة وبريطانيا وحلفائهما، فقد انتهى دورهم بسقوط كابول وأصبح المطلوب منهم مغادرة أفغانستان..

كان ذلك بالضبط هو واقع الحال..!

- الدليل على ذلك.. أن قادة التحالف الشمالى فى كابول رفضوا يوم ١٧ نوفمبر ٢٠٠١ استقبال المبعوث الأمريكى إلى أفغانستان «جيمس دوبينز» الذى ذهب إلى هناك لإقناعهم بضرورة تشكيل حكومة أفغانية موسعة، ولم يتمكن من مقابلة أى من الشخصيات الكبيرة منهم.. مما اضطره للعودة إلى بيشاور فى نفس اليوم، والاجتماع بقادة آخرين من الأفغان لاستطلاع رأيهم حول شكل الحكومة الجديدة.

- الدليل على ذلك أيضاً أن محمد قاسم فهيم وزير الدفاع فى التحالف الشمالى طلب بصريح العبارة وبصوت عال من القوات البريطانية التى وصلت يوم الخميس ١٥ نوفمبر ٢٠٠١ إلى قاعدة «باجرام» الجوية شمال كابول.. الانسحاب.. لأنها دخلت أفغانستان دون استئذان..!! مؤكداً على أن أفغانستان لن تسمح لبلد آخر باستخدام أراضيها كقواعد عسكرية..!

الولايات المتحدة وبريطانيا اللتان وجدتا نفسيهما فى موقف غاية فى الصعوبة..

لأن من نصروهم بالأمس انقلبوا عليهما اليوم.. قالتا إن عدد هذه القوات لا يزيد على مائة جندى فقط، وأن الهدف من إرسالهم هو تأمين أعمال الإغاثة الانسانية..

فرد فهيم بأن مجرد تواجد قوات أجنبية على أراضى أفغانستان يسبب شعوراً بالاستياء لدى قوات التحالف الشمالى.. وطلب تخفيض عدد هذه القوات إلى ١٥ جندياً فقط..

فشعرت بريطانيا - التى كانت تخطط لإرسال ٦ آلاف جندى إلى أفغانستان بعد سقوط كابول - أنه من أجل حفظ ماء وجهها لابد أن ترد على فهيم وتتحداه.. فقال المتحدث باسم وزارة الدفاع البريطانية إن القوات البريطانية التى وصلت إلى قاعدة «باجرام» الجوية سوف تبقى بها.. وإن بريطانيا لم تطلب إذناً من أحد قبل إرسال هذه القوات..!


عبدرب الرسول سياف

فجاء الرد على ذلك سريعاً وحاسماً من الزعيم الأفغانى المعروف عبدرب الرسول سياف الذى قال: «لن نسمح لذبابة أجنبية أن تضع أقدامها على أرض أفغانستان..!!»

هكذا وجدت بريطانيا نفسها فى أزمة لا يفيد معها الندم على دخولها هذه الحرب.. وكان لابد من بذل المساعى وتوسط الوسطاء لحفظ ماء وجهها، وإيجاد مخرج «كريم» لهـا من هذه الأزمـة.. وذلك عن طريق وضع «غطاء الأمم المتحدة» على وجود القوات البريطانية فى قاعدة «باجرام».. لكن المشكلة أن قادة التحالف الشمالى صمموا على موقفهم.. وقال الجنرال فهيم فى اتصال هاتفى مع وكالة الأنباء الفرنسية يوم السبت ١٧ نوفمبر ٢٠٠١: «قد يكون هناك اتفاق بين القوات البريطانية والأمم المتحدة، بيد أنه لا يوجد اتفاق معنا».. أضاف: «إن حركة طالبان التى كانت عائقاً أمام السلام وتوصيل المساعدات الإنسانية إلى الشعب الأفغانى تمت تنحيتها، وبالتالى لا حاجة لوجود الجنود الأجانب فى أفغانستان»..!

المهندس «عارف نائب» رئيس جهاز المخابرات فى التحالف الشمالى وضع البريطانيين أمام خيار صعب عندما قال: «إذا قبلوا بقاء ١٥ جندياً فيمكن بقاؤهم، أما إذا رفضوا العرض فيجب مغادرة جميع الجنود»..!

بالطبع حاول البريطانيون طلب المساعدة من حلفائهم الأمريكيين الذين جروهم إلى الحرب فى أفغانستان.. لكن الأمريكيين لم يستطيعوا مساعدتهم، وقالوا لهم إن الأولوية الآن تأتى لاعتقال بن لادن وقادة تنظيم القاعدة قبل الالتفات للقضايا الانسانيـة.. وذلك رداً على ما كانت تروج له بريطانيا من أن قواتها ذهبت إلى «باجرام» لتأمين وصول المساعدات الانسانية..!

بريطانيا غضبت من الرد الأمريكى.. والموضوع وصل إلى الصحف البريطانية، فبدأت تتحدث عن ظهور خلافات بين لندن وواشنطن حول نشر القوات البريطانية

فى أفغانستان.. أعضاء لجنة الشئون الخارجية فى مجلس العموم البريطانى قرأوا الصحف، وسألوا تونى بلير عن حقيقة الموضوع.. فأرسل إليهم وزير خارجيته جاك سترو يوم الأربعاء ٢١ نوفمبر ٢٠٠١، الذى قال لهم الآتى: «إن أفغانستان تغيرت بسرعة شديدة خلال الأيام العشرة الماضية، وإن الموقف العسكرى يتغير بسرعة أيضاً، ومن ثم فإنه يتعين علينا الاستمرار فى عملية التقويم، ومعرفة أى نوع من القوات المطلوبة ومن يقوم بتوفيرهم».. وأكد سترو على أن بريطانيا لن ترسل قوات إضافية إلى أفغانستان قبل الاتفاق مع الولايات المتحدة، والتوصل معها إلى «تفاهم عادل» بشأن دور هذه القوات.

الغريب.. أنه حتى الرد الأمريكى الذى أغضب بريطانيا، لم يتركه قادة التحالف الشمالى يمر دون تعليق فصرح المتحدث باسمهم قائلاً: «إننا لا نريد قوات أجنبية على أرض أفغانستان.. وإذا كانت هذه القوات قد جاءت للبحث عن أسامة بن لادن.. فنحن لدينا ما يكفى من القوات للقيام بهذه المهمة.. إننا نطلب من كل القوات الأجنبية مغادرة بلادنا»..!

* * *

هكذا بدأت أشواك الحقل الأفغانى تعترض الأقدام الأجنبية التى تريد أن تصل إليه..!

وبينما انسحبت بريطانيا من هذا الحقل بهدوء.. لم تستطع الولايات المتحدة أن تفعل نفس الشىء، ووجدت نفسها فى موقف من أصعب المواقف التى يمكن أن تواجهها أى دولة.. فبعد كل ما قدمه الأمريكيون من أموالهم وعتادهم ودماء جنودهم من أجل إسقاط طالبان وصعود التحالف الشمالى.. رفض قادة التحالف الشمالى استقبال المبعوث الأمريكى الذى ذهب إليهم بعد أربعة أيام فقط من سقوط كابول.. كما يرفضون وجود أية قوات أجنبية على أراضيهم.. ويرفضون السير فى ركاب أمريكا وتنفيذ مخططاتها بشأن مستقبل أفغانستان..!

فماذا تفعل أمريكا إذن؟.. هل تغير موقفها ١٨٠ درجة، فتبدأ فى قصف قوات التحالف الشمالى وتتوقف عن قصف طالبان؟.. وماذا ستقول للعالم؟..

أم أن الأفضل لها أن تستمر فى قصف طالبان، ومطاردة بن لادن فى الجبال، بينما تغض الطرف عما يصدر من التحالف الشمالى من تصريحات ومواقف ضدها.. معتبرة أن القضاء على طالبان والقبض على بن لادن هو انتصار لها فيما تسميه «الحرب على الإرهاب»..!

هذا بالضبط ما فعلته الإدارة الأمريكية بقيادة بوش الابن.. رفضت الاعتراف بخطأ حساباتها فى الحرب على أفغانستان، وواصلت تدمير المدن الأفغانية لعلها تعثر بين حطام البيوت وجثث الأطفال على نصر زائف تروج له آلتها الإعلامية على أنه انتصار فى الحرب على الإرهاب.

لكن.. حتى هذا «النصر الزائف» لم تحصل عليه كاملاً..!

لقد خاضت بعد سقوط كابول ثلاث معارك شرسة ضد طالبان وتنظيم القاعدة فى قندوز وقندهار وتورا بورا.. ألقت فيها آلاف الأطنان من القنابل والصواريخ على الناس والبيوت.. قتلت ودمرت.. لكنها لم تصل إلى بن لادن أو الملا محمد عمر.. وبالتالى لم تقض على تنظيم القاعدة أو طالبان..!

كل ما استطاعت أن تفعله هو إزاحة طالبان من السلطة فى أفغانستان.. وهو «نصف نصر زائف».. لأن طالبان مازالت موجودة.. وتنظيم القاعدة مازال موجوداً.. والملا محمد عمر وأسامة بن لادن مازالا بخير.. ويقودان المواجهة المسلحة ضد أمريكا.

أما ما فعلته أمريكا بهذه الحرب.. فهو أنها فرشت أرض أفغانستان حريراً للروس، لكى يدخلوها فى أمان الله، بعد أن خرجوا منها مهزومين عام ١٩٨٩.

الدليل على ذلك أنه فى اليوم التالى لرفض قادة التحالف الشمالى فى كابول استقبال المبعوث الأمريكى «جيمس دوبينز».. استقبلوا وفداً روسياً يضم مسئولين كبار من وزارات الدفاع والخارجية والطوارئ الروسية.. ذهبوا إلى أفغانستان للتمهيد إلى عودة الروس إلى هذا البلد.. إن لم يكن بالتواجد العسكرى.. فعلى الأقل بالنفوذ السياسى..!

الفصل التاسع والعشرون

• قندوز..!
أهم فصول الحرب .. !

« فى قلعة جانجى..وقعت أبشع محرقة حقيقية عرفها التاريخ الإنسانى الحديث »..!

□ *بينما كان يتوالى سقوط المدن الأفغانية بسرعة مذهلة فى شمال ووسط وغرب وشرق البلاد.. ظلت مدينة قندوز صامدة أكثر من أسبوعين، كتبت خلالها واحداً من أهم فصول الحرب الأفغانية..*

أهمية هذا الفصل لا ترجع فقط إلى أن المدينة صمدت وقاومت فترة من الوقت..

ولكن لأن ما جرى فيها هو نتاج تعقيدات الوضع الأفغانى برواسبه القديمة ومستجداته الحديثة.. الأمر الذى يجعلها أفضل «نموذج» لفهم ، وتحليل الأزمة الأفغانية..

فقندوز مدينة تقع فى الجزء الشمالى من أفغانستان بين مدينتى خان آباد ومزار الشريف، وتحمل نفس اسم الولاية التى توجد بها..

كانت هذه المدينة تمثل آخر معاقل قوات طالبان فى الشمال.. وكان المتوقع أن تنسحب منها هذه القوات، فتسقط المدينة فى أيدى قوات التحالف الشمالى مثل غيرها من المدن الأفغانية.. لكن هذا لم يحدث..!

السبب أن معظم قوات طالبان المتمركزة فى المدينة.. كانوا من الأفغان العرب والباكستانيين والشيشانيين الذين يفضلون الموت على الاستسلام.. وهم من كان يطلق عليهم أثناء الأزمة «الأفغان الأجانب»..

قوة بطش هؤلاء المقاتلين.. جعلت قوات التحالف الشمالى تقف عند حدود ولاية قندوز غير قادرة على التقدم نحو المدينة، ومفضلة الانتظار حتى تؤدى الغارات الأمريكية إلى مزيد من الإنهاك لقواهم..

الولايات المتحدة من جانبها قامت بتكثيف الغارات على المدينة، وعلى تلال الجبال المحيطة بها التى يتمركز فيها مقاتلو طالبان والأفغان الأجانب.. إلى درجة وصفت بأنها أعنف غارات تمت منذ بدأت الحرب.. حيث قامت طائرات (بى ـ ٥٢) و(إف ـ ١٨) و(إف ـ ١٦) بقصف متواصل للمنطقة بالقنابل الثقيلة لدك المخابىء، وتدمير الكهوف التى يحتمى بها المقاتلون.. حتى أصبح صوت الانفجارات يسمع بمعدل مرة كل ٥ دقائق تقريباً، وغطت سحب الدخان سماء المنطقة.. وبلغ عدد القتلى فى يوم واحد فقط هو الأحد ١٨ نوفمبر ٢٠٠١ ما يزيد على ألف شخص داخل قندوز

وضواحيها، كما جاء على لسان المُلا محمد فضل أحد قادة طالبان المحاصرين فى المدينة.. خلال اتصال هاتفى عبر الأقمار الصناعية مع صحيفة «الفجر» الباكستانية..![٩٣]

تحت هذا القصف المكثف عرض قادة طالبان المحاصرون الاستسلام، وفوضوا محافظ قندوز فى التفاوض لتنظيم عملية استسلام قواتهم تحت إشراف الأمم المتحدة بثلاثة شروط:

١- توفير ممر آمن لقوات طالبان للعودة إلى مناطقها..

٢- تسليم الأسلحة إلى جهة محايدة..

٣- ضمان إعادة المقاتلين الأجانب إلى بلادهم تحت رعاية الأمم المتحدة..

قبل أن ترد قوات التحالف الشمالى على هذا العرض بادرت الولايات المتحدة برفض الشروط الثلاثة.. وأعلن دونالد رامسفيلد وزير الدفاع الأمريكى يوم ١٩ نوفمبر أنه يعارض أى تسوية قد تسمح بإطلاق سراح مقاتلى طالبان، وتنظيم القاعدة المحاصرين فى قندوز.. بل وحذر الأمم المتحدة، والتحالف الشمالى من الدخول فى أية مفاوضات معهم بشأن مغادرتهم أفغانستان حتى لا يتسببوا فى زعزعة الاستقرار فى بلدان أخرى.. وقال: إنه يأمل أن يتم قتل الأشخاص المحاصرين فى قندوز.. وفى اليوم التالى كرر رامسفيلد نفس الكلام مضيفاً: «أنه بالتأكيد سيبذل كل جهد مستطاع للحيلولة دون إنهاء حصار مقاتلى طالبان من الأفغان العرب فى قندوز»..!

سبب هذا الكلام هو أن الإدارة الأمريكية كانت فى ذلك الوقت قد بدأت فى الإعداد لتشكيل محاكم عسكرية لمحاكمة أعضاء طالبان وتنظيم القاعدة أمامها - وهى المحاكمات التى جرت بعد ذلك فى جوانتانامو - حيث أصدر الرئيس الأمريكى بوش يوم ١٤ نوفمبر ٢٠٠١ - أى فى اليوم التالى مباشرة لسقوط كابول - قراراً يسمح بتشكيل محاكم عسكرية خاصة لمحاكمة أى شخص غير أمريكى الجنسية عضو - أو كان عضواً - فى تنظيم القاعدة، أو يشتبه فى أنه شارك أو تآمر فى ارتكاب أعمال إرهابية أو فى إيواء إرهابيين أو مشتبه فيهم.. وذلك بدلاً من المحاكمة أمام القضاء المدنى[٩٤]..

لذلك كان رامسفيلد «يبذل كل جهد مستطاع للحيلولة دون إنهاء حصار مقاتلى طالبان والأفغان الأجانب فى قندوز» حتى يقع من ينجو من الموت منهم فى الأسر لدى الأمريكيين، ويقدم إلى المحاكم العسكرية الأمريكية التى قرر بوش تشكيلها..!

* * *

لكن قوات التحالف الشمالى كانت لها حسابات أخرى..
- فهى أولاً غير قادرة على اقتحام مدينة قندوز، والاشتباك مع القوات الموجودة بها المدربة تدريباً عالياً..
- وهى ثانياً تطمع فى الحصول على ما لدى هذه القوات من أسلحة وعتاد وغنائم.. وهذا هو المهم، والذى بسببه بدأ الخلاف ينشب بين اثنين من قادة التحالف الشمالى.. هما: القائد الأوزبكى عبدالرشيد دوستم الذى تسيطر قواته على مزار الشريف شرق قندوز، والقائد الطاجيكى محمد داود الذى تسيطر قواته على المناطق القريبة من خان آباد غرب قندوز..

كل من القائدين كان يريد من قوات طالبان أن تستسلم له دون الآخر.. لاغتنام الأسلحة والمعدات، وتسجيل انتصار جديد لنفسه يعزز به مواقعه العسكرية قبل الشروع فى عملية توزيع السلطة التى تمت بعد ذلك..

هذا الخلاف ظل فترة من الوقت يدور تحت السطح.. يغذيه غياب الثقة بين القائدين والخصومات القديمة بين الأوزبك والطاجيك..

لكنه - بعد ذلك - ظهر بوضوح عندما قررت قوات طالبان المحاصرة فى قندوز الاستسلام لعبدالرشيد دوستم.. وذهب قائدهم المُلا محمد فضل على رأس وفد من مساعديه إلى مدينة مزار الشريف للتفاوض مع دوستم حول شروط الاستسلام.. وتم التوصل إلى اتفاق بين الجانبين يضمن لقوات طالبان الخروج الآمن من قندوز إلى مزار الشريف.. ثم تسريحهم بعد ذلك بعد أن يقوموا بتسليم ما لديهم من أسلحة ومعدات إلى قوات عبدالرشيد دوستم.. أما بالنسبة لغير الأفغان من القوات المستسلمة فسيتم اعتقالهم كأسرى..

بمجرد الإعلان عن هذا الاتفاق.. أعلن القائد الطاجيكى محمد داود أنه غير ملزم به.. وطلب من قواته الاستعداد لاقتحام قندوز..

كان هذا هو أول خلاف بين فصائل التحالف الشمالى يظهر إلى العلن بعد استيلائها على كابول..
- دوستم تمسك بموقفه.. لأن قوات طالبان اختارت الاستسلام له..
- وداود تمسك بموقفه ..لأنه المكلف من الرئيس برهان الدين ربانى بقيادة العمليات العسكرية على جبهة قندوز.. فضلاً عن أن ولاية قندوز بكاملها تقع ضمن المناطق التى بها أغلبية طاجيكية، وبالتالى ليس من حق دوستم الأوزبكى أن ينازعه فيها..

أما السبب الذى جعل قوات طالبان تختار الاستسلام إلى دوستم، وليس إلى داود.. فيعود إلى العداء التاريخى بين البشتون الذين تنتمى إليهم طالبان، والطاجيك الذين ينتمى إليهم داود وقواته.. والذى تجدد باحتلال طالبان ولاية تالقان مرتين، والتى كانت معقل القائد الطاجيكى أحمد شاه مسعود، وأصبحت فيما بعد مقراً للقائد محمد داود..

لذلك فضل قادة طالبان أن يكون الاستسلام لعبدالرشيد دوستم لتوقعهم أن يلقوا منه معاملة أفضل من التى يمكن أن يلقوها من محمد داود.. على الرغم من سجل دوستم السيىء فى مجال حقوق الإنسان وتغييره لمواقفه وولاءاته بسرعة..

* * *

لكن المشكلة لم تكن فى دوستم وداود فقط..!

كانت فى الأفغان العرب والباكستانيين والشيشان الذين كانوا يمثلون ثلثى عدد القوات المحاصرة فى قندوز، ويرفضون الاستسلام.. سواء لدوستم أو لداود.. وبسببهم فشلت مفاوضات الاستسلام أكثر من مرة..! وكان عددهم نحو ١٠ آلاف مقاتل .

فمعظم هؤلاء ينتمون لتنظيم القاعدة الذى يتزعمه أسامة بن لادن.. ولا يتوقعون أية رحمة فى التعامل معهم، سواء من قوات التحالف الشمالى على اختلاف فصائلها التى تمقتهم مقتاً شديداً.. أو من الولايات المتحدة الأمريكية التى رفضت أى تسوية لفك الحصار عنهم، وبدأت فى تشكيل المحاكم العسكرية لمحاكمتهم..

لذلك لم يكن أمام هؤلاء من خيار سوى الاستمرار فى الدفاع عن قندوز حتى الموت.. لأن الموت فى ظل هذه الظروف كان أهون من أى مصير آخر ينتظرهم..!

ومن باب الحفاظ على قوتهم طلبوا من زملائهم تحت الحصار من قوات طالبان عدم الاستسلام.. وهددوا بقتل كل من يحاول أن يستسلم منهم، هكذا ذكرت بعض وسائل الإعلام الغربية.. بل إن محطة (سى. إن. إن) التليفزيونية أذاعت يوم ١٨ نوفمبر ٢٠٠١ «أن العناصر المتشددة فى طالبان قتلت أفراداً آخرين من طالبان كانوا يرغبون فى الاستسلام».. كما ذكرت صحيفة «صنداى تلجراف» البريطانية فى نفس اليوم أيضاً «أن حرس تنظيم القاعدة يقومون بذبح قوات طالبان لمنعهم من الاستسلام لقوات التحالف الشمالى التى تحاصر قندوز».. ونقلت الصحيفة عمن وصفتهم بشهود عيان فى قندوز قولهم: «إن قائد تنظيم القاعدة العربى بالمدينة أمر بقتل ١٥٠ من أفراد طالبان لأنهم أبدوا رغبتهم فى الاستسلام..!

لذلك كان وضع الأفغان العرب والباكستانيين هو «المعضلة» فى أية مفاوضات للاستسلام،،

- فمن ناحية.. الأمريكيون يريدونهم، وبالتالى لا يستطيع عبدالرشيد دوستم أن يعد بإطلاق سراحهم بعد استسلامهم بأسلحتهم، كما سيفعل مع مقاتلى طالبان من الأفغان.. وأقصى ما يستطيع أن يقدمه لهم فى أى اتفاق هو معاملتهم كأسرى حرب.. أى عدم التعرض لحياتهم، والاكتفاء باعتقالهم..

- ومن ناحية أخرى يريد قادة طالبان الذين يتفاوضون مع دوستم أن يضمنوا للأفغان العرب والباكستانيين أن يعاملوا نفس معاملة قوات طالبان .. وهى الخروج

الأمن من قندوز، ثم تسريحهم بعد أن يسلموا أسلحتهم.. حتى يمكن إقناعهم بالموافقة على الاستسلام..

هكذا ظل وضع الأفغان العرب والباكستانيين يعطل أية اتفاقات للاستسلام، ويدفع بها نحو نفق مظلم..!

ولما كان عبدالرشيد دوستم لا يريد أن يدخل بقواته معركة مع هذا النوع من المقاتلين، لأنه يعرف شراستهم.. وفى نفس الوقت يريد أن يحصل على الأسلحة والغنائم التى لديهم، ويخضع قندوز لسيطرته.. فقد تفتق ذهنه عن فكرة جديدة يمكن بها الخروج من النفق المظلم، وهى محاكمة الأفغان العرب والباكستانيين أمام محاكم إسلامية بعد استسلامهم..

- فهو بذلك يضمن موافقتهم لأن المحاكم الإسلامية تطبق شرع الله..

- وفى نفس الوقت يتحفظ عليهم كما تريد الولايات المتحدة، ثم يبدأ بعد ذلك مساومة الأمريكيين على تسليمهم..!

إلا أن الوقت لم يسعف دوستم لتنفيذ فكرته.. لأن الجنرال محمد داود كان على الجانب الآخر يوجه كل يوم الإنذارات للمحاصرين فى قندوز إذا لم يستسلموا إليه فسوف يبدأ فى مهاجمتهم.. وكان ربانى يدعمه.. والمقاتلات الأمريكية تمهد له الطريق، حيث أنهكت قوى طالبان ومن معهم من العرب والباكستانيين، وكانت تقتل المئات منهم كل يوم..

والواقع أنه لولا الغارات الأمريكية المكثفة على مواقع المحاصرين فى قندوز، واستمرارها على مدار الـ ٢٤ ساعة طوال فترة الحصار التى امتدت أكثر من أسبوعين.. لما استطاعت قوات التحالف الشمالى دخول قندوز..!

* * *



قوات محمد داود تقف على مشارف قندوز

بدأت قوات التحالف الشمالى بقيادة محمد داود التحرك نحو قندوز مساء يوم الخميس ٢٢ نوفمبر ٢٠٠١..

أحداث هذا اليوم جرت على النحو التالى:

- فى الصباح أعلن عبدالرشيد دوستم أنه توصل مع مقاتلى طالبان لاتفاق يقضى باستسلامهم، واستسلام الأفغان الأجانب المحاصرين معهم فى قندوز طوعاً ودون قتال لتفادى حمام دم فى المدينة.. وأنه سيتوجه على رأس ٥ آلاف من مقاتليه إلى قندوز يوم السبت ٢٤ نوفمبر لاستلام المدينة..

- على الفور شنت قوات داود هجوماً بالدبابات والمدافع والصواريخ على مواقع طالبان بمدينة خان آباد التى تبعد حوالى ٢٠ كيلو متراً شرق مدينة قندوز وتقع معها داخل نفس الولاية.. وقد استطاعت قوات داود تحت غطاء من المقاتلات الأمريكية أن تنتزع بالفعل بعض التلال المشرفة على المدينة من قبضة طالبان.. ثم أوقفت هجومها أثناء الليل على أمل أن تستسلم لها قوات طالبان.. وهذا بالضبط ما قاله القائد الطاجيكى صدرالدين أغا يوم الجمعة ٢٣ نوفمبر: «أخرجنا عناصر طالبان من التلال المشرفة على خان آباد، وجنودنا ينتشرون فيها الآن.. لقد علقنا هجومنا مساء الخميس حتى نمكن الأفغان من قوات طالبان الذين يريدون الاستسلام لنا أن يستسلموا، وينضموا إلينا فى قتل الأجانب فى حركة طالبان - يقصد العرب والباكستانيين والشيشان - وقد استسلم لنا حتى الآن أكثر من ٣٠٠ من مقاتلى طالبان الأفغان [٩٥]»..

- زعماء التحالف الشمالى فى كابول الذين ينتمون إلى الطاجيك.. مثل ربانى، وقاسم فهيم، وعبدالله عبدالله، ويونس قانونى.. وقفوا إلى جانب محمد داود ودعموه عسكرياً وسياسياً بعد أن فشلوا فى جعل دوستم يترك موضوع قندوز لداود.. حيث كان دوستم كلما وعدهم بذلك، يعود ، فيخلف وعده، ويواصل التفاوض مع ممثلى طالبان على الاستسلام له طمعاً فى الأسلحة والغنائم.. لذلك تجاهل ربانى، ومن معه الاتفاق الذى تم بين طالبان ودوستم.. ووصف يونس قانونى وزير الداخلية الاتفاق بأنه ليس سوى حركة سياسية من جانب طالبان لكسب الوقت.. وقال: «إننا حاولنا تسوية مسألة قندوز عبر التفاوض.. لكننا أرغمنا على الخيار العسكرى بعد فشل المفاوضات»..

- فى اليوم التالى.. الجمعة ٢٣ نوفمبر بدأ عبدالرشيد دوستم تجهيز قواته للتوجه بها إلى قندوز صباح السبت ٢٤ نوفمبر لاستلام المدينة ، والإشراف على عملية استسلام القوات المحاصرة بأسلحتها حسب الاتفاق الذى تم بينه، وبين ممثليهم فى مزار الشريف..

- فى نفس الوقت كانت قوات محمد داود على الجبهة الأخرى قد بدأت الزحف

على قندوز من ثلاثة محاور: «خان آباد» فى الشرق.. و«بولى بانجى» فى الغرب.. و«دشت عرشى» فى الشمال.. إلا أن قوات طالبان تصدت لها.. واستطاعت منعها من دخول قندوز.. على الرغم من أن قوات داود كانت تهاجم تحت غطاء جوى كثيف من المقاتلات الأمريكية اشتركت فيه ٧٥ طائرة من بينها قاذفات القنابل الثقيلة (بى - ٥٢).. وأحدث القصف دماراً شديداً بقرى «ديفايرون» و«بانجى» و«دهوران» و«صندق» و«سراى» و«اختاج»..

- أثناء المعارك قتلت طالبان عدداً من قوات داود.. قدره بيان صدر عن مكتب المُلا محمد عمر فى قندهار بـ ١٧٠٠ قتيل، وقدره أحد القادة الموالين لداود بثلاثة قتلى..!





أحد الأفغان العرب
يتصدى لجندى من
التحالف الشمالى



جنود طالبان بعد
استسلامهم لقوات
عبدالرشيد دوستم



وداخل احدى الشاحنات فى طريقهم إلى قلعة جانجى

- يوم السبت ٢٤ نوفمبر.. كانت المعارك على أشدها حول قندوز بين طالبان وداود.. فغير دوستم من خطته.. وبدلاً من أن يذهب على رأس ٥ آلاف من جنوده لاستلام المدينة.. أرسل ألفين وخمسمائة جندى فقط بقيادة أحد مساعديه اسمه: سهمسول حق نصرى.. وقد اختار دوستم هذا الشخص بالذات لهذه المهمة، لأنه من أصل بشتونى مثل طالبان..

- دخلت قوات دوستم قندوز بدون قتال.. وفى غضون ساعات قليلة استطاعت السيطرة على نحو ٧٠٪ من مساحة المدينة، بينما أخذت قوات طالبان فى الاستسلام لها وتسليم أسلحتها كما هو متفق عليه بين الجانبين.. وكان من بين من استسلموا المُلا نورالله نورى قائد قوات طالبان فى المنطقة الشمالية.

- أثناء عملية الاستسلام تصافح الجنود من الجانبين.. جنود طالبان وجنود دوستم.. وقامت الشاحنات بنقل جنود طالبان إلى خارج المدينة..

- الأسلحة التى تم تسليمها لقوات دوستم كانت عبارة عن ٨ دبابات، و٥ مدافع مضادة للطائرات، و٧ قاذفات صواريخ، و٤٠ مركبة عسكرية..

- استمرت عملية الاستسلام داخل المدينة وضواحيها حتى اليوم التالى.. وبلغ عدد الذين استسلموا من مقاتلى طالبان الأفغان ٥ آلاف - أى جميعهم - بينما لم يستسلم من الأفغان الأجانب - العرب والباكستانيين والشيشان - سوى ٧٥٠ فقط، تم نقلهم على الفور إلى قلعة «جانجى».. وهى قلعة قديمة تقع على مسافة ١٠ كيلومترات غرب مدينة مزار الشريف..

- واصل من لم يستسلم من الأفغان الأجانب القتال حتى الموت ضد قوات محمد داود.. وبعضهم فر عبر الممر الجبلى «أنداناك» باتجاه مزار الشريف..

* * *

وهكذا سقطت قندوز.. وانتهت معركتها يوم الأحد ٢٥ نوفمبر ٢٠٠١ بعد أن سطرت واحداً من أهم فصول الحرب الأمريكية على أفغانستان، وقدمت أفضل «نموذج» يمكن من خلاله فهم وتحليل الأزمة الأفغانية..

- فهى أبرزت إلى السطح الصراع بين الطاجيك والأوزبك.. أكبر فصيلين فى التحالف الشمالى..

- وأظهرت أن البشتون يفضلون الاستسلام للأوزبك.. وليس للطاجيك بسبب الثأر التاريخى بينهما..

- وجسدت «المصير المؤلم» الذى انتهى إليه وضع المتطوعين من العرب والباكستانيين والشيشان الذين ذهبوا للقتال فى أفغانستان.. حيث كان الموت بالنسبة لهم هو أفضل الخيارات المتاحة..!

- أيضاً كشفت «وحشية» الولايات المتحدة الأمريكية التى أعطت ظهرها للقوانين،

والأعراف الدولية المعمول بها فى الحروب.. وظلت تقصف بشدة قرى ومناطق يطلب أهلها الاستسلام.. وترفض أية تسوية يمكن أن تؤدى إلى فك الحصار عن الجنود المستسلمين..!

- والأهم من كل ما سبق.. أنها فضحت موقف الأمم المتحدة التى هزت أكتافها.. وقالت: «وانا مالى»..!! عندما حاولت بعض الدول - مثل باكستان ودول إسلامية أخرى وطالبان - أن تستنجد بها للتدخل من أجل إنقاذ القوات المحاصرة فى قندوز، والتى تعرض الاستسلام مقابل السلامة فقط.. فقال الأخضر الإبراهيمى: إن الأمم المتحدة لا تستطيع القيام بهذه المهمة..!

وهكذا يمكن القول: إن الأخضر الإبراهيمى قد نعى بنفسه اتفاقية جنيف الرابعة لسنة ١٩٤٩ الخاصة بمعاملة الأسرى والسكان المدنيين.. والبقاء لله..!

* * *

أما ماحدث للأفغان العرب والباكستانيين والشيشان الذين استسلموا وتم نقلهم إلى قلعة «جانجى».. فلم يكن سوى «محرقة أمريكية» على حد تعبير صحيفة أهم الأخبار الباكستانية..!!

فهؤلاء المقاتلون وصلوا إلى القلعة كأسرى حرب من المفترض أنهم سيقدمون إلى المحاكمة أمام محاكم إسلامية حسب الاتفاق الذى تم بين دوستم وقادة من طالبان، والذى على أساسه وافقوا على الاستسلام..

لكن ما جرى لهم داخل القلعة كان شيئاً آخر.. فقد وجدوا بانتظارهم مجموعة من المحققين الأمريكيين بدأوا فى استجوابهم للحصول منهم على معلومات عن تنظيم القاعدة ومكان أسامة بن لادن.. وربما علموا أيضاً أنه سيتم نقلهم إلى قاعدة «جوام» الأمريكية فى المحيط الهادى التى كانت مرشحة لاستقبالهم قبل أن يستقر الرأى على قاعدة «جوانتانامو» فى كوبا.. عندئذٍ قام أحد المقاتلين الشيشان بتفجير نفسه وسط الحراس مما أدى إلى مقتل عدد منهم واثنين من القادة الشماليين.. الرواية نقلها إلى وسائل الإعلام مترجم أفغانى كان يعمل لحساب محطة تليفزيون ألمانية، وكان موجوداً داخل القلعة فى ذلك الوقت.. قال المترجم: إن الانفجار أدى إلى انتشار حالة من الفوضى والذعر، فاستغلها الأسرى الأجانب، واستولوا على أسلحة حراسهم وبدأوا فى قتلهم. كما استطاعوا الوصول إلى مخزن الأسلحة بالقلعة ، فقتلوا حراسه، واستولوا من المخزن على أسلحة ثقيلة..

- على الفور أرسل عبدالرشيد دوستم قوات إضافية إلى القلعة، وبدأت معركة بين الجانبين استخدمت فيها الدبابات، والمدافع الرشاشة ، ومنصات إطلاق القذائف.. كما انضمت الولايات المتحدة إلى المعركة ، وقامت المقاتلات الأمريكية بإلقاء ٦ قنابل على الجزء الجنوبى من القلعة الذى يرتكز فيه الأفغان الأجانب.. ووصل إلى المنطقة ٤٠ فرداً من القوات الأمريكية الخاصة لكنهم لم يتمكنوا من

الاقتراب من ساحة المعركة أو دخول القلعة بسبب القتال العنيف الذى كان يدور بداخلها..!!

ـ استمرت المعركة ٤ ساعات وسقط فيها نحو ١٠٠ قتيل من الجانبين بينهم أحد موظفى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية الذى كان يعمل فى المنطقة كمستشار عسكرى يتولى عملية تصويب القصف الجوى.

ـ كل ذلك حدث فى النصف الثانى من يوم الأحد ٢٥ نوفمبر ٢٠٠١ بعد وقت قصير من وصول الأفغان الأجانب إلى قلعة جانجى..!

الحظ أنقذ حياة عدد من الصحفيين كانوا يحاولون دخول القلعة لإجراء مقابلات مع الأسرى الأفغان الأجانب.. من هؤلاء صحفى اسمه «نيكول بافلوف» مراسل رواية رويتر للأنباء حكى تجربته فى حوار نشرته صحيفة «ليبراسيون» الفرنسية يوم الثلاثاء ٢٧ نوفمبر ٢٠٠١ يقول هذا الصحفى: «كنت مع المصور الخاص بى، واقتربنا من القلعة فى منتصف نهار يوم الأحد.. وعندما حاولنا دخولها لإجراء لقاءات مع الأسرى عن الحرب، وأسباب استسلامهم منعنا أحد قادة الحراس، وقال: إنه يجب أخذ الإذن أولاً من القائد عبدالرشيد دوستم قبل السماح لنا بدخول القلعة التى يصل ارتفاع أسوارها إلى ٢٠ متراً.. والواقع أن هذه البيروقراطية أنقذت حياتنا.. ففى هذه اللحظة سمعنا انفجارات وأصوات قذائف مدوية.. فانبطحنا أرضاً تحت الأشجار أنا والمصور ولم يكن لدينا أى فكرة عما يحدث، أو عن أسباب تلك الطلقات النارية المتتابعة».. أضاف: «عندما رفعت رأسى قليلاً لاستطلاع ما يحدث فوجئت برصاصة كادت تلمس رأسى.. لم نكن بمفردنا فى الخارج، بل كان معنا مقاتلون من التحالف الشمالى أخبرونا بأن الأسرى من العرب والباكستانيين والشيشان، وكذلك الأوزبك المنتمين لتنظيم القاعدة قد وضعوا يدهم على مخزن للأسلحة وقاموا بتمرد على قوات التحالف.. كما شاهدنا أمريكياً يرتدى زياً مدنياً ممسكاً ببندقية آلية، وسمعناه يقول عبر هاتف معه: إن أمريكياً آخر يمكن أن يكون قد لقى مصرعه».. وقال مراسل رويتر: «لقد استمرت المواجهات ٤ ساعات.. واستطعت مع حلول الليل أن أهرب مع المصور فى سيارة إلى مدينة مزار الشريف»..

ـ يوم الاثنين ٢٦ نوفمبر قامت المقاتلات الأمريكية بقصف مكثف لقلعة «جانجى» حتى تحولت إلى حمام من الدم.. حيث «كانت السماء تمطر قنابل فوق القلعة» كما تقول صحيفة «أهم الأخبار» الباكستانية.. وظلت تسمع بالداخل أصوات قذائف الهاون، وطلقات الأسلحة الرشاشة.. بينما تحاصر القلعة من الخارج قوات التحالف الشمالى مدعومة بعناصر أمريكية وبريطانية لاقتناص أى من المحاصرين داخل القلعة من الأفغان الأجانب إذا حاول القفز من أسوارها والفرار للخارج..

ـ أثناء الليل أغارت المقاتلات الأمريكية ٤٣ مرة على القلعة كما يقول «الكومندان عظيم» أحد القادة فى قوات دوستم الذين كانوا يحاصرون القلعة.. وقامت قاذفات «إيه. سى ـ ١٣٠» الرهيبة بقصف مستودع الأسلحة عدة مرات وكانت به كميات كبيرة من الذخيرة والألغام فانفجرت كلها، واشتعلت النار بالقلعة، وظلت مشتعلة طوال الليل محدثة أبشع محرقة حقيقية عرفها التاريخ الإنسانى الحديث..!!

ـ «المدهش» كما تقول صحيفة «الجارديان» البريطانية [٩٦].. إنه عندما دخل القلعة فى الساعة الثامنة من صباح يوم الثلاثاء ٢٧ نوفمبر قناصة من التحالف الشمالى، والقوات الخاصة الأمريكية والبريطانية.. فوجئوا بأن بعض الأفغان الأجانب مازالوا على قيد الحياة..! بل وشنوا عليهم هجوماً مضاداً بالمدافع الرشاشة، وأصابوا بعضهم وأجبروهم على الانسحاب.. فقامت قوات التحالف والأمريكيون والبريطانيون بقصف القلعة من الخارج براجمات الصواريخ والدبابات والمدافع بصورة مدمرة ، وشاركت فى القصف أيضاً المقاتلات الأمريكية..

ـ مع منتصف يوم الثلاثاء كان المتبقى على قيد الحياة من الأفغان الأجانب داخل القلعة ثلاثة أسرى فقط.. رفضوا كل عروض الاستسلام التى قدمت لهم، وكانوا يصرخون: «كلكم أمريكان.. لن نستسلم لكم».. وبناء على نصيحة من القوات الخاصة الأمريكية والبريطانية قام جنود التحالف الشمالى بسكب الزيت على جدران المخبأ الذى كان يتحصن فيه الأسرى الثلاثة الذين لم يكن معهم سوى رشاش قصير وبندقية كلاشينكوف..!!

ـ فى الساعة الثالثة والنصف من عصر نفس اليوم.. الثلاثاء ٢٧ نوفمبر ٢٠٠١.. دخلت دبابة قلعة «جانجى» وراحت تدهس فى طريقها جثث قتلى القصف الأمريكى من الأفغان العرب والباكستانيين والشيشان والأوزبك.. ثم وقفت على مسافة ٢٠ متراً فقط من مخبأ الأسرى الثلاثة، وأطلقت أربع دفعات متتالية من النيران نسفت بها المخبأ.. وساد بعد ذلك صمت الموتى..

هكذا سكت إلى الأبد تمرد الأفغان الأجانب فى قلعة «جانجى».. بعد أن خاضوا معركة تعجز السينما الأمريكية عن إنتاج مثيلٍ لها..!!

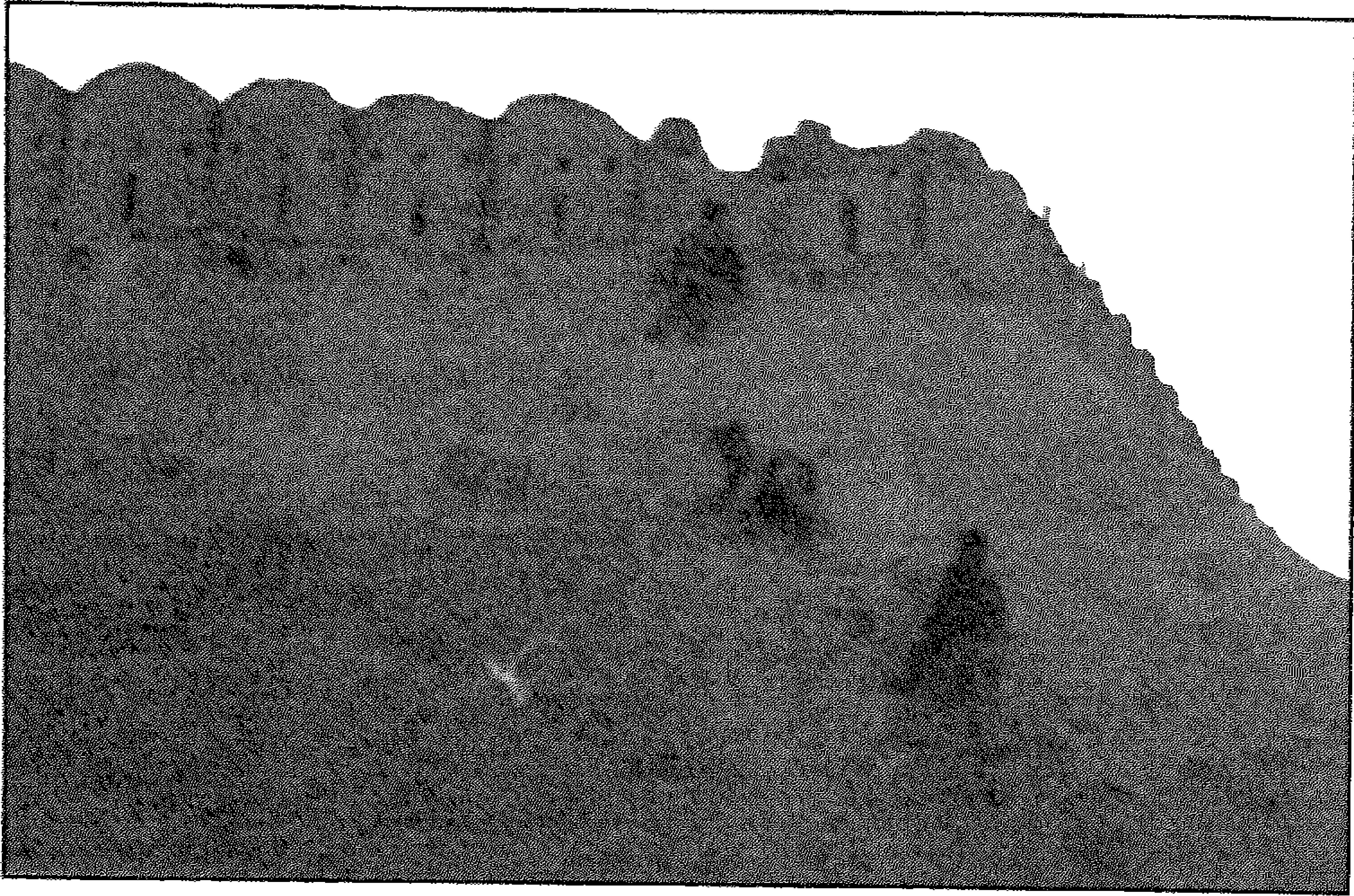
* * *



العشرات من جثث الأفغان العرب على أرض القلعة



الجثث تغطى ارض القلعة



قلعة جانجي التى جرت بها المعركة

الفصل الثلاثون

• معركة قندهار..

«نحن مازلنا هنا والموقف مستقر..
وسوف نحاكم الرئيس الأمريكى
بوش وحلفاءه أمام محكمة إسلامية
هنا فى أفغانستان»..!

محمد طيب أغا

المتحدث باسم حركة طالبان

□ منذ بداية الحرب.. كانت قندهار فى مقدمة أهداف الأمريكيين فى أفغانسان..
فهى مركز حكم طالبان.. أى العاصمة الفعلية..

بسقوطها تسقط طالبان..
وبصمودها تصمد طالبان..
لذلك اختصها الأمريكيون بأكبر عدد من القنابل والصواريخ..
ولم تمر ليلة إلا وأرسلوا إليها عشرات القاذفات تلقى بنيرانها على البيوت والناس والشوارع..
وعندما قرروا القيام بعملية برية.. اختاروا التلال المحيطة بها ليهبط فوقها جنود الكوماندوز الأمريكيون..
لكن معركة قندهار لم تكن سهلة.. بل كانت من أصعب المعارك فى هذه الحرب، لثلاثة أسباب:
- الأول: أن قوات طالبان بعد أن انسحبت من المقاطعات الشمالية تمركزت فيها..
- الثانى: أن قوات التحالف الشمالى لم تستطع أن تدخلها كما دخلت من قبل مزار الشريف وكابول وهيرات وغيرها من المدن الأفغانية.. لأن التركيبة السكانية فى قندهار تختلف عنها فى هذه المدن.. فقندهار هى مركز وحصن قبائل البشتون.. ودخول قوات التحالف الشمالى هذه المدينة يغير وجه الحرب.. من حرب بين التحالف الشمالى وطالبان إلى حرب عرقية بين الطاجيك والأوزبك والهزارة من ناحية، والبشتون من ناحية أخرى.. وهو ماسوف يقلب النتائج كلها لصالح البشتون.. أى لصالح طالبان..!
- الثالث: أن القوات الأمريكية لم تستطع أن تدخلها أيضاً.. لأن المواجهة التى حدثت بينها، وبين قوات طالبان فجر ٢٠أكتوبر ٢٠٠١، والتى راح ضحيتها عشرات القتلى والجرحى من جنود الكوماندوز الأمريكيين على أيدى طالبان.. كانت ماثلة فى الذاكرة بقوة، وتدخل ضمن أية حسابات أمريكية فى الحرب على طالبان..
لذلك كان لابد للأمريكيين من اتباع أسلوب مختلف فى معركة قندهار..

هذا الأسلوب ارتكز على ثلاثة محاور كانت كلها تساعد بعضها، وتدفع نحو تحقيق هدف واحد هو سقوط المدينة.. المحاور الثلاثة هى:

١ـ قصف جوى مكثف فى محيط قندهار وداخلها، وصل إلى درجة أن بعض القاذفات الأمريكية كانت تعود بحمولتها من القنابل والصواريخ إلى حاملات الطائرات التى أقلعت منها لأنها لم تعثر فى قندهار على أهداف جديدة يمكن قصفها، وخوفاً من إصابة القوات الصديقة للأمريكيين التى ترابط حول المدينة..!

٢ـ حرب نفسية.. وهى واحدة من أهم الأسلحة التى استخدمها الأمريكيون منذ بداية الحرب، ثم زادت فعالية هذا السلاح بعد سقوط كابول، فأصبح أكثر تأثيراً على طالبان.

٣ـ التفاهم مع بعض قبائل البشتون لاستقطابهم وتشجيعهم على تنحية طالبان والسيطرة على المدينة، بدعوى أن ذلك أفضل من سقوطها فى قبضة التحالف الشمالى كغيرها من المدن الأفغانية الأخرى إذا ماستمرت طالبان تسيطر عليها.. ويمكن لهذه القبائل أن تفعل ذلك عن طريقين:

ـ إما التفاوض مع زعماء طالبان حول تسليم المدينة، وإقناعهم بالاستسلام حقناً للدماء..

ـ أو التمرد عليهم ومواجهتهم عسكرياً إذا اقتضى الأمر.. وفى هذه الحالة يكون طرفى المعركة فى قندهار من البشتون.. فيهلكان بعضهما البعض، بعد أن تكون الولايات المتحدة قد مدت الفئة الموالية لها بالسلاح والذخيرة لتضمن انتصارها فى النهاية.

* * *

وقد سارت الأحداث على النحو التالى:

ـ يوم ١٣نوفمبر ٢٠٠١.. أى نفس اليوم الذى سقطت فيه كابول.. بدأ تصعيد الحرب النفسية على طالبان بتصريح أدلى به عبدالله عبدالله وزير خارجية التحالف الشمالى قال فيه إن مقاتلى طالبان فقدوا سيطرتهم على قندهار، وبدأوا فى الانسحاب منها، وأن الوضع فى المدينة أصبح يتسم بالفوضى ويشبه الوضع فى كابول عندما تقدمت قوات التحالف الشمالى صوبها فلم تجد أثراً لقوات طالبان التى كانت قد انسحبت منها تحت جنح الليل.. فى نفس اليوم أيضاً قال يونس قانونى وزير داخلية التحالف الشمالى إن معلومات وصلته من قندهار تفيد أن بعض سكان المدينة أعربوا عن رغبتهم فى التعاون مع التحالف الشمالى ضد طالبان.. كما بثت بعض وكالات الأنباء الغربية أنباء نسبتها إلى شهود عيان تقول أن مابين أربعة إلى خمسة آلاف من مقاتلى القبائل الأفغانية التابعين للتحالف الشمالى يزحفون نحو قندهار للسيطرة عليها خلال الساعات المقبلة.

- فى اليوم التالى.. ١٤نوفمبر.. أذاعت شبكة تليفزيون «سى. إن. إن» الأمريكية أن مشايخ القبائل الأفغانية المتواجدين فى مدينة كويتا الباكستانية بدأوا يتحركون لإحداث عملية انشقاق بين زعماء حركة طالبان فى قندهار وحثهم على الفرار من المدينة..

كما أعرب كولين باول وزير الخارجية الأمريكى عن اعتقاده بأن قوات طالبان وصلت إلى «نقطة الانهيار».

وفى تقييم شامل للوضع العسكرى آنذاك قال دونالد رامسفيلد وزير الدفاع الأمريكى أن قادة طالبان فقدوا الاتصال بقواتهم الميدانية التى أخذت تنسحب من كل المناطق فى حالة من الفوضى الشاملة، وان هذه القوات المنسحبة أصبحت هدفاً مشروعاً وصيداً ثميناً للطيران الأمريكى نظراً لأن افرادها ينسحبون فى كل اتجاه بآلياتهم بدلاً من الاستسلام وإلقاء السلاح.

وبثت وكالات الأنباء تصريحاً نسبته إلى سعيد ابراهيم حكمت سفير حكومة ربانى الأفغانية فى دور شنته عاصمة طاجيكستان.. قال فيه: إن قندهار سقطت فى أيدى قوات التحالف، وإن سكان المدينة ثاروا ضد طالبان، وإن قوات التحالف الشمالى أخذت زمام السيطرة على المدينة التى لم يعد فيها وجود لقوات طالبان..!

طالبان ردت على ذلك فى نفس اليوم على لسان زعيمها الملا محمد عمر.. قال: «نحن نسيطر على قندهار بقوة ولدينا خطة كبيرة.. انتظروا مفاجأة..»..!

وقال المتحدث باسم طالبان محمد طيب أغا فى لهجة أقرب إلى التحدى: «نحن مازلنا هنا، والموقف مستقر، وسوف نحاكم الرئيس الأمريكى بوش وحلفاءه أمام محكمة إسلامية هنا فى أفغانستان»..!، ثم أعلن أن قوات طالبان تمكنت من قتل ٢٠أمريكياً وبريطانياً كانوا ضمن صفوف قوات التحالف الشمالى..

وزارة الدفاع الأمريكية لم تستطع أن تنفى مقتل هؤلاء الجنود، واكتفت بالقول انه لاعلم لها بذلك ولاتعرف ما إذا كانت هذه الرواية صحيحة أم لا..

فى نفس اليوم أيضاً.. ١٤نوفمبر.. قام عدد من مشايخ قبائل البشتون بتولى السلطة فى الأقاليم التى انسحبت منها قوات طالبان.. وهى أقاليم أوروزجان- مسقط رأس الملا محمد عمر-، ولاغمان، ولوجار، وكونر، وننجرهار، وباكتيا.. وقد دخل مولاى يونس خالص وهو أحد المجاهدين السابقين مدينة جلال أباد عاصمة إقليم ننجرهار وأعلن توليه حكم الإقليم، وأنه لن يسمح لأى جهة سواء كانت التحالف الشمالى أو غيره دخول الإقليم.

لكن قوات طالبان شنت فى اليوم التالى مباشرة هجوماً مضاداً على إقليم أوروزجان واستعادته من أيدى القبائل المحلية ودخلت عاصمته «تيرين كوت» التى تقع على مسافة قريبة من مدينة قندهار..

- يوم ١٥نوفمبر.. بدأ اسم حامد قرضاى يظهر فى وسائل الإعلام العالمية تحت

صفة «الزعيم الأفغاني المعارض» وكان يتحدث باسم قبائل البشتون التى بدأت التمرد على طالبان باعتباره ينتمى إلى إحدى هذه القبائل.. وهى قبيلة «بوبولزاى» المنافس القوى لقبيلة «غالزاى» التى تشكل عصب حركة طالبان.. فى هذا اليوم بثت وكالات الأنباء تصريحات لحامد قرضاى قال فيها: إن قندهار تشهد ثورة شعبية ضد طالبان.. وإن قتالاً شرساً يدور فى المدينة وضواحيها بين طالبان ومجموعات قبلية معارضة لها.. وان طالبان سحبت معداتها الثقيلة من المدينة التى أصبحت تسودها فوضى عامة.. وإن هناك مفاوضات تجرى مع قادة طالبان من أجل إستسلام مقاتليها، وتسليم قندهار سلمياً، قائلاً إن ذلك سيكون فى مصلحة أفغانستان والشعب الأفغاني..

فى نفس اليوم أيضاً أذاعت هيئة الإذاعة البريطانية «بى.بى.سى» حديثاً للملا محمد عمر أكد فيه على أن قندهار لاتزال تحت سيطرة مقاتلي طالبان، وان قوات الحركة تواصل تنظيم صفوفها لإستئناف القتال، مشيراً الي أن طالبان مازالت تسيطر علي أربعة أو خمسة أقاليم فى أفغانستان.. وقلل الملا محمد عمر من شأن خروج قوات طالبان من كابول ومزار الشريف وبعض المدن الأخرى، قائلاً: إن الأراضى تفقد وتستعاد وأنه ليس هناك فرق بين حكمهم لإقليم واحد أو إقليمين أو عشرين إقليماً، مذكراً بأن طالبان كانت فى وقت ما لاتسيطر على أى شىء ولكنها في وقت قصير أصبحت تحكم أفغانستان.. ورفض زعيم طالبان أى شكل من أشكال التعاون مع حكومة موسعة فى أفغانستان، مشيراً الي أن الصراع من أجل تشكيل مثل هذه الحكومة ظل قائماً طيلة السنوات العشرين الماضية لكنه لم يثمر شيئاً.. واكد أن طالبان تؤثر الموت على المشاركة فى حكومة فاشية.. ثم أعلن عن وجود خطة لتدمير أمريكا.. ودون الدخول فى تفاصيلها قال ان هذه الخطة يجرى تنفيذها وتحرز تقدماً.. لكنها مهمة كبيرة تتخطي إرادة البشر وادراكهم.. وانه يؤمن بأنه إذا كانت مشيئة الله مع الأمريكيين فإن ذلك لفترة قصيرة من الزمن.. ثم أضاف قائلاً عن تدمير أمريكا: «سيتم هذا قريباً بعون الله وليبق كلامى فى أذهانكم.. فستسقط أمريكا أرضا ..» (٩٧)!

– يوم ١٦ نوفمبر.. حدث تطور درامى مفاجىء، حيث قرر الملا محمد عمر الإنسحاب بقواته من قندهار وتسليم المدينة الى اثنين من القادة السابقين للمجاهدين إبان الغزو السوفييتى، وهما الملا نقيب الله والحاج بشار.. الخبر بثته وكالة الآنباء الإسلامية الأفغانية، وقالت إن الملا محمد عمر اضطر لإتخاذ هذا القرار تجنباً لسقوط المزيد من الضحايا المدنيين تحت القصف الأمريكي العنيف الذى تتعرض له قندهار بشكل متواصل، وبعد مناقشات طويلة مع قادته العسكريين، ومعاونيه المقربين والزعماء القبليين فى المدينة الذين نصحوا بسحب القوات من قندهار والتوجه بها إلى الجبال.. لتجنيب المواطنين الخسائر الكبيرة فى الأورواح

والممتلكات.. وقالت الوكالة إن عملية الانسحاب ستنتهى خلال ٢٤ ساعة فقط..!

وبالفعل قام مقاتلو طالبان بإخلاء أجزاء كبيرة من قندهار، وبدأوا فى مغادرة المدينة من جهة الشمال..

لكن عملية الإنسحاب لم تتم..!

السبب أن الملا محمد عمر رأى فى المنام مساء ذلك اليوم.. الجمعة ١٦ نوفمبر ٢٠٠١.. رؤيا جعلته يعدل عن قراره.. فاستيقظ وقصها على المقربين منه.. قال: «رأيت فى المنام أن الرسول صلى الله عليه وسلم يبلغنى بأننى سأظل أتولي المسئولية طالما بقيت على قيد الحياة» (٩٨).. فتوقفت على الفور عملية إنسحاب قوات طالبان من قندهار.،

صباح السبت ١٧ نوفمبر.. قال مدير مكتب الملا محمد عمر لقناة تليفزيون «الجزيرة» إن مجلس قيادة طالبان قرر الدفاع عن قندهار حتي الموت..! كما انطلقت عدة تصريحات تحمل نفس المعنى من قادة آخرين فى طالبان:

الملا نجيب الله شيروزاى قال ان قوات طالبان تسيطر على قندهار بالكامل، وان التقارير التى تحدثت عن إنسحابها من المدينة لا أساس لها من الصحة.

محمد طيب أغا المتحدث بإسم طالبان قال إن الحركة لاتعتزم تسليم قندهار، وقواتها مستعدة للتصدى لأى هجوم أجنبى على المدينة وستواصل دفاعها عن النظام الإسلامي في افغانستان..

محمد حسن رحمانى محافظ قندهار قال إن الأوضاع الأمنية هادئة فى المدينة، ولاتوجد بها أية مشاكل أو انشقاقات وأكد أن قوات طالبان موجودة داخل الخنادق ومستعدة للقتال حتى الموت..

وفي محاولة لتفسير ما أعلن فى اليوم السابق عن قرار الملا محمد عمر بتسليم قندهار لأثنين من قادة المجاهدين.. قال الملا مولانى لقناة تليفزيون «سى. إن. إن» الأمريكية إن كل ماحدث هو أن زعيم طالبان قام بإجراء تعديل فى الإدارة المسئولة عن المدينة حيث أسند مسئولية الأمن لأحد كبار مساعديه هو الحاج بشار .. كما نصب الملا نقيب الله كحاكم لقندهار.. وأن الهدف من هذه التعديلات هو إشراك بعض القادة المعتدلين في السلطة.. لكن «سى. إن. إن» علقت على هذا التصريح بأن الرجلين اللذين نصبهما الملا محمد عمر ليسا من المعتدلين على الإطلاق!

– يوم ١٨ نوفمبر.. واصلت القاذفات الأمريكية غاراتها المعتادة على قندهار، وصرح حامد قرضاى لوسائل الإعلام بأن الجو متوتر لكنه سيواصل إتصالاته لتسليم المدينة سلمياً بدلاً من إراقة الدماء..

– يوم ١٩ نوفمبر.. ارتفع لأول مرة عدد الغارات الجوية على قندهار من حوالى ١٠٠ غارة يومياً الى ١٣٨ غارة..! وصرح أحمد قرضاى شقيق حامد قرضاى الذى كان ينوب عنه في الاتصال بطالبان – بأن المفاوضات مع الحركة حول تسليم المدينة

قد إنهارت تماماً بسبب رؤيا الملا محمد عمر فى المنام..!

- يوم ٢٠ نوفمبر.. ارتفع عدد الغارات الجوية على قندهار الى ١٧٣ غارة فى اليوم.. وقالت المتحدثة بإسم وزارة الدفاع الأمريكية أن تكثيف الغارات يأتي فى إطار محاولات الضغط على طالبان للإستسلام .. بينما اكد نائب وزير خارجية طالبان الملا نجيب الله شيروزاى أن الحركة لن تستسلم وستواصل الجهاد، ونفى وجود أية مفاوضات لتسليم قندهار.. واصفاً الحديث عن ذلك بأنه «أكاذيب إناس موجودين فى كويتا..»!

- يوم ٢١ نوفمبر.. أصدرت طالبان بياناً تم توزيعه على الصحفيين عن طريق سفارتها فى إسلام آباد.. قال البيان:

إن الوضع أحسن مما يصفه الأمريكان والبريطانيون بكثير، فمقاتلو طالبان يتحركون بحرية حتى في المناطق التي يسيطر عليها التحالف الشمالى، غير أنهم لايدخلون المدن، أما ضواحى المدن والقرى المحيطة بها فإنهم يتحركون فيها بحرية، ولايمكن للتحالف الشمالى ولا للقوات الصليبية إلا أن يحموا المدن فقط، أما سواها من المناطق فهم أضعف من ذلك، واذا أرادوا ذلك فإنهم بحاجة إلى أكثر من ٣٠٠ ألف جندي ليتمكنوا من إحكام سيطرتهم على المناطق التى تحت أيديهم، وهذا مايستحيل عليهم فعله، فغاية ماعند التحالف الشمالى من القوات، وأكثرهم مرتزقة - لايتجاوزون ١٠ آلاف مقاتل، فكيف يزعم الصليبيون بأنهم يحكمون الحصار على دولة كاملة أو ٨٠٪ منها بـ ١٠ آلاف مقاتل ؟!!، ولو قلنا إن قوات التحالف الشمالى تبلغ ٣٠ ألفاً كما يزعمون، والولايات التى يزعم التحالف الشمالى أنه يسيطر عليها هى ٣٠ ولاية من أصل ٣٢ ولاية، وكل ولاية تضم ٣ مدن علي الأقل بالإضافة الى القرى المتناثرة فى كل ولاية، فمعنى ذلك أن قوات التحالف - رغم كذبهم بأنها تبلغ ٣٠ ألفاً لايمكن أن تضع فى كل مدينة اكثر من ٤٠٠ مقاتل.. فكيف بهم إذا أرسلوا اكثر من ألفين الى كابول، كم يبقى للمدن الأخرى؟ وأيضاً كم يبقى لحماية الطرق الرئيسية والفرعية وقوافل الإمداد والحدود وغيرها؟ هذا إذا صدقنا أن عددهم ٣٠ ألفا، أما وعددهم ١٠ آلاف فإن سيطرتهم على المدن الأخرى غير كابول ماهي إلا إنتفاخة فارغة توشك أن تنفجر بقذائف المجاهدين..! إن بعد الضربة الموجعة التي سددها المجاهدون فى مزار الشريف لقافلة فيها ٤٠ جندياً أمريكياً تفحمت أجسادهم، فهم الأمريكيون الرسالة وبدأوا يصرحون بأن المهمة لازالت شاقة ومحفوفة بالمخاطر والحرب طويلة فى أفغانستان، وكان البريطانيون اكثر منهم فهما للرسالة، فقد تنازع مجلس العموم البريطانى مع رئيس الوزراء لمحاولة إيقاف رئيس الوزراء عن إرسال ألف جندى بريطاني لأفغانستان مع المائة جندى الذين نزلوا فى قاعدة باجرام للإستطلاع، وكذلك صرح مسئول فى وزارة الدفاع البريطانية أن الوضع يكتنفه الغموض ولن نرسل قواتنا حتى تتضح لنا الرؤية

ويتم جمع المعلومات الكافية الممهدة لنزول القوات البريطانية، ويبدو بأن سقوط هذا العدد من الأمريكيين دفعة واحدة جعل الصليبيين يعيدون حساباتهم فى جدوى نشر القوات البرية علي الأرض، والأيام القادمة ستوضح للصليبيين بإذن الله ان النزول فى أفغانستان ليس نزهة صيفية».

– يوم ٢٢ نوفمبر.. دارت معارك عنيفة بين قوات طالبان، وقوات عبد رب الرسول سياف فى منطقة جبلية تقع على مسافة ٢٠ كيلو متراً جنوب غرب كابول كانت قوات طالبان قد فرت إليها بعد إنسحابها من كابول فجر ١٣ نوفمبر، وعبد رب الرسول سياف هو قائد بشتونى، لكنه كان معارضاً لطالبان، ويقاتل إلى جانب التحالف الشمالى.. وقد استطاعت قوات طالبان الدفاع عن مواقعها فى المنطقة التي كانت تعتبر بمثابة أحد خطوطها الدفاعية..

في نفس اليوم صرح حامد قرضاى لوكالة الآنباء الفرنسية بأن قادة طالبان يبعثون إليه برسائل ويريدون أن تؤدى المفاوضات الى حل..

– يوم ٢٣ نوفمبر.. كذبت طالبان تصريح قرضاى، وقال مسئول بالحركة إن قوات طالبان ستدافع عن قندهار حتى الموت ولن تدخل قط فى أية مفاوضات بشأن تسليمها..

فى نفس اليوم أيضا أرسلت حركة طالبان إشارات متناقضة حول مكان وجود الملا محمد عمر.. فبينما اكد مسئول بالحركة أن الملا محمد عمر تخلى عن قيادة طالبان وغادر قندهار إلى مكان سرى لأسباب تتعلق بأمنه الشخصى.. قال محمد طيب أغا المتحدث بإسم طالبان إن الملا محمد عمر لم يغادر قندهار ومايزال على إتصال بمقاتليه..!

إلا أن أهم ماحدث فى هذا اليوم هو إختيار الملا أختر محمد عثمانى خليفة للملا محمد عمر فى زعامة طالبان بعد وفاته.. وهو إجراء إتخذه الملا محمد عمر بنفسه كى يضمن إستمرار الحركة من بعده إذا ماتعرض للقتل.. ووقع إختياره على أختر بعد أن تشاور مع مجلس وزراء طالبان الذى أيده فى ذلك..

والملا أختر كان قائداً لقوات طالبان فى الولايات الشمالية الخمس.. وعلاقته بالملا محمد عمر تعود لسنوات الدراسة والجهاد ضد السوفييت، ثم أصبح أهم مستشاريه بعد وفاة الملا محمد ربانى رئيس وزراء طالبان الذى توفى فى بيشاور قبل الحرب إثر إصابته بمرض السرطان.

– يوم ٢٤ نوفمبر .. نفذت القاذفات الأمريكية ٧٠ غارة جوية على الأنفاق والكهوف حول مدينة قندهار، استخدمت فيها القنبلة الارتجاجية زنة سبعة أطنان بهدف إحداث تأثير نفسى مدمر فى مقاتلى طالبان..

– يوم ٢٥ نوفمبر.. شوهد الملا محمد عمر يركب سيارة «بيك - آب» ،وحوله حراسة مشددة بمنطقة «البازار» وسط قندهار [٩٩].

- يوم ٢٦ نوفمبر.. دارت معارك طاحنة بين مقاتلى طالبان وعناصر معادية لها من قبائل البشتون فى مدينة «سبين بولداك» التى تمثل أهمية كبيرة لكونها تقع بالقرب من الحدود مع باكستان فى الطريق إلى قندهار .. كما تضاربت الأنباء حول سقوط مطار صغير يبعد ٩٠ كيلو متراً جنوب غرب قندهار، كان اسامة بن لادن قد بناه لإستخدامه فى إقلاع وهبوط طائرته الخاصة.. حيث ذكرت بعض وكالات الأنباء أن شهود عيان أكدوا أن القوات الأمريكية قد استولت على المطار.. بينما أكد المتحدث باسم طالبان أن المطار لازال تحت سيطرة الحركة..

وسبب التضارب أن هذا اليوم تمت فيه عملية إنزال لقوات من مشاه البحرية الأمريكية.

- بعض المصادر ذكرت أن عددها ١٢٠٠ جندى ومصادر أخرى ذكرت أن عددها ١٦٠٠ جندى.. كانت مجهزة بمعدات وأسلحة ثقيلة، قامت بنقلها طائرات هليكوبتر عملاقة من طراز «شينوك».. وأثناء محاولة هذه القوات الإستيلاء على المطار تصدت لها قوات طالبان وقتلت منها ١٦ جندياً.

ورغم أنه مطار صغير.. وبدائى جداً.. حتى أن البعض كان يستخدم فى وصفه تعبير «مهبط الطائرات».. إلا أن الإعلام الأمريكى وصفه بـ «قاعدة جوية»..!.. واعتبر عملية الاستيلاء عليه بداية مرحلة جديدة من الحرب فى أفغانستان أطلق عليها اسم شفرى جديد هو: «الحرية العاجلة»..!

- يوم ٢٧ نوفمبر.. جرت مفاوضات مع قادة طالبان فى مدينة «سبين بولداك» لتسليم المدينة .. كما بدأت القوات الأمريكية - التى تم إنزالها فى اليوم السابق - تركيز ضغطها العسكرى على قوات طالبان فى قندهار ومحاولة عزل المدينة..

- يوم ٢٨ نوفمبر.. قصفت المقاتلات الأمريكية مجمعاً للمنشآت فى مدينة قندهار بعد تلقى القيادة الأمريكية معلومات عن وجود الملا محمد عمر به.. لكن الملا محمد عمر كان فى موقع آخر، وقام بتوجيه رسالة عبر اللاسلكى إلى مقاتليه المحاصرين فى قندهار، طالبهم فيها بعدم التسليم أو التفريط فى أى جزء من الأراضى التى تحت سيطرتهم، مؤكداً أن القضية بالنسبة لطالبان لاتتعلق بمسألة توزيع السلطة بين القبائل، ولكنها تتعلق بالدفاع عن الإسلام، لذا عليهم أن يقاتلوا ويصمدوا.

- يوم ٢٩ نوفمبر.. شنت الطائرات الأمريكية غارات على قندهار كانت الأعنف منذ بدء الحرب على أفغانستان.. وقصفت بسيل من القنابل الموجهة مراكز قيادة طالبان فى المدينة على أمل أن يكون بداخلها الملا محمد عمر او اسامة بن لادن .. وتسبب القصف فى قطع الإتصالات بين قادة طالبان وقواتهم.. فأصبح القادة محاصرين وغير قادرين على إجراء أية اتصالات ميدانية..

وفى نفس الوقت تمكنت القوات الأمريكية من السيطرة على مطار مزار الشريف فى الشمال وبدأت فى إقامة اربع قواعد عسكرية لها فى الجنوب لكى تنطلق منها فى

عملية البحث عن أسامة بن لادن والملا محمد عمر..

في هذا اليوم أيضا أعلن عن إنشقاق عدد من قادة طالبان عن الحركة .. وقامت طالبان بتنفيذ حكم الإعدام شنقا على الملأ وسط الجماهير بقندهار في شخص اتهمته بالتجسس لحساب أمريكا..

- يوم ٣٠ نوفمبر.. واصلت القاذفات الأمريكية قصف قندهار.. وحشد «جول اغا» حاكم قندهار السابق جيشاً يضم نحو ثلاثة آلاف مقاتل من البشتون الذين بدأوا التمرد على طالبان.. وبدأ هذا الجيش الإستعداد لمهاجمة المدينة.. بينما طلب قادة البشتون من التحالف الشمالي الابتعاد عن جنوب أفغانستان وقالوا لهم: «إن بشتون أفغانستان المناوئين لطالبان يحاصرون مواقعها في قندهار وقادرون على إقتحام المدينة في الوقت المناسب ولاحاجة لقوات التحالف الشمالي»[١٠٠].

- يوم ١ ديسمبر.. استمر القصف الأمريكي العنيف لقندهار، وتركز على المطار، والطريق المؤدي إلى «سبين بولداك» وأسفر عن مقتل العشرات.. وبينما أكد الملا عبدالسلام ضعيف إسقاط طالبان لإحدى المقاتلات الأمريكية، ومصرع خمسة من جنود المارينز في هجوم إنتحاري بالقرب من قندهار على أيدي قوات طالبان.. سارع البنتاجون بنفي ذلك..!

- يوم ٢ ديسمبر.. استمر القصف الامريكي وإقتربت القوات التابعة لجول أغا إلى مسافة ٢٥ كيلو متراً جنوبي قندهار، وعندما حاولت الهجوم على مطار المدينة تصدى لها الأفغان العرب وأجبروها على التراجع.. بينما كانت مجموعة من القوات التابعة لحامد قرضاي تقف على مسافة ٥٥ كيلو متراً شمال المدينة.

- يوم ٣ ديسمبر.. كثفت القوات الأمريكية من قصفها لقندهار، واستؤنفت المعارك حول المطار بين قوات جول أغا من ناحية وقوات طالبان مدعومة بالأفغان العرب من ناحية أخرى.

- يوم ٤ ديسمبر.. طلب الأمريكيون من قوات جول أغا الانسحاب بعيدا عن المطار مسافة كيلو مترين حتى يتمكنوا من قصف قوات طالبان القريبة من المطار، ثم بدأوا عملية قصف مكثف للمطار والمدينة بمعدل غارة كل خمس دقائق.. وقد واجه مقاتلو طالبان هذه الغارات بإطلاق صواريخ مضادة للطائرات من قاذفات متحركة، لكنهم لم يتمكنوا من إسقاط أي من الطائرات الأمريكية المغيرة، لأنها كانت تقصف من ارتفاعات عالية.. وقد أدى القصف المكثف لقندهار الى سقوط عشرات القتلى وفرار الآلاف من سكانها..

- يوم ٥ ديسمبر.. أعلن البنتاجون أنه لايخطط لدخول القوات الأمريكية قندهار وسيواصل القصف الجوي للمدينة.

- يوم ٦ ديسمبر.. في تطور مفاجئ، وبعد يوم واحد من تنصيب حامد قرضاي رئيسا للحكومة الانتقالية في أفغانستان.. أعلنت طالبان موافقتها على تسليم قندهار

دون قتال مقابل ضمان أمن وسلامة جميع قواتها وقادتهم بما فى ذلك زعيم الحركة الملا محمد عمر.. وقال الملا عبدالسلام ضعيف إن الاتفاق على تسليم قندهار تم بعد مفاوضات جرت بين الحركة وحامد قرضاى وعدد من علماء الدين وزعماء القبائل.. وأن الملا محمد عمر قرر تسليم قندهار والمناطق الأخرى لتجنيب الشعب الأفغانى مزيدا من القتلى والدمار والتشريد.. وأنه سيتم تسليم أسلحة طالبان بالكامل بدءا من يوم الجمعة ٧ ديسمبر الى الملا نقيب الله القائد السابق للمجاهدين أثناء الحرب ضد السوفييت.. وشدد عبدالسلام ضعيف على أن الاتفاق نص على ضمان السلامة الشخصية للملا محمد عمر، وتأمين كرامته باعتباره مجاهداً عمل من أجل الشعب الأفغانى ويجب صون كرامته..



لكن قرضاى قال ان العفو عن الملا محمد عمر مشروط بأن يعلن نبذه للإرهاب .. وأوضح أن الاتفاق ينص على العفو الشامل عن مقاتلى طالبان من الأفغان العاديين.. أما الأفغان العرب فلا يشملهم العفو..!

فور الإعلان عن الإتفاق أعلن دونالد رامسفيلد أن الولايات المتحدة ترفض أى إتفاق لإستسلام طالبان لايلبى الشروط الأمريكية.. وقال إن السماح للملا محمد عمر بالعيش فى كرامة داخل قندهار غير مقبول لدى واشنطن..!!



مجموعة من سكان قندهار فى أحد المواقع التى تم تدميرها

- يوم ٧ ديسمبر.. دخلت قندهار لجنة تضم عددا من رجال الدين والزعامات البشتونية البارزة، وأشرفت على عملية تسليم أسلحة طالبان وعتادها العسكرى الى الملا نقيب الله حسب تعليمات الملا محمد عمر الى مقاتليه .. فى هذه الاثناء ظهر خلاف بين نقيب الله ،وجول أغا الذى هدد بالاستيلاء على قندهار بقوة السلاح من أجل استعادة منصبه كحاكم للمدينة والذى كان قد أجبر على تركه عام ١٩٩٤ عقب ظهور حركة طالبان.. لكن حامد قرضاى سارع بالتوسط بين الرجلين وتسوية الخلاف بينهما..

فى نفس اليوم أيضا انسحبت قوات طالبان من مدينة «سبين بولداك» وسلمتها الى زعماء ثلاث قبائل بشتونية..

اما الملا محمد عمر فقد اختفى ،ولم يستطع الأمريكيون العثور على أى أثر له.. أو المساس بكرامته..!

اختفى بعد أن ضمن العفو الشامل عن جميع مقاتليه والسلامة الشخصية لكل فرد منهم..

وسوف يظل التاريخ يذكر لهذا الرجل أنه كان يحافظ على حياة مقاتليه، فيأمرهم بالانسحاب والتقهقر كلما شعر أن نتيجة المعركة لن تكون لصالحهم.. وهو مالا يفعله الكثير من قادة العالم الذين يفضلون أن يكتبوا مجدهم الشخصى بدماء شعوبهم ..!!

* * *

الفصل الحادى والثلاثون

• معركة تورا بورا..

« عندنا كهوف لايعرف حتى الشيطان
نفسه كيفية الإهتداء إليها، إنها
أفضل أسلحتنا الثقيلة ..! »

زيد الله قمى

مجاهد أفغانى

☐ *عشرات الآلاف من أطنان القنابل، والصواريخ ألقيت على افغانستان..*
آلاف الضحايا لقوا مصرعهم.!
مئات الآلاف خرجوا من منازلهم وشردوا.!
وقعت مذابح وجرائم قتل لامثيل لها..!

كل هذا.. ومازال الشخص المطلوب القبض عليه.. أسامة بن لادن.. لم تصل إليه الولايات المتحدة الأمريكية.. ولاتعرف مكانه..!!

- رصدت ٥ ملايين دولار مكافأة لمن يرشدها إليه.. فلم يتقدم أحد..
- رفعت المبلغ إلى ٢٥ مليون دولار.. أيضا لم يتقدم أحد..!
- أرسلت إلى افغانستان مجموعات من رجال مخابراتها.. لم يصلوا إلى شيء!.
- استعانت بطراز جديد ومتطور من طائرات التجسس في عمليات البحث عنه.. وهي طائرات «جلوبال هوك» القادرة على الطيران لفترات طويلة.. على الرغم من أن اختبارات السلامة على هذا الطراز من الطائرات لم تكن قد اكتملت بعد كما قال وزير الدفاع الامريكي دونالد رامسفيلد.. إلا أنها ايضا لم تصل إلى شيء..!
- قصفت السيارات على الطرق.. لعل بن لادن يكون داخل احداها.. فقتلت النساء والأطفال والأسر التي كانت تستقل هذه السيارات هربا من مناطق القصف إلى مناطق اخرى تظن أنها آمنة.. بينما لم يصب بن لادن بسوء..!
- أقامت نقاط تفتيش ومراقبة عديدة على الحدود بين أفغانستان، والدول المجاورة تحسبا لقيام بن لادن بالهرب بطريقة خفية.. بواسطة هليكوبتر يمكنها التحليق على ارتفاع منخفض أو بواسطة الخيول مثلا.. لكنها لم تضبط شيئا.
- جندت قوات خاصة مهمتها البحث عن بن لادن في الكهوف.. وزودتها بمعدات متطورة للغاية يمكنها تحديد أي تحرك وسط الظلام، أو الأحوال الجوية الرديئة، أو المساحات الممغنطة والارتجاجات، حتى تلك التي تحدث وراء الصخور الصلبة.. ومعدات اخرى لتتبع الحرارة والبرد الجبلي والإشارات المغناطيسية المنبعثة من الاسلاك الكهربائية.. كل ذلك لم يأت بأية نتيجة..!

- نصبت أجهزة رادار على أعلى مستوى من التقنية، يمكنها رصد أى حركة داخل الكهوف والمغارات والأنفاق المبنية تحت الأرض.. لكنها لم تكتشف شيئا..!


بهذه التجهيزات كان الجنود الأمريكيون يبحثون عن بن لادن

- قامت بتفتيش السفن قبالة السواحل الباكستانية فى المحيط الهندى وفى بحر العرب على امل ان يكون بن لادن قد وصل إلى احداها واستقلها.. لم تعثر على أثر له..!

كل هذه الجهود، واجهزة المراقبة التى نصبها الامريكيون فى البر والبحر و الجو.. لم تأت لهم بأية اشارة ، أو معلومة تساعدهم فى التوصل إلى مكان أسامة بن لادن..!!

إذن إين ذهب هذا الرجل الذى تسبب فى اشعال حرب قسمت العالم إلى فسطاطين كما كان يقول..؟!

- عندما كنت فى كابول طرحت هذا السؤال على الملا قدرة الله جمال وزير الثقافة والاعلام فى حكومة طالبان.. فقال لى: انه يوجد فى مكان آمن يصلى ويصوم.. وهو الآن بخير.

- طرحت السؤال ايضا على الملا عبدالسلام ضعيف سفير طالبان فى اسلام آباد.. فقال: لقد فقدنا الاتصال بالشيخ أسامة بن لادن ولانعرف مكانه.. وهو لايوجد فى المناطق التى تحت سيطرتنا.

- كذلك كانت اجابات الملا نجيب الله، والملا عبدالحنان.. وكثير من قادة طالبان الذين التقيت بهم سواء فى افغانستان أو باكستان..!

* * *

هذا الغموض الشديد حول المكان الذى يوجد فيه بن لادن.. دفع الكثيرين إلى اطلاق التكهنات والتوقعات.. كلها طبعا كانت تقوم على الظن والتخمين.. مثل ما قالته صحيفة باكستانية اسمها «فرونتير بوست» تصدر فى بيشاور من ان أسامة بن لادن قد غادر افغانستان إلى احدى جمهوريات آسيا الوسطى قبل ان تسقط كابول بعدة ايام.. وذلك بمساعدة احد قيادات قوات التحالف الشمالى، وانه نفذ خطة خداعية ضلل بها الولايات المتحدة الامريكية وجعلها تعتقد انه يوجد فى مكان ما حول قندهار، فى الوقت الذى كان فيه قد غادر افغانستان كلها.

- لكن الجنرال اسماعيل خان «حاكم مقاطعة هيرات» استبعد ذلك، واعرب عن

اعتقاده بأن يكون بن لادن مختبىء فى منطقة وعرة تبعد ٤٠ كيلو مترا شرق مدينة جلال آباد تسمى «تورا بورا» حيث بها تحصينات شيدت فى الثمانينيات اثناء الجهاد ضد السوفييت تشمل انفاقا وكهوفا متداخلة وعميقة.

– مسئول افغانى آخر معارض لطالبان اسمه «هزارات على» – عين بعد سقوط كابول مسئولا عن القانون وحفظ النظام فى ثلاث ولايات شرق افغانستان –.. قال ان اناسا اخبروه بأنهم شاهدوا أسامة بن لادن فى منطقة «تورا بورا» يتنقل ليلا على صهوة حصان، وينام فى كهف لايمكن الوصول اليه الا على ظهر الجياد.. ووصف «هزارات» هذه المنطقة بأنها وعرة ويوجد بها معسكر يضم شبكة كهوف وتحصينات ومستودعات ذخيرة.

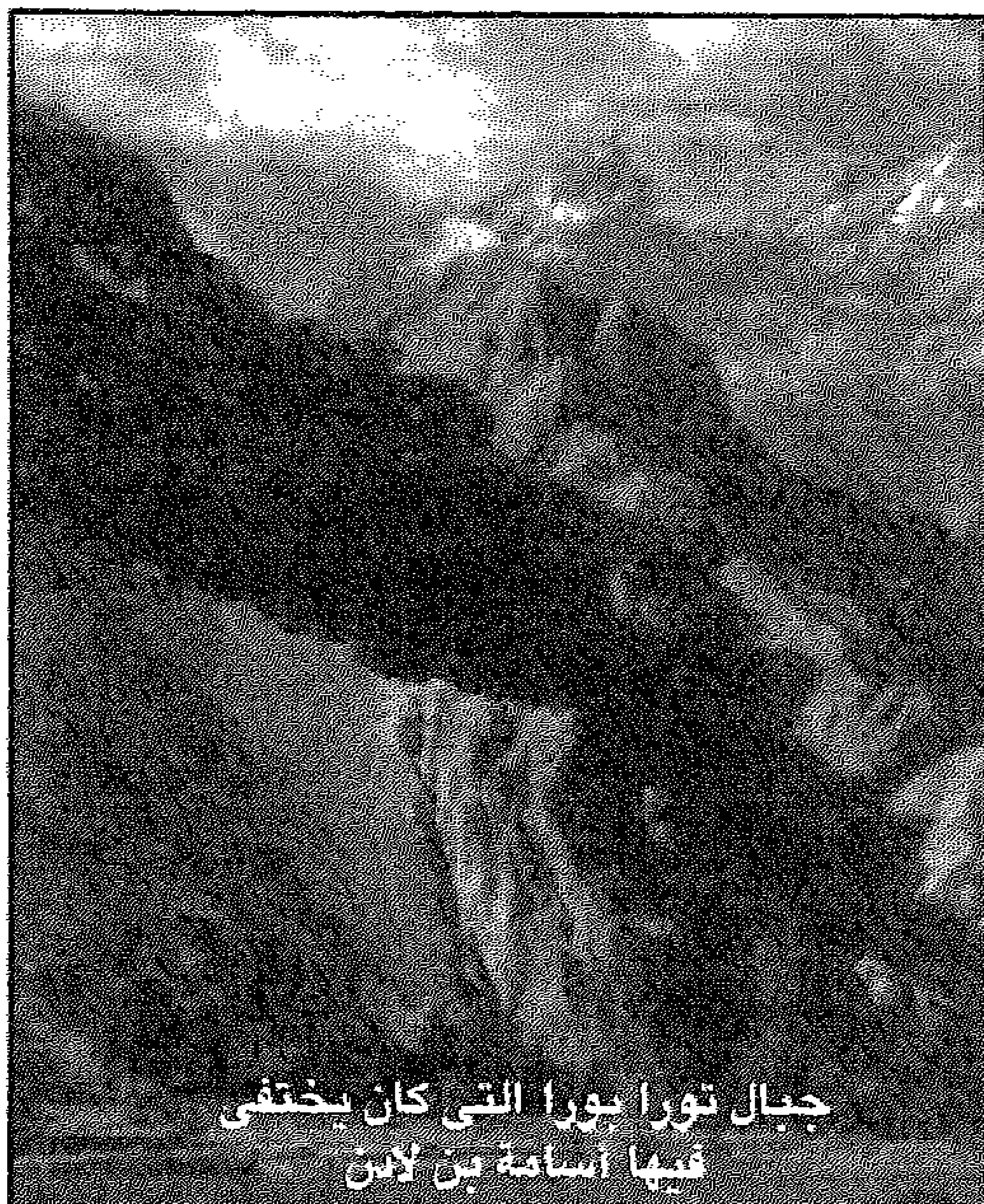
لكن الامريكيين لم يأخذوا بهذه الاقوال، ووضعوا خطتهم على اساس معلومات حصلت عليها وكالة المخابرات المركزية الامريكية من قادة عسكريين انشقوا عن حركة طالبان.. هذه المعلومات التى وصفت بأنها «مهمة ودقيقة» كانت تقول ان أسامة بن لادن يختبىء مع مجموعة من المقربين له فى المرتفعات الجبلية القريبة من قندهار، والتى شيد بها مخابىء سرية مجهزة ومزودة بكل ما يلزم للاختباء والاقامة عدة اشهر.. وانه ابلغ عددا من المقربين منه والمخلصين له بأنه يدرك انه يعيش اسابيعه أو ايامه الاخيرة، وان «الطوق» يلتف حوله.. وانه يرفض ان يقتله الامريكيون أو يقع فى اسرهم لان هذا يشكل «هزيمة» كبيرة له.. لذلك فقد اعطى تعليمات محددة إلى المقربين الذين سيبقون معه حتى اللحظة الاخيرة باطلاق النار عليه اذا ما حاصره الامريكيون وارادوا اسره، واذا ما تبين انه لم يعد هناك مجال للفرار، وطلب من هؤلاء المقربين ان يقسموا امامه بأنهم سينفذون هذه التعليمات فلبوا طلبه.. بل ان أسامة بن لادن طلب من احد ابنائه ان يتعهد هو شخصيا بقتله ودفنه لكى يموت بيد احد ابنائه وليس بيد احد الامريكيين..!

كما سجل أسامة بن لادن على شريط فيديو وصيته السياسية التى يفترض ان تذاع بعد مقتله، وهو يدعو فيها إلى مواصلة ضرب امريكا والمصالح الامريكية فى كل مكان.

هذه المعلومات جعلت الولايات المتحدة الامريكية تتجه بأنظارها صوب المنطقة المحيطة بقندهار، وهى تضم اقاليم أوروزجان، وزابول، وهيلماند.. فبدأت فى اقامة قاعدة عسكرية لها فى مطار صغير يقع على مسافة ٩٠ كيلو مترا جنوب غرب قندهار، كان أسامة بن لادن قد بناه لاستخدامه فى اقلاع وهبوط طائرته الخاصة، كما بدأت فى انزال نحو ١٦٠٠ جندى من مشاه البحرية الامريكية بمعداتهم فى هذه القاعدة.. لتبدأ مرحلة جديدة من حربها فى افغانستان.. اختارت لها اسماً شفرياً جديداً هو «عملية الحرية العاجلة».. بينما الحقيقة ان الولايات المتحدة الامريكية كانت فى هذه المرحلة تبحث عن ماء وجهها بين الكهوف وعلى اسطح الجبال.. كانت

تريد الامساك بابن لادن بأى ثمن لكى تعلن انتصارها فى الحرب، بعد ان خذلها قادة التحالف الشمالى ورفضوا استقبال مبعوثها إلى كابول، كما لم يسمحوا لها بانزال اية قوات فى المناطق التى تحت سيطرتهم.

كانت امريكا تريد الخروج من افغانستان وفى يدها رأس أسامة بن لادن.. لكى تقول انها انتصرت فى الحرب.. لكنها فقدت ارواح الكثير من جنودها هناك.. ولم تصل إلى بن لادن.. ولم تنتصر فى الحرب..!!


جبال تورا بورا التى كان يختفى فيها أسامة بن لادن

* * *

المنطقة المحيطة بقندهار واحدة من ثلاث مناطق فى افغانستان تضم شبكات واسعة من الكهوف والممرات والمغارات.. المنطقة الثانية هى «تورا بورا».. والثالثة تقع بالقرب من مدينة «خوست» فى اقليم «باكتيا» قرب الحدود الباكستانية.

المناطق الثلاثة تغطيها من اعلى تضاريس جبلية وعرة كأنها صنعت لتناسب حروب العصابات.. اما من اسفل فكل منطقة منها عبارة عن «عش نمل» من آلاف الكهوف وعدد لايحصى من الانفاق التى تمتد عشرات الكيلو مترات، والمغارات العميقة، والمخابىء المحصنة.. والتى يقول عنها «جون شرودر» عالم الجيولوجيا فى جامعة نبراسكا الامريكية الذى اعد اطلس افغانستان عام ١٩٧٠: «هذه الانفاق متعددة المستويات وتشبه رجل الكلب، ولها فتحات للتهوية وابواب خلفية للهروب».. هناك ايضا قنوات «كارزاى» للرى التى حضرت قبل وصول الاسكندر الاكبر إلى افغانستان - اى قبل ٢٣٠٠ عام - وتمتد فى بعض المواقع إلى اكثر من ١٠٠ قدم تحت سطح الارض، وكانت تستخدم فى ضخ الماء من العيون المائية.. ثم بدأ الافغان يستخدمونها للاختباء من اعدائهم ومباغتتهم فى هجمات من الخلف بعد توغل العدو فى المنطقة كما حدث عندما اجتاحت قوات المغول بقيادة جنكيز خان البلاد عام ١٢٢١ ميلادية.. وكما حدث ايضا اثناء فترة الغزو السوفييتى فى الثمانينات.

وقد وضع أسامة بن لادن واتباعه ايديهم على هذه القنوات فقاموا بتوسيعها واضافوا اليها ممرات خاصة ومخابىء لتخزين الاسلحة والذخائر والمؤن، واغلقوا مداخلها بأبواب حديدية.. فأصبحت تشكل مع آلاف الكهوف والمغارات الموجودة

تحت الجبال شبكة «معقدة بصورة مزعجة» على حد تعبير دونالد رامسفيلد، لانه «يسهل الاختباء داخلها رغم كل القصف الذى يمكن ان تتعرض له..».. هذا ايضا ما قاله زيد الله قمى احد المجاهدين الافغان ابان الغزو السوفيتى: «عندنا كهوف لايعرف حتى الشيطان نفسه كيفية الاهتداء اليها، انها افضل اسلحتنا الثقيلة»(؟!!)!

ويروى «قمى» تجربته عندما إختبأ هو و ١٠ من المقاتلين فى أحد المخابىء لمدة يومين، بينما كان الجنود السوفييت فوق رؤوسهم يبحثون عنهم دون جدوى.. يقول: «حتى لو ألقوا فوقنا القنابل، فإننا ما كنا لنشعر بذلك لأننا كنا فى سبات عميق، بل إننا لم نكن خائفين من إلقاء قنبلة ذرية فوقنا..!»

وإلى جانب ما توفره هذه المخابىء والكهوف للمقاتلين الأفغان من فرصة للاختباء وتخزين ما يحتاجون إليه من سلاح وطعام.. فإنها أيضا كما يقول أحد الضباط السابقين فى الجيش الأفغانى الشيوعى تمكنهم من تدشين عمليات حرب العصابات التى يجيدونها ثم يختفون وكأن الأرض إنشقت وابتلعتهم «عندما تصل إليهم لا تجد أحدا وعندما تغادر المكان فإنهم يخرجون ويهاجمونك من الخلف»!

ويعتبر مخبأ «زهوار» الواقع فى إقليم باكتيا بالقرب من مدينة خوست من اكثر المخابىء تعقيدا فى أفغانستان.. وشكل دائما مشاكل كبيرة أمام القوات الغازية سواء كانت السوفيتية أو الأمريكية.. ففى عام ١٩٨٦ صمد المخبأ ٥٧ يوما من القصف المتواصل قبل أن يتركه المجاهدون الأفغان، ويرحلوا إلي مكان آخر.. وعندما دخله السوفييت إندهشوا مما عثروا عليه بداخله.. إذ كان المجاهدون قد بنوا مسجدا تحت الأرض بواجهة منمقة من الطوب، ومستشفى به جهاز تصوير أشعة، ومكتبة غطت أرففها بالكتب العربية والفارسية والإنجليزية، وفندقا مؤثثا بأثاث مريح وسجاد فاخر وأمام الفندق ساحة واسعة تقف فى وسطها دبابة من طراز «تى - ٣٤».. كما تضمن المخبأ أيضا ٤١ كهفا واسعا وممرات بطول ٦ ملاعب كرة قدم..!

هذا الوصف لمخبأ «زهوار» كتبه صحفى سوفيتى اسمه «فيكتور كوشينسكو» رافق الجنود السوفييت اثناء عملية إقتحام المخبأ، وأعادت نشره جريدة «أهم الأخبار» الباكتسانية يوم ٨ نوفمبر ٢٠٠١ بالصفحة الثالثة.. وقالت على لسان الصحفى: «رغم كل عمليات القصف المتواصلة لهذا المخبأ ظل الفندق والكهوف سليمة لم يلحقها أى ضرر»..!!

وقد ذكرت نفس الجريدة فى عدد ٢٨ نوفمبر ٢٠٠١ أن الذى أشرف على بناء مخبأ «زهوار» فى منتصف الثمانينيات هو جلال الدين حقانى الذى أصبح فيما بعد وزيرا فى حكومة طالبان، وكان الهدف من بنائه أن يكون مستودعا للمساعدات الأمريكية التي كانت تنهمر على المجاهدين الأفغان فى ذلك الوقت عبر الحدود الباكستانية التي تبعد عن هذا الموقع مسافة ثلاثة كيلومترات فقط..


الحصن الجبلى الذى يأوى ابن لادن
يتضمن المجمع مكاتب وغرف نوم وغرف معيشة
مجمع من الكهوف على عمق ١١٥٠ قدما في جبل ارتفاعه ١٣ ألف قدم فى تورا بورا ويتسع المجمع لألف شخص
أسلاك للكهرباء والتهوية
مخارج سرية مغلقة ببوابات فلوذية ملغمة تنفجر عند محاولة اقتحامها
توليد طاقة هيدروكهربائية من الجداول المائية
تحفر الكهوف فى عمق الجبل لتجنب امكانية رصدها بواسطة أجهزة الرصد الحرارى
الوديان التى تؤدى إلى الكهوف تخضع لحراسة مشددة
أنابيب أنظمة التهوية تجلب الهواء إلى الكهوف وتوفر مسالك بديلة للخروج
المدخل الرئيسى من نفق عرضه ٥٠ قدما يكفى لمرور سيارة
مستودعات تحت الأرض تضم ذخائر وأسلحة بما فى ذلك الصواريخ
المخارج مخفية خلف صخور وجدران من الوحل
ذكرت تقارير أن ابن لادن كان يتجول فى المنطقة على صهوة جواد
تورا بورا

ثم قام أسامة بن لادن بعد عودته من السودان إلى أفغانستان فى التسعينيات بتوسيع مخبأ «زهوار» وترميم ما أصابه على أيدى السوفييت وتحويله إلى قاعدة عسكرية.. لكن موقعه لم يكن خافيا على الأمريكيين لأنه بنى تحت أعينهم.. فقاموا بقصفه بعشرة صواريخ «كروز» عام ١٩٩٨ ردا على تفجير السفارتين الأمريكيتين فى «نيروبى» و «دار السلام».. إلا أنه لم يصب بسوء، وخرج منه أسامه بن لادن بخير..!!

هذا القصف الأمريكى لمخبأ «زهوار» عام ١٩٩٨ جعل أسامه بن لادن يدرك حاجته لتطوير وتوسعة شبكة الكهوف والأنفاق والمغارات الموجودة فى منطقة «تورا بورا» ودعمها بالأسقف الخرسانية والأبواب الحديدية لتكون بديلا له عن مخبأ «زهوار» المعروف لدى الأمريكيين .. وهذا بالضبط ما قام بعمله في الفترة من خريف ١٩٩٨ إلى صيف ٢٠٠١، مستفيدل من خبرته الهندسية، حتى أصبحت منطقة «تورا بورا» أكثر عمقا وتعقيدا من مخبأ «زهوار».

* * *

فى هذه البيئة.. تحت الأرض.. بدأت الولايات المتحدة الأمريكيية تبحث عن أسامة بن لادن لكى تعلن إنتصارها فى الحرب..

وهى بيئة تستعصى على أسلحتها المتطورة.. بل ويمكن أن تتحول إلى «أفخاخ» لقواتها.. لذلك أدركت أنها بحاجة إلى مساعدة الأفغان أنفسهم من أبناء هذه المناطق لكى يرشدوها إلى ما عجزت وسائلها عن الوصول إليه..

رصدت جائزة قيمتها ٢٥ مليون دولار لمن يقدم لها أية معلومات تفيد فى الوصول إلى بن لادن.. وأسقطت عشرات الآلاف من المنشورات على المواطنين تشرح لهم كيفية الاتصال بالقوات الأمريكية للإدلاء بهذه المعلومات واستلام الجائزة..

لكن المفاجأة أن أحدا ممن يعرفون مكان بن لادن لم يتقدم.. فلم تغرهم الجائزة..! رغم أن الأفغان فقراء، وجائزة بهذا الحجم تمثل لأى منهم ثروة طائلة لا يحلم بها.. وإنما أغرت الجائزة الأمريكيين أنفسهم.. فاتصل ٢٥ أمريكيا بمكتب التحقيقات الفيدرالى، وقالوا إنهم شاهدوا أسامة بن لادن وهو يقود سيارته فى مدينة «سالت ليك» بولاية أوتاه الأمريكية [١٠٢].. فأعلن المسئولون حالة التأهب القصوى فى الولاية.. وامتلأت قلوب السكان رعبا..!!

أما الأفغان فلم يكتفوا برفض الجائزة الأمريكية.. وإنما ردوا عليها بعرض جائزة ٥٠ مليون دولار لمن يسلمهم رأس جورج بوش..!!

هذا العرض جاء على لسان الملا محمد سعيد حقانى قائد قوات طالبان فى مدينة «سبين بولداك» يوم ٢١ نوفمبر ٢٠٠١.. قال: «إذا كان الأمريكيون قد عرضوا جائزة قدرها ٢٥ مليون دولا مقابل رأس أسامة بن لادن، فإننا نعرض ٥٠ مليون دولار لرأس جورج بوش رغم فقرنا..!»..

كان أسامة بن لادن يختبيء مع أعوانه فى منطقة «تورا بورا».. وكانت أمريكا ترجح وجوده فى المنطقة المحيطة بقندهار، بناء على معلومات حصلت عليها وكالة المخابرات المركزية الأمريكية .. فقامت بدك هذه المنطقة بالقنابل مما أدى إلي مقتل نحو عشرة الاف مدني، وتدمير المواقع الدفاعية لقوات طالبان حول قندهار، مما جعل الحركة تضطر إلى الإستسلام وتسليم المدينة بعد أن كانت قد أقسمت على الدفاع عنها حتى الموت..

لكن بعد كل هذا القصف والقتل والدمار.. اكتشف الأمريكيون أن معلومات جهاز مخابراتهم غير دقيقة وأنه لا أثر لإبن لادن فى المنطقة.. فتذكروا ما سبق أن قاله القائدان إسماعيل خان وهزارات على من إحتمال وجوده فى منطقة «تورا بورا»، وتوجهت أنظار الأمريكيين إلى هناك..

فى تلك الفترة.. ديسمبر ٢٠٠١.. تحولت إستراتيجية الحرب الأمريكية فى أفغانستان إلى «عملية مطاردة» غير مسبوقة لأسامة بن لادن فى الجبال والوديان الواقعة فى «تورا بورا»..

ورافق هذه المطاردة «طاحونة شائعات» تعمل بشكل مستمر.. فمن قائل أنه رأى أسامة بن لادن يقود «شخصيا» ألف مقاتل فى الجبل.. ومن قائل أنه رآه يمتطى جملا.. وآخر رآه يستقل دراجة بخارية ويعبر بها الحدود إلى باكستان.. وآخر يقسم أنه رآه فى نزهة ليلية مع زوجاته وأولاده وأنه كان يداعب الصغار منهم..!

هكذا ظلت أمريكا تسمع كل يوم قصة.. وتحاول أن تمسك بخيوطها فلا تصل إلى شىء!..

فأخذت تقصف منطقة «تورا بورا» بطريقة هستيرية، حتى وصلت كثافة القصف إلى أكثر من ٢٠٠ قنبلة يوميا- يوم الخميس ١٣ ديسمبر ٢٠٠١ علي سبيل المثال قصفت المنطقة بـ ٢٤٠ قنبلة.. كانت بعض القنابل من الوزن الثقيل (٦٨٠٠ كجم) والتى يطلق عليها القنبلة الإرتجاجية.. وذلك على أمل أن تؤدى إلى تدمير الكهوف التى يتحصن فيها أسامة بن لادن.. لكنها أدت إلى تدمير قرى بأكملها فى المنطقة.. وحولت الثلوج البيضاء على أسطح الجبال إلى أعمدة دخان من شدة القصف.

لكن لأن الطائرات لا تستطيع أن تتسلق الجبال كما قال رامسفيلد.. لذا كان لابد من قوات برية تتسلق الجبال وتنزل الكهوف وتدخل المغارات والمخابئ تبحث عن بن لادن.. وهو ما بدأت تقوم به قوات من التحالف الشمالى بقيادة «حضرة على» فى بادئ الأمر، ثم انضمت إليها بعد ذلك أعداد قليلة من مشاه البحرية الأمريكية.. وكانت هذه القوات تعمل تحت غطاء من المقاتلات الأمريكية وتطلق قذائف صاروخية من بعيد على المواقع التى تشتبه فى وجود بن لادن وأعوانه بها قبل أن تتقدم إليها.. لكنها فوجئت بمقاومة شديدة من أعضاء تنظيم القاعدة الذين خرجوا من الكهوف واشتبكوا معها فى معركة حامية..



هذه المعركة اعتبرها الأمريكيون المعركة الأخيرة فى الحرب.. فاستخدموا فيها آخر ما وصلت إليه تكنولوجيا الأسلحة.. من صواريخ موجهة بالأقمار الصناعية وقنابل ذكية وقصف مركز كانت تشترك فيه يوميا نحو مائة طائرة فى هذه المنطقة الضيقة التى لايزيد قطرها عن بضعة كيلو مترات.. حتى شعر الأمريكيون أنهم بدأوا يضيقون الخناق على بن لادن وأنه يتحصن مع مقاتليه فى واديين بالقرب من جبال

«تورا بورا».. الأول اسمه: وادى «أجام» والثانى: اسمه: وادى «وزير».. فقاموا بسد مداخل ومخارج الواديين لمنع أية محاولة للهرب.. وبدأ الرئيس الأمريكى بوش يبشر شعبه بقرب إلقاء القبض على بن لادن حيا أو ميتا، واصفا ذلك -فى تصريحات له يوم ١٥ ديسمبر ٢٠٠١- بأنه « أمر حتمى ».

لكن.. ما كان يراه بوش «حتميا».. كان فى الوقاع «مستحيلا»..!

لأن الواديين «أجام» و«وزير» اللذين قام الأمريكيون بسد مداخلهما ومخارجهما يمتدان شمالا وجنوبا من أفغانستان الى باكستان وينفتحان فى الجنوب على باكستان.. وبالتالى فمن الناحية العملية لايمكن السيطرة على عملية الدخول أو الخروج منهما.. فضلا عن عدم معرفة الجنود الأمريكيين بطبيعة المنطقة التى يقاتلون فيها.. وهو ماعبر عنه قائد دبابات أمريكى بقوله: «لاأرى نهاية مبكرة للقتال.. فالجبال كثيرة وكلما قمنا بالاستيلاء على جبل يظهر لنا جبل آخر» [١٠٣]!.

* * *

وقد استمرت معركة «تورا بورا» عدة أسابيع وسقط فيها قتلى من الجانبين.. كما نجح الأمريكيون يوم ١٥ ديسمبر ٢٠٠١ فى أسر ٥٠ مقاتلا من تنظيم القاعدة لأول مرة، ولعل هذا ما جعل الرئيس بوش يصرح فى نفس اليوم بأن بن لادن على وشك الوقوع فى أيدى الأمريكيين..!

لكن بن لادن كان بعيدا جدا عن أيدى الأمريكيين ولا أحد يعرف مكانه..!

بل إنهم لم يكونوا يعرفون حتى ما إذا كان قد مات أم مازال على قيد الحياة.. فقاموا ببتر أصابع القتلى من تنظيم القاعدة ونقلوها إلى مكتب التحقيقات الفيدرالى فى واشنطن لاجراء الفحوصات عليها.. وذلك بعد أن جمعوا عينات من الحامض النووى «دى. إن. إيه» من بعض أفراد أسرة أسامة بن لادن لمضاهاتها فى الفحوص التى يتم إجراؤها على الأصابع المبتورة، لمعرفة ما إذا كان بين هؤلاء القتلى أم لا..!

وكانت النتيجة: لا..!



أسامة بن لادن يجلس هادئا مطمئنا فى كهفه.. بينما الأمريكيون لايعرفون مكانه..!

الفصل الثانى والثلاثون

• الصدمة ..!

«أمريكا غدارة .. »

هتاف المتظاهرين فى باكستان

☐ *عدت من أفغانستان إلى باكستان لأجد حالة من الإحباط الشديد تسود الأوساط الباكستانية على مختلف مستوياتها.. الحكومة.. والشارع.. والأحزاب السياسية.. والجماعات الإسلامية..*
فالجميع خسروا رهاناتهم..

- الحكومة كانت تراهن على الولايات المتحدة، ووضعت كل بيضها فى السلة الأمريكية.. ومن أجل ذلك ضحت بحليفتها طالبان.. وتحدت الجماعات الإسلامية.. وأدارت ظهرها تماماً للشارع الباكستانى الذى كان يتفجر غضباً بسبب دعمها للحرب..

كل ذلك فعلته على أمل أن تجنى ثماره بعد أن تنتهى الحرب وتسقط طالبان..

وكانت عين الحكومة الباكستانية على ثلاث ثمرات:

- الأولى: مساندة واشنطن لها فى الصراع مع الهند حول كشمير..
- الثانية: أن يسمح لها بلعب الدور الرئيسى فى تشكيل الحكومة الأفغانية الجديدة حتى تضمن ولاء هذه الحكومة لها.. ولكى تظل أفغانستان- التى تمثل العمق الاستراتيجى لباكستان، وإحدى ركائز أمنها القومى- بعيدة عن تأثير النفوذ الهندى أو الروسى أو أية قوة أخرى ليست على وفاق مع باكستان..
- الثالثة: مساعدات اقتصادية، ورفع العقوبات التى كانت مفروضة على باكستان منذ إجراء تجاربها النووية فى ٢٩ مايو ١٩٩٨..

لكن الحكومة الباكستانية فوجئت بعد أن قدمت إلى الولايات المتحدة كل ما طلبته منها.. بحامل السلة الأمريكى يحطم البيض الباكستانى ويلقى به فى الأرض..!

- فتصريحات وزير الخارجية الأمريكى كولين باول فى نيودلهى يوم ١٧ أكتوبر ٢٠٠١ بشأن الوضع فى كشمير أصابت الباكستانيين بخيبة أمل كبيرة.. عندما قال: «إن بلاده تؤيد حق الهند فى مقاومة الإرهاب فى كشمير».. حيث أن من تعتبرهم الهند إرهابيين، تعتبرهم باكستان مناضلين من أجل الحرية ومجاهدين فى سبيل الله..!

ثم جاءت بعد ذلك تصريحات السفير الأمريكى لدى الهند روبرت بلاكويل يوم ٢١ نوفمبر ٢٠٠١ لتذهب إلى أبعد مما قاله باول، حيث أكد بلاكويل على أن بلاده «لن توقف الحرب على الإرهاب حتى ينتهى الإرهاب ضد الدولتين» يقصد الولايات المتحدة والهند.. وقال رداً على أحد الأسئلة بشأن مساندة باكستان للمقاتلين الكشميريين: «الإرهابى هو الإرهابى.. إنهم ليسوا مقاتلين من أجل الحرية، ولن يسمح لأى دولة بتوفير المأوى لهم»..!

بل إن بلاكويل أطاح بأحلام الحكومة الباكستانية فى الحصول على تأييد واشنطن لها فى الصراع مع الهند عندما قال: «إن واشنطن ونيودلهى على وشك إقامة علاقة استراتيجية.. وأن مرحلة جديدة فى العلاقات بين الدولتين قد بدأت بالفعل بعد القمة التى عقدت بين الرئيس الأمريكى جورج بوش، ورئيس الوزراء الهندى آتال بيهارى فاجباى، بالبيت الأبيض يوم ٩ نوفمبر ٢٠٠١»، وقد وصف بلاكويل هذه القمة بأنها: «أهم قمة بين الدولتين فى الخمسين عاماً الماضية».. وقد طلبت فيها الهند من الولايات المتحدة أن تشمل حملتها العسكرية ضد ما تسميه - الإرهاب، توجيه ضربات لما تعتقد الهند أنه معسكرات لتدريب المقاتلين الكشميريين فى الأراضى الباكستانية..!.. أى قصف باكستان بالنيابة عن الهند..!!

فإذا أضفنا إلى ما سبق أن واشنطن قد استجابت بالفعل لطلب الهند بإدراج اسم حركة المجاهدين الكشميريين ضمن قائمة المنظمات الإرهابية المطلوب القضاء عليها.. ندرك بوضوح حجم «خيبة الأمل» و«الإحساس بالغدر» اللذين شعرت بهما الحكومة الباكستانية إزاء الموقف الأمريكى..

وهذا بالضبط ما أدركه المواطن الباكستانى بفطنته مبكراً عندما خرج للتظاهر ضد قرار الرئيس بيرفيز مشرف بالتعاون مع الولايات المتحدة فى حربها على أفغانستان.. ولخص المواطن الباكستانى الأمر كله فى كلمتين فقط، هتف بهما بأعلى صوته: «أمريكا غدارة..!»

ملامح الغدر الأمريكى ظهرت أيضاً فى إصرار واشنطن على تنحية إسلام آباد جانباً فى أية جهود تبذل لتشكيل الحكومة الأفغانية الجديدة.. وتمسكها بعقد المؤتمر الخاص بتشكيل هذه الحكومة خارج باكستان حتى لا يكون لها أى دور فى العملية.. لا داخل المؤتمر ولا على هامش المؤتمر.. الأمر الذى أصاب الباكستانيين بالصدمة..

وقد وصل إحساسهم بالصدمة ذروته عندما سمعوا الرئيس الأمريكى بوش يقول «بصريح العبارة» - يوم ١٣ نوفمبر ٢٠٠١-: «إنه سعيد جداً بسقوط كابول فى أيدى قوات التحالف الشمالى»..!

طبعاً باكستان أخذت تنادى كل يوم بعد سقوط كابول بضرورة جعلها مدينة منزوعة السلاح وإخراج قوات التحالف الشمالى منها وإرسال قوات دولية إليها

لحفظ السلام.. إلخ..... لكن كل هذا الكلام كان يقال فى الوقت الضائع.. لأن باكستان كانت قد خرجت من «الملعب» ولم تعد الولايات المتحدة فى حاجة إليها..!

* * *

أما المساعدات الاقتصادية التى حلمت بها باكستان.. فلم تزد على مليار دولار فقط «عبارة عن ٦٠٠ مليون من الولايات المتحدة، و٣٤٠ مليوناً من اليابان، و٦٠ مليوناً من كندا ودول أخرى».. وهو مبلغ أقل كثيراً من الخسائر الاقتصادية التى تكبدتها باكستان بسبب الحرب، والتى وصلت إلى ٣ مليارات دولار نتيجة إلغاء كثير من الجهات المستوردة صفقات تجارية كان يتم بموجبها تصدير منتجات باكستانية إلى الخارج كالملابس الجاهزة والأحذية وغير ذلك..!

* * *

أما الإحباط فى الشارع الباكستانى.. ولدى الأحزاب السياسية والجماعات الإسلامية.. فكان سببه ذلك الانهيار السريع والدراماتيكى لطالبان وتنظيم القاعدة.. اللذين كان الباكستانيون يعتبرونهما رمزاً للمقاومة الإسلامية ضد العدوان الأمريكى.. وكان خطاب الجماعات الإسلامية فى باكستان يقوم على أن الحرب الدائرة فى أفغانستان ليست حرباً ضد الإرهاب كما تقول أمريكا.. وإنما هى حرب ضد الإسلام والمسلمين، ويجب الوقوف إلى جانب طالبان لنصرتها فى هذه الحرب..

كانت المساجد تقوم بجمع التبرعات فى كل صلاة، وترسلها إلى السفارة الأفغانية فى إسلام آباد..

وكان كل محل تجارى يضع أمامه صندوقاً لجمع التبرعات لنصرة طالبان..

وكان المتطوعون للجهاد بالآلاف يطلبون كل يوم فتح الحدود أمامهم لدخول أفغانستان، والانضمام إلى صفوف مقاتلى طالبان..

الجامعات الباكستانية.. والمهنيون والمثقفون.. ووسائل الإعلام.. ورجال الأحزاب.. الكل كان يؤيد طالبان..

صور أسامة بن لادن طبعت على الملابس الباكستانية.. اسم طالبان أصبح مرادفاً للبطولة والجهاد فى حرب تُشَنْ ضد المسلمين..

خطباء المساجد بحت أصواتهم من كثرة الدعاء لنصرة طالبان وأسامة بن لادن.. وأعلنوا أن الجهاد أصبح فريضة على كل مسلم لأن الحرب على أفغانستان هى حرب على الإسلام..

هذا الشارع الباكستانى الذى عاش أسابيع وأياماً طويلة فى حالة استنفار شديدة.. صحا فجأة على انهيار كل ما سبق أن راهن عليه.. فكانت «صدمته» وهو يرى قوات طالبان تنسحب من المدن الأفغانية الواحدة تلو الأخرى.. ليست أقل من «صدمة» الحكومة الباكستانية، وهى ترى الولايات المتحدة تخرجها من الملعب الأفغانى.. قبل أن تنتهى المباراة..!

* * *

الفصل الثالث والثلاثون

• عبدالسلام ضعيف..
وقصة الإتصالات السرية مع الأمريكيين ..

«أنشر هذا الكلام على مسئوليتي..
أنا قلته لك لكي تنشره»..!

عبدالسلام ضعيف للمؤلف

☐ كان الملا عبدالسلام ضعيف هو صوت طالبان الذى يدوى كل يوم فى وسائل الاعلام.. المكتوبة والمرئية والمسموعة فى كل أنحاء العالم وبكل اللغات.

فمنذ بدأت الحرب على بلاده فى ٧ أكتوبر ٢٠٠١ أخذ يعقد مؤتمرا صحفيا كل يوم فى حديقة السفارة بإسلام آباد أمام المئات من مراسلى وسائل الإعلام العالمية.. يهاجم فيها الولايات المتحدة وحلفاءها.. ويحذرهم.. وينذرهم.. وأحيانا يسخر منهم.

وقد اختار ضعيف موعدا ثابتا لمؤتمره الصحفى كل يوم لا يتغير.. الساعة الثانية ظهرا، بعد أن يؤدى صلاة الظهر جماعة فى مكتبه مع موظفيه.

بعد الصلاة يخرج إلى الشرفة فى الطابق الأرضى.. فيجد الصحفيين جالسين على الأرض فى حديقة السفارة ينتظرونه، فيحييهم تحية الإسلام «السلام عليكم»، ثم يجلس أمام مائدة صغيرة وضعت عليها عشرات الميكروفونات وأجهزة التسجيل، وخلفه علم إمارة أفغانستان الإسلامية.. عبارة عن قطعة قماش بيضاء كتب عليها باللون الأسود «لا إله إلا الله محمد رسول الله».. بجوار ضعيف يجلس نائبه الملا محمد سهيل شاهين، وأحيانا مترجمه الخاص أحمد راتب.

وقائع المؤتمر الصحفى لا تتغير أبدا.. تبدأ بتلاوة ضعيف آيات من القرآن الكريم تحض المسلمين على الجهاد فى سبيل الله وتعدهم بالنصر وتنذر الكفرة بالعذاب.. بعد ذلك يلقى بيانا باللغة البشتونية تصاحبه ترجمة إلى الانجليزية يقوم بها شاهين أو راتب.. ثم يفتح باب الأسئلة، ولا ينتهى المؤتمر الصحفى إلا بعد أن يفرغ جميع الصحفيين من طرح أسئلتهم.. وفى نهاية المؤتمر يقوم موظفو السفارة بتوزيع نسخة مترجمة إلى الانجليزية من البيان الذى ألقاه ضعيف على الصحفيين.

ورغم أن ضعيف لم يدرس العلوم السياسية أو القانونية فى إحدى الجامعات، ولم يلتحق بالأكاديميات.. إلا أنه كان دبلوماسيا من الطراز الأول.. واعيا لكل كلمة يقولها، ويوظفها توظيفا جيدا.. مدركا لحجم الدور الذى تقوم به وسائل الإعلام فى المعركة.. لذلك حرص على إقامة علاقات طيبة مع الصحفيين.. فكان يستقبلهم فى الصباح بمكتبه، وفى المساء بمنزله الكائن فى منطقة «إف ١٠» بإسلام آباد، الذى

تحول إلى ناد مفتوح لجميع المراسلين يقصدونه كل ليلة بعد الساعة السابعة مساء.. حيث يكون الرجل قد فرغ من صلاة العشاء، فيخرج إليهم مرحبا ومحدثا وشارحا لموقف حكومته.

وقد علمت التجربة الملا عبدالسلام ضعيف ألا يدلى بحوار تليفزيونى إلا إذا كان يبث على الهواء مباشرة.. خاصة بالنسبة لمحطات التليفزيون الأمريكية الأوروبية.. حتى يذاع كاملا ولا يختصر منه شيء.. فيركز فيه على إسقاط قوات طالبان للمروحيات الأمريكية، ويكشف عن حصيلة الضحايا المدنيين فى أفغانستان جراء القصف الأمريكى، ويتهم الولايات المتحدة بارتكاب «مجازر إبادة».. الأمر الذى كان يثير غضب الرأى العام العالمى لقتل المدنيين.. وفى نفس الوقت يظهر عجز القوات الأمريكية عن إلحاق الضرر بقوات طالبان..!

هكذا قاد ضعيف المعركة الإعلامية لطالبان، فأحرز فيها السبق على الولايات المتحدة باعتراف الأمريكيين أنفسهم.. ولم تستطع «سى. إن. إن» ولا «الواشنطن بوست» ولا «نيويورك تايمز» ولا غيرها من أجهزة آلة الاعلام الأمريكية الضخمة أن تتصدى لضعيف.. فقرر الأمريكيوين إسكاته..!

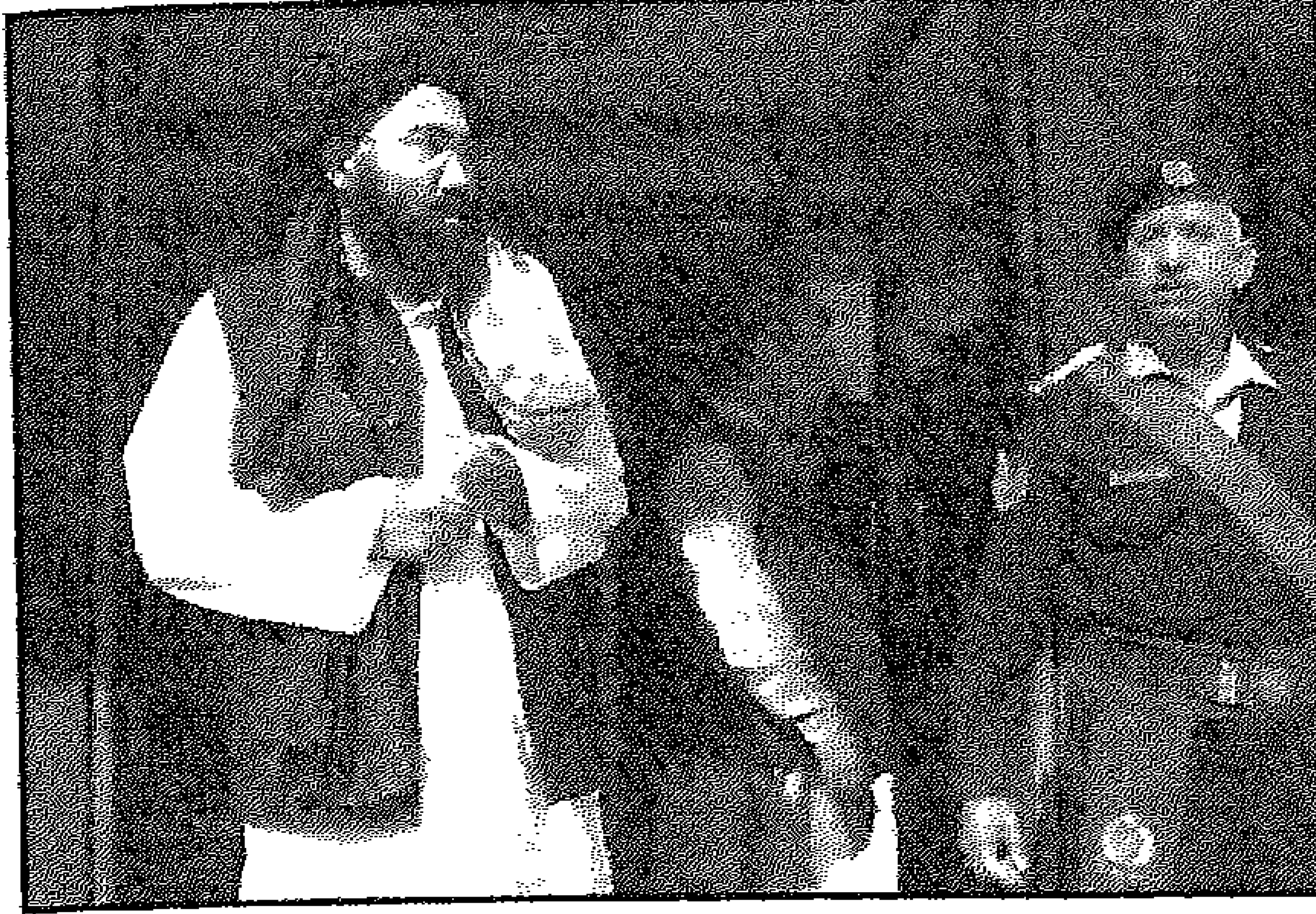
وهذا بالضبط ما حدث يوم الثلاثاء ٦ نوفمبر ٢٠٠١.. حيث استدعى الملا عبدالسلام ضعيف إلى مقر وزارة الخارجية الباكستانية، وطلب منه «وقف مؤتمراته الصحفية اليومية، والكف عن دعايته المناهضة لبلد له علاقات ودية مع باكستان، احتراما لقاعدة الدولة الثالثة فى الأعراف الدبلوماسية».

* * *



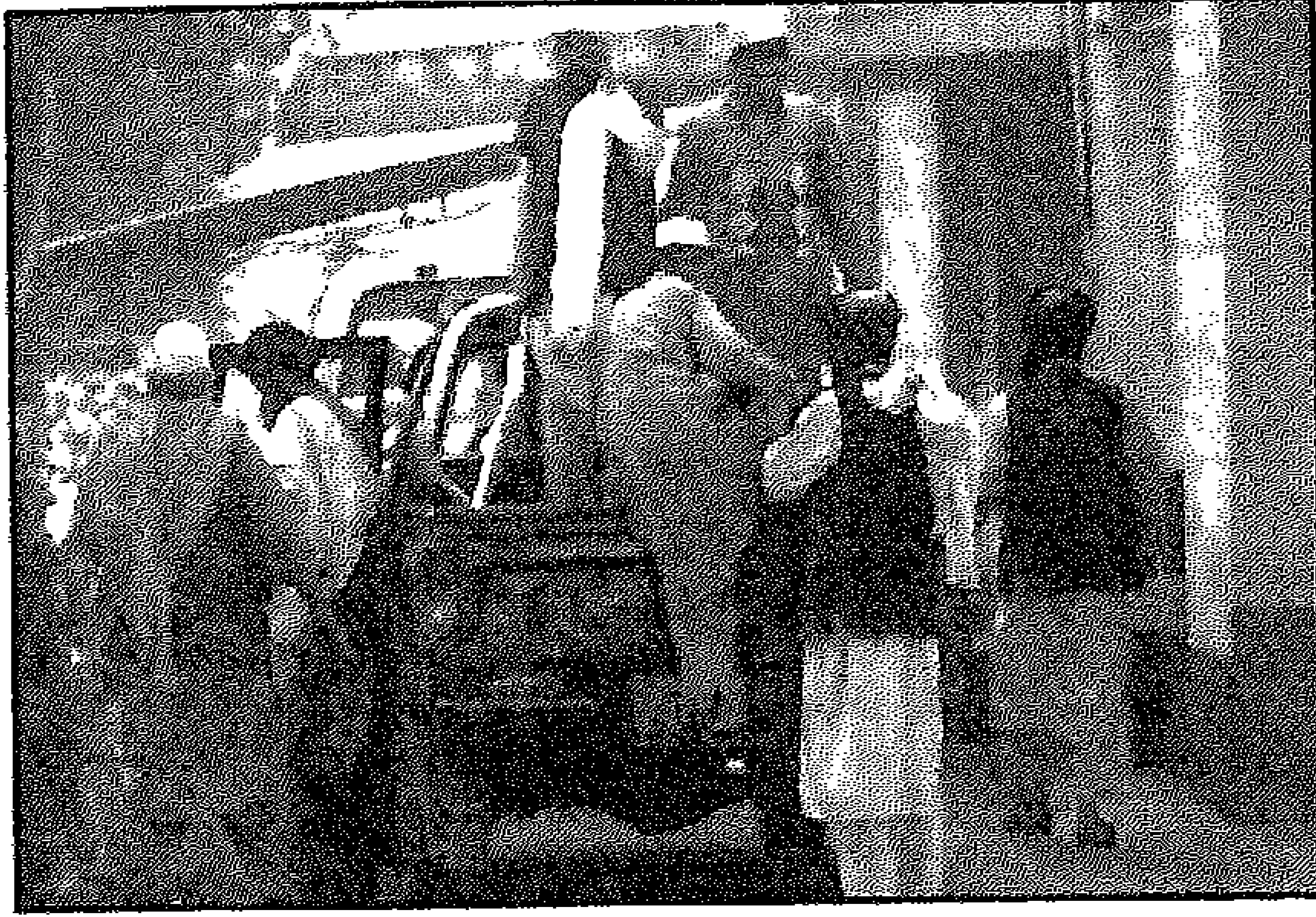
المؤلف مع عبدالسلام ضعيف فى مكتبه بالسفارة الأفغانية فى إسلام أباد

ثم تطورت الأحداث بعد ذلك.. فسقطت كابول بعد أسبوع وتبعتها المدن الأفغانية الأخرى.. بينما الملا عبدالسلام ضعيف باق - كما هو - سفيرا لحكومة طالبان فى باكستان.. فأصبح هذا الموضوع محاطا بأكثر من علامة استفهام ويطرح كل يوم فى المؤتمرات الصحفية التى يعقدها السفير عزيز أحمد خان المتحدث باسم وزارة الخارجية الباكستانية.. والإجابة دائما واحدة مهما اختلفت صيغة الأسئلة «إن استمرار باكستان فى الاعتراف بحركة طالبان كحكومة شرعية لأفغانستان يأتى لعدم وجود بديل سياسى حتى الآن لهذه الحركة فى أفغانستان».



عبدالسلام ضعيف أمام باب وزارة الخارجية الباكستانية فى انتظار سيارته

لكن هذا الموقف لم يدم طويلا.. فبعد ٩ أيام فقط من سقوط كابول، أصدرت الحكومة الباكستانية يوم ٢٢ نوفمبر ٢٠٠١ قرارا بإغلاق سفارة طالبان فى إسلام آباد.. وكان قد سبق ذلك بيومين فقط إغلاق قنصليتين لطالبان فى مدينتى بيشارو وكويتا.. وقبل ذلك بأسبوع إغلاق قنصليتها فى كراتشى.



طاقم السفارة يقفز فوق سيارة نصف نقل تسير وراء سيارة ضعيف لحراسته

السفير عزيز أحمد خان قال فى المؤتمر الصحفى: إن قرار باكستان بإغلاق سفارة طالبان جاء بعد أن فقدت هذه الحركة سيطرتها تدريجيا على أفغانستان.

لكن الحقيقة.. أنه جاء بعد يوم واحد فقط من طلب الولايات المتحدة الأمريكية من باكستان إغلاق سفارة طالبان..!!

* * *

فى اليوم التالى مباشرة لإغلاق السفارة.. أى الجمعة ٢٣ نوفمبر ٢٠٠١، وكان يوافق ٨ رمضان ١٤٢٢.. كنت ضيفا على صديقى الملا عبدالسلام ضعيف.. قصدت منزله فى المساء، فلم أجد سوى حارسين يقفان بالباب.. لم أدر هل يقفان لحمايته أم

للتحفظ عليه؟.. لا صحفيون.. لا كاميرات.. الأضواء انحسرت عن المقاتل النبيل الذى انتصر على الولايات المتحدة فى معركة الإعلام، فاضطرت أن تسكته بالقوة..!

فى حجرة الاستقبال.. كان الرجل يؤم أولاده فى صلاة «التراويح»، فشاركتهم الصلاة.. بعد الصلاة قدم لى شايا وحلوى أفغانية.. كان حزينا ومنكسرا.. وكنت أدرك أهمية اللحظة.. والحدث.. والرجل.. فأدرت جهاز التسجيل وأجريت معه هذا الحوار:

ـ سألته: كيف تم إبلاغك بخبر إغلاق السفارة؟

●● قال: وصلتنى أمس رسالة خاصة من وزارة الخارجية الباكستانية تطلب إغلاق السفارة الأفغانية فى إسلام آباد.. وتقول إنه اعتبارا من أمس لم تعد الحكومة الباكستانية تعترف بوجود ممثل شرعى لأفغانستان على أراضيها، وأنها تنتظر تشكيل حكومة موسعة فى أفغانستان لتقوم بتعيين سفير لها فى باكستان.

ـ هل كان هذا القرار مفاجأة لك؟

●● نعم.. كان مفاجأة لم أتوقعها.. لكن كما تعرف أن الباكستانيين ليس فى أيديهم شىء.. هم يتصرفون تحت ضغوط أمريكية.. فشأنهم ليس فى أيديهم.. وإنما يفعلون ما يؤمرون به من الولايات المتحدة الأمريكية.. وهذا يتضح من أنهم لم يتخذوا قرار قطع العلاقات معنا مرة واحدة كما هو متبع دائما بين الدول.. وإنما سبقه بعدة أيام إغلاق مكاتب قنصلياتنا فى كراتشى، ثم فى بيشاور وكويته.

ـ أغلقت جهاز التسجيل.. وقلت له يا عبدالسلام أنا لو نشرت هذا الكلام سيقوم الباكستانيون غدا بتسليمك إلى الأمريكيين.. فأنصحك ألا تتحدث عنهم بهذه الطريقة وأنت مازلت هنا بين أيديهم.

●● قال لى: انشره على مسئوليتى.. أنا قلته لك لكى تنشره.

ـ قلت له: سيصيبك أذى.. وسيسلمونك إلى أعدائكم ليفتكوا بك.. وربما يقتلونك.. لا داعى لمهاجمة باكستان الآن، لأنها أصبحت البلد الوحيد فى العالم الذى تستطيع الإقامة به أنت وأسرتك بعد أن استولى التحالف الشمالى على الحكم فى أفغانستان، ولم تعد تستطيع العودة إليها، كما لا يوجد بلد آخر فى العالم يمكنك اللجوء إليه.. لذلك اقترح عليك أن نحذف الفقرة السابقة لتكون إجابتك على السؤال بهذا الشكل:

«نعم.. كان القرار مفاجأة لم أتوقعها.. لكن كما تعرف هناك اعتبارات سياسية معينة تفرض على الباكستانيين اتخاذ بعض القرارات التى يرون أنها فى صالحهم».. ما رأيك؟

● قال: موافق.. ثم واصل حديثه قائلا: قرار إغلاق السفارة خلق مشكلة كبيرة للاجئين والمهاجرين الأفغان الذين يقيمون فى باكستان.. وأيضا المسافرين الذين يذهبون إلى الخارج من هذا الطريق، وكذلك التجار الذين يعملون بين باكستان وأفغانستان.. لقد أعربوا عن أسفهم وحزنهم لقرار إغلاق السفارة.

ـ قلت له: لكن عملية السفر إلى أفغانستان لم تتوقف وأصبحت تتم عن طريق مكتب الأمم المتحدة فى إسلام آباد.. وهو ينظم زيارات للصحفيين إلى هناك مقابل ٥ آلاف دولار لكل صحفى ثمن تذكرة الطائرة من إسلام آباد إلى كابول والعودة.. فما هو تعليقك؟

● قال: التعليق هو أن الأمم المتحدة أصبحت تتاجر على حساب الشعب الأفغانى الفقير.. أو لعلها تريد أن تسترد ثمن المعونات الغذائية التى أرسلتها إليه..!

إن دخول أى شخص إلى الأراضى الأفغانية.. هو أمر يتعلق بإرادة الأفغان، وليس الأمم المتحدة.. لكنها اغتصبت لنفسها هذا الحق منا بالقوة، وبالمخالفة لجميع القوانين، والأعراف الدولية طمعا فى تحقيق ربح وفير لنفسها.. لعلها تحل به أزمتها المالية المتفاقمة بسبب رفض الولايات المتحدة سداد حصتها المالية للأمم المتحدة..!

ـ سألته: ما هى خطتك الآن بعد إغلاق السفارة.. هل ستبقى فى باكستان أم ستغادرها؟

● قال: سأبقى هنا فى إسلام آباد فترة من الوقت حتى تتضح الصورة.. ثم أقرر بعد ذلك ما إذا كنت سأرحل أم أبقى فى باكستان.

ـ قلت له: هل فكرت فى أن تطلب اللجوء السياسى من باكستان، بسبب الظروف التى تشهدها أفغانستان فى الوقت الراهن؟

● قال: غير مسموح لى بذلك.. أضاف: ثم أن الحكومة الباكستانية لم تطلب منى المغادرة.. وأنا هنا الآن أعمل كشخص.. لا كمسئول دبلوماسى.

ـ سألته: ما الذى تعمله بصفة شخصية.. وهل مازلت على اتصال بقيادة طالبان، وتكلفك القيام هنا ببعض المهام مثلا؟

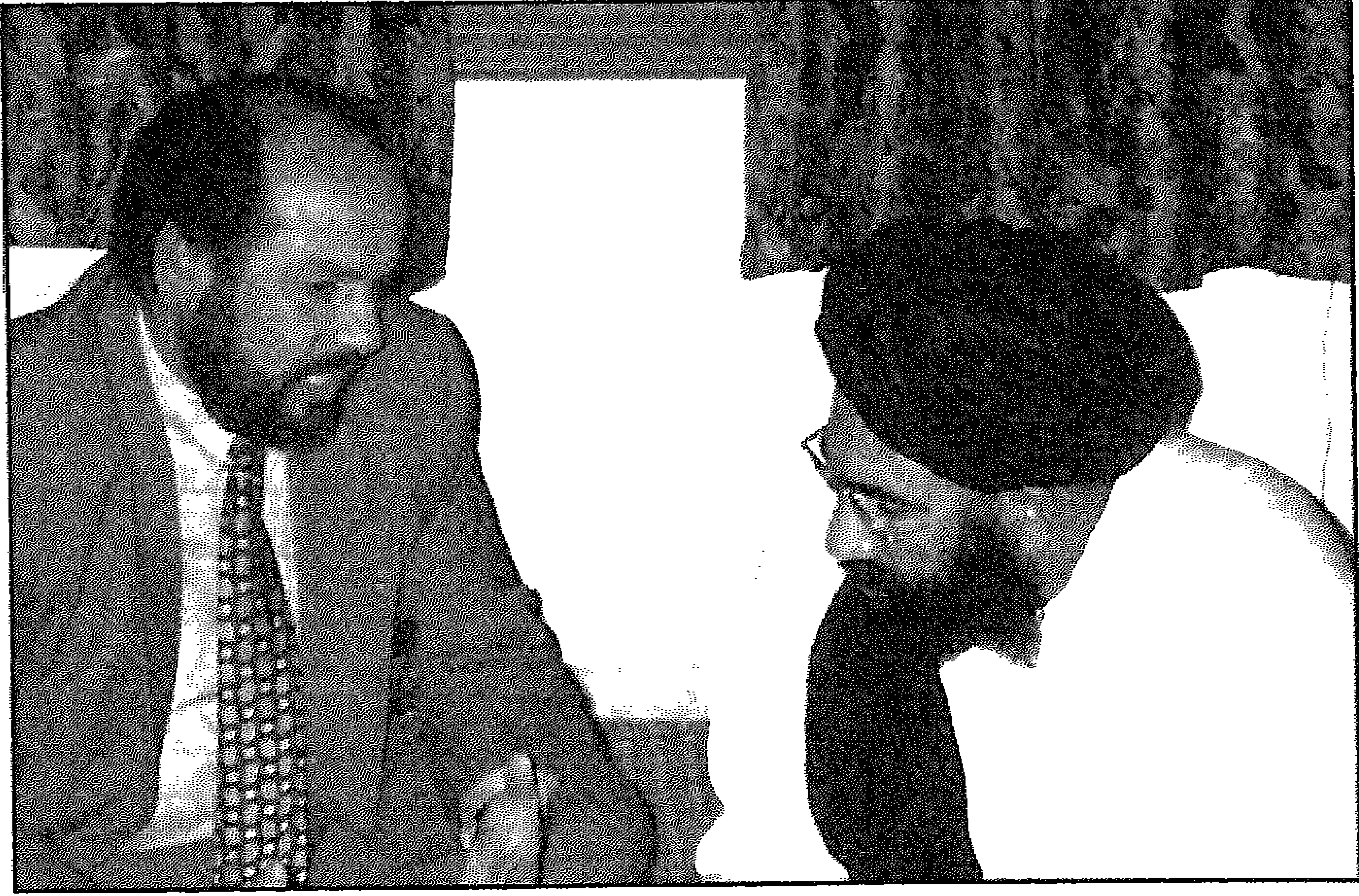
● قال: نعم.. أنا على اتصال مستمر بقيادة طالبان.. لكنها بعد إغلاق السفارة لم تكلفنى بأية مهام.. وإذا طلبت منى شيئا كنقل رسائل مثلا إلى المسئولين الباكستانيين، فسوف أقوم بذلك بصفة شخصية وليس بصفتى مسئولا رسميا.

ـ سألته: وما موقف بقية موظفى السفارة الآن..؟

● قال: معظمهم سيرحلون، لأنهم فى حاجة إلى نفقات معيشية وليس لهم هنا مصادر دخل ينفقون منها على أسرهم.. سيبقى منهم ٤ أشخاص فقط لحراسة مبنى السفارة وما به من أوراق وأجهزة وسيارات.. الخ.

ـ قلت له: ذكرت بعض التقارير أمس أن واشنطن ستطلب من إسلام آباد تسليمكم إليها.. هل هذا صحيح؟.. وهل أنت خائف من تسليمك للأمريكيين؟

● قال لا أعتقد أن هذه التقارير صحيحة.. ثم إننى دبلوماسى بدرجة سفير ولست إرهابيا فكيف يتم تسليمى؟.. أنا لست خائفا من ذلك.. لكننى فقط أشعر



قلت له: الباكستانيون سيسلمونك إلى الأمريكيين ليفتكوا بك..

بالدهشة لما جاء فى هذه التقارير.. خاصة أننى لم ارتكب جرما يمكن أن أسأل عنه، ولم أقم سوى بواجبى الدبلوماسى..!

- قلت له: هناك تقارير تقول إنك قبل أحداث ١١ سبتمبر التى وقعت بالولايات المتحدة.. كنت تقوم باتصالات سرية لفتح حوار بين طالبان والولايات المتحدة.. الهدف منه الاعتراف بطالبان كحكومة شرعية لأفغانستان مقابل التخلى عن إيواء أسامة بن لادن.. ولا أقول تسليمه لأمريكا.. فهل هذا صحيح؟

● قال: نعم.. أنا أجريت عددا من الاتصالات السرية مع المسئولين بالولايات المتحدة الأمريكية، وبذلت جهودا كبيرة لحل هذه المشكلة.. لأننا فى الحقيقة كنا نود أن تكون الحكومة الاسلامية لطالبان فى أفغانستان حكومة معترفاً بها من الولايات المتحدة والمجتمع الدولى.. لاسيما أننا دولة فقيرة جدا.. والشعب الأفغانى شعب مسكين.. ونحن فى حاجة إلى بناء علاقات تجارية وسياسية مع العالم حتى ننهض ببلادنا، بينما كانت العقوبات المفروضة علينا تكبلنا وتعوق حركتنا وتعطل انطلاقنا.. لذلك قمت بإجراء اتصالات سرية مع المسئولين الأمريكيين لحل هذه المشكلة.. لكننى لم أطرح أبدا فى هذه الاتصالات فكرة تسليم أسامة بن لادن.. وإنما طلبت منهم حل هذه المشكلة بما يتفق وتعاليم الشريعة الاسلامية.. لأننا نريد أن نحافظ على عزة الإسلام.. وفى نفس الوقت لم نكن نريد الدخول فى مواجهة أو عداء مع الولايات المتحدة، لأننا ندرك بوضوح أنها دولة قوية ولديها امكانات اقتصادية وعسكرية ضخمة ونفوذ سياسى واسع فى العالم كله.. بينما نحن دولة صغيرة

تحاول النهوض بامكانياتها وتحسين مستوى معيشة أبنائها.. وقد استمرت اتصالاتى السرية بالمسئولين الأمريكيين، وكادت تحرز بعض التقدم لولا وقوع أحداث ١١ سبتمبر التى غيرت كل شئ..!

ـ قلت له: وكيف كانت تتم هذه الاتصالات السرية.. ومع أى مستوى من المسئولين فى الإدارة الأمريكية؟

● قال: أحيانا كانت تتم عبر الهاتف مع واشنطن.. وأحيانا أخرى كانت تعقد لقاءات سرية بالسفارة الأمريكية فى إسلام آباد بينى وبين السفير الأمريكى.. أو بينى وبين السيدة كريستينا روكا مساعدة وزير الخارجية الأمريكى لشئون جنوب آسيا.. لقد اجتمعت بها سرا عدة مرات وتبادلنا وجهات النظر.

ـ قلت له: ما هى الأفكار التى كان يتم طرحها خلال الاتصالات السرية بينكم وبين الإدارة الأمريكية؟

● قال: معظم المباحثات بيننا كانت تدور حول وضع أسامة بن لادن.. وقد طرحت عليهم ثلاثة مقترحات ردا على اتهامهم له بالمسئولية عن بعض الأحداث.. المقترحات هى:

- الاقتراح الأول: إذا كان أسامة بن لادن قد ارتكب أية جريمة ضد الولايات المتحدة.. فنحن مستعدون لمحاكمته أمام المحكمة الإسلامية العليا فى أفغانستان بعد أن يقدموا إلى هذه المحكمة الدلائل التى يملكونها ضده.

- الاقتراح الثانى: إذا كانوا لا يوافقون على محاكمته أمام محكمة أفغانية... فنحن مستعدون للموافقة على محاكمته أمام محكمة مشكلة من العلماء المسلمين من دول ثلاث هى: أفغانستان والسعودية وأية دولة إسلامية أخرى.



قال لى: عقدت عدة لقاءات سرية مع كريستينا روكا مساعدة وزير الخارجية الأمريكى

- الاقتراح الثالث: إذا كانوا لا يوافقون أيضا على هذه المحكمة.. فيمكن محاكمته أمام محكمة تضم قضاة من علماء المسلمين تقوم بتشكيلها منظمة المؤتمر الإسلامى.

هذه هى المقترحات الثلاثة التى عرضتها على الأمريكيين، ورفضوها كلها.. وأصروا على ضرورة تسليم أسامة بن لادن إليهم دون أن يقدموا لنا أى دليل يثبت مسئوليته عن ارتكاب أى حادث وقع ضد الولايات المتحدة.. فقلت لهم: إننا نريد أن نضمن محاكمته أمام محكمة إسلامية.. فإذا كنتم ترفضون ذلك، ولا تحترمون ديننا وقيمنا وشرائعنا.. فنحن بالمثل لا نحترم قيمكم وشرائعكم.

أضاف الملا عبدالسلام ضعيف: لو كانت الولايات المتحدة قدمت لنا الدلائل ضد أسامة بن لادن، وتمت إدانته أمام المحكمة.. لكنا نفذنا على الفور حكم المحكمة.. أيا كان هذا نوع هذا الحكم.

- قلت له: منذ بدأت الحرب فى ٧ أكتوبر الماضى.. ألم تكن هناك أية فرصة لاستئناف الاتصالات بينك وبين الأمريكيين من أجل وقف القتال وتجنيب المواطنين ويلات القصف؟

قال: والله نحن بذلنا جهودا كبيرة من أجل ذلك، وكنا مستعدين للحوار مع الأمريكيين.. لكنهم رفضوا، وأغلقوا أبواب الحوار معنا.. وأصروا على ضرورة تسليم أسامة بن لادن إليهم دون شروط، ودون دليل واحد يملكونه ضده.. فطبعا نحن رفضنا.. فقاموا بالاعتداء على بلادنا بالطائرات والصواريخ.

* * *

- قلت له: بمناسبة الحديث عن الاعتداء الأمريكى على بلادكم.. مازال الناس يتساءلون فى دهشة: لماذا انسحبت قوات طالبان بهذه السرعة من المدن الأفغانية وتراجعت إلى الخلف؟

● قال: كان القصف الأمريكى عنيفا ومكثفا على المدن الأفغانية.. ووجدنا أن المئات من المدنيين الأبرياء العزل الذين لا ذنب لهم يقتلون كل يوم.. فرأينا أن من الحكمة الانسحاب من هذه المدن لعل القصف الأمريكى يتوقف عنها.. وفى نفس الوقت لكى نحافظ على جنودنا وقدراتنا العسكرية من أن تهدر بسرعة.. بينما المعركة مازالت أمامنا طويلة.

- قلت له: لكن البعض يقول إنه وقعت «خيانات» من بعض قادة الخطوط الأمامية لقوات طالبان.. وإنهم استسلموا مقابل الحصول على مبالغ من الدولارات.. هل هذ صحيح؟

● قال: أنا أيضا سمعت مثل هذا الكلام.. لكننى لا أستطيع اتهام شخص معين بذلك.

ـ قلت له: يتوقع البعض استمرار الصراع فى أفغانستان فترات طويلة مقبلة.. لأن قوات التحالف الشمالى نفسها منقسمة على بعضها.. ما رأيك فى هذا الكلام؟

● قال: هذا الكلام صحيح جدا.. فهم فصائل مختلفة تعمل كل منها من أجل مصلحته الخاصة، وهى السيطرة على أكبر مساحة ممكنة من الأرض لزراعتها بالمخدرات ونشر الفساد فيها، وإخضاع سكانها لسطوتها وسيطرتها.. وهذا هو السبب الذى جعل طالبان تقاتلهم فى منتصف التسعينيات وتطردهم من الأقاليم وتعيد الأمن والاستقرار إلى أفغانستان.. حيث قضينا على زراعة المخدرات.. وجمعنا الأسلحة غير المرخصة.. ووفرنا الأمن والأمان للشعب الأفغانى.. فإذا ما كانت هذه الفصائل قد اجتمعت على مصلحة مشتركة لها، وهى محاربة طالبان والانتصار عليها بدعم من الخارج.. فإن هذا الانتصار مؤقت وقصير جدا، والغلبة لنا عليهم بإذن الله.

ـ قلت له: وكيف ستواجهونهم إذا كانت دول كبرى مثل الولايات المتحدة وروسيا والهند وإيران تقف بجانبهم؟

قال: نحن نرى أن الدعم الخارجى لقوات التحالف الشمالى من الدول التى ذكرتها.. لا يهدف إلى تحقيق مصلحة الشعب الأفغانى، ولكنه يهدف إلى قتل الأفغان وتخريب بلادهم..

لأن أفغانستان بيت واحد.. تسكن فيه أقوام مختلفة.. ولكل شخص من هذه الأقوام حق فى أفغانستان.. لذلك فعندما يوجه الدعم من الخارج إلى بعض الأفغان ضد بعضهم الآخر.. فإن ذلك من شأنه أن يثير المشاكل فى البيت الأفغانى، ويجعل سكانه يتقاتلون، فيحل الخراب بالبيت.

والشعب الأفغانى يعرف هذه الحقيقة.. لذلك فهو يقف معنا ويساندنا..

والدعم عندما يأتى من الداخل يكون أقوى وأهم من أى دعم يأتى من الخارج مهما كان حجمه..

لذلك، فالنصر فى النهاية سيكون لنا بإذن الله.

* * *

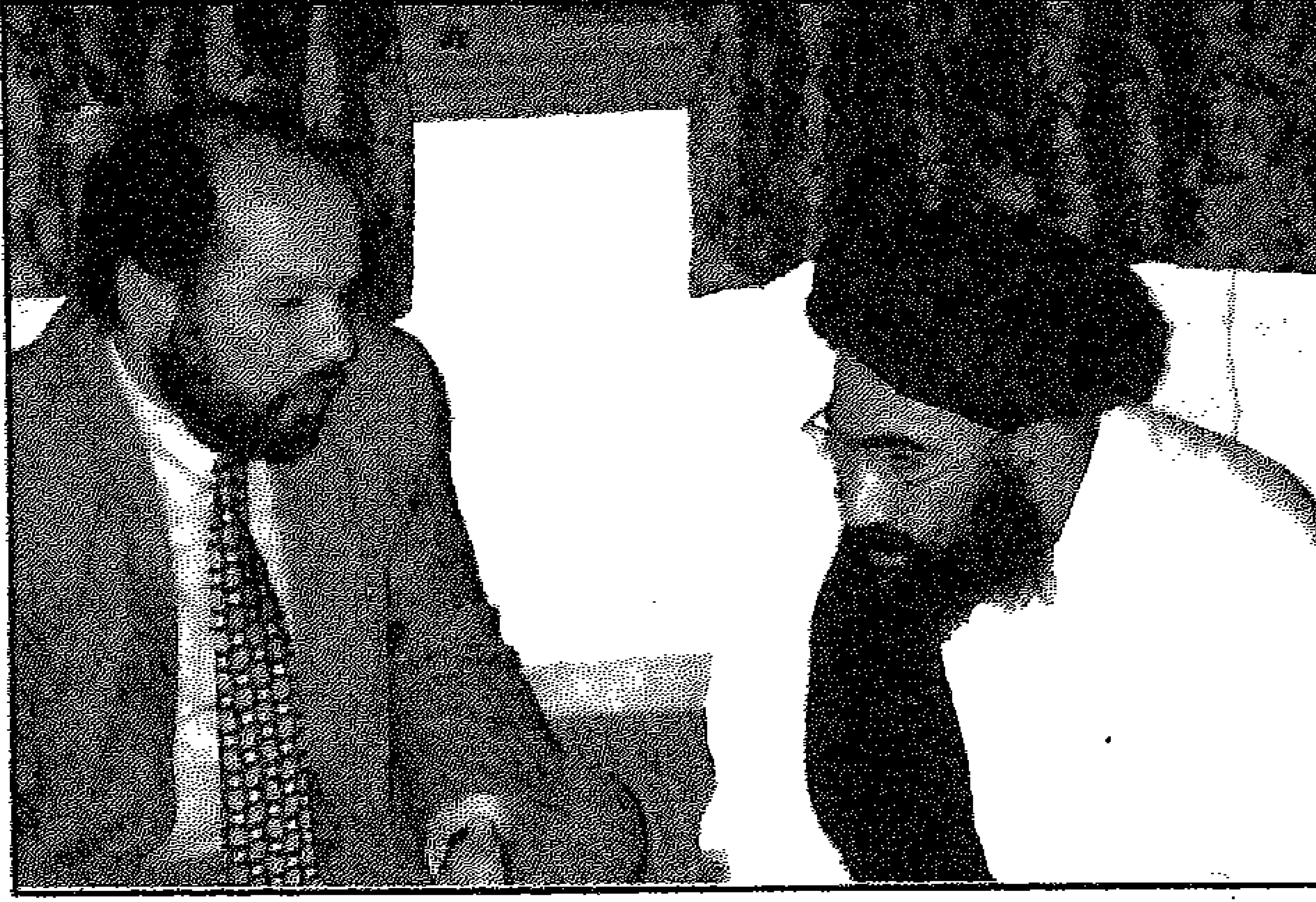
ـ قلت له: كثيرون يتساءلون عن وكيل أحمد متوكل وزير الخارجية فى حكومة طالبان.. لم يظهر منذ فترة طويلة. فهل قتل؟ أم انشق عن الحركة؟

قال: وكيل أحمد متوكل مازال وزيرا للخارجية.. وهو بخير.. وأنا قابلته الأسبوع الماضى فى «سبين بولداك» وتحدثت معه طويلا.. لكن كما تعرف نحن أصبحنا الآن هدفا لشائعات كثيرة مغرضة.

ـ سألته: هل مازلتم على اتصال بأسامة بن لادن؟

● قال: معلوماتى أنه لا يوجد الآن فى المناطق التى تقع تحت سيطرتنا فى

أفغانستان.. وقد فقدنا الاتصال معه.. وأنا شخصيا لا أعرف مكانه الآن، ولا أعرف ما إذا كان داخل أفغانستان أم خارجها.


قال لى: مؤتمر بون مجرد خدعة .. !

* * *

- قلت له: ما هو موقفكم من مؤتمر بون الذى سينعقد الثلاثاء القادم.. وهل ستعترفون بما يصدر عنه من قرارات؟

● قال: هذا المؤتمر مجرد «خدعة» من جانب برهان الدين ربانى، يهدف من ورائها استغلال الوقت لاعطاء الفرصة لنفسه ولجنوده للسيطرة على معظم أفغانستان والانفراد بالسلطة.. أما عن موقفنا من المؤتمر، فنحن نرى أنه ليس هناك أى فائدة، ولن نعترف بما يصدر عنه.

- قلت له: لكن هذا المؤتمر يعقد تحت مظلة الأمم المتحدة، ويكتسب صفة الشرعية الدولية..

● قال: أى مؤتمر يعقد لمناقشة القضية الأفغانية هو شأن أفغانى بحت، وليس شأن الأمم المتحدة ولا أية أطراف خارجية أخرى..

ومعظم الشعب الأفغانى لا يرحب بانعقاد هذا المؤتمر.. ولا يثق فى أية قرارات يصدرها.. وإذا انعدمت الثقة فلا فائدة مرجوة بعد ذلك..!

* * *

- قلت له: أريد أن أعرف القارئ بالجانب الشخصى فى حياتك.. كم عمرك.. وما عدد أولادك.. وما هى هوايتك المفضلة.. وما هى البلاد التى تتمنى زيارتها؟

● قال: عمرى ٣٤ عاما.. لدىّ خمسة أبناء ذكور وابنتان.. ومتزوج من اثنتين تعيشان معى فى نفس المنزل.. هوايتى المفضلة التى أمارسها وقت الفراغ هى قراءة الكتب الدينية والتفاسير والتاريخ الإسلامى.. وأحيانا أجد بعض الوقت لممارسة الرياضة كلعب الكرة الطائرة.. أما البلاد التى أتمنى من الله زيارتها، فهى السعودية لأداء فريضة الحج والعمرة، وزيارة مسجد سيدنا رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم.

- سألته: كيف التحقت بحركة طالبان؟

● قال: أنا واحد من مؤسسى الحركة الذين بدأوا الجهاد فى صفوفها منذ بداية

التسعينيات عندما كنا طلبة فى مدارس قندهار.

ـ وكيف تعرفت على الملا محمد عمر؟

● قال: كان رفيقا لنا فى الجهاد، واشترك معنا فى عمليات كثيرة قمنا بها ضد الاحتلال السوفيتى السابق.. فضلا عن أننا كنا نسكن معا فى منطقة واحدة بقندهار.. وكنت أعرفه ويعرفنى منذ سنوات الطفولة.

ـ قلت له: وكيف تم اختيارك أنت بالذات لتكون سفيرا لطالبان فى باكستان.. وهو منصب كان يشكل أهمية كبيرة بالنسبة لعلاقة طالبان بالعالم الخارجى؟

● قال: فى الحقيقة أنا لم أكن متحمسا لتولى هذا المنصب.. ولكن أمير المؤمنين الملا محمد عمر هو الذى اختارنى لهذا المنصب فأمر بذلك.. وكنت مطيعا لأمره.

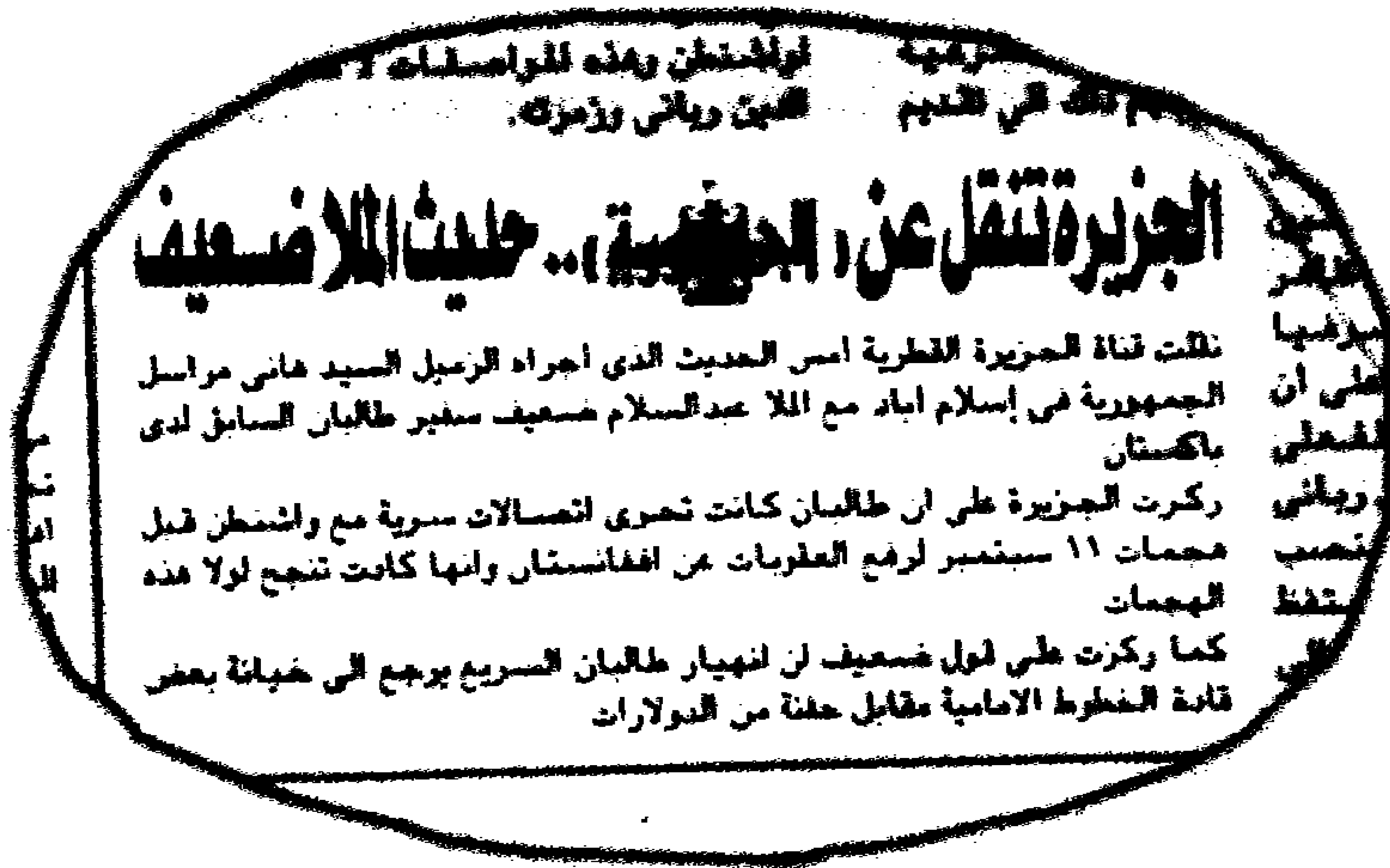


فى نهاية اللقاء مع عبدالسلام ضعيف

* * *

انتهى الحوار مع الملا عبدالسلام ضعيف.. فقمت أصافحه مودعا على وعد بلقاء آخر، فإذا به يقدم لى دفترا خاصا يحوى عناوين وأرقام تليفونات أهم الشخصيات التى يريد أن يظل على اتصال بها، وطلب منى أن أدون بها اسمى وعنوانى فى مصر وأرقام تليفوناتى، ففعلت.. ثم تصافحنا وتعانقنا.. ثم انصرفت.

يوم الأحد ٢٥ نوفمبر ٢٠٠١ نشرت جريدة «الجمهورية» حوارى مع الملا عبدالسلام ضعيف.. وفور صدور الجريدة نقلت الحوار عنها محطة تليفزيون «سى. إن. إن» الأمريكية، ومحطة تليفزيون الجزيرة، وأذاعته معظم وكالات الأنباء كما أعادت نشر فقرات منه بعض الصحف الأجنبية.



الجزيرة تنقل عن «الجمهورية».. حديث الملا ضعيف

نقلت قناة الجزيرة القطرية امس الحديث الذي اجراه الزميل السيد هاني مراسل الجمهورية في إسلام اباد مع الملا عبدالسلام ضعيف سفير طالبان السابق لدى باكستان

وركزت الجزيرة على ان طالبان كانت تجري اتصالات سرية مع واشنطن قبل هجمات ١١ سبتمبر لرفع العقوبات عن افغانستان وانها كانت تنجح لولا هذه الهجمات

كما ركزت على قول ضعيف ان انهيار طالبان السريع يرجع الى خيانة بعض قادة الخطوط الامامية مقابل حفنة من الدولارات

يوم الخميس ٣ يناير ٢٠٠٢ تم تسليم الملا عبدالسلام ضعيف إلى القوات الأمريكية..

الباكستانيون قالوا أنه لم يعد يتمتع بالحصانة الدبلوماسية، وأن القوات الأمريكية ألقت القبض عليه داخل الأراضي الأفغانية،

لكن الأمريكيين قالوا كلاماً آخر.. قالوا إن السلطات الباكستانية سلمته إلى القوات الأمريكية بصورة مباشرة على الحدود بين باكستان وأفغانستان[١١٥].

أما أقرباؤه، فقالوا إن أفراداً من المخابرات الباكستانية حضروا الى منزله، اقتادوه إلى جهة غير معلومة.. وأكدوا لهم أنه سيعود إلى المنزل في وقت لاحق بعد استجوابه [١١٦]!.

لكن الملا عبدالسلام ضعيف لم يعد بعد ذلك أبداً إلى منزله.. وإنما تم نقله إلى حاملة الطائرات الأمريكية «باتان» في بحر العرب، حيث تم استجوابه حول الأماكن المحتملة لاختباء أسامة بن لادن.. ثم نقل بعد ذلك الى معسكر «جوانتانامو» ليتلقى التعذيب على أيدي الأمريكيين مع المئات من إخوانه المقاتلين الذين وقعوا في أسر القوات الأمريكية..!

وذات مساء سمعت من دبلوماسي كبير على صلة بالشأن الأفغاني.. أن الملا عبدالسلام ضعيف تعرض لتعذيب وحشي.. حتى مات..!!

أقول: سمعت ذلك.. أما الحقيقة الكاملة، فمازالت في جوانتانامو..!

وهذه بعض البيانات التي كان الملا عبدالسلام ضعيف يلقيها في مؤتمراته الصحفية اليومية، كجزء من واجبه الدبلوماسي عندما كان سفيراً لطالبان في إسلام

EMBASSY OF THE ISLAMIC EMIRATE
OF AFGHANISTAN,
ISLAMABAD



د افغانستان اسلامي امارت لوي سفارت
اسلام آباد

No:...............................

Date:...............................

گڼه:...............................

نیټه:...............................

بسم الله الرحمن الرحيم

قال قال رسول الله (ص) من راي منكم منكراً فليغير بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه و ذلک اضعف الايمان صدق رسول (ص)

ايهالمستمعون الكرام ! ان ماجرى من الهجمات الطاحنة الفتاكة و اطلاق الصواريخ الكروز علي الشعب المسلم الافغاني و علي الارض المسلمة الافغانية من قبل الولايات المتحدة الامريكيه الطاغوتية التي تراس الامانة العامة للارهاب في العالم بالتحالف مع شقيقتها البريطانيا المنكوبة في ارض المذكورة في سنينها الماضية.

ليس لهم وراء هذه الهجمات اي هدف الا محو الاسلام و ازالته عن سطح الارض و لا سيما من الارض المسلمة الافغانيه و انهاء حكومة اسلامية الشرعية و الاتيان بحكومة غير اسلامية كبديلة عنها كي تسير وفق توجيههما على منوال حكومتهم و الطراز العلماني وكي تحي ثقافتهم الغربية العلمانية و تصبح رايجاً و سائداً في افغانستان.

هذه هي الحقيقة الواضحة ان الهجمات الامريكية القاتلة تستهدف الشعب الافغاني فاكثر من ستين في المائه من بين هولاء الضحايا النساء و الاطفال و الشيوخ مع ان افغانستان قد ذاقت مرارة حرب الاتحاد السوفيتي التي استغرقت اكثر من ٢١ عاماً اضافة الي ذلك انها ذاقت مرارة السنوات الثلاث الماضية الجدبة اليابسة ولكن اليوم اصبحت هدفاً للارهاب العالم و على راسهم امريكاو حواريها.

كذلک قد برز لجميع دول العالم اننا لم نرحب للحرب ابداً و لس في طاقتنا منع وقوعها.

لكننا اجبرنا الان على الدفاع و ازالة الكروب والكوارث المهلكة التي تواجه الشعب الافغاني المسلم الفقير.

ثم ان امارة الطالبان الاسلامية قد المضت للعالم باسلوبها الفطنة المعقولة بان حل اية مشكلة لا تتم الا با التفاهم و الحوار و ليس للامارة اي هدف من وراء هذه المجهودات الا صيانة الاسلام عن جعله عرضة للهتک.

House No: 8, Street No. 90, G-6/3. Islamabad. Tel : 051-2824505-6 Fax : 051-2824504

EMBASSY OF THE ISLAMIC EMIRATE
OF AFGHANISTAN,
ISLAMABAD



د افغانستان اسلامي امارت لوي سفارت
اسلام آباد

No:..................................   گڼه:..................................

Date:................................   نيټه:..................................

و نحن قد اوضحنا من قبل الصراحة ان الولايات المتحدة الامريكيه لو قدمت لنا شواهد و دلائل ساطعة على ضلوع بن لادن في التفجيرات لكنا مستعدين بتقديمه الي المحكمة و صرحنا كذلک ان امريكا بامكانها ان تقدم هذه الشواهد الي المحكمة العليا في افغانستان حتى تناقش و يصدر القرار.

و من جانب اخر ان المحكمة الافغانية لو ما كانت مقبولة لدى امريكا فنشكل محكمة خاصة مكونة من العلماء السعوديين و الافغانيين و دولة اخرى مسلمة عند ذلک نحن نسلم اسامه بن لادن الي هذه المحكمة المشكلة بشرط ان يكون التحليل في اطار المؤتمر العالم الاسلامي هذه كله لاجل انه رجل مسلم و يسكن في دولة اسلاميه و بالتالي لا بد من محاكمته في محكمة اسلاميه ثم ان رئيس الامريكي جورج بش قد صرح في احدى كلماته ان الاسلام دين امن و عدالة فلماذا لا ينقاد نفسه الي هذا العدل بالتالي يتضح من كلامه انه كاذب فيما يقوله للعالم الاسلامي و انه يريد ان يمكر و يخدع الامة الاسلامية بثرثرته العشوائية و ان يزعزع في دينهم الحنيف ثم انه صرح كذلک ان ارهاب اسامة بن لادن غير محدود في افغانستان فقط بل ان له شبكات اخرى في دول العالم، فمن ثم سنخوض في شن الحرب ضد هذه الدول كذلک و ماهي الا دول الاسلامية وفق قولته التي قالها في احدى كلماته.

ان الارهاب لا ينحصر في اسامة بن لادن بل إن هناك عدد من الارهابيين الاسلاميين ولنا مطلوبا لكلهم ليس بن لادن فقط

ثم ان الجهاد قد ثبت فرضيته باالادلة القطعية من مصادرها الاصليه الكتاب و السنة.

لكن اليوم بمجرد ذكر هذه الفريضه العظيمة يصبح الانسان ارهابيا كبيرا في نظر هولاء.

والله نحن لا نعرف ما الذي جعل العالم الاسلامي ساكتاً امام هذه الاضطهادات المتواترة على المسلمين من قبل اعداءهم هل هم نسوا فريضة الجهاد و اهمية هذا الشعار السامي؟ ام هناک شيئ اخر!!

وفي الاخير نقول اذ كان هناک اي فتور و خلل في اسلامنا الذي طبقناه في الارض الافغانيه يمكن للمتشاجر ان يقدم لنا بماعنده حتي نقنعه. و الا لماذا يترک الشعب الافغاني المسلم وحيداً الي هولاء الوحوش حتي يكون فريسة لهم اليس من حق المسلم على المسلم نصرته؟

اليس المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضاً.

عجباً لامر المتغافل من هذا !!!

و شكراً

House No: 8, Street No. 90, G-6/3, Islamabad. Tel : 051-2824505-6 Fax : 051-2824504

آباد.. وكانت الولايات المتحدة تقصف بلاده كل يوم بالقنابل والصواريخ، فتقتل وتدمر.

● بيان ٩ أكتوبر ٢٠٠١ (١٠٦):

مرة أخرى يواجه الشعب الأفغانى قوة عظمى. ويتعرض نظامه الإسلامى للغزو. الأفغان يعاقبون بسبب معتقداتهم.

لقد ضحى الشعب الأفغانى المجاهد خلال العقدين الماضيين بمليونى شهيد من أفضل أبنائه كى يقيم فى بلده نظاماً إسلامياً يحقق طموحاته.. لكن أمريكا لم تستطع أن تتحمل ذلك، تحاول أن تقضى على هذه الطموحات فى مهدها.. إن كلمة الإرهاب هى الأداة الفعالة التى تستخدمها أمريكا للوصول إلى أهدافها السياسية. وهذه الأداة هى التى تستخدم حاليا ضد أفغانستان.

لقد قاموا أولاً بتشويه الحقائق عن أفغانستان، وفرضوا عقوبات على بلدنا، وعزلوا الحكومة الإسلامية الصغيرة. لكن الشعب الأفغانى لم يصب بالانهيار.

الآن لجأت أمريكا إلى الوسائل العسكرية لتغيير الحكومة الإسلامية فى أفغانستان. إن ذلك ليس كملاحقة من تسميهم بالإرهابيين، لكنه يدل بوضوح على أن أمريكا تعاقب الشعب الأفغانى لأنه اختار النظام الإسلامى.

البترول جزء من هذه اللعبة الشيطانية. أمريكا تريد السيطرة على الموارد الطبيعية الهائلة فى منطقة وسط آسيا.

بإقامة حكومة بديلة فى أفغانستان ستتمكن أمريكا من السيطرة على الأوضاع السياسية والموارد الطبيعية فى المنطقة.

فى هذه اللعبة الفريدة تسعى واشنطن أولاً لاصطياد الحكومة الإسلامية القائمة فى أفغانستان وكل جماعة إسلامية، ذلك بدعوى القضاء على الإرهاب.

عشرات من الناس استشهدوا نتيجة لغارات أمريكا على كابول، وقندهار، وجلال آباد، وهيرات، ومزار الشريف، وقندوز فى أفغانستان. بيوت المدنيين دمرت. هذا يكشف التناقض بين ما تقوله إدارة البيت الأبيض وما تفعله.

طبقا للتقارير الأخيرة لقد قصف مكتب إيه. تى. سى فى كابول واستشهد به ٤ أشخاص. هذا المكتب يعمل لإزالة الألغام فى أفغانستان.

كما قلنا تكراراً فى الماضى، نحن ندين الإرهاب فى كل مكان فى العالم، وحاليا أمريكا هى التى تمارس الإرهاب ضد أفغانستان.

لقد طلبنا من الأمريكيين أن يقدموا لنا أدلة قوية بدلاً من الادعاءات. لكنهم أرسلوا إلينا المقاتلات والقنابل وصواريخ كروز بدلاً من الأدلة ليهاجموا بلدنا ويزيلوا النظام الإسلامى منها. هذا إرهاب صريح.

American Terrorist Attacks on Afghanistan
09.10.2001

Once again the people of Afghanistan are confronting a Super power. An Islamic system is under invasion. Afghans are punished for what they believe in.
During the last two decades, the Mujahid nation of Afghanistan gave away two million of its best sons to establish an Islamic system in this country based on their aspirations. But America can't tolerate this, trying to nip it in the bud. The word of Terrorism is the effective device used by America to achieve politically motivated goals. The same device is being now used against Afghanistan.
First they distortedly portrayed the realities in Afghanistan and imposed sanctions on our country, isolating the young Islamic government. But the Afghan people did not cave in. Now America has resorted to militarism to change the Islamic government in Afghanistan. This is not like prosecuting so-called terrorist but clearly signifies America is punishing the Afghan people for having chosen an Islamic system.
Oil is also part of this devilish game. America is coveting huge natural resources of Central Asia.
Establishing a surrogate government in Afghanistan, America will control political set-ups and natural resources of the region. In this free style game, Washington is going firstly to hunt the sitting Islamic government in Afghanistan and every committed Muslim under the name of terrorism.

Tens of people have been martyred as a result of American air raids on Kabul, Kandahar, Jalalabad, Herat, Mazar-I-Sharif and Kunduz in Afghanistan; houses of civilians have also been destroyed. This reveals practical contradictions between words and deeds of White House Administration.
According to fresh reports, A.T.C. Office in Kabul has been hit by American Strikes. 4 people have been reported martyred. ATC is working for demining in Afghanistan.

As we said repeatedly in the past, we condemn terrorism every where in the world and the current state terrorism launched by America against Afghanistan. We asked Americans to produce solid proofs instead of allegations. But America is sending warplanes, bombs and cruise missiles in place of evidence to attack our country and to replace the Islamic system. This is open terrorism.

In this unipolar world Washington can't tolerate our independent nature. However, we are determined to offer two million more martyrs in the way of Islam, independence and sovereignty if need be.

فى هذا العالم أحادى القطب. واشنطن لا تستطيع أن تتحمل طبيعتنا المستقلة.
لكن مهما كان فنحن مستعدون لتقديم مليونى شهيد آخرين فى سبيل الإسلام والاستقلال والسيادة إذا كان ذلك ضرورياً.

● بيان ١٠ أكتوبر ٢٠٠١:

الهجمات الأمريكية الإرهابية مازالت مستمرة على أفغانستان. إدارة البيت الأبيض تحولت الى بلطجى عالمى.

بعد تفكك الاتحاد السوفيتي السابق، تنوى القوة العظمى الوحيدة فى العالم أن تفرض الحكومات التى تريدها على الدول ذات السيادة.

أفغانستان هى الضحية الأولى. متهمة بإيواء ما يسمى بالإرهاب. أمريكا تريد إزالة الحكومة الحالية فى أفغانستان، وتنصيب الملك السابق ظاهر شاه على رأس السلطة.

واشنطن تقوم بهجمات وحشية على مواقعنا المدنية والعسكرية لتحقيق هذا الهدف. وهذا أشعل غضب، ليس فقط المسلمين فى أفغانستان، بل كل المسلمين فى العالم، والمحبين للعدالة، والحرية فى كل مكان. لقد التفوا حول الإمارة الإسلامية فى أفغانستان يؤيدونها.

أمريكا تكرر نفس الخطأ الذى ارتكبه الاتحاد السوفيتى السابق. تظن أنها سوف تفوز بحب الأفغان بإلقاء الأطعمة لهم من الجو. ومع ذلك فالأفغان يعلمون ان هذا ليس كرماً ولكنه سياسة رياء ونفاق. عامة الشعب فى لوجار وخوست وأماكن أخرى فى أفغانستان أشعلوا النار فى الأطعمة التى قذفتها الطائرات الأمريكية. أمريكا لا تستطيع أن تشترى الأفغان بالطعام أو المال. فهذه تجربة فاشلة حاولها من قبل الاتحاد السوفيتى السابق.

تقارير الخسائر المدنية تنهمر. لكن عدد الناس الذين قتلوا غير معروف. وكلما ازدادت خسائر المدنيين ازداد غضب وكراهية الناس لهذا الهجوم الظالم.

نحن نقدر مشاعر المسلمين والمساندة التى أظهرها كل مسلمى العالم لإمارة أفغانستان الإسلامية. إنهم يعرفون أن أمريكا أطلقت العنان لوحشية وظلم غير مسبوقين ضد بلدنا.. معتمدة علي قوتها العسكرية والتكنولوجية ونفوذها السياسى. أمريكا تظن أنها سوف تنتصر فى هذه الحرب. ولكنها تجهل حقيقة أن الحرب لا يمكن الانتصار فيها بالأشياء المادية فقط.. وتاريخنا يشهد بقوتنا وإرادتنا الصلبة.

American Terrorist Attacks
on Afghanistan Continues

10.10.2001

American terrorist attacks are continuing against Afghanistan. The White House Administration has turned into a global bully.
After the disintegration of the former Soviet Union, the sole Super Power of the world is intending to impose governments on sovereign states. Afghanistan is the first victim. Leveling the indictment of harboring so-called terrorism, America wants to replace the sitting government in Afghanistan and install former King Zaher Shah on the saddle of power. Washington is carrying out brutal attacks on our military and civilian sites to achieve this end. It has sparked off the fury of not only the Muslim people of Afghanistan but of all Islamic world and other justice and freedom-loving people of the globe. They are ranking around the Islamic Emirate of Afghanistan.

America is repeating the same mistake committed by former Soviet Union. It thinks it will win over the freedom –loving Afghans by dropping foods from the air. However, the Afghans know it is not generosity but hypocratic diplomacy. Common people in Logar and Khoust provinces and other parts of Afghanistan set on fire foods dropped by American aeroplanes. America would not be able to purchase the Afghans by money or food. It is a failed experience tested by former Soviet Union.

Reports of civilian causalities are pouring in. But the number of people killed is not known. As the causalities of the civilian increase, so does the fury and hatred of the people against this unjustified invasion.

We appreciate the Islamic feelings and support shown by all Muslims of the world with the Islamic Emirate of Afghanistan. They know America has unleashed unprecedented oppression and atrocity against our country. Relying on its military might, technology and political influence, America thinks it will win the war. But it is ignorant of the fact that war is not won merely by material things. Our past history speaks for our strong will and determination.

- **بيان ١١ أكتوبر ٢٠٠١:**

تدعى أمريكا من ناحية أنها حامية حقوق الإنسان، ومن الناحية الأخرى تضرب الشعب الأفغانى بأحدث الأسلحة لقد استشهد ٧٠ أفغانيا.

الشعب الأفغانى الذى عانى بشدة ٢٠ عاماً من الحرب، والجفاف، والعقوبات، والفقر هو الآن يواجه الغارات الجوية الأمريكية. أليس هذا جبن وإرهاب من جانب القوة العظمى؟

أفغانستان هى أرض المعارك والصراع والحسم لقوى العالم.

اللعبة الحالية هى من أجل البترول والموارد الطبيعية فى وسط آسيا أكثر من كونها للقبض على أسامة بن لادن. وللوصول إلى هذا الهدف تريد أمريكا أن تأتى بحكومة موالية لها فى كابول محل حكومة إمارة أفغانستان الإسلامية. لذلك فهى تريد أن تنتزع من الشعب الأفغانى المسلم المجاهد حكومته التى تقوم على أساس ما يؤمن به. العنف يشن ضد سيادتنا واستقلالنا، والديكتاتورية العالمية أطلقت أمريكا لها العنان تحت غطاء حماية الديمقراطية. بينما أمريكا تسعى فقط لأهدافها السياسية.

الحقيقة هى أن الإمارة الإسلامية فى أفغانستان قدمت خدمات هامة لكل من الشعب الأفغانى والمجتمع الدولى.

فى أفغانستان لم يكن هناك أمن على حياة الناس وشرفهم وممتلكاتهم. لقد وفرنا لهم الأمن والحماية.

كان العالم يعانى من المخدرات.. لقد قضينا على زراعة الخشخاش تماما فى أفغانستان. فعلنا ذلك دون أن نطلب تعويضاً من أى أحد. لكن يبدو أن هذه الأعمال العظيمة لا تلقى قبولاً من جانب الهيمنة الأمريكية.

أمريكا الآن مصممة على إعادة نفس القوات التى دمرت مدينة كابول من قبل وقتلت أكثر من ٦٠ ألف مواطن بها ـ يقصد قوات التحالف الشمالى ـ ذلك لأن أمريكا مازالت متعطشة لإراقة مزيد من الدماء فى كابول.

فى الأيام السابقة من الغارات الجوية الأمريكية استشهد أكثر من ٧٠ مدنياً فى مناطق مختلفة من البلاد. عدد الضحايا يزداد بمرور الوقت. هذه هى هدية أمريكا لشعب أفغانستان الأعزل. فى نفس الوقت الذى يكذب فيه البنتاجون ويقول إنه لا يستهدف المدنيين.

نحن نقول لإدارة البيت الأبيض إن وحشيتكم، وأسلحتكم، ورياءكم لن يضعف معنويات الأفغان.

كل القوى العظمى كان لها تجارب معنا وتعرف عزيمتنا القوية وحبنا للتضحية فى سبيل العقيدة والاستقلال.. وهذا هو الوقت الذى تخوضون فيه التجربة.

إن كل القوة بيد الله. ونحن متأكدون أن الله معنا.

American Terrorist Attacks on Afghanistan Continues

11.10.2001

American on one-side claims to be protector of human rights but on the other side, strikes the Afghan people with most sophisticated weapons 70 people have already been martyred.
The people of Afghanistan, who have been severely affected by twenty years' war, drought, sanction, and poverty, are now facing American air raids. Is this not cowardice and terrorism on the part of a Super Power?
Ironically Afghanistan has been battleground of rivalries and showdown of world powers. The present game is more about oil and natural resources of Central Asia rather than Osama. To achieve this, America wants · to replace the Islamic Emirate of Afghanistan with a pro-American government in Kabul. Therefore, America wants to snatch from the Mujahid and Muslim people of Afghanistan to have a government based on what they believe in. Aggression has been launched against our sovereignty and independence and global dictatorship is being unleashed by America under the cover of defending democracy. It is only following its politically-motivated goals.
The fact is that the Islamic Emirate of Afghanistan rendered eminent services both to people of Afghanistan and the international community.
In Afghanistan there was no security. People's honor, property and life was not safe. We gave them security and protected their lives and honor. The world was suffering from illicit drugs. We rooted out poppy cultivation in Afghanistan completely. We did this without asking any one for remuneration. But these great work seem to be not acceptable to American hugeomonism.

America is now bent on bringing to Kabul the same forces, which destroyed the Kabul City and killed more than sixty thousand Kabul citizens. By doing so America is still thirsty for more bloodshed in Kabul City.

In the past days of American air raids more than 70 civilians have been martyred in different parts of the country. The number is increasing with the passage of time. This is the gift of America to the defenseless people of Afghanistan. It is in a time that Pentagon is lying that it is not targeting civilians.
We tell White House Administration your atrocities; your weapons and hypocracy will not weaken the morale of the Afghans.
All the Super Powers have tested our strong determination and the sentiments for sacrifice, independence and faith. This time you'll test.
All power is in the hand of Allah. We are sure He is with us.

***

● بيان ٢٣ أكتوبر ٢٠٠١:

إدارة بوش تدين شفهياً الإرهاب لكن عملياً ترتكب الإرهاب فى أفغانستان. فى كل يوم يسقط المدنيون ضحايا للغارات الجوية الأمريكية.

اليوم قصفت الطائرات الأمريكية والبريطانية منطقتى «ساربوزا» و «دامان» فى إقليم قندهار فاستشهد ٤ أشخاص وأصيب ١٥ شخصاً ودمر منزلان بالكامل.

فى نفس إقليم قندهار بمنطقة «كالاشاه بير»، استشهد ١٥ شخصا وأصيب ٢٥ ودمر أحد المساجد فى إحدى الغارات الأمريكية. أثناء هذه الغارة الوحشية تم إلقاء ١٠ قنابل على المنطقة، منها ٣ قنابل لم تنفجر.

فى سامنجان ومزار الشريف جمع عامة الناس الكتيبات وعلب الطعام التى أسقطتها الطائرات الأمريكية وأشعلوا فيها النار فوراً.

الشعب الأفغانى المسلم المجاهد يعرف أن إلقاء الأمريكيين الأطعمة له من الطائرات هو رياء وليس كرماً. سفك الدماء، وإلقاء الطعام لا يسيران معا.

هناك تقارير من هيئة الصحة العامة فى قندهار تقول إن أعراضاً كيميائية قد ظهرت على أجسام المصابين فى الغارات الجوية الأمريكية.

صحفى يابانى دخل أفغانستان بطريقة غير مشروعة فتم اعتقاله فى مقاطعة كونار، وهو الآن فى مدينة جلال آباد والتحقيق جار معه.

أصبح من الواضح الآن أن اللعبة الكبيرة حول أفغانستان تتكشف يوماً بعد يوم. مثلث روسيا والهند والمعارضة الأفغانية قد تشكل ليعطى لها بعداً جديداً.

نحن نؤمن بأن الشعب الأفغانى المسلم ضحية للصراعات السياسية والاقتصادية للقوى التوسعية. ومع ذلك، ووسط هذه الدوامة التآمرية للقوى الشيطانية فالمسلمون الأفغان مصممون على الدفاع عن استقلالهم وسيادتهم وإيمانهم وطموحاتهم كما فعل آباؤهم فى الماضى.

American Terrorist Attacks on Afghanistan are Continuing 23.10.2001

Bush Administration verbally condemns terrorism but practically commits terrorism in Afghanistan. Every day civilians fall victims to American air raids.

Today, Sarpoza and Daman districts of Kandahar province were hit by American and British planes attacks. Four people are reported to have been martyred and 15 injured. Two house were completely destroyed. Similarly in Kandahar province, in Kala Shah Pir area, 15 people have been martyred and 25 people wounded by American air raids. A mosque has been martyred in the same attack. During the brutal raid, 10 bombs were dropped, 3 of them did not explode.

In Samangan and Mazar-i- Sharif, common people collected pamphlets and food items dropped by American planes and set on fire immediately. The Afghan Mujahid and Muslim people believe that American dropping of food items from the air is based on hypocrite diplomacy, rather than generosity. Bloodshed and food stuff can't go together.

Other reports from the Department of Public Health in Kandahar say that symptoms of chemicals have been noticed on the bodies of those injured in American air raids.

A Japanese journalist who had entered Afghanistan illegally, has been arrested in Kunar province. He is now in Jalalabad and the investigation is underway.

It is now clear that the big game around for Afghanistan is unraveling day by day. A triangle of Russia, India and the IEA opposition is being formed to give it a new dimension.

We believe the Afghan Muslim nation is victim of these political and economic revalries between expansionist powers. However, in this conspiratorial vortex by devilish powers, the Afghan Muslim people are determined to defend their independence, sovereignty, faith and aspirations as their ancestors did in the past.

● بيان ٢٩ أكتوبر ٢٠٠١:

إدارة بوش تقول إن الحرب الأمريكية على أفغانستان دخلت مرحلة جديدة. حيث لم تحقق المرحلة الأولى منها الأهداف التى تمناها البنتاجون باستثناء المذابح التى ارتكبت بحق المدنيين الأفغان فى المدن الرئيسية فى كابول وقندهار ومزار الشريف وهيرات. الانجاز الوحيد البارز الذى حققته الغارات الجوية المكثفة هو إثارة موجة من المشاعر المناهضة للتحالف الأمريكى فى العالم.

المرحلة الجديدة من الهجمات الأمريكية على أفغانستان تضمنت تسلل عناصر عميلة لأمريكا لكننا استطعنا صدهم وتصفيتهم. عملية القبض على عبدالحق، وإعدامه تمت بواسطة قوات الأمن التابعة للإمارة الإسلامية بأفغانستان. الخطط الأمريكية الشريرة ضد أفغانستان مازالت مستمرة.

طبقا للمعلومات الموثوق بها. تريد أمريكا تقسيم أفغانستان، بإنشاء نظام دمية متحركة فى الشمال وفصله عن الجنوب.

نحن نعرف منذ البداية أن الحرب الأمريكية ليست ضد ما يسمى بالإرهاب، ولكن لتنفيذ خطط كريهة أعدتها أمريكا لبلادنا. هذا هو ما يتكشف بمرور الأيام. ومع ذلك نحن متأكدون أن هذه الخطط ستواجه الفشل التام فى هذه الأرض، أرض الشهداء والأبطال كما فشلت من قبل الخطط الأخرى.

هذه الأحداث تكشف مرة أخرى النوايا السيئة، والمؤامرات الأمريكية ضد الإمارة الإسلامية. لقد حذرنا أمريكا دائماً من أن الأفغان فقراء، لكن لديهم العزيمة القوية والإرادة الصلبة لمواجهة أى عدوان على بلادهم أو عقيدتهم. عزيمة الأفغان لا يمكن كسرها بأى قوة مغرورة. تاريخنا يتحدث عن ذلك لكن الأمريكيين يتجاهلون ما حدث للامبراطورية البريطانية السابقة والاتحاد السوفيتى السابق.

طبقا لتقارير من أفغانستان كانت هناك اليوم غارات أمريكية على كابول، وقندهار، ومنطقة غار الخواجة بمقاطعة تاخار. كما هاجمت الطائرات الأمريكية قواتنا شمال كابول. كالعادة استهدفت الطائرات الأمريكية منازل المدنيين فى كابول وقندهار ومقاطعة تاخار. وحتى الآن لم تصلنا تقارير عن حجم الخسائر المدنية.

ومع ذلك فالبنتاجون والبيت الأبيض يعترفان أن هناك قنابل ضلت أهدافها فى الحقيقة. هم يستهدفون قتل المدنيين. إنه لأمر مخجل لجيش على مستوى تدريب عال كالجيش الأمريكى الذى لديه نظم وآليات متقدمة ومعقدة أن يرتكب كل هذه الأخطاء، فيضل أهدافه ويقصف المواقع المدنية كل يوم.

هل الولايات المتحدة التى تدعى حماية الحقوق المدنية والحريات وحقوق الإنسان حققت مع أى من هؤلاء المجرمين الذين استهدفوا مرات كثيرة ومتكررة قصف المواقع المدنية، وهو ما يتعارض مع كل الأعراف والاتفاقيات الدولية؟

American Terrorist Attacks On Afghanistan are Continuing 29.10.2001

The Bush Administration says American war on Afghanistan has entered a new phase. In the first phase there is no significant achievement as the Pentagon wished to achieve, except the genocide of Afghan civilians in the main cities of Kabul, Kandar, Mazar-e-Sharif and Herat. The only significant achievement this intensified air raid brought for the Americans is a wave of anti-American campaign throughout the world.

The new phase of American attacks on Afghanistan included the in-filteration of their agents the arrest and execution of Abdul Haq by the security forces of the Islamic Emirate of Afghanistan.

In addition American wicked designs against Afghanistan are continuing. According to the authentic information, America wants to disintegrate Afghanistan. They want to install a puppet regime in the North of the country and separate it from the Southern part of Afghanistan.

We believed from the beginning America is not fighting so-called terrorism but has wicked designs in our country. These are being revealed with the passage of each day. However, we are sure these designs will face fiasco in this land of martyrs and heroes as other designs have faced failure.

These incidents once again reveal the evil intentions and plots of the Americans against the Islamic Emirate. We have always warned the Americans that Afghans are empty handed but full of determination and faith to defend their homeland and religion. The will of the Afghans could not be broken by any arrogant power. Our history of the past speaks for this but Americans ignore the past experiences of the British Empire and the Soviet Union.

According to reports from Afghanistan there were American air raids in Kabul, Kandahar and Khwaja Ghar area of Takhar province today. Similarly American planes attacked I.E. forces north of Kabul. As usual American planes targeted civilian houses in Kabul, Kandahar and Takhar province. No report of civilian casualties have been received up to this time.

However, quite shamefully Pentagon and the White House admit that there are astray bombs. In fact they are actually targeting to kill civilians. For highly trained army like Americans with such sophisticated systems and mechanisms it is a shame to make so many mistakes and go astray on civilian sites everyday.

Did the US, the claimants of civil rights and liberties and that of human rights bring any of the criminals whom repeatedly and many times aimed at civilian sites, contrary to all accepted international conventions?

Therefore, it seems that the Bush Administration is repeating their tyranny and atrocities of Japan, Korea, and Vietnam in Afghanistan. America has destroyed so many countries of the world for achieving its own interests but we assure that this time their dream will not be realized. Because US is faced with the strong determination of an Islamic faithful nation having strong reliance on Allah and with the Moslem Ummah behind them.

هكذا يتضح أن إدارة بوش تكرر فى أفغانستان الفظائع اللاإنسانية والوحشية التى سبق أن ارتكبتها فى اليابان وكوريا وفيتنام. أمريكا دمرت بلادا كثيرة فى العالم من أجل تحقيق مصالحها الخاصة لكننا نؤكد أن حلمهم هذه المرة لن يتحقق، لأن الولايات المتحدة تواجه بعزيمة قوية لشعب إسلامى مؤمن متوكل توكلا شديدا على الله، وعلى الأمة الاسلامية من خلفه.

تقارير أخرى من داخل البلد تتحدث عن وجود نقص فى الغذاء والدواء مما أدى إلى وفاة الكثيرين. نحن ندعو جميع المنظمات غير الحكومية أن تسارع بإرسال مساعداتها إلى الشعب الأفغانى الذى يعانى، وذلك قبل أن يحل فصل الشتاء. إنهم يستطيعون أن يبدأوا أعمال الاغاثة بمساعدة الموظفين المحليين.

أمريكا تشيع أن الامارة الإسلامية بأفغانستان قد تجند لخطوط المواجهة الأمامية أفرادا من معسكرات اللاجئين إذا أقيمت هذه المعسكرات داخل أفغانستان. هذا غير صحيح تماما. عدد المجاهدين الذى يطلبون الذهاب إلى خطوط المواجهة يزيد على الحاجة. نحن نستقبل كل يوم متطوعين من الشعب الأفغانى، ونحن مضطرون إلى عدم تلبية طلباتهم، لأن المعارك البرية لم تبدأ بعد. لذلك فالإدعاء الأمريكى ليس له أساس من الصحة.



فى طريقهم إلى الحدود الباكستانية

Other reports from inside the country speak of the shortage of food and medicine which have caused the loss of precious lives. We call on all NGO's to immediately send their relief to the suffering Afghan people before the beginning of the winter. They can start their relief work distribution with the help of their local staff.

America is wrongly giving the impression that the Islamic Emirate of Afghanistan would recruite people for front line from the refugee camps if these camps were set up inside Afghanistan. It is totally untrue. The number of Mujahiddin needed for the front lines exceed the needs. We are receiving volunteer Mujahiddin from among the Afghan people every day. And we have to turn down their request because the ground battles have not started so far. So the American impression is a mere allegation not based on realities.



معاناة اللاجئين لاتنتهي

● بيان ٣١ أكتوبر ٢٠٠١:

المخططات الأمريكية الشريرة فى أفغانستان تتكشف يوما بعد يوم. طبقا لمصادر مقربة. البنتاجون يستهدف عمدا المناطق المدنية لتنفيذ مذابح جماعية، والهدف هو زيادة تدفق اللاجئين، ودفع الناس للانتفاض ضد الإمارة الإسلامية بأفغانستان. لقد سقط حتى الآن أكثر من ١٥٠٠ من الأفغان الأبرياء رجالا ونساء وأطفالا ضحايا المخططات الوحشية لإدارة بوش.

من الواضح الآن أن أمريكا ترتكب المذابح فى أفغانستان للوصول إلى أهدافها السياسية، بينما وزير الدفاع الأمريكى يلقى الغبار فى أعين شعوب العالم بقوله إن الأفغان قُتلُوا بواسطة الأسلحة المضادة للطائرات التى تملكها قوات «أى. إى. إيه» - يقصد قوات إمارة أفغانستان الإسلامية - وهذا الكلام غير منطقى، وكذبة كبيرة ليس لها أساس.

آلاف الأفغان شاهدوا القصف الأمريكى للمناطق السكنية. إنه شئ لا يمكن إخفاؤه.

القنابل الأمريكية التى انفجرت وصواريخ كروز مازالت آثارها موجودة فى المناطق المأهولة بالسكان، والقنابل التى لم تنفجر مازالت موجودة فى هذه المناطق، ويمكن رؤيتها. هذا يدحض الإدعاء الأمريكى بأن المناطق المدنية تم قصفها بواسطة قوات إمارة أفغانستان الإسلامية.

عليهم الآن أن يثبتوا للأمهات والآباء والأبناء والبنات من ضحايا هجمات ١١ سبتمبر المأساوية أن الـ ١٦٠٠ أفغانى الذين قتلوا حتى الآن فى الحرب «أو بعض منهم» كانوا هم المسئولين عن هذه الهجمات. أما بالنسبة لأمهاتنا وآبائنا وأبنائنا وبناتنا، فمن الثابت لهم وللعالم كله باعتراف الحكومة الأمريكية نفسها أن الأمريكيين هم المسئولون عن الهجوم على أفغانستان.

إن المتهم برئ حتى تثبت إدانته.

بالإضافة إلى ذلك فإن أمريكا وبريطانيا تعدان مؤامرة للاستيلاء على مزار الشريف وبعض المناطق الشمالية لفصلها عن أفغانستان، وتشكيل حكومة موالية لهم بها. وهذا يؤكد أن أمريكا لا تحارب ما تسميه بالإرهاب ولكنها تريد القضاء على هويتنا الإسلامية ووحدة أراضى أفغانستان. هذا هو أسوأ أنواع إرهاب الدولة الذى ترتكبه إدارة البيت الأبيض فى أفغانستان.

طبقا للتقارير الأخيرة فإن الطائرات الأمريكية والبريطانية قصفت اليوم مستشفى فى قندهار مما أدى إلى استشهاد عدد كبير من الناس. كما استشهد اليوم طفل فى مقاطعة هيرات بعد أن لمس قنبلة قذفتها الطائرات الأمريكية. بنفس الطريقة تستهدف الطائرات الأمريكية الجسور والكبارى ومحطات الكهرباء. لقد دمروا كبارى يستخدمها الناس فى قندهار كما دمروا كوبرى باريكاب شمال كابول.

American Terrorist Attacks On Afghanistan are continuing 31.10.2001

American evil designs in Afghanistan come to the open day by day. According to close sources, Pentagon intentionally targets civilian areas to carry out mass massacre. The aim is to create refugee influx and to coerce people to rise against the Islamic Emirate of Afghanistan. So far 1500 innocent Afghan men, women and children have fallen victims to this tactic of Bush Administration based on atrocities.

It is clear now that America is committing genocide in Afghanistan to obtain its political goals, while American Secretary of Defense is throwing dust into the eyes of the world public by saying that the Afghans were killed by IEA anti-aircraft weapons.

This is illogical, baseless and whopping lie. Thousands of Afghans are witnesses to the American bombardment of residential areas. It is not something, which could be hidden. Scrapes of American exploded bombs and cruise missiles are still lying in populated areas. Even in some cases unexploded American bombs can be seen at the civilian sites. This refutes American allegation that the civilian sites were hit by IEA forces.

It is yet to be proven to the mothers and fathers and the sons and daughters of the victims of the tragic September 11 attacks that the now dead 1,600 people of Afghanistan (or some among them) were the ones responsible for their lamentation. But, it is certified to our mothers and fathers and our sons and daughters, and to the entire world—by self-confession of American government—that they were themselves responsible for the attacks on Afghanistan. Whatever happened to the principle:"Innocent until proven guilty?"

In addition to this, America and Britain are making a conspiracy to capture Mazar-e-Sharif and other northern parts of Afghanistan and then disintegrate it from the rest of the country. They want to establish a puppet government in the North. This reveals that America is not fighting so-called terrorism but wants to wipe out our Islamic identity and our territorial integrity. This is a worst type of state terrorism that White House Administration is perpetrating in Afghanistan.

According to news reports American and British planes, today, attacked a clinic in Kandahar whereby numerous people were martyred. A child was martyred in Herat province today after touching a cluster bomb thrown by American planes. Similarly, American planes are targeting bridges and electricity stations. They destroyed bridges used by the public in Kandahar. Barikab Bridge in north of Kabul has also been destroyed.

Reports say Kandahar citizens are facing shortage of water and electricity after these facilities were hit by America. There were air strikes on Takhar, Samangon, Taghab and frontlines north of Kabul today.

التـقـارير تقـول إن سكان قندهـار يعـانون من نـقص فى الميـاه والكهـربـاء بعـد أن قصفت أمريكا هذه المرافق. كانت هنـاك أيضا غـارات جـوية على تـاخـار، وسـمانجـون، وتاغاب والخطوط الأمامية شمال كابول.

خير خانة فى كابول تعرضت اليوم لقصف شديد.

تقـارير أخـرى تقـول إن أمريكا استـهدفت عمدا مـخـازن اللجنة الدوليـة للصليب الأحمر فى كابول. لجنة الصليب الأحمر كانت توزع وجبات الطعام على المرضى فى المستشفيات. المرضى يعانون الآن من مشاكل صعبة بسبب نقص الطعام.

أمس، استشهد ٨ مدنيين فى أماكن متفرقة بأفغانستان.

قندوز، شارنا وسط مقاطعة باكتيا، قندهار، هيرات، قصفوا بالطائرات الأمريكية. فى قندهار قتل ٤ أشخـاص وأصيب عشرة آخرون، والأكثر من ذلك أن القنـابل ألقيت على منطقة دار صوف فى سمانجون ومقاطعة بلخ. الجبهة الأمامية فى شمال كابول قذفت أيضا بالقنابل، ٣ أشخـاص قـتلوا عندمـا سـحقت الطائرات الأمريكيـة مناطق مدنية فى كابول. فى قندوز استشهد شخص واحد فى الغارات الأمريكية على المدينة.

الأمريكيون يضعون قنابل انشطارية فى صناديق الطعام التى تسقطها طائراتهم. بعض الناس سقطوا ضحايا لهذه القنابل.

نحن نريـد أن نقـول لأمـريكا إن سيـاسـتـهـا الخـاطـئة، وهيـمنتـهـا قـد أدت إلى عدم الاستـقرار فى العـالـم. إدارة بوش تخلق كل يوم آلاف الأعداء لـهـا بسـبب وحشيـتـهـا، والمذابح التى ترتكبها فى أفغانستان لو أن أمريكا تظن أنها يمكن أن تستعبد الشعب الأفغانى بارتكاب المذابح ضد الأبرياء فهى على خطأ. الوحشية الأمريكية سوف توحد الشعب الأفغانى أكثر من أى وقت وسترى شعوب العالم وجه أمريكا الحقيقى وتتأكد من أن إدعاء الأمريكيين بأنهم حماة حقوق الإنسان هو إدعاء تافه، وليس له أساس.



طفلتان افغانيتان تنتظران تقديم المساعدة

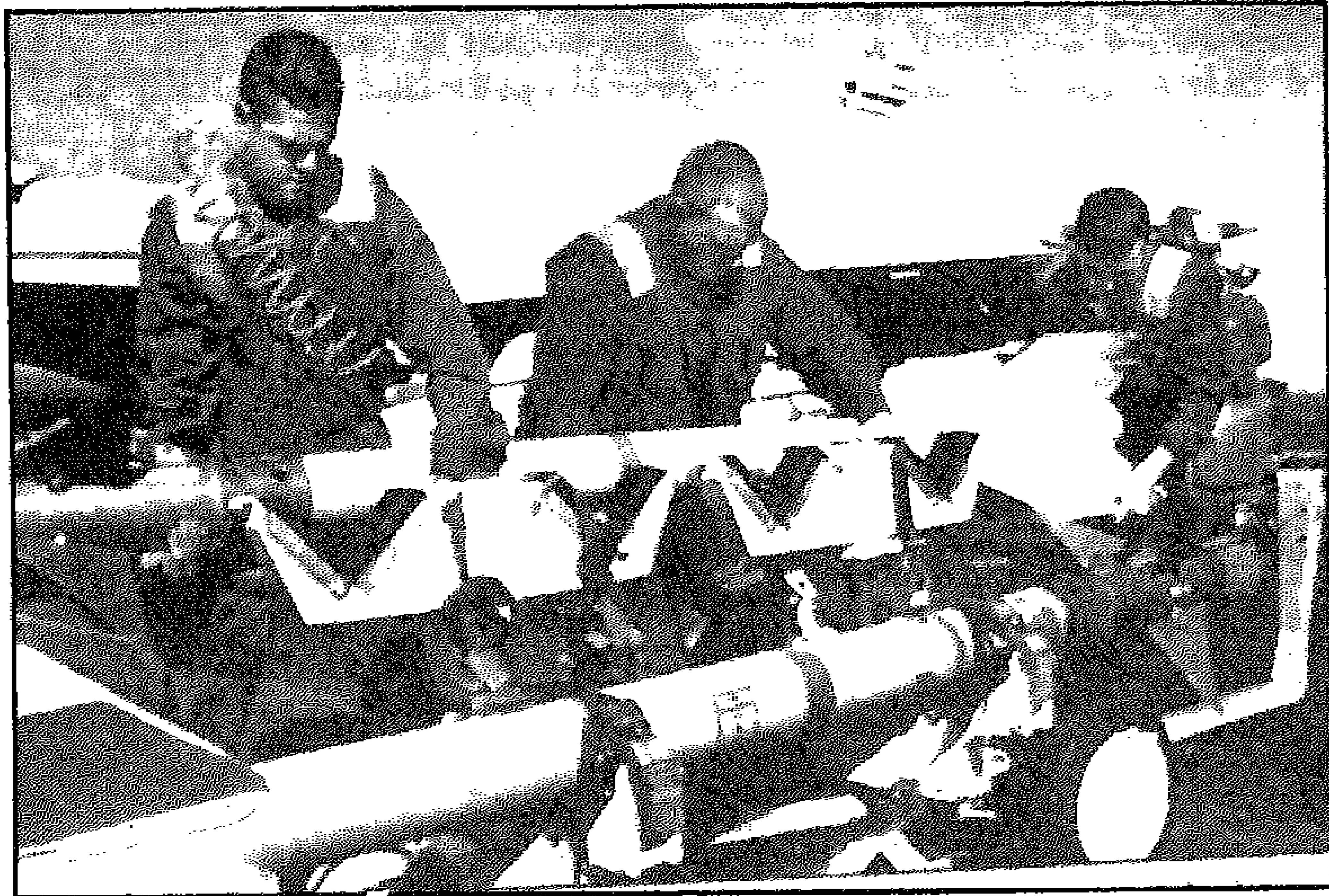
Khair Khana of the Kabul City was also bombed heavily.

Other reports are saying that America intentionally targeted ICRC food depots in Kabul. The ICRC was distributing food items to patients in hospitals. This has faced common patients in hospitals with serious problems of food shortages.

Yesterday, 8 civilians were martyred in different places in Afghanistan. Kunduz, Paktika provincial center Sharana, Kandahar and Herat were hit by American planes. In Kandahar 4 people were killed and 10 injured. More over, bombs were thrown on Dara Souf area of Samangon and Balkh province. Similarly, front line north of Kabul was also hit by bombs. However, 3 people were killed when American planes pounded civilian areas in Kabul. In Kunduz, one person is reported to have been martyred by American bombardments.

American are throwing cluster bombs on the people of Afghanistan made in the form of food boxes which American planes had been dropping from air earlier. Some people have already fallen victims to these bombs.

We would like to tell America, the world is being destabilized because of American hegemony and wrong policy. The Bush Administration is creating enemies in thousands every day because of its atrocities and genocide in Afghanistan. If America thinks it will subjugate the Afghan people by resorting to genocide of innocent people, they are wrong. The American atrocities will unify the Afghan nation more than ever and the people of the world will see the true face of America and their claim of being protectors of human rights is proving to be a futile and baseless claim.



اثناء اعداد
الصواريخ
لقصف
افغانستان

● بيان ١ نوفمبر ٢٠٠١:

الولايات المتحدة وحلفاؤها مستمرون فى هجومهم الوحشى على شعب أفغانستان البائس المضطهد. وقد دخلت الحرب أسبوعها الرابع. الغارات الجوية تستهدف الشعب الأفغانى البرئ الأعزل الذى يذوق مرارة طعم الحروب التى فرضت عليه من جانب القوى العظمى القمعية فى العالم التى جعلتنا نتحمل الأعباء، ونعانى لثلاث سنوات من استمرار الجفاف، والبؤس بسبب عقوبات الأمم المتحدة المستمرة والضربات الأمريكية الوحشية الحالية.

فى السابق كانت الإمارة الإسلامية - بأفغانستان - تعتبر مسئولة عن إنتاج الأفيون فى العالم ويوجه لها اللوم، وعندما فرضنا حظرا على زراعة الخشخاش تركونا وحدنا تماما ولم تقدم لنا أية مساعدات. جهودنا هذه كانت بلا فائدة. ولم تقابل بتقدير من الولايات المتحدة وحلفائها.

مع مرور الوقت تتكشف المؤامرة السرية للولايات المتحدة أكثر فأكثر. أصبح واضحا الآن أن الضربات ليست ضد ما يسمى بـ «الإرهاب» ولكن ضد الإسلام والنظام الإسلامى فى الحياة. إن ذلك ضد إرادة وطبيعة الشعب الأفغانى المسلم المجاهد، وكل الشعوب الإسلامية فى العالم. الولايات المتحدة تشهد بوضوح رد الفعل السلبى من عامة المسلمين فى العالم تجاه الهجمات التى تقع على الشعب الأفغانى المقهور بلا سبب. المسلمون فى جميع أنحاء العالم يرفعون الشعارات ضد أمريكا وضد هذه الهجمات، والرأى العام العالى يطالب الولايات المتحدة وحلفاءها بوقف هذه الهجمات الشرسة غير المبررة وغير العادلة.

لسوء الحظ، الولايات المتحدة لا تنصت لهذه المطالب، ولكنها تدعى بلا حياء أنها تستهدف المواقع والتجهيزات العسكرية فقط. إنه كذب وقح. لدحض هذا الإدعاء الأمريكى يكفى أن نذكر العالم بما حدث أمس فقط من قصف همجى قامت به طائرات الولايات المتحدة وحلفائها على باكتيا، وننانجارهار وقندهار وبالخ ومقاطعات أخرى فى أفغانستان مما أدى إلى استشهاد ٢١ من المدنيين الأبرياء، وجرح عدد كبير بينهم نساء وأطفال. لقد قامت القاذفات «بى - ٥٢» بقصف مستشفى تابع لهيئة الصليب الأحمر فى داند، وفى قندهار دمرت مستشفى والمنازل المحيطة به فقتلت مدنيين أبرياء من المرضى والأطباء.

فى هجمات أخرى على قريتى بالوش وبالينى فى سرخرد بنانجارهار دمر ١٢منزلا، وأصيبت منازل كثيرة أخرى. هذه الأحداث اللاإنسانية شهدها مجموعة من الصحفيين الأجانب فكتبوا تقارير عنها للعالم. بذلك يثبت عكس مايدعيه البنتاجون والبيت الأبيض، ويتأكد العالم من أن الغارات الجوية الأمريكية تستهدف الآن بشكل أساسى المواقع المدنية وليس العسكرية.

Embassy of the Islamic Emirate of Afghanistan

ISLAMABAD



دافغانستان اسلامي امارت لوي سفارت

اسلام آباد

No:.......................

Date:......................

گڼه:....................

نیټه:....................

The U.S. Terrorist Attacks On Afghanistan are Continuing 01.11.2001

The U.S. and its allies continue on their suppressive attacks on the oppressed and desperate people of Afghanistan. In fact it entered its fourth week. The air raids are targeted on the innocent and defenseless Afghan nation that is sensing the bitter taste of wars imposed on them by the oppressive Super Powers of the world and making us to carry the burdens and the suffering of the three years of continued drought and the miseries imposed by the UN sanctions under the present cruel U.S. strikes.

Once the Islamic Emirate was blamed for production of opium. But even with the complete ban on the cultivation of poppy, we were left all alone with no outside assistance and help. This effort of ours was to no avail and was not appreciated by the U.S. and its allies.

With the passage of time, more and more of the secret plots of the U.S. have become evident. It is now evident that the strikes are not against the so-called "Terrorism," but against Islam and against an Islamic system of life. This is against the will and nature of both the Afghan Muslim and Mujahid nation and all the Muslim nations of the world. The U.S. is clearly witnessing the negative reaction of the Muslim public around the world against their unaccounted attacks on the oppressed Afghan nation. All throughout the world there are anti-American slogans against these attacks by the Muslims. The world public opinion demands U.S. and its allies to stop these cruel and unjustified attacks.

Unfortunately, the U.S. is not listening to these demands but are shamefully claiming that they are targeting only military positions and installations. A blatant lie. To refute this U.S. claim it is sufficient to remind the world that only yesterday the savage attacks of the U.S. and its allies' planes on Paktika, Nangarhar, Kandahar, Bulkh and other provinces of Afghanistan, 21 innocent civilians were martyred and a large number was injured including women and children. Particularly the American B-52 bombers raided an ICRC hospital in Dand, Kandahar destroying the hospital and its surrounding houses and killing and injuring innocent civilians, patients, and staff.

In other attacks on Baloch and Balini villages of Surkh Rud, Nangarhar, 12 houses in these villages were destroyed and many more damaged. These unfavorable incidents are already reported by a group of foreign journalists who witnessed the scenes and reported them to the world. Therefore, it proves that

ذكرت بعض التقارير الإعلامية أن الولايات المتحدة وحلفاءها يأملون فى خلق فجوة بين من يسمون بالمعتدلين والمتشددين فى طالبان لإحداث انقسام داخل القيادة فى الإمارة الإسلامية بأفغانستان، وهذا الأمر مرفوض وليس له أساس. هذه الأفكار هى من إعداد واشنطن بالكامل. «قيادتنا موحدة» قالها الملا وكيل أحمد متوكل أمس فى مؤتمر صحفى بقندهار.

لو تحدثنا عن التحالف الشمالى فهناك انقسامات كثيرة بينهم. قياداتهم لاتجمعهم فكرة موحدة لذلك فهم غير قادرين على الاتحاد ولا على استعادة القانون والنظام. خلافاتهم وعدم تنظيمهم شهد عليها الجميع فى الماضى. جهودهم الحالية بلا فائدة لأن أغلبية الشعب الأفغانى ليست معهم.

هناك إدعاءات مزيفة تقول إن الرأى العام ضد الإمارة الإسلامية بأفغانستان. هذه التقارير ليس لها أساس وغير صحيحة ومرفوضة تماما من جانب الإمارة الإسلامية بأفغانستان.

نحن متحدون ووحدتنا لم تمس، ونحن بإرادتنا القوية مصرين على هزيمة عدونا مهما كان.

أخبار اليوم:

آخر الأخبار من مصادر أفغانية موثوق بها تقول إن الطائرات الأمريكية نفذت مابين ٧٠ إلى ٨٠ غارة جوية ليلة أمس شمال كابول تم خلالها قصف الخطوط الأمامية بالإضافة إلى ٣ هجمات على داراصوف وسامنجون. المعارضة - يقصد قوات التحالف الشمالى - شنت أيضا تحت غطاء جوى أمريكى ثلاث هجمات فاشلة تم التصدى لها وهزيمتهم. العدو ترك أجساد القتلى والمصابين خلفه، وانسحب. فى حادثة أخرى قصفت الطائرات الأمريكية محطة الكهرباء فى مدينة لاشكرجاه.

تلفت انتباه العالم: إلى أن طائرات الولايات المتحدة قصفت سد كاجاكى لتوليد لكهرباء وهو من أحسن السدود فى ٢١أفغانستان. يخزن ٢٧ مليون متر مكعب من الماء، وينتج ١٥٠ ألف كيلو وات طاقة كهربائية، ويروى ١٥٠ ألف هيكتار من الأراضى، تعيش عليها ٧٥ ألف أسرة من المزارعين. الآن تم تدمير أحد جوانب السد ولو أن المياه انهمرت من خلفه فإن حياة وممتلكات ٧٥ ألف أسرة ستصبح فى خطر بالغ.

من الواضح أن هذا السد هو منشأة للمنفعة العامة وليس منشأة عسكرية.
تدمير السد سيسبب خسارة محققة للبشرية.

contrary to the claims of Pentagon and the White House, the U.S. air raids are now targeted mainly on civilian sites and not on military ones.

The report in the media that the U.S. and its allies are hoping to create a gap between the so-called hard-line and moderate Taliban to divide the leadership of the Islamic Emirate of Afghanistan is baseless and rejecful. These ideas are a mere concoction of Washington. "Our leadership is united," stated Moulvi Wakil Ahmad Motawakil in a press conference yester.. y in Kandahar.

Speaking of the Northern Alliance, there are many fractions among them. The leaders are not of one common idea so they neither are able to unite, nor can they restore law and order. Their differences and disorders have been witnessed by all in the past. There present efforts will prove futile because the vast majority of Afghans are clearly not behind the. .

There have been isolated individually formulated claims that the public opinion is going against the Islamic Emirate of Afghanistan. These baseless and unconfirmed reports are completely rejec... by the Islamic Emirate of Afghanistan.

We are united and intact and as usual w.. trong will and determination to defeat our enemy, whoever they may be.

NEWS UPDA...

Based on the latest news from Afghan rel... le sources the American planes carried out between 70-80 air raids last ni... in the north of Kabul hitting the front lines. In addition there were three at... on Dara Souf, Samangon. The opposition also launched three abortive offen... s coupled with the assistance of American air raids which were all defeated. The enemy left the bodies of the killed and injured behind. In another inciden.. air raids on Lashkargah by the American planes electric supply installations ... hit in the city.

IMMEDIATE WORLD ATTENTIO... RED: The U.S. planes have raided the Kajaki electric dam. One of the . est dams in Afghanistan with a capacity of 27 million cubic meters. The ... produces 150,000 kw of electric power and irrigates 150,000 hectares of land ... h directly benefits 75,000 farm land families. One side of the dam has now .. damaged and if leakage starts then the life and property of all of the affecte.. ..00 families will be in extreme danger. This is clearly a public utility and aw... rom any military establishment. The destruction of this dam would cause an i... .ble damage to mankind.

***



حقول الخشخاش فى افغانستان
قبل ان تحرم طالبان زراعته

الفصل الرابع والثلاثون

• صعود قرضاى..

«هكذا كانت تسير مفاوضات
الفصائل الأفغانية فى بون ..
مرة بالعصا.. ومرة بالجزرة..!»

□ *يوم الثلاثاء ٢٧ نوفمبر ٢٠٠١ افتتح فى فندق «بطرسبرج» بإحدى ضواحى مدينة بون الألمانية مؤتمر يضم الفصائل الأفغانية لبحث المستقبل السياسى لأفغانستان.*

المؤتمر عقد تحت رعاية الأمم المتحدة، ومثَّلها فيه الأخضر الإبراهيمى، بينما مثَّل الفصائل الأفغانية (٤) وفود .. هى:

- وفد التحالف الشمالى (١١ مندوبا) يمثلون مختلف القوى والفصائل التى يتشكل منها التحالف، ويستمد قوته فى المفاوضات من كونه أصبح يسيطر على المدن الرئيسية فى أفغانستان بما فيها العاصمة كابول، ويدعمه الرئيس الأفغانى السابق برهان الدين ربانى.
- وفد روما (١١ مندوبا) يمثلون الملك الأفغانى السابق محمد ظاهر شاه، وتدعمه الولايات المتحدة.
- وفد قبرص (٥ مندوبين) يمثلون الهزارة الشيعة، وتدعمه إيران.
- وفد بيشاور (٥ مندوبين) يمثلون مجموعة مؤتمر بيشاور (الذى عقد ٢٤ و٢٥ أكتوبر ٢٠٠١ تحت شعار: من أجل مستقبل أفغانستان) وتدعمه باكستان.

كان من المقرر بدء المؤتمر يوم الاثنين ٢٦ نوفمبر ٢٠٠١، لكنه تأجل لليوم التالى بدعوى انتظار وصول بقية أعضاء الوفود، وإعطاء الفرصة لمن وصل منهم لإجراء المشاورات.. هذا ما أعلنه منظمو المؤتمر للصحفيين، أما السبب الحقيقى للتأجيل فكان رغبة أعضاء التحالف الشمالى فى الانتهاء من مشكلة قندوز، ودخول قواتهم المدينة قبل بدء أعمال المؤتمر لتعزيز موقفهم السياسى أثناء المفاوضات.

عملية المفاوضات كانت أشبه بعملية صراع بين عدة أشخاص لاقتسام «كعكة».. الكل يحاول أن يقتطع لنفسه الجزء الأكبر منها.. لذلك كانت المفاوضات صعبة وعسيرة، بل إنها أوشكت على الانهيار أكثر من مرة وكاد المؤتمر ينتهى بالفشل فى أكثر من مناسبة لولا تدخل الألمان والأمريكيين والروس وأطراف دولية عديدة للضغط على الوفود الأفغانية المتفاوضة من أجل إبداء المرونة والاستمرار فى المفاوضات.. حتى أنه ذات مرة تم إيقاظ وزير الخارجية الألمانى يوشكا فيشر من النوم، فى ساعة متأخرة من الليل -مساء الثلاثاء ٤ ديسمبر ٢٠٠١- عندما وصلت المفاوضات إلى

طريق مسدود بسبب اعتراض برهان الدين رباني على بعض الأسماء المرشحة للحكومة الجديدة.. فقام فيشر بالاتصال بربانى، وهدده بقطع جميع المساعدات الغربية عن تحالف الشمال إذا لم يتراجع عن موقفه.

هكذا كانت تسير مفاوضات الفصائل الأفغانية في بون.. مرة بالعصا.. ومرة بالجزرة..!

وقد استمر انعقاد المؤتمر ٩ أيام كاملة.. وهى ثلاثة أمثال المدة التى كانت متوقعة له.. ومن بين الأسباب التى أدت إلى ذلك هو غياب الزعماء الكبار عنه، وإدارتهم عملية التفاوض من الخارج عبر الهاتف.. فلم يحضر المؤتمر الملك السابق محمد ظاهر شاه، ولا الرئيس الأفغانى السابق برهان الدين ربانى، ولا بير سيد أحمد جيلانى زعيم الجبهة الوطنية الإسلامية الأفغانية ورئيس مؤتمر بيشاور، وهم الثلاثة الذين كان يعتقد أن أحدهم سوف يتولى رئاسة أفغانستان بعد انتهاء نظام حكم طالبان.. حيث كانت الولايات المتحدة ترشح ظاهر شاه، وكانت روسيا والهند ترشحان ربانى، وكانت باكستان ترشح جيلانى.

كما لم يدع لحضور المؤتمر أحد من القيادات البشتونية البارزة.. ومعظم الذين وجهت إليهم الدعوة -باستثناء ممثلى التحالف الشمالى- كانوا ممن لايقيمون فى أفغانستان، ولم يذهبوا إليها منذ عدة سنوات، وإنما كانوا يقيمون فى دول أخرى ويتابعون التطورات فى أفغانستان عبر الهاتف أو من خلال قراءة الصحف ومشاهدة التليفزيون..لذلك لم يكن لديهم إلمام كاف بالتغيرات التى حدثت فى المجتمع الأفغانى خلال الفترة الأخيرة، ولا بالحقائق التى أصبحت موجودة على أرض الواقع فى أفغانستان.. لعل ذلك كان ينعكس بوضوح فى الأسماء التى أطلقت على الوفود: وفد روما.. وفد قبرص.. وفد بيشاور.. وهى كلها مدن -أو دول- خارج أفغانستان..!

هذه «التشكيلة» التى تم تصنيفها على أساس المناطق التى يعيش بها الأفغان فى الخارج -وليس على أساس عرقى كما هو متبع فى أفغانستان- كان المطلوب منها التفاوض لرسم «واقع جديد» على أرض لم تطأها أقدام معظم الجالسين حول مائدة المفاوضات منذ سنوات طويلة..!

ولأن المسألة بهذا الشكل.. فقد سبق انعقاد المؤتمر بعدة أيام ما يمكن وصفه بمحاولات كل طرف التأكيد على مواقفه كثوابت لا يمكن التفاوض حولها، حتى يقلل من تنازلاته ويعظم مكاسبه بقدر الإمكان.

فمثلاً.. الرئيس الأفغانى السابق برهان الدين ربانى أكد فى رسالة إلى الأمة الأفغانية -بثتها الإذاعة الإيرانية يوم الأحد ١٨ نوفمبر ٢٠٠١- على رفضه أى تواجد للقوات الأجنبية فى أفغانستان.. قال: «لا نريد لبلادنا أن تكون عشاً للتدخل الخارجى»، وعارض أى حل للأزمة الأفغانية يفرض من الخارج.. قال: «يجب أن يقرر الشعب مصيره بنفسه، لأن الحلول المفروضة من الخارج لا تجدى».. هذا الموقف

يتعارض بالطبع مع الرغبات الأمريكية التى تريد إرسال قوات دولية إلى أفغانستان، وتريد أن تفرض بنفسها الحل الذى يناسبها لـلأزمة الأفغانية.. ومعنى ذلك أنه لكى يقبل التحالف الشمالى بوجود قوات دولية فى أفغانستان، وقيام الولايات المتحدة بدور فى تشكيل الحكومة الجديدة؛ فلابد أن يقابل هذه التنازلات مكاسب يحصل عليها.. من تمثيل واسع فى الحكومة واحتفاظه بالحقائب الأساسية فيها -كحقائب وزارات الدفاع والداخلية والخارجية- وهذا هو ما حدث بالضبط بعد ذلك..

نفس الشىء كان يفعله كل من الملك السابق ظاهر شاه، وبير سيد أحمد جيلانى اللذين كانا يؤكدان دائماً على موقفيهما الثابتين من ضرورة أن تكون الحكومة الأفغانية الجديدة عريضة القاعدة، ويختارها الشعب بنفسه.. وهذا يعنى أن البشتون الذين يمثلون أغلبية الشعب الأفغانى، يجب أن يحصلوا على أغلبية الحقائب فى الحكومة الجديدة.. وليس التحالف الشمالى.

هذا فضلاً عن أن مجموعة الملك ظاهر شاه كانت تطالب بعودته على رأس السلطة فى أفغانستان.. هكذا قال همايون شاه آصفى، ابن عم الملك ورئيس لجنة السلام وإعادة إعمار أفغانستان فى حديث أذاعته قناة تليفزيون الجزيرة يوم الاثنين ٢٦نوفمبر ٢٠٠١ .. قال: «أنا متأكد أن الملك ظاهر شاه شخصية لها شعبية كبيرة فى أفغانستان ويحظى بتأييد واسع النطاق.. الأغلبية تريد عودته وليس البشتون فقط، ولكن القادة الشماليين يدركون شعبية الملك، ولذا يعمدون إلى تأخير عودته عبر خلق العقبات..»

* * *

فى هذه الفترة -الأيام القليلة التى سبقت انعقاد مؤتمر بون- التقيت مع بير سيد أحمد جيلانى زعيم الجبهة الوطنية الإسلامية الأفغانية، وأحد الأسماء التى كانت مرشحة بقوة فى ذلك الوقت لرئاسة أفغانستان.. حيث كان يحظى بدعم وتأييد من باكستان.. وباحترام مختلف الفصائل الأفغانية.. ولا تعترض عليه الولايات المتحدة.. وتعتمد عليه الأمم المتحدة فى الاتصال بزعماء القبائل وبحث كل ما يتصل بالترتيبات المستقبلية لأفغانستان..

كان الرجل أيضا هو صاحب أول مبادرة لجمع الشمل الأفغانى، والتى تمثلت فى مؤتمر بيشاور الذى حضره المئات من زعماء القبائل والفصائل والأعراق الأفغانية..

التقيت به يوم الاثنين ١٩ نوفمبر ٢٠٠١ .. وأجريت معه هذا الحوار:

ـ قلت له: باعتبارك كنت رئيسا لمؤتمر بيشاور وصاحب الدعوة لانعقاده.. إلى أى مدى نجح هذا المؤتمر فى تحقيق الهدف منه..؟

● قال: مجرد انعقاد هذا المؤتمر فى هذه الظروف الصعبة التى يعيشها الأفغان كان نجاحاً كبيراً.. لأنه جمع زعماء القبائل الأفغانية على اختلاف أعراقها فى مكان واحد.. تبادلوا فيه التحية والحوار.. بدلاً من التراشق بالرصاص.. وقد قال المجتمعون رأيهم وأكدوا على ضرورة أن تكون الحكومة القادمة ممثلة لجميع



أثناء اللقاء مع بير سيد أحمد جيلانى

طوائف وفصائل وأعراق الشعب الأفغانى، وليست من فصيل واحد أو اثنين.

لكن طبعاً الوصول إلى تحقيق ذلك ليس سهلاً فى مثل هذه الظروف التى تشهدها أفغانستان.. ويكفى أن المؤتمر وضع القاعدة التى يمكن البناء عليها بعد ذلك لخير أفغانستان..

ـ قلت له: من الذى يبنى عليها؟

● قال: الأمم المتحدة.. ودول الجوار.. وأبناء الشعب الأفغانى.. وكل طرف يشعر بأنه قادر على المساهمة فى حل المشكلة الأفغانية..

ـ قلت له: لكن البعض قلل من أهمية مؤتمر بيشاور، بسبب غياب الأطراف الأفغانية الثلاثة الفاعلة فى الأزمة.. وهى: التحالف الشمالى، وطالبان، ومجموعة الملك ظاهر شاه؟..

● قال: نحن وجهنا الدعوة إلى جميع الأطراف للحضور والمشاركة فى المؤتمر..

بالنسبة للأطراف التى ذكرتها فقد بعث التحالف الشمالى بممثلين له.. والملك ظاهر شاه أرسل إلينا برقية تأييد لجهود المؤتمر.. طالبان فقط هى التى تغيبت..

ـ قلت له: هل تعتقد أنه مازالت هناك فرصة لإعادة السلام والاستقرار إلى أفغانستان.. أم أن دائرة القتال والعنف ستتواصل؟

● قال: نعم هناك فرصة.. وإن كان من الصعب التنبؤ بمستقبل أفغانستان.. لكن لابد أن نواصل الجهود من أجل وقف دائرة القتال والتوصل إلى تسوية للأزمة تضمن تحقيق السلام والاستقرار للشعب الأفغانى، الذى يدفع وحده الآن ثمن الصراع بين الأطراف المتحاربة، ويعانى ظروفاً بالغة الصعوبة.. ويواجه خطر الموت كل يوم.

ـ قلت له: هناك جهود دولية تبذلها الأمم المتحدة لحل المشكلة الأفغانية.. هل تعتقد أن هذه الجهود يمكن أن تنجح؟

● قال: نتمنى ذلك.. ونحن من جانبنا ندعم هذه الجهود ونساندها وندعو إلى استمرارها لأنها لو توقفت.. فإن القتال سوف يستمر سنوات طويلة، ويتحول الشعب الأفغاني إلى شعب لاجيء.. لذلك ندعو الأمم المتحدة ومنظمة المؤتمر الإسلامي للاستمرار في مساعيها لحل المشكلة الأفغانية.

ـ قلت له: لكن مجموعة التحالف الشمالي تريد التمسك بالسلطة وعدم التفريط فيها.. ورباني يريد البقاء رئيساً لأفغانستان، وأعلن أن الملك السابق ظاهر شاه إذا كان يريد العودة إلى أفغانستان فيمكنه العودة إليها كمواطن عادي وليس كملك.. ما تعليقك؟

● قال: أولاً: في الوضع الأفغاني الحالي.. كلنا مواطنون عاديون بما في ذلك برهان الدين رباني نفسه.

ـ ثانياً: ليس من حق رباني التحدث باسم أفغانستان.. لأن مدة رئاسته لها انتهت منذ سنوات طويلة.. حيث كان المجلس الاستشاري قد اختاره كرئيس مؤقت فقط (عام ١٩٩٢).. أما الآن فلم يعد له أي شرعية، وليس من حقه التصرف كرئيس لأفغانستان..!

ـ قلت له: وأنت شخصياً.. ما هو الدور الذي يمكن أن تقوم به بصفتك زعيم الجبهة الوطنية الإسلامية لإحلال السلام بأفغانستان في الفترة المقبلة؟

● قال: أنا لا أدخر جهداً.. الدليل على ذلك ما بذلته من أجل انعقاد مؤتمر بيشاور.. وسوف أواصل بذل الجهود على طريق لم شمل الفصائل الأفغانية للاتفاق على شكل الحكومة الجديدة..

ـ سألته: هل لديك مقترحات معينة لحل المشكلة الأفغانية سلمياً؟

● قال: نريد أن يكون هناك رئيس للدولة.. ومجلس لرئاسة الدولة تعمل تحت إشرافه حكومة عريضة القاعدة ممثلة لكافة الفصائل والأعراق الأفغانية.

ـ قلت له: وهل يمكن أن تمثل طالبان في الحكومة القادمة؟

● قال: طالبان هم من أبناء الشعب الأفغاني.. فإذا تخلوا عن القتال وألقوا السلاح.. فأهلاً وسهلاً بهم في الحكومة الجديدة..

ـ قلت له: وهل تعتقد أنه من الممكن أن يلقوا السلاح؟..

● قال: نعم.. الآن أصبح من الممكن أن يلقوا السلاح.. ونحن نجري حواراً معهم بهذا الشأن..

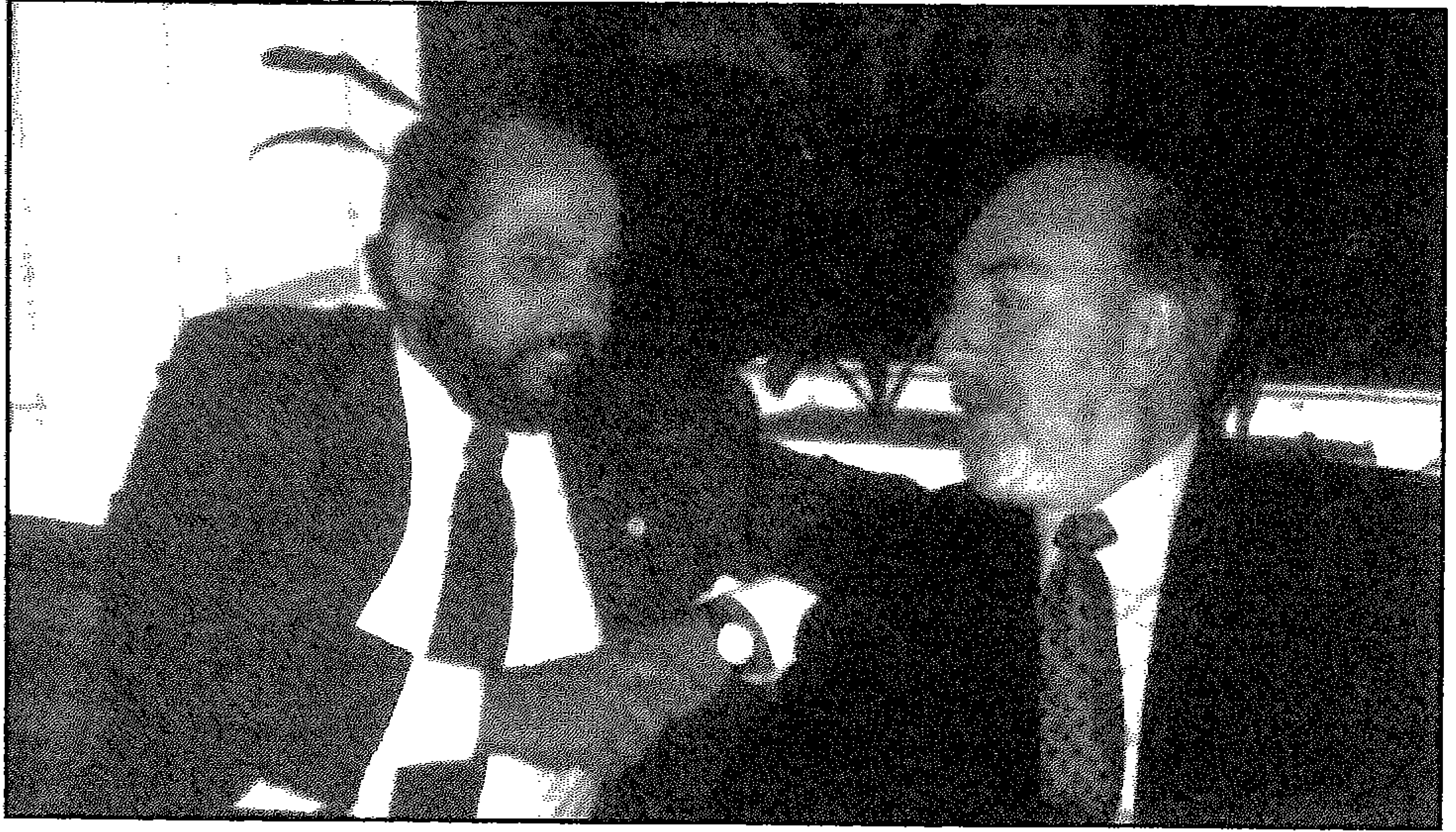
ـ سألته: وما وضع الملا محمد عمر وأسامة بن لادن في هذه الحالة؟..

● قال: لابد من تسليمهما للمحاكمة..

ـ قلت له: ما هو الدور الذي يمكن أن تقوم به باكستان بالنسبة لأفغانستان في الظروف الحالية، من وجهة نظرك؟..

● قال: باكستان بلد إسلامى جار لنا.. ونحن ننتظر منهم دائماً جهوداً متواصلة لصالح أفغانستان ولخير شعبها..

* * *



قلت له : هل يمكن أن تمثل طالبان فى الحكومة القادمة ؟

فى نفس اليوم الذى التقيت فيه مع بير سيد أحمد جيلانى -و«بير» معناها بالعربية «الشيخ» كما قال هو نفسه لى- كان الرجل فى طريقه إلى روما للقاء الملك السابق محمد ظاهر شاه لتنسيق المواقف معه قبل أن يبدأ مؤتمر بون.. كان الرجلان يجمعهما كونهما من البشتون.. بينما ربانى من الطاجيك.. وفرصة تنسيق المواقف بينهما تتمثل فى أنه من الممكن أن تحدث التسوية فى مؤتمر بون على أساس أن يعود ظاهر شاه إلى أفغانستان كملك يتمتع بسلطات رمزية، بينما تكون السلطات الفعلية فى يد جيلانى الذى يتم تعيينه رئيساً للحكومة الجديدة.. هذا السيناريو كان من شأنه أن يرضى معظم الأطراف:

- يرضى الأمريكيين، لأن رجلهم ظاهر شاه أصبح ملكاً لأفغانستان..

- ويرضى الباكستانيين، لأن صديقهم جيلانى أصبح رئيساً للحكومة الأفغانية الجديدة، وبالتالى سيبقى الود متصلاً بين كابول وإسلام آباد، ويطمئن الباكستانيين على أن الفناء الخلفى لبيتهم سيظل آمنا..

- ويرضى البشتون الذين يشكلون أغلبية الشعب الأفغانى، لأن الملك ورئيس الحكومة الجديدة أختيرا منهم..

- وفى مقابل ذلك ستمنح الحقائب الكبيرة فى الحكومة.. وهى الدفاع والداخلية والخارجية.. إلى التحالف الشمالى.

لعل هذا السيناريو «المفترض» هو الذى جعل بير سيد أحمد جيلانى لا يذكر خلال حوارى معه كلمة واحدة تغضب الأمريكيين.. وعندما سألته عن وضع الملا محمد عمر وأسامة بن لادن، قال إنه «لابد من تسليمهما ومحاكمتهما».. وهذا بالضبط ما تريده أمريكا.

* * *

لكن السيناريو الذى كان يريده جيلانى لم يصمد أثناء المفاوضات فى بون.. حيث أصر التحالف الشمالى على استبعاده بسبب علاقته الوثيقة بإسلام آباد.. كما لم يتمسك به الأمريكيون لنفس السبب..

ولما كان لابد له من نصيب من «كعكة الحكم» فى أفغانستان حتى تكون الحكومة الجديدة ممثلة لكل القوى والفصائل الأفغانية -خاصة أن مجموعته كانت ممثلة بوفد فى المؤتمر هو «وفد بيشاور» برئاسة ابنه «حامد»- فقد أعطوه قطعة صغيرة من «الكعكة» تمثلت فى تعيين ابنته «فاطمة» وزيرة للتعليم..

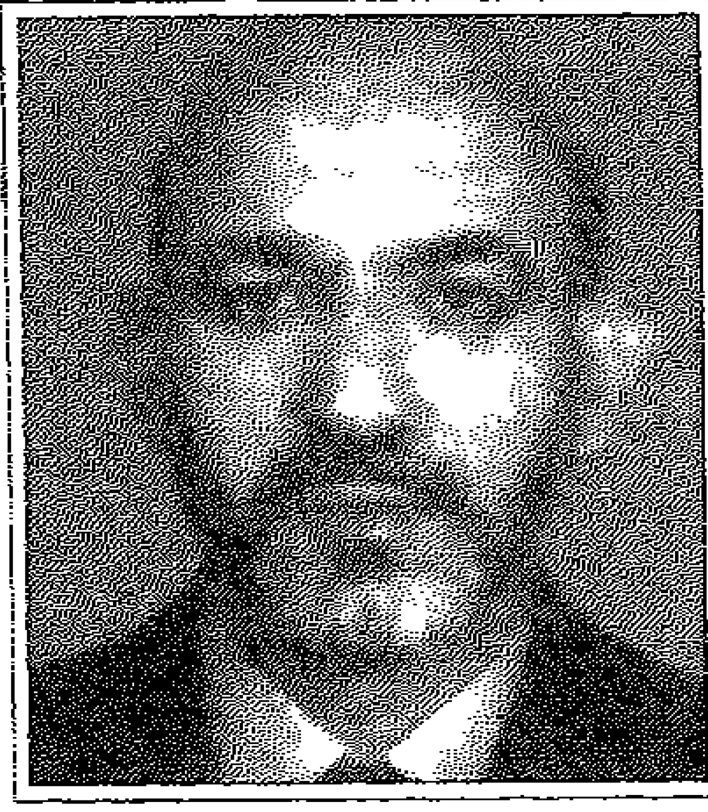
أما بالنسبة للملك السابق ظاهر شاه، فقد أصر التحالف الشمالى على عدم إعطائه شخصياً أى دور.. لا رمزى ولا فعلى.. وأن يعود إلى أفغانستان كمواطن عادى -كما قال ربانى- إذا أراد العودة.. ربما لأن فى ذلك عنواناً لانتصار التحالف الشمالى، وامساك الطاجيك بقبضة السلطة الفعلية فى أفغانستان (حيث ينتمى إلى الطاجيك كل من برهان الدين ربانى رئيس التحالف، ومحمد قاسم فهيم وزير الدفاع، ويونس قانونى وزير الداخلية، وعبدالله عبدالله وزير الخارجية).. وربما أيضاً بسبب ثأر قديم بين الطاجيك وظاهر شاه يعود إلى عام ١٩٣٠ عندما أطاح والده الجنرال نادر شاه ببطل الطاجيك «باتشاى سقاو» من الحكم.. وكان سقاو هو أول طاجيكى فى تاريخ أفغانستان يتولى حكمها.. (ربانى هو الثانى)..

هكذا رفض التحالف الشمالى فى مؤتمر بون جيلانى وظاهر شاه ليفسح المجال أمام ربانى فى تولى رئاسة الحكومة الجديدة.. وليحصل التحالف بذلك على نتائج سياسية تساوى حجم الانتصارات العسكرية التى حققها على الأرض.

لكن الولايات المتحدة التى كانت تعتبر نفسها صاحبة كل هذا الإنجاز.. كانت تريد نظاماً أفغانياً مطيعاً لها.. ومواصفات هذا النظام لم تكن تتوفر فى ربانى وحكومته..

لذلك دفعت برجلها الثانى «حامد قرضاى» الذى أعدته لتلك اللحظة..

- فهو بشتونى..
- وهو مخلص ومطيع لها..
- ولا تربطه علاقات وثيقة مع إسلام آباد.
- وذو طبيعة غير تسلطية، مما سيتيح الفرصة لزعماء التحالف الشمالى بمشاركة كبيرة فى الحكم تتناسب مع تطلعاتهم.. خاصة وإنه سبق أن عمل معهم


حامد قرضاى

عندما كان نائباً لوزير الخارجية فى حكومة ربانى التى أدارت أمور البلاد فى الفترة من ١٩٩٢ إلى ١٩٩٦.

- أيضا كان اسماً معروفاً لدى الملك السابق ظاهر شاه، فهو حفيد «عبدالأحد قرضاى» رئيس المجلس الوطنى فى حكومة الملك قبل الإطاحة به عام ١٩٧٣، وزعيم قبيلة «بوبيلازى» التى كانت تؤيد بقوة الملك ظاهر شاه، فضلاً عن كونها «فرعاً» من قبيلة «دورانى» التى ينحدر منها ملوك أفغانستان.

رشحت الولايات المتحدة قرضاى ليكون رئيساً للحكومة الأفغانية الجديدة، ووعدت الفصائل الأفغانية المشاركة فى مؤتمر بون بـ «كومة من الجزر» لكى توافق على هذا الترشيح.. فوافقت.

أوراق ترشيح الرجل كانت تقول إنه ليس من جنرالات الحرب الملطخة أيديهم بالدماء.. وإنه ليس من هواة الصراعات والثراء وبسط النفوذ.. وانه معتدل ليس فى تاريخه أى تحالف من أى نوع، لا مع المجاهدين الذين احتلوا كابول عام ١٩٩٢ وأسقطوا حكومة نجيب الله الموالية للروس.. ولا مع طالبان الذين احتلوها عام ١٩٩٥ وأسقطوا حكومة ربانى..

وبالنسبة لمسألة «الجهاد ضد السوفييت» التى تعتبر من واجبات الوطنية فى أفغانستان.. فيحسب لحامد قرضاى أنه شارك فى الجهاد من خلال عمله فى أوائل الثمانينيات كمتحدث باسم إحدى فصائل المجاهدين فى بيشاور، وكثيراً ما كان يتم اختياره ضمن الوفود الأفغانية المسافرة للخارج بسبب ثقافته، وإجادته للغة الإنجليزية.. هو أيضاً ابن أحد أبطال المجاهدين، حيث قام والده بنقل أسرته للإقامة بمدينة «كويتا» الباكستانية عام ١٩٨٣ ليتفرغ للجهاد ضد السوفييت فى أفغانستان.. ثم لقى هذا الوالد مصرعه عام ١٩٩٩ عن عمر يناهز ٧٥ عاماً، وذلك أثناء عودته إلى منزله فى مدينة «كويتا» بعد أداء الصلاة فى المسجد..!

وينتمى قرضاى إلى جيل الشباب، فهو من مواليد عام ١٩٥٧ (بعض الصحف ذكرت أنه ولد فى عام ١٩٥٥).. وهو الابن الأوسط بين سبعة من الإخوة وأخت واحدة.. تزوج مرة واحدة عام ١٩٩٩ من طبيبة متخصصة فى أمراض النساء، ولم يكن قد أنجب منها حتى وقت انعقاد مؤتمر بون..

حاول الأمريكيون أثناء الحرب الاستفادة من زعامته لقبيلة «بوبيلازى» التى تعد من أكبر قبائل البشتون، ولم تكن على وفاق مع حركة طالبان لاعتقادها أن الحركة وراء مقتل والد حامد قرضاى.. فأقنعوه بدخول أفغانستان على رأس مجموعة من رجاله لإحداث انشقاق فى الداخل، وتقليب زعماء القبائل ضد حركة طالبان.. لكن جنود طالبان نصبوا لهم كميناً فى أحد الكهوف بمنطقة «ديراود» فى إقليم أوروزجان وأسروا منهم ٢٥ رجلاً بينما فر الآخرون، وكان بينهم حامد قرضاى.. كان ذلك فى نفس الأسبوع الذى تم فيه إلقاء القبض على عبدالحق وإعدامه..

ثم عاد الرجل مرة أخرى إلى داخل أفغانستان، ولمع اسمه بعد سقوط كابول، أثناء المفاوضات التى كانت تجرى مع طالبان لتسليم قندهار.. وظل هناك حتى أعلن يوم الأربعاء ٥ ديسمبر ٢٠٠١ عن اختياره رئيساً للحكومة الأفغانية الجديدة..

فى نفس هذا اليوم أصيب حامد قرضاى بعدة جروح عندما ألقت قاذفة أمريكية من طراز (بى- ٥٢) قذيفة ذكية زنة ٩٠٠ كيلوجراما عن طريق الخطأ على مقره المؤقت بالقرب من قندهار، مما أدى إلى إصابته، ومقتل عدد من رجاله، وثلاثة جنود أمريكيين، وإصابة ١٩ جندياً أمريكياً آخرين..

هكذا صعد الرجل إلى قمة السلطة فى أفغانستان، وفى جسده جرح أمريكى..

لكنه كان بالنسبة له.. جرح من نيران صديقة..!

* * *

«كومة الجزر» التى وعدت بها الولايات المتحدة الأمريكية الأطراف المشاركة فى مؤتمر بون لكى توافق على رئاسة حامد قرضاى للحكومة الأفغانية الجديدة كانت عبارة عن مساعدات لإعادة إعمار أفغانستان قيمتها ٤٤٨٧,٨ مليون دولار يشترك فى تقديمها عدد من الدول والمنظمات الدولية.. وقد عقد بعد ذلك فى طوكيو مؤتمر لهذا الغرض يوم ٢١ يناير ٢٠٠٢، أعلن فيه عن الأنصبة التى ستساهم بها الدول والمنظمات على النحو التالى(١٠٧):

الدول والمنظمات المساهمة فى مساعدات إعادة إعمار أفغانستان	
اليابان ٥٠٠ مليون دولار	استراليا ٤٠ مليون دولار
الاتحاد الاوروبى ٥٠٠ مليون دولار	باكستان ١٠٠ مليون دولار
الولايات المتحدة ٢٩٦ مليون دولار	إيران ٥٦٠ مليون دولار
بريطانيا ٢٨٨ مليون دولار	اسبانيا ١٠٠ مليون دولار
كندا ٦١,٨ مليون دولار	السويد ١٠٠ مليون دولار
الهند ١٠٠ مليون دولار	النرويج ٤٠ مليون دولار
الصين ١٠٠ مليون دولار	كوريا الجنوبية ٤٥ مليون دولار
بنك التنمية الآسيوى ٥٠٠ مليون دولار	فرنسا ٢٤ مليون دولار
ألمانيا ٢٨٣ مليون دولار	سويسرا ٢٠ مليون دولار
السعودية ٢٢٠ مليون دولار	الكويت ٣٠ مليون دولار
البنك الدولى ٥٠٠ مليون دولار	تركيا ٥ ملايين دولار
	مؤسسة أغاخان للتنمية ٧٥ مليون دولار

أما الاتفاق الذى وقعت عليه الفصائل الأفغانية فى بون، فكان يتضمن عدداً من النقاط.. أهمها:

ـ الاعتراف بحق الشعب الأفغانى فى تقرير مستقبله السياسى وفقاً لمبادىء الدين الإسلامى والديمقراطية والتعددية والعدالة الاجتماعية مع تقدير دور المجاهدين الأفغان فى القتال والتضحية فى السنوات الماضية من أجل الدفاع عن استقلال البلاد.

ـ إعادة العمل بدستور ١٩٦٤، باستثناء الدور الممنوح للملك.

ـ تشكيل حكومة انتقالية تتولى إدارة شئون أفغانستان لمدة ٦ شهور، تضم رئيساً و٥ نواب للرئيس و٢٤ وزيراً.. ويتولى رئاستها حامد قرضاى.

ـ إلزام الحكومة الانتقالية بتشكيل لجنة مستقلة لحقوق الإنسان بمساعدة الأمم المتحدة وذلك لمراقبة انتهاكات حقوق الإنسان.

ـ تمثل الإجراءات المؤقتة التى تم التوصل إليها فى هذا الاتفاق خطوة أولى نحو تشكيل حكومة موسعة ومتعددة العرقيات تضم جميع عناصر المجتمع الأفغانى وطوائفه..

ـ تشكيل لجنة مستقلة خاصة تدعو مجلس الشورى الأفغانى (لويا جيرجا) للانعقاد فى جلسة طارئة خلال ستة أشهر من تشكيل الحكومة، ويفتتح اجتماعات المجلس الملك السابق محمد ظاهر شاه. ينتخب مجلس الشورى (لويا جيرجا) رئيسا للبلاد. ويقرر أن تقود الحكومة المؤقتة البلاد حتى يتم تشكيل حكومة جديدة عبر انتخابات حرة ونزيهة تعقد فى فترة لا تتجاوز عامين من تاريخ الجلسة الطارئة. ويعقد مجلس الشورى (لويا جيرجا) جلسة خلال ١٨ شهراً من تشكيل الحكومة المؤقتة لوضع دستور جديد لأفغانستان.

ـ تؤكد اللجنة المستقلة الخاصة التى تدعو إلى عقد جلسة طارئة لمجلس الشورى على تمثيل عدد محدد من النساء فى المجلس، بالإضافة إلى جميع الفصائل الصغيرة فى الشعب الأفغانى.

ـ نشر قوة أمن دولية تحت مظلة الأمم المتحدة فى كابول وما حولها، ثم فى مناطق ومدن أخرى فى حالة الضرورة، وسيتم نزع سلاح هذه المناطق على أن يكون للحكومة الانتقالية جهاز شرطة..

تتم عملية انتقال السلطة فى أفغانستان إلى الحكومة الانتقالية اعتباراً من يوم ٢٢ ديسمبر ٢٠٠١.

* * *



أثناء التوقيع على الاتفاق فى بون.. ويقف خلف الموقعين من اليسار المستشار الالمانى شرويدروبجواره الأخضر الابراهيمى ممثل الأمين العام للأمم المتحدة ثم وزير الخارجية الألمانى فيشر


أعضاء الوفود الافغانية تسابقوا لالتقاط الصور التذكارية مع المستشار الالمانى شرويدر

يوم ٢٢ ديسمبر ٢٠٠١ أقيم حفل كبير فى كابول تمت فيه عملية انتقال السلطة إلى الحكومة الجديدة برئاسة حامد قرضاى.

كانت صورة بطل الطاجيك أحمد شاه مسعود تتصدر قاعة الحفل، وتحتل مساحة على الجدار أكبر من المساحة التى تحتلها على الأرض مقاعد ١١ وزيراً فى الحكومة تم اختيارهم من البشتون..

تحت الصورة وقف أعضاء الحكومة الأفغانية الجديدة يؤدون اليمين الدستورية.. ثم تعانق ربانى وقرضاى..

الحكومة الجديدة كانت تضم ١٠ وزراء بالإضافة إلى رئيس الحكومة من البشتون.. و٨ وزراء من الطاجيك من بينهم وزراء الدفاع والداخلية والخارجية.. و٥ وزراء من الهزارة.. و٣ وزراء من الأوزبك.. و٣ وزراء من مجموعات عرقية أخرى.

هذه التشكيلة كانت تتضمن سيدتين إحداهما فاطمة جيلانى وزيرة التعليم (وهو المنصب الوزارى الوحيد الذى حصلت عليه مجموعة وفد بيشاور).. والثانية الدكتورة سيما سمر التى حصلت على منصب نائب رئيس الحكومة، وهى من الشيعة الهزارة وكانت من مجموعة وفد روما..



أعضاء الحكومة الافغانية الجديدة أثناء قسم اليمين.. وخلفهم صورة أحمد شاه مسعود

شارك فى الحفل أكثر من ألفى شخصية من زعماء القبائل والضيوف الأجانب..

الولايات المتحدة الأمريكية شاركت في الحفل أيضاً ولكن بطريقتها الخاصة.. فقد حضرت ويداها ملطختان بدماء الأفغان.. لأنها وهى فى الطريق إلى الحفل، قامت مقاتلاتها بقصف قافلة من السيارات كانت تسير فى إقليم باكتيا شرقى أفغانستان، وعلى متنها مشايخ القبائل، وقادة المجاهدين السابقين فى طريقهم إلى كابول للمشاركة فى حفل انتقال السلطة.. فلقى ٦٥ منهم مصرعهم على الفور..

الجنرال تومي فرانكس قائد القوات الأمريكية فى أفغانستان وصف القصف بأنه كان عملاً صائباً، وأن القافلة كانت هدفاً مناسباً.. لأنها كانت تحمل قوات لتنظيم القاعدة..

بينما أكد ثمانية من الوزراء فى حكومة قرضاى أن القافلة كانت تحمل زعماء القبائل المحلية.. وأنهم كانوا فى طريقهم إلى كابول لتقديم التهنئة إلى الحكومة الجديدة..

لكنهم للأسف، ماتوا قبل أن يقدموا التهنئة.. فقرأت حكومة قرضاى الفاتحة على أرواحهم..

وهذا بالضبط هو ما تفعله جميع الحكومات الإسلامية الآن.. قراءة الفاتحة على أرواح من يموت من المسلمين تحت القصف الأمريكى..

والبقاء لله..

* * *

الفصل الخامس والثلاثون

• تغطية الإعلام الأمريكى للحرب على أفغانستان ..

ياله من أمر مخجل بلا حدود
.. وغير أخلاقى»..!

روبرت فيسك

الكاتب البريطانى المعروف

□ *كانت وسائل الإعلام الأمريكية تشارك فى الحرب على أفغانستان.. بل لعلها بدأت الحرب قبل أن تبدأ العمليات العسكرية بعدة أسابيع.. بالترويج لفكرة حق أمريكا فى شن الحرب على أفغانستان دون الحاجة إلى تقديم أدلة تثبت مسئولية بن لادن عن هجمات ١١ سبتمبر..*

وعندما بدأت العمليات العسكرية.. كانت التوجيهات واضحة.. وهى أن تتحرك الكاميرات، وتركز الأقلام علي إظهار الدور «الإنسانى» الذى تقوم به الولايات المتحدة فى أفغانستان، المتمثل في إسقاط علب الغذاء بالطائرات.. أما الصور التي تظهر معاناة اللاجئين الأفغان والبيوت المدمرة وجثث القتلي.. فلا داعى لها لأنها «تنطوى على خطر الترويج لدعاية العدو» كما قال والترإيساكسون مدير قناة تليفزيون «سى.إن.إن» الأمريكية لمراسليه وصحفييه الذين سمحت لهم حركة طالبان بدخول أفغانستان..

توجيهات إيساكسون نشرتها صحيفة «واشنطن بوست» الأمريكية فى عددها الصادر يوم السبت ٣ نوفمبر ٢٠٠١.. قال فيها لمراسليه:

«يجب أن نضاعف جهودنا من أجل التأكد من أننا لاننقل الأحداث من وجهة نظر طالبان، كما يجب أن نشير فى تغطيتنا الإخبارية إلى قيام طالبان باستخدام المدنيين الأفغان كدروع بشرية، إلى جانب مسئوليتها عن مقتل ٥ آلاف من الأمريكيين فى هجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١» .. ذكرت الصحيفة أيضاً أن مسئولاً آخر في قناة سى.إن.إن اسمه «ريك دافيز» بعث برسالة إلى مراسلى القناة فى أفغانستان، قال فيها: «يجب على المراسلين أن يضعوا في اعتبارهم عند تغطيتهم لأحداث الحرب في أفغانستان أن الضربات الأمريكية على كابول هى رد على هجمات ١١ سبتمبر التي راح ضحيتها ٥ آلاف من الأبرياء.. علينا أن ندرك أيضاً أن طالبان لاتزال تأوى الإرهابيين المسئولين عن تلك الانفجارات» وطلب «دافيز» من مراسلى سى.إن.إن في أفغانستان «التركيز فى تناول الأحداث على أن وزارة الدفاع الأمريكية طلبت من قواتها أن تحاول تقليل الخسائر من المدنيين عند قصفها الأراضى الأفغانية»..

هكذا كانت تصدر التوجيهات..

وهكذا كان يطلب من الصحفيين الأمريكيين أن يؤدوا عملهم.. وهو نقل أحداث الحرب إلى المشاهد الأمريكي بالطريقة التى تريدها الإدارة الأمريكية، وليس كما تجرى على أرض الواقع..!

* * *

«التوجيهات» كانت تنزل إلى الصحفيين الأمريكيين عبر «سلم» يبدأ من أعلى بكونداليزا رايس مستشارة الرئيس الأمريكى لشئون الأمن القومي، التى منعت إذاعة «صوت أمريكا» من بث حديث تم إجراؤه مع الملا محمد عمر فى سبتمبر ٢٠٠١.. ووضعت فى كل محطة تليفزيون بالولايات المتحدة رقيباً.. وفى كل محطة إذاعة مخبراً.. لمنع إذاعة بيانات أسامة بن لادن التى تبثها قناة الجزيرة قبل إعادة تحريرها وتعديلها.. ووصل الأمر إلى درجة أن قناة سى. إن.إن أصدرت بياناً أعلنت فيه أنها قررت التوقف عن بث بيانات أسامة بن لادن ومعاونيه قبل عرضها على السلطات المختصة فى الإدارة الأمريكية والحصول على موافقتها..!

رايس وكولين باول وزير الخارجية الأمريكي حاولا أن يفعلا الشيء نفسه مع قناة الجزيرة لكنهما فشلا، لأن الجزيرة تمسكت بحقها فى عرض وجهتى النظر..

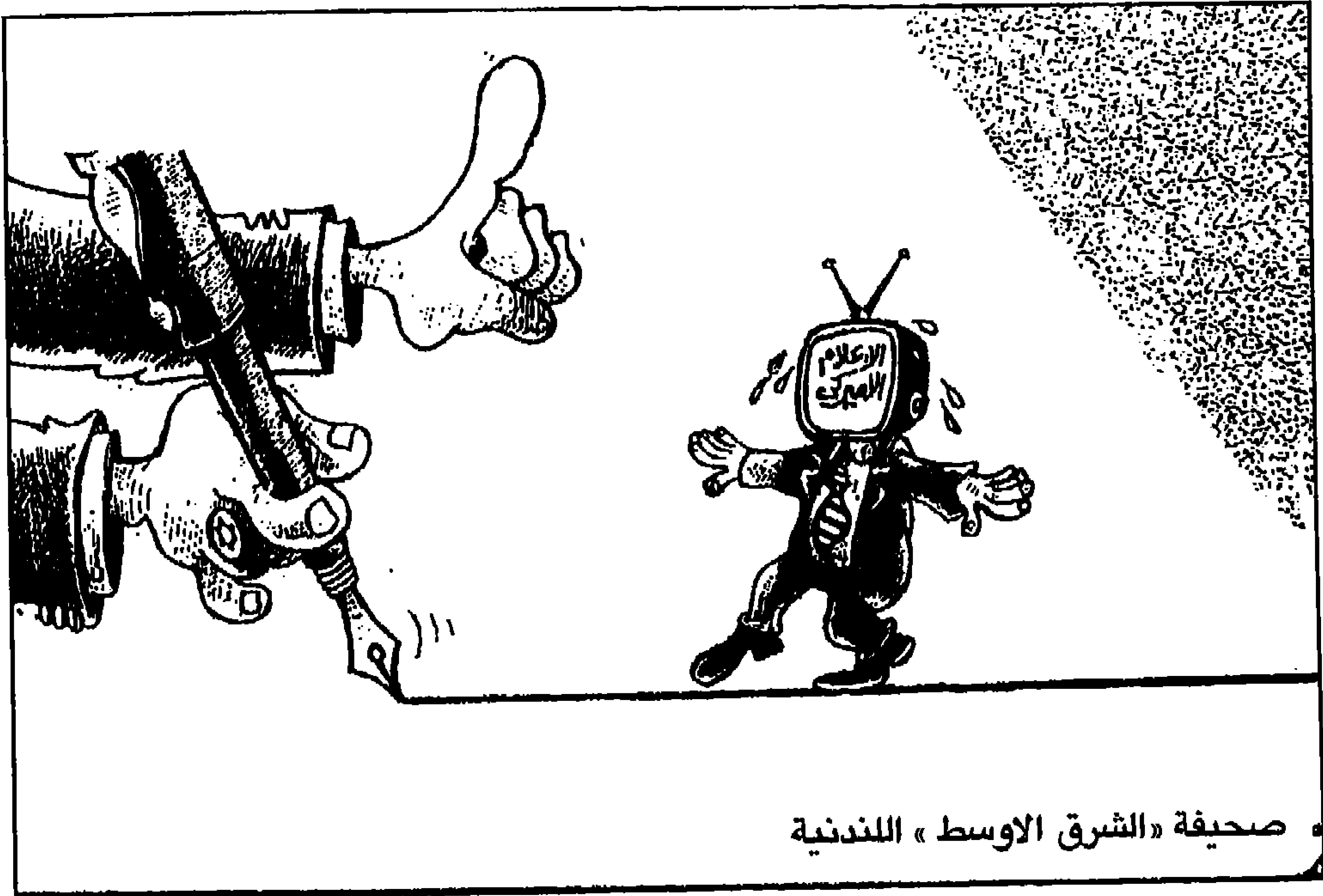
تحرك رايس وباول قوبل بهجوم عنيف من منظمات حرية التعبير الأمريكية [١٠٨].. حيث اعتبرت «آن كوبر» رئيسة لجنة حماية الصحفيين أن هذا التحرك يناقض القيم الأمريكية، وقالت: «من المؤسف أن يتبع المسئولون الأمريكيون نفس أساليب الحكومات العربية فى الضغط على قناة الجزيرة».. كما أصدرت رابطة «الصحفيون المحترفون الأمريكية» بياناً دعت فيه المسئولين الأمريكيين ألا يطلبوا من وسائل الإعلام مراجعة موضوعاتها الإخبارية، وناشدت فى نفس الوقت وسائل الإعلام عدم الاستسلام للضغوط الحكومية، واعتبرت الرابطة أن الخاسر الوحيد من أفعال كهذه هو الشعب الأمريكي نفسه، لأن بقية شعوب العالم تستطيع الإطلاع على ماتريد من أخبار، أو معلومات عبر وسائل الإعلام الأخرى.. كذلك حذرت «جانين جاكسون» رئيسة «الرابطة الإعلامية الخاصة بمراعاة النزاهة والدقة فى التحرير» الحكومة الأمريكية من أن تكون «الحكم» الذى يقرر ماهو ملائم وماهو غير ملائم لأن يراه ويسمعه الأمريكيون..

دائرة انتقاد «الرقابة» التى فرضتها الحكومة الأمريكية على وسائل الإعلام أثناء الحرب على أفغانستان اتسعت لتشمل كتاباً كباراً من خارج الولايات المتحدة مثل الكاتب البريطانى الشهير «روبرت فيسك» الذى وصف ذلك بأنه «أمر مخجل بلا حدود وغير أخلاقى..»!، والكاتب الفرنسى «جان برنارد كاريير» الذى وصف دونالدرامسفيلد وزير الدفاع الأمريكي بأنه «استاذ فى فن التضليل الإعلامى..»! (نص مقالتى الكاتبين فى نهاية الفصل».. كذلك صحيفة «الأوبزرفر» البريطانية التى اعتبرت الحرب الأمريكية على أفغانستان «حرباً بلا شهود» بسبب الرقابة المفروضة

على الصحفيين.. وقالت الصحيفة [109]: «إن الحرب فى أفغانستان تشبه اللغز. فلقد مر بالكاد الآن حوالى ثلاثة أسابيع على بداية القصف الأمريكى ونشرت العديد من الصور والأخبار والتعليقات. ولكن بالرغم من كل هذا السيل الأخبارى فإن معالمها مازالت غامضة للغرب كما هى بالنسبة لمواطني الدولة التى تدور على أرضها الحرب».. أضافت الصحيفة: «وبسبب الرقابة المفروضة على تغطية الحرب، فإن الرأى العام لم تتضح لديه الرؤية بعد، وذلك يرجع إلى عدة أسباب منها اختلاط الأمور ببعضها بسبب عدم وضوح الأهداف التى من أجلها تورطت القوات البريطانية مع القوات الأمريكية فى هذه الحرب».. وقالت الأوبزرفر: «إن عدم وضوح الرؤية فى الحرب الحالية تتضح فى كل من الكتابة الصحفية والتصوير الصحفى. وخلال الأزمة الحالية كان الحدث الرئيسى الذى احتل كل الصفحات الأولى هو إنزال مظليين أمريكيين على أحد مواقع طالبان بالقرب من قندهار، ونشرت سلسلة من التحقيقات والصور عن هذا الحدث.. بخلاف ذلك لايوجد أى شىء ملموس فى هذه الحرب. وكما يقول «روبرت فيسك» الصحفى بجريدة «الإندبندنت» البريطانية إن الرقابة الحديدية على ماينشر بالصحافة قد اختصر المادة الصحفية المنشورة إلى مستوى تعليق الصور، وليس أكثر من ذلك!»..

* * *

رغم ذلك، فإن هذه الرقابة الحديدية» التي فرضتها كونداليزا رايس.. وتدخل



• صحيفة «الشرق الاوسط » اللندنية

رامسفيلد وباول فيما تذيعه وسائل الإعلام ومالا تذيعه.. فضلاً عن المقالات التى كان يكتبها أمثال توماس فريدمان الذي كان يدعو الي «فتح نيران الحرب الإعلامية- وكأنها حرب حقيقية علي- أسامة بن لادن وصدام حسين» (نص المقال فى نهاية الفصل).. كل هذا فشل فى تسويق الحرب الأمريكية على أفغانستان للرأى العام العالمى.. حتى صور معلبات الأغذية التى كانت تسقطها الطائرات الأمريكية للأفغان تحولت إلى مادة للسخرية، لأنه على الجانب الآخر كانت صور البيوت المدمرة، وجثث الأطفال المتفحمة التى تبثها قناة الجزيرة تثير رفضاً عالمياً متزايداً للحرب الأمريكية، خاصة فى الشارعين العربى والإسلامى..

هكذا شعر الأمريكيون أنهم يخسرون الحرب الإعلامية التى هى من أهم أسلحة المعركة.. وأنهم أصبحوا يعانون حالة من التخبط، وعدم الاتزان أمام أسامة بن لادن الذى نجح من مخبأه داخل جبل فى دولة ليس فيها تليفزيون .. فى الاستفادة من تكنولوجيا الاتصالات المتطورة لينقل إلى جميع أنحاء العالم صوته وصورته ودعوته للمسلمين إلى الجهاد ضد أمريكا..!

السفير الأمريكى السابق لدى الأمم المتحدة ريتشارد هولبروك عبر عن ذلك بغضب قائلاً: «يبدو أن سفاحاً- يقصد بن لادن- يعمل فى كهف بجنوب أفغانستان يحرز السبق أمام زعيمة العالم فى الاتصالات الولايات المتحدة الأمريكية..!» (١١٠).

انتصار بن لادن على الأمريكيين فى الحرب الإعلامية، عبرت عنه بالأرقام استطلاعات الرأى التى أجريت بعد مرور شهر على بدء العمليات العسكرية، وكشفت عن انحسار تأييد شعوب العالم للحرب (١١١) حتى أوربا التى تعتبر من مناطق النفوذ التقليدية للإعلام الأمريكى بحكم الوحدة اللغوية والثقافية..

ففى بريطانيا، حليفة الولايات المتحدة الأمريكية وشريكتها فى الحرب، تراجعت نسبة المؤيدين للحرب من ٧٤٪ قبل بدء العمليات العسكرية إلى ٦٢٪، وطالب ٥٤٪ من البريطانيين بوقف عمليات القصف حتى يمكن إدخال المساعدات الإنسانية للشعب الأفغانى، خاصة فى ظل قرار الدول المجاورة إغلاق حدودها مع أفغانستان، كما بدأ النواب البريطانيون وكتاب الصحف يشككون فى المصلحة الناجمة عن هذه الحرب..

مجلة تايم:

طالبان تفوقت إعلامياً على أمريكا

ذكرت مجلة (تايم) الامريكية انه بعد مرور اربعة اسابيع على اندلاع العمليات التى تشنها الولايات المتحدة على افغانستان والمساعى المحمومة التى تبذلها وزارة الدفاع الامريكية (البنتاجون) لتفنيذ ادعاءات طالبان عن الاخطاء العسكرية الواضحة للقوات الامريكية ووقوع الخسائر بين المدنيين كان الفشل من نصيب القوة العظمى الوحيدة فى العالم فى تحقيق شفافية اعلامية فى حربها تلك على نقيض ما حققته طالبان من مكاسب.

قالت المجلة ان تاييد الراي العام للحرب بدا فى التراجع بينما يتقوض التفوق التكنولوجى الساحق للقوات الامريكية باطراد على ما يبدو امام قوة الصور التى تظهر علي شرائط الفيديو مما حدا بوزير الخارجية البريطانى جاك سترو للشكوى من ان الصحافة لا تعرف التواضع وتفتقر للذاكرة.

جريدة المساء

عدد ١١ نوفمبر ٢٠٠١، ص٢

فى فـرنسـا.. تراجـعت نسـبـة المؤيدين للحـرب من ٦٦٪ إلى ٥١٪، وعـارض ٣٦٪ الحرب، وأعرب ٤٧٪ عن اعتقادهم بأنها على وشك الفشل..

وفى ألمانيا.. طالب ٦٩٪ بوقف القصف لإتاحة الفرصة لتزويد الأفغان فى الداخل بالمواد الغذائية والمساعدات الطبية اللازمة.. كما عبر العديد من المثقفين الألمان- وفى مـقـدمتـهم «جـونترجـراس» الحـائز على جـائزة نوبل فى الآداب»- عن مـعارضـتـهم للحـرب.. وأعرب رئيس مجلس الكنيسة الإنجيلية الألمانيـة «مـانفردوك» عن تأييده لوقف الحرب الأمريكية على أفغانستان خلال شهر رمضان المبارك..

فى أسبانيا.. اعـتبر أكثر من ثلثى السكان أن هذه الحرب يجب أن تتوقف لأنها تتسبب في وقوع ضحـايا من المدنيين.. وأظهر استطلاع للرأى أجرته إذاعة «كادينا إس.آى.آر» الأسبانية أن ٦٩٪ من الأسبان لايؤيدون استمرار الحـرب.. كما شهدت مدينتا مدريد وبرشلونة مظاهرات كبيرة للتنديد بالحرب..

فى بولندا.. تراجـعت نسبة المؤيدين لإرسال قوات بولندية للمشاركة فى الحرب علي أفغانستان من ٥٨٪ فى مطلع أكتوبر ٢٠٠١ إلى ٢٨٪ فى مطلع نوفمبر ٢٠٠١..

فى اليونان.. قال ٥٧٪ إن هذه الحرب غير مبررة..

فى روسيا.. أعرب ٤٦٪ عن اعتقادهم بأنها ستنتهي بالفشل..

* * *

موجـة الرفض العـالمى للحـرب الأمريكيـة علي أفغـانسـتـان.. ربما كانت أعلى فى الدول الأخرى.. وإذا كانت لم يعبر عنها بالأرقام، فذلك لأن عمليات استطلاع الرأى ليـست منتـشـرة فى هذه الدول.. لكن المظاهرات الحـاشـدة- حـتـى فى الدول غـيـر الإسـلامـيـة - عكست بوضوح رفض شـعـوب هذه الدول للحـرب، بما فى ذلك أقـرب الحلفاء والجيران للولايات المتحدة، مثل المكسيك التى تعتبر حليفاً وثيقاً لواشنطن.. حيث تعرض رئيسها «فيسنت فوكس» لانتقادات حـادة وصلت إلى السخرية منه فى الأغانى الشعبية بسبب تأييده للحرب الأمريكية على أفغانستان .. أيضاً فى البرازيل وصل الأمر بمشجعى فريقين لكرة القدم إلى ارتداء القمصان التى تحمل صور أسامة بن لادن اثناء المباراة، وكلما سجل أحد الفريقين هدفاً فى الآخر رفع مشجعوه صور بن لادن..!

* * *

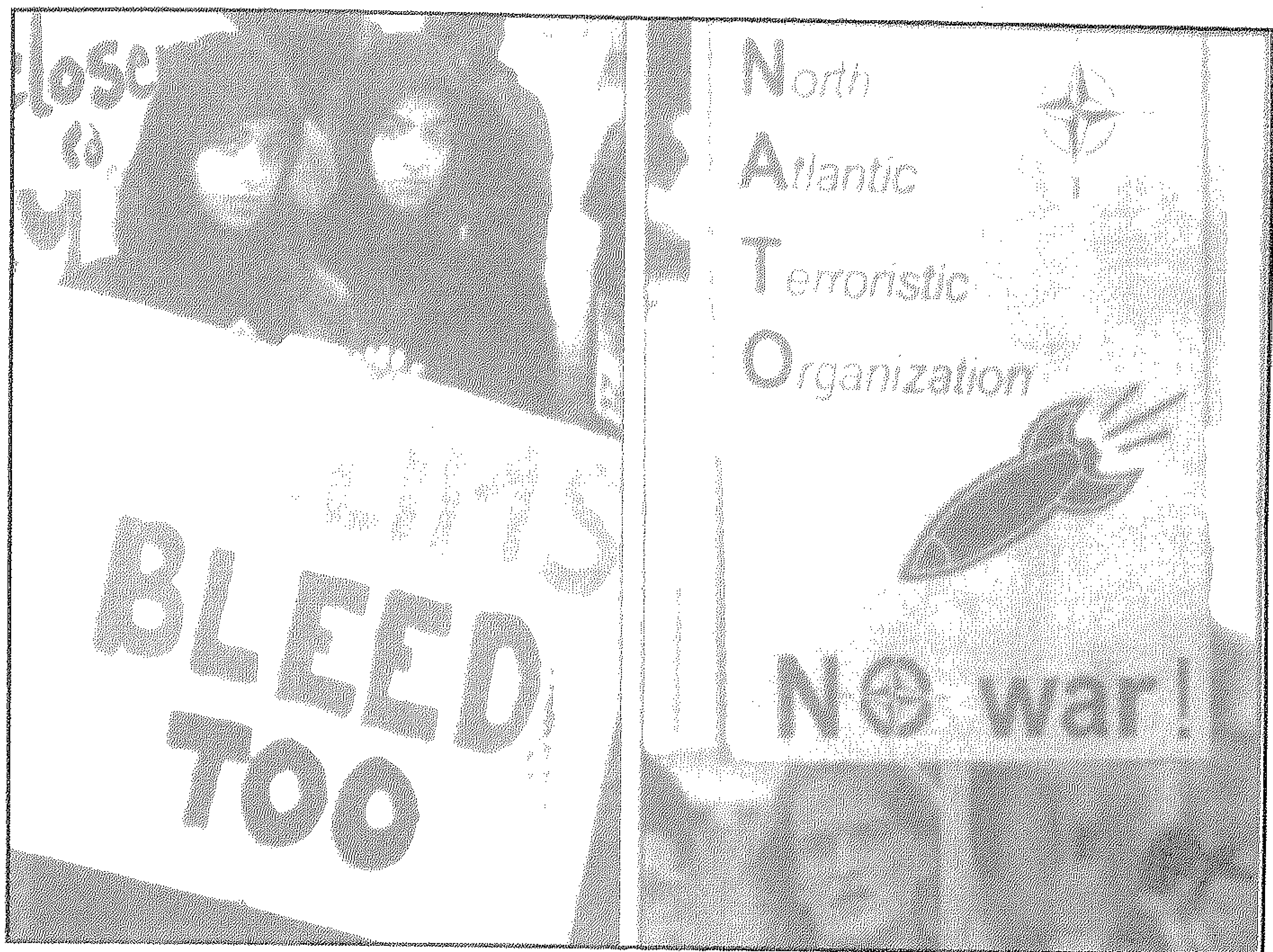
هذا التـحـول فى الرأى العـام العـالمى من مـؤيد للحـرب إلى مـعـارض لهـا، جـعل الأمريكيين يشـعرون أن خططهم فى الحـرب الإعـلامـيـة قد باءت كلـهـا بالفشل.. وأن عليهم البحث عن خطط أخرى ووسائل جديدة لمواجهة بن لادن إعلامياً .. فوجدوا أن أفضل وسيلة هو مواجهته من نفس المنبر الذى يستخدمه، وهو قناة الجزيرة..! لذلك جلس كبار المسئولين في الإدارة الأمريكيـة أمثـال باول ورامسفيلد وكونداليزا رايس أمام كاميرات الجزيرة، وكذلك فعل تونى بلير رئيس الحكومة البريطانية.. وأخذوا



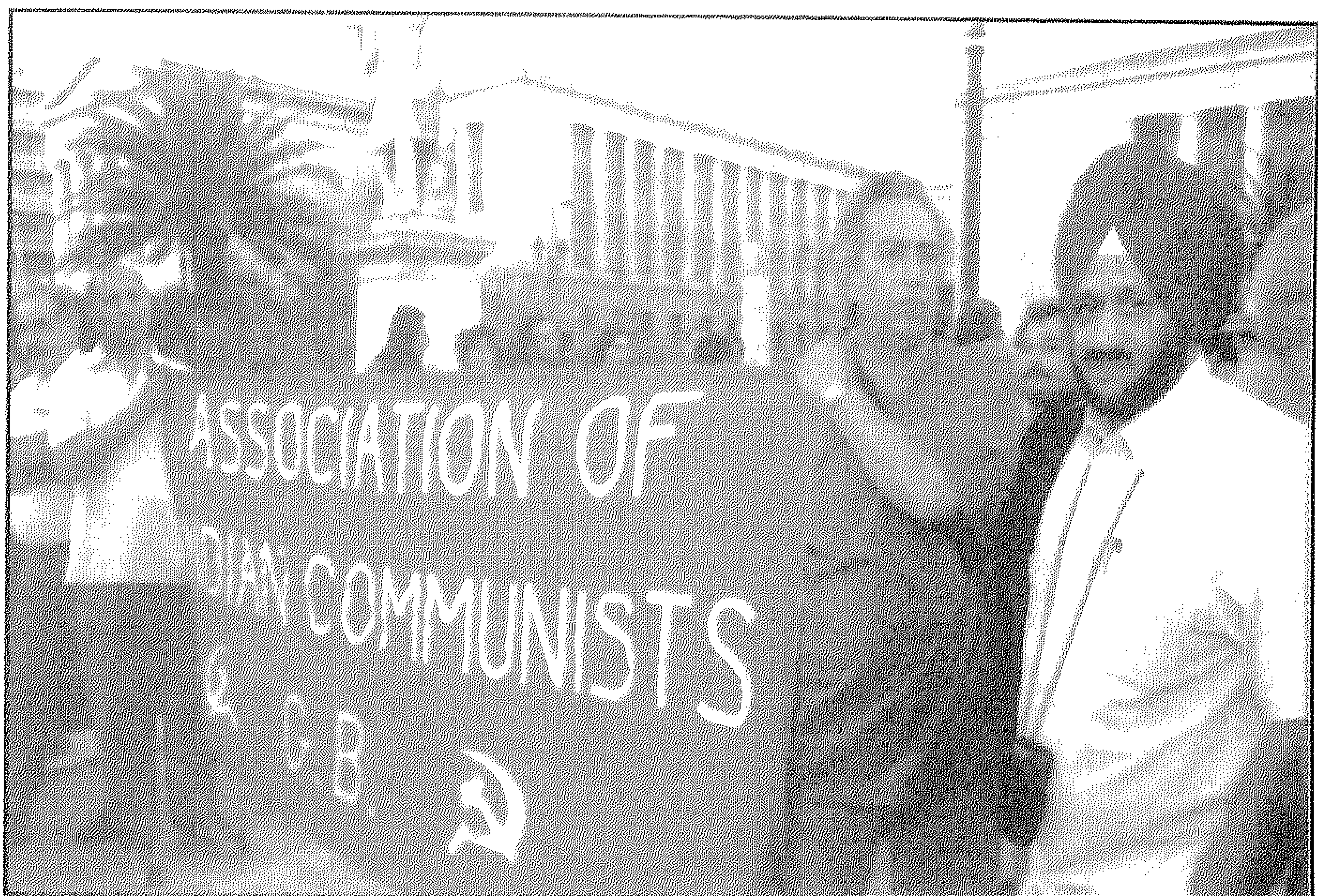
المتظاهرون طالبوا بالقاء القبض على بوش



المظاهرات أمام البيت الأبيض تطالب الإدارة الأمريكية برفع يديها عن أفغانستان والشرق الأوسط

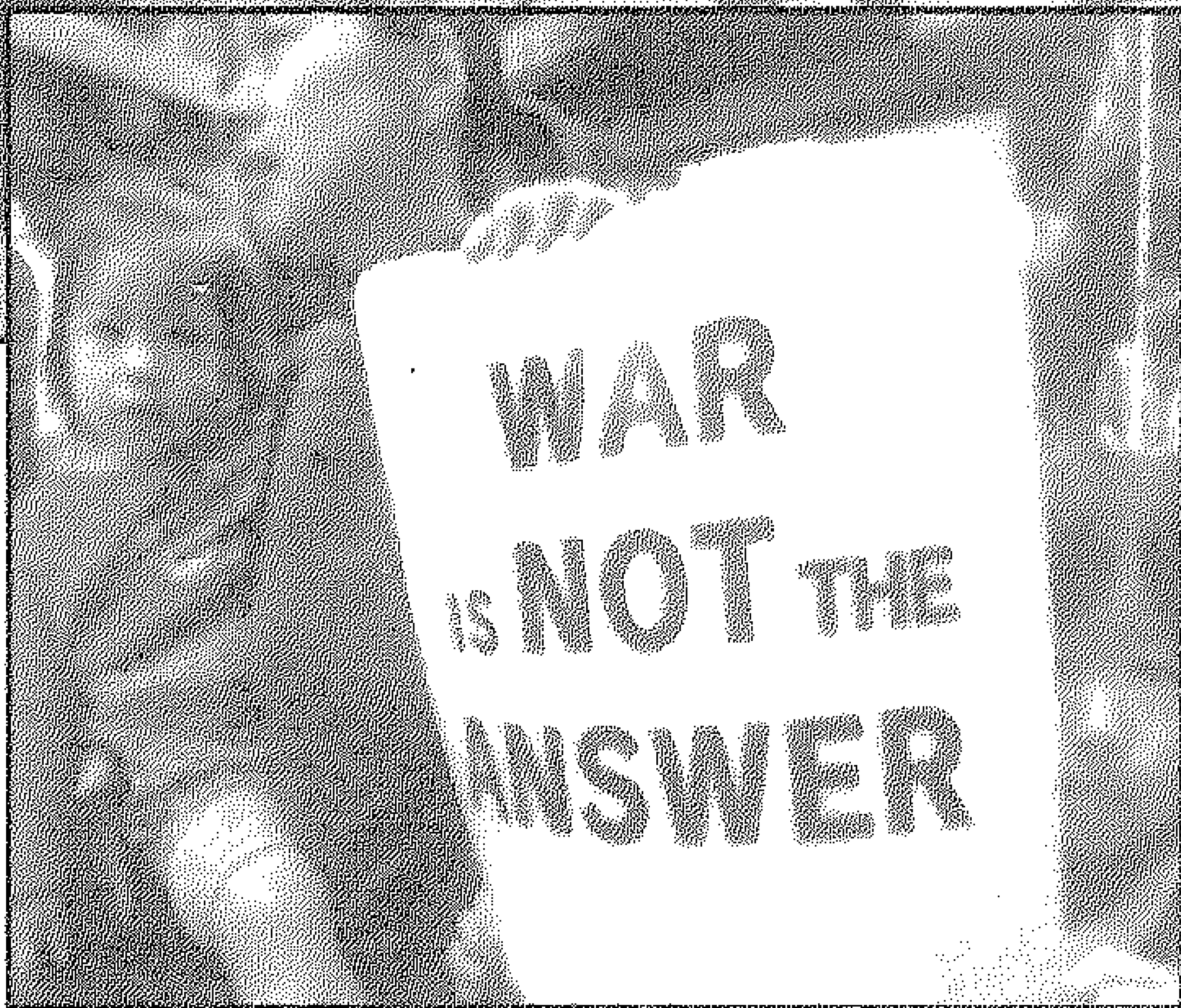


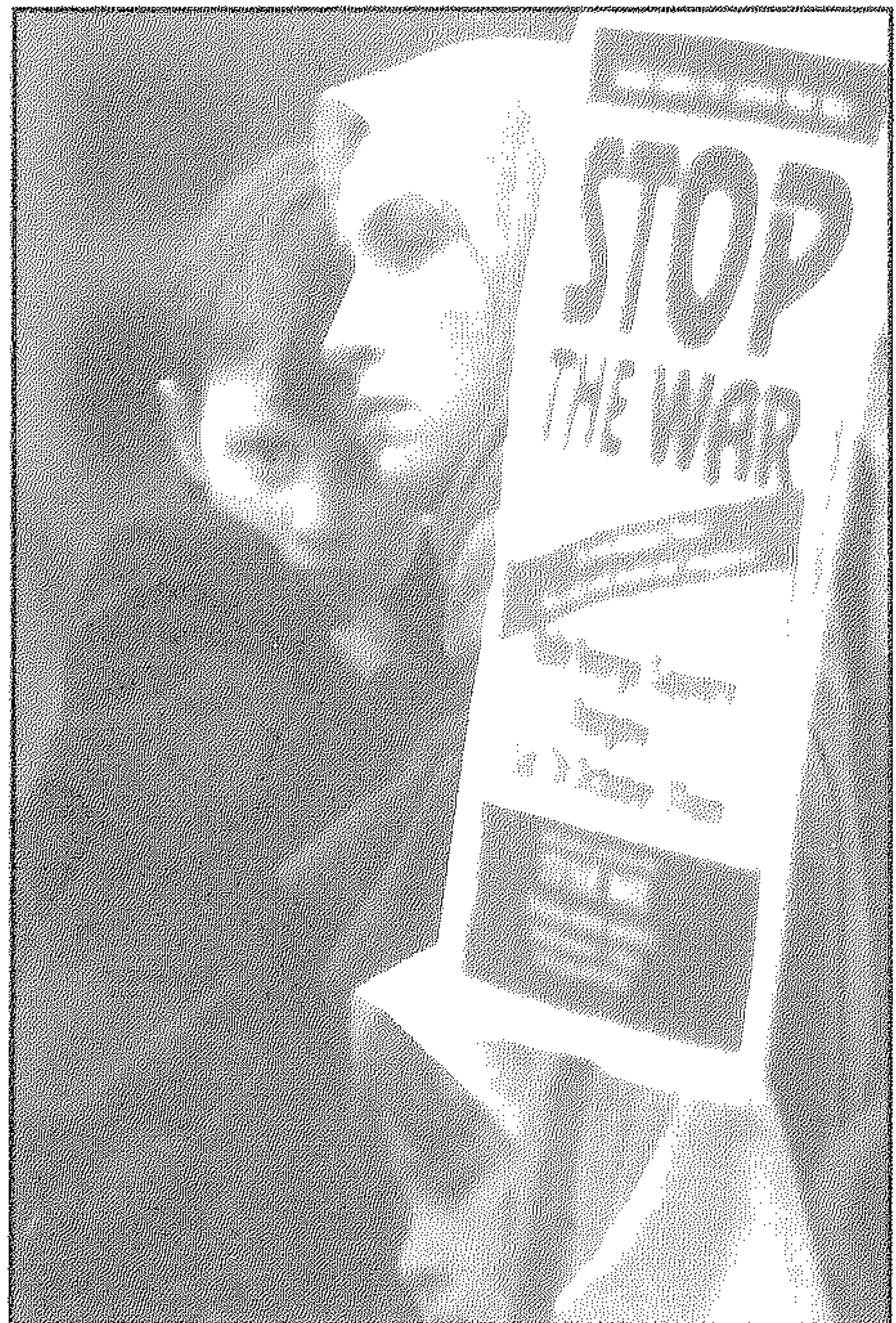
متظاهرون ضد الحرب يصفون حلف الاطلنطى بأنه منظمة إرهابية

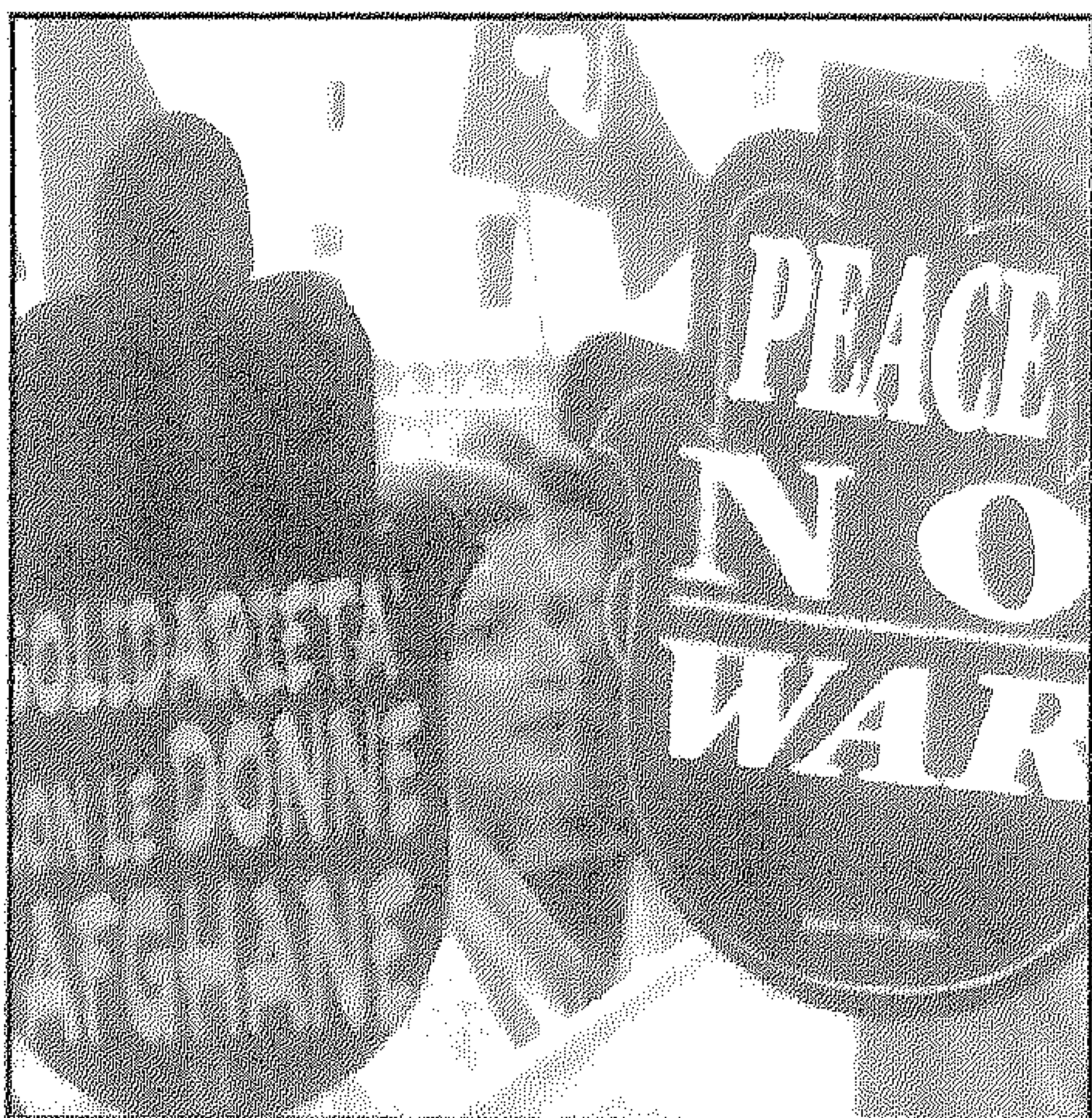


حتى السيخ طالبوا بوقف الحرب







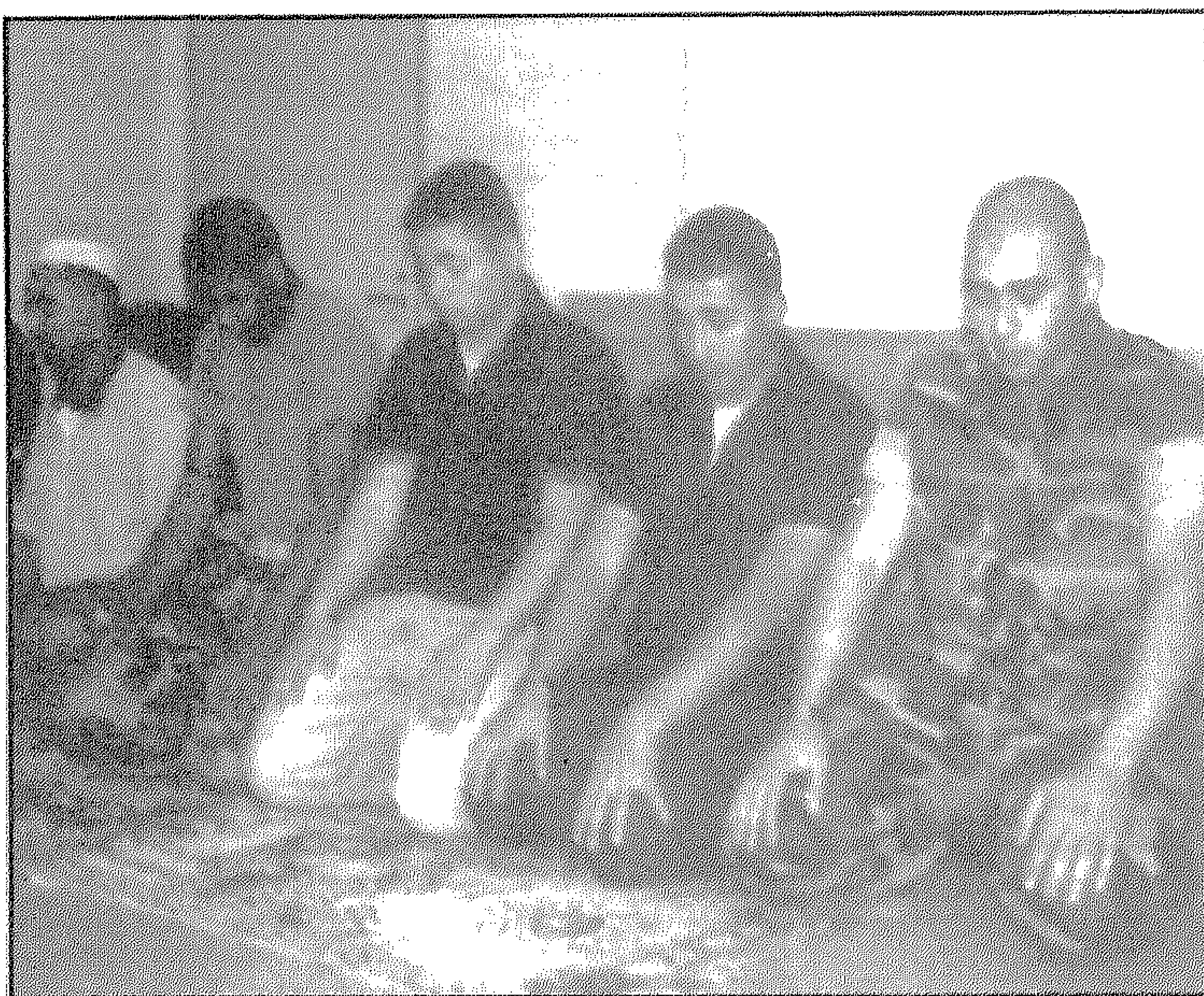


المظاهرات خرجت فى كل مكان بالعالم



انتشرت فى دول أمريكا
اللاتينية ظاهرة صناعة
أقنعة للوجه على شكل بوش
وأسامة بن لادن.. وكان قناع
أسامة بن لادن يباع بـ ٣٥
دولاراً، بينما قناع بوش
يباع بـ ١٥ دولاراً فقط ..!





صورتان لجنود أمريكيين مسلمين يؤدون الصلاة فوق إحدى حاملات الطائرات تم توزيعهما على وسائل الإعلام لتحسين صورة الولايات المتحدة فى العالم الإسلامى



تحليل لمظهر أسامة بن لادن وهو يلقى خطابه بعد الحرب من وجهة النظر الامريكية نشرته مجلة «نيوزويك»

يجيبون على الأسئلة التى توجه إليهم لعلهم بذلك يبررون الحرب التى يقومون بها ضد الشعب الأفغانى.

ثم أرادوا توسيع نطاق حربهم الإعلامية المضادة.. فبدأوا حملة بـ٥٢ لغة عبر إذاعة «صوت أمريكا» وشبكة الإنترنت وقنوات التليفزيون والصحف لتسويق وجهة النظر الأمريكية بين شعوب العالم وإيصال صوتهم إلى كل مكان يصل إليه صوت بن لادن.. كما أقاموا ٣ مراكز للمعلومات فى واشنطن ولندن وإسلام آباد كانت تعمل على مدار الـ ٢٤ ساعة وتبث للعالم كله بمختلف اللغات للرد بسرعة على بيانات طالبان وبن لادن.. كذلك أنشأوا إذاعة «أفغانستان الحرة» التى كانت موجهة إلى الشعب الأفغانى لإقناعه بأن الهدف من هذه الحرب هو تحرير أفغانستان..

ولم يكتفوا بإرسال صوتهم إلى العالم، وإنما منعوا طالبان من أن يكون لها صوت يسمعه العالم، بأن طلبوا من باكستان وقف المؤتمر الصحفى الذى كان يعقده الملا عبدالسلام ضعيف يومياً بالسفارة الأفغانية فى إسلام آباد..!

بقيت قناة الجزيرة التى تمسكت بحقها فى أن تنقل إلى المشاهد حقيقة مايحدث

السفيرة الامريكية تصوم رمضان تعاطفاً مع الجوعى الافغان	ذكرت تقارير صحفية امس أن ويندي تشامبرلين السفيرة الامريكية لدى باكستان قررت الصوم مع المسلمين خلال شهر رمضان لالقاء الضوء على محنة الاشخاص الذين يعانون من الجوع في أفغانستان وباكستان. وتعهدت تشامبرلين بالصيام من الفجر إلى المغرب خلال حفل أقامته للدبلوماسيين ورجال الاعلام في إسلام أباد مساء أمس الاول. وقالت صحيفة نيوز ان السفيرة أخبرت ضيوفها بأنها تأثرت من أعماقها بروح التضحية بالذات التي ينطوي عليها صيام رمضان. يشار إلى أن الولايات المتحدة تحاول التودد إلى العالم الاسلامي الذي يشعر الكثيرون من أبنائه بالاستياء من حملتها العسكرية في أفغانستان ومساندتها لاسرائيل. وكان الكونجرس الامريكي في واشنطن قد بدأ إحدى جلساته مؤخرا بتلاوة أيات من القرآن.رويترز

جريدة البيان» الإماراتية - عدد ٢١ نوفمبر ٢٠٠١، ص٢١
نموذج من الأخبار التى أخذت الإدارة الأمريكية تروجها فى وسائل الإعلام العربية والإسلامية من أجل تحسين صورتها، وذلك فى إطار الحرب الإعلامية التى كانت تخوضها ضد طالبان وبن لادن..!

فى أفغانستان.. وما يعنيه ذلك من أن تبث كل يوم صوراً لجثث ممزقة وأطفال يبكون، فقام الأمريكيون بقصف مكتبها فى كابول يوم الثلاثاء ١٣ نوفمبر ٢٠٠١، فدمروه واتلفوا الكاميرات وأجهزة الإرسال، بينما كان مديره تيسير علونى قد غادره قبل وقت قصير..!!

***

كل هذا فعلته الولايات المتحدة الأمريكية من أجل أن تكسب حربها الإعلامية ضد بن لادن وطالبان..

- لكن.. هل يمكن أن يصل بها الأمر إلى قتل الصحفيين..؟!
- لاتوجد إجابة...!!
- إذن لنطرح سؤالاً آخر لعله يقودنا إلى معرفة الإجابة على السؤال السابق..
- هل كانت الولايات المتحدة الأمريكية، عندما قصفت مكتب قناة الجزيرة فى كابول، تقصد قتل المراسل تيسير علونى أم اتلاف الكاميرات..؟

واذا كان المقصود هو قتل تيسير علونى.. فهل معنى ذلك أن الولايات المتحدة كانت وراء مقتل عشرة صحفيين آخرين لقوا مصرعهم خلال هذه الحرب؟..

السؤال ليس من بنات أفكارى.. لكن إذاعة «مونت كارلو» هى التى طرحته يوم الخميس ٢٢ نوفمبر ٢٠٠١ بصيغة أخرى، وإن كانت لم تشر فيه صراحة إلى الولايات المتحدة بالاسم..

قالت الإذاعة: ماهو السبب فى تعرض ١٠ صحفيين فى أفغانستان للقتل؟ هل مجرد السلب والنهب، أم منعهم من نقل مايشاهدونه للعالم..؟

أضافت «مونت كارلو» فى تقرير لها حول هذا الموضوع: «إن القتلى الجدد من أصحاب القلم والصورة تمت تصفيتهم على الطريق بين جلال آباد وكابول.. أى على

الطريق نفسه الذى لقى فيه أربعة صحفيين مصرعهم قبل ثلاثة أيام، والذين قيل أنهم تعرضوا لعمليات تعذيب وضرب كانت آثاره واضحة على أجسادهم مما سمح بالتكهن أن السلب لم يكن وحده ذريعة للقتل، وليس كذلك بسبب معركة تصادف تواجدهم في خضمها».


ماريا جراتسيا كوتولى

وقال التقرير: «إن هذه التساؤلات أعادت إلى الأذهان النقاش الذى دار في بداية الحرب الأفغانية حول منع الصحفيين من دخول أفغانستان، والحملة التى واجهتها قناة الجزيرة الفضائية بسبب احتكارها للصورة والخبر من كابول، ثم كيف تعرض مكتبها في العاصمة إلى قصف مدمر قبل دخول قوات التحالف الشمالى»..

أضاف: «إن الاستفسارات تبدو أكثر حدة، حين نعرف أن جميع الصحفيين القتلى لقوا مصرعهم فى مناطق تقع تحت سيطرة التحالف، بينما قامت حركة طالبان – التى منعت دخولهم الى البلاد- بإطلاق سراح الذين وقعوا بين أيديها»..

شهود حادث مقتل الصحفيين الأربعة علي الطريق بين جلال آباد وكابول يؤكدون أيضاً أن القتل لم يكن بدافع السرقة.. هكذا قال كل من محمد فاروق المترجم الأفغانى الذى كان بصحبتهم، و«توريالى» سائق السيارة التى كانت تقلهم فى روايتهما للحادث إلى حسبان الله ، وهو صحفى يعمل فى وكالة «إسلام أون لاين نت» – وصديقاً لى حيث قضينا معاً عدة أيام فى كابول.. وأنا هنا أنقل الرواية عنه شخصياً - قال المترجم والسائق: «تحركت قافلة الصحفيين الأجانب المكونة من ٨ سيارات في الساعة الثامنة صباحاً يوم الاثنين ١٩ نوفمبر ٢٠٠١ من فندق «سبين غر» بمدينة جلال آباد فى الطريق نحو كابول، وفى الساعة الحادية عشرة والنصف قبل الظهر أوقفنا ٦ رجال مسلحون عند منطقة «سورى تيجن» فى « ورخمين تنكى» بولاية «لغمان»، وأمروا الصحفيين الأربعة بالنزول من السيارات فنزلوا، فأخذوا يضربونهم بالحجارة أولاً ثم أمروهم بالسير نحو الوادى، وبعد قليل سمعنا صوت إطلاق النار عليهم»..

يضيف السائق «توريالى»: «بعد مقتل الصحفيين الأربعة عدت فى طريقى إلى جلال آباد فأخبرت السيارات التى كانت فى الطريق بما حدث ، وبذلك أنجيتها من الوقوع فى أيدى المسلحين».. قال أيضا إن المسلحين كانوا من الأفغان ويتحدثون

بالبشتونية، ولم يأخذوا شيئاً من الصحفيين، ولم يستولوا على معداتهم الفنية التي ظلت بالسيارة.. أما محمد فاروق المترجم فقال إن «توريالى» أنقذه من الموت عندما قال للمسلحين: «إنه من المسافرين العاديين، وليست له أية علاقة بالصحفيين»..!

والصحفيون الأربعة الذين قتلوا في هذا الحادث.. هم:

– «ماريا جراتسيا كوتولى» – ٣٩ عاماً– مراسلة صحيفة «كورييرا ديلا سيرا» الإيطالية.

– «خوليو فوينتس» مراسل صحيفة «إل موندو» الأسبانية.

– «هارى بورتون» مصور تليفزيوني إسترالى يعمل مراساً لوكالة «رويترز».

– «عزيز الله حيدرى» مصور أفغانى من كابول يعمل مراسلاً لوكالة «رويترز»..

* * *

بالطبع.. لايستطيع أحد الحصول على دليل ملموس يؤكد مسئولية جهة ما عن قتل هؤلاء الصحفيين..

لكن.. مادام القتل لم يكن بقصد السرقة كما قال الشهود..

إذن.. فهو بقصد منع الصحفيين من نقل حقيقة مايجرى فى أفغانستان إلى العالم..

والقاتل.. هو صاحب المصلحة فى ذلك..!!

* * *

السيد هانى

تم الكتاب بحمد الله تعالى في الساعة الحادية عشرة مساء ٢٠٠٣/٥/١٤

نفاق وكراهية وحرب ضد الإرهاب(١١٢)

بقلم: روبرت فيسك

صحيفة «الاندبندنت» البريطانية فى ٨/١١/٢٠٠١

إذا كانت الهجمات التى تعرضت لها أمريكا اعتداء على «الحضارة» لماذا - إذن - لايجب على المسلمين اعتبار الهجوم على أفغانستان حرباً على الإسلام؟

«حملة جوية!» «قوات تحالف» «حرب على الإرهاب!» إلى متى يجب أن نستمر فى تحمل هذه الاكاذيب؟

ليست هناك «حملة» فقط قصف جوى على أكثر البلدان فقراً وانقساماً فى العالم تشنه أغنى دولة فى العالم وأكثرها تقدماً. لم تظهر طائرات الميج فى السماء لتشتبك مع الطائرات الامريكية من طراز «بى - ٥٢» أو «إف - ١٨» ان القذائف الوحيدة التى تحلق فى الجو فوق كابول تأتى من المدافع الروسية المضادة للطائرات المصنوعة منذ عام ١٩٤٣.

ائتلاف على من رأى طائرات ألمانية تحلق فوق قندهار أو قوات جوية إيطالية أو فرنسية فوق هيرات أن يرفع يده أو رأى حتى القوات الجوية الباكستانية. ان الأمريكيين يقصفون أفغانستان ببعض الصواريخ المقدمة من بريطانيا ياله إذن من ائتلاف.

ثم هناك «حرب على الإرهاب» متى ستتحرك لقصف شبه جزيرة جافنا؟ أو الشيشان التى تركناها بالفعل بين يدى فلاديمير بوتين الملوثة بالدماء؟ إننى الآن استدعى إلى مخيلتى سيارة الارهابى الضخمة الملغومة التى انفجرت فى بيروت عام ١٩٨٥ - مستهدفة حسن نصر الله الزعيم الروحى لحزب الله الذى يعود الآن للظهور فى قائمة واشنطن للعقاب - وأخطأت نصر الله لكنها ذبحت ٨٥ مواطنا من المواطنين اللبنانيين الابرياء، وبعد عدة سنوات كشف كارل برنشتاين فى كتابه «الستار» ان وكالة الاستخبارات الامريكية كانت وراء الانفجار بعد أن وافقت السعودية على تمويل العملية.

وبالتالى هل سيقوم رئيس الولايات المتحدة بتعقب سفاحى وكالة الاستخبارات المركزية المتورطين فى الحادث انه لن يفعل ابدا.

لماذا إذن يهرول زملائى الحميمين فى الـ «سى إن إن» و «سكاى» و «البى بى سى»

وراء «الحملة الجوية» و «قوات التحالف» و «حرب على الارهاب» هل يعتقدون ان مشاهديهم يصدقون هذا الهذر؟ طبعا المسلمون لن يصدقوا فى الحقيقة انك لست مضطرا للبقاء فى باكستان فترة طويلة لكى تدرك ان الصحافة الباكستانية تعطى بلا حدود اكثر من النيويورك تايمز كشف حساب صادق ومتوازن «للحرب» وتنشر اعمال المفكرين المحليين والمؤرخين والكتاب المعارضين الى جانب تعليقات طالبان والبيانات المؤيدة للحكومة بالاضافة الى التحليلات الغربية المسوقة تجاريا تذكر ان كل هذا يتم فى ديكتاتورية عسكرية.

فقد يجب عليك أن تقضى بضعة أسابيع فى الشرق الأوسط وشبه القارة الهندية لكى تدرك لماذا لا تساوى أحاديث تونى بلير فى قناة الجزيرة وبرنامج لارى كينج على الهواء شيئاً فقد نشرت صحيفة «السفير» البيروتية اليومية مقالا لقى استحسانا واسع النطاق تتساءل فيه عن السبب الذى يدعو العربى الذى يريد ان يعبر عن غضب وخزى الملايين من العرب الآخرين لأن يفعل ذلك من داخل كهف فى دولة غير عربية والاجابة على هذا التساؤل بالطبع هو الذى دعا الامريكيين لان يصمموا على تصفية أسامة بن لادن وليس الجرائم التى ارتكبت ضد الانسانية فى الحادى عشر من سبتمبر.

الشىء الاكثر اقناعا كان سلسلة مقالات فى الصحافة الباكستانية حول المعاملة المهينة للمسلمين الذين ألقى القبض عليهم فى الولايات المتحدة فى اعقاب اعمال سبتمبر الوحشية.

ويكفى أن تقرأ واحداً من هذه المقالات. وهو مقال تحت عنوان «يوميات ضحية جريمة كراهية» نشر فى صحيفة «ذانيوز» التى تصدر فى لاهور ويوضح معاناة حسنين جاويد الذى ألقى القبض عليه فى الباما فى التاسع عشر من سبتمبر ومعه تأشيرة منتهية المدة. وفى السجن فى المسيسبى ضربة أحد المسجونين ضربا مبرحا وكسر له إحدى اسنانه ايضا. ثم بعد مرور وقت طويل من سماعه أجراس الانذار التى اطلقها مأمور السجن قام عدد آخر من الرجال بضربه فى الحائط وهم يقولون «إنها الجولة الاولى يابن لادن. وسوف تكون هناك عشر جولات مثل هذه» وهناك عشرات من مثل هذه القصص فى الصحافة الباكستانية وكثير منها يبدو انه صحيح.

مرة أخرى يثور غضب المسلمين على نفاق الغرب المفترض انه «يحترم» الاسلام. إننا لسنا كذلك حيث إننا أبلغنا العالم أننا سنواصل العمليات العسكرية على أفغانستان خلال شهر الصيام المقدس «رمضان». فعلى أى الأحوال فقد استمرت حرب ١٩٨٠ - ١٩٨٨ بين العراق وايران خلال شهر رمضان. وقد حدث مثل ذلك فى المعارك بين العرب وإسرائيل. وهذا حقيقى تماما لكن لماذا إذن قمنا بهذه التمثيلية واوقفنا القصف فى أول يوم جمعة بعد بدء الغارات الشهر الماضى بدافع «احترامنا» للإسلام؟

هل لأننا كنا أكثر احتراما أنذاك منا الآن؟ أو لأن جماعة طالبان مازالوا متماسكين فقررنا ان نتغاضى عن كل هذا «الاحترام»؟

منذ عدة أيام قال لى صحفى من بيشاور «إننى أستطيع أن أفهم لماذا تريدون عزل بن لادن عن ديننا بالطبع انكم تريدون ان تخبرونا انها ليست حربا دينية لكن ارجوك ياسيد روبرت، أرجوك، كفى حديثا عن مدى احترامكم للاسلام» وهناك نقطة خلاف مقلقة أخرى سمعتها فى باكستان لو أن الاعتداءات على نيويورك وواشنطن - كما يدعى السيد بوش - كانت اعتداءات على الحضارة - لماذا لا يجب على المسلمين ان يعتبروا الاعتداء على أفغانستان حربا على الإسلام؟

لقد اكتشف الباكستانيون بسرعة نفاق الاستراليين ففى الوقت الذى يتلهف فيه الاستراليون على الانضمام الى الحرب ضد بن لادن يرسلون قوات مسلحة لطرد اللاجئين الافغان المعدمين من مياههم الاقليمية بالقوة. ان الاستراليين يريدون قصف افغانستان لكنهم لا يريدون انقاذ الأفغان - إننا يجب ان نذكر ان باكستان تستضيف ٢,٥ مليون لاجىء افغانى. ولا حاجة لنا للقول بأن هذا التناقض لا يحظى بالنقل على الهواء عبر محطاتنا الفضائية وفى واقع الامر لم يسبق لى على الاطلاق أن شعرت بكل هذا الغضب الشديد الموجه الى الصحفيين مثلما شعرت فى باكستان فى الاسابيع القليلة الماضية ولست مندهشا من هذا.

على أية حال، ما الذى يفترض أن نفعله تجاه ما يسمى بالصحفى التليفزيونى الامريكى «الليبرالى» جيرالدو ريفييرا الذى انضم أخيرا إلى محطة تليفزيون فوكس وهى القناة المملوكة لميردوخ؟ «إننى أشعر بالوطنية اكثر من أى وقت مضى فى حياتى ومتلهف على العدالة، أو ربما للانتقام فقط هكذا أعلن هذا الاسبوع واضاف «أن تنفيس المشاعر هذا جعلنى أعيد تقييم اسلوبى فى الحياة» ان هذا يبعث القشعريرة فى الابدان فها هو صحفى امريكى يكشف انه محتمل «أن يكون متلهفا على الانتقام».

أنه أمر مخجل بلا حدود - وغير أخلاقى - تلك الكلمات المشينة التى قالها والتر اساكسون مدير سى إن إن لموظفيه ان نشر صور بؤس افغانستان ينطوى على خطر الترويج لدعاية العدو، حيث قال «من الانحراف التركيز بشكل كبير على الخسائر فى الارواح أو على المعاناة فى أفغانستان.. إننا يجب ان نتحدث عن كيفية استخدام طالبان للمدنيين كدروع بشرية وكيف تأوى طالبان الارهابيين المسئولين عن قتل ما يقرب من خمسة آلاف من الابرياء»

لقد كان إساكسون مديرا غير خلاق لمجلة «تايم» لكن هذه الكلمات الأخيرة سوف تفعل الكثير لتدمير حيادية سى إن إن اكثر من أى شىء أذيع فى السنوات الاخيرة.. انحراف وفساد؟ لماذا انحراف وفساد؟ لماذا تعد الخسائر فى الارواح الافغانية دون مستوى شفقة اساكسون؟ أم هل ان اساكسون ينفذ التوجيهات الصادرة منذ أيام

قليلة عن المتحدث باسم البيت الابيض ارى فليتشر الذى صرح منذرا الصحفيين فى واشنطن انه فى مثل هذه الاوقات «يجب على الناس ان يشاهدوا ما يقولونه وان يشاهدوا ما يفعلونه».

ليست هناك حاجة للقول بأن سى إن إن استسلمت لطلب حكومة الولايات المتحدة بعدم إذاعة كلمات بن لادن خشية ان تكون محتوية على «رسائل مشفرة» لكن الرسائل المشفرة تذاع عبر التليفزيون كل ساعة انها «الحملة الجوية» و «قوات التحالف» و «الحرب على الارهاب».

يا وسائل الإعلام.. التزموا (١١٣)

بقلم: جان برنارد كاريير

مجلة «لوبوان» الفرنسية ٢٠٠١/١١/٩

«عمتم مساء» كنا نرغب كثيرا هذا المساء أن نقول لكم بأننا نعرف شيئا حول ما يجرى فى بلدنا وفى العالم غير أن ذلك أصبح ببساطة غير ممكن». بهذا التصريح الغريب استهل بيتر جينجز نشرة الأخبار المصورة يوم الأربعاء الثالث من أكتوبر وهى التى يتابعها كل المشاهدين فى الولايات المتحدة. فلم تكن العمليات العسكرية قد بدأت بعد أن أفغانستان، حتى أن مقدم شبكة الـ «ايه بى سى» لم يستطع أن يخفى احباطه إزاء انعدام المعلومات المتاحة. لقد ظن الصحفيون الأمريكيون انهم قد وصلوا الى الحقيقة باندلاع حرب الخليج غير ان المعلومات المتعلقة بالحرب ضد الارهاب تعتبر اليوم محدودة للغاية. كما ان البنتاجون والبيت الأبيض أصبحا يتحكمان فى تدفقها.. فمنذ الساعات الأولى للهجوم على أفغانستان، كانت المعلومات يتم تسريبها بالقطارة على لسان وزير الدفاع دونالد رامسفيلد شخصيا. فمنذ وصوله الى البنتاجون قام هذا الجندى الخبير بالحرب الباردة والذى يعتبر أستاذا فى فن التضليل الاعلامى باغلاق جميع الثغرات التى من الممكن أن تتسرب منها المعلومات.

وبعد الحادى عشر من سبتمبر وصل به الأمر الى حد تهديد معاونيه بالسجن بتهمة الجريمة الفيدرالية اذا ما شاركوا فى ترويج أى أخبار حساسة.

حتى انه قام ذات يوم بسرد مقولة لتشرشل أمام لفيف من الصحفيين المذهولين حيث قال: «فى وقت الحرب، تصبح الحقيقة ثمينة للغاية حتى انه يتعين تغليفها ببعض الأكاذيب» غير انه استطرد قائلا: «لا تنسبوا الى هذا القول» مدركا بأنه ربما يكون قد غالى فى قوله بعض الشيء. فقد نسى بأن كلمته كانت تبث على الهواء مباشرة على شبكة الـ «سى إن إن» الاخبارية!

أما البعبع الآخر للاعلام فهو أرى فليتشر، المتحدث الرسمى باسم الرئاسة والذى تعتبر نشرته الموجزة نموذجا بارعا للأساليب الجوفاء.

فهو الذى يطالب أصحاب وسائل الاعلام بعدم نشر أى معلومات حول جدول أعمال الرئيس أو اجراءات الأمن المفروضة حول البيت الأبيض. وهو نفسه الذى يحاول دائما تحجيم الصحفيين اللحوحين قائلا: «ان الصحفيين يطرحون العديد من الأسئلة التى قد لا يفضل الأمريكيون طرحها».

لقد حاول البيت الأبيض أن يفرض السرية على اتصالاته مع الكونجرس ومع ذلك تم تسريب العديد من المعلومات. ومن الآن فصاعدا لن يتم نقل المعلومات الحساسة سوى الى مجموعة من البرلمانيين. ولكن أمام اصرار مجلس الشيوخ على الإلمام بالحقيقة اضطر بوش الى التراجع عن موقفه.

غير أن تلك السياسة الاعلامية لا يمكن أن تقتصر على اغلاق صنبور المعلومات. لأن هناك آخرين ممن يقومون عندئذ بملء هذا الفراغ. وبخاصة قناة الجزيرة الشهيرة فقد اعتبرت بداية بمثابة تليفزيون العدو.

وفى خطوة غير مسبوقة فى بلاد الصحافة المستقلة، قام البيت الأبيض، من خلال صوت مستشار الأمن القومى للرئيس الأمريكى بالاتصال، عبر الهاتف مباشرة بأصحاب المحطات الأمريكية لمطالبتهم بالتروى فى الحكم خلال بثهم تصريحات بن لادن ومعاونيه.

لقد وعدت شبكات التليفزيون بأنها سوف تكون حذرة. وانتهى الأمر بالحكومة الأمريكية بأن تفهمت المصلحة التى يمكن أن تجنيها من وراء محطة الجزيرة القوية. فمن الآن فصاعدا قام الدبلوماسيون الأمريكيون بتوجيه نصائحهم بانتظام باللغة العربية.

لم يعد القصف فى صمت ممكنا وبخاصة عندما نبدأ فى طرح الأسئلة حول الهدف المقصود. لقد وصل الأمر بجورج بوش الى تكوين مجموعات دعائية فى اسلام أباد ولندن وواشنطن وهى مجموعات قوى حقيقية للرد السريع وهى مخولة بالرد أولا بأول على الهجوم أو الانتقادات أيا كان مصدرها.

السى إن إن تحت السيطرة

من السهل اقناع الرأى العام الأمريكى. ففى بلد يعتريه القلق، ومعتاد بالتفاخر بألوان علمه القومى فان وسائل الاعلام تتابع استطلاعات الرأى التى تجرى على

شعبية الرئيس الأمريكي . فقد أعلن دان دازر مقدم التليفزيون فى محطة الـ سى بى إس فى أحد البرامج المسائية عن استعداده التام للامتثال لمطالب زعيم البيت الأبيض.

ومع ذلك تقوم إدارة بوش بمتابعة الـ سى إن إن بحذر، وبشكل مستتر لوح البيت الأبيض الى أن هذه القناة تبث على سجيتها عددا كبيرا لصور الضحايا المدنيين لعمليات القصف الأمريكية. وبناء على هذا التوجيه قامت ادارة الـ «سى إن إن» على الفور بتوزيع مذكرة داخلية فى الثلاثين من شهر أكتوبر فباسم التوازن الاعلامى طالبت الادارة بتوخى الحذر «وعدم التركيز على بث صور الضحايا المدنيين والفظائع الحتمية للحرب الدائرة فى أفغانستان».

وتؤكد المذكرة أن «العمليات العسكرية الأمريكية انما تعتبر رد على هجوم ارهابى أدى الى مقتل ما يقرب من ٥ آلاف شخص بالولايات المتحدة الأمريكية».

الولايات المتحدة تخاطر بخسران المعركة على الصعيد الإعلامى[١١٤]

بقلم: توماس فريدمان

صحيفة «هيرالد تريبيون» الدولية ٣-٢٠٠١/١١/٤

بعد مرور شهر على الحرب فى افغانستان بدأ القلق يثور حول الفترة التى قد تستغرقها هذه الحرب لذا فعلينا ان نهدأ ونردد سويا: اعطوا الحرب فرصتها ان ما نتحدث عنه هو أفغانستان هذا البلد الذى اذا نظرنا الى موقعه على الخريطة فسنجده بعيدا جدا.

ليس لدى اى شك فى الوقت الحالى فى ان فريق بوش يعمل طبقا لاستراتيجية عسكرية تهدف الى الفوز بالحرب على المدى الطويل ومع ذلك فما يقلقنى حقا هو ما اذا كان يعمل طبقا لاستراتيجية هدفها الابقاء على حرب طويلة مع الحفاظ على العلاقات العامة مع الدول الاخرى. اذ بمرور الوقت سوف يصبح للرأى العام العربى والمسلم أهميته حيث ستتأثر الأغلبية الصامتة فى باكستان - التى تؤيد فى الوقت الحالى تحالف الرئيس «برويز مشرف» المشكل حديثا مع الولايات المتحدة - بالاتجاهات السائدة فى الرأى العربى المسلم، وكذلك سيكون الجيل القادم فى

المنطقة. وانه لمن الأهمية بمكان أن ينظر هذا الجيل الى أسامة بن لادن باعتباره «مارقا» وليس باعتباره قدوة يحتذى به. وعلى ذلك فالسؤال الآن هو: كيف ينبغى على أمريكا أن تخوض حرب العلاقات العامة هذه؟

تعتبر أهم طرق الفوز بتلك الحرب هى الفوز أولا بالحرب الحقيقية ـ عن طريق الاطاحة بنظام طالبان وبشبكات بن لادن الارهابية. وبذلك تكون أمريكا قد بعثت برسالة فحواها أن ما حدث هو مصير أى شخص تسول له نفسه قتل خمسة آلاف من الأمريكيين الأبرياء.

وبمنتهى البساطة، اذا فزنا نحن ـ الأمريكيين ـ بالحرب ويبدو أننا سنكسبها فاننا سنكتسب أصدقاء وحلفاء من المسلمين العرب، أما اذا اعتبرنا خاسرين أو غير واثقين من الفوز فسرعان ما سيتخلى عنا حلفاؤنا.

وبالاطلاع على بعض تعليقات الصحف العربية على الأحداث نستطيع ادراك انه لا يزال لدى «بن لادن» وصدام حسين قدر كبير من التأييد الشعبى. انه ليس من السهل التحايل على خسارة تلك الحرب الاعلامية (حرب العلاقات العامة) لصالح اثنين من مرتكبى جرائم القتل الجماعى، ولكن هذا هو ما يحدث مؤخرا فلا ينبغى أن يكتفى البيت الأبيض بتسميتهم «أشرارا» انما ينبغى أن يفتح نيران الحرب الاعلامية (العلاقات العامة) عليهم بصورة مباشرة وكأنها حرب حقيقية.

فعندما يسأل الرئيس بوش أو أحد المتحدثين باسمه عن حجم القتلى من المدنيين الأبرياء الذين راحوا ضحايا التفجيرات الأمريكية فى أفغانستان، فينبغى عليهم الاجابة كما يلى: «لليوم الثلاثين على التوالى يقى أسامة بن لادن ـ مرتكب جرائم القتل الجماعى ـ نفسه بدروع بشرية من المدنيين الأفغان، ولسوء الحظ فان ذلك يؤدى الى موت العديد من المدنيين» ويمكن الاجابة بصورة أخرى وهى: «للأسبوع الرابع على التوالى فان أسامة بن لادن، الرجل الذى يرسل المسلمين الآخرين كى يلقوا حتفهم فى سبيله ولا يخاطر أبدا بحياته هو، يبعث الأفغان للموت بدلا منه».

ونفس الحال ينطبق على صدام فكلما أشار المسئولون الأمريكيون اليه ينبغى أن يكون قولهم دائما: «صدام حسين، الرجل الذى قتل عددا من المسلمين أكثر من أى شخص آخر خلال القرن العشرين». (فقد قتل ملايين الايرانيين والأكراد العراقيين والكويتيين)، أو يشيرون الى صدام وبن لادن على أنهما «أكبر المختطفين على مستوى العالم ـ فكل منهما اختطف بلدا بأكملها واحتجز أهلها كرهائن، ونحن ـ الأمريكيين ـ نحاول أن نحررهم».

إن إدارة «بوش» فى حاجة الى أن تلعب دور الهجوم الى جانب اتقانها لدور الدفاع، فقد حان الوقت لأن تقوم الادارة بالمزيد من أجل ابعاد الصراع الفلسطينى ـ الاسرائيلى السام عن شاشة التليفزيون. ليس عليها ان تنهى ذلك الصراع وانما ينبغى أن ترسل مبعوثا أمريكيا جادا رفيع المستوى لمحاولة الوصول الى وقف

اطلاق نار حقيقى أو حل مؤقت للصراع القائم، فمن الجدير بالذكر ان الاسرائيليين والفلسطينيين لن يتمكنوا بمفردهم من الخروج من ذلك الطريق المسدود، الى جانب أن المفاوضات لن تنهى العنف انما على الأقل قد تخلق نوعا من المنافسة بين كلا الطرفين من أجل طرح أفكار نشطة.

ولكننا لا نستطيع الهجوم وحدنا فلا يكفى قيام حلفائنا: مصر والسعودية أو الكويت، باصدار بيان رسمى مؤيد للولايات المتحدة ثم بعد ذلك يدفنون رؤوسهم فى الرمال. فحتى الآن لم يقم زعيم عربى مسلم واحد بعد بالرد على رسالة «بن لادن» المسجلة على شريط فيديو والتى سمعها العالم العربى بأكمله. وعلى حلفائنا العرب أن يقوموا بتوعية شعوبهم لماذا هم مع الأمريكيين، فلا يصح أن يسمحوا لنا سرا باستخدام قواعدهم بينما تذكى الصحف العربية نار الغضب ضد أمريكا.

وقد صرح «بن لادن» موجها حديثه للعرب بأن استراتيجية العرب للتحديث قد أخفقت وان كل ما تبقى هو الاسلام. على وجه الخصوص تفسير بن لادن الغاضب والمتخلف له. وينبغى على مصر، البلد العربى الأكبر، أن تهاجم تلك الرسالة وتصر على اثبات أن هناك رؤية عربية تستطيع المزج بين الحداثة واحترام الثقافة والتقاليد العربية. وينبغى أيضا على السعودية، زعيمة الدول المسلمة، أن تهاجم تلك الرسالة وتصر على وجود نموذج مسلم يمزج بين الايمان والتسامح والعصرية. ولكن من أجل تسويق هذه الرؤية ونشرها عليهم أولا أن يطبقوها بصورة فعلية.

الخلاصة هى اننا لا نستطيع الفوز بتلك الحرب الاعلامية (حرب العلاقات العامة) عن طريق مناقشات هادئة أو دبلوماسية سلبية أو الاعتماد على حلفاء يخشون انتزاع المستقبل من رجل يرغب فى دفنه مع الماضى.

المصادر والهوامش

١- وكالة الأنباء الفرنسية.. في ٢٠٠١/٩/٢٠
٢- وكالة رويترز للأنباء في ٢٠٠١/١٠/١١
٣- صحيفة «نيويورك ديلى» الأمريكية، ووكالة أنباء الشرق الأوسط فى ٢٠٠١/١٠/٢
٤- صحيفة «الجمهورية» - عدد ٢٠٠١/٩/٢٢ ص٧
٥- صحيفة الأهرام - عدد ٢٠٠١/٩/٢٢ ص٦
٦- جريدة الجرائد العالمية - عدد ٢٠٠١/١١/٢٠ - ترجمة: نادية سليدس
٧- من حوار خاص أدلى به أسامة بن لادن إلى قناة الجزيرة فى نوفمبر ١٩٩٨
٨- بناء على ما ورد فى تقديرات الخبراء العسكريين والميزانيات الإضافية التى اعتمدها الكونجرس الأمريكى لهذه الحرب.
٩- نشرت ترجمة للحديث بجريدة البيان الإماراتية عدد ٢٣ سبتمبر ٢٠٠١
١٠- عدد ٢٠٠١/٩/١٥
١١- عدد ٢٠٠١/٩/١٥ - ترجمة وفاء شاهين بجريدة الجرائد العالمية.
١٢- صحيفة «لوفيجارو» الفرنسية ووكالات الأنباء.. فى ٢٠٠١/٩/١٥
١٣- من تقرير خاص لصحيفة نيويورك تايمز - أعده ستيفن إينجلبرج، وكريج بيس، وخوريت ميلر. ونشر بجريدة الشرق الأوسط فى ٢٠٠١/١/١٥
١٤- جريدة المساء - عدد ٢٠٠١/٩/٢٢ - محمد غزلان.
١٥- مجلة دير شبيجل الألمانية - عدد ٢٠٠١/٩/١٥
١٦- وكالة «إيتارتاس» الروسية.. وصحف باكستانية فى ٢٠٠١/٩/١٨
١٧- وكالات الأنباء فى ٢٠٠١/٩/١٨
١٨- وكالات الأنباء - وصحيفة البيان الإماراتية فى ٢٠٠١/٩/١٤ ص١٤
١٩- صحيفة الأخبار - فى ٢٠٠١/٩/١٩
٢٠- صحيفة البيان الإماراتية فى ٢٠٠١/٩/١٤
٢١- نفس المصدر السابق
٢٢- فى ٢٠٠١/٩/١٨
٢٣- فى ٢٠٠١/٩//١٨
٢٤- صحيفة الجمهورية فى ٢٠٠١/٩/٢٠ ص٥
٢٥- صحيفة الجمهورية فى ٢٠٠١/٩/٢١ ص٤
٢٦- صحيفة الأهرام فى ٢٠٠١/٩/٢٢ ص٥
٢٧- صحيفة مايو فى ٢٠٠١/٩/١٧ ص٥
٢٨- فى ٢٠٠١/٩/١٨
٢٩- نقلاً عن الأستاذ فهمي هويدى - صحيفة الشرق الأوسط فى ١٩٩٨/١٢/١٧.. نقلاً عن كتاب «عن طالبان» للملا حفيظ الله حقانى.
٣٠- د.ماجدة صالح - «الصعود السياسى لطالبان» - مركز الدراسات الأسيوية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية جامعة القاهرة.
٣١- المرجع السابق.
٣٢- المرجع السابق.
٣٣- كتاب «إرث طالبان» للأستاذ احمد رشيد.
٣٤ - المرجع السابق.
٣٥- صحيفة الجمهورية - عدد ٢٠٠١/١٠/٩ ص٥
٣٦- فى كلمة القاها بالجامعة الأمريكية - صحيفة المساء - عدد ٢٠٠١/١٠/٩ ص٤
٣٧- صحيفة الأهرام - عدد ٢٠٠١/١٠/٩ ص٣

٣٨ـ وكالة الأنباء الألمانية فى ٢٠٠١/١٠/٨
٣٩ـ صحيفة المساء ـ عدد ٢٠٠١/١٠/٩ ص٢
٤٠ـ المصدر السابق.
٤١ـ المصدر السابق.
٤٢ـ مظاهرات الغضب والاستنكار انطلقت فى العديد من دول العالم، بما فى ذلك الولايات المتحدة وبريطانيا نفسيهما.. مما اضطر الولايات المتحدة إلى إغلاق سفاراتها فى عدد من الدول.. لكننى لم أتناول ذلك بالتفصيل لأنه ليس موضوع هذا الكتاب. وقد أوردت رد فعل الشارع الإندونيسى فقط لأنه أثر بشكل كبير على الموقف الرسمى للدولة.. بينما لم يؤثر مثلاً رد فعل الشارع الباكستانى إطلاقاً على الموقف الرسمى للدولة على الرغم من أنه كان قوياً وعنيفاً.. وهذا ما تتناوله الفصول القادمة من الكتاب.
٤٣ـ صحيفة الجمهورية ـ عدد ٢٠٠١/١٠/٩ ص٤
٤٤ـ المصدر السابق.
٤٥ـ وكالة أنباء رويترز فى ٢٠٠١/١٠/٨
٤٦ـ قناة الجزيرة التليفزيونية ـ مساء ٧ أكتوبر ٢٠٠١ عقب بدء الهجوم الأمريكى على افغانستان.
٤٧ـ نشر يوم ٨ أكتوبر بصحيفة الاتحاد الإماراتية نقلاً عن الصحيفة الألمانية.
٤٨ـ عدد ٢٠٠١/٩/٢١
٤٩ـ صحيفة «هيرالد تريبيون» الدولية ـ عدد ٢٠٠١/١٠/١٥ ـ مقال بقلم: «براهما تشيلانى».. نشر بعد ذلك «بجريدة الجرائد العالمية» فى ٢٠٠١/١٠/٣٠ ترجمة: زايد مختار.
٥٠ـ صحيفة الجمهورية ـ عدد ٢٠٠١/٩/١٦ ص٥
٥١ـ صحيفة المساء ـ عدد ٢٠٠١/٩/١٦ ص٢
٥٢ـ صحيفة المساء ـ عدد ٢٠٠١/٩/٢٢ ص ٥ ـ محمد هزاع.
٥٣ـ المقال نشر بجريدة الجرائد العالمية ـ عدد ٢٠٠١/١٠/١٦ ص٥ ـ ترجمة:رابحة سالم
٥٤ـ صحيفة الاتحاد الإماراتية ـ فى ٢٠٠١/١٠/٢٦ ـ ص٢٧
٥٥ـ أدلى بهذه التصريحات اثناد زيارة قام بها إلى لندن بدأت فى الأسبوع الأخير من شهر أكتوبر ٢٠٠١.. ونقلت التصريحات وكالات الأنباء.. وأوردها المؤلف هنا نقلاً عن محطة تليفزيون الجزيرة.
٥٦ـ صحيفة الاتحاد الإماراتية فى ـ ٢٠٠١/١٠/٢٦ ـ ص ٢٧
٥٧ـ صحيفة «ذانيوز» الباكستانية فى ٢٠٠١/١٠/٢٧
٥٨ـ الخبر نقلته وكالة الأنباء الفرنسية يوم ٢٠٠١/١٠/٩
٥٩ـ من الشخصيات السياسية البارزة فى باكستان، وعمل عدة سنوات سفيراً لبلاده فى مصر.. وكانت زيارته للقاهرة فى إطار جولة قام بها فى عدد من الدول العربية لنفس المهمة
٦٠ـ نشرت أيضا جريدة المساء بالصفحة الثانية يوم ٢٠٠٢/١/٦ تصريحاً نسبته إلى أحد كبار ضباط الجيش الهندى يقول فيه: «ان الحكومة الباكستانية ترى أن أسلحتها النووية لا تختلف عن اى معدات عسكرية يمكن استخدامها فى وقت الحرب».
٦١ـ صحيفة «أهم الأخبار» الباكستانية فى ٢٠٠١/١١/٩ .. ص٣
٦٢ـ نشرت الترجمة بجريدة البيان فى ٢٠٠١/١١/٢١ ص ٢٨
٦٣ـ أعيد نشر الحديث فى صحيفة «أهم الأخبار» الباكستانية فى ٢٠٠١/١١/١٢ ص٤
٦٤ـ صحيفة «أهم الأخبار» الباكستانية فى ٢٠٠١/١١/١٣ ص٣.. نقلا عن صحيفة «الوطن» السعودية.
٦٥ـ صحيفة «أهم الأخبار» الباكستانية فى ٢٠٠١/١١/١٣ ص٣.. فى تقرير من واشنطن كتبه: جيمس رازين، وجوديث ميلار.
٦٦ـ صحيفة «أهم الأخبار» الباكستانية فى ٢٠٠١/١١/٢١ ص١
٦٧ـ يعرف طريق الحرير فى هذه المنطقة ايضا باسم «طريق كراكورم».. وكانت هذه هى المرة الثانية التي تقوم فيها القبائل الشمالية بإغلاقه.. كانت المرة الأولى فى عام ١٩٧٧ عندما قامت حكومة ذوالفقار على بوتو باعتقال عدد من زعماء قبائل هذه المنطقة.. فردت القبائل على ذلك بإغلاق الطريق، ووضعت شرطين لإعادة فتحه.. الشرط الأول: الإفراج عن زعمائهم المعتقلين.. والشرط الثانى: استقالة حكومة بوتو.. وظل الطريق مغلقاً حتى وقع انقلاب عسكرى بقيادة الجنرال ضياء الحق الذى أفرج عن المعتقلين وأعاد فتح الطريق.
٦٨ـ كان من عادة الرئيس مشرف فى جميع تصريحاته وحواراته ومؤتمراته الصحفية ان يقول «تأييد التحالف الدولى فى الحملة على الإرهاب».. وليس تأييد الولايات المتحدة.. لاقناع من يسمعه بأن باكستان اتخذت هذا

الموقف لكونها جزءاً من المجتمع الدولي وعليها مسئولية دولية يجب أن تؤديها، وليس كونها تابعاً لأمريكا.
٦٩ - جريدة الجمهورية - عدد ٢٠٠١/١١/٣ ص٤
٧٠ - أعطى الرئيس بوش هذا الوعد للشعب الأمريكي يوم ٢٠ أكتوبر ٢٠٠١ عقب مشاهدته فشل أول عملية انزال برى للقوات الأمريكية بأفغانستان.. جريدة «الجمهورية» عدد ٢٠٠١/١٠/٢١ ص٣
٧١- جريدة «أهم الأخبار» الباكستانية عدد ٢٠٠١/١١/١ ص١
٧٢ - نفس المصدر السابق.
٧٣ - جريدة «أهم الأخبار» الباكستانية عدد ٢٠٠١/١١/٥ ص٤
٧٤ - جريدة «الجمهورية» - عدد ٢٠٠١/١٠/٢٢ ص٥
٧٥- جريدة «الجمهورية» - عدد ٢٠٠١/١٠/٢٦ ص٥
٧٦ - جريدة «أهم الأخبار» الباكستانية - عدد ٢٠٠١/١١/٧
٧٧ - جريدة «الأهرام» - عدد ٢٠٠١/١٠/٢٩ ص٦
٧٨ - جريدة «الجمهورية» - عدد ٢٠٠١/١٠/٣٠ ص٧
٧٩ - جريدة «الجمهورية» - عدد ٢٠٠١/١١/٦ ص٥
٨٠ - جريدة «الجمهورية» - عدد ٢٠٠١/١٠/٢٦ ص٥
٨١ - جريدة «الجمهورية» - عدد ٢٠٠١/١٠/٣٠ ص٧
٨٢ - جريدة «الأهرام» - عدد ٢٠٠١/١٠/٢٩ ص٤
٨٣ - جريدة «الأهرام» - عدد ٢٠٠١/١٠/٢٧ ص ٥
٨٤ - جريدة «المساء» - عدد ٢٠٠١/١٠/٢٩ ص٢
٨٥ - طبقا لما نشرته صحيفة «لوموند» الفرنسية فى عدد ٢٠٠١/١٠/٢٢ بقلم «فرانسواز شيبو».. فإن المساحة المزروعة بالأفيون فى أفغانستان عام ٢٠٠٠ بلغت ٨٢١٧٢ هيكتار، انتجت ٣٢٧٦ طناً، ولما كان سعر الطن حوالى ٦٠٠ دولار، فإن عائد هذه الكمية من الأفيون بلغ ١٩٦٥.٦ مليون دولار.. ثم أصدر الملا محمد عمر فى يوليو من عام ٢٠٠٠ قراراً بحظر زراعة الأفيون، فتقلصت المساحة المنزرعة به فى عام ٢٠٠١ إلى ٧٦٠٦ هيكتارات فقط وكان ٨٣٪ من هذه المساحة.. اى ٦٣٤٢ هيكتاراً تقع فى منطقة «باداخشان» التى كان يسيطر عليها التحالف الشمالى ذلك الوقت.. فانخفض بذلك حجم إنتاج أفغانستان عام ٢٠٠١ من الأفيون إلى ١٨٥ طناً فقط بلغ عائد مبيعاتها ١١١ مليون دولار.. كما انخفضت نسبة انتاجها من ٧٥٪ من حجم الإنتاج العالمى من الأفيون إلى ١٠٪ فقط.
٨٦ - صحيفة «الأهرام» - عدد ٢٠٠١/١١/١١ ص٤
٨٧ - صحيفة «الجمهورية» - عدد ٢٠٠١/١١/١٢ ص٦
٨٨ - صحيفة «أهم الأخبار» الباكستانية عدد ٢٠٠١/١١/١٢ ص١
٨٩ - حصل الأفغان على ألف صاروخ ستينجر من الولايات المتحدةالأمريكية فى الفترة بين عامى ١٩٨٦ و١٩٨٩ لاستخدامها فى الحرب ضد القوات السوفيتية وقد ادى استخدام هذه الصواريخ إلى حسم الحرب لصالح الأفغان وانسحاب الاتحاد السوفيتى من أفغانستان عام ١٩٨٩.. حيث كان هذا النوع من الصواريخ يحول دون تحليق الطائرات السوفيتية فى سماء أفغانستان ويستطيع إسقاط اى طائرة تحلق على ارتفاعات تصل إلى ١١ كيلو متراً.. وبعد أن انتهت الحرب كانت الولايات المتحدة تعتقد ان حوالى ٣٠٠ صاروخ من هذه الصواريخ لم تطلق ولم يتم إعادتها إليها.. لذلك ظلت منذ بداية التسعينيات تطلب إعادة شرائها من الأفغان قبل ان تحصل عليها كل من إيران وكوريا الشمالية اللتين اعلنتا عن استعدادهما لشرائها.. إلا ان الأفغان احتفظوا بالصواريخ.. لكنهم لم يستطيعوا استخدامها لإسقاط الطائرات الامريكية فى حرب ٢٠٠١ بسبب إنتهاء فترة صلاحية البطاريات الخاصة بهذه الصواريخ والتى تتراوح بين عامين إلى ثلاثة أعوام.. فضلاً عن أن الأمريكيين كانوا - من باب الإحتياط لمنع اية تهديدات مستقبلية من هذه الصواريخ ضد الطائرات الأمريكية بعد انتهاء الحرب الأفغانية السوفيتية - قد احتفظوا لأنفسهم بالمخزون الاحتياطى من البطاريات البديلة لصواريخ ستينجر التى قدموها للأفغان.. فكانوا لا يصرفون البطارية البديلة للأفغان إلا بعد إنتهاء فترة صلاحية البطارية المستخدمة ومقابل الحصول على البطارية التي انتهت صلاحيتها.. اما الصواريخ التى استخدمتها طالبان فى إسقاط عدد من المروحيات الأمريكية اثناء حرب ٢٠٠١ فكانت من الصواريخ السوفيتية التى منحتها موسكو لحكومة د.نجيب الله.. فرغم ان صلاحية بطاريات هذه الصواريخ كانت قد انتهت ايضا فى أواخر التسعينيات إلا أن طالبان استطاعت الحصول على بطاريات بديلة لها سواء بالإستيلاء عليها من قوات التحالف الشمالى أو عن طريق سوق المهربين فى جمهوريات آسيا الوسطى.

٩٠ ـ جريدة «أهم الأخبار» الباكستانية ـ عدد ٢٠٠١/١١/٢٣ ص٤ ـ أحمد عبدالهادى من واشنطن.
٩١ ـ جريدة «أهم الأخبار» الباكستانية ـ عدد ٢٠٠١/١١/١٤ ص١
٩٢ ـ جريدة «الأهرام» ـ عدد ٢٠٠١/١١/١٤ ص٤
٩٣ ـ عدد ٢٠٠١/١١/١٩
٩٤ ـ ذكرت وكالة رويترز للأنباء يوم ١٦ نوفمبر ٢٠٠١ ان قرار الرئيس الأمريكي بوش بتشكيل محاكم عسكرية خاصة لمحاكمة غير الأمريكيين المتهمين بإرتكاب أعمال إرهابية أو المشتبه فيهم قد أثار موجة من الانتقادات الشديدة فى العديد من الدوائر السياسية اليسارية واليمينية فى الولايات المتحدة وكذلك بين أعضاء الحزبين الجمهورى والديمقراطى، حيث عبر باتريك ليهى رئيس اللجنة التشريعية فى مجلس الشيوخ عن مخاوفه من أن تنزلق تلك المحاكم إلى إصدار أحكام سريعة وقال إن من شأن ذلك أن يبعث برسالة سلبية إلى العالم الخارجى بأن الولايات المتحدة أصبحت تقبل بالمحاكم السرية والأحكام السريعة دون أى مراجعات أو إعادة نظر وبشكل خاص حينما يكون المتهم أجنبياً.. وتساءل عما إذا كان بوش سيعمل بشكل قانونى حينما يفوض المحاكم العسكرية صلاحيات محاكمة أشخاص جرى اعتقالهم فى الولايات المتحدة.. وقال ان المحاكم المدنية الأمريكية هى الأصلح لمحاكمة الإرهابيين والمشتبه فيهم.. كما انتقد قرار بوش أيضا النائبان الديمقراطى جون كونيرز والجمهورى بوب بار، وقالا ان المحاكم العسكرية ستخل بالدستور الأمريكى، إذ ستحرم المدعى عليهم من حقوقهم الأساسية، مثل حقهم فى مواجهة من يتهمونهم وحقهم فى أن تكون المحاكمة علنية.. وحذر كونيرز من أن قرار بوش يضع الولايات المتحدة على حافة كارثة تتعلق بالحريات المدنية.. فى نفس الوقت اعتبرت منظمات مدنية أمريكية قرار تشكيل محاكم عسكرية خاصة بانه اعتداء على الحريات المدنية.. وانتقد رالف نيس رئيس مؤسسة الطريق الأمريكى دعم المدعى العام الأمريكى جون اشكروفت لهذا القرار، وقال ان الفكرة ستفشل فى الحفاظ على قيم النظام القانونى الأمريكى.. وذكرت منظمة أخرى للحقوق الدستورية ان هذه المحاكم هدفها الإدانة قبل أى شيء آخر.
٩٥ ـ صحيفة «أهم الأخبار» الباكستانية ـ عدد ٢٠٠١/١١/٢٤ ص١
٩٦ ـ عدد ٢٠٠١/١١/٢٨ \
٩٧ ـ حصلت هيئة الإذاعة البريطانية على هذا الحديث عن طريق الإتصال بواسطة الأقمار الصناعية باحد مساعدى الملا محمد عمر فى قندهار وقدمت إليه الأسئلة.. ثم نقلها بدوره إلى الملا محمد عمر فى مخباه بواسطة جهاز لاسلكى محلى تم من خلاله أيضا نقل حديث الملا محمد عمر مباشرة وبصوته إلى استوديوهات الإذاعة البريطانية فى لندن.
٩٨ ـ صحيفة «أهم الأخبار» الباكستانية ـ عدد ٢٠٠١/١١/٢٠ ص٤.. وجريدة «الجمهورية» فى نفس اليوم ص٧
٩٩ ـ صحيفة «الأهرام» ـ ٢٠٠١/١١/٢٦ ص٥
١٠٠ ـ صحيفة «الجمهورية» ١٢/١/ ص٥
١٠١ ـ صحيفة «أهم الأخبار» الباكستانية ـ ٢٠٠١/١١/٨ ص٣
١٠٢ ـ صحيفة «المساء» ـ ٢٠٠٢/١/٦ ص٢ ـ بثينة حسن
١٠٣ ـ صحيفة «الجمهورية» ـ ٢٠٠١/١٢/١٥ ص ٦
١٠٤ ـ صحيفة «الجمهورية» ـ ٢٠٠٢/١/٧ ص٤
١٠٥ ـ صحيفة «الأهرام» ـ ٢٠٠٢/١/٤ ص٤
١٠٦ ـ قصدت فى الترجمة الإلتزام بالنص الحرفى قدر الإمكان حتى لو كان ذلك على حساب جودة الصياغة مما أدى فى كثير من الأحيان إلى الإسهاب وتكرار المعلومات ورداءة النص المترجم.. وذلك حتى أنقل للقارىء العربى النص الحرفى لبيانات الملا عبدالسلام ضعيف.
١٠٧ ـ المصدر: صحيفة الأهرام ـ عدد ٢٠٠٢/١/٢٢
١٠٨ ـ صحيفة «أهم الأخبار» الباكستانية ص٣ ـ مصطفى عبدالجواد
١٠٩ ـ نقلا عن ترجمة نشرت بصحيفة «الأهرام» ـ عدد ٢٠٠١/١١/١٧ ص٦
١١٠ ـ صحيفة «أهم الأخبار» الباكستانية عدد ٢٠٠١/١١/١ ص١
١١١ ـ صحيفة «أهم الأخبار» الباكستانية عدد ٢٠٠١/١١/١٥ ص٣
١١٢ ـ نقلاً عن جريدة «الجرائد العالمية».. عدد ٢٠٠١/١١/٢٧ ترجمة: سلوى يوسف
١١٣ ـ نقلاً عن جريدة «الجرائد العالمية».. عدد ٢٠٠١/١٢/٤ ترجمة: رنا على
١١٤ ـ نقلاً عن جريدة «الجرائد العالمية».. عدد ٢٠٠١/١١/٢٠ ترجمة: نيفين احمد

رقم الإيداع ١٣٤١٧ / ٢٠٠٣

الترقيم الدولى I. S. B. N– 977 - 236 - 410 - 7

شركة الاعلانات الشرقية - م دار « الجمهورية » للصحافة

المؤلف..

المحرر الدبلوماسى لجريدة الجمهورية.
بدأ الاشتغال بالصحافة عام ١٩٧٢.
التحق بجريدة الجمهورية عام ١٩٧٦.
تولى رئاسة تحرير عدد من المجلات والإصدارات الشهرية.
زار أكثر من ٣٠ دولة فى العالم.. حيث عايش أهم الأحداث الدولية، وغطى العديد من المؤتمرات والقمم السياسية.. وأجرى حوارات خاصة مع عدد من زعماء العالم الذين ارتبطت أسماؤهم بالأحداث التاريخية الهامة.. مثل: د. مهاتير محمد، وسليمان ديميريل، وعبدالرحمن واحد، ونواز شريف، وإندر كومار جوجرال، وياسر عرفات.. كما التقى بالزعيمين: جورباتشوف، وجيانج زيمين.

للمؤلف تحت الطبع
كتاب جديد:
ضياع الفرصة.. يوم
سقوط بغداد».

سعر:
خل مصر ٢٠ جنيها
ارج مصر ١٢ دولاراً
ما يعاد لها

